عادل حمودة
هيكل
الحياة
الحرب
الحب
هو وعبد الناصر
الفرسان

هيـــــــــــكل

الحياة · الحرب · الحب

هيكل
الحياة • الحرب • الحب

الكتاب الأول: هو وعبد الناصر

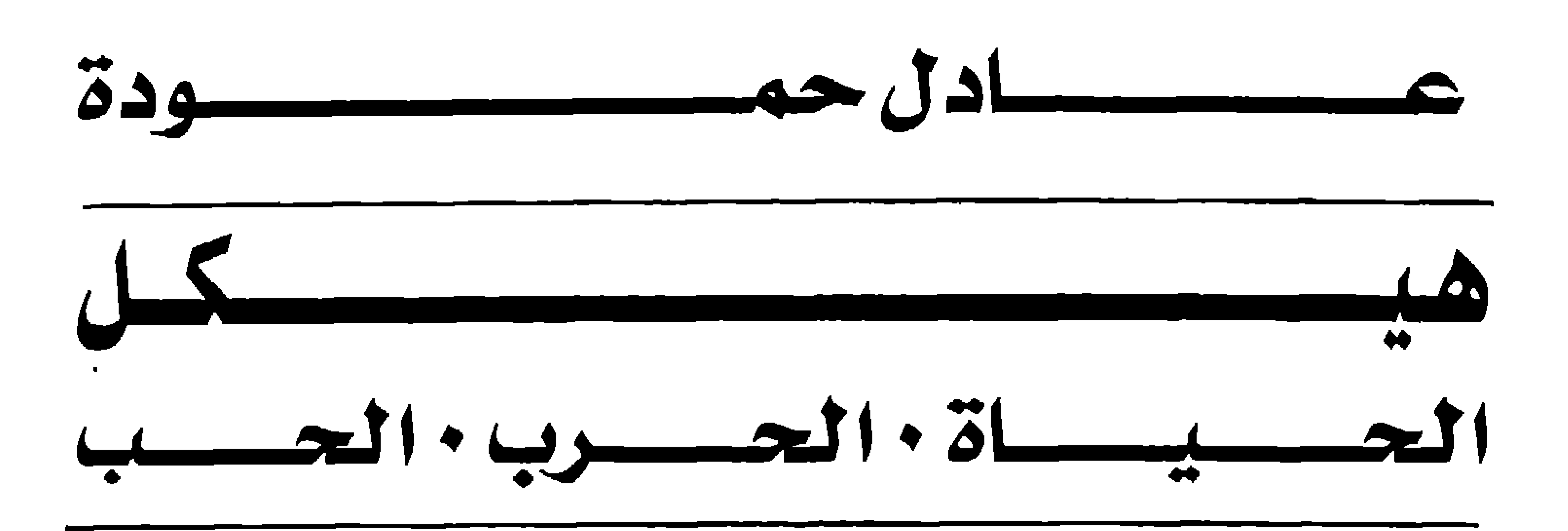
الطبعة الأولى: نوفمبر ٢٠٠٠

رقم الإيداع: ١٦٨٣١/ ٢٠٠٠
الترقيم الدولى: 977/5930/13/8

تصميم الغلاف: شاهر وهبة
الجمع التصويرى: جى. سى. سنتر
الطباعة : إنتر برس



٦٧ شارع العروبة - هليوبوليس ١١٣٦١ - القاهرة.
تليفون وفاكس: ٤١٧٢٠٢٨(٢٠٢) - ٤١٧٢٠٢١(٢٠٢)
إدارة التسويق: ٣ شارع محمد أنيس - الزمالك
القاهرة ت: ٧٣٨٣٨٨٧ - ٠١٢/٢١٥٧٤٦١



الكتاب الأول

هو وعبد الناصر



دار الفرسان للنشر

قبل أن نقرأ

هل حلقة الذكر فى حاجة إلى دراويش

■ ١٠ ■

يموت الصحفى بترك مصادره لا بترك مناصبه

■ بدا قرص الشمس متعباً.. منهكاً.. خائر القوى.. على وشك الانطفاء بعد يوم صيفى شاق .. حار .. أستيقظ فيه مبكراً .. كان قرص الشمس يحلم بالغطس فى مياه البحر المتوسط عند الساحل الشمالى الغربى.. على بعد ٨٠ كيلومتر من الإسكندرية.. كانت كل أمنيته فى تلك اللحظة أن تسرى البرودة فى وجهه المتفجر احمراراً وقد تحول إلى برتقالة دموية ساحرة.. وعندما أتيح له ملامسة الماء فقد مقاومته للنعاس.. وراح يشق طريقه للنوم فى فراش مصنوع من الأسماك الفضية اللامعة .. تشاركه فيه واحدة من جنيات البحر.

على مقعد ثابت.. عريض.. مصنوع من شرائط الخشب.. على الطراز المنتشر فى الحدائق العامة يحرص محمد حسنين هيكل على متابعة هذا المشهد الرومانسى الناعم للغروب الذى يشعرك أن الكون كله فى حالة صلاة.. وهو يتابع هذا المشهد ويندمج فيه يومياً فى أيام الصيف الطويلة التى يقضيها على شاطىء بيته البعيد عن القاهرة بحوالى ٢٥٠ كيلومتر.. فى قرية تسمى «الرواد» بناها عبدالحكيم عبدالناصر.. أحد أبناء صديق عمره جمال عبد الناصر.

ولا يتردد هيكل فى التعبير عن انزعاجه لضيوفه المقربين لو.. فاته هذ المشهد لسبب أو لآخر.. وهو ما حدث معى أنا شخصيا عندما رحت أطارده بأسئلة لا تتوقف.. جعلته لا ينتبه - إلا متأخراً - إلى أن الغروب قد فاتنا.. وأغلب الظن أن هذه مفاجأة لكل من يتصور

أن الكاتب السياسى هو قلم بلا قلب.. أو قلم بارد القلب.. أو أنه شخص مصنوع من الصلب والألمونيوم.. يثير المتاعب بدون مشاعر.. ويفضل العواصف على العواطف.. وهو خطأ شائع.

****

إن كثير من الكتاب السياسيين الكبار الذين مشوا فى طريق الصحافة ذاقوا جنة الأدب قبل أن يحترقوا بجحيم السياسة والصحافة.. هيكل نفسه واحد من هؤلاء.. فهو يحفظ ١٠ آلاف بيت من الشعر العربى.. ولا يتردد فى استخدام بعض أبيات حافظ إبراهيم وأحمد شوقى فى إجابته أو تعليقاته على بعض الأحداث أو المواقف الجارية.. كما أنه يهوى سيد درويش وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب والتواشيح الدينية والموسيقى الكلاسيكية التى تملأ مكتبه ويحركها فى مكتبه بالقاهرة بالريموت كنترول.. كما أنه يحرص فى كثير من الأحيان على حضور مهرجان «موتسارت» السنوى هو وزوجته.

وأتذكر أن الكاتب الساخر محمود السعدنى كان قد دعا مجموعة من السياسيين والصحفيين منهم الدكتور أسامة الباز (المستشار السياسى للرئيس حسنى مبارك) وإبراهيم نافع (رئيس تحرير الأهرام) والدكتور مصطفى الفقى (مدير مكتب الرئيس للمعلومات ثم سفير مصر فى فيينا ثم مندوب مصر فى الجامعة العربية) وأنا.. وعلى ضوء ليلة قمرية فى النادى النهرى للصحفيين المطل على النيل عند الجيزة، كان الحوار ساخناً متشعباً متداخلاً حول إسرائيل والسلام وإيران والسودان والخليج وشيخوخة السلطة فى العالم العربى.. وفى وسط هذه السخونة – التى عكست التناقض الواضح بين الصحافة والسياسة – فوجئنا بهيكل يطرى على ما كتبه محمود السعدنى عن مشاهير قراء القرآن فى مصر .. فى كتابه «ألحان السماء» .. ولم يتخيل محمود السعدنى رغم معرفته الوثيقة بأن هيكل يتابع كل ما يجرى حوله أنه يمكن أن تستهوية سيرة مشاهير القراء.. أو يمكن أن يستمع إليهم أو يعرف الفروق بينهم.. وساعتها عرفت أن أول كتاب حفظه هيكل هو القرآن الكريم.

وفى مناسبة أخرى عرفت أن هيكل يتابع أيضاً مشاهير النجوم فى الفن.. إن هناك مناسبة يحرص عليها هيكل فى كل رمضان وهى قبول دعوة إفطار لها مذاق خاص عند صديق بدأت علاقته الحميمة به فى السجن هو الدكتور ميلاد حنا.. وفى هذه الدعوة تجد عادل إمام ولينين الرملى وفاروق الفيشاوى.. ويحاول الفنانين من جانبهم جر هيكل إلى السياسة.. ويحاول هيكل من جانبه جرهم إلى الفن.. وبين الشد من هنا والجذب من هناك يكون الحوار مثيراً.. لكن أهم ما فيه هو أن هذا الكاتب السياسى الذى شغل الدنيا

متابعاً لما يجرى فى عالم الفن.. ربما بكل ما فيه من كواليس وشائعات ونميمة.. وهو ما يؤكد أنه نموذج مثالى للمخبر الصحفى الذى لا يفوته أى شىء يجرى فى المجتمع.. مهما كان بسيطاً أو صغيراً.

وأتذكر أنه قال لى بعد أن تركت مسئولية تحرير مجلة روز اليوسف: «لو كانوا قد عزلوك من منصبك الصحفى فلا تجعلهم يعزلونك عن مجتمعك ومصادر أخبارك».. إن الصحفى لا يموت لو ترك منصبه.. ولكنه يموت لو ترك مصادره.. ولهذا السبب يفضل هيكل لقب «الجورنالجى».. إنه الوصف الأثير له.. أما تلك الأوصاف التى أعطيناها لأنفسنا أو خلعناها على بعضنا البعض من نوع ووزن «الأستاذ الكبير» و«الصحفى الكبير» فكلها كما يقول هيكل بنفسه «فقاعات ملونة منفوخة بالهواء لا تصنع قيمة ولا تؤكد مكانة».. ويستطرد: «إن كل صحفى يجب أن يكون بالدرجة الأولى «جورنالجى» يتعامل مع الأخبار باعتبارها المادة الرئيسية لصناعته وهو يستطيع أن يحسن العرض ويجيد اللغة ويزيد فى التفاصيل ويهذب ويصقل ولكنه وهو يفعل ذلك لا ينبغى له أن ينسى مادته الرئيسية الأولى» (١)

لكن .. يبدو أن السلطة السياسية فى مصر لا تصدق أن «الصحفى» أو «الجورنالجى» يمكن أن يولد بعيداً عنها.. أو يمكن أن يعيش وينمو ويكبر ويزدهر لو خرج من رحمها أو رحمتها.. لقد أندهش الرئيس أنور السادات عندما عرف أن الزعيم الروحى الإيرانى «آية الله خمينى» استقبل هيكل فى ديسمبر ١٩٧٨ فى منفاه الأخير فى قرية «نوفل لو شاتو» القريبة من باريس والتى كان يقود منها أحداث الثورة على بعد ٣ آلاف كيلومتر من طهران.. وعندما عاد هيكل إلى القاهرة أكتشف – على حد روايته – أن السادات كان غاضباً «لأنى قابلت خمينى فى باريس.. فقد أحرجه أن يلتقى مصرى بآية الله الثائر على صديقه الشاه (محمد رضا بهلوى) وسأل واحد من معارفنا المشتركين (المهندس سيد مرعى) عن الصفة التى قابلت بها خمينى.. وكان رد «معرفتنا المشتركة» على الرئيس أننى قابلته بصفتى الصحفية.. وكان تعليق السادات فى ذلك الوقت هو قوله «هل نسى أننى أحلته على التقاعد؟».. وحين بلغتنى الملاحظة رجوت صاحبنا المشترك أن ينقل للرئيس «أنه ربما أحالنى إلى التقاعد من منصب ولكنه لم يحلن إلى التقاعد من مهنة».. ونقل إلى أنه لم يقتنع»..

إن ترك طبيب لمنصب مدير مستشفى ليس تركا لمهنة الطب.

بل أكثر من ذلك لا ترى السلطة السياسية فى مصر الصحفى أكثر من كونه موظفاً فى بلاطها أو فى أحد دواوينها.. مفروض عليه تنفيذ تعليماتها وتقديم التقارير

لهـــــا.. لقد كان الشاه فى أسوان بعد أن أقنعة الأمريكيون بمغادرة طهـران.. وراح هـو والسادات يبحثان خيارات التدخل العسكرى لإنقاذ عرشه.. عـرش الطـاووس.. أو علـى الأقل ينقذ مجوهرات التاج الإيرانى وهى ثروة تقدر بأرقام فلكية.. وكان السـؤال الـذى يشغل بال الشاه والسادات هو: هل يعود خمينى إلى طهران؟.. ما هى بالضبط نواياه؟.. وكان السؤال التالـى: هل يمكن معرفة هذه النوايا عن طريق هيكل الـذى كـان آخر من قابله؟.. وقال السادات للشاه: إنه وضع تقليدى يحتم على كل مصرى يقابل شخصا له أهمية فى الخارج أن يكتب تقريرا عما جرى بينهما فور عودته إلى القاهرة.

لم يكن هذا التقليد على ما يبدو قد وصل إلى علم هيكل أو كان مستعداً للتعامل معه.. لكنه فوجىء بالدكتور مصطفى خليل يتصل به من أسوان ليقول له: إن كل مصادر الأخبار هناك فى المدينة الجنوبية السمراء.. وأنه لا معنى أن يبقى عنده فى القاهرة.. واستطرد الرجل الذى وصل إلى منصب رئيس الوزراء: إن مقعدين قد حُجزا له ولزوجته على طائرة الرئاسة التى تسافر كل يوم من القاهرة إلى أسوان وتعود مساء كل يوم من أسوان إلى القاهرة.. ولعلها فرصة لإعادة المياه إلى مجاريها بينه وبين السادات.. تلك المجارى التى انقطعت بعد أن أخرجه السادات من الأهرام فى فبراير عام ١٩٧٤.. وكان المطلوب من هيكل أن يكتب «ورقة أو ورقتين» عن نوايا خمينى.. وكان رد هيكل: «إننى لم أتعود كتابة ورقة لأحد».. وأعتذر عن السفر.. «وأضيفت نقطة سوداء فى سجلى إلى نقاط سوداء سبقت منذ أن جرت مفاوضات فك الاشتباك وتوترت علاقتى بسببها مع السادات» على حد قول هيكل.

****

ربما ... كان الشىء الوحيد الذى يعوض هيكل عن مشهد الغروب الحريص عليه هو تدليله لأحفاده الذين يؤمن المصريون بأنهم «أعز الولد».. وهو يقول أنه «ضعيف جداً مع أولاده وأحفاده».. ولم أرى ضعفه مع أولاده.. فقد أصبحوا رجالا مستقلين بحياتهم.. لكننى رأيت ضعفه مع أحفاده.. وهو يرى أن تربية الأولاد مسئولية.. أما بالنسبة للأحفاد فالتعامل معهم متعة.. بدون مسئولية.. المسئولية يتحملها الآباء.. أبناؤه.

لقد أصبح هيكل جداً عندما أنجب أبنه «على» تؤما.. هما «محمد» و«هدايت» على اسمه وعلى اسم زوجته.. ثم جاء «منصور الذى لا يكف عن اللعب.. ولا يعبأ كثيراً بملاحظات جده.

لكن.. لو كنت مكانى.. لتوقفت عند هيكل وهو يدلل حفيدته الصغرى «نادية» التى تبدو أنها قادرة على أن لا يرد لها طلبا.. كما أنها قادرة على اقتحام خلوته الصيفية

وهويقرأ أو يكتب أو يناقش زواره فى السياسة.. ولعل هذا ما جعلنى أصفها بأنها «سوبر باور» أو «القوة العظمى» فى حياته الآن وقد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره.. وقد أسعده التشبيه.. فأعاده على مسامع جدتها.. السيدة هدايت على تيمور.

إن هيكل الذى يبدو فى الصورة التى تُنشر له جاداً.. جامداً.. هو إنسان ضعيف جداً أمام الأطفال.. ليس عنده أروع من الجلوس لطفل ومناورته.. إن الطفل هو الإنسانية فى لحظة براءتها الأولى قبل أن تقطف هذه البراءة خبرة الحياة وصراعاتها.. وقد اكتشف هيكل العالم ثلاث مرات.. مرة بنفسه.. ومرة من خلال أولاده.. ومرة من خلال أحفاده.. هو يقول: «إنه من خلال رؤية عيون طفل يضع الإنسان يده على الفوارق بين الأجيال».

وقد لمس هيكل هذه الفوارق عندما جلس توفيق الحكيم إلى أبنه «على» يمتحنه بطريقة الفوازير.. سأله: «من يعبر البحر ولا يبل»؟.. رد «على» بفوريه وعفويه» «واحد راكب طائرة» ..قال الحكيم: «خطأ.. العجل فى بطن أمه».. بعدها سكت الحكيم متأملاً.. ثم عاد يقول: «الله هذا حقيقى يا على».. ثم ألتفت إلينا ليقول: «الدنيا تغيرت».

وهذه الفوارق يمكن لمسها أيضاً فى علاقة توفيق الحكيم نفسه بابنه إسماعيل الذى كان يهوى ويحترف الموسيقى الغربية.. إن الحكيم الذى عُرف عنه البخل لم يرض أن يمنح إسماعيل ١١ ألف جنيه لتشكيل الفرقة التى عرفت باسم «بلاك كوتس» أو «المعاطف السوداء» .. وكان ذلك فى بداية السبعينات.. لكن إسماعيل وجد طريقة ذكية لإقناع والده بالدفع.. فكان يذهب إليه كل ليلة ليعطيه ٢٠ جنيها ويزعم أنه كسبها من عمل موسيقى مع صديق له.. وتكرر الأمر عدة مرات حتى قال لوالده: كما ترى فالعمل فى الموسيقى يكسبنى ٢٠ جنيها فى اليوم فما بالك لو عملت فرقة موسيقية كاملة.. سأربح بين ٣٠٠ أو ٤٠٠ جنيه يومياً.. فاقتنع الحكيم وأقرض ابنه ما أراد.. لكن إسماعيل أخذ المبلغ وقاطع والده.(٢)

ويستطرد هيكل: إنه حاول أن يُنهى القطيعة بين الحكيم وابنه فاستدعى الحكيم إلى مكتبه بعد أن كتب شيكا بخمسة آلاف جنيه باسمه ووضعه على المكتب.. وابلغ الحكيم أنه يرغب فى مرافقته لعمل تحقيق صحفى من الدرجة الأولى عن الحفلة الموسيقية التى سيحييها ابنه إسماعيل ولما تذمر الحكيم وأعلن رفضه للمهمة قال له هيكل: خسارة... إذن سأعيد الشيك للإدارة.. فتساءل الحكيم: أى شيك.. فأجابه هيكل: هذا الشيك بخمسة آلاف جنيه أعددته لك كبدل عن هذه المهمة وإن لم تكن راغبا فى أدائها فلا حاجة له.. فتردد الحكيم وتساءل عن المهمة المطلوب منه بالضبط؟.. فقال له هيكل: تذهب وتحضر حفل إسماعيل وتصف وتكتب ما ترى وما تسمع.. وبعد أن تظاهر الحكيم بأنه يفكر فى الأمر

تساءل عن مصير الشيك.. ثم تناوله وانصرف.. وفى المساء حضر هيكل والحكيم حفل إسماعيل معا.

* * * *

على شاطىء البحر يبدو هيكل مختلفا.. فهو يرتدى الثياب القطنية المتحررة «كاجوال» ومعها صندال خفيف.. وساعة يد بلاستيكية «سواتش».. وشاطىء البحر قد يكون فى الساحل الشمالى.. حيث مقره الصيفى.. أو فى الغردقة على البحر الأحمر فى الشتاء.. حيث يملك بيتا هناك يقضى فيه فترات متقطعة.. أما نهاية الأسبوع التى تبدأ من بعد ظهر كل أربعاء وتمتد حتى فجر السبت فيقضيها فى بيته الريفى فى «برقاش» القريبة من القاهرة.

وفى ظنى أن هذه الصورة المختلفة التى يبدو فيها هيكل وهو بعيدا عن مكتبه ستكون مفاجأة لكل من لا يراه إلا فى القاهرة.. حيث يحرص على ارتداء الملابس الكاملة التى تسيطر عليها الألوان الكلاسيكية مثل الرمادى والأزرق الداكن دون تفرقة ملموسة بين الصيف والشتاء.. وهو يرتديها وهو فى مكتبه عندما يكتب أو يقرأ أو يحاور ضيوفه.. أو هو فى زياراته العائلية أو عندما يدعو أحد لتناول الطعام فى بيته.. أو عندما يستجيب لدعوات العشاء التى لا يأكل فيها.. فقد حرص منذ سنوات طوال على أن لا يتناول الطعام بعد أن ينتهى من وجبة الغذاء.. نوعا من الصرامة فى التعامل مع الجسم البشرى.. أو نوعا من الصيانة له.. ولذلك يبدو هيكل دائما مشدوداً.. رشيقاً .. أقل من من عمره.. وأكثر حيوية وقدرة على العمل والحياة.

وقد رأيته بنفسى وهو غير قادر على مقاومة قطعة من حلوى «البابـاه» فى حفل إستقبال وعشاء أقامه على شرف الدكتور إدوارد سعيد.. المثقف والمفكر الفلسطينى الشهير وأستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا الأمريكية الذى بدا شاحبا بتأثير اللوكيميا أو سرطان الدم.. كان الحفل فى نادى العاصمة بجاردن سيتى .. وحضره حوالى ١٠٠ شخصية لامعة فى الصحافة والسياسة والدبلوماسية فى مصر.. وكانت من المرات النادرة التى دعا فيها هيكل أحداً على العشاء خارج بيته.. فالعادة أن تكون مثل هذه الدعوات فى بيته المطل على نيل القاهرة.. وقد كان حريصا على أن ينتقل بين ضيوفه مهتما ومجاملا.. ونجح ليلتها فى قهر أصناف الطعام الشهية إلا قطعة «الباباه» «الشريرة».. لم يستطع أن يهرب من سحرها وجاذبيتها ولونها الخمرى اللامع بعسل النحل.. فكان أن قطعها بالسكين وتعامل مع نصفها فقط.. وأغلب الظن أنه شعر فيما بعد بالندم.

وعلى شاطىء البحر أيضاً يتخلص هيكل من برنامجه اليومى الذى يحرص عليه

بصرامة.. فهو على الأقل لا ينهى سهراته كما فى القاهرة فى الحادية عشرة مساءاً ليدخل فراشه قبل منتصف الليل ليقرأ قليلاً قبل أن يغرق فى النوم.. لكنه حتى وهو فى المصيف لا يتردد فى ممارسة رياضة الجولف يومياً.. وهى رياضته المفضلة بعد التنس.. وهى أول ما يفعل فى صباح يومه.. لقد كان يمارسها فى نادى الجزيرة بالقاهرة.. ثم انتقل إليها فى ملاعبها الحديثة فى القطامية.. أما فى الإسكندرية فليس أمامه سوى نادى سبورتنج الذى يقطع الطريق الطويل إليه وهو يقرأ الصحف والمجلات المصرية.. وغالبا ما يحمل فى سيارته كتابا أو يحمل صحفا عربية وأجنبية لأن الطريق أطول من المدة القصيرة التى تحتاجها الصحف المصرية.

وفى العادة يستيقظ هيكل فى الخامسة صباحا.. ويمارس الجولف لمدة ساعة ونصف الساعة.. وهو يعتقد أن للجولف مزايا عديدة.. منها أن الإنسان يبدأ يومه بين الخضرة.. وهى بداية صحية فى جو نقى.. وبعد الجولف يعود لتناول إفطاره.. ليكون على مكتبه فى تمام الساعة الثامنة والنصف.. ولمدة ثمان ساعات دون انقطاع.. وبلا إزعاج.. مستقبلاً ضيوفه.. أو غارقاً فى كتاباته حتى موعد الغذاء.

لقد ألزم هيكل نفسه بالنظام منذ وقت بعيد.. لأن كل إنسان على حد قوله يتحرك فى زمن محدد.. فى يوم مساحته ٢٤ ساعة.. وأمامه مهام لا حدود لها.. عليه القيام بها.. ولو لم يحسن استغلال هذه الرقعة من الزمن من خلال تنظيم جيد فإنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً. (٣)

ويذكر هيكل أن أغلب من عمل معهم أو عملوا معه كانوا يشكون من النظام الذى يتبعه.. وهو يعتقد أن النظام ليس مهما فى الصحافة فقط ولكن فى الفن والخلق الأدبى وفى أى شىء آخر.. والمثال الحاضر الذى لا يضربه هيكل هو نجيب محفوظ الذى يمشى يومه كالساعة.. ويكتب رواياته فى مواعيد يوميه ثابتة منتظمة.. وربما لهذا السبب هو أكثر الأدباء إنتاجاً.. ولو كان النظام فى الأدب سنة فهو فى الصحافة فرض.. لماذا؟ .. يجيب هيكل: «لأنك مرتبط بلحظة معينة.. لابد أن تذهب فيها الجريدة إلى المطبعة لتدور الماكينات.. إذن فأنت مقيد بلحظة نهاية محددة.. كأنه توقيت معركة ينبغى أن تكون كل عملياتك مرتبة من قبل بحيث تصبح الجريدة معدة فى لحظة معينة» .. «فضلا عن هذا.. أنا واحد من الناس يعتقد أن التكريم الحقيقى للوقت هو أن تشغله بما هو مجد وما هو نافع وإلا لن يكن ما تفعل تضييع وقت.. بل تضييع حياة.. أو تضييع عمر فى النهاية». (٤)

بجانب النظام اليومى والغذائى الصارم يحافظ هيكل على نفسه وعلى استمراره بالرياضه البدنية.. وهو يقول: «أنا واحد من الناس المعتقدين أن جسم الإنسان هو الوعاء

الذى يضم كل الحواس وكل الملكات.. إذا لم تقم بجزء من الجهد البدنى العضلى المتمثل فى الرياضة بالدرجة الأولى فإنك ستفقد شيئاً ضرورياً للياقة الإنسانية». (٤)

وهكذا .. بدأ هيكل مشواره مع الرياضة بالتمرينات السويدية.. ثم لعب التنس وتعلم منه رد الفعل السريع والقدرة الخاطفة على اتخاذ القرار.. ورد الهجوم.. وبعد أن ترك موقعه فى رئاسة تحرير الأهرام أنتقل إلى الجولف.. شعر أن التنس لم يعد يناسبه.. «ربما لأننى لم أعد أحتاج سرعة رد الفعل .. ربما أصبح لدى وقت أطول». (٥)

* * * *

إن هذه المشاهد الإنسانية البسيطة والعابرة وربما المجهولة أيضاً قد تساعد فى كشف مناطق الظلال فى شخصية صحفى وكاتب سياسى كبير عاش حياته على برميل بارود ساخن.. لكنه رغم ذلك عرف كيف يحافظ على نفسه وعلى لياقته النفسية والبدنية والعقلية.. وعرف كيف ينجح ويستمر فى نجاحه رغم تغير الظروف والمواقع ومصادر القوى.. وعرف كيف يدير معاركه وينتصر فى أغلبها.. عرف قيمة الأشياء الصغيرة فى صياغة وصناعة الأحداث والتحولات الكبيرة.. وهى موهبة كل من يعرف كيف يظل قائما ثابتاً رغم الزلازل والهزات الأرضية تحت قدميه.

هذه المشاهد قد تساعدنا فى كشف سر رجل شغل الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمن.. وحقق شهرة عالمية فى مجاله لم يصل إليها غيره فى العالم العربى ممن يخدمون فى بلاط الكلمة.. أو فى بلاط الصحافة الذى اصطلح الناس على وصفه ببلاط صاحبة الجلالة.. إنه واحد من أشهر ١١ كاتبا صحفيا على مستوى العالم.. وتترجم كتبه فى كثير من الأحيان إلى ٣١ لغة مختلفة.. وتنشر مقالاته بلغات متنوعة.. من الإنجليزية إلى اليابانية.. وتبث وكالات الأنباء تصريحاته وتوزعها على أربعة أنحاء الكرة الأرضية.. وفى الدراسات الأكاديمية فى الجامعات المصرية والتونسية والفرنسية والأمريكية العديد من رسائل الماجستير والدكتوراة عنه وأغلبها يحاول أن يجيب على السؤال الصعب.. كيف استمر ناجحا متألقا فى أكثر من عصر؟.. كيف بقى هو وخرج من واقع الجغرافيا إلى ذمة التاريخ معظم من كان معهم طوال أكثر من خمسين سنة؟.. ولكن رغم تكرار السؤال على مستوى الرسائل الجامعية إلا أن الإجابة عليه لم تكن شافية أو وافية أو كافية.

وقد كان هيكل ولا يزال مثار جدل حاد وعنيف.. ومثار إنقسام واضح يصعب أن يلتئم أو يقترب.. فهناك من يرفعه إلى السماء.. وهناك من يراه مسئولا عن الكثير من خطايانا السياسية والصحفية.. والحقيقة أن طول الزمن كان دائما فى صالحه.. إن قصر الزمن لم يكن فى صالح جمال عبد الناصر فمات قبل أن ينفذ خطته فى تحريرالأرض المصرية التى

أُحتلت بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .. ولكن.. بالنسبة لهيكل كان طول الزمن كفيلاً بتوضيح واثبات الكثير مما كان سببا فى الهجوم عليه.. كما أن طول الزمن الذى أطاح بكثير من خصومه السياسيين والصحفيين، منحة فرصة لأن تزداد مساحات الضوء فى حياته وأعماله ومن ثم تراجعت مساحة الظلام والظلال.

أيضاً فإنه كان هدفاً لحملات سياسية وصحفية شرسة وشائعات كانت قادرة على تدمير غيره وصور خاطئة حاول من سعى لاختراعها أن ترتدى ثياب الحقيقة.. فى وقت كان هو فيه وحيدا.. فى العراء.. لا يملك قوة النيران التى تملكها الأطراف الأخرى.. كذلك فإنه كان طرفا فى معارك من النوع الثقيل بينه وبين السلطة أحياناً وبينه وبين خصومه دائماً.. ثم والأخطر أنه وجد نفسه معرضاً لضغوط وتحقيقات سياسية لمدة ٤٤ ساعة على مدى ١١ جلسة تحاسبه على أفكاره وكتاباته بأثر رجعى أمام المدعى العام الأشتراكى فى عهد الرئيس أنور السادات.. ثم كان أن وجد نفسه معرضاً لتجربة السجن المؤلمة لمدة ٩٠ يوما فى الزنزانة رقم (١٤) تحت مسئولية ورقابة من الشاويش عبد الجبار إلى الشاويش عبد التواب فى حملة اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١ الشهير التى انتهت بحادث المنصة واغتيال السادات وتغيير نظام حكمه.

الهوامش

(١) رسالة هيكل إلى سمير صبحى فى مقدمة كتاب «الجورنالجى» القاهرة – ١٩٩٨ – ص ١١.

(٢) حوار هيكل مع أسرة تحرير جريدة « السفير» البنانية فى صيف ١٩٩٨.

(٣) خالد توحيد – مجلة «الأهرام الرياضى» – ٢٥ نوفمبر ١٩٩٤ – العدد ٢٥٦ – ص ٢٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

■ ٢ ■

من الاهتمام بما يعرف إلى الاهتمام بما يفكر فيه

■ «إن هيكل هو أهم شخصية أثرت فى مقدرات الشرق الأوسط وعلى أوسع وأشمل مدى لمدة عشرين سنة كاملة» .. هكذا .. يعترف صديق قديم لهيكل أنقلب عليه وأصبح خصماً له وراح يهاجمه بضراوة هو الكاتب الصحفى ناصر الدين النشاشيبى. (١)

لقد جاء النشاشيبى مهاجراً من القدس ليعمل فى ظل المد القومى والناصرى فى الصحافة المصرية .. وقد عُين واحداً من رؤساء تحرير جريدة «الجمهورية» ـ المعبرة عن ثورة يوليو بطريقة مباشرة والتى صدر ترخيصها باسم جمال عبد الناصر ـ فى سباقة لم تحدث من قبل .. وكان النشاشيبى صديقاً لكل نجوم الصحافة المصرية .. لكن بمرور الأيام وتغير القوى انطبق عليه المثل اليابانى القائل «إن الصديق هو عدو تحت التمرين» .. وانطبق عليه قول جمال عبد الناصر «اللهم أحمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم» .. فبعد أن أصبح النفط حاكماً يملأ معظم الأقلام بدلاً من الحبر انقلب النشاشيبى على هيكل وعلى باقى أصدقائه القدامى فى الصحافة وراح يُشهر بهم فى الصحافة العربية الممولة من دول النفط التى نقلت الصحافة من عصر الطهارة إلى عصر «موبيل أويل».

إن النشاشيبى لم ينتظر طويلاً بعد خروج هيكل من الأهرام ليفتح النار عليه فى سلسلة مقالات نشرها فى مجلة «الحوادث» اللبنانية (٢) بدأت فى ١٠ مايو ١٩٧٤ بعد أقل من شهرين على ترك هيكل موقعه .. فى العدد ٩١٣ وما تلاه .. كان عنوانها الرئيسى «ماذا فعل هيكل بالسجين مصطفى أمين .. وماذا فعل على أمين بالطريد هيكل؟» .. وفى

هذه المقالات أتهم النشاشيبى هيكل بأنه كان وراء قانون تنظيم الصحافة كى يسيطر على المهنة .. وأنه هو الذى قام بنفى على أمين إلى لندن .. وأنه تخلى عن مصطفى أمين وعلى أمين بعد القضية التى أُدين فيها مصطفى أمين بتهمة التجسس لحساب المخابرات المركزية الأمريكية .. وأتهمه بأنه كان يزور مصطفى أمين فى السجن لمجرد التشفى فيه .. وأنه وجد عملاً فى الأهرام لأبنته كى يتظاهر أمام الناس لا اقل ولا أكثر .. ثم زاد العيار مع قرب نهاية السلسلة ليصبح هيكل هو الذى تواطأ على مصطفى وعلى أمين .. ثم كان أن انتهت السلسلة بأنه هو الذى لفق التهمة لمصطفى أمين.

وقد جمع هيكل هذه السلسلة من المقالات فى ملف واحد .. وضعه فى أحد الأدراج وأعتبر الأمر من جانبه منتهياً .. ولكن .. فيما بعد .. بعد حوالى ١٠ سنوات قام هيكل بالرد الموثق فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» الذى أصر على أن ينشره وكل الأطراف الأخرى على قيد الحياة ..

على أن ما يهمنا هنا أن النشاشيبى الذى كان من أشد المهاجمين على هيكل لا يتردد فى الاعتراف بالمكانة التى وصل إليها هيكل ..

فهو ينقل على لسان شكرى القوتلى الزعيم السورى الذى طالب بالوحدة بين مصر وسوريا فى عام ١٩٥٨ وكان يوصف بالمواطن الأول أنه قال فى دمشق فى نفس عام الوحدة:

«أنا يهمنى أن أعرف هيكل جيداً وأن تكون علاقتى معه جيدة وأن تكون فكرته عنى جيدة لأن ذلك سيفتح لى قلب الرئيس عبد الناصر ويساعدنى على أن أحل مشاكل الإقليم السورى أو الإقليم الشمالى». (٣)

ويواصل النشاشيبى شهادته:

«وكنت فى الغرفة المجاورة لمكتب هيكل فى دار الأهرام القديمة فى شارع «مظلوم» بوسط القاهرة عندما جاء الملك حسين ومعه رئيس وزرائه وصفى التل (الذى قُتل فيما بعد فى القاهرة برصاصات فلسطينية) .. جاءا يزوران هيكل فى مكتبه بناء على وساطة حثيثة مستمرة قام بها سفير الأردن فى القاهرة يوم ذاك مدحت جمعة .. وسمعت المرحوم وصفى التل يحاول استرضاء هيكل ويعده بفتح صفحة جديدة معه وأنه سيكون عند حسن ظنه دائماً». (٤)

ويواصل النشاشيبى شهادته:

«وكنت أرى السفراء والوزراء ينتظرون عند السيدة نوال المحلاوى سكرتيرة هيكل لمدة ساعات لعل الفرج يأتى ويفتح أمامهم باب ... الآلهة.

وكنت أرى هيكل يسمح لنفسه بأن يطرد من مكتبه رؤساء وزارات وكبار الصحفيين العالميين بحجة أن جرس التليفون الأبيض (وهو التليفون الخاص الموصل بينه وبين جمال عبد الناصر وكان يرن كصوت العصفور) قد بدأ يدق .. ومعنى ذلك أن الرئيس «على الخط» وأن الحديث يجب أن لا يسمعه زائر غريب مهما علا منصبه أو ارتفعت قيمته.

«وكنت أرى السيد «هارولدبيل» سفير بريطانيا العظمى جالساً فى مكتب سكرتيرة هيكل ينتظر الإذن بالدخول وقد مضى على وصوله أكثر من ساعة لا يستطيع معها أن يدخل لأن هيكل مشغول .. ولا يستطيع السفير أن يشعل سيجارة لأن سكرتيرة هيكل تكره رائحة الدخان»(٥) وقد سأل النشاشيبى السفير البريطانى عن سر قبوله لهذا الوضع الذى وصفه بأنه مذل فأجابه بالطريقة العصبية المعروفة عنه «مش مهم .. إذا كان نجاحى كسفير لبلادى فى مصر يتوقف على مزاج هيكل فأنا مستعد أن أراعى له هذا المزاج وأنتظر بدل الساعة ثلاثة ساعات وأكثر».

ويستطرد النشاشيبى:

«لقد صحبت هيكل ذات ليلة ـ لوحدنا ـ لحضور حفل أم كلثوم فى ناد من نوادى الضباط بمصر الجديدة .. وغنت أم كلثوم حتى أبدعت وأشجت وأطربت .. وفى فترة الاستراحة أخذنى هيكل من يدى ودخل بى إلى خلف المسرح حيث كانت تجلس أم كلثوم وما أن رأته حتى هبت واقفة وهى تقول:

«أهلا بالدنيا كلها .. أهلا ياسيدى».

«ورنت كلمة «سيدى» فى أذنى.

«ثم التفتت أم كلثوم نحوى وقالت وهى تصافحنى: الأغنية التى فاتت كانت للجمهور .. إنما الأغنية الجاية ستكون لمستمع واحد فقط هو محمد هيكل»(٦).

ويواصل النشاشيبى: «وفى لندن التقيت منذ أعوام بالسيد نديم دمشقية سفير لبنان فى بريطانيا الذى كان قد عاد لتوه من القاهرة وسألته إذا كان قد قابل الرئيس جمال عبد الناصر فأجابنى على الفور: لا .. وإنما قابلت هيكل .. هيكل يكفى.

« وذات مرة كان الصديق كمال رفعت سفير مصر فى لندن يحدثنى عن ظروف تعيينه فى هذا المنصب وقال بالحرف الواحد: فى شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ استدعانى الرئيس

أنور السادات وقال لى: أريد أن تختار بين منصب سفير مصر فى لندن أو فى باريس .. فاخترت لندن(٧) ثم ذهبت أودع هيكل وسألته عن الشائعات القائلة بقرب تعديل وزارى قادم .. فأجابنى هيكل بالإيجاب .. وذكر أمامى أسماء الوزراء الجدد قبل أن تعلن الأسماء بأكثر من ١٠ أيام وسألته إن كان متأكداً من الأسماء التى ذكرها فقال ضاحكاً: لو أنا غلطت تبقى من نصيب الشخص الذى ذكرت لك أسمه .. إنه فى هذه الحالة سيصبح وزيراً»(٨).

ويعود النشاشيبى للوراء ليحدد عمق مكانة هيكل فيروى أن هيكل اختلف مع وزير الإرشاد وعضو مجلس قيادة الثورة صلاح سالم .. وكان هيكل رئيس تحرير «آخر ساعة» .. وقد طلب منه صلاح سالم أن يحذف من إحدى صفحات المجلة خبر معيناً وإلا فإنه سيصادرها عند نزولها إلى السوق مباشرة .. ودار بين الإثنين الحوار التالى على مسمع النشاشيبى:

صلاح سالم: يجب أن تنزع الخبر المذكور من المجلة وإلا فسأصادرها.

هيكل: لن أحذف شيئاً .. وستصدر المجلة وبداخلها الخبر .. وأنا أتحداك أن تأمر بمصادرتها.

«وصدرت المجلة وبها الخبر ولم يجرؤ صلاح سالم وزير الإرشاد وأحد كبار الضباط الأحرار وصديق جمال عبد الناصر وشقيق جمال سالم وعضو مجلس قيادة الثورة أن يفعل شيئاً .. وانتصر هيكل». (٩)

****

إن علاقة هيكل المتينة بجمال عبد الناصر هى أبرز أسباب قوة هيكل التى بدت على هذا النحو والى جعلت بعضاً لا يستهان به يؤمن بأن هيكل كان «شريكاً» فى حكم عبد الناصر .. إذا لم يكن بالتدبير .. فعلى الأقل بالتفكير .. بالتفسير .. ولا نقول بالتبرير .. ومن هنا كان الوصف الذى ألتصق بهيكل مدة طويلة حتى رافقه كظله بعد وفاة عبد الناصر .. وصف «الصحفى الأوحد» .. لكن .. ليس من الإنصاف أن نُرجع قوة هيكل فقط لهذه العلاقة غير المسبوقة فى مصر بين صحفى ورئيس وزعيم كبير مثل عبد الناصر .. فمثل هذه العلاقة كانت متاحة لعدد آخر من نجوم الصحافة .. إحسان عبد القدوس .. حلمى سلام .. أحمد بهاء الدين .. مثلاً.

من الإنصاف أن نعترف بموهبة هيكل الصحفية .. وقدرته الفائقة على تنميتها .. وبحساسيته فى التعامل مع الظروف.. والأشخاص.. وبالتحكم فى تحديد المسافات بينه وبين الآخرين.. وبسرعته فى تنمية أدواته المهنية والإنسانية.. والتعامل مع الواقع حتى ولو بدا مترفعا عنه فى كثير من الأحيان.. وبراعته التى يحسد عليها فى أن يظل على القمة مهما تغيرت الظروف.. وإلا كان قد أنتهى بموت عبدالناصر.. أو بخروجه من نظام السادات.

إن الذين اختصروا هيكل فى علاقته بعبد الناصر.. لم يظلموه.. بقدر ما فشلوا فى تفسيره.. وتقييمه.. وفحص عناصر قوته.. ونقاط ضعفه.. وهذا الخطأ فى التقدير جعل خصومه يفشلون ويحترقون ويذهبون.. وجعله هو باقيا.. قادرا.. مستمرا.. إنهم تفرغوا للتشهير به بينما تفرغ هو للتأمل والتفكير والتأليف.. وفى كل الأحوال فإنه لم يفقد طريقه الأساسى.. عموده الفقرى .. الصحافة.

لقد ظل هيكل حديث العالم سنوات طوال بعد رحيل عبد الناصر.. ولعل ما قاله أنتونى ناتنج وزير الدولة الأسبق للشئون الخارجية فى حكومة أنتونى إيدن لهيئة الإذاعة البريطانية فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٨ يثبت ذلك.. قال: «عندما كان هيكل قرب السلطة كان الكل يهتم بما يعرف.. وعندما ابتعد عنها تحول اهتمام الكل إلى ما يفكر فيه».

وعندما أصدر هيكل أول كتاب فى مجموعة كتبه عن «حرب الثلاثين سنة» تلقى خطابا من السير «ستيفن رانسيمان» أستاذ التاريخ الأشهر الذى حقق لنفسه مكانة فريدة حين جلس على كرسى (مادة) التاريخ فى جامعتى كامبريدج وأكسفورد معاً رغم المنافسة التقليدية بين الجامعتين.. جاء خطاب رانسيمان مع واحد من أصدقاء هيكل المقربين هو «نديم دمشقية» الذى كان سفيرا للبنان وعميداً للسلك الدبلوماسى العربى فى بريطانيا لمدة طويلة.. «كان دمشقية فى زيارة لجامعة أكسفورد فى إحدى المناسبات والتقى المؤرخ البريطانى الشهير ووجده يحدثه عن كتاب هيكل الذى فرغ من قراءته».. ويستطرد هيكل: «وحين قال له إنه وأنا أصدقاء عمر رجاه أن يكون رسولا يحمل إلىّ خطابا منه ومعه هدية أضعها باعتزاز فى مكتبى هى دراسته العظيمة التى تقع فى ثلاثة أجزاء عن «الحروب الصليبية» والتى تعتبر بحق أهم ما كُتب عن هذه الحروب التى كانت واحدة من المعالم البارزة فى التاريخ الإنسانى وما يؤثر فيه من صدام الحضارات».

«كان خطاب السير رانسيمان بالغ الرقة.. فياضاً فى كرمه.. وكانت سطوره على النحو التالى:

«عزيزى....

«لقد فرغت قبل أيام من قراءة كتابك الأخير وكنت أبحث عن وسيلة أتصل بها بك. ولسعادتى قابلت السفير دمشقية. ومن خلال حديثى معه عرفت أنكما أصدقاء. وقد بعثت إليك بكتابى عن الحروب الصليبية ولست أعرف إذا كنت قد أطلعت عليه. فإذا كان الأمر كذلك فلا أظنك تمانع أن تكون لديك نسخة مكررة منه. كتب لك مؤلفه إهداء بخطه تحية لك.

«إننى قرأت كتابك وتصورت كم كان يمكن أن يختلف كتابى وكتب كثيرين من الذين عنوا بكتابة التاريخ غيرى لو أنه أتيحت لنا جميعاً رواية شاهد عيان عاش وقائع الأحداث التى تتعرض لها ثم فعل ما فعلت أنت وسجل لنا ما رأى...

«ولا أخفى عليك أننى أحسدك على تجربتك التى أعطتك الفرصة لتعيش التاريخ وتكتب عنه أيضا...

«هناك قول شائع لعلك تتذكره وهو يقول: «إن التاريخ له آذان ولكن ليس له عيون».. بمعنى أننا نسمع روايات عما جرى من وقائعه منقوله لنا بالسمع والتواتر عن هذا وذاك من الناس ومعظمها مكتوبة بأثر رجعى يخلط الوهم بالحقيقة إلى درجة تتركُنا مع نوع من الفلكلور الأسطورى يعذبنا كثيرا فرزه إذا كان ذلك الفرز ممكنا على الإطلاق. وصحيح أننا نصادف فى بعض المرات وثائق مكتوبة... ولكننا نجد أنفسنا حائرين أمامها لا نستطيع أن نقدر بالضبط أصالتها وظروفها ومدى تعبير ما فيها عن الواقع كما جرى.

«ولقد كان ما أثار اهتمامى فى تجربتك هو أن التاريخ عندك له آذان وله أيضاً عيون وهذا تجربة أتمنى لو أناقشها معك إذا خطر لك يوما أن تعود إلى أكسفورد». (١٠)

****

بل وصل الأمر فى تصور وتقدير أهمية ومكانة هيكل إلى حد أن هناك من رشحه لرئاسة الجمهورية فى مصر.. ففى حوار نشرته مجلة «الوطن العربى» فى ٢ مارس ١٩٧٧ سألته الصحفية اللبنانية هدى الحسينى: «هل كنت مرشحاً لرئاسة الجمهورية خلفا لعبد الناصر بعد وفاته؟.. وهل تعد نفسك حاليا لرئاسة الجمهورية؟».

كان السوال مفاجأة بكل المقاييس.. فهى المرة الأولى التى نسمع فيها عن ترشيح صحفى لرئاسة دولة فى العالم العربى .. حيث السلطة بالمواريث الملكية .. أو بالقوة العسكرية .. وعلى حد علمى لم يحدث سوى مرة احدة أن أصبح صحفيا فى السلطة

العليا هو يفجينى بريماكوف الذى كان مراسلا لصحيفة البرافدا السوفيتية فى القاهرة.. وقد تولى رئاسة الحكومة لفترة محدودة فى روسيا خلال عام ١٩٩٩.

كانت إجابة هيكل على السؤال: إن هذا ليس صحيحاً.

وسألته: وهل تعد نفسك لرئاسة الجمهورية حاليا؟

وكانت إجابته : «أبداً .. أبداً».

وسألته: لماذا؟.

فقال: أولا أنا خارج كل التنظيمات.. ثم أعمل أيه بالرئاسة؟.. ثم هى بحاجة لشىء آخر مختلف تماماً.. ثم هناك التطور.. تطور الظروف.. أتصور أنها بحاجة لأمر مختلف تماماً.

ويبدو أن مثل هذا السؤال الذى جاء فى وقت يستعد فيه السادات لفترة ولاية ثانية من حكمه هو ما أزعجه من هيكل.. وقد كان السادات لا يكف عن ترديد أن هيكل يريد أن يحكم.. أو على الأقل يشارك فى الحكم.. أو أنه يريد أن يعمل رأسه برأس الرئيس.. وهو ما أضاف إلى هيكل أهمية دون مجهود من جانبه.

والحقيقة أن جزء من براعة هيكل فى دعم قدرته على الاستمرار هو أنه رفض أن يكون مشاركا ولاعبا فى السلطة السياسية والبيروقراطية فى الوقت الذى أُجبر فيه على ترك موقعه الصحفى فى الأهرام.. لم يقبل أن يخرج من الأهرام إلى قصر عابدين ليتولى منصب وزير شئون رئاسة الجمهورية.. وقال: «إننى لا أنوى الذهاب إلى قصر عابدين وإنما أنا خارج من الأهرام إلى بيتى حتى أعثر على مكتب أعمل منه كصحفى وكاتب مستقل».. وفيما بعد أيضاً رفض أن يكون نائب لرئيس الوزراء فى حكومة ممدوح سالم.. فهو يعرف جيداً أن أى مسئول حالى سيأتى عليه يوما ويحمل لقب «مسئول سابق».. ولكن.. لقب سابق لا ينطبق بأى حال من الأحوال على الكتاب والصحفيين حتى بعد أن يرحلوا عن الدنيا.. فلا توفيق الحكيم كاتب سابق.. ولا محمد التابعى أيضاً.. إن الحاكم يذهب.. ويبقى الكاتب.. وقد اختار هيكل البقاء.. لا الذهاب.

الهوامش

(١) ناصر الدين النشاشيبي: «قصتى مع الصحافة» دون اسم ناشر ١٩٨٣ - ص ٥٩٨.

(٢) كان يملك الحوادث ويرأس تحريرها سليم اللوزى الذى بدأ حياته الصحفية فى مجلة روز اليوسف فى الأربعينات.. وفيما بعد أصبحت الحوادث معبرة عن الاتجاه القومى الناصرى فى لبنان وكانت السلطة فى مصر تدعمها.. لكن بعد غياب عبدالناصر بحثت المجلة عن مساندة أخرى.. وكانت شروط المساندين الجدد أن ينقلب سليم اللوزى على عبد الناصر.. ولم يتردد فى أن يفعل.. وقد انتهت حياته بالفعل ووجدت جثته وقد ذابت فى ا لحمض القاتل الذى يعرف شعبيا باسم ماء النار.

(٣) النشاشيبى: المصدر السابق ص ٥٩٩.

(٤) المصدر السابق: ص ٥٥٩.

(٥) المصدر السابق: ص ٥٥٩.

(٦) المصدر السابق: ص ٢٠٢.

(٧) من عجائب السياسة المصرية أن سفارتنا فى لندن كانت فى كثير من الأحيان نوعاً من المنفى أو التكريم لشخصيات لعبت دورا فى الداخل.. فقد تولاها كمال رفعت هو من رجال الصف الثانى من الثورة وكان وزيرا للعمل.. وتولاها سعد الشاذلى رئيس الأركان فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ الذى اختلف فى كيفية إدارة الحرب مع الرئيس السادات.. ورشح لها هيكل لإبعاده عن مصر بحجة أن له فى لندن أصدقاء كثيرون وفيها كذلك ناشرو كتبه ويذكر هيكل أنه دافع عن تمثيلنا فى لندن.. سفارتنا فى بلاط سان جيمس قائلاً: إننا أصبحنا نتعامل معها بطريقة غير لائقة.. أصبحنا نرسل إليه سفراء من رجال وضعناهم فى منطقة الظل بين الرضا والغضب.. أعنى هؤلاء الذى انقلب الأمر عليهم لكنه لا يرد أن ينقلبوا عليه...

(٨) النشاشيبى: المصدر السابق ص ٦٠٠.

(٩) المصدر السابق: ص ٦٠٠.

(١٠) سمير صبحى : مصدر سابق - ص ١٠٠.

■ ٣٠ ■

رقصة الموت لفرسان الساحات الخالية

■ على الجانب الآخر من النهر كان خصوم هيكل ينصبون له المحاكم والمشانق.. ويقرعون الطبول.. ويرقصون حوله رقصة الموت .. ويتلذذون بأكل لحمه نيئا.. لقد كانت قائمة الاتهامات لا حد لقسوتها.. ولا لضراوتها.. من تدمير عقل الأمة إلى تزوير تاريخها.. ومن انفراده بالسلطة الصحفية إلى تضليله للسلطة السياسية.. ومن ارتباطه بالأجهزة الخفية إلى تريحه من علاقاته العلنية.. ومن التنكر لكل من ساعدوه إلى التنكر لتاريخه الشخصى.

وقد ضمت كتيبه الرماه أسماء معروفة ومشهورة فى الحياة الصحفية والسياسية والفكرية.. مثل الدكتور فؤاد زكريا .. مصطفى أمين.. أنور السادات.. موسى صبرى.. أحمد أبو الفتح.. إحسان عبد القدوس .. جلال كشك.. ناصر الدين النشاشيبى.. فتحى غانم.. ومرشد الإخوان عمر التلمسانى.. وغيرهم ممن يصعب حصرهم من المحيط إلى الخليج.

لقد خصص فيلسوف معاصر هو الدكتور فؤاد زكريا كتابا بالكامل عن هيكل نشره فى إبريل ١٩٨٤ بعنوان «كم عمر الغضب - هيكل وأزمة العقل العربى».. كان بمناسبة الضجة الى أثارها كتاب هيكل عن السادات وعصره والذى نشره بعنوان «خريف الغضب».. وأهم ما فى الكتاب أن الدكتور فؤاد زكريا ينتقد منهج هيكل السياسى ويتهمه بالتناقض مع نفسه.. ولو كان هيكل يستخدم قوة سلاح «الأرشيف» فى مواجهة خصومه فإن هذا السلاح يمكن أن يستخدم ضده أيضاً.. ولا يرى الدكتور فؤاد زكريا فروقا جوهرية بين

نظامى حكم جمال عبدالناصر وأنور السادات .. الفروق شكلية .. أما الجوهر .. فهما نظام حكم فردى .. تختفى فيه الديمقراطية ويسود جو التكتم وتنفجر فيه القرارات الفجائية غير المحسوبة .. ولا يسمح بالاختلاف معه .. وإلا كان الثمن فادحاً.

إن السادات كان امتداداً لعبد الناصر .. وهو الذى اختاره .. فلو كان السادات خائناً فاسداً عميلاً فلماذا أدخله عبد الناصر تنظيم الضباط الأحرار ؟ .. ولماذا اختاره فيما بعد نائباً له وهو يعلم أنه قد يخلفه فى المسئولية .. ولا يجوز أن تكون مبررات اختياره أنه الوحيد من بقايا مجلس الثورة الذى لم يعين نائباً للرئيس .. ولا يجوز أن تكون مبررات اختياره أنه الوحيد من بقايا مجلس الثورة الذى لم يعين نائبا للرئيس.. فالسلطة لا تدار بطريقة «القرعة».. كما أن هيكل «استثنى نفسه تماما من اللوم وصب الاتهامات على الغير وكأنه كان طوال الوقت مشاهداً محايداً أو ناصحاً أميناً» .. «إن هيكل كان جزء لا يتجزأ من معظم الأخطاء التى يعيبها على السادات وأن دوره قد بلغ ذروه التأثير فى سنوات التكوين الأولى التى تشكلت فيه معالم السياسة الساداتية الجديدة والتى ترجع إليها معظم التطورات اللاحقة.. هذه حقيقة لابد أن يثبتها التاريخ على نحو قاطع.. ومع ذلك فإن من يبحث عند هيكل عن كلمة واحدة تعبر عن تأنيب الضمير أو مراجعة النفس أو نقد الذات سيكون بحثه قد ضاع هباء».

ولعل أخطر ما فى نقد الدكتور فؤاد زكريا هو أنه يتجه مباشرة نحو طريقة التفكير وخطورتها على العقل العربى الذى أصابه التشويه بعد سنوات طويلة من الممارسات الملتوية المقيدة بألف قيد.

وتكاد مذكرات موسى صبرى التى نشرها فى عام ١٩٩٢ بعنوان «٥٠ عاماً فى قطار الصحافة «أن تكون طعناً فى هيكل.. وقد رصدت فى هذه المذكرات – التى نشرت قبل وفاة صاحبها بالسرطان ٢٥ واقعة منشورة بالتفاصيل تتعرض لهيكل .. فمصطفى أمين رفض أن يعينه رئيسا لتحرير «الأخبار» مراعاة لهيكل .. وقبل ذلك رفضوا رفع مرتبه فى «آخر ساعة» حتى لا يتقاضى أكثر من هيكل .. ورفض إحسان عبد القدوس – وكان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم – نشر مقالة له لأنه يهاجم هيكل .. إن هيكل يكاد يكون هاجسا نفسيا لموسى صبرى .. ليس فى مذكراته فقط وإنما فى كتبه السياسية الأخرى أيضاً .. بل أن هناك من يعتقد أنه كان يقصد هيكل فى روايته المتواضعة «دموع صاحبة الجلالة» التى أنتجها التلفزيون الحكومى مسلسلاً دراميا.. ثم تحولت إلى فيلم سينمائى..

وحسب تحرياتى فإن إبراهيم سعده أرسل الرواية لهيكل قبل النشر كى يقرأها ويحذف منها ما يشاء .. لكن.. هيكل رفض ذلك .. وحسب تحرياتى أيضاً فإن هيكل رفض اقتراح الكاتب الصحفى محمود عوض برفع قضية منهما على موسى صبرى .. بدعوى أن بطل الرواية هو مزيج من شخصيتهما معاً ..

وحسب تحرياتى فإن هيكل رفض الاستجابة لضغوط محمود السعدنى بزيارة موسى صبرى وهو على فراش الموت .. كان موسى صبرى هو الذى أراد رؤية هيكل قبل الرحيل .. لكن .. هيكل كان يرى أن ما فعله مع موسى صبرى لم ينل منه إلا جزاء سنمار.. وهناك واقعة لا يرويها هيكل إلا لأصدقائه المقربين.. هى أن موسى صبرى أتصل به وقال له وهو فى غاية الانزعاج: «يافندم حدثت مشكلة لا أعرف كيف أتعامل معها .. لقد اتصل بى أمين الاتحاد الاشتراكى فى القاهرة عبد المجيد فريد وقال لى أن على صبرى لا يريدنى صحفيا فى أخبار اليوم» .. كان هيكل فى ذلك الوقت مشرفا على أخبار اليوم وقد رد على موسى صبرى قائلاً: «ياموسى.. أنت بتأخذ أوامرك من مين .. منى أم من الاتحاد الاشتراكى؟.. أبقى فى مكانك وأنس كل ما سمعت» .. وأتصل هيكل بإدارة تحرير الأخبار وسأل سكرتير التحرير وكان عبد السلام داود: «متى ينشر موسى صبرى يومياته فى الصفحة الأخيرة؟» .. وجاء الرد: «موعده غدا.. لكنه خاف أن يكتبها» .. فقال هيكل: «دعه يكتبها» .. فقال عبدالسلام: «مفيش وقت.. المطبعة تنتظر على عجل «..فسأل هيكل: «ومن كتب اليوميات بدلاً منه؟» .. وعرف أنه أحمد زين.. فطلب رفع اسم أحمد زين من على يومياته وطلب وضع اسم موسى صبرى عليها حتى لا يبدو أن تهديد الاتحاد الاشتراكى قد أثمر.. وفى اليوم التالى تلقى هيكل مكالمة أكثر انزعاجاً من موسى صبرى الذى كان هيكل قد رفع مرتبه من ٣٦٠٠ إلى ٥٠٠٠ جنية فى السنة وعينه رئيسا للتحرير.

ولم يكن موسى صبرى هو الوحيد الذى لجأ إلى حيلة الكتابة الروائية للانتقام من هيكل.. لقد اجتهد البعض فى تفسير روايتى «زينب والعرش» و«الرجل الذى فقد ظله» لفتحى غانم بحثا عن ملامح لهيكل بين أبطالهما.. خاصة وأن الروايتين تدوران فى كواليس عالم الصحافة بكل ما فيه من براعة وشراسة.. لكن.. فتحى غانم أنكر ذلك فى آخر مقالاته التى كتبها قبل وفاته فى مجلة صباح الخير.. ففى عدد يوم الخميس ٢١ يناير ١٩٩٩ كتب فتحى غانم: «كان يوسف عبدالحميد السويفى بطل رواية الرجل الذى فقد ظله شخصية بريئة وماكرة وانتهازية فى نفس الوقت.. وكان قد مضى على ثورة ٢٣ يوليو أكثر من ثمان سنوات فسقطت خلال هذه السنوات هالات أحاطت برجال الثورة

كانت ترفعهم إلى مصاف الأبطال الأسطوريين وظهرت بينهم أعراض الضعف الإنسانى» ..
«ومن هنا كان تفكيرى فى براءة يوسف وطفولته من ناحية وأمانته فى النفاق من ناحية أخرى.. وكان لابد أن يكون قد شق طريقه إلى القمة بعد معارك اقتحمها ببراءته ومكره ونفاقه.. كنت أتصوره الصحفى الأول فى مصر.. ومن هنا قلت لجمال كامل وهو يسألنى عن شخصية يوسف ليرسمها إنه محمد حسنين هيكل لأنه كان الصحفى الأول فى مصر وكان مقربا من جمال عبد الناصر .. لكنه كان أبعد ما يكون عن شخصية يوسف عبدالحميد التى أريد كتابتها ولا يقتصر البعد عن اختلاف حياة كل من يوسف وهيكل فلاصلة بين وقائع حياة الشخصية الروائية ووقائع حياة الشخصية الحقيقية».

«ولقد كانت الصداقة الى جمعتنى بهيكل تعود إلى بداية حياته كصحفى وكان يتعامل فى عالم الصحافة بيقظة شديدة وانتباه مستمر لكل ما يدور حوله وكان سلاحه الذى ينتصر به هو الخبر الذى يحصل عليه.. ولذلك كان بعيدا تماما عن مفهوم البراءة والمكر والنفاق عند يوسف» .. «وللحقيقة لم يصل هيكل إلى القمة بالطرق التى لجأ إليها يوسف.. وكان هيكل يقول لى: أنا أمام عبد الناصر لا أختلف عن بقية الصحفيين الذين يتصلون به ومن بينهم محمد التابعى ومصطفى أمين.. لكن عبد الناصر رآه أكثرهم نشاطا وكان يجد عنده فى أى وقت أحدث الأخبار.. والحاكم يحتاج إلى صحفى ناجح يثق فيه كما يحتاج الصحفى إلى حاكم يزوده بأخباره.. ولقد جرب عبد الناصر صحفيين قبل هيكل.. فكان يسأل عنهم ويطلب الاتصال بهم فى ساعة متأخرة من الليل فلا يجدهم.. وتمر ساعات قبل أن يتصلوا به.. وتأتيه أخبار هؤلاء الصحفيين فإذا بأحد الذين يبحث عنهم يقضى سهراته فى عوامة يتعاطى الحشيش وآخر يقضى ليلته فى شقة خاصة وثالث يلعب القمار مع من يشنعون على الثورة.

«وعندما طلب منى هيكل أن أعمل معه فى آخر ساعة قضى وقتا طويلا معى ونحن نسير على غير هدى فى الشوارع.. وكان يحذرنى من التورط مع هؤلاء الصحفيين أو الانضمام إلى شللهم وكان يرى أنهم تقاعسوا أو تشككوا فى عبدالناصر وقدرته على الاستمرار فى قيادة الثورة فأبعدوا أنفسهم بأنفسهم .. وهكذا توطدت العلاقة بين هيكل وعبد الناصر لأنه اعتمد على كفاءته ولا شىء آخر ولا أظن أن شىء آخر كان ينفعه مع عبد الناصر.

«هذا هو هيكل الذى عرفته وهو يختلف تماما عن يوسف السويفى مظهرا ومخبرا فلا صلة بين الاثنين سوى ان كليهما يحتل المركز الأول المقرب من عبد الناصر ويبدو أن

هذا يكفى عند القراء سواء فى مصر والعالم العربى أو العالم الخارجى.. فقد نوه كاتب فى نيويورك تايمز بأن الرجل الذى فقد ظله مكتوبة عن محمد حسنين هيكل.. ولقد حدث التساؤل من هيكل نفسه فقد فاجأنى محمد التابعى وأنا فى بيته قائلا: هل اتصلت بمحمد (يقصد محمد حسنين هيكل).. قلت: لا .. فقال: أفضل أن تتصل به لأنه سألنى إذا كانت الرواية التى أكتبها عنهما.. التابعى وهيكل أم ماذا؟.. وذهبت إلى هيكل فى مكتبه بالأهرام فقابلنى ضاحكاً فى سخرية قائلاً: بالإنجليزية: أهلا بالرجل الذى فقد عقله.. ولم يستغرق الأمر أكثر من دقيقة لنضحك معا..لأنه يعرف أن يوسف شخصية أخرى..وإن كانت الناس تتحدث بأن يوسف هو هيكل.. ولا فائدة فى مثل هذه الأحوال من الحديث عن الرواية والفرق بين الواقع والوقائع واختلاف الشخصية فى كل منهما لأن الذى يسمع هذا الكلام كان يرفضه.. قد استراح إلى أن يوسف هو هيكل وإذا صدق أى كلام آخر فسوف يشعر بالإحباط.

وتناول ديزموند ستيوارت الروائى الإنجليزى الذى ترجم «الرجل الذى فقد ظله» إلى الإنجليزية موضوع هيكل فى مقال له كتبه فى مجلة «أنكونتر» الإنجليزية بمناسبة الخلاف الذى وقع بين السادات وهيكل وأدى إلى خروج هيكل من الأهرام.. قال ديزموند: إن هيكل كان فى وضع يستطيع فيه أن يلحق الضرر بفتحى غانم إذا أراد ولكنه لم يفعل وهو يعلم ان الرواية بعيدة عنه ويفهم أسباب الحرص بين الناس على إلصاق شخصية يوسف به.. ولقد ظل السؤال يلاحقنى أينما ذهبت.. فى لندن أو موسكو أو الكويت أو الدوحة.. أينما وجدت الفرصة لسؤالى كان لابد أن اسمع الصلة بين هيكل ويوسف.. ورغم أن الإجابة قد نشرتها عشرات التحقيقات الصحفية فى الصحف العربية إلا أن السؤال يظل مطروحا لأن هيكل أصبح يوسف برغبة القراء وليس برغبة المؤلف.. غير أن هناك مفاجأة لابد من البوح بها.. ذلك أن جمال كامل رأى بحسه الصحفى أن ما جاء على لسانى لأول وهلة أنى أفكر فى محمد حسنين هيكل هو ما يجب أن يحرص على تسجيله فى لوحاته وناقشته فى أن الأحداث وتطوراتها وأسبابها مختلفة إلى أن غاب عدة أيام وعاد ومعه لوحة للنشر مع الفصل الأول من كتاب يوسف وهو الكتاب الرابع فى رباعية الرجل الذى فقد ظله تصور اللوحة شابا فى مقتبل الحياة وفى الركن الأسفل للوحة تاريخ ميلاد الشاب ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ وهذا هو تاريخ ميلاد محمد حسنين هيكل وكان جمال يعرف التاريخ لأننا تحدثنا معا طويلا عن هيكل وكنت أقول له أنه يكبرنى بخمسة شهور وهكذا ساهم جمال بطريقة ما فى إشاعة العلاقة بين يوسف وهيكل وإن كان أحدا لم يفطن على دلالة هذا التاريخ.

«وكان مخرج مسرحى شاب درس الإخراج فى الاتحاد السوفيتى وعاد إلى مصر من بعثته فأعجبة النص الروائى للرجل الذى فقد ظله ووجده فى تقسيمه إلى أربعة كتب تحديا فطلب إخراجه على المسرح.. وهكذا ساهم جلال الشرقاوى فى تقديم الرواية على المسرح بنجاح كبير وزاد الاهتمام بالرواية لأنها تقدم للجمهور على مسرح التلفزيون وسرت شائعة – لا أدرى عن تفاصيلها شيئا – ان الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام شجع على تقديمها لأنها تهاجم هيكل الذى ينافسه فى مجال الدعاية والإعلام».

انتهى ما كتبه فتحى غانم قبل وفاته.. لكن .. هل يكفى أن يفك الناس الارتباط القديم والمزمن بين شخصية يوسف السويفى وهيكل؟ .. لا أعتقد.

ولم يكن فتحى غانم فقط هو الذى فسرت شخصيات بعض رواياته على أنها تشير إلى هيكل.. كان هناك أيضا رواية إحسان عبدالقدوس «وغابت الشمس ولم يظهر القمر» رغم أن بطل الرواية ليس صحفيا وإنما يعمل فى البيزنيس.

* * * *

وفى الحقيقة ليس كتاب جلال كشك «ثورة يوليو الأمريكية» الذى نشره فى حوالى ٦٥٠ صفحة عام ١٩٨٨ سوى ردا على كتابات هيكل التى روى فيها قصة «حرب الثلاثين سنة» ..

ولا يمكن حصر الكتب والصحف والمقالات والكتابات التى راحت تهاجم هيكل.. لكن .. كان السؤال المحير هو كيف نجا هيكل من هذا الهجوم الضارى؟ .. كيف صمد فى وجه الضربات الثقيلة التى تعرض لها؟ ..

وينكر هيكل فى كثير من الأحيان أنه يقرأ الهجوم عليه.. وهو إنكار يعفيه من صداع مناقشة أمر يراه غير لائق بالأقتراب منه حتى مع أقرب الناس إليه.. وهو يقول: «لقد عودت نفسى منذ زمن طويل أن اتجنب الرد على الكثير مما يمكن أن ينشر عنى أو يذاع.. ولم يكن ذلك – فيما أرجو عن بلادة حس أو عن مركبات غرور وإنما كان دافعى إلية إننى أعرف من واقع الحال وعن طبائع الظروف ما يغنينى وأكاد أقول يرضينى.. إننى تمثلت بنصيحة الفيلسوف القديم «قل كلمتك وامش» .. وقد قلت كلمتى ومشيت.. ولم أسمح لنفسى أن أتلكأ على باب أو أن أقف فى انتظار دقة جرس.. وهكذا فأننى منذ تركت مكانى القديم فى الأهرام وفى ظروف ليس هذا مجالها الآن كان قرارى – ولم أحد عنه – أن تكون حياتى فى مصر وليس خارجها وأن يكون عملى لها حتى وإن حكمت الأيام عليه بأن يظهر فى بلاد أخرى غيرها». (١)

وفى موضع آخر يقول: «أنه فى العادة عزوف عن استعمال حق الرد (وهو حق شرعى) خصوصاً فى ظروف لا تسمح بالحق من أصله.. ومن ثم تصبح ممارسة الفروع – أو محاولة ذلك – نوعاً من ضرب الرؤوس فى الجدران.. وحتى ولم تكن كذلك فإن القول المأثور عن «برنارد شو» يبدو مقنعا لى: «إنهم يقولون.. ماذا يقولون.. دعهم يقولون». (٢)

وفى الظروف السياسية المعادية له أعتاد هيكل أن يصف من يهاجمونه بأنهم «فرسان الساحات الخالية» هؤلاء الذى يرمحون فى ميادين يعرفون مقدماً أنه ليس فيها «عدو» وبالتالى ليس عليها قتال». (٣) وحين وصلت إليه من بعيد صرخات هذا الطراز من الفرسان لم يجد ما يغريه أو يدعوه إلى الإصغاء لأصواتها أو انتظار أصدائها.. ولم يخرج سوى مرات نادرة عن ما آثر الالتزام به.

ولهيكل عبارة خاصة به.. ينفرد بها منذ سنوات بعيدة.. يجدها مناسبة للرد والتعليق على كل ما لا يعجبه.. هى: «يلا.. بلا دوشة» .. والدوشة تعبير مصرى دارج يعنى الصخب والضجيج الذى بلا طحين.

لكن .. الدوشة أحيانا ما كانت تزيد عن الحد.. وكثيرا ما كانت تأخذ شكل الضجة المؤثرة.. أو الضجة التى لا يمكن الفرار من تأثيرها.. وفى هذه الحالة لابد من الرد.. وهو ما فعله هيكل حين نشرت إحدى الصحف عنوانا رئيسيا فى صفحتها الأولى تعليقا على رأى أبداه خارج مصر بمعارضة رحلة السادات للقدس قالت فيه بالحرف الواحد «واحد من مصر» .. وكان رده على ذلك بعبارة واحدة فى نهاية مقال نشر أيضاً خارج مصر هى: «بل واحد من مصر».

وهو ما فعله هيكل أيضاً فى كتاب «بين الصحافة والسياسة» .. المنشور فى عام ١٩٨٤ .. وهو أول كتاب يحمل إهداءاً خاصا لم يعتد عليه فى كتبه من قبل.. كان الإهداء لأولاده الثلاثة: على وأحمد وحسن.. و«إلى عشرات الملايين غيرهم من شباب مصر وأمتها العربية وحتى لا يضيع منهم الغد لسبب بسيط لا ذنب لهم فيه هو أنهم لم يكونوا معنا بالأمس».. والكتاب يكشف طبيعة العلاقة بين الصحافة والسياسة فى مصر على امتداد الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية (أى منذ بدأ هيكل مشواره الصحفى تقريباً) وحتى فترة كتابته فى منتصف الثمانينيات وهى قصة يصفها هيكل بأنها واحدة من أغرب القصص فى علاقة الصحافة والسياسة فى مصر.. «والتى مازالت مستمرة فى تأثيرها تتواصل كل صباح».

ورغم أن القصة تبدو وكأنها قصة الصراع بين هيكل ومصطفى أمين.. أو تبدو وكأنها «قصة صراع حيتان هائجة فى البحر حولته بجراحها إلى بقعة حمراء من الدم» .. أو كأنها «قصة تسوية حسابات قديمة كان يجب أن تذهب إلى زوايا النسيان لكن نوازع النفس البشرية الأمارة بالسوء أعادت بعثها مرة أخرى إلى الحياة» .. فإن هيكل يرفض ذلك ويرى أن صراع الأبطال الظاهر على المسرح يخفى فى الكواليس صراعا لتشوية تجربة للتحرر الوطنى والتقدم الإجتماعى والاقتصادى جرت فى عصر عبد الناصر.. وقد جرى تشويهها باستخدام «أسلحة العصر ووسائله» .. ومنها بطاريات الإعلام الثقيلة.. وعندما تختلط الأمور – كما هو الآن – فإن ما يضيع ليس العلم والتجديد فقط وإنما يضيع الحلم الوطنى والقومى ولا يكون هناك بديل غير القمع والقهر.(٤) .. وعندما يضيع الحلم فإن الأنظمة لا يعود أمامها غير طريق واحد بدايته قناة تليفزيون أو محطة إذاعة أو جريدة .. ونهايته دبابة أو مدفع أو طائرة .. إذا عجزت الأنظمة عن تطويع إرادة الناس بالكلام تولى السلاح مهمة إخضاعهم بالحديد والنار.(٥)

لم يكن هذا الكتاب فى خطة هيكل .. كانت خطته أن ينشر كتابا عن «ظهور وتراجع القوة العربية» .. ولكنه أمام كثافة النيران الداخلية على جمال عبد الناصر قرر نشر كتاب «بين الصحافة والسياسة».

وأصر هيكل على أن ينشر الكتاب وكل الأطراف – وعلى رأسها مصطفى أمين – على قيد الحياة .. وقبل أن ينزل على هذه الأطراف ستار الأبدية .. وحتى لا يقول قائل «لماذا لم يتكلم وكان فى مقدوره الكلام.. أو يقول آخر: بعد فوات الأوان جاءوا يتكلمون» .. وهكذا .. كان على هيكل أن يحسم أمره .. وليكن ما يكون .. «عارفا مسبقا أنها مهمة دونها أهوال فلدى الآخرين سلطة وليس فى يده شىء.. ولدى الآخرين منابر ضخمة كأنها الحصون وهو فى الهواء الطلق أو العراء.. وبالتالى فهى موازين غير متكافئة.. وعلى أى حال وفى النهاية أطاع نداءاً داخليا راح يهيب به أنه: الآن وقت الكلام وإلا فلا كلام».

ولعلى اكشف سراً لو قلت أن بعضا من وثائق الكتاب التى تتعلق بمصطفى أمين وأخبار اليوم كان مصدرها محمد التابعى وان لم يستعملها هيكل فى الكتاب.. ولعلى لا أكشف سراً لو قلت أن هيكل كان يتوقع أن يلجأ مصطفى أمين للقضاء .. وهو ما جعل هيكل يحتفظ بعدد من الوثائق لم ينشرها فى الكتاب فى انتظار أن يقدمها للقضاء.. لكن مصطفى أمين لاذ بالصمت وخذل هيكل بعدم اللجوء للقضاء .. على حد تعبير هيكل نفسه .. فكان أن بقيت الوثائق فى مأمنها .. لأن هيكل وجد أنه بنشر الكتاب وبرحيل مصطفى أمين قد أغلق الملف.

الهوامش

(١) خطاب من هيكل لجريدة الشعب الناطقة بلسان حزب العمل المعارض فى ٣٠ ديسمبر ١٩٨٠ ردا على مقال للدكتور محمد عصفور نشرته الجريدة بعنوان «ديمقراطية آمين».

(٢) مقدمة كتاب «أحاديث فى العاصفة» - الناشر دار الشروق - عام ١٩٧٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كتاب «بين السياسة والصحافة»

(٥) المصدر السابق.



■ ٤٠ ■

الحرب التى تنتهى بخسارة الجميع

■ يصعب أن تجد جديداً فى سيرة هيكل السياسة .. فهى منشورة ومعروفة فى أرشيف الصحف على مدى النصف الأخير من القرن العشرين.. وهو نفسه تحدث عنها فى مواقع متفرقة من كتبه.. وفى أحاديثه الصحفية فى مصر وفى خارجها .. وفى أحاديثه التلفزيونية والإذاعية وهى فى معظمها جرت خارج مصر .. ولكن .. سيرة هيكل الشخصية تظل مجهولة إلى حد كبير .. تظل محاطة بالكتمان .. وكأنها ثكنة عسكرية مكتوب عليها عبارة التحذير الشهيرة «ممنوع الاقتراب والتصوير».

وضاعف من هذا الكتمان أن هيكل كان حريصا على أن تكون هناك مسافة بين حياته الخاصة (أسرته وزوجته وأولاده) وبين حياته ومعاركه العامة .. فضياع هذه المسافة يخلط الحابل بالنابل .. ويفتح ثغرات غير متوقعة للطعنات الخلفية .. ففى حروب الشخصيات العامة كل شىء مباح لتحطيمها بما فى ذلك الزوجة والأولاد.

إن من النادر أن تجد فى صفحات المجتمع صورة أو خبر لزوجة هيكل أو لأحد أبنائه.. وأتذكر أننى عندما دعيت لحضور حفل زواج أحد أبنائه وجدت أن الدعوة - التى لم تكن مطبوعة وإنما شفهية بالتليفون وجهها هيكل بنفسه - قاصرة على الأصدقاء فقط .. وكان التصوير ممنوعا .. إلا للذكريات العائلية.. فلم تُنشر صورة واحدة فى الصحف والمجلات.. وبينما راح الكبار يتأملون النيل من بانوراما «البلفدير» فى الدور الأخير من فندق النيل وهم يتحدثون فى السياسة .. أنشغل الصغار - أصحاب الحفل - بسماع موسيقى تناسب أعمارهم .. دون أن يكون فى البرنامج راقصة شرقية.

وأنا أعرف أن السيرة الذاتية تكاد تكون مجهولة .. ومكروها فى تاريخنا الأدبى والسياسى .. فنحن لا نتمتع بالصراحة اللازمة لكتابة السيرة الذاتية .. ولا نتمتع بالشجاعة الكافية لتقبلها وقراءتها .. إن جرأة الكاتب تحتاج إلى جرأة القارىء.. وهذه الجرأة معدومة لأنها تدخل المناطق المحرمة .. الجنس .. الدين .. الخطيئة .. وتزيل ورقة التوت عن العورات.. وهو ما يمنح فرصة ذهبية على طبق من فضة للخصوم لاستخدام الأشياء الشخصية فى الحروب العامة.. فالخلط بين الرأى وصاحب الرأى عادة شرقية مزمنة .. وسوء النية وسوء التفسير وسوء الاستعمال عادة شهيرة فى الخصومات والصراعات.

ونحن لا نحب السفر فى داخل أنفسنا .. ولا نحب استعمال المرايا .. أو كما يقال «حديث النفس للنفس مكروه .. نحن لا نفهم المونولوج الداخلى ونعتبره من الغرور والنرجسية». (١) ويبقى الكاتب أو الصحفى أو السياسى فى بلادنا صامتا فى «انتظار حفلة تأبينة».. وحفلات التأبين هى المناسبة الذهبية التى يجلس فيها الناس على قبر الكاتب والصحفى والسياسى كى يلعبوا الورق.. دون أن يتاح للمرحوم وللمغفور له أن يشارك فى اللعبة».

إن الناس تترك كل ما قدمه كاتب ومفكر ومبدع مثل الدكتور لويس عوض .. وتترك كل مواقفه السياسية ومعاركة الفكرية .. ولا يلفت نظرها فى مذكراته سوى متاعبه العائلية مع أبيه .. أو مع أخيه .. وتوقف الذين قرأوا سيرة حياة الدكتورة لطيفة الزيات طويلاً عند اعترافها بأن سر تأخر طلاقها من الدكتور رشاد رشدى - الذى اختلفت معه فكريا وسياسيا - هو حاجتها الخاصة جدا له .. إن هذا المشهد الذى لا يحظى بأى قيمة إذا ما قورن بباقى المشاهد قد انتقل من الخلفية إلى الصدارة فى عقل كل من قرأ المذكرات.

ولكن .. على الجانب الآخر .. يتعرض من لا يكتب مذكراته .. أو يقدم سيرة حياته إلى ما يمكن وصفه بسوء التصور .. خاصة إذا كانت له أعداء وخصوم مثل هيكل .. إن عدم اقتراب هيكل من سيرته الذاتية جعل أعداؤه وخصومه يرسمون صورته العائلية والشخصية والنفسية على هواهم.. وقد استوردوا تفاصيلها من الأحياء الخلفية العشوائية .. إن هناك صورة شائعة فى أذهان البعض هى من اختراع الآخرين.. وخيالاتهم.. وهى صورة ترضيهم وتشبعهم.. ومع الصمت الذى أشتهر به هيكل وترفعه فى عدم التورط فى معارك لا طائل منها راحت هذه الصورة تأخذ طريقها فى الانتشار .. ثم أنها وجدت عيونا تحفظها .. وتطرزها .. ثم أنها كادت - مع ضراوة القتال - أن تعتدى على الصورة الواقعية.

ولعل هذا ما جعلنى أفتش بنفسى عن الصورة الحقيقية بعيدا عن كل الأطراف .. قررت أن احصل على الصورة الطبيعية من مصادرها المباشرة بغير وسطاء.. أو إعلانات حائط .. وليس عندى مبرر أو دافع وراء ذلك سوى احترام القارىء فى المعرفة بعيدا عن التشويش الإنسانى والإعلامى .. وبعيدا عن تلوث البيئة السياسية الذى نغرق فيه.

****

وللقارىء أحكام لا يجوز استئنافها.. أنا أؤمن بذلك .. وأؤمن أيضاً أن القارىء أكبر ديكتاتور خلقه الله منذ أن تنفست الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة.. إنه لا يكتفى بالقراءة قبل النوم.. ثم يضع رأسه فوق «المخدة» أو تحتها ويذهب فى سبات عميق.. بل هو يناقشنا قبل النوم .. وأثناءه .. وبعده .. ولا يكتفى بما يكتب الكاتب .. بل يتسلل إلى الكاتب نفسه .. فيفتش فى عقله وقلبه وضميره ومزاجه وتاريخه الشخصى .. فيعرف الأسرة التى أنجبته .. والمدرسة الى علمته.. و «بنت الجيران» التى جذبته والأخطاء التى أوقعته أو أفادته .. ولا مانع أن يتسلل إلى فراش الكاتب وحياته الخاصة ليحصى أنفاسه وضحكاته وأحزانه وعدد أولاده.

ولا يكتفى القارىء بهز رأسه إعجابا بالكاتب أو سخطا عليه.. وإنما يجلس فوق أصابعه وهو يكتب .. ويعبث بأقلامه .. وينكش أوراقه .. ويتدخل فى أفكاره .. ويحاكمه على اختياراته .. وربما يتدخل فى لون عينيه .. وطول قامته .. وألوان ثيابه .. وطبيعة أحلامه.

ان معاهدة «عدم» فك الارتباط بين الكاتب والقارىء فى عالمنا العربى هى معاهدة فريدة من نوعها .. انتهت صلاحيتها .. وتمزقت بنودها فى باقى أنحاء العالم .. فى العالم الحر .. يحاسب الكاتب على أفكاره لا على حياته .. وتقيمه كتاباته لا قمصانه .. تحاسبه مواقفه العامة لا حياته الخاصة .. والسبب هو الحرية التى يتمتع بها الناس هناك .. ولا يعرفها الناس هنا .. فلا قارىء عربى واحد صادف هذا الطيف الساحر .. طيف الحرية .. لا أحد لمسه بالأصابع .. أو شعر به يدخل منطقة الحواس الخمس .. إن الحرية طائر خرافى .. أسطورى .. يرفرف فى الخيال .. لكننا لا نجده فى الواقع.

ولهذا السبب فإن غالبية الكتاب العرب يفعلون المستحيل لإخفاء حياتهم الخاصة .. فهى الثغرة التى تتسلل منها أجهزة التشهير وكتائب الإعدام التى تتحرك طوال الليل والنهار لاغتيال شخصية كل كاتب يحاول الخروج عن عقلية القطيع واندفاع القطيع .. بل أن فى كل أجهزة الأمن العربية وحدات خاصة مدربة على تصنيع الشائعات وترويجها

لتشويه كل من يخالفها.. وكل من يرفض أن يكون تابعا عميلا لها .. أو مخبراً فى بلاطها.

لكن .. لا مفر من أن يواصل الكاتب معركته ضد القبح .. فهو الوحيد الذى ليس من حقه أن يكون شيطانا صامتا .. ساكتا عن الحق .. كل المسافرين من حقهم إلغاء الرحلة إلا الكاتب .. فهو محشور منذ ولادته فى عربة الدرجة الثالثة من قطار الفقر والقهر .. حيث الخبز قليل .. والماء قليل .. والحظ قليل .. والحرية توزع فى آخر الشهر بالبطاقات على سائق القطار ومرافقيه وكلابه الشرسة المتوحشة.

إننا نحاول أن نقول الحقيقة فى وطن يكره الحقيقة ويقف ضدها.. ومن ثم لا يعرف الناس فيه الفرق بين من يدافع عن الوطن وبين من ينهش لحمه.. بين المؤمنين به والخارجين عنه .. بين الجلاد والضحية. (٢)

وقد أحزننى – وأنا أفتش بحثا عن السيرة الذاتية لهيكل فى أرشيف الصحافة المصرية – أن أجد أن مهنة الصحافة السامية وقد تحولت فى بعض الأحيان إلى وليمة همجية .. يسلق فيها الصحفيون بعضهم البعض فى قدور نحاسية كبيرة على نيران السلطة وأجهزة الأمن ومصالح القوى الخارجية والحسابات البنكية.. كثيرا ما تساءلت سؤالا عجزت عن الإجابة عليه.. من المستفيد من هذه الحروب غير المقدسة التى يسيل فيها دم الصحافة والصحفيين معا؟.. لماذا يطبق بعض الصحفيين طريقة رجال المباحث فى تصفية خصومهم؟ .. لماذا لا يدرك معظم الصحفيين أن سلطة الصحافة أقوى من باقى السلطات وأكثر خلودا.. وأنها سلطة يقررها استفتاء عام يدلى فيه كل الناس بأصواتهم وفق الأصول الديمقراطية .. وليست سلطة بقرار أو فرمان ممن لا يملك .. لمن لا يستحق.

إن الصحافة رسالة .. عمل من أعمال الطهارة .. و«على الذين يكرهون الاستحمام كل يوم ويرفضون ارتداء الملابس النظيفة كل يوم أن يعودوا إلى الغابة».

ورغم أن هيكل يعطى العذر للطبيعة البشرية فإنه يشعر أنه «مجروح من مهنة الصحافة».. فصحافة العالم وقفت معه وصحافة مصر وقفت ضده .. ثم بدأ يسمع أعذاراً .. من يقول أنه كان مضغوطا عليه .. ومَن يقول «كنا مضطرين» .. و«أنت عارف الظروف» .. والحقيقة أن كل الظروف لا تبرر أن يكون الصحفى أداة لتمزيق صحفى آخر .. فالحرب الأهلية بين الصحفيين تنتهى بخسارة الجميع.

الهوامش

(١) نزار قباني : قصتي مع الشعر – الأعمال الكاملة – الجزء السابع.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

٥

رفيق مشاكل مازالت تجرجر أذيالها

■ ويصبح السؤال : لماذا كتاب عن هيكل ؟ .

هل نحن فى حاجة لإضافة كتاب جديد عنه ؟.

إن أرشيف هيكل يضم حوالى ٨٨٠ مقال كتبها فى «الأهرام» تحت عنوانه الشهير «بصراحة» وقد طُبعت فى بداية عام ٢٠٠٠ على أسطوانة مضغوطة أشرفت عليها الدكتورة هدى عبدالناصر .. ويضم أرشيف هيكل كذلك مئات من المقالات عنه والحوارات معه وعروضا لكتبه ومحاضراته وندواته ورصدا لأخباره ومتابعة لتصريحاته وتفريغا لشرائط أحاديثه الإذاعية والتلفزيونية.. ويصعب أن نرصد كل الكتب التى صدرت عنه بكافة اللغات بما فى ذلك اللغة العربية.. كما يصعب تصنيف من معه ومن ضده.. ويمكن أن نتوقف عند بعض الرسائل الجامعية التى اختارته موضوعا لها .. ومنها رسالة الدكتوراه التى قدمها منير ناصر بعنوان «الصحافة والسياسة والقوة: هيكل مصر والأهرام» المنشورة باللغة الإنجليزية فى جامعة «أيوا» الأمريكية فى عام ١٩٧٩ .. ورسالة الدكتوراه التى قدمها جمال الشلبى لجامعة السوربون فى عام ١٩٩٥ وإشرف عليها البروفيسور فرانسوا مون كومندوى أستاذ العلوم السياسية وعنوانها «هيكل: استمرارية أم تحول؟» .. ورسالة الماجستير التى قدمها فى تونس رياض الصيداوى بعنوان «هيكل صحفيا وسياسيا».

فهل نحن بعد كل ذلك فى حاجة لإضافة كتاب جديد عنه؟.

هل حلقة الذكر فى حاجة لمزيد من الدراويش؟.. هل موسيقى الديسكوتيك فى حاجة لمزيد من الصاخبين الرافضين؟.. هل حلقة مصارعة الديوك فى حاجة لمزيد من الساديين الذين يتلذذون بهواية تعذيب الآخرين؟.

بداية .. لابد من القول أن غالبية ما كتب عن هيكل كان يعكس أحادية العقل العربى الذى يستسهل الأمور.. ويلخصها فى موقف واحد .. أبيض أو أسود .. مع أو ضد .. مؤيد أو معارض .. عدو أو صديق .. عبد الناصر أو السادات .. هيكل أو مصطفى أمين .. ومن ثم فإن الحقيقة غالبا ما تكون مثل إنسان أصيب بنصف شلل .. فلا يرى الصورة إلا من جانب واحد .. لا يرى الصورة كاملة بكل ما فيها من أضواء وظلال .. وأتصور أنه آن الأوان أن نتجاوز هذه الثنائية المحدودة .. وأن نتقبل موقفا أو موقعا خارجها.

أيضاً .. فإن معظم من كتبوا عن هيكل لم يعرفوه عن قرب .. ولم يسمعوا منه فى الغالب مباشرة.. أو لم يناقشوه لفترة كافية وجها لوجه قبل أن يمسكوا بأقلامهم .. واكتفوا بما فى الأرشيف من مواد ووجهات نظر ليست لهم.. واستندوا إلى وقائع وحكايات عاشها غيرهم فكانوا مثل «الحمّال الأعمى» الذى لا يعرف ما الذى يحمله بالضبط؟.. إن مواد الأرشيف فى النهاية مواد صماء .. تفتقد الحيوية واللمسة الشخصية.. بل أستطيع أن أقول أن جمال الشلبى الذى أعد رسالته للسوربون لم يلتق بهيكل سوى مرة واحدة فى الإسكندرية.. ومنير ناصر الذى قدم رسالته لجامعة أيوا لم يستمر حواره مع هيكل أكثر من نصف ساعة وعاش معظم أيام بحثه فى مكتبه الجامعة الامريكية بالقاهرة. ومن ثم فإن أغلب ما كتبه عن هيكل كان إعادة إنتاج ما سبق أن نُشر عنه أو إعادة إستعمال لما سبق أن كتبه هيكل عن نفسه.

وقد عرفت هيكل عن قرب .. ولكن .. فى سنوات متأخرة .. فى فبراير ١٩٩٣ .. بعد حوالى ٥٠ سنة من بدايته الصحفية .. وبعد حوالى ٢٠ سنة على تركه رئاسة تحرير «الأهرام» .. وبعد أن اصبح كاتبا مستقلا يعتمد فى قوته على ما يكتب .. وعلى ما يعرف .. و«ليس فى يده شيئاً» .. «فى الهواء الطلق» على حد تعبيره عن نفسه فى كتاب «بين الصحافة والسياسة».

فى ذلك الوقت كان هيكل لا ينشر كتاباته فى مطبوعة عربية .. لكنه .. كان يقول ما عنده مباشرة للناس .. مرة كل سنة .. فى لقاء مفتوح فى معرض الكتاب . وكان الجمهور الذى يتزاحم على هذا اللقاء ينافس جمهور كرة القدم فى العدد .. ويتجاوزه فى الأهتمام.

لكن .. فى آخر لقاء له بجمهور المعرض قال بصراحة ما جعل توجيه دعوة جديدة له مسأله مستحيلة .. وهكذا .. انتقل التربص بهيكل من الرأي المنشور إلى الرأى المنطوق .. من التعبير بالقلم إلى التعبير باللسان .. ولم تستمر تجربة المعرض .. فقد وجدت من يخشاها .. وكان أن وجدتها فرصة لأن أنقل جمهور المعرض إلى قراء مجلة روز اليوسف

وافتح حوارا على فترات وكلما دعت الظروف معه.. وكان ذلك خلال الفترة التى توليت فيها مسئولية تحرير روز اليوسف .. من فبراير ١٩٩٢ إلى إبريل ١٩٩٨.

كان هيكل قد قال لجمهور المعرض فى آخر لقاء به .. أن معدل النمو فى مصر بالناقص .. ومن ثم فإن مصر بدأت تأكل من لحمها الحى .. وكشف أن متوسط دخل الفرد تراجع بحوالى ٦٠ دولار وهو ما ضاعف من قسوة المعيشة .. وفى الوقت نفسه وصل رقم البطالة الواعية والمتعلمية فى مصر إلى مليون وثمانمائة ألف من خريجى الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة .. وزاد التناقض بين الغنى والفقير وهو تناقض صارخ يصعب تجاهله .. وفيما بينهما أصبحت الطبقة الوسطى – وهى مستودع الحيوية الاجتماعية القادرة على دفع موجات التقدم – مضغوطة ومحاصرة .. وهو ما جعلها تتوقف عن الحركة وتعجز عن النهوض.

وتمنى هيكل أن تخرج مصر من أزمتها .. واقترح إعادة تنظيم الدولة .. وفى مقدمتها رئاسة الجمهورية التى تعتبر فى بلد مثل مصر مركز الأعصاب الحساسة للدولة وبالتالى فهى شأن الجميع .. «ومن حق أى مواطن أن يدقق ليكتشف أنه ليس فى الرئاسة إلا واحد أو اثنان من المستشارين .. ومن المؤكد أن ذلك لا يكفى» .. وأضاف هيكل : «أن هناك حاجة ماسة إلى عقد اجتماعى جديد فيه نص صريح على حقوق الإنسان بالمفهوم الشامل الذى توصلت إليه الأمم المتحدة .. من التعبير إلى التعليم والصحة والعمل والديمقراطية والثقافة وحتى السعادة أيضاً» .. كذلك «فإن هناك حاجة ماسة إلى إصلاح سياسى ودستورى ينظم العقد الاجتماعى الجديد بحيث يكون محترما وملزما» .. وهناك «حاجة لتخفيف درجة الحرارة العامة فى مصر ولابد من العمل على وقف حالة الحمى التى تعتريها وذلك بالعودة إلى القانون». (١)

واعترف أننى لم أخف إعجابى بشجاعة هيكل .. إن المواقف المؤجلة لا قيمة لها .. مهما كان الثمن الذى يدفعه صاحبها . (٢)

وقد تضاعف إعجابى بهيكل بعد رسالته الشهيرة للجمعية العامة غير العادية لنقابة الصحفيين والتى عقدت لمواجهة القانون رقم ٩٣ لسنة ١٩٩٥ والذى كنت أول من وصفته بقانون اغتيال الصحافة .. لقد قال هيكل تعليقا على هذا القانون المشبوه والذى سقط فيما بعد : «إن هذا القانون فى ظنى يعكس أزمة سلطة شاخت فى مواقعها وهى تشعر أن الحوادث تجاوزتها» ..(٣) وهى أشد عبارات النقد التى وجُهت للسلطة الحاكمة فى مصر .. وقد خرجت الأصوات الصحفية الرسمية لترد قائلة: ومفهوم أن النقد موجه للحقبة

الناصرية التى كان هيكل أبرز معالمها ورموزها .. وفى الحقيقة سيظل هذا الرد يطارد كل رأى يقوله هيكل .. دون مناقشة حقيقة وجادة لما يقول.

وهكذا سعيت لإشباع حاجة مهنية للقارئ .. هى أن يقرأ ويسمع هيكل فى حوار صحفى معه إذا لم يستطع أن يقرأ مقاله له .. إنها مأساة بكل المقاييس أن لا يجد هيكل فى مصر من يدعوه للكتابة .. وقد فعلت ذلك .. لكنه كان يفضل أن يصل للقارئ عبر روز اليوسف من خلال الحوارات الصحفية .. وكان أن اقتسمنا المسئولية .. لا أقول الشجاعة .. هو بما يقول .. ونحن بما ننشر .. وكان أن بدأ محترفو التقارير السرية وأنصار نظرية المؤامرة فى التحرك فى الخفاء .. وبدأ سوء الفهم يسيطر على العقول.

وتكررت دعوة هيكل للحوار على صفحات روز اليوسف فى مناسبات مختلفة كان الناس فيها ينتظرون رأيه .. مناسبة ذكرى ثورة يوليو وما تبقى منها.. مناسبة تأسيس حزب ناصرى وموقف هيكل منه.. مناسبة مرور ٢٠ سنة على زيارة السادات للقدس وما توقعه هيكل وما تحقق منه .. مناسبة محاولة اغتيال الرئيس حسنى مبارك فى «أديس بابا» فى يونيو ١٩٩٥ وكيف حولنا الاحتفال بنجاته إلى مولد مزدحم دون الاستفادة من الحب الشعبى الجارف لهذه النجاة.. مناسبة حصار العراق وضربها والواقع العربى بكل ما فيه من أحزان وغثيان .. والفلسطينون وما جرى لهم؟.

لقد أصبحت أطارده بالسؤال عن ما جرى .. وعن ما يجرى .. وعن ما سيجرى .. وعندما وجدت أن حواراتى معه يمكن نشرها فى كتاب - حمل عنوان «لعبة السلطة فى مصر» - طلبت منه أن يكتب تقديما له .. وفى التقديم وجدته يرفع قيمة السؤال .. مستلهما الحكمة القديمة التى تقول أن السؤال هو جوهر الفلسفة .. واستطرد : «إن ذلك تعريف دقيق .. فالفلسفة بالفعل سؤال ملح فى طلب المعرفة وفى البحث عن الوجوه المختلفة للحقيقة». (٤)

وأضاف : «وأظن أن المجتمعات تظل بخير طالما هى متمسكة بالسؤال .. تسأل عالمها وزمانها .. وتسأل واقعها وظروفها .. وتسأل نفسها وغيرها .. ثم لا تفتر همتها .. أو ينثنى عزمها عن التفكير فى أسئلة جديدة بلا حدود أو قيود غير الحرص على أن تبقى هذه الأسئلة موصولة بالحياة وغير معزولة عنها».

واعتبر هيكل أن الميزة الأساسية فى شخصيتى المهنية هى أننى «رجل يحمل سؤاله معه أينما ذهب .. والواقع أنه إذا كان السؤال هو جوهر الفلسفة فهو أيضا صميم مهنة الصحافة فى آخر طبعاتها .. فالصحافة خصوصا فى الغرب - أوروبا وأمريكا - تتجه فى معظمها الآن إلى ما يسمونه «الصحافة السائلة » وهى مدرسة تؤمن بأن الصحافة سؤال .. وهذا صحيح إلى أبعد الحدود .. والصحيح قبله أن الحياة سؤال .. وأن الفلسفة سؤال .. وأن الحقيقة سؤال .. أما الإجابات فهى اجتهادات بعضها يصل إلى هدفه وبعضها سهام تطيش فى الفضاء» .

وفى مقدمة الطبعة الجديدة من كتابه «حديث المبادرة» والتى نُشرت بمناسبة مرور ٢٠ سنة على زيادة السادات للقدس كتب هيكل:

«كانت شبكة قنوات الأخبار التلفزيونية الأمريكية سى. أن. إن أول من نبهنى إلى أن عشرين سنة مضت على الزيارة الشهيرة التى قام بها الرئيس أنور السادات إلى القدس فى شهر نوفمبر ١٩٧٧ والتى داهمت العالم مثل زلزال تتوالى حتى اليوم توابعه.

«وفى مناسبة الذكرى العشرين لتلك المفاجأة السياسية - نوفمبر ١٩٧٧ - فإن شبكة قنوات الأخبار التلفزيونية الأمريكية اتصلت تدعونى للحديث أمام مشاهديها فى العالم عن النتائج والآثار التى توالت وتداعت على العالم العربى والشرق الأوسط من يومها حتى الآن.

«واعتذرت لشبكة التلفزيون الأمريكية وشعورى أنه ليس هناك داع لتقليب مواجع مصرية وعربية أمام جمهور عالمى» .

«وفى اليوم التالى مباشرة جاءتنى روز اليوسف ممثلة فى نائب رئيس تحريرها الأستاذ عادل حمودة وكان طلبه هو نفس الطلب الذى اعتذرت عن تلبيته لشبكة التلفزيون الأمريكية وأفضيت للزميل الصديق بما لم أقله لغيره لأن عرض الأشجان على الغرباء هوان» .

«لكن الزميل الصديق لم يقتنع - أو حسن ظنه - أن الحديث أمام جمهور مصرى وعربى ليس تقليبا للمواجع وإنما هو فحص جديد بالدرس لتجربة غير مسبوقة ولعلها غير ملحوقة فى تاريخنا» .

«وكان عادل حمودة يحمل معه نسخة من كتاب صدر لى قبل عشرين عاما تقريبا بعنوان «حديث المبادرة» وكان يراجع صفحات منه أثناء لقاءنا وحديثنا - والكتاب يحوى

مجموعة مقالات بدأت نشرها بعد أربعة شهور من الزلزال ثم ضمها جميعا غلاف ظهرت به بيروت أوائل مايو ١٩٧٨ - أى بعد ستة شهور بالضبط.

«وهكذا فإن شبكة سى. إن. إن ذكرتنى بالمبادرة.. ثم إن مجلة روز اليوسف ذكرتنى بحديث المبادرة».

وكان أن اعاد هيكل - ولأول مرة فى مصر - نشر هذا الكتاب الذى كان من المحرمات والممنوعات .. وكنا نهربه سرا .. ونتداوله سرا.

وعندما صدر الجزء الأول من كتابه «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» فى مارس ١٩٩٦ أهدانى هيكل نسخة منه وكتب على أولى صفحاته الداخلية: «إلى الصديق عادل حمودة .. زميلا وصديقا ورفيق مشاكل مازالت تجرجر أذيالها .. مع كل الود».

والحقيقة أن هذا الإهداء لم يكن مجرد كلمات مجاملة عابرة كالتى اعتاد الكتاب أن يكتبوها للزملاء والأصدقاء .. ولكنه كان يعكس ويترجم ويلخص واقعا قد حدث و«مشاكل مازالت تجرجر أذيالها».

على مدى ثلاثة أسابيع .. فى الفترة من ١٧ - ٣١ يوليو ١٩٩٥ نشرت حوارا مع هيكل بعد محاولة الاعتداء على الرئيس مبارك فى أديس أبابا .. كان عنوان الجزء الأول منه على غلاف روز اليوسف «ماذا لو نجحت عملية اغتيال الرئيس» .. ووصفت الإذاعات ووكالات الأنباء العالمية العنوان بأنه «أخطر عنوان صحفى نُشر فى مصر منذ نصف قرن».

كان العنوان وحده كفيلا بإثارة أزمة .. وجاءت التفاصيل لتزيد من حدة الأزمة .. لقد تحولت مشاعر المصريين وفرحتهم بنجاة الرئيس إلى زفة ومولد .. دون أن تستغل الشعبية التى ارتفعت لنظام الحكم فى التغيير والتحديث وإنما أُستغلت فى ذبح «العجول» على شاشة التلفزيون.. ونقلت الكاميرات صور الذبائح الغارقة فى الدم.. ولم تفكر فى التوقف لمناقشة ما حدث .. وبدلا من البحث عن حلول لمشاكل كانت مستعصية وجدنا أنفسنا مندفعين لمزيد من المشاكل تجاه السودان الذى أُتهم بتدبير محاولة الاغتيال .. ودقت الطبول لغزوه.

وكان رأى هيكل «إن الدولة فى حاجة لوقفة مع النفس» .. وقال «أحيانا الظروف تمنحك فرصة دون أن تريد وتكسبك آلية ذاتية وهو ما حدث للسلطة فى مصر الآن بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك فى أديس أبابا» .. لكننا لم نتوقف مع النفس .. ولم نتوقف للفحص والفرز .. ولم نقرأ الواقع قراءة سليمة.

وقال : «أنا أريد الدولة وهذا هو الأهم.. وإذا راح رمز الدولة فى هذه الظروف دون طريقة لنقل السلطة سنكون أمام مجهولات قد تؤدى إلى انفراط الدولة.. وهو أكثر من غياب رئيس .. كل بشر يمكن أن يعوض.. لكن فى الظروف الدولية الراهنة يمكن فعلا نجد أن الدولة نفسها قد انفرطت .. القلق الذى أصاب الناس مثلما أصابنى بسبب الحادث هو خوف على المستقبل وليس مبايعة لما كان .. لكن فوجئنا بمن يستغل مشاعر الناس ويطالب بمبايعة جديدة لفترة رئاسة جديدة .. أنا لم أر سوء لقراءة واقع أكثر من هذا لأن هناك عدم رضاء عما هو قائم .. وكان من الممكن توظيف لحظة القلق إيجابيا فى اتجاه التغيير.. لكن لم يحدث».

وتخيل هيكل سيناريو لما يمكن – لا قدر لله لو نجحت المحاولة – وقال : «سيدخل الجيش ويأخذ السلطة .. فليس هناك نائب رئيس .. والحكومة الموجودة لا تتمتع بمصداقية .. الوضع المتوقع أن يمد الجيش ذراعه ويأخذ السلطة .. والجيش منطقة محرمة لا نتكلم عنها ولا نعرف ما فيها.. ومن ثم فصورة الحكم القادم فى هذه الحالة مجهولة .. وهذه هى الكارثة».

وحذر هيكل من التورط فى حرب فى السودان .. وطالب بأن تترفع مصر عن ردود فعل النظام السودانى التى تخفض من هيبتها .. وقال أن الحرب فى السودان قد تؤدى بنا إلى فيتنام أخرى أفريقية .. خاصة وأنه يتعين على الجيش المصرى عبور ١٥٠٠ كيلومترا من الأراضى المكشوفة على طول المسافة بين القاهرة والخرطوم .. ورفض هيكل تأكيدات بعض المسئولين المصريين بأن القوة الجوية وحدها كافية لأن السودان يمكنه التلاعب بمياه النيل التى تشكل الأمن القومى الحقيقى لمصر.

وقال هيكل ما هو أكثر من ذلك .. وتحمسنا للنشر .. واقتسام المسئولية .. إيمانا منا بأنه مقدرات الأمة فى الظروف الحرجة لا يجوز العبث بها.. لكن .. قامت الدنيا ولم تقعد .. وبدأ المحرضون يجتهدون ويتآمرون ويدسون ويوقعون بيننا وبين قيادة الدولة .. وأعترف أن قيادة الدولة كانت أكثر وعيا وفهما .. فكان أن تراجعت كل محاولات الإطاحة بى وإخراجى من روز اليوسف .. وكانت بعض الصحف المصرية – مثل الأهالى والشعب والوفد – قد توقعت أن أدفع منصبى الصحفى ثمنا لهذا الحديث الذى لخصته وكالات الأنباء وطيرته إلى أربعة أنحاء الدنيا وعلى رأسها وكالة «رويتر» فى برقيتها التى حملت رقم ١١٢ بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٩٥ والبرقية رقم ٣٠٦ بتاريخ ٢٤ يوليو ١٩٩٥ .. وفيما بعد تركت منصبى فى روز اليوسف بسبب أزمات أخرى.. لكن يبدو أن ظلال أزمة هذا الحوار لم تكن قد تلاشت تماما.

وأغلب الظن أن هيكل نفسه دفع هو أيضاً الثمن.. لقد أجريت الحوار معه وهو في قرية «الرواد» في الساحل الشمالي .. كان يراجع بروفات الطبعة العربية من كتابه «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» تمهيداً لنشرها في أكتوبر التالي – أكتوبر ١٩٩٥ – بعد ٣ شهور على نشر الحوار – الأزمة .. وكان قد أتفق على أن تقوم مؤسسة الأهرام بالنشر كما جرت العادة بعد أن أصبح نشر كتبه مباحا في مصر .. لكن .. الكتاب صدر عن دار نشر أخرى .. قطاع خاص.

وفي مقدمة الطبعة العربية التي نشرتها دار الشروق اعترف هيكل بأن هذه الطبعة «واجهت ظروفا غير مألوفة أو على الأقل غير عادية» .. كان من نتيجتها أن «الطبعة الإنجليزية الأصلية من هذا الكتاب صدرت في لندن يوم ٨ يناير ١٩٩٦ بينما تأخرت الطبعة العربية .. وكان المقرر لها أن تسبق.. وذلك تقليد حرصت عليه منذ أن سُمح لكتبي أن تُطبع وتصدر من القاهرة بعد قرابة عشر سنوات من المنع والحظر فيها أمارس عملي من وطني دون وسيلة لنشره في هذا الوطن».

«وفي هذا الكتاب تصرفت كما جرت عليه العادة منذ عام ١٩٨٥ وحتى الآن .. تقدم الأهرام بطلب حقوق الطبعة العربية كلها .. سواء للنشر الصحفي أو على شكل كتاب. وتحمست حتى قبل أن تجيء موافقة دار «هاربر كولنز» التي تملك حق التصرف في أي تعاقد. وكنت واثقا على أي حال أنهم يعرفون من تجارب سابقة سلفت أنه حين يكون الأمر متعلقاً بالأهرام فإن الموافقة تسبق التفاصيل بصرف النظر عما تقول به أصول صياغة العقود.

«واستعدت الطبعة الإنجليزية من الكتاب للصدور من دار «هاربر كولنز» ومعها الطبعة اليابانية في نفس الوقت. لكن الطبعة العربية التي ترجمت نصوصها بنفسي وتوسعت فيها وزدت عليها وألحقت بها وثائقها – واجهت ما أشرت إليه من ظروف غير مألوفة أوعلى الأقل غير عادية. وحاولت تقدير الدواعي واظنني فعلت مستجيبا لمشاعر وولاءات تعلو فوق الحقوق والعقود .. وحافظا لصلات وصداقات تسبق في حسابي أي حساب.

«وقد أضيف إلى ذلك أنني لم أطلب تفسيرا ولا تفصيلا.. وبدا لي أن الطلب قد يحمل شبهة إلحاح لا أحتاجه.. أو شبهة ضغط لا أبتغيه».

وحسب تحرياتي فإن هيكل أعاد للأهرام ما تقاضاه من مال (حوالي ربع المليون جنيه) مقابل حقوق النشر الصحفي ونشر الكتاب .. وارفق هيكل بالشيك خطاباً رقيقاً إلى إبراهيم نافع يعتذر فيه عن قبول المبلغ ولو على سبيل تعويضه عن عدم النشر

وتأخيره وعن ما يمكن أن يترتب على ذلك من أضرار وخسائر وتنفيذا لعقود وأعراف قانونية جرى احترامها والعمل بها. وقد كان إبراهيم نافع وهيكل يؤمنان أن علاقتهما معاً يمكن أن تتحمل أزمات عاتية وتتجاوزها .. ولعل الطبيعة الإنسانية الرحبة لإبراهيم نافع هي التي دعمت ذلك.

ويواصل هيكل روايته:

«ولعدة أيام كان أمامي عرض لإصدار هذه الطبعة العربية في بيروت وعاودتني ذكريات أزمة المنع والحظر وأظن أن ذلك جعلني أتردد.

«إن بيروت كانت ومازالت كريمة مع ما اكتب .. حفية وحانية عليه.. وهي تظل في كل الأوقات مركز إشعاع عربي يساير مركز القاهرة ويضاهيه.. لكن الأمر هذه المرة تخالطه اعتبارات نفسية من نوع آخر.

«لم تكن اعتباراتي النفسية تتعلق ببيروت من حيث هي بيروت.. وإنما كانت تتعلق بإحساس يخشى مظنة قبول طوعي بما يمكن أن يتبدى ولو بالرمز أو بالشكل من درجات المنع والحظر على عمل يكتب في القاهرة ثم يصدر وينشر خارجها كما حدث من قبل.

«ولعل من هذه النقطة بالذات أنني رحبت وسعدت بعرض من دار الشروق لطبع الكتاب ونشره في مصر.. ومنها إلى بقية الوطن العربي الذي لا أفرق فيه بين بلد وآخر عن إيمان عميق بأمة واحدة لها كل خصائص الأمة الواحدة بما فيها ذلك التنوع الخلاق الذي يميز الأمم العظيمة.

«ويتداعى إلى فكري – دون ضرورة لرسم مسار التداعي هنا – سؤال كثيرا ما يواجهني به أصدقاء في الفكرة والكلمة .. يسألونني «لماذا لا أكتب بانتظام في الشئون الجارية؟».. وفي العادة فإن ردي يقتصر على عبارة عامة مرسلة لأن واقع المشكلة التي تواجهني في الكتابة بانتظام عن الشئون الجارية في مصر معقد بأكثر مما يظهر على السطح .. ذلك أن الصحف التي تصدر في مصر الآن نوعان: نوع يسمى بالصحف القومية ونوع يعرف كصحف حزبية.

«وأشعر على نحو ما أن كتابتي بانتظام – أو بغير انتظام – في الصحف القومية قد تكون مسئولية ومخاطرة بالنسبة للقائمين على أمورها .. وذلك ليس مطلبي .. ثم أن الكتابة بانتظام في الصحف الحزبية تبدو لي استعارة لهوية ليست لي وذلك ليس من حقوقي».

«وفوق ذلك – وربما قبله – فإنه يخطر لى أننى كتبت كثيرا وما زلت أكتب أحيانا – وتكلمت طويلاً ومازلت أتكلم مرات – وقد يكون من المناسب أن أترك المجال لآخرين وأن أقرأ مع القارئين وأن أصغى مع السامعين .. ولعله يرضينى أن يسأل أحد : «لماذا لا يكتب هذا الرجل بانتظام؟» خير من أن يسأل أحد: لماذا يكتب هذا الرجل بانتظام؟».

«أكرر ذلك برضى كامل ومودة خالصة مع الزمن وناسه .. فلقد قلت كلمتى فى كل العصور والظروف .. وفى كل الأحوال فأن العالم مفتوح أمامي وسماواته فسيحة رحبة».

أكثر من ذلك فإن الهجوم على هيكل لم يتوقف وفى هذه المرة تقدم الصفوف الدكتور عبد العظيم رمضان.

إن الدكتور عبد العظيم رمضان هو أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة المنوفية .. وهو تلميذ لواحد من أهم أساتذة التاريخ هو الدكتور محمد أنيس .. وقد قدم الدكتور رمضان رسائله الجامعية عن تطور الحركة الوطنية فى مصر.. وهى من أفضل الدراسات التى قدمت فى هذا المجال .. وقد رحبت مجلة رزو اليوسف بنشر دراسته عن «عبدالناصر واليسار وأزمة مارس ١٩٥٤» فى وقت كانت فى المجلة تمثل المعارضة اليسارية فى سنوات ما بعد حرب أكتوبر عندما وضعها السادات وجها لوجه أمام صحيفة تعبر عن التيار اليمنى هى «أخبار اليوم» تمهيدا لإعلان ما وصف فيما بعد بالتعددية السياسية والحزبية. (٥)

فى تلك الفترة دخل الدكتور عبد العظيم رمضان روز اليوسف والصحافة مؤرخا يساريا للحركة الوطنية .. وللناصرية .. لكن تغير الرياح والظروف حولت دفته وشراعه للناحية العكسية .. فوافق على زيارة السادات لإسرائيل .. وهاجم الناصريين واليساريين .. وكان أن انتقل بقلمه من مجلة روز اليوسف إلى مجلة أكتوبر.

وفى مجلة أكتوبر فتح الدكتور رمضان النيران على هيكل فى أربعة مقالات نشرها تحت عنوان «هيكل والكهف الناصرى» .. لم تزد بأي حال من الأحوال عن كونها دعاية مباشرة ومتواضعة للنظام.. أتصور أن النظام لم يكن فى حاجة إليها.. وتحمست الهيئة العامة للكتاب لنشر المقالات فى كتاب لكن حجم المقالات لم يكن يكفى فكان أن طلب من صاحبها أن يزيد ويتوسع لكنه كان فى طريقه إلى لندن فاعتذر .. لكن .. كان هناك من كان متعجلاً لا يحتمل الانتظار فلم يجد الرجل سوى أن يفعلها بنفسه بدلا من أن يفعلوها نيابة عنه.

وربما يكون مثيرا للدهشة أن أكشف سرا ربما لا يعرفه هيكل بعد ذلك الحوار – المشكلة معه .. لقد رفع أحد كتبه التقارير السرية تقريرا يتهمه فيه بتشكيل تنظيم غير

معلن فى الصحافة المصرية .. أنا واحد من أعضائه .. ولم يقل التقرير .. ما هدف هذا التنظيم .. ولا كيف يعمل .. ولا متى يلتقى أعضاؤه؟ .. وقد رفض العقلاء فى السلطة هذه «التخاريف» .. وكان ردهم : إن هيكل شخصية صحفية لامعة ومؤثرة ولابد للأجيال الجديدة أن تقترب منه لتفهم وتتعلم وتستفيد .. إن الحلاقين والكناسين والنحاسين والفحامين لهم كبير .. فلماذا نستكثر على الصحفيين ذلك؟.

لكن فيما بعد .. بعد أن تركت موقعى فى روز اليوسف كان هناك من يلمح إلى أن الأحاديث التى أجريتها ونشرتها فى روز اليوسف مع هيكل كانت أحد أسباب الغضب الرسمى – ولو بأثر رجعى – منى .. ولم أشأ أن أصدق .. وكنت أميل لتفسير هيكل الذى قاله فى حواره مع محمد عبد القدوس فى جريدة «الشعب» عقب خروجى غير المفهوم من روز اليوسف: «إن عادل حمودة من ألمع الصحفيين المصريين الذين ظهروا فى الفترة الأخيرة بصرف النظر عن اختلاف البعض معه فى أسلوبه وآرائه.. ومن مميزاته أنه أعطى هامشا من الحرية يزيد عن ما هو مألوف وهذه إيجابية لصالحه فمهمة الصحفى باستمرار أن يعمل على توسيع هامش الحرية المسموح له بها بحكم الظروف وواقع الحال الذى لا يمكن إنكاره.. ولست فى الحقيقة أعرف الدوافع والأسباب التى أدت إلى انتقاله من روز اليوسف إلى الأهرام .. وما تم إعلانه فى هذا الصدد لا يبدو لى مقنعا.. لكن يبقى أنه أنتقل إلى الأهرام واعتقادى أن عمله هناك يمكن أن يكون بداية ممتازة لنقله أخرى نوعية فى عمل صحفى لامع». (٦)

الهوامش

(١) محمد حسنين هيكل : «مصر والقرن الواحد والعشرون – ورقة حوار» الناشر دار الشروق.

(٢) نزار قبانى : «الكتابة عمل انقلابى» صفحة ٣٨.

(٣) الأهرام – ١١ يونيو ١٩٩٥.

(٤) عادل حموده: «لعبة السلطة فى مصر» الناشر دار الشروق.

(٥) كان على رأس هذه الفترة فى روز اليوسف والتى استمرت من إبريل ١٩٧٤ عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح حافظ وفتحى غانم وقد وقع الخلاف بينهم وبين الرئيس السادات بعد مظاهرات الطعام فى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ وكان رأى السادات ان هذه المظاهرات «انتفاضة حرامية» وكان رأى روز اليوسف أنها انتفاضة شعبية.

(٦) أجرى الحوار محمد عبد القدوس ونشر فى عدد جريدة «الشعب» الصادر فى ٢٠ مارس ١٩٨٨.

٦٠

أحسدك .. على عدد خصومك

■ وهكذا .. فرضت علينا ظروف الصحافة أن تدخل معارك السياسة .. وأن نتقاسم بعضها معا .. وربما كانت هناك «مشاركة» فى دفع الثمن .. وفى خنادق القتال تولد صداقات حقيقة فلا أحد يملك فى ظروف القصف والضرب فرصة التكلف ووضع المساحيق .. وفى خنادق القتال تقترب المسافات بين البشر.. وتتساقط كثير من الحواجز بينهم.. ويفتش كل منهم عند الآخرين عن جوانبهم غير المعلنة.. وعن إجابات جديدة مباشرة لأسئلة قديمة .. ولا تأتى الإجابات من النطق فقط.. وإنما من الملاحظات العابرة والبسيطة أيضاً.. إن التفاصيل الإنسانية الصغيرة قد تكون مفاتيح لبوابات كبيرة كان من الصعب فتحها.

لقد بدأت علاقتى بهيكل بعلاقة صحفى مسئول عن تحرير مطبوعة سياسية هى روز اليوسف يريد أن يحقق قدرا من الانتشار يليق بتاريخها الصحفى العريق من خلال حوارات مع كاتب كبير ومؤثر ينتظر الناس رأيه .. ثم مع تكرار اللقاءات زادت الصلة .. وسرعان ما تحولت الصلة إلى صداقة.. والصداقة لا تقوم بين البشر على قواعد من الهوى والانفعالات وإنما تقوم على أسس موضوعية .. أو مهنية كما فى هذه الحالة .. إن الاتفاق وارد والاختلاف وارد .. ولكن فى كل الأحوال هناك أسلوب للتفاهم والحوار .. ربما يقرب مسافات الاختلاف .. ربما يباعد مسافات الاتفاق .. على أن ذلك لا يمنع التقدير والاحترام لرجل وصحفى كتب وكان بإمكانه أن لا يكتب.. وتورط وكان بإمكانه ألا يتورط .. واستخدم حواسه الخمس وكان من الممكن أن يلغيها ويستريح .. ونشر أفكاره وكان

بإمكانه أن يبقيها مجمدة .. ودخل المطبعة ووسخ ثيابه وأصابعه وكان بإمكانه أن يوفر كل هذه المتاعب ويهاجر بحجة أن الوطن فى إجازة مفتوحة ولا يحتمله.

إن لكل منا أخطاؤه.. لكن ما الذى تعنيه الأخطاء ؟ .. إنها تعنى أنك تعمل.. وكل عمل فى حد ذاته – سواء كان عملا ماديا أو فكريا – لابد أن يدخل صاحبه فى ورطة .. بل أن الحياة فى أساسها مشكلة .. أما الموت فهو «المؤسسة الوحيدة التى لا مشاكل فيها».

والصفعات والطعنات هى الوجه الآخر للقبلات .. وتاريخ الصحفى الذى يحترم قلمه قائم على هذه اللعبة من ألعاب المتناقضات .. إن الصحفى .. الصحفى لا يشعر أنه على قيد الحياة إلا حين تتساقط عليه الحجارة.. ويتهشم زجاج نوافذه.. فى هذه اللحظة يشعر أن جرعة الرأى والحرية والمعرفة التى يعطيها للناس بدأت تتفاعل فى شرايينهم .. وأن الزلزال الذى كان يحتفظ به فى داخله انتقل إليهم.. وعندما ينشر الصحفى مقالا ولا يرجمونه بسببه يشعر أنه مريض .. وتبدأ حرارته فى الارتفاع .. «إن الشتيمة فى بلادنا لا تعنى أنك فشلت وإنما تعنى أنك نجحت وتفوقت».

لقد سأل هيكل نفسه أكثر من مرة: «لماذا لا أغضب لكل الإساءات التى توجه إلى بغير حق فيما أظن؟».

وكان جوابه لنفسه ذات مرة: «لأننى أعرف أن اشعب المصرى بصفة عامة والقارىء المصرى بصفة خاصة أذكى عشرات المرات من كل هؤلاء الذين يتصورون أنهم يخدعونه بحجب الحقائق عنه».

ثم كان جوابه لنفسه مرة أخرى: «لأنى أعرف إلى أى مدى استحكمت أزمة التصديق واتسعت الفجوة بين كل ما يقال وكل ما هو واقع».

ثم كان جوابه لنفسه مرة ثالثة: «ربما لأنى أعرف أن رماة السهام المسمومة ومعرفتى بهم تعصمنى من الغضب لأي شيء يصدر عنهم.. بل لعلى أقول أننى بمعرفتى بهم اعتبر شتائمهم فى مديحا لى كما أن اتهاماتهم ضدى أوسمة على صدرى».

ويستطرد هيكل فى مقدمة كتابه «الحل والحرب» قائلاً: «وما اظننى استحق هذا المديح كله وهذه الأوسمة جميعها ولكنه الحظ وحده.. ومن الصدف أن ذلك هو نفسه المعنى الذى ورد فى برقية تلقيتها من صحفى لامع فى بيروت كتب إلى يقول: «أنا أحسدك على خصومك».. ورددت عليه أقول له: أنت على صواب فأنا استحق الحسد على خصومى ولكننى أيضاً استحق الحسد على أصدقائى ولو خيرت لما اخترت غير ما لدى على الناحيتين».

بهذا التصور عرفت هيكل أكثر.. واقتربت منه أكثر.. وتأملته أكثر.. وهو ما جعل فرصة الكتابة عنه بصورة حقيقة فرصة جيدة لا أتصور أنها اتيحت لغير ممن يهوى كتابة السير الذاتية.

بهذا التصور فكرت فى كتابة هذا الكتاب عن هيكل.

وقد لاحظت أن كثيرا من تفاصيل حياته المبكرة غير معروفة .. وسعيت لمعرفتها منه.. واعترف أنه فتح قلبه وعقله وخزانة أسراره الخاصة.. ربما لأول مرة.. لكننى لم أكتف بما قال وبما روى .. ورحت أفتش عن أصدقاء الطفولة فى حى «الحسين» .. وزملاء مدرسة «التجارة» المتوسطة فى حى «الظاهر» .. ورفاق أيام الشباب الأولى فى حى «باب الشعرية».

وكان دافعى ما قاله هو نفسه وهو يكتب عن السادات فى كتاب «خريف الغضب» الذى أثار ضجة عارمة حول حدود التدخل فى الحياة الخاصة للشخصية العامة.. وحدود تأثر الشخصيات السياسية بحياتها العائلية.. طبيعة العلاقة بين البدايات والنهايات.

إن الشخصيات السياسية فى البلاد الديمقراطية تتعرض لفحص دقيق لكل ما يمر بحياتها.. من «الداية» التى شدته للحياة.. إلى نوع الحليب الذى أرضعته له أمه (هل كان طازجا من صدر أمه أم كان مجففا من الصيدليات؟) .. ومن نوع العلاقة التى كانت سائدة فى أسرته إلى مستوى المدرسة الأولى التى تعلم فيها (هل كان متفوقا أم ضبط وهو يغش فى الامتحان وهل كان كسولا أم انطوائى) .. ومن طبيعة علاقته بالمرأة إلى كيفية حصوله على الثروة (من هى الفتاة التى حظى منها بأول قبلة فى حياته وكيف كسب أول نقود من عرقه؟).

لقد اختارت فرنسا جيسكار ديستان حاكما لها بلا تردد لأنه كان أول مرشح لرئاسة الجمهورية يقبل إذاعة التقارير الطبية الكاملة عن صحته.. وكان الفرنسيون يطالبون بذلك منذ رحيل جورج بومبيدو الذى مات بسرطان الدم.. وبسبب هذ المرض لم يكن يتذكر أرقام التفجير النووى واضطر أن يكتبها ويحتفظ بها فى سلسلة كان يعلقها حول رقبته وكان معنى ذلك سهولة معرفة هذه الأرقام وتعريض البلاد لكارثة نووية.

ورفض الأمريكيون اختيار إدوارد كيندى رئيسا لهم لأنه ثبت أنه «غش» فى الامتحان وهو طالب فى كلية الحقوق جامعة هارفارد وحرم بسبب ذلك من الدرسة لمدة سنة.. ولأنه أيضا حاول الهروب من شرطة المرور فى مخالفة سرعة وعندما قبض عليه كان مختبئا فى قاع السيارة.. ولأنه كذلك ترك سكرتيرته تموت غرقاً ولم يفكر حتى فى إبلاغ البوليس أو الإسعاف.

هذا ما يحدث عندهم.. أما ما يحدث عندنا فهو معارضة شديدة لكل من يتناول الظروف الشخصية للحكام والشخصيات العامة.. وهم يدعون أن القارئ العربى والمسلم ليس متعوداً على القراءة فى هذه الجوانب الخاصة جداً من حياة هذه الشخصيات كما هو شائع هناك.. عندهم .. فى الدول الديمقراطية.

وقد وجه صلاح عيسى هذه الملاحظة لهيكل فى الحوار الذى أجراه معه لصحيفة الأهالى المعبرة عن حزب التجمع اليسارى.. كان الحوار فى يوم الأربعاء ٢٤ إبريل ١٩٨٤ .. فى وقت كانت القيامة قد قامت ضد هيكل بعد أن تعرض فى «خريف الغضب» لعقد اللون والفقر التى حكمت السادات وطاردته.

قال هيكل: «الذين يقولون ذلك إما أنهم لم يقرؤا كتب المؤرخين العرب والمسلمين وإما أنهم يحتقرون عقلية القارئ المصرى.. ولو قرءوا كتب السلف الصالح من المؤرخين مثل المقريزى وابن اياس وأبن تغرى بردى والسخاوى لوجدوهم جميعا يربطون ظروف نشأة الحاكم وصفاته النفسية الخاصة بطريقته فى الحكم.. ولو راجعت أبواب التراجم فى تلك الكتب لوجدت حديثا كثيرا عن أصول السلاطين الأسرية وزوجاتهم وأهوائهم وكل ماله تأثير على قراراتهم .. بل أن المصريين العاديين فى كل العهود لم يكفوا أبدا عن الاهتمام بسلوك حكامهم الشخصى وهم حساسون جدا من هذه الناحية وهم أذكياء فى التقاط ما هو مؤثر من الصفات الشخصية فى أسلوب الحكم وفى طريقة إدارته .. فليس صحيحا أن القارئ العربى لم يتعود أن يقرأ عن حكامه بالطريقة التى كتبت بها .. والذين يقولون ذلك يقرون بتمييز القارئ الأوروبى والأمريكى على القارئ المصرى .. وأنه يستطيع تناول حكامه بما لا يجسر عليه المصرى حتى بعد أن يصبح هؤلاء الحكام تاريخاً».

قال صلاح عيسى: «أظن أن الذين يقولون ذلك يخلطون بين الحياة الخاصة للرجل العام والحياة الخاصة للمواطنين العاديين».

فسر هيكل : «هذا صحيح.. هناك فرق بين الرجل العام والرجل الخاص .. فالرجل العام يتقدم ليتحدث باسم الناس وينوب عنهم ويتصرف فى مصالحهم ويصدر قرارات تمس حياتهم اليومية .. ومن هنا فتصرفاته وسلوكه ومزاجه النفسى والعوامل التى أثرت فى نشأته ينبغى أن تكون محل اهتمام الناس ومن حقهم أن يعرفوها ويفهموها.. أما الرجل الخاص الذى يقتصرأثر تصرفاته على نفسه وعلى أسرته فليس من حق أحد أن يهتم بما هو خاص من شؤونه إلا الذين تربطهم به علاقات مباشرة.. ولقد ناقش المؤرخون ومازالوا يناقشون حياة الخلفاء فهل معقول أن يطالبنا أحد ألا نناقش حياة حاكم لم يكن خليفة وليس هو نبى؟».

«حين يموت مواطن عادى وقد ترك لورثته ديونا يقع العبء عليهم وحدهم.. أما حين يتولى حاكم كالرئيس السادات حكم مصر وديونها ٣ مليارات دولا فقط ثم رحل عن الدنيا وقد وصلت هذه الديون إلى ٢٥ مليارا خدمتها السنوية وحدها توازى ٣ مليارات دولار .. أى ثمانية أمثال الدين الذى بدأ به حكمه.. ومع ذلك من المصريين من يطالب بمصادرة حقنا فى أن نناقشه .. هل من المعقول أن يأتى كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه فى حياته .. ولا نناقشه بعد مماته .. أهذا معقول؟» .

وفى هذه القصة يعتبر الدكتور فؤاد زكريا (غير المعجب بهيكل) أن هيكل «مبالغا فى العوامل الفردية والعائلية التى تحكمت فى نشأة السادات وصبغت شخصيته فيما بعد بصيغتها المميزة».. ويفسر الفيلسوف المعاصر رأيه فى كتابه «كم عمر الغضب؟» «قائلا: «صحيح أنه حين يكون الحكم فرديا مطلقا تلعب شخصية الحاكم وأهواؤه وربما نزواته دورا لا يستهان به يمكن أن ينعكس على قرارته المصيرية .. لكن المشكلة هى أن العوامل الشخصية تقبل أشد التفسيرات تنوعا.. فالابن الذى يضطهده أبوه أو يسىء معاملته

مثلا يمكن أن يتحول إلى إنسان منحرف يضطهد الآخرين عندما يكبر ويكون انحرافه هذا رد فعل على نشأته الأولى.. ولكنه يمكن أيضا أن يكون إنسانا حنونا عطوفا على الآخرين لا يريد لهم نفس المحنة التى مر هو ذاته بها.. ويكون هذا أيضاً رد فعل على نشأته الأولى.. وهكذا فإن الحديث عن العقد النفسية للطفولة وتأثيرها فى الإنسان البالغ هو دائما حديث محفوف بالمخاطر يقبل أشد التأويلات تناقضاً».

على أنه سواء كان هيكل مبالغا فى تقدير العوامل الفردية والعائلية أو متوازنا فى تقديرها فإن هذه العوامل لها أهمية عنده.. ومن ثم فالبحث عنها فى حياته هو الخطوة الأولى فى كتابة سيرته الذاتية.

وهناك قضية جوهرية ثانية فى سيرة هيكل .. هل كان شاهدا على عصوره أم كان شريكا فى صياغة بعضها.. هل نعامله كسياسى لعب دورا فيما جرى أم نعامله كصحفى كانت مهمته المراقبة والكتابة؟.. بصيغة أخرى.. كيف تداخلت وتشابكت خيوط الصحافة مع أسلاك السياسة الشائكة؟.

وهناك قضايا أخرى لا تقل أهمية تطرحها وتفجرها حياة هيكل.. لكن .. يصبح السؤال الأهم هو ما «الهدف» من هذا الكتاب عنه؟ .. إن لكل كتاب هدف يسعى مؤلفه للوصول إليه.. فما هدف هذا الكتاب؟.. والإجابة على السؤال هى بسؤال آخر : كيف حافظ هيكل على نفسه ووجوده وقلمه وظل فاعلا مؤثرا منذ بدأ مشواره الصحفى فى

بداية الأربعينيات ؟ .. كيف واصل هذا المشوار فى ظل ٤ عهود سياسية مختلفة .. فاروق الأول .. جمال عبدالناصر .. أنور السادات .. وحسنى مبارك؟ .. كيف نجا من السقوط الذى هو عادة مصير صحفى مثله أرتبط بعلاقة متينة بزعيم مثل جمال عبد الناصر بعد أن رحل الأخير فى سبتمبر ١٩٧٠ ؟ .. كيف تعايش بعد انقلاب أنور السادات عليه فى فبراير ١٩٧٤ ؟ .. كيف واجه كتائب الذئاب الشرسة التى راحت تنهشه وتمزقه لمدة ٧ سنوات كاملة قاسية منذ خرج من الأهرام وحتى اغتيال السادات؟.. كيف واصل تأثيره فى الوقت الحالى رغم مقاطعة الصحف لمقالاته وأجهزة الراديو والتلفزيون لصوته وصورته وآرائه؟.. كيف ظل محافظا على مكانته رغم أنه ترك مكانه؟.. وأخيراً .. ما هى عوامل استمراريته.. نظام رياضى وغذائى صارم.. أم دأب على متابعة ما يجرى فى العالم أول بأول .. أم تدريب شخصى على أن ينفذ ما يريد فى الوقت الذى يريد .. أم قدرة فائقة على التعامل مع الآخرين .. أم كل هذه العوامل وأكثر مجتمعة معاً؟.

ولعل كتاب عن هيكل من هذه الزاوية يجعله درسا مفيدا لكل من يواجه تقلبات الحياة عامة .. وفى الصحافة خاصة.

بل .. أستطيع أن أقول أن اقترابى منه فى فترة كنت أتعرض فيها لبعض ما تعرض له هو من قبل ساعدنى على أن افهم ما جرى لى.. واستوعب الانقلابات التى وقعت ضدى.. وأفسر التغييرات التى حدثت حولى.. وكان رأيه أن أنظر إلى الأمام متجنباً النظر إلى الوراء .. وكان رأيه أننى اخترت مواقفى.. واخترت التمرد على السرب وعلى القطيع وعلىّ أن أدفع الثمن بمفردى دون أن أغضب من الآخرين – حتى الذين كان لهم مصلحة فيما فعلت – لأنهم لم يقتسموا معى «الفاتورة».

وكان رأيه أن الصحفى الذى يتجاوز الخطوط الحمراء أشبه بذلك الحيوان البحرى المغطى بصدفة ويقاتل بكلاباته الحادة مع من هم أكثر شراسة منه .. فيكسب ويخسر .. وينتصر ويهزم .. حتى إذا ما أصيب بشرخ فى قشرته التى تغطيه عليه أن ينسحب موقتاً بعيداً حتى تتكون له قشرة جديدة .. ليعود بعدها للقتال.

هو نفسه عاش – على ما يبدو – نفس الموقف بعد أن خرج من رئاسة تحرير الأهرام فى ٨ فبراير ١٩٧٤ وجاء إلى موقعه صديقه القديم وخصمه الجديد على أمين.. لقد قال هيكل فيما بعد:

«كنت بعد الأسبوع الأول من شهر فبراير – أسبوع البحر الهائج من حولى – قد قررت بسرعة أن أبتعد إلى جزيرة نائية.

لم أكن أريد أن أكون طرفا فى شىء مما رأيته يهدر أمامى متدفقا كحمم البركان .. كان رأيى أن أترك البراكين كلها تنفجر على هواها وتفرغ المحبوس فى صدرها من اللهب حتى تهدأ وتخمد وتتحول كل النيران إلى رماد وكتل صخر جامد وبقايا دمار.

مثل الذى يحدث فى التاريخ إزاء كل تحول كبير ابتداء من أديان السماء (الردة بعد الإسلام) إلى ثورات الأرض (عودة البوربون بعد الثورة الفرنسية).

ولم يكن بى خوف على الحقيقة .. فى يوم من الأيام سوف تشرق الشمس .. ثم أن حركة التغيير الإنسانى كلها لم تتأكد إلا بمحاولة نفيها.

كانت الجزيرة النائية التى عزلت فيها نفسى وابتعدت هى مكتبى فى بيتى.. وركزت جهدى كله على كتابة «الطريق إلى رمضان» وكان كتابا عن مصر من أعقاب سنة ١٩٦٧ إلى حرب أكتوب ١٩٧٣.

وكانت الأصوات والأصداء تصلنى عما يجرى خارج مكتبى وبالذات فى كواليس السياسة والصحافة .. ولم اسمح لنفسى أن انشغل به كثيراً.. وكان بعض أصدقائى يبدون دهشتهم مما ظهر لهم وكأنه نوعا من اللامبالاة .. ولم يقنعهم قولى إننى أمام لحظة انحسار تاريخى لابد لها أن تأخذ مداها .. ثم أن اعتراضها نوع من الحمق أولى منه التذرع بالصبر حتى تفرغ السحب شحناتها من البرق ثم تشرق الشمس وينجلى وجه الحق والحقيقة» – هيكل «بين السياسة والصحافة» صفحة ٣٨٤.

إن الدرس الذى تعلمته من هيكل فى وقت عشت فيه ظروفاً مشابهة لبعض مما عاشة فى بلاط الصحافة والسياسة كان واحدا من الأسباب التى دفعتنى للتفكير فى هذا الكتاب.. لقد نجحت فى أن أرتفع بتوزيع روز اليوسف من ٧ آلاف نسخة إلى أكثر من ١٥٠ ألف نسخة أسبوعياً.. وشكرت الذين تكرموا بوصفى بمسيح الصحافة الذى يحى المجلات الميتة .. وكان أن خرجت من تحت عباءة المهنة الخناجر والسكاكين .. ونجحت فى أن أعطى فرصة النجاح والتفوق لجيل جديد من الصحفيين كان يشكو من غياب الأستاذ دون أن يحاسب نفسه فيما بعد على غياب الوفاء للأستاذ .. إن كل ما فعلت لصالح هذا الوطن أرتد فى محاولات قذرة لتصفية الحسابات معى .. وتضامن الفاسدون وتحالفوا ضدى.

وشعرت فى هذه اللحظات بدعم هيكل الإنسانى وبخبرته فى التعامل مع هذه المواقف.. وهنا أهمية التواصل بين الأجيال .. فليس مهما أن تصاب بجرح فى معركة وإنما المهم أن تكون مناعتك قوية وقادرة على الشفاء وعلى الفوز فى النهاية.. وليس مهما أن تفقد موقعك.. وإنما المهم أن لا تفقد نفسك .. ولا إيمانك بالحق.

إننى لا أهوى عبادة النجوم .. فالنجوم عادة تماثيل من «عجوة» نعبدها.. ثم نلتهمها.. إننا نصنع النجوم من خيوط الضوء .. ونرسم صورها بأشعة الليزر المتحركة على موسيقى ناعمة أو صاخبة .. وعندما تطفأ الأنوار ويسود الظلام وينصرف الجمهور .. يصبح النجم وحيدا.. حزيناً .. تشوه دموعه المكياج .. فقد انتهى العرض .. واحترقت الصورة .. أصبحت الصورة «نيجاتيف».

لكن .. هيكل هو نجم من طراز مختلف .. فالضوء يتكاثر وينضج وينطلق من داخله .. من عقله وأفكاره وصموده ومعاركه.. ينطلق من امتزاج الكلمة بالرؤية .. والرأى بالخبرة .. والكتابة بالرشاقة .. والبصر بالبصيرة .. والتعبير بالتغيير .. والبقاء بالاستمرار .. لذلك فهو يزداد بريقا عاما بعد عام .. ويزداد نجومية كتابا بعد كتاب .. ومقالة بعد مقالة .. وحوارا بعد حوار.

وأجدنى متحمساً لإهداء هذا الكتاب للأجيال الجديدة فى مصر ليس فى الصحافة فقط وإنما فى كافة نواحى الحياة فى هذا الوطن .. فقد ولدت هذه الأجيال فى مواقعها العملية وكبرت ونمت وتحمست للتجديد والتطوير دون أن تجد من يعطيها القدوة والفرصة .. بل أنهم حرموها من خبرات وتجارب من سبقوها من أجيال .. بل وعاقبوها لتمسكها بفضيلة الوفاء .. ولم يترددوا فى أن يواصلوا الطرق على رأسها بمطرقة الإعلام الكاذب المشابه للحمل الكاذب حتى تفقد الذاكرة أو حتى لا يبقى من الذاكرة إلا ما يعين بقاء دجاجة على نبش الأرض بحثا عن حبات قمح أو حبات رمل .. ولذلك لم يكن مستغربا أن هذا الوطن كان يبدأ دائما من الصفر .. فالصفر فى كل تجاربنا السياسية والمهنية والعاطفية هو أكبر الأرقام.

ولابد أن أتوقف هنا لأقول ان مادة الكتاب – التى استغرق الحصول عليها أكثر من عامين – قد تضخمت إلى حد فرض أن يصدر هذا الكتاب – الذى يتوقف عند رحيل جمال عبد الناصر – الآن على أن يتبعه كتاب آخر يواصل مشوار هيكل فيما بعد.

وبعد هذا المقدمة التى طالت .. نضع المفتاح فى الباب .. وندخل فى الموضوع .. مع الإيمان بأن الله خير حافظ .. والثقة فى أنه لن يصيبنا إلا ما كتبه لنا .. وأن الزبد يذهب جفاء ولا يمكث فى الأرض إلا ما ينفع الناس.

ولا يفوتنى بعد هذا التمهيد الذى يدخل مباشرة فى لحم الكتاب أن أوجه الشكر إلى عدد كبير من الشخصيات العامة وبعضهم – إن لم يكن معظمهم – أصدقاء .. على المساعدة المباشرة أو غير المباشرة فى توفير مادة الكتاب أو فى تحقيقها .. ومعظمهم – إن

لم يكن كلهم - عرفوا هيكل وعايشوه عن قرب .. رجل الأعمال الوفدى أمين فخرى عبد النور .. عميد كلية حقوق الإسكندرية الأسبق الدكتور هشام صادق .. وزير الإعلام الأسبق رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان محمد فائق .. صديق طفولة هيكل وصباه خبير السياحة مصطفى البكرى وأسرته .. الدكتور ميلاد حنا .. الكاتبة الصحفية إيفلين رياض .. الكتابة الصحفية سناء البيسى .. المستشار سعيد الجمل .. مدير مكتب عبدالناصر وزير شئون رئاسة الجمهورية الأسبق سامى شرف .. مسئولة النشر فى مؤسسة الأهرام قبل رحيلها نوال المحلاوى .. الصحفى والدبلوماسى الفرنسى أريك رولو .. الوزير الأسبق فى العصر الناصرى فتحى الديب .. الكاتب الصحفى صلاح منتصر .. المدير الفنى بالأهرام سمير صبحى .. مساعد رئيس تحرير الأهرام للمعلومات أبو السعود إبراهيم .. الباحث الأردنى جمال الشلبى .. الأديب الصحفى خيرى شلبى .. نائب رئيس تحرير «واشنطن بوست» بوب وود ورد .. الكاتب والسياسى أحمد حمروش .. الباحث بجامعة أيوا الأمريكية منير ناصر .. الصحفى والتلفزيونى عماد الدين أديب .. الكاتب والمفكر محمد الخولى .. و .. رئيس تحرير الأهرام إبراهيم نافع.

لكل هؤلاء جزيل الشكر .. يضاف إليهم صديق فى عصر عزت فيه الصداقة هو الدكتور نصيف قزمان الذى كان دعمه الإنسانى لى - خاصة فى وقت خرجت فيه الذئاب الجائعة تنهش لحم كل من تصادفه - عاملا حاسما مؤثراً يفوق كل وصف.

عادل حمودة

مصر الجديدة - صيف عام ٢٠٠٠

الفصل الأول

الجذور: من الحجاز إلى الحسين

٧

ولد في عام الدستور

■ «وجه من القطع الكبير.. جارم الملامح والتقاطيع .. مستطيل .. مبروم كسلة الفاكهة .. حاجبان قصيران مقوسان فوق عينين ضيقتين كأنهما منضبطتان على نظرة تستشرف ما وراء الأفق البعيد .. أبرز ما فى الوجه أنف مستطيل .. يبدو أن انسيابه بين الحاجبين كمقبض الخنجر .. ولابد أنه أنف مدرب على التقاط رائحة الأخبار من بعد بقدر دربة عينيه على رؤية اتجاه الريح وكشف مصادر العواصف.

الفم واسع كفتحة جيب البالطو .. تطل منه ابتسامة عريضة تجعل الفك السفلى بالذقن أشبه بفنجان شاى .. وهى ابتسامة تضفى على الوجه إشراقاً وحميمية وفرط ذكاء .. ابتسامة مفكرة .. شديدة الخصوصية .. لا تشبه ابتسامة أى شخص آخر.

لا تخطئى العين مصريته .. فالدم الذى يجرى خلف بشرته ليس إلا طمى النيل .. يعكس على بشرته لون الفخار.

على شدة أناقته واهتمامه بمنظره الخارجى بقدر اهتمامه بثقافته وبتاريخ مصر فالعين المدققة لا تراه إلا فلاحاً عريقا طويل الذراعين والأصابع من شدة ما عزق وزرع وحصد وعافر فى طين الأرض بأصابعه يقيم عقالات المياه ويخطط الزرايق ويطهر المصارف.

ما وقع بصرى على وجهه وذراعيه الممدودتين باستمرار يستعين بهما على شرح حديثه وتصوير آرائه والإيحاء بأفكاره المستترة، إلا وتذكرت أهلى الفلاحين الكبار الحكماء الذين يرتبطون من ألسنتهم وبكلمة واحد منهم تنفض المعارك وتقام الأفراح ويجرى

الصلح بين المتخاصمين .. أولئك الذين ترى فى عيونهم المكر والدهاء مستترين وراء مسحة من التسامح والأريحية على وجوههم التى لوحتها الشمس وحمصتها وأكسبتها صلابة تعكس قوة إرادة وعزماً وتصميماً وقدرة على الاحتمال والصبر وطول البال .. لديهم طوفان لا ينفذ من المسلية المعبرة عن مثل وقيم أخلاقية ثمينة يسوقونها إليك فى أساليب ساحرة تفيض بالدفء والإنسانية والشغف بالحكى نفسه .. إنهم أحفاد العماليق الأوائل الذين أقاموا حواراً مع الكون ودخلوا فى جدل مثمر خلاق مع ظواهر الطبيعة وخوافيها وقهروا النيل وامتطوا صهوته يوجهونه إينما شاءوا ومكروا بالموت فقهروه وأقاموا على أنقاضه حضارة خالدة .. وابتلعوا جميع الغزاة فمصروهم». (١)

هذا هو هيكل كما وصفه بقلمه الموهوب أديب له بصمة واضحة فى الرواية والأدب والسيرة الذاتية هو خيرى شلبى.

والمثير أن هذا الوصف المعجون بالطمى والزرع ومياه النهر وغيرها من المفردات التى تفتح عليها خيرى شلبى يكاد يقترب من وصف كاتب آخر .. ولكن عاش فى فرنسا.. وليس أديبا بقدر ما هو صحفى .. هو جان لاكوتور.. الذى وصف هيكل بكلمة «الرجال» فى مقال نشره فى مجلة «مغرب ومشرق» التى تصدر فى باريس .. فى عدد مايو - يونيو ١٩٧٤ وهو أول عدد صدر من هذه المجلة بعد إبعاد هيكل عن رئاسة تحرير الأهرام فى فبراير من ذلك العام .. وكان جان لاكوتور واحد من الكتاب الغربيين الذين تابعوا عن قرب تجربة عبد الناصر وثورة يوليو ونشر كتاباً عنها بعد رحيل عبدالناصر بعنوان «أنصاف الآلهة».

لقد وصف لاكوتور هيكل بأنه رشيق .. حاد الملامح .. قوى .. ذو وجه فلاح .. اختار بدلا من أن يصبح فرعونا ويدخل المتحف أن يعبر عن صديقة الأسمر الصعيدى مثله جمال عبد الناصر .. سريع الجملة .. حاد العبارة .. ذو نظرة متقدة غالبا .. وذو ابتسامة ماكرة .. على أنه فى كل الأحوال هو الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام فى مصر الآن .. وقد مثل المرحلة التاريخية التى عبرت فيها بلاده ارتعاشات الإقطاع المسيطر عليه من الأجنبى إلى سلطة بورجوازية وطنية محاطة ومتحالفة مع البيروقراطية ومسلحة بالكبرياء الوطنى.

«ناطق رسمى متحمس وصديق وفى – من وجهة نظر قد تكون ذاتية أكثر منها موضوعية – للرئيس الراحل (عبدالناصر) المحرك الفعال لعملية تحديث أتت ثمارها مع حرب سيئة .. وتبدو استقلالية رئيس تحرير الأهرام السابق – التى لا تفتقر إلى النبل بشخصيته وطاقاته – متجاوزة للناصرية .. أو بالأحرى هو يقف فى خط أكثر ضيقاً وأكثر اتساعاً .. فهو يجمع فى شخصيته شيئا ما من التيارات الثلاثة التى جعلت مصر – العابرة إلى الاستقلال منذ عام ١٩٢٢ – ما هى عليه .. تيار الوفد المنفتح .. تيار الرجال الذين اعتمدوا على أنفسهم مثل محمد عبده.. وأخيرا التيار المنتصر على فاروق ويمثله جمال عبد الناصر .. الرجل الصلب الذى وصل إلى ما وصل إليه بقوة الأشياء وربما بفضل أستاذ العلاقات العامة الاستثنائى .. هيكل». (٢)

ويكاد كل الذين يعرفونه عن قرب أن يجمعوا على صفات مشابهة .. خاصة وهو يتحدث.. فهو «سريع الحركة .. سريع الفهم.. سريع الإجابة .. ومن الثانية الأولى تجد نفسك منجذبا إلى ملامحه الدائمة التغير والانفعال.. المشحونة بكم وافر من الاطلاع وحب الاستطلاع .. وبالكاد تستطيع أن تسمعه وتتابع حديثه .. فحديثه عاجل ناعم حاسم كدقات تلغراف مبطن بالقطيفة.. وإذا أردت أن تتكلم أنت يلمحك فيقطع عليك التهيؤ وترتيب الأفكار وأى مقدمات قد تفكر فيها ويقول: شوت .. أى تكلم». (٣)

* * * *

وُلد هيكل فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .. وهى السنة نفسها التى عرفت فيها مصر أول دستور مكتوب فى تاريخها الحديث .. وكان هذا الدستور هو أول مكسب وطنى.. ديمقراطى حققته ثورة ١٩١٩ .. الثورة الشعبية الليبرالية التى جاءت بالبرلمان والجامعة والمسرح والتعليم الإلزامى وحرية الصحافة وحقوق النساء .. والمثير أن سنة الثورة كانت هى السنة التى تزوج فيها والد هيكل من أمه.. وتكونت الأسرة.

فى اليوم الذى وُلد فيه جرت أحداث مثيرة .. كانت تليق على ما يبدو بمولد صحفى كبير يحترف متابعة ما يجرى .. فقد اشتعلت ثورة فى إمارة شرق الأردن.. وطالب زعماؤها بمجلس نيابى .. وانتهى البناء الجديد للوكالة السياسية الإنجليزية القريب من ثكنات قصر النيل (مقر الجامعة العربية فيما بعد) ليسكن فى البناء الجديد المعتمد البريطانى اللورد كرومر .. وأحرز طيار فى البحرية الأمريكية أسمه «سند رش» رقما جديداً فى سرعة الطيران هو ٣٨٥ كيلومتراً فى الساعة .. وأصيب الرحال الأمريكى

الشهير «ريناى» بالشلل وتوفى وهو فى طريقه إلى نيروبى على ظهر الباخرة «ساكتون» وألقى جثمانه فى عرض البحر .. وأعلنت المدارس الثانوية عن قبول خمس منح مجانية فقط لطلاب بالأقسام الخارجية فى كل مدرسة من مدارس القطر .. وأعلنت الصحف أن الشروط معلقة فى المدارس .. بينما أعلنت إحدى المدارس الخاصة هى مدرسة «وادى النيل» الثانوية بأول «ضرب الجماميز» عن مصروفات العام الدراسى الجديد وهى ٤٥ جنيه للدراسة الداخلية و٢١ للنصف داخلية و١٥ جنيه للخارجية بالكتب.. وفى نفس الصحف إعلانا عن بيت من ثلاثة طوابق على الشارع الرئيسى فى العباسية مقابل ١٥٠ جنيه .. وإعلان آخر عن تياترو كافيه ريتش بميدان «سليمان باشا» حيث «ستطرب الآنسة أم كلثوم وتغنى بصوتها الرخيم الأدوار والطقاطيق الجديدة وسعر الدخول العمومى (بدون مشروبات) ١٠ صاغ (قرش)» . (٤)

فى ذلك اليوم فتح هيكل عينيه الضيقتين الثاقبتين على منطقة عريقة .. عتيقة .. فى القاهرة القديمة .. منطقة الحسين والأزهر والغورية وخان الخليلى .. حيث يلتقى الدين بالدنيا .. ويتعايشان معاً فى حياة مشتركة صافية .. لا تعرف التحولات الحادة .. ولا التغيرات المفاجئة .. ولا المنعطفات غير المتوقعة .. إنها نفس المنطقة .. بنفس الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية وربما النفسية أيضاً التى وصفها نجّيب محفوظ فى «الثلاثية».

إن البيت الذى تربى فيه هيكل فى هذه المنطقة هو بيت جده لأمه وقد هُدم البيت فيما بعد وأقيمت على أرضه مستشفى «الحسين» الجامعى كما قال لى أحد أصدقاء طفولة هيكل وزميله فى مدرسة التجارة المتوسطة وزوج صغرى بنات خاله هو مصطفى البكرى الذى أصبح فيما بعد واحداً من أبرع خبراء السياحة ونائبا لرئيس مجلس إدارة شركة فنادق «حياة ريجنسى» العالمية .. وقد قابلته هو وزوجته السيدة «كرم» فى مارينا الجديدة.. المنطقة رقم «١٢» .. الفيلا رقم «٢٣» .. وقد كان أحد مصادرى فى معرفة الفصول الأولى لقصة حياة هيكل.

كان البيت مكون من ثلاث طوابق .. مغلق لسكن عائلة جد هيكل لأمه عبدالله سلام .. كان تاجراً من تجار الحبوب والغلال ويساعده فى تجارته أبنه الأكبر سلام الذى أثر كثيراً فى حياة هيكل العملية .. وكان سلام الخال ينفرد بالعيش فى «مندرة» بالدور الأرضى.. وكانت هناك فى الدور الأرضى أيضا «مندرة» أخرى حولها إلى مكتبة تتكدس

بالكتب.. كان يحصل عليها من مكتبة «صبيح» بالمقايضة على حد تعبير هيكل نفسه .. الذى وجد فى هذه المكتبة ثروة من كتب التراث .. وترجمات الأدب .. والأساطير الشعبية .. فراح ينافس خاله سلام فى قراءتها .. بل أنه كان على ما يبدو أكثر شراهة فى القراءة .. على الأقل بحكم فراغ الاجازات .. فكثيراً من الكتب كان هو الذى فض بكارتها بعينيه.

* * * *

مكتبة صبيح هى مكتبة ومطبعة تقع فى العقار رقم ١٢٦ فى شارع الأزهر ضمن مجموعة أملاك محمد بك أبو الدهب التى تضم ثلاثة آثار هى جامع محمد بك أبو الدهب (اثر رقم ٩٨) وخان الزراكشة (اثر رقم ٣٩١) وسبيل محمد بك أبو الدهب (اثر رقم ٩٢) .. وتتوسط المكتبة شارع الأزهر المعروف قديما بشارع «الرقعة» وشارع «المطبخ» .. وهى تعد من اقدم المكتبات فى القاهرة .. وقد بُنيت على طراز القاهرة العثمانية .. وأُغلقت أبوابها فى عام ١٩٩٤ بعد حوالى ١٥٠ سنة .. وكانت تشمل الدورين الأول والثانى من مبنى وكالة محمد بك أبو الدهب .. وتبلغ مساحة الدور الأرضى منها ٢٩٢ متراً مربعاً.. والدور الثانى ١٦٥ متراً مربعاً .. وبُنى مبناها فى عام ١١٨٧ هجرية .. وتضم ٥ آلاف كتاب نادر .. منها «ألف ليلة وليلة» والتفاسير والقرآن والسيرة النبوية ومخطوطة كاملة لديوان بشار بن برد المفقودة .. ومجموعة نادرة من كتب التصوف .. أهمها كتب الحلاج والسهرودى فى طبعات ترقى إلى قيمة ومستوى المخطوطات.

وفى آخر أغسطس ١٩٩٩ جرى مزاد لبيع الكتبة فى مقر المصرف الإسلامى الدولى حضره ٢٥ رجلاً من رجال الأعمال من أصحاب المكتبات الشهيرة بتأمين نقدى ٢٠٠ ألف جنيه لكل فرد يدخل المزاد .. وقد بدا المزاد بمليونين ونصف المليون جنيه وانتهى بزيادة مليونين آخرين ولكن المثمن القضائى عبد الله محمد إبراهيم رفض إتمام إجراءات البيع لأن القيمة الحقيقية والتاريخية تصل إلى ١٣٠ مليون جنيه .. فسعر المتر فى هذه المنطقة يصل إلى ١٢٠ ألف جنيه.. وكانت تصفية المكتبة بناء على حكم قضائى من محكمة النقض صدر فى ا لدعوى رقم ٢١٣ لعام ١٩٩٣.

* * * *

إن هذه التفاصيل التى أتصور أن هيكل سيقرأها بتأثر تحدد مصدر المعرفة الأول الذى ساهم فى تكوين ثقافته وضاعف من موهبة التخيل التى عرفها عنه أصدقاء الصبى وزادت من براعته فى رواية الحكايات.. خاصة وهم فى الطريق إلى المدرسة أو إلى البيت

وقد ورث هذه الموهبة عن أمه السيد «هانم» على حد قول ابنة خاله السيدة «كرم» التى أضافت أن عمتها كانت ساحرة وهى تروى للصغار الحكايات .. وكانت قادرة وهى تتحدث أن تشد الانتباه.

ويروى مصطفى البكرى: إنه هو وهيكل وعبد العزيز سلام أبن خاله هيكل كانوا أصدقاء فى الحى والمدرسة .. وانهم عندما كانوا يلتقون كان مصطفى يتحدث عن حلمه فى الاهتمام بالقاهرة القديمة لتضاف لثروة مصر السياحية .. وكان هيكل يحكى لهم حكايات .. أما عبد العزيز فكان يغنى أغانى فريد الأطرش وأسمهان الجديدة.

وأحد المشاهد العالقة فى ذهن هيكل منذ أن كان صغيراً على حد روايته لسناء البيسى فى مجلة «نصف الدنيا» .. صورته وهو «جالس فى مندرة الضيوف فى البيت الكبير الذى تسكنة الأسرة وقد تحول معظمها إلى أكداس كتب جاءت لخالى من مكتبة صبيح وكان أصحابها أصدقاء له .. فى يدى كتاب ضخم أقلب فيه برهبة عنوانه «أدب الدنيا والدين» .. مازلت أذكره .. ومازلت أحس رهبة قراءة أشياء لا أستطيع فهمها ولكنى أحاول».

وتقول السيدة «كرم» : إن والد هيكل أيضاً كان يتمتع بجاذبة فى رواية الحكايات.. وكان موهوبا فى أن يتوقف عند نقطة مثيرة فى الحبكة تجعلنا نتحرق شوقاً لأن يأتى الغد لنعرف ما جرى لأبطال الحكاية.

إن موهبة الخيال وسحر الحديث والقدرة على شد الانتباه هى صفات يتمتع بها هيكل .. وواضح أنها صفات وراثية .. نمت بالنهم للقراءة .. والسفر.. والتدريب على فنون الحياة .. والحرص على العلاقات الشخصية .. وربما لن يصدق الذين لم يعرفوا هيكل عن قرب أنه قادر على الحديث ببراعة وخبرة فى موضوعات تبدو بعيدة عن الاهتمامات السياسية .. مثل الموسيقى الكلاسيكية .. واللوحات التشكيلية .. وأنواع السيارات .. وموضات الثياب .. وعلاقة الطعام بنوعية أدوات المائدة .. وتناسق الزهور .. بل أنه فى الموضوعات التى تتصل بالحياة ربما يكون أكثر جاذبية فى الحديث من الموضوعات السياسية المباشرة .. فى السياسة تكون كتابته أكثر براعة.

الهوامش

(١) خيرى شلبى : بورترية بعنوان «الوثائقى» مجلة الإذاعة والتلفزيون – عدد ٩ ديسمبر ١٩٩٥ – ص٦٠.

(٢) جمال الشلبى : «محمد حسنين هيكل: استمرارية أم تحول» ترجمة حياة الحويك عطية – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩٩ – ص ٣٢٧.

(٣) سمير صبحى : «الجورنالجى» مصدر سابق – ص ١٩٦.

(٤) المرجع السابق: ص ٤٦.

■ ٨ ■

صراع القلب بين العمامة والطربوش

■ فى الطابق الثالث من البيت الكبير كانت جد هيكل لأمه يسكن فى شقة أمام الشقة الأخرى التى تسكن فيها السيدة هانم مع زوجها.. إنها الزوجة الثانية له.. لقد تعرف والد هيكل على جده لأمه وتشاركا معاً فى وكالة لتجارة المحاصيل السودانية .. كانت بالقرب من مكتبة صبيح فى شارع الأزهر .. وكان خال هيكل هو المسئول عن إدارتها .. وأغلب الظن أن التجارة المشتركة خلقت نوعا من الود الإنسانى سرعان ما تحول إلى علاقة نسب كما هو الحال فى مثل هذه المجتمعات .. فكان زواج «هانم» وهى صغرى الأبناء من والد هيكل رغم فارق السن الكبير بينهم .. ورغم أنه متزوج من سيدة أخرى هى السيدة «صالحة» ورغم أن له منها أولاد فى مرحلة الشباب على رأسهم أحمد ومجاهد اللذان كانا يساعدان الأب فى تجارته .. وليس من الصعب والزواج كان فى عام ١٩١٩ أن نتفهم قبول أسرة الأم أن تزوجها من رجل على ذمته زوجه أخرى له منها أولاد أكبرهم يقترب من عمر الزوجة الثانية.. فقد كان ذلك من طبائع الأمور فى ذلك الوقت خاصة للتجار الذين يقدرون مادياً على تحمل هذه الأعباء.

كانت الأم التى لعبت الدور الأكبر فى حياة هيكل تعرف القراءة والكتابة بل أنها كانت تعرف اللغة الإنجليزية .. وتعرف أصول الحياة العصرية التى بدأ المجتمع المصرى فى ذلك الوقت يميل إليها متأثراً برياح التحديث التى بدأت تفد إليه من ناحية أوروبا .. لكن ما ساعد الأم على قبول هذه الأفكار الزوجة الثانية للأب «دولت» هانم كما كانوا ينادونها والتى كانت تؤمن بتعليم البنات رغم أن زوجها – جد هيكل لأمه الذى كان ينتمى فى بعض جذوره إلى المغرب – كان متزمتاً .. محافظاً.

وفيما بعد وحتى وفاتها فى بداية التسعينات ظلت الأم كما يقول هيكل تتابع ما يكتبه وكانت ناقدة له. (١)

وقد عرف أنها كانت تقرأ مقالاته بانتظام .. وعندما ترك الأهرام قال لها: «لا تنزعجى يا أمى .. مادام القلم معى فأنا لم أفقد شيئاً» .. وعندما دخل هيكل السجن كان أبناؤه لا ينقطعون عن زيارتها .. وقد رددت أكثر من مرة أنها حسب رؤية لها فى المنام «فإن محمد لن ليبقى طويلا فى السجن» .. ويقول الذين عرفوها عن قرب: أن هيكل كان قريب الشبه منها .. وأنها كانت سيدة قوية تولت تربية وتعليم أولادها وبناتها السبعة .. وهم بالترتيب .. خديجة ومحمد وتهانى وفوزى ونادية وآمال ومها .. وكلهم تزوجوا ما عدا فوزى الذى حصل على الدكتوراه وراح يقوم بالتدريس فى احدى الجامعات الأمريكية .. وحافظ هناك على أفكاره التقدمية .. وكلهم اعتمدوا على أنفسهم ولم يستعلموا أسم شقيقهم ولم يفكروا فى نفوذه .. بل أن لا أحد تقريبا كان يعرف عدد هؤلاء الأشقاء .. ولا حتى أسمائهم .. ولا أحد يعرف أنهم جميعا تخرجوا فى الجامعة وشقوا طريقهم للنجاح فى صمت وصبر.

وبسبب السيدة «دولت» تمنت «هانم» الصغيرة أن تتزوج أفنديا يضع الطربوش على رأسه ويُفضل أن يكون موظفا حكوميا كما حظيت شقيقاتها .. لكنها لم تجد فى نفسها الشجاعة فى التعبيرعن ما تريد ووالدها يزف إليها خبر زواجها من تاجر أكثر ثراء من موظفى الحكومة وإن كان لا يضع الطروش على رأسه ولا يرتدى ملابس الأفندية .. وإنما يرتدى مثله ملابس التجار فى ذلك الوقت .. وهى أقرب لملابس رجال الدين .. الجبة والقفطان.

وعلى عادة التجار فى ذلك الزمان لم يكن والد هيكل يقرأ ولا يكتب .. ويتذكر هيكل أنه وهو طفل صغير كان يصل إلى مسامعه صوت أمه وهى تقرأ لأبيه فى كثير من الليالى سيرة «الظاهر بيبرس «وأسطورة الأميرة ذات الهمة» .. وقد كان هيكل يقاوم النوم ويحاول أن يصرعه حتى يكمل ما يسمعه وما يأتى إليه من دراما مثيرة وشيقة عبر الجدران فى سكون الليل .. ويقول هيكل: «إن هذا الكلام كان يأتينى ويدخل رأسى ويفتح لى أشياء كثيرة ولكن أبى وأمى لم يكن فى بالهما أن كل هذا يؤثر فى».

إن هذا «الكلام» الذى كان يأتى هيكل ويدخل رأسه ويفتح له أشياء كثيرة هو الذى اثر فى أسلوب كتابته المتأثر بالحبكة الدرامية والصياغة الأدبية رغم أن كتاباته هى فى الأساس كتابات سياسية .. إنه صحفى لا ينسى فضل الأدب .. أو كاتب سياسى يعرف كيف يمتطى صهوة الأدب.

ويمكن هنا أن نحتكم إلى شهادة خبير هو الأديب الذى يعرف كيف يزن الأسلوب .. خيرى شلبى .. لقد قرأ خيرى شلبى كتاب هيكل «إيران فوق بركان» – الذى صدر فى الخمسينيات فى أعقاب زيارة لهيكل لتغطية انقلاب الدكتور محمد مصدق فى طهران – وهو تلميذ فى الصف السادس من المرحلة الابتدائية .. فكان كما كتب بنفسه أن «فوجئت

بأننى أقرأ أسلوباً بسيطاً عميقاً فى آن واحد. على درجة من السلاسة لم أعهدها من قبل .. أسلوب يستدرجنى شيئا فشيئا من السطح إلى الأعماق .. وينتقل بى فى قصر من القصور الحافلة .. يُطلعنى على غرفه وأبهائه ومسالكه ودروبه. فما أن انتهيت من الكتاب حتى شعرت أننى قد أضفت إلّى ذاكرتى أشياء كثيرة ثمينة يحق لى أن أزهو بها أمام أترابى. وعلقت بذهنى عبارات رشيقة لماعة تغرينى بترديدها بصوت عال. وانفتح أمام ناظرى ذلك العالم الساحر المبهر: عالم السياسة . أدركت كذلك – لأول مرة أيضاً – كيف أن السياسة فى معظم الدول – المجاورة والبعيدة – مرتبطة ببعضها. مؤثرة فى بعضها. بهرتنى الشخصيات والأحداث والتحليلات والعلاقات المتشابكة.

«كان هو أول كتاب سياسى أكمل قراءته من الغلاف إلى الغلاف. العجيب أنه نشط خيالى الروائى منذ الصغر وفتح عينى على فحص العلاقات بين الشخصيات فى الملاحم الشعبية التى كانت تُقرأ فى مندرتنا: الزير سالم والهلالية (أبو زيد الهلالى) وعنترة (عنتر بن شداد) و(الأميرة) ذات الهمة وألف ليلة وليلة». (٢)

ولأن التحليل ثاقب ومحترف فما الذى يمنع من الاستمرار مع صاحبه الذى يواصل :

«إن أسلوب هيكل يجمع بين الحيدة العلمية المجردة كأسلوب يتعامل مع الحقائق والأرقام والتواريخ والوثائق وبين الروح الأدبية المليئة بالزخارف وفنون البلاغة العربية العريقة. فأنت تقرأ لأحد كبار الروائيين المعاصرين فى العالم .. وقد ظهرت هذه الموهبة بوضوح تام فى كتبه الفذه التى تفرغ لكتابتها بعد إقصائه عن جريدة الأهرام. كأن القوة الغاشمة التى حالت بينه وبين الصحيفة السيارة كانت تعمل لصالح التاريخ المصرى المعاصر. إذ لولا تفرغ هيكل الكامل وتحرره من المسئولية الإدارية ما قُدر للمكتبة المصرية أن تغتنى بهذه المصادر التاريخية الثمينة التى تحدت سنوات التحول المريع واحتفظت لمصر بذاكرتها وأثبتت أن الثورة المصرية لم تكن شيئاً ميسورا ولم تضع هباء.

«وإذا كانت الثورة المصرية قد تعثرت وتعرضت للفشل واقتضبت وحيل بينها وبين التطور الخلاق لاستكمال أهدافها النبيلة بفعل سيطرة القوى الجهنمية العالمية التى سلطت عليها فإن كتب هيكل ووثائقه تعتبر استكمالاً لثورة يوليو وصولا بها إلى ما لم تحققه بالفعل فى الواقع المصرى.

«إن كتابة «خريف الغضب» على سبيل المثال يعتبر رواية تاريخية بكل المقاييس الفنية المتعارف عليها للرواية التاريخية مع فارق جوهرى أساسى هو أن الخيال هنا لا دور له إلا فى الحبكة. فبطل الرواية هو الرئيس أنور السادات. يتبعه الكاتب منذ الطفولة إلى النهاية. ومثل كتاب الرواية التاريخية التسجيلية يقدم الكاتب العديد من الوثائق والمستندات التى تساهم فى توضيح جوهر الشخصية وتفسر تصرفاتها.

تمتد جذور أسرة هيكل إلى الجزيرة العربية .. وقد هاجرت منها فى القرن السابع عشر إلى الشام (وهو الاسم القديم لسوريا) ومنها إلى مصر .. حيث استقرت لبعض الوقت فى الدقهلية .. ومنها إلى الصعيد .. ويمكن أن يكون بعضها قد هاجر إلى الدقهلية والبعض الآخر وجد نفسه فى الصعيد .. حسب بحث الدكتور يوسف هيكل وهو فلسطينى كان رئيساً لإحدى البلديات فى الضفة الغربية وقد راح يتتبع اسم هيكل ليعرف من أين بدأ وإلى أين ذهب واستقر.. وقد توصل إلى أن فرعاً من العائلة المهاجرة قد استقر فى الدقهلية وبرز فيه رئيس مجلس الشيوخ الأسبق وصاحب جريدة «السياسة» محمد حسين هيكل باشا .. واستقر فرع آخر فى الصعيد .. فى ديروط الشريف ولهذا الفرع ينمتى محمد حسنين على هيكل .. والفارق بينهما هو حرف النون الزائد اسم .. حسنين.

كان الجد الأكبر يشتغل بالتجارة .. كان له مراكب شراعية تجرى فى النيل وتنقل المحاصيل من الصعيد إلى شمال القاهرة.. عند باسوس بالقرب من قليوب .. حيث استقر والد هيكل مع زوجته الأولى .. وكان للجد الأكبر أيضاً «وابور طحين» ومحلج قطن صغير وشونتان لتخزين الغلال والحبوب فى روض الفرج واثر النبى وهما من الموانىء النيلية القريبة من القاهرة.. لكن أيام الأب لم تكن كل رياحها طيبة.. وفيما بعد لم تأت هذه الرياح بما تشتهى سفن الأب.

فى رسالة الدكتوراة التى قدمها جمال الشلبى للسوربون أن علاقة هيكل بعبد الناصر تأكدت وازدادت قوة بين الرجلين «ليس فقط لأنهما يملكان توجهات وتصورات واحدة نحو العمل السياسى بل لأنهما أيضا – وعلى ما يبدو – سلكا نفس الطريق الاجتماعى والاقتصادى مما زاد التقارب العاطفى والوجدانى بينهما». (٣)

والحقيقة أن عبد الناصر وهيكل لم يسلكا نفس الطريق الإجتماعى والاقتصادى .. ولا شىء يربط بين جذورهما سوى أن هذه الجذور تمتد جغرافيا إلى الصعيد .. عبدالناصر من قرية بنى مر الواقعة على بُعد ٤ كيلومترات من مدينة أسيوط .. وهيكل من ديروط الشريف التى تبعد عنها بحوالى ١٢٥ كيلومتراً فى اتجاه القاهرة .. وربما كانت لهما نفس الملامح الواضحة لأبناء الصعيد .. الذين تبدو خطوط وجوههم أقرب لخطوط النحت منها إلى خطوط الرسم .. فهى خطوط حادة واضحة .. فى بشرة سمراء .. وإن انفرد عبدالناصر بأنه كان فارع الطول كما أنه ولد قبل هيكل بحوال ٦ سنوات فى عام ١٩١٧ .. لكن .. ليس هناك تشابه فى الجذور الطبقية بين الرجلين ..عبدالناصر ينتمى لطبقة المزارعين .. وهيكل ينتمى لطبقة التجار .. وإن تصادف أنهما عاشا فى نفس المنطقة من القاهرة القديمة .. هيكل بالميلاد وعبد الناصر بالهجرة .. ففى صيف ١٩٢٥ أنتقل عبد الناصر – بسبب ظروف الأب الدائم التنقل بحكم عمله فى إدارة البريد – للإقامة فى بيت

عمه خليل فى حى النحاسين القريب من الحسين والأزهر والغورية .. ولم يكن عمه قد أنجب أطفالا .. وإن كان يربى أبناً بالتبنى أسمه محمود أستشهد والده فى ثورة ١٩١٩.

وبينما بقيت والده هيكل على قيد الحياة حتى أصبح شهيرا فإن عبدالناصر فقد أمه فى عام ١٩٢٦ وكل عمره أقل من ١٠ سنوات .. وكان موت أمه ضربة قاصمة «تركت بصماتها التى لا تمحى» .. وبعد ٧ سنوات تزوج الأب من سيدة أخرى هى عنايات مصطفى .. وانتقل عبد الناصر للإقامة فى الإسكندرية ودخل مدرسة «رأس التين» الثانوية .. وبينما درس هيكل فى مدرسة التجارة المتوسطة وجد عبد الناصر القدر يفتح له المدرسة الحربية فى سابقة لم تحدث بعيدا عن الشروط الطبقية الصارمة.

وحتى مات عبد الناصر لم يكن يملك البيت الذى كان يسكنه فى «منشية البكرى» وبعد أن مات سلمت أسرته البيت والأثاث لأنه كان «عهدة» لإدارة الأشغال العسكرية .. وحاول هيكل إقناعه بالثورة التى حدثت فى فنون الطعام .. لكنه كان يصر على تناول الأرز والخضار .. وكان يتساءل فى دهشة «وماذا يأكل الناس غير هذا؟» .. على أن هيكل المحب للحياة عاش حياة مختلفة .. مترفة .. متنقلاً بين بيته فى القاهرة وبيوته بالريفية والصيفية والشتوية .. عارفا بفنون الطعام .. وماركات السيارات .. وموضات الثياب .. ولوقت قريب كان يدخن السيجار الهافانى المميز .. ويعرف كيف يتعامل معه.

لكن اختلاف الظروف الاجتماعية واختلاف تصورات الحياة لا تمنع من الاعتراف بأن كل منهما منذ البداية كون نفسه بنفسه .. حتى استقرا فى الطبقة الوسطى التى إنطلاقاً منها نحو مشروعهما المشترك .. وفى لحظة الانطلاق كان كل منهما فى حاجة للآخر .. عبد الناصر كان فى حاجة لمن يعبر عنه .. وهيكل كان فى حاجة لمن يجسد أفكاره.

«وهكذا .. فإن قيمة عبد الناصر السياسية وقيمة هيكل الصحفية ساهمتا فى تغذية علاقتهما معا وجسدتها بوضوح». (٤)

الهوامش

(١) سناء البيسى : حوارها مع هيكل فى مجلة «نصف الدنيا»

(٢) خيرى شلبى : مصدر سابق.

(٣) جمال الشلبى : مصدر سابق ص ٢٤.

(٤) المصدر السابق : ص ٢٤.

■ ٩ ■

أعتبر الله فى عقلى وفى قلبى

■ يتذكر هيكل صورته صغيرا .. يقول : «أجلس فى مندرة بيت جدى لأمى فى حى الحسين بين الأشقاء والشقيقات وأطفال العائلة نتلقى دروس تحفيظ القرآن من الشيخ قاسم.. وكان الشيخ موظفاً مستديماً لدى جدى .. وكان من يحفظ جزءاً كاملاً من القرآن يجازى من الجد جزاءً حسناً .. فإذا ما ختم المصحف فنصيبه جنيه ذهبى .. كان يحضر معنا أحيانا دروس القرآن بعض أطفال بيوت جيراننا ومنهم بيت الرافعى وبيت الرزاز» . (١)

وبتقدم العمر ترك جد هيكل لأمه إدارة تجارته لأبنه سلام وراح يتردد أكثر على مقصورة «سيدنا الحسين» .. وكان يصحب معه أحد أطفال العائلة .. وكثيرا ما كانت هذه الزيارة من نصيب هيكل .. وهناك كان الصبى الصغير يجلس بالقرب من الجد بين مشاهير قراء القرآن .. مثل الشيخ طه الفشن والشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود والشيخ على حزين والشيخ عبد الفتاح الشعشاعى.

إن البيئة الجغرافية والعائلية التى سجلت فى ذاكرة هيكل القوية مثل هذه المشاهد جعلته يدرك مبكراً أهمية وخطورة الدين فى حياة المصريين.. وأنه عنصر أساسى من المكونات الحضارية للمصريين .. لكنه ليس العنصر الوحيد.

وفيما بعد سئل هيكل : كيف تنظر إلى الله من خلال الاكتشافات العلمية ؟

وكانت إجابته:

«أعتبر الله فى قلبى وفى عقلى وكثيراً ما تكلمت عن الفكرة المادية والإنسانية والعقلانية وأن الأفكار الثلاث تترابط مع بعضها لأن الإنسان لديه احتياجات مادية ولكن لدية عقلانية

الحياة تفقد كل قيمتها إذ تكلم المرء فقط عن المادة .. ولا يعود هناك معنى للحياة .. ضرورة الحياة أن يبقى عندك البعد العقلى والبعد الإنسانى والبعد الإيمانى لأن الإنسان فى النهاية كائن واحد».

على أن تصور هيكل للدين هو تصور فى حاجه أن نعرفه .. وقد قال لى فى حوار ذات مرة: «إذا كان هدف المجتماعات هو الاستقرار والترقى والتقدم فإن الدين كفل هذا مباشرة فى عصور معينة .. لكن جاءت عصور أخرى فى الاجتهاد الإنسانى أضافت إلى تعاليم الدين الكثير من الثراء .. إن ذلك لم يحدث عندنا فقط وإنما حدث فى الدنيا كلها .. ونحن شأننا شأن غيرنا سرنا فى هذا التطور .. الدين موجود ركيزة .. لكن التجربة الإنسانية أضافت وبنت حوله الكثير». (٢)

ويعبر هيكل لى عن اندهاشه من إثار قضية الأصالة والمعاصرة ويقول : «ليس هناك شىء اسمه أصالة ولا آخر اسمه المعاصرة .. أنا إنسان .. إذن أنا حى .. ومن ثم فالموروث فاعل والمكتسب أيضاً فاعل .. وكلاهما يتسق فى داخلى». (٣)

ويؤمن هيكل كما قال لى بأن الدين فيه سياسة حتى فى غير المجتمعات الإسلامية .. ويدلل على ذلك بأن رئيس الدولة فى إنجلترا هو فى الوقت نفسه رأس الكنيسة .. لكن «إذا قلت أنك تريد أن تفصل الدين عن السياسة فيجب أن يتقبل المجتمع ذلك .. وفى هذه الحالة يكون الدين قضية متعلقة بالتاريخ ووعاء ثقافى .. أما إذا لم يتقبل المجتمع هذا الفصل فلابد أن تدرك أن الدين سياسة .. وأنه فاعل سياسى بالدرجة الأولى».

«المشكلة أنك لا تستطيع أن تكون إنتقائياً .. إذا أردت أن تسير فى طريق فعليك أن تقطعه حتى النهاية .. ولا تستطيع أن تقول إنك هنا علمانى .. وهنا إسلامى .. المجتمعات لابد أن تتسق مع نفسها .. أنت اخترت .. أنا لا أناقش اختيارك .. ولكن أمض فى اختيارك حتى النهاية .. لا ترجع من منتصف الطريق .. ومن ثم لا يجوز تضييع الوقت فى بلادنا بأن الدين سياسة أم لا؟ ..فهو سياسة .. وقد حدث ذلك باختيارنا .. وبكل مواثيقنا التى عملناها .. فدستور ١٩٢٣ دمج فى مادة متأخرة اللغة العربية بالإسلام .. وهو النص الذى أعتمده جمال عبد الناصر فى دستور ١٩٥٦ .. لكن بعد صفقة السادات مع الإخوان المسلمين جاء دستور ١٩٧١ لينص فيه كأداة متقدمه منه على الشريعة الإسلامية». (٤)

ولا ينسى هيكل أن الدولة المصرية فى كافة العهود كانت تمارس الدين فى السياسة .. فقد انحاز القصر الملكى فى عهد فاروق للإخوان المسلمين لمواجهة أغلبية الوفد .. ودعاوى الرجوع للقرارات الاشتراكية فى عهد عبد الناصر كانت بفتاوى شرعية .. وكذلك كانت

دعاوى الرجوع عنها فى عهد السادات .. وقد وجد النظام السياسى فى مرحلة ما من شيوخ الأزهر من يفتى بإعداد ما نستطيع من قوة لمحاربة إسرائيل .. ثم وجد النظام السياسى فى مرحلة أخرى من شيوخ الأزهر من يفتى بالجنوح إلى السلم.

ويعتبر هيكل أن حسن البنا - مؤسس جماعة الإخوان - هو رجل اقترب بالاجتهاد الدينى من الفعل العام «فى ظل ملابسات سياسية محلية وإقليمية لم يكن معزولاً عنها».

ويكشف لى هيكل أنه قابل حسن البنا فى مكتبه فى «أخبار اليوم» فى عام ١٩٤٦ .. كان فى مكتبه ينتظر عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية كى يعطيه أحد منشورات جماعة الإخوان .. وقد عرض البنا على هيكل سكرتارية تحرير جريدة «الإخوان المسلمون» .. ولكن هيكل اعتذر .. وكانوا قد عهدوا بالجريدة إلى عبد الحليم الغمراوى المحرر بالأهرام .. و «لسبب أو لآخر قال الغمراوى للبنا: إننا فى حاجة إلى شبان صحفيين للجريدة .. وكان يبدو وقتها أننى يمكن أن أكون صحفياً واعداً .. فرشحونى .. وذهبت إلى البنا فى مقره العام فى حى الحلمية بعد أن أخذت موعدا بعد صلاة الجمعة .. ودخلت المسجد فى وقت كان البنا فيه يخطب خطبته الشهيرة التى وصف فيها الإخوان برهبان الليل وفرسان النهار .. وبعد أن أنهى البنا خطبته فتحنا موضوع الجريد.. وأتذكر أننى سألته سؤالا مهنيا عن قارىء الجريدة.. من يكون؟ .. وكيف نصل إليه؟ .. فقال : «إذا كنت تسأل عن التوزيع فلا تقلق من هذه الناحية» .. أنا كنت أتساءل عن محتوى الجريدة ونوعية قارئها .. وهو سؤال سهل وصعب فى نفس الوقت .. لكنه قال : إن مصر بها ٤ آلاف قرية .. كل قرية منها فيها مكتب دعوة يضم ١٢ فردا .. ولو اشترى الجريدة هؤلاء فقط لكان التوزيع ٤٨ ألف نسخة قبل النزول إلى باعة الصحف .. كنت أتكلم عن صحيفة وكان وهو يتحدث عن نشرة .. لذلك قلت له إن هذا غير ممكن .. وأضفت : إننى أخشى أن أقول إن فى دعاوى الدين والوطنية والدعاوى الكبرى لابد أن نفرق بينها وبين سلعة تباع وتشترى .. لأن القارىء عندما يدفع قرشاً فى صحيفة فهو يختار ما يرضى مزاجه .. فلا تقيده بما تتحدث عنه. .. أبعد عنه موضوعات الدعوة والوطنية .. دعه يختار السلعة التى يعتقد أنها أنفع له .. ولا تضيع وقتك معه .. وكان متوقعا أن نختلف .. وهو ما حدث .. ثم بعد ذلك سافرت حتى لا يتكرر العرض» .(٥)

ولا يقبل هيكل بفكرة «الحكومة الإسلامية» . وإن لا يمانع فى وجود «حزب إسلامى يعمل فى العلن كحزب سياسى وفق شروط الأحزاب السياسية.. ورغم حماسة للثورة الإسلامية فى إيران فقد قال للخومينى قبل أن يغادر منفاه فى باريس عائداً إلى طهران:

«إنك بالدين قد تستطيع بمدافع الدين أن تدمر النظام القديم .. لكن لكى تحقق النصر لابد أن يكون لك مشاتك .. المشاة التى تحتل مواقع عدوك .. وبدون ذلك لن تستطيع أن تبنى الدولة .. ومشاة الدولة هم الكوادر السياسية والإدارية .. الفنيون والمهنيون والأخصائيون».

وفى السجن وجد هيكل فى زنزانته من التيار الدينى ممن شملتهم اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ .. ومنهم شاب اسمه «أكمل» .. «لقيته قافل» .. على حد تعبير هيكل .. سألوه عن دوره فى تعبد ربنا بالصلاة والعمل والاتصال مع المجتمع .. بدأ يقول «وما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون» .. قال له هيكل: «طيب يا رجل .. أنا باعتقد إن ربنا خلق الإنسان فى الأرض ليعمل مهمة أكبر من كده.. ليعمر الأرض .. ليطور الحياة .. لأن فى الإنسان جزءاً من نور الله .. لكنه لم يفهم .. ثم دخل المحامى الوفدى إبراهيم طلعت مناقشة سياسية معه .. لكنه تركهم ونام.. وحاول هيكل أن يشده إلى الحديث .. فكان أن قال: «هذه أمور الدنيا لا أناقشها».. والغريب أنه كان طالباً فى كلية الهندسة.

*****

كان لوالد هيكل من زوجته الأولى ٣ أولاد و٣ بنات .. وكانوا يعيشون فى بيتين متجاورين فى باسوس وكان أكبر أولاده أحمد ومجاهد يعملان مع الأب على عادة أسر الطبقة الوسطى التى تعمل فى الزراعة والتجارة.. الجيل الأول من الأبناء مع الأباء .. والجيل الثانى للعلم والدين .. والجيل الثلاث لوظائف الحكومة .. وكان هيكل يمثل الجيل الثانى الذى فكر الأب فى أن يرسله إلى الأزهر .. وبالفعل دخل هيكل الأزهر عدة أيام .. لكن ذلك كان على غير رغبة الأم التى كانت ترى مستقبل ابنها بصورة مختلفة .. وكان يساندها فى تصورها شقيقها سلام الذى كان قد قرر أن يتعلم أولاده تعليماً مدنياً لا دينياً.

لقد استفادت الأم وشقيقها من سفر الأب فى رحلة لمدة ١٥ يوم إلى السودان وأخرجا هيكل من الدراسة الأزهرية .. وتقدما له بطلبٌ التحاق بمدرسة «خليل أغا» وهى مدرسة كانت تابعة – هى ومدرسة التوفيقة الثانوية – للأوقاف الملكية .. كانت الأم تريد لأبنها أن يكون افنديا وليس أزهريا .. وكان لما فعلته فى غياب الأب أثرا لا يمكن تخيله ولا تصوره .. لكن .. كان مستقبل هيكل أقوى عند الأم من أى عواقب متوقعة .. على أن الأب الذى كان يجد فى أحمد ومجاهد سندا له فى عمله لم يشأ أن يقف فى مستقبل أبنه على النحو الذى كانت قررته الأم .. خاصة وأن الأب كان يعتبر هيكل اقرب لأمه منه.

ويتذكر هيكل مشواراً صغيراً مع أمه لمحل فى وسط القاهرة اسمه «بلاتشى» .. «حيث اشترت لى بدلتين جديدتين مع المناسبة الجديدة وبعدها بأيام كنت أجلس فى سنة أولى بالمدرسة» ليؤكد أن أمه قد عملت انقلاباً جذرياً فى حياته.

فى مدرسة خليل أغا عرف هيكل رفيق دراسة التقيا واختلفا فيما بعد .. وعملا معا لبعض الوقت فى مجلة روز اليوسف هو إحسان عبد القدوس .. ويقول هيكل : «أقول عرفته بمعنى رأيته .. فحين وقعت عيناى عليه لأول مرة كنت تلميذا فى السنة الأولى وكان هو فى السنة الرابعة .. وكانت أعداد التلاميذ فى مدارس ذلك الزمان صغيرة .. وكان طابور الصباح فى فناء المدرسة المربع ملتقى لتجمع كل الفصول .. وكان ترتيب الوقوف فى طابور الصباح يضع تلاميذ الصف الداخل إلى المدرسة حديثا بقرب الصف الذى يوشك تركها .. فأحدهما بداية والآخر نهاية .. ومع أضلاع المربع المصطفة فإن طرفى البداية والنهاية كانا على نقطة تماس .. وكان طابور الصباح يحتوى على مراسم طويلة : أناشيد وتمارين وتفتيش على مكواة المرايل السوداء فوق ملابس المدرسة .. وعلى ترتيب الكتب والكراريس فى الحقائب .. وعلى درجة لمعان الأحذية .. وعلى نظافة الأظافر .. وبالطبع فإن هذا الطابور الذى اعتدنا امتداده إلى قرابة نصف ساعة كل يوم كان يتيح لكل تلميذ أن يلف بالبصر على بقية الصفوف وأن يعرف من فيها أو يعرف عنهم» .. وهكذا .. عرف إحسان عبد القدوس أو عرف عنه .. خاصة وأن إحسان عبد القدوس كان طالبا معروفاً بسبب شهرة والدته ممثلة المسرح والصحفية فيما بعد السيدة فاطمة اليوسف ووالده الفنان الذى كان يشتغل فى التمثيل حتى اعتزل.

لكن .. فيما بعد لم تكن العلاقة بين هيكل وإحسان على ما يرام فى أغلب الأحيان .. ولكن فيما بعد أيضاً أتيح لى أن أدخل مكتب إحسان عبد القدوس فى شقته على النيل فى الزمالك وأن اقلب فى مكتبته .. وكان فى المكتبة بعض كتب مهداه من هيكل إليه وإلى زوجته السيدة «لولا» .. فى الطبعة الأولى من كتاب «ملفات السويس» كتب هيكل: «عزيزى إحسان .. ألا ترى أن بعض الحياة قصص وبعض القصص حياة .. مع كل الود .. هيكل - ١٩٨٦» .. وفى الطبعة الأولى من كتاب «سنوات الغليان» كتب هيكل: «إلى صديق الصبا والشباب وما بعدهما .. إحسان عبدالقدوس .. مع كل الود والمحبة .. هيكل - ١٩٨٨» .. وفى كتاب «أكتوبر السلاح والسياسة» كان الإهداء هذه المرة إلى الصديقة الكريمة السيدة لولا عبد القدوس مع كل مودة وتقدير واحترام .. هيكل - ١٩٩٣».

ويتذكر هيكل من رفاق المدرسة حسن الإبراشى ابن زكى الإبراشى رئيس الخاصة الملكية .. وجمال غزلان ابن مصطفى غزلان خطاط القصر وكاتب حروف التاج المصرى.

كان التعليم فى ذلك الوقت عملة نادرة.. فالغالبية العظمى من المصريين كانت هناك .. فى الريف .. حيث كان الفلاحون يجدون بالكاد قوت يومهم .. وفى القاهرة كان النظام السياسى الملكى قد ورث فى قراره نفسه الإيمان بأن قيادة الأمة الجاهلة أسهل .. كما أن هدف التعليم كما حدده اللورد كرومر كان لتخريج الموظفين لا المبدعين والمفكرين والمتأملين .. وإلى أن دخل هيكل المدرسة فى بداية الثلاثينات لم يكن الدكتور طه حسين قد أطلق شعاره: إن التعليم يجب أن يكون مثل الماء والهواء .. ومثل أى عملة نادرة كان الاهتمام بمستوى التعليم – المحدود الانتشار – كبيرا .. حتى أن الحصول على الشهادة الابتدائية كان يعتبر مؤهلاً للتوظيف فى دواوين الحكومة أو غيرها.

كان من الطبيعى فى ظل بلد تحتله بريطانيا أن تكون اللغة الإنجليزية إجبارية منذ اليوم الأول فى المدرسة الابتدائية .. لكن فى المقابل كان للغة العربية معلمين هم فى الحقيقة شعراء .. مثل مدرس الشعر على الجندى الذى كان معلم هيكل فى المدرسة .. وقد أغراه بأن يحفظ مئات الأبيات من الشعر .. كما أغراه تعلم القراءة أن يقرأ كل ما كان يسمعه من حكايات .. وهكذا تكونت الذاكرة الأدبية وقويت .. ولا جدال أن هيكل يتمتع بذاكرة قوية لم تضعف مع مرور السنين .. وهى ذاكرة تحتفظ بالأسماء والنصوص والأرقام.

لكن .. ما كان ملفتا فى مناهج التعليم فى مدرسة خليل أغا الابتدائية فى ذلك الوقت تدريس الجنس على أسس علمية.

الهوامش

(١) سناء البيسى : المصدر السابق.

(٢) عادل حمودة : «لعبة السلطة فى مصر» – مصدر سابق – ص ٧٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٧٨.

(٤) المصدر السابق: ص ٧١.

(٥) المصدر السابق: ص ٧٤.

■ ١٠ ■

الثعبان العجوز تتحول عيناه إلى ياقوت أحمر

■ فى طفولة هيكل شخصية بسيطة ومهمة أثرت فى خياله .. هو عم حامد .. كان حارس البيت .. وكثيرا ما كان يعود به من المدرسة إلى البيت حماية له من شرور الطريق .. كان عم حامد واحداً من الجنود المصريين الذى حاربوا مع الجيش المصرى فى «القرم» بأمر من الخديوى إسماعيل .. وكان معجبا بالشخصية البارزة فى التاريخ العسكرى المصرى محمود سامى البارودى الذى كان شاعراً شهيراً أيضاً حتى أنه وصُف برب السيف والقلم .. وكان البارودى قد وصف الفرقة المصرية التى حاربت فى القرم بأبيات من الشعر كان عم حامد يحفظها ويرددها على مسامع هيكل الذى كان جاهزاً للالتقاط .. منها بيت شعر يقول:

«تركوا السلاح إلى الصباح ... وبقوا يتسامرون بألسن النيران».

إن هذا الرجل الذى يقول هيكل «أن له دين كبير عندى» أثار فى خياله أشياء كثيرة بما كان يرويه من ذكريات فى شبه جزيرة القرم .. ولعله هو الذى كان أول من حدثه عن الحرب بما فيها من صدام إرادات لجأت للقوة المسلحة بعد أن عجزت عن حل مشاكلها بالتفاهم .. وبما فيها من جوانب إنسانية خفية لا يلتفت إليها الذين يديرونها عادة.

لقد فجر عم حامد خيال هيكل عن الحرب .. وأغلب الظن أن هذا الإنسان المصرى البسيط ساهم دون أن يقصد فى مستقبل هيكل الصحفى فيما بعد .. عندما وجد هيكل نفسه متحمسا وهو فى بداياته الصحفية لتغطية أخبار الحرب الدائرة فى الصحراء الغربية .. عن العلمين .. «شاهداً مصرياً على الحرب العظمى الثانية» .. وكما قال : فإنه أحس

بخيال الشاب وقتها «أن الظروف أتاحت لى أن ألمس بأطراف أصابعى مأساة الإنسان والإنسانية وعند الذرى العالية بهذا المأساة». (١)

ويستطرد : «إن الجريمة بدت لى وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الفرد .. فعندما يعجز شخص عن حل تناقضاته مع الآخرين بالعقل يلجأ للعنف .. وفى تجربتى الجديدة بدت الحرب وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الشعوب والأمم .. فعندما يعجز مجتمع عن إدارة صراعاته بالعقل مع مجتمعات أخرى غيره - يكون التجاؤه إلى القوة». (٢)

ويعترف هيكل بأن «تجربة العمل كمراسل حربى قد استهوتنى» .. ويستطرد: «وهكذا وجدتنى باحثا عن المتاعب فى كل مكان أغطى الحوادث الساخنة فى الشرق الأوسط وحوله .. من الحرب الأهلية فى اليونان وقد شملت كل البلقان إلى حرب فلسطين من أولها إلى آخرها إلى سلسلة الانقلابات العسكرية فى سوريا إلى عمليات الاغتيال الكبرى فى المنطقة من اغتيال الملك عبد الله فى القدس إلى اغتيال رياض الصلح فى عمان إلى قتل حسنى الزعيم فى دمشق ثم إلى ثورة مصدق فى إيران ثم اتسعت المسافات فإذا أنا أغطى المشاكل الملتهبة فى قلب أفريقيا ثم حرب كوريا وحرب الهند الصينية الأولى». (٣)

وكان ما كتبه من رسائل عن هذه الحروب هى شهادة ميلاد مبكرة بالدم لصحفى موهوب وجد مكاناً مميزاً له فى بلاط صاحبة الجلالة بسرعة يحسد عليها.. وقد فعل ذلك فى وقت لم تكن فيه الصحافة المصرية - ما عدا أخبار اليوم - على استعداد للمجازفة بمثل هذه الفرصة لأحد محرريها .. وأتصور أن صورة عم حامد لم تفارقه فى كل مرة كان يعيش فيها تجربة الحرب بين الرجال والسلاح.

لقد دفعته الصور المبكرة للخطر التى صاغها فى مخيلته عم حامد للتجوال خمس سنوات فى بداية حياته الصحفية .. وهو ما أدى إلى حصوله على جائزة فاروق الأول للصحافة ثلاث مرات .. قرر بعدها أن لا يتقدم للجائزة ويتركها لغيره .. وعندما عاد إلى القاهرة ليستقر فيها أكتشف أنه لفت الأنظار بما كان يكتب .. لكن الأهم أنه كما يقول: «أصبحت على معرفة وثيقة بأحوال شعوب المنطقة ومعرفة شخصية بكل ساستها وحكامها وعلى صلة بجيلى من الصحفيين فى العالم الواسع فقد جمعتنا معاً ميادين القتال ومواقع الأحداث على طول المسافة الممتدة من شواطئ المحيط الهادىء إلى شواطىء الأطلنطى .. واهم من ذلك كله أن أبواب السياسة المصرية تفتحت أمامى على مصراعيها .. وكان ساسة مصر وقتها قد تعودوا على مجموعات من الصحفيين يقفون على أبواب دور الرئاسات

والوزارات يسألون الداخلين والخارجين عن الأخبار. وكان من حسن حظى أننى لم أقف على باب أحد ولم أسال أحد فى شىء أثناء مروره فى ردهة أو نزوله على سلم خروج. ولقد سبب لى ذلك حساسيات مع البعض. ومع الأسف لم أستطع إقناعهم أن الحياة مع الخطر هى التى فتحت لى الأبواب وأعفتنى من الوقوف علي الأعتاب». (٤)

ويتذكر هيكل على سبيل المثال: «أنى حين عدت من فلسطين لأول مرة بعد أن كتبت سلسلة تحقيقات بعنوان «النار فوق الأرض المقدسة» تلقيت دعوة من رئيس الوزراء فى ذلك الوقت محمود فهمى النقراشى (باشا) يطلبنى إلى مكتبه ليسألنى عما رأيت ويدقق فى السؤال.. لم تكن مصر قد قررت دخول الحرب».(٥)

لم يذكر هيكل ما قاله له النقراشى باشا لكن لابيير دومنييك ولارى كولين وهما اللذان ألفا كتاب «أيتها القدس» يشرحان ما جرى .. فى الكتاب الذى صدر فى عام ١٩٧١ فى باريس عن دار نشر روبرت لافونت إشارة واضحة لدور هيكل – الذى كان فى بدايته الصحفية – فى النقاش السياسى الفكرى الذى دار حول الوضع فى فلسطين فى تلك الفترة ودللا بذلك «على واقعيته وبراجماتيته فى الوصف والتحليل».. وفى صفحة ٣١٤ يقول المؤلفان: هذه المرة استطاع رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى «أن يمضى على طريق الحرب دون أفكار مسبقة. فقد أمر بأن تتصدر قضية فلسطين الصفحات الأولى فى جميع الصحف لتحريك الشعور ولإيقاظ غريزة الحرب. ثم انتشرت على جميع الجدران ملصقات تمثل خنجرا يقطر دما على جندى يحمل نجمه داوود. لكن بعض الأصوات كانت تحاول منع رئيس الوزراء من هذا الأسلوب. خاصة محمد (حسنين) هيكل. فقد كان الصحفى الشاب عائداً لتوه من فلسطين. وكانت تقاريره تصف اليهود بموضوعية ودون استهانة. فطلبه النقراشى باشا وطلب منه أن يعدل من لهجة تقاريره التى تقوض معنويات الأمة» .. لكن .. فيما بعد .. بعد الهزيمة العربية فى حرب فلسطين لم يتذكر أحداً أن لهجة هيكل كانت اللهجة الوحيدة العاقلة.

وليس من الصعب بعد ذلك أن نعرف لماذا يقول هيكل أن لعم حامد دين كبير فى رقبته.

على أن خيال عم حامد تجاوز حدود القتال والرصاص والشعر إلى ما هو أكثر خصوبة .. لقد كان مقتنعاً بأن الثعبان عندما يعمر ألف سنة .. ويموت فإن عينيه تتحولان إلى نوع نادر من الأحجار الكريمة .. ياقوت أو ماس أو شىء من هذا القبيل .. وكان أن أقنع هيكل وهما عائدان من المدرسة إلى البيت بأن يعرجا إلى جبل المقطم ليفتشا عن عيون الثعابين

الثمينة التى يمتد عمرها إلى ألف سنة .. ولم تكن المخاطرة فى أن يصادفا ثعابين عمرها شهور وسنين ولديها رغبة غريزية فى الإيذاء فقط وإنما فى أن هذه المغامرة كانت تفرض عليهما التأخر فى العودة إلى البيت بكل ما يؤدى إليه هذا التأخير من عقاب وأذية من نوع آخر.

* * * *

فى فترة المراهقة وقع هيكل فى حب بنت الجيران .. كانت تسكن أمامهم .. وكانت مسيحية .. وعبر عن حبه لها بقصيدة قال فيها : «ماذا بقلبك يا حسناء من وجد يضطرب .. أحال الفحمة السوداء إلى حمراء تلتهب».

وهناك من يروى أنه أرسل إليها خطاباً غرامياً عبر الخادمة ولكن من سوء الحظ أن الخطاب وقع فى يد أمها التى اشتكته إلى أمه التى لم تتردد فى توبيخه وتأنيبه.. وربما كان العقاب أكبر من التوبيخ والتأنيب.

ولا نستطيع أن نجزم أن هذه الفتاة هى نفسها الفتاة التى كتب عنها صفحة كاملة فى روز اليوسف فى ١٦ يونيو ١٩٤٤ أم هى فتاة أخرى.. أم أن ما كتبه هو نوع من الخيال الأدبى أكثر منه ترجمة لتجربة عاطفية.

لكن على الأقل .. يكشف ما كتبه عن مشاعر حساسة سعى لإخفائها فى كتاباته فيما بعد .. عندما قرر أن حياته الخاصة ملكا له وحده .. لا يطرق قلعتها غريب.

كتب هيكل:

«لن أنسى أبداً..

«لن أنسى أبداً بنت الجيران الأولى .. الفتاة التى خفق لها قلبى أول ما خفق .. لن أنساها أبداً .. فقد علمتنى أشياء وأشياء وفتحت عينى الطفلتين على أشياء وأشياء.

«لن أنسى يوم سمعتها تغنى لأول مرة فظللت أتبعها إلى كل مكان تذهب إليه .. ولن أنسى أبداً أول مرة قبلتها فيها لأننى ظللت اليوم كله أحس بدوران لذيذ كأننى احتسيت مائة زجاجة من الشمبانيا .. ولن أنسى أبدا كيف كنت أسهر الليالى أكتب لها الخطابات الغرامية الملتهبة بكل ما كان يحمله قلبى الطفل من سذاجة ماسة وحرارة.

«ولن أنسى أبداً اللحظات الهانئة التى قضيتها إلى جوارها فى ركن فى فناء المنزل القديم العزيز آكل معهاالشيكولاته التى كنت أشتريها بكل ما كنت آخذ من «مصروف».

«ولن أنسى أبدا يوم هجرتنى إلى ابن الجيران الآخر لأنه كان يستطيع أن يشترى لها شيكولاته أكثر مما أستطيع أنا.

«وأخيراً لن أنسى يوم قابلتها بعد هذا كله بسنوات طويلة فإذا هى أصبحت زوجة وأما لطفلين.. ومن ساعتها قررت أن أنسى ولكنى لم استطع، وها أنا أظل أذكرها ولن أنسى».

والحقيقة أن هيكل قد نسى .. وفى حياته قبل الزواج قصص مجهولة يرفض البوح بأسرارها بل يرفض أن يقترب أحد منها.. والسبب أنه يعتقد أن التاريخ العاطفى للإنسان ملك صاحبه بمفرده .. كما أن هذا التاريخ يمس أطرافا أخرى أصبحت فى مواقف اجتماعية مختلفة لا يجوز هزها .. وأكثر من ذلك تعتبر التفاصيل العاطفية ثغرات تنفذ منها سهام الخصوم إذا لم تكن هناك ثغرات أخرى.

وقد حاول البعض استخدام شائعات عاطفية لهيكل للوقيعة بينه وبين جمال عبد الناصر الذى كان هو نفسه بطلاً لشائعات عاطفية رددها خصومه لم تكن لها ظلال من الحقيقة .. منها قصة نشرها مصطفى أمين وسمعتها نقلا عنه من سعيد الطيب الذى كان مسئولا عن شركة تهامة السعودية .. والقصة تقول أن عبد الناصر كان فى سيارته «الأوستن» السوداء وبجواره عبد اللطيف البغدادى وهما فى محطة بنزين عندما لمح عبد الناصر فى سيارة أخرى سيدة وقع فى هواها من أول نظرة .. واختفت السيارة والسيدة التى تركت قلب عبد الناصر جريحاً .. وبعد أن مرت سنوات أصبح فيها عبد الناصر على رأس السلطة فى مصر ووضعته الظروف أمامها مرة أخرى فى حفل عام.. واكتشف ليلتها أنها متزوجة من ضابط معروف .. ولها منه ابن فى مرحلة المراهقة .. وشعر عبد الناصر أن حبال الود يمكن أن تمد .. فتبادل الزيارات العائلية معها هى وأسرتها .. وقد استغلت هى مشاعر عبد الناصر فيما بعد فى أن لا يرسل ابنها – الذى تطوع لمواجهة عدوان ١٩٥٦ – لجبهة القتال .. وحسب الرواية فإن الابن بقى فى أحد معسكرات التدريب فى القاهرة وقتل برصاصة خرجت من بندقيته وهو يقوم بنظافتها .. وفيما بعد .. اتضح أن هذه القصة الخيالية تروجها سيدة قريبة من عبد اللطيف البغدادى .. ووصلت الخرافة إلى مصطفى أمين الذى حاول قدر استطاعته أن يحولها إلى حقيقة .. لكنه فشل.

ويبدو أن الفشل فى استخدام الحياة الخاصة للإيقاع بهيكل نقل محاولات الإيقاع به إلى المستوى الوطنى والسياسى .. لقد فاجأ زكريا محى الدين هيكل فى حضور عبد

الناصر والدكتور محمود فوزى (الذى تولى وزارة الخارجية فى أيام عبد الناصر وتولى رئاسة الحكومة فى أيام السادات) بسؤال كان يتضمن تهمة الخيانة.. «ألم تقابل بن جوريون يا أستاذ هيكل؟ .. أليست هذه خيانة وطنية؟».

ورد هيكل بسرعته المعهودة:

«الذى عرفنى عليه هو الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية حينما كان قنصلا لمصر فى القدس وهو جالس معنا الآن».. وقد كان ذلك فى وقت مبكر قبل إعلان دولة إسرائيل .. فى زيارة أولى قام بها هيكل لفلسطين.

ولم يكن هيكل هو الصحفى المصرى الوحيد الذى قابل بن جوريون - أول رئيس وزراء لإسرائيل فيما بعد - فى ذلك الوقت .. بل قابله أيضاً إحسان عبد القدوس فى أول رحلة قام بها إلى القدس فى عام ١٩٤٥ .. وجرى اللقاء - تحت شعار معرفة كيف يفكر العدو - فى مبنى الوكالة اليهودية فى القدس .. وأجرى إحسان عبد القدوس معه حوارا هو وموشى شرتوك أو موشى شاريت كما عُرف فيما بعد وكان وزيراً للخارجية ورئيساً للحكومة أيضا - ونشر إحسان عبد القدوس ما حصل عليه من أحاديث فى روز اليوسف فور عودته للقاهرة.

الهوامش

(١) هيكل : «بين الصحافة والسياسة» - مصدر سابق ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق : ص ٤١.

(٣) المصدر السابق : ص ٤١.

(٤) المصدر السابق : ص ٤٢.

(٥) المصدر السابق : ص ٤١.

■ ١١ ■

البحث عن معجزة لإنقاذ مستقبله

■ فى نهاية الثلاثينات تعرضت أسرة هيكل لصدمة مالية هزتها كثيراً .. لقد ضارب الأب على القطن الذى راح يجمع بالاته متصورا أنه سيحقق من وراءه أرباحاً كما جرى عليه الحال فى سنوات الحرب العالمية الأولى .. وكان جملة المبالغ التى ضارب بها الأب على القطن حوالى ٢٦ ألف جنيه .. لكن الحرب العالمية الثانية جاءت بكارثة خيبت كل التوقعات.

وفى الوقت نفسه تعرض الأب لصدمة نفسيه أخرى اشد .. لقد راح أبنه الكبير أحمد من زوجته الأولى ينفق كثيرا من الأموال فيما لا ينفع.. ولم يكن الذى ضاع هو المال فقط وإنما الابن نفسه الذى أصيب بمرض خطير أنتقل بالعدوى لشقيقه .. ولم تمر فترة طويلة حتى فقدهما الأب وسط أحزان لم تستطع أن تعوضهما.

وبضياع الجيل الأول من الأبناء الذى كان يعمل مع الأب أصبح الدور على الجيل الثانى من الأبناء ليعمل مع الأب .. وهكذا .. اصبح هيكل مرشحاً لأن يعمل مع الأب .. ولا مفر من ذلك .. أو كان فى حاجة لمعجزة حتى لا يترك عالمه ويصبح جزءاً من عالم الأب ... خاصة وأنه تخرج فى مدرسة التجارة المتوسطة واصبح مؤهلا للعمل مع الأب.

لقد دخل هيكل مدرسة التجارة المتوسطة فى عام ١٩٣٥ وتخرج فيها ومصر تعيش أجواء الحرب العالمية الثانية التى أندلع لهيبها فى أول سبتمبر ١٩٣٩ بهجوم هتلر على بولندا .. وفى ذلك الوقت استولت وزارة التموين على مطاحن الغلال .. وخضع القطن لقواعد صارمة محكومة فى الشراء والبيع .. وضعتها لجنة رأسها هارولد ويلسون الذى أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء منتخباً عن حزب العمال البريطانى.

إن هذه القواعد منعت تصدير القطن المصرى للدول المعادية للحلفاء بل والدول المحايدة أيضاً بحجة «عدم المساس بالضغط الاقتصادى أو الحصار التجارى على ألمانيا» .. وتكدست بالات القطن فى المخازن والموانىء دون أن تتدخل بريطانيا لتعويض مصر عن انهيار أسعاره إلى ما دون العشرين ريالاً بكثير وكسدت سوقه وخسر التجار الذين جمعوه على أمل أن ترفع الحرب أسعاره كما حدث من قبل .. بل كما حدث فى الدول التى كانت على الحياد مثل أمريكا وتركيا وإيطاليا فى بادية الحرب حينما راحت هذه الدول تضاعف من صادراتها للدول التى لم تعد مصر تصدر إليها القطن .. وما جرى للقطن جرى للمحاصيل المصرية الأخرى مثل العدس والأرز والذرة ... وكان والد هيكل من الذى دفعوا الثمن غاليا بسبب ما جرى للقطن .. ثم بسبب ما جرى للمطاحن.

لم يكن هيكل وحده فى مدرسة التجارة المتوسطة والتى كانت تقع فى حى الظاهر .. كان معه صديقه مصطفى البكرى .. وابن خاله عبد العزيز .. وفيما بعد أكمل مصطفى البكرى – الذى كان الأول عليهم – دراسته فى المعهد البريطانى ثم سافر بعد الحرب فى بعثة إلى سويسرا وظل خارج البلاد يعمل معظم سنوات حياته العملية فى مجال السياحة والفنادق .. أما عبد العزيز فقد تحول هو وأخوته إلى نوع جديد من التجارة غير التى ورثوها عن أبيهم .. فقد أسسوا شركة شاهر سنترلك لبيع الأجهزة الكهربائية وشجعوا الناس على الشراء بنظام التقسيط .. وفيما بعد أصبح عبد العزيز رئيس مجلس إدارة بنك قناة السويس .. ثم أصبح مالكا هو وأخوته مصانع أوليمبيك .. وكان من زملاء الدراسة أيضاً فتحى إبراهيم الذى كان رئيس مجلس إدارة شركة برودنش للحاويات والمسئول عن شركة «كوبر فيلم» التى كانت متخصصة فى الإنتاج السينمائى المصرى – الأجنبى المشترك.

ويقول لى مصطفى البكرى: إننا كنا ننتمى للطبقة الوسطى التى تؤمن بضرورة التعليم وتؤمن بحتمية الانفتاح على العالم ولو بحذر .. ويبدو أن نجاح عبد المنعم وعبد الله شقيقا عبد العزيز فى مدرسة التجارة هو ما شجع أسرنا على أن ندخلها .. كما أن الأصول التجارية التى كانت تتمتع بها عائلاتنا دعمت ذلك القرار.

وفى ذلك الوقت كذلك تركت أسرة هيكل حى الحسين وانتقلت إلى شارع فاروق (شارع الجيش فيما بعد) .. وكان من الشوارع الرئيسية .. الموصلة ما بين الأحياء الجديدة فى العباسية وباب الشعرية والأحياء الشهيرة مثل الموسكى والعتبة .. انتقلت إلى شقة كبيرة فى الدور الرابع من العمارة رقم ١٧٤ .. ولا تزال أبنه خاله السيدة «كرم» تتذكر

مدى انبهارها بمسكن عمتها الجديد الذى كان «على وش الدنيا» كما عبرت .. والذى كان فيه اختراعا جديدا هو «الأسانسير» وهو لم يكن اختراعاً شائعاً.. وتتذكر أن هيكل كان له حجرة مستقلة لها باب خاص يفتح على السلم .. وتتذكر أنهم كانوا يشاهدون «المحمل» – وهو الاحتفال بكسوة الكعبة المصنوعة فى مصر والمسافرة للحجاز – من شرفات بيت عمتها .. وتتذكر أن عبد الناصر جاء لهيكل فى هذه الشقة للتعزية فى وفاة والده .. «وفى ذلك اليوم راحت شقيقتى زينب تربت على كتف عبد الناصر وتدعو له بالنصر والحماية» .. وقد كانت زينب هى الأقرب لهيكل فى فترات الصغر .. فهى الوحيدة التى كانت تصغى لسماع محاولات هيكل الأولى فى الكتابة.. وفيما بعد تزوجت زينب من رجل قانون مهموم بالحياة العامة هو المستشار سعيد الجمل .. لكن الموت الذى كان لها بالمرصاد خطفها فى وقت غير مناسب لأسرتها.

من بين أساتذة هيكل فى مدرسة التجارة كان الدكتور زكى شافعى أستاذ مادة النقود والبنوك وعميد كلية الاقتصاد وأستاذى فيما بعد .. والدكتور زهير جرانة أستاذ القانون المعروف .. والسيد أبو النجا خبير إدارة المؤسسات الصحفية .. ولكن .. هؤلاء لم يكن ليكفوا لأن يقتنع هيكل بأن مستقبله يمكن أن يبدأ من شهادة التجارة المتوسطة التى بدت فرصها بالنسبة له مغلقة فى الحياة العملية .. لقد كانت تصورات هيكل لنفسه أكبر من موظف فى بنك أو شركة أو مصلحة حكومية بهذه الشهادة.

وضاعف من هذه التصورات أنه فى كتابة محاولاته الأدبية الأولى .. وكان يتصور نفسه أديباً متأثراً بما قرأ لكبار الأدباء وبما سمع منهم فى بيت خاله .. وعلى رأسهم العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل .. لكنه كان يشعر أن رغبته فى التعبير عن الحياة السياسية أكبر .. ولعل مناخ تلك الفترة هو ما شجعه على ذلك .. وربما لتأثره بالوفد مثله مثل الغالبية العظمى من المصريين .. وربما لحماسه لهتلر والألمان مثل كثيرين من السياسيين المصريين الذين اعتقدوا أن دخول روميل إلى القاهرة سيخلص البلاد من الاحتلال البريطانى .. ولكنهم لم يدركوا أنه لو تحقق ذلك فإنه سيذهب بالإنجليز ويأتى بالألمان.

ويروى لى هيكل أنه شاهد مصطفى النحاس الزعيم الوفدى الكبير مرتين فى وقت كان وعيه السياسى فيه يتفتح .. مرة وهو يصلى صلاة الجمعة فى مسجد الحسين .. وكان خاله هو ورئيس لجنة الوفد فى الحسين عبد الحميد بك البنان هما المشرفان على الزيارة .. وبعد الزيارة دخل النحاس مطعم الحلوجى لتناول الغذاء .. ومرة أخير فى

مظاهرة قامت بها مدرسة «فؤاد الأول» وخرجت معها مدرسة التجارة المتوسطة وسارت المظهرة حتى محطة السكك الحديدية .. حيث كان النحاس مسافرا لإلغاء الامتيازات الأجنبية فى عام ١٩٣٧ .. وكان يلوح لمودعيه بمنديل أبيض .. ويتذكر هيكل أنه تلقى «شومة» فى هذه اللحظة .. لكنه لا يعرف من الذى ضربه بها .. ولا ما هو السبب؟.

لقد تضافرت عناصر جديدة جعلت هيكل يشعر أن شهادة التجارة المتوسطة لا تكفى لتحقيق مستقبله الذى يشعر به ولا يعرفه بوضوح .. وعيه السياسى فى فترة غليان وتحول .. رغبته فى الكتابة الأدبية وحلمه أن يكون كاتباً أو صحفياً فى وقت كان التداخل بين الأدب والصحافة سمة أساسية فى الصحافة .. ولم يكن فيه العمل الصحفى قد تبلور وظهر بالصورة التى عليها الآن .. وإن كانت ثمة بدايات مبشرة.. مثل الحملة التى شنها عبد القادر حمزة ضد عثمان محرم وزير الإسكان فى عام ١٩٣٦.

إن هذه العناصر جعلت هيكل يحاول جاهدا أن يطور شهادة التجارة المتوسطة التى حصل عليها والتى بدت وكأنها نهاية طريق لا بداية طريق .. لعل وعسى تتفتح أمامه أبواب لا تزال مغلقة.. خاصة بعد أن ثبت أن شهادة التجارة المتوسطة لا تصلح لدخول كلية التجارة .. وشجعه على تجاوز أزمته مستر «براون» أستاذه فى المدرسة .. واقترح عليه أن يدخل القسم الأوربى فى الجامعة الأمريكية .. وكان يؤهل لدخول الجامعة .. والدراسة فيه إنقاذ وفرصة جديدة للمستقبل وإن ظلت غائمة .. وكان مبنى هذا القسم فى صدارة مبنى الجامعة فى ميدان التحرير .. وكانت مدة الدراسة فيه سنة ونصف السنة تنتهى ببكالوريا التجارة.

وفى الوقت نفسه راح هيكل يدرس اللغة الفرنسية فى القسم الحر فى مدرسة «الليسيه» .. ولم يجد ما يمنع من دراسة اللغة الألمانية أيضاً .. لعلها تفيد وسط الحماس الوطنى الذى أبداه البعض لهتلر .. ولكن لم يكن المعهد الذى حاول فيه تعلم اللغة الألمانية على نفس المستوى.

وفيما بعد .. تعرض تقرير سرى – أرسلته وزارة الداخلية إلى إدارة المطبوعات بشأن التحريات المطلوبة عن محمد حسنين هيكل بعد أن تقدم بطلب الانضمام إلى نقابة الصحفيين – للشهادة الدراسية التى حصل عليها .. والرقم الكودى للتقرير السرى هو و-٥٣ (٥٦) سرى بتاريخ ١٦ ماس ١٩٤٨ وفيه:

«محافظة مصر

«بوليس مدينة القاهرة

«حضرة صاحب العزة مدير إدارة المطبوعات

«بناء على كتاب إدارة المطبوعات رقم ٣٤٦٨ – سرى مطبوعات بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٧ بشأن التحرى عن محمد حسنين هيكل أفندى المحرر بجريدة أخبار اليوم والراغب فى قيد اسمه فى جدول نقابة الصحفيين.

«أتشرف بأن أبلغ عزتكم بأن الطالب بلغ من العمر ٢٥ سنة. مصرى الجنسية. ورعية الحكومة المحلية. ومقيم بشارع فاروق رقم ١٧٤ بدائرة باب الشعرية. ويشتغل محرراً بدار أخبار اليوم وهو حائز على دبلوم التجارة المتوسطة ودبلوم فى القانون والإعلان من أحد المعاهد الأجنبية بالمراسلة. ودرس سنتين بقسم الدراسات الاقتصادية بمدارس الليسيه الفرنسية. وقد زاول مهنة التحرير بدار أخبار اليوم منذ ثلاث سنوات تقريبا والصحافة مهنته التى يتعيش منها ولا يزاول عملاً آخر علانياً. وهو حسن السير والسلوك . وليس له لون سياسى.

«وتفضلوا بقبول فائق الأحترام »

حكمدار مصر

توقيع

١٩٤٨/٣/١٦

على أنه حتى أصبح هيكل صحفياً لم يكن والده يفهم ما يفعل أو يستوعب غيابه طوال اليوم وضياع مصروفه فيما لا يعرف الأب .. وكذلك ضياع وقته وهو فى سن خطرة .. ولا جدال أنه قد ضغط على جهاز الأب العصبى ما جرى لولديه أحمد ومجاهد .. فكان أن عاد الأب ليحاصره مطالبا أن يعمل معه .. وقال الأب: أن كل ما هو متاح أمامك من فرص لن يمنحك أكثر من ١٢ جنيها فى الشهر .. تعال لتعمل معى وتراقب مالك وسأعطيك هذا المبلغ.

لكن المشكلة لم تكن مشكلة وظيفة أو مبلغ من المال .. المشكلة كانت مشكلة مستقبل غائم يريد صاحبه أن يخترق السحب والضباب ليعرفه .. مستقبل يجد فيه نفسه .. ويحقق من خلاله ذاته .. ويعبر به عن ما يضرب في عقله من طموح وجنوح .. على أنه فوجيء بالأم هذه المرة تقف إلى صف الأب .. وتتحمس لأن يعمل مع والده فى الشونة

التى يملكها فى بنها .. وربما تصورت الأم ان أبنها الدارس لأصول التجارة الحديثة سيطور تجارة أبيه وينميها ويوسعها .. ربما أرادته قريبا لوجود أشقاء من زوجة أخرى .. ربما أشفقت عليه من الحيرة التى كان فيها.

ونزولا على ضغط الأم سافر هيكل إلى بنها للعمل فى شونة الأب لكنه لم يحتمل العمل فيها يوما واحدا واستقل قطار الساعة السادسة إلا ثلث وعاد إلى القاهرة .. وهو ما أثار غضب الأب .. فكان الحل الوحيد أو الحل المؤقت أمام هيكل هو أنه ترك البيت وراح ليقيم عند شقيقته خديجة التى كانت قد تزوجت.

وهكذا .. لم تعد المشكلة فقط البحث عن مستقبل وإنما أضيف إليها أيضا مشكلة أخرى هى البحث عن السكينة وسط أجواء عاصفة سادت بسببه عائلته.

وكان لابد من معجزة.. تلقى له بطوق نجاة فى هذه الظروف الحرجة.

الفصل الثانى

ولادة صحفية فى ثكنة عسكرية

■ ١٢ ■

البداية فى عالم يفور ويغلى

■ كان هيكل يحلم بمكان فى السماء .. ليناطح السحاب .. ويواجه الشمس .. ويمد يده ليلتقط خيوط الضوء المنبعثة من النجوم .. أو ليشرب من حليبها الصافى اللامع .. وربما لهذا السبب كانت أولى أمنياته أن يكون طيارا .. لكنه تنازل عن هذه الأمنية .. كما تنازل عن أمنية أن يكون نجما فى ملاعب الكرة .. وراح يتصور نفسه طبيبا مشهوراً .. وقد قال فيما بعد: أنه يجد نفسه فى أبنه الأكبر «على» الذى عمل طبيبا وأستاذا مساعدا فى كلية «قصر العينى» .. لكن طريق الطب يبتعد كثيراً عن طريق مدرسة التجارة المتوسطة التى تخرج فيها .. بل أن طريق مدرسة التجارة المتوسطة بدا له منتهيا بجدار سميك .. مسدود .. لا يوصله لحلم واحد من أحلامه العريضة.

وقد حاول هيكل تجاوز هذا الجدار والقفز فوقه ليصل إلى عامل آخر تصور نفسه فيه .. ومن ثم لم يتردد فى الاستفادة من أول فرصة واتته لذلك .. وقد جاءته هذه الفرصة فى القسم الأوربى فى الجامعة الأمريكية الذى كان يدرس فيه .. فقد كان متاحا لطلاب الدراسات الحرة حضور محاضرات «سكوت وطسون» وكان صحفيا فى «الإجيبشيان جازيت» .. أكبر الصحف الأجنبية فى مصر .. فى تلك الفترة .. فى بداية الأربعينات .. بالتحديد فى عام ١٩٤٢ .. وكانت مصر تعيش سنوات الحرب العالمية الثانية .. وكانت «الإجيبشيان جازيت» تصدر عن شركة «الإعلانات الشرقية» التى تمتلكها عائلة «أزوالد فينى» .. وكانت توزع حوالى ٢٥٠ ألف نسخة .. وكانت جزءاً من شبكة إعلام الحرب التى يسيطر عليها البريطانيون .. مثلها مثل محطة إذاعة «الشرق الأدنى».

كان هيكل من بين الجالسين أمام سكوت وطسون يستمع لمحاضرة عن «عناصر الخبر» عندما وجده يتطرق من موضوع المحاضرة إلى ذكرياته فى تغطية الحرب الأهلية الأسبانية .. تلك الحرب التى انقسمت أوروويا بعدها بين الفاشية والديمقراطية .. وعبر عنها بيكاسو فى لوحته الشهيرة «الجرينكا» .. ورصدها فيما بعد رفيق الرئيس شارل ديجول وأديب فرنسا ووزير ثقافتها اللامع «أندريا مالرو» فى رواية «الأمل» .. وأغلب الظن أن سكوت وطسون كان أميل للفكر اليسارى .. لكن ما جذب هيكل إليه قدرته على عرض معالم هذه الحرب وتضاريسها «بما يشبه الملحمة» .. وهو ما جعل هيكل يعرف من أول لحظة أن الأسلوب المميز للصحفى لا يقل أهمية عن المعلومات والخبرات التى يحصل عليها .. وهو ما يجعله قبل ذلك «يستمع إليه فى انبهار وخشوع» .. وحين ختم سكوت وطسون محاضرته وجه دعوة لمن يريد أن يتدرب عمليا على الصحافة أن يلقاه فى مكتبه فى «الإجيبشيان جازيت» .. وفى اليوم التالى .. وقبل أن يصل هو إلى مكتبه كان أربعة ممن استمعوا يلبون الدعوة .. وينتظرونه .. هم محمد حسنين هيكل .. وميخائيل فلتس .. وإكرام عبد المجيد .. ويوسف صباغ. (١)

إن هذه الفرصة التى سارع هيكل بالتقاطها لم تنقذه فقط من حيرته الشخصية والعمليه وإنما وضعته على أول الطريق ليحدد مصيره .. ولم تكن الفرصة هينة .. فصحيفة الإجيبشيان جازيت ــ التى كان رئيس تحريرها هارولد إيرل وهو فى الوقت نفسه مراسل المانشستر جارديان البريطانية فى مصر ــ كانت «ورشة» للخبرة الصحفية فى وقت الحرب .. فيها لمع الكتاب والصحفيين .. وكانت محطة لكل المراسلين الذين جاءوا لتغطية أخبار الحرب .. كان يكتب افتتاحيتها بجانب عمود ساخر فيها الأديب لورانس دوريل مؤلف «رباعيات الإسكندرية» .. وقد جاء هاربا هو وزوجته نانسى وطفلتهما بينيلوب من وطنهم الأصلى .. مدينة كلاماتا فى جنوبى اليونان فى إبريل ١٩٤١ بعد أن دخلت أحذية الألمان الثقيلة أثينا. (٢)

وكان يعمل فى الصحيفة مصححاً للغة الكاتب جورج أوريل مؤلف الرواية الشهيرة «مزرعة الحيوانات» التى حاكمت النظام الشيوعى .. والكسندر كليفورد مراسل الديلى ميل .. أما أول مراسلة صحفية جاءت لتغطية أخبار الحرب فى شمال أفريقيا ومرت على محطة الإجيبشيان جازت فهى إيف كورى أبنه العالمين الفرنسيين بيير ومارى كورى (مكتشفة اليورانيوم والحاصلة على جائزة نوبل) وقد وصلت القاهرة فى نوفمبر ١٩٤١.

إن هذه الأسماء التى لمعت فيما بعد فى الأدب والصحافة على مستوى الدنيا كلها كانت خلفية المسرح الصحفى الأول الذى وجد هيكل نفسه على خشبته وكان عمره

حوالى ١٩ سنه .. وإن لم يكن يعرف أهميتهم بعد .. ولم يكن صعبا فى جو الحرب السائد أن تفتح كل الطرق السريعة أمام الأجيال الشابة فهذه هى طبيعة الحروب .. يصنعها الشباب وتصنعهم .. فى انتظار السلام الذى يوقعه الكبار .. دون أن يوقفوا التغير الذى يحدث إجباريا بعد الحرب .. بل لم يكن صعبا فى جو الحرب السائد أن يعيش هكيل فى مسرح أكبر كانت الأحداث والتغيرات بل والخرافات فيه متلاحقة .. مسرح الحياة فى مصر فى تلك الفترة الانقلابية من التاريخ الحديث.

* * * *

لقد وصف هيكل مصر فى تلك الفترة بأنها «كانت فى حالة فوران» .. حالة فوران «ترتفع أحيانا إلى درجة الغليان .. ثم يهدأ البخار .. وتعود الفقاقيع إلى الظهور على سطح الحياة تنبئ بأشياء تجرى عند القاع وتتفاعل» .. «أفكار وتيارات وقوى ومصالح تحتك ببعضها وتصطدم أحيانا .. وتحدث من أثر ذلك شحنات تتراوح حركتها وطاقتها وتتفاوت بمقدار ما تتأثر بما يجرى على السطح من أفعال وردود أفعال» (٣)

«كان جو القاهرة فى تلك الأيام معجزة من معجزات التاريخ لا تتكرر بسهولة .. كان البحر الأبيض هو بؤرة الحرب .. وأصبحت القاهرة بشكل ما عاصمة الحرب وعاصمة العالم .. كانت كل عواصم الشمال الكبرى فى أوروبا (لندن وباريس وروما وغيرها) مكشوفة لحريق القنابل أو مكبوتة بظلام الاحتلال .. والقاهرة وحدها فى مركز فريد .. قريبة من مركز الحرب بدرجة كافية .. وبعيدة فى نفس الوقت عنه بالدرجة كافية .. وأصبحت ملتقى النخب من كل نوع: قادة الحرب فى السياسة وفى ميادين القتال يعيدون بقرارتهم كتابة المقادير .. صحفيون ومراسلون رفعتهم الكلمة إلى مصاف النجوم .. كتاب ومفكرون وفنانون ولاجئون وثوار من كل جنس ومذهب واتجاه يحلمون بعالم جديد بعد الحرب ويظنون أنهم يرونه فى لحظة الخلق الأولى هناك عند الينابيع المقدسة التى طهرتها النار».

ولم يكن هيكل يعيش فى هذا الجو فقط .. ولكن .. كما يقول: «كنت آكله واشربه وأصحو به وأنام .. وكان النوم عزيزا فى تلك الأيام .. فقد كنت أشعر شعورا غامرا أن المقادير أتاحت لى أن أكون وسط لحظة تاريخية لا تعوض .. لم نكن نستطيع أن نذهب إلى العالم .. وهذ هو العالم يجئ إلينا بحروفه وكلماته .. بكتبه وأناشيده .. بأفكاره وأحلامه وأوهامه أيضا». (٤)

ويقول هيكل: «إن الحرب غيرت كل موازين القوى العالمية والإقليمية المحيطة بمصر .. ونقلت الشرق الأوسط من حضن إمبراطوريتين لحقت بهما الشيخوخة (هما بريطانيا

وفرنسا) .. ووضعته فى قلب الاستراتيجيات العالمية حيث دخلت إلى حلبة الصراع إمبراطوريتان فى عنفوان القوة بالموارد والعقائد (هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) .. وكانت الحرب أيضا قد جعلت مصر ساحة من أهم ساحات القتال .. وعلى أرضها دارت واحدة من أشهر معاركة وهى معركة العلمين .. وتدفقت على الأرض المصرية جيوش كان دخولها كلهيب هبوب العواصف .. ودارت مواقع مشهورة ارتجت تحتها كل كأنما أصابها الزلزال .. وسالت دماء كثيرة كأنهار من النار فيها كتل من الحديد».

ويستطرد: «ولم تكن الجيوش الزاحفة والمعارك الدائرة وأنهار الدم السائل مجرد حركة وأصوات وألوان .. وإنما كانت جميعا رموزاً لصراع عالمى هائل ومهيب لا يكتفى بتسوية حسابات مرحلة من مراحل التاريخ مضت وإنما يفتح الباب لمرحلة من التاريخ تجئ .. مزدحمة على الآخر بمجموعات قيم جديدة ومبادئ واتجاهات ومواقف ومطالب كانت هى فى الواقع دافع الحرب ووقودها».

****

كان عدد سكان القاهرة لا يزيد عن النصف مليون .. أضف إليهم ١٤٠ ألف جندى أجنبى جاءوا من أربعة أنحاء الإمبراطورية البريطانية. (٥)

كان مقر قيادة الجيش البريطانى وقت الحرب فى فندق سميراميس ثم توسع المقر ليشمل عمارة بنيت حديثا هى عمارة «جراى بيرلارز» فى حى جاردن سيتى بالقرب من شارع قصر العينى .. وفى شقة من هذه العمارة لحن محمد عبد الوهاب إحدى قصائد أحمد شوقى لتصبح الأغنية الرسمية لجيوش الحلفاء الموجودة فى مصر .. كانت الأغنية تقول: «أعلى الممالك ما كرسيه الماء .. وما سياساته بالحق شماء .. يا جيرة المانش حلاكم قوتكم .. ما لم يطوق به الأباء والأبناء».

وكانت حياة النخبة فى القاهرة ـ سواء على المستوى الاجتماعى أو التجارى أو السياسى ـ تعيش فى دائرة لا يزيد قطرها عن ميل مربع .. ومركزها ميدان إسماعيل باشا أو التحرير فيما بعد .. وعلى محورها أو فى داخلها المركز التجارى للمدينة والبرلمان وقصر عابدين والبنوك ودور السينما والسفارة البريطانية والفنادق وبيوت الأثرياء وكانوا خليطا من جاليات وعائلات مختلفة من المسلمين والأقباط واليهود والمسيحيين الشوام فضلا عن الوافدين من حوض البحر المتوسط .. ورغم الاحتلال الأنجليزى فإن اللغة الأرستقراطية كانت اللغة الفرنسية.

وربما لإهمية اللغات الأجنبية على النحو سارع هيكل مبكراً فى تعلمها .. بل أكثر من ذلك سعى مبكراً للقراءة بهذه اللغات كى تزيد معرفته وثقافته ومصادره الصحفية .. وفيما بعد .. فى عام ١٩٤٤ كتب إبراهيم الوردانى ـ وكان رفيق أيام أولى لهيكل فى

الصحافة ـ أنه .. أى هيكل .. «كثيراً ما أرهقنى بوقفة الساعات أمام فاترينة الأنجلو والهاشيت (اشهر مكتبات وقتها) يقلب فى المجلات والصحف الإفرنجية وأنفاسه تلهث لو يقدر فيشتريها .. أو لو يسافر وينضم لبلادها» .. إن هيكل قد اكتشف مبكراً أهمية هذا المصدر المتميز من مصادر المعرفة الصحفية .. وهو ما جعله مختلفا عن رفاقه الذين يصف أحدهم الوقوف أمام المكتبات الإفرنجية بأنه إرهاق .. وحتى اليوم مازال هيكل يحرص على قراءة الصحف العالمية يوميـاً .. وربما كان الأسرع فى الحصول على أهم الكتب التى تصدر فى لندن وواشنطن ودلهى .. وفى كل مكان يعيش فيه تجد مكتبة تضم صفوفا من هذه الكتب التى أثرت ولاشك فى طريقته فى كتابة مقالاته وكتبه.

وفى هذا الجو المشحون بالمفاجآت والتحولات ظهرت المدرسة الهتلرية فى الإعلام .. وهى المدرسة التى برع فيها وزير الدعاية النازية جوزيف جوبلز .. ومهما كان الرأى الآن فى سقوط هذه المدرسة ـ التى تعتمد على الحشد والتعبئة ـ فإنه لا يمكن إنكار أنها كانت مدرسة مؤثرة فى وقت ظهورها .. بل ومتفوقة على المدرسة الغربية التقليدية التى كانت تكتفى بنشر ما هو ما تسمح به الرقابة العسكرية .. وتحجب ما دون ذلك.

لقد انتشرت الإذاعة الألمانية الناطقة بالعربية فى عام ١٩٣٦ بينما لم تبدأ الإذاعة البريطانية الناطقة بالعربية إلا فى عام ١٩٣٨ .. ونجحت الإذاعة الألمانية فى الوصول لقطاعات عريضة من المصريين لأنها كانت تبث إرسالها على ترددات من السهل على أى جهاز راديو عادى إلتقاطها .. ولأنها كانت تبث قدراً كبيراً من الموسيقى والغناء .. ولأنها اعتمدت على مذيعين بارعين .. كان أشهرهم المذيع العراقى يونس بحرى .. ولأنها كانت تحرض المصريين على مقاومة المحتل البريطانى وتتهمه بالعدوانية والاغتصاب .. وتؤكد أن دول المحور هى دول صديقة للعرب .. وسوف تساعدهم على التخلص من الاستعمار البريطانى والفرنسى .. أما الإذاعة البريطانية فكانت تهتم بجمهور أعلى ثقافة كما كانت برامجها تبث فترة قصيرة .. وبالمقارنة مع «راديو برلين» كانت منمقة وأرستقراطية .. بل أنها كانت تقدم برامج ثقيلة الظل من عينة «مرض السل بين قطعان البقر البريطانى» .. ويقول كاتب بريطانى عاش تلك الأيام فى القاهرة .. هو جون كونيل فى كتابه «المنزل الواقع عند بواية هيرد» : «لقد استخدمت بريطانيا فكرة القومية العربية للإطاحة بالإمبراطورية العثمانية .. وها هى دول المحور تستخدم القومية العربية أيضا للإطاحة ببريطانيا». (٦)

ولعبت مدرسة جوبلز دورها ببراعة فى إقناع المصريين بأن البريطانيين مسئولون عن ارتفاع تكاليف المعيشة .. وفى الوقت نفسه فإن جيوبهم (شأنهم شأن كل الأجانب) مليئة بالأموال .. ولكن «كل شئ سيتغير عندما يأتى الألمان» .. لقد كان الألمان كخبراء

دعاية «يتمتعون بخيال أخصب بكثير من نظرائهم الإنجليز» .. لدرجة أنهم أشاعوا أن هتلر مسلم .. وأنه يتوق لتحرير مصر من الإنجليز «الكفار» .. ومن ثم أسماه المصريون «الحاج محمد هتلر» .. وقد تحول الاسم الجديد فى النطق إلى «محمد هيدر» .. ثم اصبح «محمد حيدر» .. وأغلب الظن أن هيكل فى تلك الفترة كان كثيرا ما يضبط نفسه معجبا بهتلر .. على الأقل لأنه كان فرصة الخلاص الوحيدة من الاستعمار البريطانى .. وإن كان سيفتح الباب أمام استعمار من نوع أشد هو الاستعمار الألمانى .. ولم يكن هيكل وحده المعجب بهتلر وإنما كانت أيضا الغالبية العظمى من الطلاب فى القاهرة الذين لم يأتوا من طبقة الباشوات .. الصفوة الموسرة التى كانت تختلط اجتماعيا مع البريطانيين .. لقد شعر هؤلاء الطلبة أن مصر ما كان لها أن تحقق المجد والاستقلال يوما ما إلا إذا «توافرت لها حكومة وطنية قوية مستمدة جذورها الراسخة من تقاليد الإسلام» .. لكن .. من ناحية أخرى كان هتلر يترجم رسالة عميقة المغزى من الأمل لهؤلاء الشباب المتحمسين .. فها هو رقيب سابق فى جيش مهزوم تحدى بقية أوروبا بأسرها ليرفع بلاده وجيشها إلى ذروة المجد من جديد» .. ومن ثم كان الشعار السائد فى مصر «إلى الأمام يا روميل» .. لكنه كان فى النهاية شعار شعب مسحوق فى انتظار المخلص الذى لن يتردد فى أن يسحقه من جديد.

لقد وصف البريطانيون إمبراطوريتهم العظمى فى ذلك الوقت بأنها «مرغت فى أوحال قرى الدلتا وكأنها عربة قديمة متهالكة» .. وقررت المخابرات البريطانية أن تتصدى لحرب الدعاية الألمانية باستخدام أساليب مماثلة لها بدأها خبير فى هذا المجال هو لورانس جرافتى سميث .. فقام بتشكيل هيئة من ٣٥٠ شخصية مصرية فى شتى مناحى الحياة ليعملوا على نشر الشائعات والنكات والتوقعات والمقولات المؤيدة للحلفاء .. وكانت الشبكة تضم عدداً من قارئى الطوالع والمجاذيب الذين يجلسون إلى جوار المساجد يوزعون الحكمة والبركة وكانت أقوالهم تحمل وزناً وسط فقراء المدينة وكانوا يتقاضون مبالغ زهيدة ولكن بوسعهم نشر نبوءات تبشر بقرب انتصار الحلفاء.

وانتشر أفراد الشبكة فى فندق شبرد ـ الذى بنى فى عام ١٨٤١ وكان يلى الأهرام فى الشهرة السياحية ـ خاصة فى البار الطويل الذى كان يديره «جو» السويسرى .. وهو واحد من أكثر سكان القاهرة إحاطة بما يجرى من أمور .. ولأن البار كان محرما على النساء فقد أنطلق رواده الرجال على سجيتهم بشكل غير لائق يقولون كل شئ فى الحب وفى الحرب.

وانتشر أفراد الشبكة فى «جروبى» الذى كان واحدا من ألطف الأماكن القليلة المتاحة للكل برغم أن أسعاره لم تكن زهيدة .. وكان معظم زبائنه فى تلك الفترة من الضباط

الذين كان من السهل عليهم التقاط نساء ينتمين لطبقات وسطى وربما أعلى قليلا.

وكذلك انتشر أفراد الشبكة البريطانية فى دور السينما التى كان الناس تلجأ إليها هروبا من الضوء الصارخ نهاراً والحر الخانق ليلا .. وشملت الأفلام الممكن رؤيتها فى تلك الفترة عناوين مثل «ذهب مع الريح» .. «ثورة على السفينة بونتى» .. «الديكتاتور العظيم» الذى سخر فيه شارلى شابلن من هتلر.

لقد كانت الدنيا تتعارك وتتصارع وتتغير بينما هيكل يخطو خطواته الأولى فى الصحافة .. وكان المخاض العام والمخاض الخاص على وشك أن يلتقيا بحثا عن مستقبل جديد لمصر .. والمستقبل الجديد فى حاجة لوجوه جديدة.

الهوامش

(١) هيكل: بين الصحافة والسياسة «مرجع سبق الإشارة إليه – ص ٢٤.

(٢) أرتيمس كوبر : «القاهرة فى الحرب العالمية الثانية – ١٩٣٩ – ١٩٤٥» ترجمة محمد الخولى الناشر دار الموقف العربى ١٩٩٦ – ص ١٩٣.

(٣) هيكل : المرجع السابق ص ٢٥ و ٢٦.

(٤) هيكل : المرجع السابق ص ٢٧.

(٥) أرتيمس كوبر : المرجع السابق ص ١٤٣.

(٦) المرجع السابق : ص ١٢٦.

■ ١٣ ■

المهمة الأولى فى حى مشبوه

■ بدأ هيكل عمله فى الإجيبشيان جازيت «مساعد مخبر صحفى» فى ٨ فبراير ١٩٤٢ بعد أربعة أيام فقط من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى كان يوم أربعاء يتسم بالسواد والعار .. فقد هدد السفير البريطانى سير مايلز لامبسون الملك فاروق بإقالته لو لم يأت بحكومة جديدة للوفد يرأسها مصطفى النحاس باشا .. وحاصرت الدبابات قصر عابدين ومعها ٦٠٠ جندى بكامل اسحلتهم .. ولم يكن أمام الملك فاروق سوى القبول ..

فى هذه الظروف السياسية غير العادية بدأ هيكل حياته الصحفية .. وإن كان دوره فى تلك الأيام هو العمل فى قسم المحليات الذى كان يرأسه مصرى .. ممتلئ .. أسمر .. صعيدى من أسيوط .. يمت بصلة قرابة لمكرم عبيد .. هو فليب حنين .. وهو على حد وصف هيكل لى «شخصية جذابة» .. وفيما بعد أصبح أبنه فؤاد سكرتيراً لهيكل فى أخبار اليوم .. وفيما بعد أيضا .. فى ٨ فبراير ١٩٦٢ حضر فليب حنين احتفال الأهرام بمناسبة مرور ٢٠ عاماً على اشتغال هيكل فى الإجيبشيان جازيت .. لقد أصبح التلميذ أستاذاً .. وأصبح الأستاذ ضيفا مكرماً ومجهولا معا.

فى قسم المحليات اختار هيكل تغطية أخبار الحوادث .. إن الجريمة كما يكرر دائما هى ذروة المأساة الإنسانية .. والخوض فى تفاصيلها يمنح مخزونا من التجارب والتفاسير لسلوك البشر لا تمنحه أقوى الروايات الإبداعية مهما كانت واقعية .. كما أن تغطية أخبار الجريمة هى البداية التقليدية لمعظم الصحفيين .. وقد فرضت هذه التغطية على هيكل أن يتردد بانتظام على مبنى «المحافظة» وهو الذى كان شائعا فى ذلك الوقت لمقر قيادة بوليس القاهرة .. والاقتراب من حكمدارها .. الرجل القوى توماس رسل باشا الذى ذاعت شهرته بعد أن سحق تجارة المخدرات فى مصر فما بعد .. فى عام ١٩٤٦ .. وكان آخر موظف

بريطانى يعمل فى السلك المدنى المصرى .. وكان طويل القامة .. ممشوقا .. مهذبا .. صارما .. لا يتردد فى الاستمتاع بمباهج الحياة .. وكان واحداً من أربعة عشاق عرفتهم وكتبت عنهم «مريام فوجت» زوجة المستشار النرويجى فى القاهرة فى كتابها «قصة حب» .. ويقال أن «دورسيا» زوجة رسل باشا عندما اكتشفت خيانته لم تكن لتسمح له بمغادرة البيت وهو يحمل من المال أكثر من عشرين قرشاً فى جيبه .. إلا أن «هناك من زعم أن الزوجة ربما شعرت بالارتياح إذا اكتشفت أن حيوية ما مازالت تسرى فى أوصال الثعلب العجوز». (١)

لم يكن من الصعب الحصول على أخبار الجرائم أول بأول مشكلة صعبة على هيكل ورفاقه .. وكان من الممكن أن تستمر المهام الصحفية سهلة على هذا المنوال التقليدى .. لكن كانت هناك مفأجاة من النوع الثقيل تنتظرهم .. لقد ألغى وزير الشئون الاجتماعية فى حكومة الوفد عبد الحميد حقى البغاء الرسمى فى مصر .. جاء قرار الإلغاء باتفاق بين الوفد والإنجليز فرضته ظروف الحرب وإصابة الجنود المقاتلين بالأمراض السرية بسبب ترددهم على بيوت البغاء .. وأثار القرار غضب الجنود المقاتلين فى صفوف الحلفاء .. وكان رأيهم أنهم ماداموا سيموتون فلا معنى للخوف من الأمراض السرية .. وكان هناك طرف ثالث لم يعرف أحد رأيه هو العاهرات أنفسهن .. وهو ما فكر فيه رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت هارولد إيرل الذى طلب استفتاء بين العاهرات بواسطة استمارات طبع منها ٥٠٠ نسخة .. كان على هيكل أن يملأ ١٠٠ استمارة منها وجها لوجه مع العاهرات فى أحياء البغاء .. وكان الشرط الأصعب هو أن يحصل على صورة لكل عاهرة توضع على الاستمارة الخاصة بها حتى تتأكد إدارة التحرير من صدق البيانات الموجودة فى الاستمارة.

والمؤكد أن المهمة كانت صعبة ومحرجة لهيكل ورفاقه الثلاثة .. خاصة إذا ما عرفنا من مذكرات إبراهيم الوردانى أن هيكل القادم من «الحسين» و «باب الشعرية» كان خجولا فى تلك الأيام «يتضرج وجهه إحمرارا كلما طلبته فتاة للرقص» .. فكيف سيذهب إلى عاهرة محترفة ويسألها عن رأيها فى قرار إلغاء عملها الرسمى؟ .. لكن طموح هيكل ـ الذى وصفه الوردانى بأنه حارق للوصول لقمة الصحافة ـ لم يكن يثنيه عن ترك هذه الفرصة تفلت من يده.

****

لقد كانت الأمراض السرية مشكلة قيادة جيوش الحلفاء في مصر .. وقد حاولوا علاجها بإلقاء المحاضرات على الجنود «حول الوقاية من هذه الأمراض وكانوا حريصين على أن يؤكدوا على أن الدافع الجنسي طبيعياً تماماً .. لكنهم كانوا يضيفون أن بالإمكان الإستعلاء على الغريزة بممارسة الألعاب الرياضية والالتزامات العسكرية وقراءة الأعمال الأدبية .. ولم تفلح مثل هذه الإرشادات التي كان يصفها الجنود الذاهبون للموت بالساذجة .. وكان أن فُتحت ٧ مراكز في مستشفيات القاهرة لمعالجة الأمراض السرية .. كان يتردد على الواحد منها حوالي ألف حالة أسبوعياً .. وبُذلت محاولات أخرى لفرض قواعد منظمة على بعض المواخير .. فقد كان يجلس في معظم المواخير مندوب السرية الطبية يسلم كل زبون واقيا ذكريا وعلبه مرهم وكراسة إرشادات .. لكن ذلك لم يحل سوى جزء يسير من الكارثة .. فالجنود الجائعين للجنس يأتون من الصحراء ليحولوا أقدم حرفة في التاريخ إلى صناعة خدمية مزدهرة . (٢) وفي النهاية لم يكن هناك مفر من إغلاق أحياء الدعارة بقوة القانون.

لم يكن هيكل يعرف أين تقع أحياء البغاء في القاهرة .. فراح يسأل موظفا يعمل مع أبيه .. هو محمود أفندي النبوي .. وفوجئ هيكل بنظرة من الرجل يوجهها إليه وتتسم بالمكر والخبث .. لقد تصور أنه مثل الشباب في عمره يبحث عن مثل هذه الأماكن .. ورغم أنه قد دله عليها إلا أنه راح ووشى به عند أبيه الذي انتقل إليه سوء الظن وسوء الفهم من محمود أفندي النبوي ولابد أنه خشي أن تتكرر مأساة أبنه الأكبر مجاهد.

كان أبرز أحياء البغاء في «كلوت بك» الواقع شمالي الأزبكية مباشرة .. ومن سخرية القدر أن الاسم كان تخليدا للرجل الذي أدخل مفاهيم الصحة الحديثة في مصر أيام محمد علي باشا الذي منحه درجة البكوية وهو انطوان بارتليني كلوت .. من سخرية القدر أن اسم هذا الرجل لا يذكر إلا في أشد أحياء العاصمة وضاعة .. ويحمل الشارع الذي يوازيه اسم «وش البركة» وكان منافسا له في هذا النوع من المهن.

ويروي شهود العيان: «إن المومسات كن يجلسن بمراوحهن على مئات من البلكونات الصغيرة التي تطل على ذلك الشارع الضيق الطويل وهن ينادين على الرجال السائرين بينما كانت تقوم على الأرض أكشاك صغيرة كل منها تغطية ستارة واحدة .. عليها لافتات تقول «نحن نتكلم لغة الاسبرانتو» .. اللغة العالمية .. وكانت الأكشاك تفضي إلى أزقة تتشعب في البركة وتحوي معارض لاختلاس النظر وكباريهات للمناظر الفاضحة

وكان أشهرها فى كبارية «دارلينج ستريت» يقدم عملية جماع فاحشة بين امرأة بدينة وحمار». (٣)

ويروى نفس الشاهد: «أن البركة كان يحددها علامات بيضاء مستديرة فى وسطها حرف X بالخط الأسود العريض بما يشير إلى أنها منطقة ممنوعة على الأفراد من جميع الرتب .. وزياراتها تعنى المخاطرة بمواجهة الشرطة العسكرية .. ولكن لا هذه اللافتات ولا خطر الإصابة بمرض سرى كانت تبدو رادعاً كافياً ومن ثم ازدهرت البركة حتى خريف ١٩٤٢ عندما قتل أسترالياں مما دفع السلطات إلى إغلاق المنطقة بأكملها .. وطردت البغايا منها .. ولكنهن تغلبن على هذه المشكلة بممارسة الجنس فى المقاعد الخلفية فى عربات الحنطور». (٤)

«أما فى الإسكندرية فقد كان حى الملاهى الحمراء وكان يقع فى الجزء القديم من المدينة قرب الميناء فى حارة متعرجة اسمها حارة «سستر» وكانت عبارة عن نسخة من وش البركة فى القاهرة لكن بصورة أشد قذارة وأكثر تعاسة .. وعلى نقيض صارخ لنظافة وكفاءة اشهر ماخور فى الإسكندرية حيث يقال أن الفتيات كن يتعاملن كل ليلة مع ٣٥ رجلا .. وفى إحدى المناسبات سقطت قنبلة لتقسم الملهى قسمين تاركة مخادع الزنا دون مساس بينما دمرت البار البرئ نسبيا من الخطيئة».

كان على هيكل أن يدخل هذا العالم الفاجر ويسأل «المومسات» ويدخل معهن فى حوار يسجله على استمارات ويطلب من كل منهن صورة يضعها على الاستمارة .. إنها مهمة صحفية حرجة وصعبة بكل المقاييس وفى كل الأزمان .. خاصة لشاب لا يزيد عمره عن ١٩ سنه.

ويروى هيكل : أنه راح لوش البركة ولم يستطع أن يفتح فمه بكلمة واحدة وعاد بخفى حنين لفليب حنين .. ولم يكن هو الوحيد الذى أصابه الفشل .. فقد أعلن رفاق التجربة الصحفية الأولى أنه «لا أمل». (٥)

فى اليوم التالى قرر هيكل تكرار المحاولة .. وتجرأ واقترب من «واحدة منهن» .. فتصورت أنه زبون .. فلم يتمالك هيكل الموقف .. فهرب.

وفى اليوم الثالث كانت المحاولة الثالثة .. اقترب من «واحدة منهن» وقال لها بأدب شديد: «ياهانم ..» وقبل أن يكمل سبته .. فقد تصورت أنه يسخر منها بكلمة «هانم» وعندما أضاف: إنه صحفى .. سبت الصحافة .. هكذا لوجه الله .. فلم يكن أمامه سوى أن يجلس على مقهى فى الحى ويطلب زجاجة مياه غازية ماركة «سباتس» ليبلع ريقه ..

ويجفف عرقه .. ووضع الاستمارات التى يحملها على المائدة التى أمامه .. وراح يسجل ملاحظاته عن المكان رغم أن ذلك ليس هو المطلوب منه .. ولمحتة «المعلمة» التى تدير المقهى .. كانت امرأة مفرطة فى البدانة وتقوم بعمل سرى آخر هو إدارة شبكة دعارة من الفتيات .. وقد طلبت من «الجرسون» أن يذهب إلى ذلك «الأفندى» الذى بدا وكأنه موظفا حكوميا فى مهمة رسمية .. ولم يكن ذلك غريبا فقد كان الحى يتعرض لموظفين رسميين يأتون لمراجعة الرخص التى تحملها العاهرات .. أو لمحاسبتهن ضرائبياً .. أو للتأكد من إجراء الكشف الطبى الدورى .. طلب منه الجرسون أن يتحدث معها فذهبت إليها .. وعرفت منه أصل الحكاية .. فنادت ابنها الذى طلب منه بطاقة تحقيق شخصية تثبت أنه صحفى فى الإجيبشيان جازيت .. لكن هيكل الذى كان «تحت التمرين» لم يكن يحمل مثل هذه البطاقة .. لكنه طلب من «عباس» أن يتصل بالجريدة تليفونيا ويتأكد نفسه .. وكان الرقم ٤٩٠٠٠ .. وهو ما حدث بالفعل .. فكان أن أمرت المعلمة أن يأخذه عباس إلى فتاة اسمها «إحسان» .. وساعدته «إحسان» فى أن تملأ الفتيات الاستمارات وقدمن له صورهن الفوتوغرافية .. ونجحت المهمة .. وكان هيكل الوحيد الذى عاد إلى الصحيفة ومعه ٧٠ استمارة مكتملة.

****

وقد روى هيكل بقلمه هذه القصة بعد أن انتقل إلى مجلة «آخر ساعة» ولكن دون أن يفصح عن اسمه .. ففى صفحة (٢٠ ـ ٢١) من عدد المجلة رقم ٥٤٦ نجد موضوعا صحفيا بعنوان «مواقف حرجة فى حياة محررى آخر ساعة الغراء» .. يروى فيه بعض محررى المجلة بعض ما تعرضوا له من مواقف حرجة لكن دون ذكر أسمائهم .. على أننا نعرف أن هيكل هو بطل هذه القصة التى رواها كالآتى:

«كنت أقضى فترة التمرين فى «الإجيبشيان جازيت» وذات يوم جاءنى سكرتير تحرير الجريدة وقال لى أن الحكومة تفكر فى إلغاء البغاء الرسمى وأن الجرائد كلها تكتب فى هذا الموضوع دون أن تحاول واحدة منها أن تأخذ رأى أصحاب الشأن الأول وهم البغايا أنفسهن .. وطلب منى يومها أن أقوم بسؤال مائة بغى عن رأيهن فى الموضوع قائلا أنه سيكون دليلا على مقدرتى الصحفية إذا تمكنت من استفتاء مائة بغى .. وكانت مهمة شاقة .. ولكن المسألة كانت مسألة امتحان.

«وذهبت إلى ذلك الحى .. الحى الذى تستطيع أن تشترى فيه كل شئ .. ودخلت أول بيت وأنا أفكر فى الصيغة التى ألقى بها السؤال ولكن يبدو أننى لم أوافق فى اختيار الصيغة لأننى خرجت من البيت الأول مشيعاً بسباب وصل إلى أجدادى حتى عهد الملك مينا .. وحاولت .. وحاولت .. ولكن على غير فائدة .. وأخيرا أدركت عقم المحاولة وبدأت أفكر بهدوء وأحسست أن ثقتى قد بدأت تفارقنى .. والتفت فإذا مقهى قريب منى فذهب إليه لاستريح ولأفكر .. وفى أثناء جلوسى لاحظت وجودى سيدة متقدمة فى السن كان جميع من فى المقهى ينادونها «بالمعلمة» باحترام قل أن يكون له مثيل .. ووثبت فى ذهنى فكرة فتقدمت من السيدة وشرحت لها كل مهمتى وأثبت لها أن مستقبلى كله يتوقف على معاونتها لى وفكرت السيدة قليلا ثم قالت لى:

«أقعد» .. وقعدت .. فنادت بعض النساء وعقد الجميع مؤتمرا لبحث المسألة وجلست أنتظر النتيجة .. وفجأة صاحت إحداهن: نادوا عباس .. ومرت فترة ثم حضر شاب سمع المسألة ثم تقدم منى قائلا: معاك «كرنيه» .. ولم يكن معى كرنيه ولا خلافة .. ولم يقتنع عباس ولكن المعلمة اقتنعت قائلة: ده باين عليه أبن ناس .. وهززت رأسى مؤكدا أننى أبن ناس جدا .. فبدأت ترسل فى طلب النساء من المنازل المجاورة حتى أتاحت لى الفرصة أن أسال مائة امرأة وأنا جالس فى مكانى اشرب القهوة على حساب المعلمة».

****

وبنجاح هذه المهمة تدعم وجود هيكل فى الصحفية .. وكلفوه بمهمة أخرى .. كانت هذه المرة لمتابعة قرار إلغاء «الحنطور» فى الشوارع الرئيسية بالقاهرة .. ولمدة أسبوع كان هيكل يرافق «العريجية» فى عملهم .. ويتحدث إليهم .. ويبدو أن مثل هذه المهام جعلت رفاقة يشعرون باليأس تدريجيا فلم يكمل المشوار معه سوى يوسف صباغ الذى زامله فيما بعد فى مجلة «آخر ساعة» .. ثم اصبح مساعداً لمدير تحرير «الاهرام» .. أما الآخرون فقد عمل أحدهم فى الأمم المتحدة .. وعمل الثانى فى شركة «شل».

ويقول لى هيكل: أنه كان يذهب إلى «المحافظة» ويطلع على «دفتر الأحوال» .. وكان هذا العمل يفرض عليه التعامل مع مدير المباحث الإنجليزى الميجور «سانسون» الذى كان مسئولا عن الجرائم المشتركة بين المصريين والبريطانيين .. وكان يطارد أنور السادات فى قضية الراقصة «حكمت فهمى» وشبكة التجسس لحساب الألمان الذين كان السادات معجبا بهم فحلق شعره على طريقتهم وأمسك بعصا مثلهم ووضع «المونوكل» الذى

اشتهروا به .. أما مدير المباحث المسئول عن جرائم المصريين فكان عبد الرحمن بك فهمى .. وقد أعطى هيكل خبر هجوم على معسكر إنجليزى فى المرج قُتل فيه واحداً من المهاجمين وجنديا بريطانيا واستولى المهاجمون من المعسكر على بعض الأسلحة .. وقد نشر هيكل الخبر فغضب الميجور سانسون واستدعاه رسميا للتحقيق معه .. وأصيب كل من فى الصحيفة بالذعر .. فقد كان مشهورا عن سانسون غلظته .. وكانت المرة الأولى التى يعرف فيها هيكل أن الصحافة ليست مشيا على الحرير دائما .. وإنما هى مشيا على الأشواك أحيانا .. بل غالبا ..

وفى تلك الفترة تعلم هيكل الدرس الأول فى حياته الصحفية وهو أن المبالغة فى تصوير الأخبار قد تؤدى إلى التهلكة .. لقد روى هيكل فى صفحة (٢٠) من العدد رقم (٥٥١) من مجلة آخر ساعة (فى موضوع مشترك بعنوان الخبر الأول) أنه كان يمضى فترة التمرين فى إحدى الصحف الأجنبية الكبرى .. وأنه كان مندوب الجريدة فى دوائر البوليس .. «وذات يوم علمت أن هناك مشاجرة تدور فى مكان ما من القاهرة .. وأسرعت إلى مكان الحادث الذى يتلخص فى أن جندى بوليس ضبط لصا ولما حاول أن يقبض عليه أسرع اللص وجرى فأطلق الجندى عليه رصاصة أرهبته فسلم نفسه وهذا كل شئ ..

«هذا كل شئ بالنسبة للقصة نفسها .. ولكن هل هناك ما يحتم أن يكون هذا هو كل شئ بالنسبة لى .. أعملت الفكر أو قل الخيال .. فإذا هذه الحادثة البسيطة تتحول إلى معركة عنيفة بين اللصوص وبين البوليس .. تطلق فيها مئات الطلقات ويقع أثناءها عشرات الضحايا .. تماما كما يحدث فى شيكاغو..

«وظهرت الحادثة بهذا الشكل فى الجريدة .. وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى أتلقى أكاليل الغار فإذا بى أجد جنديا ينتظرنى .. جنديا أوفد من المحافظة خصيصا ليصحب الكاتب الفاضل إلى المحافظة .. وهناك تلقانى وكيل الحكمدار ووجه إلى تهمة كانت أبعد ما تكون عن خاطرى .. تهمة الخيانة العظمى .. أما الأسباب فهى أننى أنشر صوراً بعيداً عن الحقائق تسئ إلى سمعة الأمن وتشكك فى استقرار قواعد الطمأنينة وتعطى العالم الخارجى كله صورا مشوهة عن مصر.. وحاولت أن أثبت أننى أول من يحرص على سمعة الأمن وعلى سمعة الطمأنينة وعلى سمعة الوطن ولكن بلا فائدة..

«وأحلت إلى ضابط اتصال إنجليزى اسمه الكابتن مورلى ليحقق معى .. وبدأت ساعات طويلة من التحقيق .. وبين كل سؤال ووسط كل إجابة يضرب الكابتن مورلى بيده المائدة

ويقول بالعربية المكسرة: لازمتو خمسة سنين خبس .. ولم يخرجنى من هذا المأزق إلا وعد ضمنى فيه ولى أمرى أن أطلق الصحافة طلاقا بائنا .. فلم أعد إليها إلا بمحلل».

****

وبنجاح هيكل فى عمله الصحفى اصبح يتقاضى ١٢ جنيها وهو ما أتاح له الاستقلال بحياته .. والسكن فى «بنسيون» مدام «سيمون» مقابل ٦ جنيهات يدفعها شهريا للإقامة والإفطار وتلميع الأحذية .. وكانت مدام سيمون تعمل فى خدمة سيدة ثرية أرستقراطية هى «قوت القلوب الدمرداشية» التى تبرعت وأوقفت الكثير من ممتلكاتها لكلية الطب جامعة عين شمس الآن .. وكانت قد تبرعت لخادمتها بشقة ٦ حجرات وصالة فى شارع «عماد الدين» حولتها إلى بنسيون .. كان أول مكان يستقل ويستقر فيه هكيل .. أما أول شقة أجرها فى حياته فكانت فى إحدى عمارات «الأوقاف» فى شارع «سليمان باشا» أو شارع «طلعت حرب» فيما بعد .. ثم انتقل إلى حى الزمالك بعد أن تزوج .. وأخيرا استقر على النيل إلى جوار فندق «شيراتون» القاهرة.

الهوامش

(١) أرتيميس كوبر: مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٢٧.

(٢) المرجع السابق : ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) المرجع السابق: ص١٤٧.

(٤) المرجع السابق: ص١٤٨.

(٥) حوار جرى بينى وبين هيكل فى قرية الرواد بالساحل الشمالى فى ٣٠ أغسطس ١٩٩٩.

■ ١٤ ■

الخـوف هـو الـتـرف الـوحـيـد الـذى لا امـلـكـه

■ فى أغسطس ١٩٤٢ دعا هارولد إيرل هيكل ورفاقة الثلاثة إلى مكتبه وقال لهم: «إن حرباً تجرى على أرض مصر ومع ذلك فإن أحداً لم يصفها بعين مصرية ولم يكتبها بقلم مصرى».. ثم سأل: «هل منهم من هو مستعد للمخاطرة فى تجربة جديدة وعلى مسئوليته وحده» .. وتحمس هيكل للتجربة .. وتحمس معه ميخائيل فلتس .. ولكن عائلة ميخائيل فلتس لم توافق على سفر أبنها ولم توقع على إقرار تحمل المسئولية الذى طلبته الصحيفة .. ونجح هيكل فى الحصول عليه بعد أن أقنع خاله - الذى كان متفهما - بالتوقيع.

وهكذا .. وجد هيكل نفسه بعد شهر واحد فى ميدان الحرب فى العلمين شاهدا على الحرب العظمى الثانية .. يراها ويعيشها بعيون مصرية .. وانتقل من متابعة الجريمة .. ذروة المأساة الفردية .. إلى متابعة الحرب .. ذروة المأساة الجماعية.

ولا يمكن الاستهانة بجرأة هيكل على اتخاذ هذا القرار .. فكل الأحداث المتلاحقة كانت تؤكد أن الهلاك سيكون من نصيبه .. كما أن كل الظروف كانت تشير إلى أن الألمان قادمون .. وإن إيقافهم مهمة مستحيلة لا يقدر عليها سوى الله وحده.

****

لقد وصلت مدرعات روميل إلى العلمين .. وبعث راديو ألمانيا برسالة لنساء الإسكندرية تقول: «جهزن فساتين السهرة.. نحن فى الطريق».. ساعتها لم تكن فى المدينة «خياطة» واحدة بلا عمل .. لقد أصبحن «مشغولات لشوشتهن» من أجل «تشطيب» فساتين النساء التى سوف تزين «حفل النصر الراقص» (١) وراح أصحاب المحلات يتأكدون سرا من أن بحوزتهم صورا لهتلر وروميل جاهزة لوضعها فى إطار بينما انشغلت زوجاتهم فى

تجهيز الأعلام والرايات ذات اللون الأحمر والأبيض والأسود.. بل «أن هناك من الأسر كانت قد أجرت غرفا للضباط الذين كانوا وقتها بالجبهة بدأت تحرق الملابس العسكرية البريطانية التى كانت مودعة عندها .. كأنما تحرق دليل إدانتها». (٢)

وفى نهاية يونيو ١٩٤٢ وصل التهديد للإسكندرية إلى ذروته.. فقرر الإنجليز تقسيم السفن الراسية فى الميناء بين بورسعيد وحيفا وبيروت .. وزادت نشرات أخبار الإذاعة البريطانية الطين بلة .. فقد ذكرت أن «نجاح الألمان إنما يرجع إلى التفوق الكبير فى تكتيكاتهم وأسلحتهم».. وبدأ العسكريون والدبلوماسيون فى الإسكندرية فى حرق ملفاتهم.. وشرعت أسرهم فى حزم أمتعتهم والأنضمام للجموع التى أزدحمت فى محطة القطارات وبدا أن المدينة على وشك أن تكون مهجورة.

وفى القاهرة وصف يوم أول يوليو بأنه «أربعاء الرماد»(٣) ففى هذا اليوم بدأت السفارة البريطانية وقيادة الجيش البريطانى فى مصر فى إحراق كميات ضخمة من الملفات.. وأصبح الهواء ثقيلا بالدخان الأسود .. وأدت حرارة النيران إلى تطاير بعض الأوراق عالية فى الجو قبل أن يتم حرقها حسب الأصول.. و«بعد أيام كان باعة الحمص والترمس يصنعون قراطيس صغيرة من أوراق نصف محروقة تحوى معلومات فى غاية السرية».(٤)

وبدأت طوابير تمتد على طول شوارع كثيرة من حول البنوك .. وكان مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء قد وضع مخططا لنقل حكومة مصر واحتياطاتها الذهبية إلى الخرطوم.. وأدت الهرولة إلى البنوك إلى رفع إصدار البنكنوت من ٥٧,٩ مليون جنية فى يوم ٢٥ يونيو إلى ٧٦ مليون جنيه فى ٤ يوليو .. وتقرر أن تطبع مصلحة المساحة العملات الورقية لأول مرة بعد أن كان من الصعب أن يحدث ذلك كما هو معتاد فى لندن بالسرعة المطلوبة .. وخلال ٤ أيام استطاعت مصلحة المساحة أن تطبع ٦ ملايين جنيه على شكل ورقات مالية فئة المائة جنية .. وفى الوقت نفسه أعلن فاروق «أنه ليس ملك العوبة ورفض مغادرة البلاد».

وانتشرت نكات بين سائقى التاكسى بالقاهرة ضد الإنجليز من قبيل «اليوم أسوق بك إلى جروبى وبكرة أنت الذى تسوق بى» .. وكان للبريطانيين نكاتهم أيضاً .. «فلأن أكثر فنادقهم كان معروفا ببطء الخدمة قالوا: إن كل ما عليك هو أن تنتظر حيث يأتى روميل إلى شبرد وساعتها سوف تتعرض مسيرته للبطء الشديد». (٥)

****

فى هذه الظروف الحرجة .. الخطرة .. غير المشجعة قرر هيكل ركوب المغامرة وقبل مهمة السفر إلى العلمين .. كان الشاب المصرى الوحيد فى مجموعة من ١٢ شابا من مختلف مستعمرات بريطانيا .. أخذوهم فى البداية إلى منطقة «الدخيلة» بالإسكندرية ..

وضعوهم فى قاعدة عسكرية بريطانية لعدة أيام تدربوا فها على أوليات الدفاع عن النفس وأطلعوهم على اتفاقية جنيف الخاصة بالمراسلين العسكريين لاستخدامها إذا ما وقعوا فى الأسر .. وكان المسئول عن المجموعة ستيفين بربر الذى أصبح فيما بعد مراسل الديلى تلجراف فى العاصمة الأمريكية واشنطن. (٦)

وبعد أن انتهت مدة «الدخيلة» ركب هيكل سيارة عسكرية مع ستيفن بربر وألحقه بكتيبة هندية تتبع الجيش الثامن وهو الجيش الذى كان عليه أن يواجه روميل فى العلمين .. وقد كان فريسة للإنهاك .. وتعرضت طاقاته للنفاذ .. بدت قيادته عاجزة عن تحقيق أى تقدم .. وهو ما جعل رئيس وزراء بريطانيا ونستون وتشرشل يأتى بنفسه إلى مصر ويدرس الموقف العسكرى ويجدد قيادة الجيش الثامن ويقترح تعيين الجنرال برنارد مونتجمرى قائدا جديدا .. ومنفذا لخطة الهجوم على روميل التى وضعت تحت اسم «الشعلة».

إن هيكل نفسه قد شعر بالإحباط فى اللحظة الأولى الى بدأت فيها مهمته فى العلمين .. لقد تركه ستيفين بربر فى الكتيبة الهندية ليلحق بموعد فى قيادة الأركان فى مدينة «الحمام» أولى مدن محافظة «مطروح» على أن يلتقيا فى نفس اليوم ليلا .. لكن قبل أن يأتى موعد اللقاء تعرضت الكتيبة الهندية لقذف بالهاون فقدت على أثره الكثير من الضحايا وأخليت من موقعها .. فكان أن عاد هيكل إلى الدخيلة فى أقل من ٢٤ ساعة وفشلت مهمته قبل أن تبدأ .. لكنه بالرغم من صدمته الشديدة لم ييأس.

ويقول لى هيكل : أنهم ألحقوه بكتيبة أخرى نيوزيلندية .. «كان حظها أفضل من حظ الكتيبة الهندية» .. والحقيقة أن الحظ كان إضافة للتغير الذى جرى فى قيادة الجيش الثامن وقلب كل الموازين .. لقد سلم الجنرال أوكلينيك القيادة للجنرال مونتجمرى الذى كان قراره الأول إعدام كل خطط الانسحاب .. وهو أمر متوقع من شخصية مونتجمرى الخشنة الى خلقت روحا قتالية جديدة وكأنها نسمة من هواء نقى .. «وسرت حكاية بأن الرقباء فتحوا رسالة من ضابط تقول: المشكلة أنك إذا أردت أن تتعامل مع كائن قذر مثل روميل فأنت بحاجة لكائن آخر من نفس عينته وحتى الآن كان جميع قوادنا أفراد مهذبين بدرجة مخيفة لكن حمدا لله فقد حصلنا أخيرا على مونتى» .. أو مونتجمرى. (٧) الذى أجبر روميل على الانسحاب من العلمين فى ليلة ٢ نوفمبر .. وبعد ٩ أيام تحررت طبرق .. ودقت أجراس الكنائس فى إنجلترا وفى الكاتدرائية الإنجيلية بالقاهرة.

وقد بقى هيكل فى العلمين حتى بدأ الهجوم .. وفيما بعد .. فى الذكرى الخامسة والعشرين للحرب قابل هيكل مونتجمرى فى القاهرة والعلمين .. فى الاحتفال الذى نظمته صحيفتى الأهرام وصنداى تايمز – وكانت فى عصرها الذهبى تحت رئاسة دنيس

هملتون – بهذه المناسبة .. وذكره بهتافات الجنود له فى مدينة الحمام: «مونتى .. مونتى» .. وصحب مونتى فى هذه الجولة بالصحراء الغربية بعض الأحياء من كبار ضباط أركان حربه القدامى وهو وقتها الجنرال السير فرانسيس دى جينجاند رئيس أركان حربه .. والجنرال السير أوليفر ليس مدير التخطيط .. والجنرال السير بريان هوروكس مدير العمليات .. والبريجادير ريشارد جيوفرى مدير المخابرات بقيادة الجيش الثامن .. و«نزل المارشال مونتجومرى ومرافقوه فى فندق «سيدى عبدالرحمن» وكان ترتيب كل يوم ولمدة أسبوع أن يطوفوا بالمواقع فى الصباح ثم يجلسوا بعد الظهر – مع نسائم العصر – لمناقشة مفتوحة .. وكان هيكل ودنيس هملتون ينضمان إليهما متابعين لحوارهم باهتمام شديد وربما قاطعوه بسؤال أحيانا .. وعادة ما كانت الجلسات الممتعة تجرى فى شبه دائرة على مقاعد من قماش فوق الرمل على شاطئ البحر.

وسألت هيكل ونحن فى قرية «الرواد» بالساحل الشمالى .. بالقرب من المكان الذى كان مسرحا لتلك الحرب: ما الذى تعلمته من الحرب؟

أجاب : لقد اشتريت حياتى بمواجهة الموت فى الحرب .. علمتنى الحرب ألا أخاف الموت .. أو أن أتجاهله .. ظللت أقول لنفسى : أن الخوف هو الترف الوحيد الذى لا أملكه ولاأسمح به.. وفى الوقت نفسه أدركت مبكرا أن الإنسان يشترى حريته .. فأنت حر بقدر ما تعتمد على نفسك .. وأنت قوى بقدر ما تواجه الخطر.

وقال لى أيضاً: الحرب تعلم الصحفى الكتابة اليومية وتسجيل ما يجرى برؤيته الشخصية .. إن الأحداث تنقلها وكالات الأنباء وتحدد الرقابة العسكرية ما ينشر منها وما لا ينشر . ومن ثم فالفرق بين صحفى وصحفى فى تغطية الحرب هو الرؤية الشخصية .. إن الحرب أحدثت ثورة فى التغطية الصحفية .. خلقت ما يمكن وصفه بصحافة المأساة .. حيث الإنسان فيها أهم من الحدث أو الخبر .. الإنسان هو البداية والنهاية .. لقد حولت الحرب بعض الصحفيين إلى أدباء.. أصبحت كتاباتهم «فيها روح» .. فيها الإجابة على السؤال الصعب «كيف تمسك باللحظة؟» وهو ما فرق بينى وبين جيلى .. وفى الوقت نفسه أثرت الصحافة من تجارب بعض الأدباء الذين عاشوا الحرب وكتبوا عنها مثل «أندريه مالرو» الذى كتب عن سقوط باريس .. على أن أهم ما خرجت به من التجربة هى أننى أصبحت أدون يوميا كل ما يمر بى .. وأصبحت هذه العادة واحدة من أشهر عاداتى المعروفة.

على أن الحرب فتحت أمام جيل هيكل ما وصفه هو بإمكانية الاختيار .. وقد قال : «أن الأجيال التى سبقت جيلنا لم يكن مفروضا عليها أن تختار .. أو بمعنى أدق وأصح فإن مجالات الاختيار لم تكن واسعة أمامها .. إن العالم بالنسبة لمصر قبل الحرب وأثناءها كان

مختزلا فى علاقة سياسية ثنائية مع بريطانيا وميلا ثقافيا نوعاً من نحو فرنسا.. وكان النظام السياسى الاقتصادى الاجتماعى الفكرى نظاما تابعا بمنطق الأشياء وحقائقها .. ولم يكن هنك غير بديلين اثنين: إما الالتحاق بالصف المعادى للاستعمار أو بالصف الموالى له .. وحتى هذه الصفوف لم تكن محددة وإنما كانت ملتبسة .. وقد زاد الالتباس بضرورات الحرب ضد المحور وأصبحت مناصرة القوة المحتلة وهى بريطانيا فى الحرب ضد النازية اضطرارا لا مهرب منه غير الوقوع فى شرك تأييد النازية تحت توهم مقاومة الاحتلال». (٧)

«وكانت حدود الاهتمامات السياسية والصحفية – خارج العلاقة الثنائية مع بريطانيا – قاصرة على تغطية الساحات الخلفية للقصر الملكى وللسلطة التى تمثل قمة المجتمع ومعمظها من غير المصريين أو نصف المصريين .. وأما بعيدا عن السياسة فلم تكن غير ثرثرات الطبقة الراقية – كما كانوا يسمونها – إلى جانب كواليس المسارح .. وربما الصالات والكباريهات».

«وبالطبع كانت هناك ايماءات هنا وهناك تشير إلى اتجاهات أخرى .. لكن هذه الايماءات ظلت محدودة فى تأثيرها .. وربما استطاعت أن تظهر أكثر فى مجال الفكر السياسى البحث .. دون أن ينعكس تأثيراها بقدر كاف على الصحافة المصرية».

«والذى حدث أن الحرب العالمية الثانية – التى كانت مصر كما رأينا ميدانا من أهم ميادينها – جاءت معها وفى أعقابها بأفكار كان من أثرها أن سقطت أسباب الثنائية الحاكمة.. وأصبحت مصر والحياة فيها مفتوحة لعشرات الاحتمالات .. وهنا برزت إمكانية الاختيار .. واصبح على جيلنا أن يمارس ضرورة الاختيـ .. وقد اختار جيلنا بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة من الحماسة إلى هذه الفكرة أو تلك أو الاختلاف مع هذا التصور أو ذاك .. إن هذه المرحلة كانت الحقبة الوطنية والقومية فى العالم العربى .. بكل أولوياتها ،. وهى: مقاومة الاستعمار .. والاستقلال الوطنى .. الوحدة العربية .. التصدى للمخططات الإمبريالية والصهيونية .. عدم الإنحياز .. إعادة البناء الاقتصادى مع تركيز على التصنيع .. إعادة التركيب الاجتماعى مع تركيز على ملكية الأرض .. السعى نحو حراك إجتماعى يقوم على أسس متساوية فى التعليم وفى العمل وفى الصحة وفى السلطة.

ويستطرد هيكل أو يستدرك : «لا أقول أن ذلك تحقق كله أو معظمه وإنما أقول أن تلك كانت رؤوس الموضوعات التى تحولت إلى قائمة بجدول أعمال المرحلة» .. وهى مرحلة كان حق الاختيار فيها مفتوحا لأول مرة داخل بلد تحقق اتصاله بعالمه الأوسع واصبح جزءا من حركته بغير عزله أو وصاية أو حدود مغلقة».

لقد كانت الحرب هى مستشفى الميدان التى ولد فيها .. وقد أتيح له فيما بعد أن ينتقل من العلمين إلى مالطا .. ومن مالطا إلى باريس .. كل ذلك وهو فى هذه السن المبكرة .. فكان أن تفتحت حواسه للخبر والخطر والسفر .. وهى الحواس الضرورية للصحفى .. وبدونها تصبح الصحافة – كما هى الآن – كتابة على مقعد متحرك فى غرفة ملحقة – ولو من بعيد – بجهاز العلاقات العامة الرسمى والحكومى.

الهوامش

(١) أرتيمس كوبر : مرجع سبق الإشارة إليه – ص ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق : ٢٤٧.

(٣) المرجع السابق : ص ٢٥٠.

(٤) المرجع السابق : ص٢٥١.

(٥) المرجع السابق : ص ٢٥١.

(٦) حوار مع هيكل جرى فى الساحل الشمالى فى يوم ٣٠ أغسطس ١٩٩٩.

(٧) أرتيمس كوبر – المرجع السابق : ص ٢٧٣.

(٨) محاضرة ألقاها هيكل فى «صالون إحسان عبدالقدوس» فى روز اليوسف وكان يشرف على الصالون الدكتور والسفير مصطفى الفقى.

■ ١٥ ■

دعـوة لـلـغـذاء .. ثـم دعـوة لـلـصـحـافـة

■ فى سنوات العمل الصحفى فى «الإجيشيان جازيت» لم يكن هيكل بعيدا تماما عن أجواء الصحافة العربية .. كان فى تلك الأيام يذهب مع فليب حنين رئيس قسم المحليات فى الإجيبشيان جازيت للغذاء فى مطعم «الباريزيانا» القريب من الجريدة .. وكانت السيدة روز اليوسف الفنانة والصحفية الكبيرة تتردد على هذا المطعم .. وقدم فليب حنين هيكل لها .. ويكمل هيكل : «ثم لقيناها أكثر من مرة .. وكانت هذه السيدة ذات الشخصية القوية كريمة فى تشجيعها للصحفيين المبتدئين .. ودعتنا إلى مائدتها مرات .. ثم دعتنا إلى مجلتها .. وكان هناك لقائى الأول مع الصحافة العربية». (١)

إن روز اليوسف .. السيدة والمجلة .. هما فصل مثير ومهم فى الكتاب الكبير الذى لم يكتب بعد بشجاعة أو بصراحة عن الصحافة فى مصر.

****

فى عام ١٨٩٧ ولدت طفلة جميلة فى مدينة طرابلس فى لبنان من أبوين مسلمين سُميت فاطمة لكنها لم تكن تعرف اسمها الحقيقى لأن الجميع من حولها ينادونها روز .. بل أنها لم تكن تعرف أنها مسلمة .. ولم تعرف إلا فيما بعد أن أبوها هو محمد محيى الدين اليوسف .. وأن أمها اسمها جميلة .. فالأسرة التى كانت تربيها وتتصور أنها أسرتها هى أسرة مسيحية .. وكانت تعاملها بقسوة غير مبررة .. فثيابها خرق .. وطعامها فضلات .. والكلمة التى تسمعها كالرعد فى الأذان .. لم تكن تلعب .. ولا تضحك .. وكانت الوحيدة التى تحنو عليها مربيتها خديجة.

لقد سافر الأب محمد اليوسف إلى استنبول سعياً وراء تجارته الواسعة التى خسرها كما خسر زوجته بموتها عقب ولادة أبنتة .. وأختفى الأب .. ولم تعرف فاطمة مصيره حتى آخر يوم فى عمره .. وأغلب الظن أن عدم استقراره فى بلد واحد جعله يعهد لتلك الأسرة التى لم يكن لها أطفال لرعاية أبنته .. وعندما انقطعت أخباره وأمواله تحولت فاطمة إلى روز .. وبعد أن كانت مدللة أصبحت تعامل معاملة قاسية .. وفى يوم زارها صديق للأسرة أعلن عن رغبته فى أن تصحبه فى هجرته إلى البرازيل أو تلحق به لتكون أنيساً له فى غربته .. ورحبت بالفكرة هروباً من الجحيم الذى عاشت فيه.

وهكذا .. أفاقت الفتاة – حلوة الوجه صغيرة القد خافتة الصوت – من نومها ذات صباح لتغادر طرابس فى طريقها إلى البرازيل لتلحق بالرجل الذى دعاها للهجرة بعيداً .. ولكن .. عندما نزلت الصبية ميناء الإسكندرية .. وجدت شيئا ما يشدها إلى تلك المدينة الساحرة .. فبقيت فيها ولم تعد للسفينة التى تركت الميناء .. وتركتها.

لا تعرف ما الذى جرى لها فى الإسكندرية .. فأول ما يذكره الدكتور سعيد عبده فى كتابه عنها (٢) أنها انضمت لإسكندر فرح وفرقته المسرحية حين رآها .. وقد عاملها كسائر بناته .. ومنحها فيما بعد فرصة دخول عالم المسرح والتمثيل الذى لمعت فيه حتى أنها حظيت بلقب «سارة برنارد الشرق».

فى أغسطس عام ١٩٢٥ فكرت روز اليوسف فى إصدار المجلة التى تحمل اسمها وبعد شهرين وبالتحديد فى ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥ صدر العدد الأول منها .. وكان على رأس محرريها موظف فى البرلمان كان يحرر باب النقد الفنى فى «الأهرام» بأسلوب تفرد به – وهو أسلوب أنشأ مدرسة صحفية حديثة سيطرت فيها بعد على الصحافة المصرية – هو محمد التابعى.

وقد بدأت روز اليوسف كمجلة فنية .. ثم سرعان ما وجدت نفسها تخوض فى غمار المعارضة السياسية .. وساعتها وجدت نفسها تحت سيف المصادرة والتعطيل.. ووجد معظم من تولوا رئاسة تحريرها أنفسهم عرضة للسجن أو تحت ضغوط النيابات والمحاكم وتهديد حياتهم بالقتل .. وقد وصف الساخر الكبير فكرى أباظة المجلة بأنها مجلة أصيلة «لا تتأثر بالزمن ولا بالعمر ولا بالسن ولا بالأحداث» .. وأنها «كلما أُمتحنت إجتازت الامتحان بنجاح .. وكلما ضحت وعانت وشقيت كلما صمدت وكافحت وزحفت». (٣)

واستطرد فكرى أباظة: «إن إرادة هذه السيدة استطاعت أن تفتح مجلة وتفتح بجانبها معهداً .. خرج من بين من خرج أساتذة وأعلاماً وشباباً يزحف اليوم ويغزو ويفتح ويجنى

أنضج الثمار» .. إن هذه الفقرة هى سر استمرار روز اليوسف.. فهى مستشفى لولادة المواهب .. تفتح لهم الأبواب بلا حساب .. فمن النادر أن تجد نجما فى الصحافة والأدب لم يمر على روز اليوسف .. خاصة فى الأوقات التى تُترك فيها المجلة تعبر عن نفسها وتواصل رسالتها وتحدد سقف الحرية.

لذلك لم يكن مثيرا للدهشة أن يمر هيكل على روز اليوسف .. وأن تكون محطة فى مشواره الصحفى .. خاصة وأن تجربة النشر باللغة الإنجليزية فى الإجيبشيان جازيت لم تعطه فرصة أن يمد الجسور بينه وبين قراء الصحف العربية .. وهم الأغلبية .. كذلك فإنه لم يجرب الكتابة بلغتة الأصلية .. وفى الوقت نفسه فإن الإجيبشيان جازيت قد بدأت – مع لفظ الحرب لأنفاسها الأخيرة – تفقد بريقها وأهميتها .. وتوزيعها .. لقد انخفض التوزيع من ٢٥٠ ألف نسخة إلى ٥٠ ألف نسخة .. ولم تعد التغطيه الصحفية التى تطلبها مثيرة لهيكل بكل المقاييس على حد اعترافه لى .. بل أكثر من ذلك قال رئيس تحريرها هارولد أيرل قال لهيكل بوضوح: «أنا أريدك أن تفكر بجدية فى مستقبلك .. أنت «خامة» صحفية جيدة .. أبحث عن فرصة جديدة مستقرة فى الصحف العربية». (٤)

ولم تكن الفرصة التى على هيكل الحصول عليها لمواصلة مشوار الصحفى فقط وإنما لمواصلة حياته التى كانت قد استقلت واستقرت بعيدة عن هواجس الأب الذى لم يكن يعرف بالضبط ما يفعله أبنه .. وكان يخشى عليه من مصير من سبقوه من الأبناء.

وهكذا .. استجاب هيكل لدعوة السيدة روز اليوسف .. وكان ذلك فى عام ١٩٤٤ .. ولكنه على ما يبدو لم يبق فيها طويلاً ولم يكتب فيها كثيرا .. لقد كتب عن «بنت الجيران» التى لم ينساها .. وعرض نتائج بحث ميدانى عن المجلات المصرية أشترك فيها هو وبعض زملائه فى مدرسة التجارة تحت أشراف أستاذه السيد أبو النجا الذى يقول فى مذكراته : إنه أول بحث من نوعه فى الشرق الأوسط وكان أجر المشترك فيها ٣ جنيهات عن ٦ أشهر من العمل المستمر.. وعندما أظهر البحث الميدانى تفوق روز اليوسف نشر هيكل نتائجة على صفحاتها بعد أن أصبح محررا فيها .. وابرز ما يحتفظ به أرشيف روز اليوسف السياسى لهيكل مقالين عن الملك فاروق.. الأول فى العدد ٨١٨ الصادر يوم الخميس ١٧ فبراير ١٩٤٤ بعنوان «إنه الفاروق» .. والثانى فى العدد ٨٣٠ الصادر يوم الخميس ١١ مايو عام ١٩٤٤ بعنوان «فى يوم عيدك يامولاى» .. وفى المقالين نجد هيكل حريصا على الكتابة بأسلوب أدبى متميز.. والواضح أن الأسلوب كان يغلب على الحدث والخبر فى المقال الأول .. وهو ما تلافاه هيكل فيما بعد .. وعندما نقرأ المقالين لا يجوز أن نحاسب صاحبهما بأثر رجعى.

فى المقال الأول يقول:

«الملك فى الصعيد .. الملك يزور مناطق المرض بنفسه ليشرف على ما يجرى وليواسى شعبه هذا هو النبأ .. النبأ العظيم الذى لم يكن يدهش له أحد ولم يعجب له أحد .. ولكن الناس جميعا أضاءت عيونهم بنور الأمل والثقة وتقابلت أنظارهم فتبسموا ابتسامة حب وحنان .. إنه الفاروق .. إنه الفاروق دائما .. فاروق الأمس .. فاروق اليوم .. فاروق الغد.»

«وبالأمس عندما اشتدت أزمات التموين ذهب لملك بنفسه ليرأس مجلس الوزراء .. ليبحث معهم مشاكل الشعب .. قالوا له: فليجتمع مجلس الوزراء فى القصر .. فقال لهم: ولماذا لا أذهب إليه أنا؟ .. وقالوا له: ولكن التقاليد لم تصطنع أن يذهب الملك إلى المجلس .. فأجابهم: وهل اصطنعت التقاليد أن يجوع الشعب؟ .. وذهب الملك.

«واليوم عندما اشتد المرض على جزء من شعب الملك وعلم الملك أنهم يعيشون فى محنة وضر وعلم أنهم يتعذبون ويتألمون أرسل لهم المال والزاد واهتم بحالتهم ولكن قلبه لم يطاوعه فقال: سأذهب بنفسى لأراهم ولأعيش معهم.. لأواسيهم وأشعرهم أننى أتألم لألمهم.. ووضعوا أيديهم على قلوبهم وقالوا: العدوى .. التعب .. الصحة .. وقال الملك: شعبى .. وقالوا: عيدك .. عيد ميلادك .. وقال : لا أستطيع أن أحتفل بعيد ميلادى وشعبى فى قنا وأسوان فى هذه الحالة .. وأن ذهابى إليهم وزيارتى لهم لهى عندى خير احتفال بالعيد.

وذهب الملك .. ذهب الملك إلى شعبه الذى هتف إليه من أعماق قلبه .. يعيش فاروق منقذ الصعيد .. يعيش فاروق حبيب الفلاح .. يعيش فاروق نصير الفقراء .. زيارتك شفتنا يامولانا .. إحنا فى حلم يامولانا .. هذه ليلة القدر .. هذه الزيارة بعثت فينا الحياة .. نريد أن نقبل يدك .. رفعت رأسنا وشرفت مقدارنا .. وقال الملك: بل أنا منكم .. وهتفوا له: فاروق .. فاروق .. فاروق.

«أجل إنه الفاروق».

أنتهى.

وفى المقال الثانى يقول:

«هذه هى الذكرى الثامنة لجلوسك يامولاى على عرش مصر .. ثمان سنوات وأنت تحمل مسئولية هذا الوطن وهذا الشعب .. كنت فيها نعم الملك الدستورى فى ظروف لعلها أدق ما مر بها فى تاريخ حياتها .. أو ليس الفاروق هو الذى قال ذات مرة: إننى أحب

قيادة السفينة أثناء العاصفة.

«ثمان سنوات أنت تعمل لهذا الشعب وتخلص له وهو يعمل معك ويخلص لك وستظلان معا إلى الأبد .. وهذه مصر كلها تحتفل بعيدك ملكك.. مصر من أقصاها إلى أقصاها .. أفراداً وجماعات .. أحزاباً وهيئات .. ولم تجد مصر ما تحيى به هذا العيد سوى الهتاف باسمك والدعاء لك.

فى نادى سعد زغلول طلب الحاضرون من (على ماهر) باشا أن يقول لهم شيئاً .. فقال : أن أحسن ما أقوله ليعبر عن كل ما نحس به هو أن أهتف من القلب: يعيش جلالة الملك .. وردد الجميع هتافه.

وفى احتفال الأحرار الدستوريين قام الأعضاء وراء (محمد حسين) هيكل باشا يهتفون باسمك ويدعون الله أن يسدد خطاك .. وفى إحتفال (حزب) الكتلة كان الهتاف لجلالتك يشق عنان السماء بين كل دقيقة وأخرى.

لقد علمت مصر كيف تحبك من يوم أن تفتحت عيناك على نور الدينا فلم تكن وأنت أمير طفل تترك فرصة لتظهر فيها عطفك على بنيها واعتزازك بها إلا أظهرتها.. وكنت دائما فى كل مكان تشعر بأنك المصرى الديمقراطى الأول .. فكنت فى كل مكان خير رمز لمصر واحسن عنوان لها .. ولقد أخذ التفكير فى مصر كل وقتك وأخذت تعمل..

فى عيد ميلادك تركت قصرك وعاصمة ملكك وذهبت إلى الصعيد لتزور جزءاً من شعبك حلت به نكبة المرض وقلت إن أحسن احتفال بالعيد هو أن ترى هؤلاء البؤساء ويروك .. ومنذ أشهر قابلت الكولونيل بون رئيس جمعية الصليب الأحمر فكانت آخر كلماتك له : لا تدع أحداً يسيء إلى مصر .. وهكذا أخذت عليك مصر كل تفكيرك لأنك تحبها .. ومصر يا مولاى تحبك.

ولقد قال لى ذات مرة أحد كبار الأجانب وهو المستر (هارولد) إيرل رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت وكان مع جلالتك فى بورسعيد – قال: إنه دُهش لما رأى عشرات الألوف من الفلاحين ينتظرون الساعات الطويلة تحت وهج الشمس .. ينتظرون مرور الملك فى قطاره .. وربما لم يروه وحتى لو أتيحت لهم هذه الفرصة فلن يدوم ذلك لأكثر من جزء من الثانية .. ثم قال إنه تساءل عن قوة العاطفة التى تدفعهم إلى ذلك .. وقلت له: «إنه الحب .. وقال: يا له من حب قوى .. ولم يكن المستر إيرل هو أول أجنبى دُهش لروعة مظاهر الحب بينك وبين شعبك وإنما كثيرون شاركوه هذه الدهشة .. ولم يترك أحدهم فرصة للإعراب عن ذلك إلا أبداها .. وقد قال لى المسيو ليجول رئيس تحرير «البورص» إن

مصر محقة أن تحب مليكها كل هذه الحب فهو جنتلمان حقيقى .. وقال مراسل مجلة «لايف»: أنه شاهد ملوكاً ورؤساء كثيرين تستقبلهم شعوبهم فلم ير أروع ولا أعظم من استقبال شعب مصر لمليكها.

وأذكر أننى سألت السناتور «ميد» أحد الشيوخ الأمريكان الذين زاروا مصر منذ عدة أشهر – وكان قد تشرف بمقابلة جلالتكم ظهر اليوم نفسه – عن رأيه فيكم فقال : صدقنى يا بنى لقد رأيت ملوكاً كثيرين قبل مليككم وقابلت عظماء قبل أن أقابله ولكن لم أجد هذا الحب لبلاده الذى يبدو واضحاً خلال حديثه عنها كما هو الحال مع فاروق..

ولن أنسى أن أحد الضباط الأمريكان رآك يا مولاى فى إحدى الحفلات فلم يتمالك نفسه وهتف «فليحفظ الله الملك» .. وبعدها قال هذا الضابط إنه لم يكن يتصور أن سيأتى عليه يوم ويهتف لأحد الملوك وهو الذى وُلد جمهوريا وقال لى: إننى لم أهتف حتى لروزفلت نفسه.. ولكن ملككم هذا رجل عظيم..

يا مولاى .. هذه ثمان سنوات وأنت وهذا الشعب تتقاسمان السراء والضراء فى طريق الحياة بأزهارها وأشواكها وستبقيان معاً إلى الأبد لأن رباطاً من الحب يوثق بينكما رباط من الحب الخالد».

أنتهى.

على أن هيكل لم يبق طويلاً فى روز اليوسف .. إن صداماً ما خفياً وقع بينه وبين إحسان عبد القدوس .. وهو صدام عبر عنه إحسان عبدالقدوس فيما بعد قائلاً: «إن هيكل يستولى على الرأس الكبير فى أى مكان .. استولى على عقل والدتى .. ثم عقل محمد التابعى .. ثم عقل وقلب على أمين .. ثم عقل جمال عبد الناصر». (٥) ولم يقل إحسان عبد القودس كيف كان هذا الاستيلاء .. ولا ما الذى أزعجه فيه .. خاصة وأنه سبق هيكل فى روز اليوسف بنحو ٧ سنوات .. كما أنه كان أشد بريقا وشهرة .. كذلك فإن هيكل فيما بعد كان وراء تعيين إحسان عبد القدوس رئيسا لمجلس إدارة ورئيس تحرير أخبار اليوم .. وقد أنقذه القرار من حالة إكتئاب لم تخرجه منه رواياته العاطفة والاجتماعية.

لقد بدأ إحسان عبدالقدوس الكتابة فى روز اليوسف فى عام ١٩٣٧ .. وكان أول ما نشره فى عدد ٥ يوليو ١٩٣٧ رسالة مفتوحة بعنوان «مغامراتى وحبى الأول» يقول عنها الدكتور سعيد عبده «إنها كانت رسالة ركيكة محشوة بالأخطاء النحوية على نحو فريد وفيها تقليد شديد لبعض الناشئين من كتاب الصحافة إذ ذاك». (٦) لكنه سرعان ما أصبح واحداً من ألمع الكتاب والصحفيين .. وأكثرهم جرأة .. حتى أنه فى الفترة التى كان

فيها هيكل يتلمس خطواته الأولى فى الصحافة المنشورة بالعربية كان إحسان عبد القدوس يشن حملة نقد قوية ضد الحكومة .. وهو ما صادر المجلة وسيق هو إلى السجن .. وكانت المرة الأولى التى يدخله .. وقد نشرت له والدته رسالة له وهو فى السجن قالت فيها: «إلى والدى السجين .. أحييك فى سجنك .. تحية أم وتحية مواطنة حملت قبلك شرف الجهاد فى قضية مصر وقد اختلط فى نفسى شعور الأم بشعور المواطنة فما أدرى بأيهما أعبر عن نفسى وإن فى قلبى ليستعر جحيمان .. جحيم الأمومة .. وجحيم المبدأ .. وكلاهما قطع من عذاب» .. وتواصل فاطمة اليوسف الكتابة - وقد امتزج الخوف على ولدها بالكبرياء والزهو به - فتقول: «إن السجن يا ولدى منازل الأحرار إذا دخلوه مدافعين عن حرية الرأى مناضلين فى سبيل الحرية.. وأحمد الله إذ كرمنى وأنا على قيد الحياة بأن أراك تحقق أملى فيك وتستقيم على المنهج الذى ربيتك عليه وأن تكون لبلادك ولحرية الرأى ومازلت فى السن التى يكون فيها غيرك لمغامرات الشباب وأحلام الشباب ومباهج العيش الهنىء» .. و .. «سيكون قريباً لقاؤنا تحت الراية لنستأنف الجهاد». (٧)

ولا يشير هيكل لهذا الصدام ويكتفى بالقول إنه التقى إحسان عبد القدوس فى ذلك المبنى العتيق (أول مقر لمجلة روز اليوسف) فى شارع محمد سعيد .. ولم يكن لقاءبغريب .. فقد سبق أن تزاملا فى مدرسة «خليل أغا» .. «وعلى أى حال فإنه منذ ذلك الوقت اتصلت واقتربت وتقاطعت فى بعض الأحيان رؤانا وأفكارنا بل مصائرنا وأقدارنا.»

ولم يدخل هيكل مبنى روز اليوسف منذ أن تركها فى عام ١٩٤٤ إلا بعد خمسين سنة .. حينما وُجهت إليه الدعوة للحوار بينه وبين أسرة تحريرها فى عام ١٩٩٥ .. ولم يتكلم هيكل عن ذكريات المكان .. ودخل مباشرة فى قضايا الزمان.

الهوامش

(١) هيكل «بين الصحافة والسياسة» - مرجع سابق ص ٢٨.

(٢) الدكتور سعيد عبده: «روز اليوسف : سيرة وصحيفة» مؤسسة سجل العرب - الطبعة الأولى عام ١٩٥٥.

(٣) روز اليوسف عدد ٢٣ أكتوبر ١٩٤٦.

(٤) هيكل: حوار جرى بينى وبينه فى الساحل الشمالى فى صيف ١٩٩٩.

(٥) موسى صبرى: «٥٠ عاما فى قطار الصحافة» - دار الشروق - الطبعة الأولى ١٩٩٢ - ص ٧٨٨.

(٦) سعيد عبده : المرجع السابق - ص ١٩٢.

(٧) المرجع السابق : ص ٢١٣.

١٦

ملوك بالوراثة .. وملوك بالصحافة

■ فى تلك الأيام التى كانت فيها الطرق تتقاطع والعلاقات تتشابك والمصائر مجهولة حدث تحول واضح فى حياة هيكل جعله يختار طريقه ويرى مستقبله الصحفى أمام عينيه وينتقل من روز اليوسف والإجيبشيان جازيت إلى آخر ساعة .. فى تلك الأيام عرف هيكل - «أمير الصحافة» ونجمها الساطع ومؤسس مدرستها الحديثة فى مصر - محمد التابعى محمد وهبة .. الشهير بمحمد التابعى.

دخل هيكل مكتب هارولد إيرل رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت «لشأن من شئون العمل» فوجد عنده زائر قدمه له: «الأستاذ محمد التابعى صاحب مجلة آخر ساعة ورئيس تحريرها».. وبدا التابعى وكأنه يعرف هيكل .. أو بدا وكأن هارولد إيرل قد حدثه عنه .. وكالعادة كان التابعى رقيقا مجاملا. (١) وفى اليوم التالى كان هيكل فى مكتب التابعى فى آخر ساعة يحمل «خطاب توصية» من هارولد إيرل. (٢)

وسأله التابعى: «كيف ترى مستقبلك؟».

كان السؤال مفاجأة .. فقد كان هيكل يتصور أن عمله فى الإجيبشيان جازيت يكفى .. لكن التابعى كان له رأى مختلف .. «مهما فعلت فى ا لجازيت فإن المستقبل محصور وضيق فهى جريدة تصدر فى مصر بلغة أجنبية.. ثم أن توزيعها بعد الحرب سوف يتقلص بالطبيعة ويعود إلى بضعة آلوف بدلا من عشرات الألوف .. إن الصحفى المصرى مجاله الصحافة المصرية باللغة العربية .. وبقرائه فيها .. هذا هو المستقبل» .. ثم رفع سيجارته المنتصبة فى مبسمها الذهبى بين شفتيه وراح ينظر إليه بعينيه اللتان يختلط

فيهما الرمادى والأخضر والأزرق وقد تدلت نظارته على أنفه وأمتد بصره إليه من فوق إطار النظارة». (٣)

* * * *

إن «محمد» هو الاسم المدون فى شهادة الميلاد .. وقد أضيف إليه اسم التابعى تيمناً وتبركاً بالشيخ التابعى حسب رغبة أمه التى نذرت الاسم لو أنجبت ذكرا بعد أن أتت للدنيا بأربع إناث.. ورغم أن عائلة التابعى كانت تعيش فى المنصورة إلا أنه ولد فى بورسعيد .. حيث كانت أسرته تقضى الصيف فى مصيف «الجميل».. وكان ذلك فى صيف عام ١٨٩٦ .. وقد كان والد التابعى مهندسا .. لكنه مات وكان التابعى صبيا فى السابعة من عمره .. وقد بدأ التابعى تعليمه فى المنصورة ثم أكمله فى القاهرة.. حيث دخل مدرسة السعيدية الثانوية .. وزامله فيها صديق عمره فكرى أباظة .. لكن ناظر المدرسة الإنجليزى مستر «شارمان» لم يحتمل شقاوته فطرده من المدرسة ليكمل تعليمه فى مدرسة «العباسية» الثانوية الداخلية فى الإسكندرية فى حى «محرم بك».

ولا يشترك التابعى وهيكل فى الاسم الأول «محمد» فقط .. وإنما يشتركان فى قراءة الأساطير الشعبية وهما فى مرحلة الطفولة .. فقد كان التابعى مبهورا بأساطير «الزير سالم» و«الزناتى خليفة» .. ومثله كان هيكل .. ويشتركان فى عشق التاريخ والإيمان بالجغرافيا .. والتعبير باللغة الإنجليزية التى كتبا بهما فى بداية حياتهما الصحفية.

إن التابعى – الذى لم يكن يخطط لنفسه هو أيضا أن يكون صحفيا – قرأ أبان ثورة ١٩١٩ هجوماً ما شنته صحيفة «الإجيبشيان ميل» على أسلوب المظاهرات المعادية للإنجليز فاغتاظ وتناول القلم وكتب أول مقال باللغة الإنجليزية وأرسله للصحيفة وكانت دهشته واضحة عندما وجده منشورا مع التعليق عليه .. وتكررت القصة حتى أصبح التابعى صديقاً لرئيس تحرير الصحيفة المستر «أوفارول» .. وبينما هما يشاهدان معا مسرحياة «غادة الكاميليا» لروز اليوسف ويوسف وهبى وعزيز عيد طلب منه مستر أوفارول أن يكتب نقداً لها لنشره فى مجلة «سفنكس» التى كان يشرف على تحريرها إلى جانب الإجيبشيان ميل .. ولم يعجب النقد فرقة «رمسيس» المسرحية فأوحت لجريدة «النظام» أن ترد عليه .. وكان أن رد التابعى على جريدة «النظام» بمقال كتبه لأول مرة باللغة العربية فى جريدة «السياسة» التى تعبر عن حزب «الأحرار الدستوريين» .. وهكذا .. وجد التابعى نفسه دون أن يقصد متورطاً فى بلاط صاحبة الجلالة. (٤)

ولعل هذا هو السبب الذى جعل التابعى يقول لهيكل: إن الصحفى عليه أن يبدأ من المسرح .. ثم ينتقل إلى البرلمان .. على عكس مدرسة «الإجيبشيان جازيت» التى كانت ترى البداية المناسبة للصحفى فى تغطية الجريمة .. ثم يستقر فى البرلمان أيضا .. ولمدة ثلاثة شهور وجد هيكل نفسه فى كواليس المسرح .. خاصة مسرح «نجيب الريحانى» بدلا من «ميادين القتال» .. ثم وجد نفسه فى شرفة مجلس النواب بدلا من «محافظة» القاهرة التى تصب فها كل أخبار الجريمة التى تقع فى مصر.

* * * *

ولو كان هيكل قد بدأ مشواره فى الصحافة المنشورة باللغة العربية فى روز اليوسف فإن التابعى هو الذى قامت عليه روز اليوسف منذ بدايتها .. فى ذلك الوقت كان التابعى موظفاً فى قسم الترجمة فى مجلس النواب .. وكان قد تعرف على فاطمة اليوسف وزوجها الأول محمد عبد القدوس فى مصيف رأس البر .. وكان التابعى فى الإسكندرية عندما طلبت منه فاطمة اليوسف العودة للقاهرة ليشاركها فى تحرير المجلة التى حصلت على ترخيصها .. بل ويكون رئيس التحرير الفعلى الذى لم يكشف اسمه لأنه كان موظفاً فى الدولة.

ولو كان هيكل قد دخل السجن بعد أن أصبح كاتبا لامعا فإن التابعى دخل السجن فى بداية حياته الصحفية .. بل أن التابعى كان أول صحفى مصرى تُوضع فى يده القيود قبل أن يحكم عليه بالسجن فى ديسمبر ١٩٢٧ .. لقد نشر سلسلة مقالات تفضح الملوك والملكات فى العالم .. بدت وكأنها تشير من بعيد إلى الأسرة المالكة فى مصر .. بل إنه قال أن الدوق أوف كنوت هو أبن الملكة فيكتوريا من الخديو إسماعيل .. وقال: إن شاه إيران كان على علاقة غرامية بخادمة فرنسية عندما كان سائقاً لأحد السفراء الأجانب فى طهران .. وعندما ضبطه السفير هو والخادمة طرده من خدمته .. فتطوع فى الجيش .. ونجح فى أن يصبح وزيراً للحربية .. ثم قام بانقلابه .. وتولى السلطة .. أى أنه مدين بعرشه لهذه الخادمة الفرنسية .. وقد وجهت إليه تهمة سب وقذف الملوك والملكات ليس فى مصر ولكن فى أوروبا .. وحكم عليه بالسجن لمدة ٦ شهور ولكن مع إيقاف التنفيذ .. لكنه فيما بعد .. فى عام ١٩٣٣ حكم عليه بالسجن مع التنفيذ لمدة ٤ شهور .. والمثير للمقارنة أنه كان يشرب المياه المعدنية فى السجن على حسابه بسبب متاعب الكلى التى كان يعانى منها.. وهو ما جرى لهيكل ولنفس السبب الطبى والصحى عندما وجد نفسه فى السجن .. إن الكلى كانت مصدر شكوى دائم لهيكل .. وقد تصاعدت الشكوى إلى حد

القلق فى عام ١٩٩٩ حينما كشفت التحليل الطبية عن وجود «كيس» غير صلب حول إحدى الكليتين .. واستدعى الأمر سفراً إلى الولايات المتحدة ودخول مستشفى كليفلاند الشهير وإجراء جراحة لإزالة ١٥٪ من الكلى المصابة.

ويبدو أن سجون تلك الأيام كانت أفضل للصحفيين من سجون هذه الأيام .. ففى مذكراته عن السجن يقول التابعى : «كان أول إجراء قاموا به أنهم استدعوا حلاق السجن الذى قص لى شعر رأسى (نمرة واحد) كما يقولون .. أما ذقنى فكان الحلاق يحلقها لى كل أسبوع مرة واحدة وبالفتلة .. ثم أدخلونى إلى الحمام وخرجت من الحمام إلى زنزانة كانت فى الدول الأول من السجن.

«ووجدت فى الزنزانة (برش) على أسفلت أرضية الغرفة ومن فوقه مرتبة محشوة بالقش ومخدة محشوة كذلك بالقش وبطانية صوف.. وكنت أشرب الماء المعدنى .. ولكن من مالى الخاص .. ومن ثم كانوا يحضرون لى كل يوم زجاجة ماء أيفيان وكان ثمنها وقتئذ خمسة قروش .. وكنت بدأت أشرب المياه المعدنية منذ عام ١٩٣١ .. أى منذ مرضى للمرة الثانية بسبب المغص الكلوى.

«وفى صباح اليوم التالى زارانى كبير أطباء مصلحة السجون المرحوم الدكتور عبد المجيد محمود .. واكتشف أن فىّ عدة أمراض لم أكن أعرفها أو أشعر بها ومنها لغط فى القلب .. وزلال .. وضغط دم ضعيف .. إلى آخره.. وأمر أن يضعوا لى سريراً فى الزنزانة وإلى جانبه مائدة صغيرة عليها غطاء من الرخام .. كما أمر لى بطعام خاص وهو بناء على طلبى قهوة وقطعة من الجبن أو الحلاوة الطحينية فى الفطور وكنت أتناوله فى الساعة السادسة صباحا .. وحساء عدس وكبدة أو لحم مشوى وأرز وفاكهة الموسم سواء كان ذلك عنباً أو برتقالاً فى الغذاء .. وكان ميعاده فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً .. مثله فى العشاء فى الساعة السادسة مساء .. ومرة كل أسبوع كان يقدم لى نصف دجاجة (روستو) فى طعام الغذاء.

«وحدث أن وصلنى كيلو من البتى فور واحترت فى كيفية إخفاؤه .. وأخيرا حشوت به جيوب (الروب دى شامبر) الذى كنت أضعه فوق البيجامة .. ولقد بقيت رائحة البتى فور عالقة بالروب دى شامبر عدة أيام .. وذات يوم كنت فى المستشفى وأرسلت لى فاطمة اليوسف زجاجة صغيرة مملوءة بالكافيار الأسود اللون الأصيل .. واحترت كيف أفتح الزجاجة أو البرطمان الصغير .. وأخيرا قمت من فراشى وذهبت إلى غرفة العمليات الجراحية وكانت بجوار الجناح الذى كان سريرى موجودا فيه .. وجدت فى الغرفة دولابا

مملوءا بالآلات التى يستعملها الطبيب فى إجراء أى عملية جراحة .. واخترت منها آلة صلبة .. استطعت أن انزع بها غطاء برطمان الكافيار .. واعدت الآله إلى مكانها بعد أن غسلتها جيدا وذهبت بالكفيار إلى الحمام القريب من سريرى وأكلته (حاف) أى من غير عيش أو طوست أو زبدة .. إلى آخر ما يؤكل به الكافيار».

****

فور خروجه من السجن قرر التابعى السفر إلى أوروبا فى رحلة إستجمام .. وفى تلك الفترة دبت الخلافات بينه وبين فاطمة اليوسف .. ويرى صبرى أبو المجد أن خطابات مصطفى أمين إلى التابعى «من الأسباب التى أدت إلى الإسراع بوقوع الانفصال بين التابعى وفاطمة اليوسف فما أكثر ما أوغر صدر فاطمة اليوسف» .. ففى واحد من هذه الخطابات «لقد ضايقت المدام (لقب كانت تُنادى به فاطمة اليوسف) الفقرة التى جاء فيها إنك تطلب منها أن تسمح لك بالانفجار .. فقد فهمت مئات المعانى للانفجار أقسم لك أنك لم تجل فى خاطرك أنت يوما ما .. إنى حاولت أن أعرف سبب جفاء المدام من ناحيتك فأول هذه الأسباب أنك لا ترسل لها خطابات تسأل عن صحتها (.......) وتقبل يديها ورجليها إن أمكن .. وثانى الأسباب إنك لا تسأل عن المجلة لا بمقالة ولا بنقدها أو باقترح تحسينات .. وثالث هذه الأسباب أن إجابتك فى التحقيق لم تعجب المدام فهى ترى أنك قلت طالما نصحتها بعدم نشر مثل هذه الأخبار بينما فى الواقع هى التى طالما نصحتك بعدم نشر مثل هذه الأخبار». (٥)

ويستطرد صبرى أبو المجد: «كانت فاطمة اليوسف لا تطيق فى ذلك الوقت مصطفى أمين الذى رد إليها الموقف بإنهاء شركة استمرت بينها وبين التابعى لمدة ٩ سنوات وعشرة استمرت ١٤ سنة كانت حديث الوسط الصحفى والفنى والسياسى».

وقد بقى مصطفى أمين بعض الوقت فى روز اليوسف ثم لحق بالتابعى فى آخر ساعة .. وقد كتب مذكراته عن تلك الفترة فى كشكول بنى كان من بين الأوراق التى احتفظت بها زوجة التابعى السيدة هدى ونشرت بعضها فى مقدمة كتاب صبرى أبو المجد عن التابعى .. وكان سبب فى تصورها أن مصطفى أمين فعل بالتابعى ما سبق أن فعله بفاطمة اليوسف .. وفى هذه المذكرات:

السبت ١٤ يوليو: «صدر العدد الأول من آخر ساعة أعتقد أنه عدد مدهش ولكن ينقصه التهويش فى كتابة الأخبار».

الأحد ١٥ يوليو : «تكلمت مع المدام فى التليفون .. كانت تسيل رقة وظرفا وأبدت اسفها أن عددنا سقط .. إننى أتألم لما أسمع رأى الناس فى المدام .. ولا أعرف لماذا أتألم هكذا؟».

الجمعة ٣ أغسطس : «عرضت على المدام خمسة جنيهات لأدفع قسط السيارة فرفضت وقلت لها أنى لا أقبل أن أخون استاذى ولا استطيع أن أعبد إلآهين .. وأسجد لقبلتين».

السبت ٤ اغسطس : «قالت لى المدام أختر فاخترت طبعا أستاذى».

الخميس ٢٠ سبتمبر : «قالت لى المدام – لو كنت تحبنى اخرب آخر ساعة كما خربت روز اليوسف».

الأربعاء ٣ أكتوبر: «أنا مع المدام لكن عندما أخرج من عندها أدبر لها المقالب .. لماذا أكرهها كل هذه الكراهية؟». (٦)

* * * *

صدر العدد الأول من مجلة آخر ساعة يوم السبت ١٤ يوليو ١٩٣٤ .. ونجحت نجاحا مبهرا .. خاصة وأن التابعى أخذ من روز اليوسف معظم نجومها ومحرريها .. الدكتور سعيد عبده .. فنان الكاريكاتير الأرمنى إسكندر صاروخان .. مصطفى أمين .. على أمين .. وضم إليها فيما بعد جيل جديد من الصحفيين .. هيكل .. إبراهيم الوردانى .. ورشدى صالح .. وتوفيق بحرى .. وفرج جبران .. وغيرهم.

ويمكن القول أن هيكل وجد نفسه فى آخر ساعة .. وهو يعترف بأن «تجربة العمل مع التابعى ممتعة» .. ويشهد أنه تعلم منه الكثير .. ويقول : «ولقد وجدتنى شديد الإعجاب بأسلوبه الحلو السلس .. وفى البداية رحت أقلده». (٧) ويقول أيضاً: «ربما كان التابعى على حق .. على الأقل فيما يتعلق بمجلس النواب (البرلمان) .. فلقد أتاح لى مقعد آخر ساعة فى شرفة المجلس الاقتراب من أجواء السياسة المصرية».

إن العبارة الأخيرة ليست مجرد عبارة عابرة .. فالبرلمان عادة هو مطبخ السياسة .. وفى هذا المطبخ ينضج الصحفى المراقب الموهوب ويتعلم على نار هادئة .. وقد توقف هيكل عند حادثتين رواهما لى وأثبتتا له أن واجهة وكواليس السياسة المصرية فى تلك الأيام كانتا وجهان لعملة واحدة هى فساد الحكم.

الحادثة الأولى كانت فى البرلمان عندما تقدم مكرم عبيد (وكان قد انفصل عن الوفد وأصدر الكتاب الأسود ضد مصطفى النحاس وحكومته) بسؤال حول استغلال أحمد

حسنين رئيس الديون الملكى لنفوذه فى الحصول على أثاث من جهة حكومية بسعر أقل من المعتاد .. وحدثت أزمة حادة ترتب عليها تدخل سير والتر سمارت السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية وقابل رئيس المجلس عبد السلام باشا جمعة وطلب منه حذف ما جرى من مضبطة الجلسة حفاظا على ما تبقى من سمعة الوفد ودفاعا عنه وحماية لعوراته .. وفى اليوم التالى قال عضو البرلمان فكرى أباظة عند التصديق على جلسة اليوم السابق: إن المضبطة حذف منها شىء.. فقام مصطفى النحاس غاضبا وأنكر ذلك .. بل وسب مصطفى النحاس فكرى أباظة وقال له «أقعد يا كلب» .. فذهب فكرى أباظة وتساءل: هل ما سمعت صحيحا؟ .. فرد عليها مصطفى النحاس : أنت سمعت ما قلت .. وهاج معظم نواب الوفد مؤكدين أن ما جرى بالأمس لم يجر.

قال لى هيكل : إن هذه الحادثة علمتنى أول درس فى السياسة المصرية .. واقعة تحذف .. ورئيس حكومة يسب عضوا .. ونواب ينكرون ما جرى .. وقبل ذلك نحن أمام فساد واستغلال نفوذ .. وتدخل من الإنجليز فى أعلى سلطة تشريعية فى البلاد .. من هذا المدخل عرفت السياسة المصرية على حقيقتها.

والحادثة الثانية كان بطلها أيضا أحمد حسنين باشا .. كان التابعى قد دعاه لحفل فى بيته إلى حفل على شرف رياض الصلح .. وكان بين الحضور هيكل ومصطفى أمين .. أما نجمة الحفل فكانت المطربة اسمهان .. ولم يمر سوى بعض الوقت حتى جلس رئيس الديوان على الأرض تحت قدمى اسمهان .. ولم يتردد فى أن يشرب «الشمبانيا» فى حذائها بينما كانت هى تغنى «ليال الأنس فى فيينا» .

****

فى ذلك الوقت كانت مجلة آخر ساعة مجلة وفدية .. وفى أجوائها وجد هيكل نفسه بحكم طبيعة المصادر الصحفية المتاحة أقرب إلى الوفد .. «مع إحساس غالب بأن ذلك مجرد تأثير مناخ وليس نتيجة مؤكدة لاختيار وقرار» . (٨)

لكن الوفد خرج من الحكم بإقالة ٨ أكتوبر ١٩٤٤ الشهيرة .. ووجدت آخر ساعة نفسها فى المعارضة أمام «حكومة إئتلافية هزيلة من أحزاب الأقلية شكلها الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس حزب السعديين تحت جناح القصر» .. وكانت هذه ضربة سياسية للمجلة .. ولم يمر سوى شهر واحد حتى تلقت آخر ساعة ضربة أخرى اشد .. وهى صدور «أخبار اليوم» .. وكانت هذه ضربة صحفية للمجلة .. وهكذا تحالفت السياسة والصحافة ضد ا لتابعى ومجلته.

لقد حققت أخبار اليوم نجاحا فوريا بسبب المقالات التى كتبها مصطفى أمين تحت عنوان «لماذا ساءت العلاقة بين القصر والوفد؟» .. وكانت كما يقول هيكل : «حافلة بالأسرار والحكايات والقصص ومشوقة إلى أكبر حد» .. وكان هناك سبب آخر لنجاح أخبار اليوم هو لجوئها للصحافة الشعبية بصورتها الحديثة على طريقة صحافة «التابلويد» أو صحافة «بيفر بروك» الإنجليزية وهى مزيج من الإثارة والتسلية والنميمة والدعاية السياسية المباشرة.

«وفى كل الأحوال فإن أخبار اليوم أصبحت المدفعية الثقيلة الموجهة إلى الوفد تدك مواقعة دكاً عنيفاً صباح كل سبت .. وكان الوفد فى موقف لا يحسد عليه .. مطرود من الحكم بالإقالة .. ومحاصر تحت دك المدفعية الثقيلة لأخبار اليوم..» (٩)

وبدأ التابعى يسعى جاهدا لتطوير آخر ساعة حتى «تستطيع أن تقف مع الوفد فى وجه المدفعية الثقيلة الجديدة» .. لكن .. هيكل يضيف : «ربما كانت هناك أسباب أخرى منها أن التابعى كان يعتبر نفسه أستاذا لمصطفى وعلى أمين .. وربما شق عليه معنويا أن يرى مجلة أسبوعية سياسية جديدة يصدرانها تسبق مجلته وتفوقها بكثير من نواحى عدة» .

ويستطرد هيكل: «ومع أنى كنت قد أصبحت سكريتر تحرير آخر ساعة فإن عملية التطوير الجديدة تولاها التابعى بنفسه وظلت بنودها فى رأسه ينفذها واحداً بعد واحد» .. «ومن سوء الحظ أن التجربة لم تنجح .. وفوق ذلك فإن مصروفات آخر ساعة زادت بأكثر من توقعات التابعى» .. وكان .. «أن قرر التابعى فى نوبة ملل أو نوبة يأس أن الوقت قد حان ليرفع عن كاهله أعباء ملكية مجلته .. لقد قرر أن يبيع آخر ساعة .. وقد أتفق على بيعها فعلا .. والمشترى الجيد هو أخبار اليوم .. مصطفى وعلى أمين» . (١٠)

ولكن .. بيع التابعى لآخر ساعة كان صفقة خاسرة بالنسبة له تماما .. فهو لم يأخذ مليما واحداً فى مقابل تنازله عنها .. وقيل فى عقد البيع الذى حرره زهير جرانة فى ١٨ إبريل ١٩٤٦ أنه أخذ ألف جنيه لكنه يقول فى مذكراته إن ذلك لم يحدث .. والذى حدث أن الضرائب حاسبته على الألف جنيه .. وقال : أنه وقع العقد لأنه كان فى اشد حالات المرض .. وانه كان فى حاجة للسفر إلى الخارج.

وينص العقد الذى وقعه مصطفى أمين وشهد عليه شقيقه التوءم أن التابعى يتقاضى مبلغ ٣٠٠ جنيه شهرياً مقابل مقالين كل شهر .. وكل ما زاد على ذلك يأخذ ١٥ جنيهاً على كل مقال .. على أن يتعهد بأن لا يشترك فى تحرير أو إصدار أو تمويل أى مطبوعة أخرى.

وفى أوراقه يقول التابعى : أن هيكل وصف هذا العقد بالنسبة لى بالغبن الشديد.

كانت العلاقة بين هيكل والتابعى قد أصبحت علاقة حميمة .. فهيكل يعتبر نفسه «أقرب تلاميذه إليه» .. ويعتبر نفسه كذلك «آخر هؤلاء التلاميذ» .. والتابعى يعتبر هيكل «اكتشافه» الشخصى فى عالم الصحافة.

لم يطلب الملاك الجدد لآخر ساعة سوى أربعة محررين فقط .. هم التابعى وهيكل وسعيد عبده وصاروخان .. قال التابعى لهيكل : «هم يطلبونك .. ويصرون عليك» .. فسأل هيكل فى سخرية: «هل يشترون الأرض ومن عليها مثل عقود الإقطاع الروسى؟» .. وأحرجت السخرية التابعى .. وشعر هيكل بالندم .. ولا يزال.

فى مساء اليوم نفسه وقعت مفاجأة غير متوقعة .. اتصل إميل زيدان – مالك دار الهلال هو وشقيقه جورج زيدان – هيكل ودعاه للقائه .. وعرض عليه رئاسة تحرير مجلة «الأثنين» وكانت مجلة سياسية مصورة سبق أن رأس تحريرها مصطفى أمين و«فى عهده بلغت أوج أنتشارها» .. وبعد خروجه منها فى نوفمبر ١٩٤٤ تولاها غيره وتأثرت احوالها .. وطلب هيكل مهلة ليفكر فى العرض .. وكان أقرب لقبول العرض .. «فها هى رئاسة تحرير مجلة سياسية من مجلات الدرجة الأولى تعرض عليه وهو لم يتجاوز بعد سن الثالثة والعشرين.. وتصور هيكل أن التابعى سيوافقه على رأيه .. لكن التابعى فاجأه بالقول: «راجع نفسك .. إن مجالك سيكون أوسع وأرحب فى أخبار اليوم» .. وأضاف بصوت مشحون بالتأثر والكبرياء معاً: «أنه لا يريده أن يتركه وحده».

ولم يتوقف سيل المفاجآت .. فقد إنفتح الباب ودخل منه أحد الملاك الجدد هو على أمين .. لم يكن هيكل قد لقيه من قبل .. لكنه أقبل على هيكل فاتحا ذراعيه ويقبله على الخدين .. وهو يقول: إنه لا يهنئة فقط على انضمامه لأخبار اليوم ولكنه يهنىء أخبار اليوم أيضاً على أنضمامه إليها.

وتطوع التابعى ليحدث على أمين على عرض دار الهلال بأن يتولى هيكل رئاسة تحرير مجلة الاثنين .. «وهز على أمين رأسه بشدة نفيا ورفضا .. وقال مكانه الحقيقى معنا فى أخبار اليوم». (١١)

وبقى هيكل إلى الغذاء مع التابعى فى بيته .. واستأنفا الحديث بعد الظهر .. ثم فى المساء .. وحتى آخر الليل .. وقبل الفجر أدرك النعاس التابعى .. فدعا هيكل إلى أن يستريح حتى الصباح فى غرفة نوم إضافية بجوار غرفته .. ودخل هيكل الغرفة .. لكنه .. لم ينم .. ولا استراح.

إنها لحظة من لحظات التحول وتقرير المصير .. فها هو «الأستاذ» عارياً .. أجيراً .. بعد أن فقد «آخر ساعة » فى ثانية واحدة .. وها هى عائلة صحفية جديدة تضاف لعائلات الصحافة .. عائلة «أمين» التى قررت النجاح والثراء مهما كان الثمن .. وقد أضيفت لعائلة «زيدان» فى دار الهلال .. وعائلة «تقلا» فى الأهرام .. وعائلة «فاطمة اليوسف» فى روز اليوسف .. وعائلة «نمر» فى شركة الإعلانات الشرقية .. وعائلة «أبو الفتح» فى المصرى .. إن معظم الأقوياء فى بلاط الصحافة كان لهم ظهورا من ملكية ما يعلمون وما يكتبون فيه .. فما الذى يمكن أن يفعله هيكل؟.

لقد مرت عليه ليلة تقرير المصير مثل عام من الأرق والسهر .. محرر فى أخبار اليوم .. أم رئيس تحرير فى دار الهلال ؟ .. الحرية فى اتخاذ القرار عند آل زيدان .. أم الصحافة المتحركة مع الضغوط والمعاناة عند آل أمين؟.

سؤال ظل يؤرقة حتى تسللت نسمات الفجر ممزوجة بالندى .. وقام من أرقه يبحث عن فنجان قهوة .. وبدا له أن التابعى كان نائماً مستريحاً .. غير مؤرق .. فهذه هى طبيعة التابعى البوهيمية .. أن ينفق أكثر مما يكسب .. وأن يبيع ما يملك دون حساب الربح والخسارة .. وأن لا يعمل لدنياه أبدا.

الهوامش

(١) هيكل : «بين الصحافة والسياسة» - مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٢٨.

(٢) سمير صبحى: «الجورلنجى» - مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٣٧.

(٣) هيكل : المرجع السابق - ص ٢٩.

(٤) لعل أفضل كتاب عن محمد التابعى هو كتاب صبرى أبو المجد عنه وهو المصدر الرئيسى لى فى الكتابة عن التابعى وقد صدر الكتاب فى عام ١٩٨٦ عن دار التعاون.

(٥) و (٦) صبرى أبو المجد: المصدر السابق.

(٧) هيكل : المصدر السابق : ص ٢٩.

(٨) و (٩) و (١٠) و (١١) هيكل : المصدر السابق - الصفحات ٣٠و٣١و٣٤.

■١٧■

من خطر الحرب إلى خطر الكوليرا

■ عندما أصدر التابعى «آخر ساعة» فى عام ١٩٣٤ بدت المجلة الوليدة وكأنها امتداداً لمجلة روز اليوسف .. فى الحجم .. والغلاف الكاريكاتورى .. ونوع الورق .. وقبل ذلك أسلوب التحرير الذى خص به التابعى المجلتين .. وربما لهذا السبب كان نجاح اخر ساعة على حساب روز اليوسف والعكس صحيح .. وربما لهذا السبب أيضا بقيت روز اليوسف صامدة .. فهى الأصل بينما تعرضت آخر ساعة لخطر الفناء أمام مدفعية أخبار اليوم الثقيلة .. ولم ينقذها إلا الاستسلام لشروط الغزاة الجدد للصحافة .. وأن تصبح جزءاً من إمبراطوريتهم.. وتغير جلدها وشخصيتها.

لم يبق هيكل فى آخر ساعة – والتابعى يملكها أكثر من عامين (منذ دخوله إليها فى عام ١٩٤٤ وحتى بيعها فى عام ١٩٤٦) .. ولا يجد المدقق لأرشيف آخر ساعة فى هذان العامين نجاحاً ظاهرا لهيكل .. فإسمه لم يظهر إلا مرات تعد على أصابع اليد الواحدة وبالبنط الصغير .. وهو أمر متوقع .. فقد كان فى مرحلة البداية .. وكان المطلوب منه أن يأتى بأكبر حصيلة من الأخبار .. لا أن يكتب المقالات .. وإن كانت براعته المبكرة فى الكتابة جعلته يأخذ مكانا سريعا فى مطبخ المجلة الذى يسمى «الديسك» فيه تعاد صياغة الأخبار والتحقيقات والتقارير بصورة جذابة.. لكن رجال «الديسك» غالباً ما يكونوا جنودا مجهولين .. لا يعرف القراء أسماءهم .. أما الأسماء اللامعة على صفحات آخر ساعة فى تلك الفترة فكانت تقتصر على محمد التابعى .. الدكتور سعيد عبده .. كامل الشناوى .. سلامة موسى .. عبد الله الكاتب .. وأحيانا كانت المجلة تستضيف إحسان عبد القدوس .. أما الجيل الجديد فكان لا يزال فى مرحلة الصبر والتحمل.

بعد أن أصبحت «آخر ساعة» فى أخبار اليوم .. تغيرت تماما .. أصبح حجمها فى حجم التابلويد .. وانتقلت طباعتها إلى «الروتوغرافور» .. ودبت الحياة الساخنة فى صفحاتها .. وبدأ هيكل يجنى ثمرة كل ما زرعة.

فى أول مايو ١٩٤٦ عيُن بمرتب ٣٠ جنيها .. ثم حصل على علاوة ١٠ جنيهات فى أول مايو ١٩٤٨ بعدها قرر السفر إلى فلسطين لتغطية الأحداث التى تجرى هناك .. ثم علاوة ١٠ جنيهات فى أول يناير ١٩٤٩ بعد أن نجحت رسائله الصحفية التى غطت حرب فلسطين بصورة مذهلة.. ثم علاوة ٥٠ جنيها فى أول يوليو ١٩٥٢ عندما عين رئيساً لتحرير آخر ساعة.. ثم حصل فى أول إبريل ١٩٥٤ على ٥٠ جنيها بدل تمثيل و٢٠ جنيها بدل بنزين وإصلاح سيارة.. ثم عين – مع رئاسته لتحرير آخر ساعة رئيساً لتحرير جريدة الأخبار – فى يونيو ١٩٥٦ .. وساعتها قرر على أمين أن يرفع إجمالى دخل هيكل من عمله إلى ٥ آلاف جنيه فى السنة .. موزعة شهريا كالآتى: ٣٣١ جنيه و٦٦٦ مليما (مرتب أصلى) و١٥ جنيه غلاء معيشة و٥٠ جنيه بدل تمثيل و٢٠ جنيه بدل انتقال .. والمجموع ٤١٦ جنيه و٦٦٦ مليما. (١)

لكن .. الأهم من المرتب وغلاء المعيشة وبدل البنزين كان العمل الصحفى .. لقد بدأت مرحلة تألق هيكل على صفحات آخر ساعة بتحقيقاته التى كانت تميل فى البداية إلى الجريمة بأبعادها الاجتماعية والبشرية والخفية والدرامية .. وقد غطت هذه التحقيقات سجون الرجال والنساء.. وقضايا أمن الدولة .. والمحاكمات الشهيرة فى وقائع الاغتيال السياسى .. وكان من الصعب على أشد الخصوم عداءاً لهيكل أن لا يسجلوا اعترافهم وإعجابهم به وبموهبته المبكرة فى الصحافة التى لم يدرسها ولم يكن فى نيته احترافها.

****

فى عدد آخر ساعة رقم (٦٣٧) الصادر يوم ١٨ يناير ١٩٤٧ يكتب هيكل عن تنظيم شيوعى قُبض عليه .. كان ما كتبه بعنوان: «الرفيق» عمروف «المكوجى رئيس خلية شيوعية والرفيق «خالد» الكناس أستاذ الشيوعية» .. ويبدأ التحقيق بسخرية لا تقل عن سخريته فى العنوان أو المانشت الرئيسى .. فيقول:

«طوال السنين الثلاثة الماضيات كانت الشيوعية هى «البعبع» الذى يتحدث عنه كل الناس وليس فيهم من رآه .. فإن كل التحقيقات والتفتيشات والاعتقالات لم تؤد إلى شىء يقدم أصحابه بمقتضاه إلى المحاكم ليحاسبوا على ما وجه لهم من تهم ومن هنا أصبحت الشيوعية أشبه ما تكون بقصة خيالية ومن أيضاً خرجت هذه النكتة المشهورة:

« – هل أنت شيوعى ؟

« – لا .. أنا مكوجى.

«ويظهر أن القدر شاء أخيراً أن يظهر «البعبع» فتُعرض على محكمة الإسكندرية أول قضية يقدم فيها الشيوعيون إلى المحاكمة .. وشاء أيضاً أن تتحول النكته المشهورة إلى حقيقة ماثلة فإن رئيس خلية الشيوعية التى أُلقى القبض عليها فى الإسكندرية وهو الرفيق «عمروف» .. مكوجى.

كانت الخلية مكونة من ٦ عمال بسطاء .. فيهم الحلاق والنقاش والكناس .. أما التهمة التى وُجهت إليهم فهى العمل على قلب نظام الحكم بالقوة .. وكانت الخلية تجتمع فى بيت أحد أعضائها فى حارة «عبد الفتاح» بحى باكوس .. أما عناصر القوة التى كانو سيقلبون بها نظام الحكم فكانت كتاب فيه خطب ستالين وكتاب عن كيفية استغلال الرأسمالية للعمل .. وكانت قيمة استمارة العضوية ١٠ قروش .. وقيل أنهم كانوا يسعون للتدريب العسكرى .. لكن النيابة لم تجد طلقة رصاص واحدة.

****

فى عدد آخر ساعة رقم (٦٦٨) بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٤٧ يضرب هيكل ضربته الصحفية الأولى عندما يستقل هو ومحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم سيارة جيب ويشقان بها الطريق إلى منفلوط ومنها إلى حضن الجبل الذى كان «الخط» يتخذه مسرحا لعملياته ولأيامه الأخيرة .. إن الخط كان من اشهر المجرمين الذى أثاروا الرأى العام فى مصر .. وحولته الصحافة إلى أسطورة .. وهى أسطورة أغرت مخرج سينمائى كبير مثل صلاح أبو سيف لتحويلها إلى فيلم سينمائى فيما بعد كان اسمه «الوحش» لعب بطولته محمود المليجى وكتب السيناريو والحوار له نجيب محفوظ.

إن ما كتبه هيكل عن «الخط» كان بداية شهرته العريضة .. وساعده على ذلك أنه لم يتردد فى كتابة تحقيقه الصحفى عن «الخط» وكأنه يروى رواية مثيرة .. ينتظرها الناس فى تشوق وغموض وإثارة وتوتر:

«إن الرصاصة الأخيرة فى قصة «الخط» لم تطلق بعد .. إنها رصاصة مدخرة باقية لطفل صغير عمره الآن أقل من سنتين .. ولا يمكن أن تعتبر هذه المعركة منتهية حتى تنطلق هذه الرصاصة فتستقر فى قلب الطفل البرىء الذى يحدق فى الناس بشرود وهو لا يعرف مصيره ولا يعرف أى حقد سيبذر فى قلبه منذ الآن لكى يكبر ويأخذ بثأر أبيه .. والطفل هو «هاشم» والأب هو «الخط».

«إن هذا الطفل الصغير هو الرجل الوحيد الباقى من عائلة «الخط» وليس هناك شك فى أن امه وجدته ستجعلان ثأره لأبيه مثله الأعلى وسترضعانه منذ الآن الحقد والكراهية

والضغينة وهذه حقيقة يعلمها كل الناس ويعلمها أيضاً أولئك الذين قتلوا الخط .. ومن هنا كانت الرصاصة المدخرة».

ويكتب هيكل عن أم الخط أو «خالتى فاطمة» كما يسميها أهالى «درنكة» والتى «تلمح وراء الدموع والشجن وقوة الأعصاب العزم الأكيد على الثأر» .. ويكتب عن زوجة الخط .. «رشيدة» الفتاة الجميلة التى تزوجها الخط وهى فى التاسعة من عمرها ولم تره خلال زواجها أكثر من عشر مرات .. وقد نفى الخط غداة زواجه منها إلى جبل الطور لكنه فر وعاد ليصبح عدو الحكومة رقم (١) .. ويبدو أن ذلك ما جعل أمه تقول وهى تسير فى جنازته: «يا كايد الحكومة».

ويكشف هيكل سر تسميه الخط فيقول: إنه عندما قُتل الخط كان فى جيبه مصحف والأحجبة .. «كان جده فقيهاً كبيرا فى بلدته وكان اسمه «سر الختمة» و«الختمة» هى القرآن .. أى أنه الأمين على القرآن .. وبمضى الأعوام حذف المنادون كلمة «سر» فأصبح اسم العائلة «الختمة» .. ثم طارت التاء الأخيرة فى الختمة فأصبحت «الختم» .. ثم طارت الميم الأخيرة فأصبحت «الخت» وتحولت التاء إلى طاء كما ينطقها أهل الصعيد فأصبحت «الخط» .. أشهر أسم فى تاريخ الإجرام فى مصر».

ويعود هيكل إلى تاريخه فيقول: إنه تاريخ فى منتهى البساطة «فعندما انتهت فترة طفولته بدأ يعمل فى رعى أغنام العائلة .. وقد منعه شيخ الخفر «حميده» ذات مرة من الرعى فى مكان بعينه .. ولم يكتف بذلك بل صفعه صفعة زلزلت عقل الغلام.. وفى اليوم التالى رد الخط الصفعة برصاصة استقرت فى قلب ابن شيخ الخفر .. ورد شيخ الخفر برصاصة استقرت فى قلب محمود عم الخط وأكبر أفراد عائلته .. ولم تمض أيام حتى كان الخط قد قتل تسعة من عائلة شيخ الخفر كل ثلاثة منهم فى ليلة وخرج مع أخوته إلى الجبل وبدأت العصابة عملها».

«وتبعه كثيرون .. أقارب وأصدقاء وطلاب رزق .. ونصب نفسه قرصاناً على طرقات الصعيد يسرق وينهب ويهدد ويقتل عند اللزوم .. وبدأ يحكم الصعيد .. وأصبح الحاكم بأمر الله ويلغ الحال إلى حد أن أصحاب الأرض وكبار الملاك لا يجدون مفراً من أن يعهدوا له بحراسة حقولهم وحماية محاصيلهم فبدأ يعين الحراس من عصابته ويجبى الضرائب كما تفعل الحكومة وكان الفرق الوحيد بينه وبينها انه يستطيع أن يحرس وأن يحمى أما الحكومة فقد كانت فى حاجة إلى من يحميها منه».

«وكان أرستقراطيا فى سرقاته .. دخل مرة منزل روبرت خياط بك فى أسيوط .. وأرسل خادماً إلى صاحب المنزل يقول له: إن الخط يطلب سيجاره .. وأرسل له روبرت بك

عشرة جنيهات .. وأمسك الخط بالورقة فمزقها وأعطاها للخادم فعاد بها إلى سيده .. ورجع الخادم بعد قليل يحمل ورقة بخمسين جنيها .. وأشعل الخط سيجارته .. وخرج عائداً إلى الجبل».

«كانت ملذاته هى السجائر التى يلفها لنفسه .. ثم مشروب الزبيب الذى كان لا يشرب سواه .. وقطة الأفيون التى لا يمشى بغيرها .. وكانت هوايته الكبرى بعد ذلك هى مطاردته للنساء .. وكم مرة قاد عصابته إلى معركة هائلة فى سبيل إمرأة .. وكانت إمرأة هى التى سببت مصرعه حين أرغمته على الاستقرار فى وابور «المالطى» فذاع سره واصطادته الرصاصات الواحد والعشرين» التى أطلقت عليه.

* * * *

فى عدد آخر ساعة رقم (٦٧٢) بتاريخ ١٧ سبتمير ١٩٤٩ يكتب هيكل على ٣ صفحات تحقيقا جذابا عن «الفندق الكبير» .. أو فندق «شبرد» القديم .. أهم مكان فى مصر فى ذلك الوقت .. يكتب هيكل عنه راسماً صورة جذابة .. واقعية لمكان كان ملتقى الجنرالات والعشاق والجواسيس .. ويقدم لوحته قائلاً:

«إن جميع القصص التى قرأتها الدنيا عن مصر بدأت فى شبرد أو كان شبرد مسرحاً من مسارح حوادثها» .. كتاب «جارفس» المشهور «حديقة الله الخلفية» كان نصف حوادثه فى شبرد .. وقصص أرثر كونان دويل كثير منها بدأ فى شبرد .. وفى شبرد كتب الرحالة المشهور ستانلى وليفنجستون كتابه عن أمين عثمان باشا ..

«وكل مخاطرة أو مغامرة فى مصر أو فى العالم مرت على شبرد .. قبل أن يكتشف كارنارفون مقبرة توت عنخ آمون كان ينزل فى شبرد .. وقبل أن يطير الجنرال الأمريكى دولتيل ليضرب طوكيو بالقنابل سنة ١٩٤٣ نزل فى شبرد..

«وما أكثر وقائع التاريخ وأصناف الإشاعات التى صنعت فى شبرد .. حضرت الإمبراطورة يوجينى بعض حفلاته .. وعاش فيه ملوك وسياسيون فى الحكم وفى المنفى .. وشهد مؤتمرات بين رؤساء دول وحكومات كان بينهم تشرشل ورزفلت وشيانج كاى شيك..

«أما الأقاويل والإشاعات فتشهد عليها ما كتبه صحفيو العالم مما كان يحدث فى شبرد خلال سنوات الحرب .. فقد كان إلى جانب الملوك والسياسيين جواسيس ولصوص وقوم تحف بهم الشبهات والريب..

«إنه تاريخ مائة عام عاشها الفندق الذى أقيم فى المكان الذى كان فيه مقر قيادة نابليون عندما كان يحتل القاهرة .. عاشها حتى سنة ١٩٤٧ ليصبح الفندق الكبير أسطورة من أساطير مصر الغامضة».

وتحدث هيكل عن باب الفندق الدوار .. «ما أصدق الكاتبة الألمانية فيكى باوم وهى تقول فى قصتها «الفندق الكبير» .. مقعد أمام الباب الدوار للفندق الكبير هو عرش تطل منه الإنسانية فى عجائبها وأسرارها .. الباب الدوار .. يلف .. يلف .. ولا ينقطع عن الدوران .. أجناس العالم وأمم الشعوب تتدفق إلى هذه الدنيا من المثيرات والمتناقضات .. ثم يلف الباب لتنساب المثيرات والمعجزات إلى العالم الخارجى».

ثم يتحدث عن حجرات الفندق .. «إن كل حجرة لها قصة» .. ومنها الحجرة رقم ١٥٨ التى يسكنها عادة الملوك .. فقد شهدت غرام الملك ليوبولد ملك بلجيكا بزوجته الراحلة الملكة أستريد .. وشهدت وحدة الفونسو الثالث ملك أسبانيا الأخير.. وشهدت فيكتور عمانوئيل وهو ملك على إيطاليا وشهدته وهو فى منفاه فى مصر .. ومنها الغرفة ١٤٦ .. «إنها غرفة موعودة بالمغامرة والمخاطرة».. نزل فيها بادن باول زعيم الكشافة فى العالم الذى اكتشفوا أنه جاسوسا .. والأمير يوسوبوف قبل أن يقتل راسبوتين بسنوات قليلة .. والجنرال عمر برادلى القائد الأمريكى الذى اقتحم أوروبا حتى وصل إلى برلين .. وتشرشل .. ومونتجومرى .. ونجم السينما الأمريكية روبرت تايلور.

ثم يتحدث عن رجال الفندق .. مساعد المدير رولاندر .. «الشاب السويسرى الجميل الذى يملك مائة بدله ويتكلم خمس لغات» ..وفيرارای رئيس الخدم..» إن مرتبه الرسمى جنيهان ودخله الفعلى بين ثلاثمائة وأربعمائة جنية فى الشهر « .. وماير .. البواب..» إنه فى إجازة الآن يتزحلق على الجليد فى سان موريتز فهو يقضى إجازته فى سويسرا مثل أصحاب الملايين.. وأهم من هؤلاء جميعا «جو» .. «البارمان العتيد الذى كتبت عنه كل صحف العالم وهو هو لم يتغير وراء البار الطويل فى الفندق الكبير».

وفى النهاية .. «لا يزال الباب الدوار فى الفندق الكبير يلف .. ويلف .. ولا ينتقطع عن الدوران».

وبعد أسبوع واحد انتقل هيكل من «الفندق الكبير» إلى «الفندق الصغير» .. من شبرد إلى فندق الحسين .. فى عدد ٦٧٤ بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٤٧ يكتب هيكل عن الوجه الآخر للحياة فى القاهرة .. وجه «الفندق الصغير» الذى يرى هيكل أن «حياته هى حياة النسيان .. الفقاعات الصغيرة التى تظهر على وجه البحر ثم تمضى لا تفهم من أين جاءت ولا تعرف إلى أين ذهبت .. ماض بلا مجد .. وحاضر بلا أضواء .. ومستقبل محفوف

بالغموض .. هذه هى الحياة فى الفندق الصغير فى حى سيدنا الحسين .. نزلاؤه هم أولئك المغمورون الذين لا يشعر بهم أحد .. وربما كانت حياتهم عامرة بالمغامرة والحب والشقاء والسعادة .. ولكن الدنيا لا تنظر إليهم ولا تلتفت نحوهم .. فإن أضواء الشهرة والغنى بعيدة عنهم».

«لا سجلات ولا كراسات .. وتبحث عن ماض «الفندق الصغير» المواجه لمسجد الحسين فتجيبك الذاكرة المكدودة لرجل أو اثنين عاصرا إنشاء الفندق فى الوقت الذى قام فيه .. لقد مضت سنوات طويلة .. سبعون أو ثمانون .. منذ جاء رجل من بلاد العجم – هكذا يقولون – وكان معه ذهب فاشترى الأرض وبناها أمام المسجد المبارك ومن يومها لم يطرأ تعديل على الفندق الصغير .. ومات الرجل الذى جاء من بلاد العجم ومات أبناؤه .. والأحفاد هم الذين يرعون الفندق الصغير .. وهم اليوم سادته .. وقد بدأ أبناء الأحفاد يتطلعون إلى التراث الذى يوشك أن يؤول إليهم.

«إن الغرف لا يزيد عددها على ثلاثين .. والأجور هى ١٢ قرشاً للسرير المخصوص وفى كل غرفة سريرين .. و١٠ قروش للسرير العادى ويسمونه السكندو وفى الغرفة منها ثلاثة أو أربعة من الأسرة العادية .. و٥ قروش للأريكة فى الأبهاء والماشى .. والباب مفتوح طوال الليل والنهار يستقبل عشرات ويودع عشرات ولا يتغير ولا يتأثر لأن الرواد هم .. هم .. لم يتغيروا ولم يتأثروا».

****

كان عمر هيكل ٢٤ سنة عندما بدأ يعبر عن موهبته الصحفية بهذه البراعة المبكرة .. كان ذكيا فى اختيار موضوع التحقيق الصحفى وفى اختيار توقيته .. وكان جذابا فى أسلوب عرضه لما يكتب .. ولا جدال أن عمله فى صحيفة الإجيبشيان جازيت ساعده على استيعاب التحقيق الصحفى بشكله الحديث .. ثم كان أن أضاف إليه دفء الأسلوب الأدبى الذى فرضه ويفضله عادة ذوق القارئ الشرقى.. ولا جدال أن دخوله أخبار اليوم فى تلك الفترة قد منحه الفرصة لتجريب كل ما يخطر على باله من أفكار فى التجديد والتطوير .. فقد كانت أخبار اليوم قفزة صحفية حديثة بكل المقاييس الصحفية.

لقد رفض هيكل عرض أمين زيدان .. ووجد نفسه فى أخبار اليوم محرراً وسكرتيراً لتحرير آخر ساعة فى نفس الوقت.. «وكانت تشغل دورا على السطح فى عمارة تملكها إحدى شركات التأمين فى شارع قصر النيل» .. وتعرف هيكل على مصطفى أمين الذى لا يزال يعتبره أهم وافضل مخبر صحفى عرفته الصحافة المصرية .. وراح هيكل يتأقلم مع عالمه الجديد .. ولم تكن العملية – كما يقول – سهلة .. «وإن كانت نتائجها سعيدة

بالنسة إلى وبالنسبة لى كل الأطراف فيما أظن .. وبالطبع كانت هناك فترة ملائمة .. وأكاد أقول فترة احتكاك .. لكنها مرت» .(٢)

«كان الجو العام فى أخبار اليوم غير مستعد على الفور لقبول واستيعاب غرباء من الخارج .. ولكنها كانت مسأله أسابيع .. ثم تحقق الاندماج» . (٣) ويدين هيكل بالفضل فى اندماجه فى أخبار اليوم لكامل الشناوى (وكان رئيسا لتحرير آخر ساعة فى ذلك الوقت) .. كان هيكل يعرفه من قبل .. فقد جلس إلى جواره مرات فى شرفه الصحافة فى مجلس النواب واستهوته شخصيته .. فكامل الشناوى شاعر وكاتب ومحدث وراوية .. «فنان قلب نواميس الكون فإذا النهار نوم وإذا الليل يقظة ومغامرات وحكايات لا أول لها ولا آخر» (٤) ويبدو أن اختلاف شخصية هيكل عن شخصية كامل الشناوى كانت سببا فى انجذاب كل منهما إلى الآخر .. التناقض أحيانا يكون عنصر جذب.

كان هيكل يتهمه بالبوهيمية .. وكان كامل الشناوى يتهمه بالنظام .. كان هيكل يراه «يهدر ثلاثة أرباع وقته وكان يرى أن الحياة أجمل من أن تضيع فى العمل .. وكان كامل الشناوى على علاقة حب دائمة مع الحب نفسه .. فقد كانت له حكاية غرام كل ليلة .. وكانت غراميات يائسة تلهمه قصائد حلوة فإذا جاء الصباح وسطعت الشمس تبدد غرام الليل وبقيت القصيدة الحلوة نسمعها ونستعيد سماعها عندما تهدأ الأحوال وتتيح لنا الظروف أن نسعى إلى غرفة مكتبة .. ملتقى الجميع بدفئها الذى يذوب فيه الصقيع» . (٥)

ويعترف هيكل بأن مشاعره الخالصة اتجهت من أول لحظة إلى على أمين .. «كان كتلة متحركة من الحيوية .. وكان مع حجمه الضخم مازال يحتفظ بقلب الطفل الذى كان فيه ذات يوم وبطيبته .. وأحيانا كانت تعتريه حماقة الطفل واندفاعه التلقائى .. لكن الرجل فيه يعود بسرعة ليؤكد نفسه إذا هو مزاج صاف وروح أليفة» .. وكان هيكل «يحار فى الطريقة التى ينفعل فيها بسرعة ثم يهدأ فيها بسرعة» .. لكن .. مهما يكن .. فإن هيكل يعتبر تلك أحلى جوانب شخصيته.

كان العمل فى أخبار اليوم مقسما بين على أمين ومصطفى أمين .. «على أمين على وجه التأكيد هو «الموتور» الذى يجرى فيه الاحتراق الداخلى ويولد الطاقة والحركة .. ومصطفى أمين هو السائق الجالس على عجلة القيادة فى الدار ويوجهها فى أى طريق يختار» . (٦)

وبدا مصطفى أمين فى عينى هيكل «رجلاً شديد الذكاء فيما يقصد إليه .. شديد النشاط مع بعض المبالغة فى الحركة .. لطيف المعشر حين يريد .. لكنه ليس بالضبط مثل توأمه كتابا مفتوحا تقرأ صفحاته فى يسر وسهولة .. ولم أجد غرابة .. فذلك شأن مخبر صحفى كبير له اتصالاته الواسعة ومصادره المتشعبة وحساباته المعقدة» . (٧)

وفى الشهور الأولى من عمل هيكل فى أخبار اليوم وقعت بينه وبين مصطفى أمين احتكاكات سريعة .. «لكن العمل المشترك والصحبة الدائمة أزاحا كل شىء جانباً» .. وقد اختلفا مرة فى الطريقة التى تغطى بها أخبار اليوم قضية اغتيال أمين عثمان .. إن أمين عثمان هو وزير المالية القريب للإنجليز وصاحب التصريح الشهير «إن العلاقة بين مصر وبريطانيا مثل الزواج الكاثوليكى» .. أى لا تقبل الطلاق .. وقد اغتاله حسن توفيق على نحو مثير .. وهرب من سجنه بعد القبض عليه .. وكانت أخبار اليوم تغطى هروبه «بشكل يضفى على القتل والهرب نوعاً من البطولة تختلط فيه القيم» .. وكان مصطفى أمين موافقاً ومدعماً .. لكن .. هيكل كان يرى «أن الجريمة السياسية لا قيمة حقيقية لها إلا إذا كان مرتكبها على استعداد لأن يدفع الثمن كاملاً ومن حياته قبل أى شىء آخر .. فى سبيل ما يعتقد أنه حق .. وإلا فإن كل القيم تختل بما فى ذلك جوهر روح الفداء لدى القاتل نفسه» .(٨)

واختلف هيكل ومصطفى أمين مرة أخرى حول التغطية الأخبارية لمفاوضات صدقى – بيفن .. كان مصطفى أمين يتمنى نجاح المفاوضات .. لكن .. ذلك لم يكن ما يحلم به هيكل .. وبسبب اختلاف مصادر أخبار كل منهما بدا أن ما يحصل عليه هيكل من أخبار يتعارض مع ما يحصل عليه مصطفى أمين من أخبار.

وتعقدت الأمور بينهما بعض الشىء عندما كتب مصطفى أمين فى أخبار اليوم مقالا عن مشروع معاهدة صدقى – بيفن عنوانه «نوقعها ونلعنها» .. فرد عليه هيكل بعد ثلاثة أيام فى آخر ساعة بعنوان «إذا كنا سنلعنها فلماذا نوقعها» .

* **

وقد أشاع اختلاف المواقف والاتجاهات ظلا من القلق لبعض الوقت بينهما .. وكان على أمين هو تيار الريح المندفع الذى يحاول دائما أن يعيد للسماء صفاءها .. وربما ساعد على انقشاع الغيوم أن هيكل قرر فى تلك الفترة تغيير اتجاهه .. وبدت له التغطية الأخبارية فى السياسة المحلية جهداً عقيماً .. وفكر فى العودة إلى التحقيق الصحفى. (٩)

كان الإنجليز على وشك الانسحاب من ثكنات قصر النيل التى كانت قائمة فى قلب القاهرة.. فقرر هيكل أن يقدم الصورة الأخيرة للحياة فى أكبر معاقل الاحتلال والذل فى العاصمة المصرية .. وكان برفقته محمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم .. وقد رفض البريجادير هايم جويس قائد القاعدة دخولهما .. لكنهما رغم ذلك تسللا إلى الداخل وبقيا فيه ٤ ساعات وعندما خرجا قدما التحقيق الصحفى الذى نشرته آخر ساعة فى عدد (٦٤٤) بتاريخ ٢٦ فبراير ١٩٤٧ تحت عنوان «تسللنا إلى الثكنات» .

وكان وباء الكوليرا قد تفشى فى مصر .. فغادر هيكل القاهرة هو ومحمد يوسف أيضا ليقيما فى منطقة ظهور الوباء فى محافظة الشرقية .. وتقرر عزل المحافظة عن بقية مصر وكانا فيها .. وكانت رسائلهما الصحفية تصل كل أسبوع إلى أخبار اليوم تنقل لقرائدها ولقراء آخر ساعة صورة شاملة إنسانية للحياة فى ظلال الموت .. لقد عاد هيكل إلى الحياة مع الخطر كما كان يفعل فى الإجيبشيان جازيت .. كان الخطر هناك هو الحرب .. وكان الخطر هنا هو الوباء.

وقد لفتت مجموعة التحقيقات التى كتبها هيكل عن الكوليرا الأنظار إليه .. وفازت بجائزة الملك فاروق الأول للصحافة العربية .. وكانت جائزة لها شأنها فى ذلك الوقت خصوصاً بين الصحفيين الشبان .. ولا شك أن الصور التى التقطها محمد يوسف كانت سندا قويا لكل ما يكتبه هيكل.

* * * *

ومحمد يوسف هو واحد من المصورين الصحفيين المهمين فى مصر .. كان حلمه أن يلتقط صوراً جميلة .. لكن ظروفه لم تكن تسمح له بأن يدفع ثمن الكاميرا .. ومن ثم التحق بدار الهلال فى عام ١٩٣١ ليعمل فى قسم التصوير الميكانيكى المرتبط بطباعة الروتوغرافور .. وهناك عثر على من يقرضه كاميرا كلما احتاجها .. وبدأ يجرب التصوير فى اخوته وفى المناظر الطبيعية .. ولكنه رغم ذلك لم يكن يعرف ما هو التصوير الصحفى .. وذهب يطلب عملاً فى جريدة روز اليوسف اليومية (لم تستمر طويلا) .. وكانت أول مهمة يكلفونه بها هى تصوير مظاهرة فى الأزهر .. وذهب إلى موقع الحدث لكنه وجد المظاهرة قد انفضت وخجل أن يعود بلا صور .. فصعد إلى سطح أحد المنازل المطلة على ميدان الأزهر والتقط صورة عامة للميدان فيها عدد كبير من رجال البوليس الذى كانوا يقفون تحسبا لمظاهرة أخرى .. وتصور أنه بهذه الصورة قد حصل على نصر صحفى .. وكانت مفاجأة عندما رأى زملاءه المصورين فى نفس الجريدة يقدمون صوراً للمظاهرة .. ومن يومها علم أن المسألة ليست مزاحا.

ويروى هيكل فى عدد آخر ساعة (٧٧٦) بتاريخ ٢٩ يونيو ١٩٤٩ قصة صورة من صور محمد يوسف .. كان بطلها الآخر هو مصطفى النحاس .. الذى يقول هيكل عنه: إنه من مميزاته أنه رجل «فوتوجنيك» .. وهو بهذا الوصف نموذج رائع لمصورى الصحف الذين يبحثون عن الوجوه المعبرة الصالحة للتصوير..

«ومن أشهر صور النحاس باشا صورة نشرتها آخر ساعة لرفعته وهو يصفق ولقد أثارت هذه الصورة يوم نشرها ضجة كبرى وتحدثت الناس عنها ولكن القصة الحقيقة

لهذه الصورة بقيت فى الكتمان حتى الآن .. ولقد التقطت هذه الصورة يوم زفاف السيدة سعاد الوكيل شقيقة صاحبة العصمة حرم النحاس باشا وكانت الحفلة فى الآريزونا ولم يكن بين المدعوين طبعا أخبار اليوم ولا آخر ساعة وبينهما وبين النحاس باشا ما صنع كل الحدادين فى العالم .. منذ اخترعت الحدادة حتى اليوم .. ومع ذلك كان لابد لآخر ساعة أن تدخل الحفلة وأن تلتقط الصور وما كان ينبغى أن تفوتها هذه الحفلة وكانت وقتها من أكبر حفلات الموسم..

وتسللنا أخيرا إلى داخل الحفلة .. تسللنا بعد أهوال مع الشبان الوفديين الذى كانوا يحرسون مداخل الآريزونا ومخارجه فى همة لا تقل عن همةالبوليس فى تعقب الإرهابيين اليوم .. ثم وجدنا أنفسنا – محمد يوسف وأنا – أمام النحاس باشا وأمسكت قلبى بيدى انتظر ما سوف يفعله النحاس باشا وكانت المفاجأة الكبرى أن ذاكرة النحاس باشا وهى ذاكرة حادة خائنة أو لست أدرى ما الذى حدث ؟ .. فإن رفعته أقبل على مرحبا يقول: أنت اتعشيت؟.. قلت : نعم .. قال : إذن تعال كل بطيخا .. ثم استطرد: أنا أكلت شمام .. وكنت وأنا لا أزال فى رهبة الإشفاق من أن يتذكر رفعته أننى أعمل فى آخر ساعة لا أحس بشهية نحو البطيخ أو نحو الشمام .. وكان كل ما أود أن أفعله أن أبتعد عن النحاس باشا بسرعة.

«وأقبل فؤاد سراج الدين باشا وهمس فى أذنى: ماذا تفعل هنا؟ .. قلت فى استسلام : ما تراه .. قال : على أى حال سأكتم السر فعلا .. وأشهد أن فؤاد باشا كتم السر فعلا .. وفجأة قال النحاس باشا لفؤاد باشا ولى: تعالوا نسمع أم كلثوم .. وكانت أم كلثوم تغنى أغنية «أهل الهوى ياليل» أو ستبدأ فى غنائها .وذهبنا إلى الصف الأمامى وجلسنا .. رفعة النحاس باشا وإلى يساره فؤاد سراج الدين باشا .. ثم أنا .. وبدأت أم كلثوم تغنى .. غنت أم كلثوم : أهل الهوى يا ليل .. واستبد الطرب بالنحاس باشا فصاح وهو يعبر بيديه ورجليه وكيانه كله: أيوه .. مالهم؟ .. وأكلمت أم كلثوم: فاتوا .. مضاجعهم .. وصاح النحاس باشا: علشان .. إيه؟.. واستطردت أم كلثوم: «واتجمعوا يا ليل .. صحبة وأنا معهم» .. وصاح النحاس باشا : ليه؟ .. لازم ح يطلعوا بيان .. وضحكت وابتسم فؤاد باشا وقال: النحاس باشا سعيد الليلة لأنه يحب سعاد – يقصد سعاد الوكيل – كما لو كانت أبنته..

«ولاحظ محمد يوسف أن النحاس باشا يصفق لأم كلثوم بحماسة .. ومال على أذنى يقول لى: ما رأيك فى صورة للنحاس باشا وهو يصفق؟ .. قلت: عال .. قال: ولكن عليك أن تستأذنه .. قلت: ماذا أقول له؟ .. وجلست أقلب المشكلة فى ذهنى: كيف أستأذنه؟ وماذا أقول له؟.والأغنية تكاد تنتهى ثم ينهض رفعته لينصرف إلى بيته – كما قال – لينام

وتضيع الصورة العجيبة .. ثم حزمت أمرى وأقدمت وهمست بالفكرة لفؤاد باشا ..قلت له: هل تستأذن لى رفعة النحاس باشا لكى نصوره وهو يصفق .. قال: إلى هنا لا .. وأنا لا أستطيع أن أقول له شيئا من هذا .. وسمع النحاس باشا حديثنا .. والتفت إلى فؤاد باشا وإلى ثم قال: ماذا يريد؟.. وسكت فؤاد باشا ولم يكن أمامى مفر من الكلام .. قلت : كنت أطلب من فؤاد باشا أن يستأذن رفعتك فى أن نصورك وأنت تصفق .. وقال رفعته بغضب: ليه «الزفت» ده بقى؟ .. وقلت بسرعة: كنت أريد أن أكتب تحتها «عندما يصفق الرجل الذى اعتاد أن تصفق له الجماهير» .. وضحك النحاس باشا بملء شدقيه وقال: جميلة دى .. فكرة كويسة دى .. ثم التفت إلى الوراء بسرعة وقال: فين المصور بتاعك؟.. وأشرت إلى محمد يوسف فاقترب وبدأ النحاس باشا يشرح له فكرة الصورة كما لو كانت فكرته..

«قال بلهجته الخاصة المعبرة .. بل القوية التعبير .. أسمع .. هى ح تخلص الحتة دى .. وأنا ح أسقف على طول .. فاهم .. وأنت تروح واخد الصورة حالا .. وهز محمد يوسف رأسه موافقا ونظر إلى النحاس باشا الذى قال له فجأة: لا .. ده أنت باين عليك خيبان .. متنفعش .. ما أنتاش سريع كفاية .. لا بلاش.. موش عاوزين الصورة .. ثم سكت رفعته وتغيرت ملامحه بسرعة وقال: وإلا أنت تنفع .. طيب حاجريك .. بس بسرعة .. وقبل أن تمضى ثانية عدل النحاس باشا عن رأيه ومط شفتيه فى قنوط وقال: لا متنفعش .. واستمر رفعته يقول: ينفع .. ثم يعود للنقيض .. ثم يغير رأيه .. بلا سبب ظاهر .. وأنا لا أكاد أتابع كل هذه التغيرات .. وأخيرا .. أخيرا استقر رفعته على رأى وقرر أن محمد يوسف «ينفع» ثم قال له: أهه .. خللى بالك .. ما تبقاش خيبان .. هى ح تخلص الحتة دى وأنا أسقف .. أهه .. أهه .. أنت مستعد .. وفرغت أم كلثوم من مقطع وصاح النحاس باشا: أهه .. أهه .. ثم رفع يديه يصفق بحماسة .. والتقط محمد يوسف الصورة بسهولة».

لقد روى هيكل قصة هذه الصورة بعد حوالى ٣ سنوات من التقاطها .. وكان وقتها يوزع وقته وعمله بين أخبار الجريمة وأخبار المجتمع .. لكن .. ما صنع شهرة هيكل كانت تحقيقاته الصحفية الساخنة المعبرة عن الناس .. وهى التحقيقات التى نال بسببها جائزة الملك فاروق .. وكان أسمها الرسمى «جائزة الملك فاروق للصحافة الشرقية» وكانت تقدم للصحفيين العرب تحت سن الثلاثين .. وأن الجائزة كانت نقطة مضيئة فى حياة هيكل فإن من المفيد أن نقرأ له تحقيقا من التحقيقات التى كانت سببا فى الفوز بها .. لقد عثرت وأنا أفتش فى المجلدات القديمة لآخر ساعة على التحقيق الذى كتبه من قرية القرين فى الشرقية بعنوان «الحياة فى قرية الموت» وقد نشر فى عدد رقم (٦٧٦) فى تاريخ ٨ أكتوبر ١٩٤٧ وقد قال فيه:

«على رؤوس النخيل وبين الأكواخ المظلمة المتداعية وعلى شواطىء الترع والغدران وفى الوديان وفوق رمال الصحراء يسعى ميكروب الكوليرا فى قرية القرين ويجر فى أذياله الموت أينما ذهب .. إن معركة الموت والحياة على أشدها فى القرين .. ينشر الوباء دخانه القاتم الخانق على القرية الصغيرة فتنهض الحياة لتبدد بسماتها المشرقة هذا الدخان وتظل تقاومه وتقاومه .. وقد تختفى الابتسامة المشرقة أحيانا وتحل محلها الدموع ومع ذلك فإن الحياة لا تستسلم أبداً ولا تزال تثبت فى القرين أنها الأقوى..

«جزء كبير من سكان القرين من غير أهلها .. معكسر التل الكبير يقع على حدودها وقد نزح إليه عمال كثيرون من كل أنحاء القطر ليعملوا فيه واستقر جمهور كبير من هؤلاء فى القرين وأصبحت هذه القرية التى كان تعدادها ١٥ ألف نسمة تضم ٢٥ ألف دون أن يزيد على سبانيها بيت واحد .. وربما كان أهل القرين دون غيرهم من سكان قرى مصر قد أخذوا بنظام البنسيونات .. فكل فلاح كان له بيت وكل بيت كان صاحبه يوفر من حجراته حجرة أو حجرتين يؤجرها لغريب من العمال الذى يعملون فى القرين ..

«وحين تفشى وباء الكوليرا انتشر بادىء الأمر بين عمال الجيش الغرباء وكان الفلاحون من أصحاب البيوت يخافون التبليغ عن الإصابات خيفة أن يعزلوا هم الآخرون .. ويموت «الغريب» وليس هناك من يسأل عنه .. ويحمله أهل البيت إلى الجبل فيدفنونه ويعودون فإذا سئلوا عنه فى الغد قالوا: لقد فر من القرين .. متى؟ .. قبل الوباء ..

«وحدث أن فاحت من الجبل روائح خبيثة وذهب بعض المستطلعين وعادوا يقولون أن هناك جثثا .. ويظهر أن الذين قاموا بدفنها كانوا فى عجلة من أمرهم فدفنوها على بعد قريب من سطح الأرض .. وأعلن عمدة القرية .. وفى القرين أكثر من عمدة .. إنهم يتبرعون لإقامة مقابر للغرباء وحدهم .. هؤلاء الذين لا أهل لهم ولا أحباب يبكون عليهم ويحزنون لأجلهم..

«وفى اليوم التالى بدأت إجراءات الحفر والبناء .. وخرج عدد كبير من أصحاء القرين يساهمون فى بناء المقابر للغرباء وكان بين العاملين رجل اسمه رفاعى فقد أباه وزوجته وأبنا له صغيرا .. افترسهم جميعا ميكروب الكوليرا وبقى رفاعى على قيد الحياة .. ولقد حفر بنفسه ثلاث مقابر لأبيه وزوجته وأبنه .. ومع ذلك فإن هذا لم يمنعه من الاشتراك فى حفر المقابر .. للغرباء ...

«ولقد ظهر نوع من الفتيات فى القرين .. نوع الحزينات بلا سبب .. أو هكذا يرى أهلهن .. ولقد كان وجودهن ضرورة لوجود الغرباء .. الغرباء من العمال الشبان رواد السينما وسكان المدن .. وحين هبطوا على القرين لم يكن هناك مفر من حدوث قصص

غرام بينهم وبين عذارى القرين الجميلات .. وبعض هذه القصص انتهى بالزواج بين عذارى القرية والغرباء .. وبعضها لم يتسع له الوقت .. وأقبل الوباء وماتت أغانى الغرام فوق الشفاه.

«ويقبل أحد الآباء على بيته فى الليل وتقابله أبنته الشابة تسأله: أين كان؟ .. ولماذا تأخر وطرق القرية كلها مفاجآت؟.. ويجيب الأب المتعب: كنا نشترك فى دفن «غريب» .. وتسأله ابنته: من هو؟ .. فيقول لها اسمه .. ثم ينسى أن يلاحظ ابنته وهى تهرب لتخفى الدموع فجأة من عينيها .. وكل يوم يموت غرباء .. وكل يوم تسيل دموع..

«وحين يظهر الوباء فى أحد المنازل ينقل سكانه إلى المعزل ويقفل البيت وترسم على بابه دائرة داخلها نقطة ومعنى هذه النقطة أن المنزل موبوء .. وكثيرا ما استيقظ رب أسرة فى القرين ليجد منزل جيرانه وقد رسمت عليه الدائرة فى وسطها نقطة .. لقد حدث كل شيء أثناء الليل .. زحفت الكوليرا .. وحمل المصاب ونقل أهل البيت وترك الميكروب علامته المخيفة على الدار.. وانتهى كل شيء .. والعجيب أن هذا لا يحدث ذعراً ولا يسبب رعباً..

إنتهى. (١٠)

لقد حقق هيكل نجاحا ملفتا للنظر فى مرحلة اهتمامه بالتحقيق الصحفى المحلى .. لكن .. النجاح فى حياة الصحفي سرعات ما يصاب بالملل والقلق .. ويصبح السؤال عن الخطوة التالية .. النقلة القادمة .. ماذا بعد؟ .. وهو سؤال ملح جدا رغم إرهاقه وصعوبته والمتاعب التى تأتى من الإجابة عليه.

الهوامش

(١) موسى صبرى : ٥٠ سنة فى قطار الصحافة – مرجع سبق الإشارة إليه – ص ٧٨٩.

(٢) محمد حسنين هيكل: بين الصحافة والسياسة – مرجع سابق – ص ٣٧.

(٣) و (٤) و(٥) و (٦) و(٧) و(٨) و(٩) هيكل المرجع السابق : الصفحات ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠.

(١٠) استدعى الحصول على مقالات هيكل الأولى فى آخر ساعة جهدا كبيرا .. فليس فى دار واحدة فى مصر نسخة كاملة منها .. كما أن الإهمال التى عليه وسائل الحفظ والأرشيف قد ضاعفت من قسوة المهمة.

١٨

«هيكل .. لأنه ما في مصاري»

■ كان إسماعيل الحبروك يخشى أن يتكلم مع أحد فى مكان مغلق .. مكتب .. أو بيت .. أو سيارة .. وإسماعيل الحبروك كان صحفياً وشاعراً وروائياً رقيقاً وحساساً ومبدعاً .. وقد أقترح على زميله فى صحيفة «الجمهورية» ناصر الدين النشاشيبى ذات مرة أن يتمشيا معا فى ملاعب نادى «الجزيرة» .. ليأخذا حريتهما فى الكلام بعيدا عن الرقيب وأجهزة التسجيل .. وجاءت سيرة الصراع الحاد بين هيكل ومصطفى أمين .. وكان ضمن ما قاله إسماعيل الحبروك عن هذا الموضوع:

– على الباغى تدور الدوائر .. لقد أرسل مصطفى وعلى أمين هيكل فى صيف ١٩٤٧ ومعه المصور محمد يوسف إلى قرية القرين فى منطقة الشرقية لكى يكتب عن انتشار وباء الكوليرا.. وظن مصطفى أمين أن هيكل لن يعود من هذه الرحلة إلا هو مصاب بالكوليرا فيموت ويخلص منه .. وعندما لم يمت هيكل أرسله «أولاد أمين» كمندوب عسكرى إلى غزة وبيت لحم فى حرب فلسطين .. وقال مصطفى أمين: إن هيكل سيعود جثة هامدة .. ولكنه عاد سالماً لامعاً على قدميه. (١)

وبالقطع .. يصعب قبول مثل هذا التفسير فى ذلك الوقت المبكر فى علاقة هيكل بأصحاب أخبار اليوم .. فهو من ناحية لم يكن فى حالة صراع بينه وبين مصطفى أمين .. ومن ناحية ثانية هو الذى طلب السفر بنفسه إلى القرين .. موطن وباء الكوليرا.. ومن ناحية ثالثة كان فى ذلك الوقت يعتبر تلميذاً نجيباً متفوقاً فى مدرسة أخبار اليوم .. وفى مدرسة أخبار اليوم يحرص الصحفى على تجديد مصادر أخباره .. وأن يضيف إليها .. وأن لا يكتفى بمصادر الدرجة الثالثة أو الثانية .. بل عليه أن يصل إلى مصادر الدرجة الأولى .. رؤساء الوزارة .. وزراء الخارجية .. سفراء الدول الكبرى .. زعماء الأحزاب السياسية ..

وفى هذه المدرسة لا يحتفظ الصحفى بأسرار.. فهو قد حصل عليها لينشرها .. وإذا لم يحصل عليها فلا مفر أمامه سوى أن يترك الصحافة ويعمل فى السباكة.. وفى المقابل كان المحرر فى أخبار اليوم ملكا فى هذه المملكة أو على الأقل أميراً .. راتبه مثل راتب الوزير .. وراتب الكاتب الجيد مثل راتب رئيس وزراء.. إنها مدرسة تجعل الصحفى المنتسب إليها يعيش فى أحلام سعيدة وخيالات كبيرة وطموحات واسعة «فهو بقلمه قادر على أن يشعل ثورة وأن يقيل وزارة وأن يدفع رئيس وزراء للانتحار وأن يتزوج بنت السلطان».(٢)

والحقيقة أن هيكل – الذى تعود على حياة الخطر منذ أن ذهب يغطى معارك الحرب العالمية الثانية فى العلمين – هو الذى طلب بنفسه من على أمين أن يفتح أمامه باب التحقيق الصحفى خارج الحدود .. ويشهد هيكل أن على أمين تحمس .. ويشهد أيضاً: «أنه لم تكن هناك دار صحفية أخرى فى مصر وقتها على استعداد للمجازفة بمثل هذه الفرصة لأحد محرريها غير أخبار اليوم». (٣)

والحقيقة أن الموت هو الوجه الآخر للحياة .. والخطر هو توأم المغامرة الصحفية .. هيكل يعرف ذلك جيدا .. وقد عاشه كثيرا .. فهو كاد أن يقتل فى حرب فلسطين لأنه لم يكن يعرف كلمة سر الليل التى لا يسمح بدخول المعسكرات المصرية إلا لمن يعرفها .. ويمكن طعن أو إطلاق الرصاص على من لا يعرفها .. وقد قال : إن أكثر متاعبة فى فلسطين سببها هذه الكلمة «كلمة سر الليل» .. «تكون سائرا ذات مرة وتضل الطريق أو تتأخر ثم تبغى العودة قبل أن يشتد بك الظلام وفجأة يبرز أمامك جندى كالعفريت ويصوب السونكى إلى صدرك تماما.. ثم يصرخ فيك بأعلى صوته: كلمة سر الليل .. وقد تكون تعرفها فتهمس بها إليه وأنت تجمع أوصالك المبعثرة .. وقد تكون لا تعرفها وفى هذه الحالة لن تقرأ ما أكتب لأن سكان الجنة من الشهداء الأبرار لا يقرؤون الصحف ولا المجلات». (٤)

ويروى هيكل أنه كان عائدا من عمان إلى القاهرة جوا .. وبينما الطائرة تحلق فوق «بئر سبع» هرع إلى كبينة الطيار ليتابع معه خطر السير على الخريطة .. واستمع معه إلى الاشارات التى تنبعث من جهاز الراديو.. صادرة من محطات اللاسلكى التى يستخدمها الجيش المصرى فى فلسطين .. وكانت الإشارات سيلا لا ينقطع .. ولكنه سيل غامض لا تستطيع أن تفهم منه شيئا .. مثل «محمود – بط – سيد – ١٢ – ١٥ – ١ – فى الفجر» .. وفجأة بدأت الريح تعصف وإذا بالطائرة تدخل فى ضباب أصفر كثيف وتكافح كما لو كانت ذبابة أطبقت عليها خيوط عنكبوت قوى فبدأت تهتز وتترنح .. وكان معظم من فى الطائرة الصغيرة من طراز هافيلاند من السيدات الفلسطينيات اللاجئات العجائز ..

وبصعوبة شديدة هبطت الطائرة هبوطاً اضطرارياً بعد فراغ البنزين وكان ذلك فى قاعدة عسكرية بريطانية .. وبعد تسوية أمر الهبوط بلا أذن رفضت القاعدة مد الطائرة بالبنزين ما لم تدفع ثمنه وكان ١٥ جنيها.. ودخل هيكل للاجئات الفلسطينيات يشرح لهن القصة ويطلب حصتهن فى ثمن البنزين .. لكنهن هززن رؤوسهن وقلن : ليس معنا مصارى .. ومصارى تعنى فلوس بلغة الشوام .. وهدد الطيار بأنه إذا لم يدفع ثمن البنزين فإن الإنجليز سيسلمونهم لليهود .. فصرخن .. تساءلن: كيف .. فرد هيكل بلهجتهن «هيك .. لان ما فى مصارى» .. وبعدها ظهرت المصارى .. ولكنها لم تسلم للطيار إلا بعد أن تعهد كتابة بردها فى مطار القاهرة .. ووصلت الطائرة القاهرة .. وفتح بابها ونزل الطيار ووراءه عدة صيحات تسأله «وين المصارى». (٥)

****

لمدة خمس سنوات .. ما بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٥٢ أنطلق هيكل فى تحقيقاته الخارجية وراء الحدود .. راح يغطى انصهار الحديد والدم بين العرب والإسرائيليين فى حرب فلسطين من أولها لآخرها .. وانقلابات سوريا التى كان نظام الحكم فيها يتغير كما تتغير الأفلام فى دور السينما .. والحرب الأهلية فى اليونان بكل ما فيها من أحزان وجبروت .. وثورة مصدق فى إيران التى كانت بروفة مبكرة لثورة الخومينى .. وصراع الشرق المسلم والغرب العلمانى فى تركيا والذى وصفه بصراع الويسكى والحبرة .. وعمليات الاغتيالات الكبرى التى اجتاحت المنطقة .. من اغتيال الملك عبد الله فى القدس إلى اغتيال رياض الصلح فى عمان .. إلى اغتيال حسنى الزعيم فى دمشق.

لقد اتسعت المسافات وتمددت أمام عينيه وتحت قدميه .. ولكن .. ذلك لم يحرمه من الرؤية الشاملة التى تربط مصائر وأقدار البشر فى المنطقة التى نعيش عليها .. ولعل حركة الجغرافيا الصحفية فى تلك الأيام هى التى نبهته لواقع الجغرافيا السياسية .. ولعلها هى التى تجعله يشير دائما إلى أهمية النظر إلى الخريطة قبل أن يتكلم على حد قول ونصيحة الزعيم الفرنسى المعروف شارل ديجول.

ويجب أن نعترف أن هيكل فى رحلاته الخارجية المبكرة كان قادرا على الاحتفاظ بمصادرة الصحفية للاستفادة منها فيما بعد .. كما أنه عرف فضيلة كتابة المذكرات اليومية عن الأحداث والشخصيات التى تصادفه .. وهو ما جعل ذاكرته سليمة وحية وجاهزة للاستيقاظ فى أى وقت يشاء.. والأهم من ذلك أن هيكل لم يكتف بأن يرى ويسمع ويكتب فقط مثله مثل معظم المراسلين فى العالم.. وإنما كان يرى ويسمع ويقرأ ثم يكتب.. والقراءة هى الرصيد الحقيقى للصحفى .. وهو الجسر الذى ينقله من موقع

المراسل إلى مكانة الكاتب .. إن كثيرا من المراسلين أخذوا نفس الفرصة التى أخذها هيكل فى تغطية الأحداث التى غطاها .. وكانوا بارعين فى التغطية الصحفية.. لكنهم لم يتجاوزها بالقراءة والتأمل والتفكير للرؤية السياسية .. فلم يزد عمرهم عن عمر الحدث الذى غطوه.

لقد سبق هيكل إلى فلسطين معظم من سبقوه فى كبش البريق الصحفى .. محمود أبو الفتوح.. ومحمد التابعى .. وأميل زيدان .. وإحسان عبد القدوس الذى جاء إلى القدس فى يونيو ١٩٤٥ وكان متحمسا لمعرفة القضية الفلسطينية فقابل زعمائها .. كما قابل ديفيد بن جوريون (أول رئيس حكومة إسرائيلية فيما بعد) وموشى شاريت (أول وزير خارجية لإسرائيل فيما بعد) وكان تفسير إحسان عبد القدوس هو أن هذه اللقاءات تجعلنا نعرف العدو بدقة .. وبعد أن نشر هذه اللقاءات .. تلقى إحسان عبد القدوس أول اتهام بالخيانة يحظى به صحفى مصرى وطنى يعشق فلسطين حتى النخاع.. ويبدو أن الهجوم عليه كان أشد من أن يحتمله.. فقد راح يردد بعدها «كفاية سياسة .. أنا رجل فنان» .(٦) رغم أنه فيما بعد حقق شهرة واسعة بسبب فلسطين عندما نشر ما وصف بقضية «الأسلحة الفاسدة» وطالب بمحاكمة مجرمى الحرب فى فلسطين الذين تسببوا فى هزيمة الجيش المصرى هناك.

ولا جدال أن الأحداث والمناطق التى غطاها هيكل فى رحلاته الخارجية المبكرة هى التى وضعت له أساس اهتماماته التى ظل يرعاها طويلا فيما بعد .. وربما إلى الآن .. وعلى رأسها بالقطع قضية فلسطين .. وكيان إسرائيل .. ومستقبل الشرق الأوسط .. إن عمر اهتمامه بهذه القضية هو عمر القضية نفسها.

* * * *

لقد بدأ اهتمام هيكل بفلسطين بعد عودته منها أول مرة وبعد أن كتب أولى سلسلة تحقيقات عنها بعنوان «النار فوق الأرض المقدسة» .. وهى مجموعة المقالات التى سبقت دخول مصر حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ .. وظل هذا الاهتمام حاداً ومنتبهاً حتى وصل بعد ٥٠ سنة إلى كتابه المنشور فى ثلاثة أجزاء «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» .. ثم أعقبه بكتاب «عروش وجيوش» وهو قراءة فى يوميات الحرب فى فلسطين.

إن فلسطين بالنسبة له لم تكن قضية عربية وإنما كانت قضية وطنية مصرية .. كما أن قيام دولة إسرائيل على أرض فسطين فى وسط العالم العربى وفى قلبه كان الحدث الأكبر بالنسبة لشعوب الأمة العربية وفوق أرضها على امتداد واتصال القرن العشرين .. «إن الأمة العربية قضت النصف الأول من ذلك القرن تحاول بكل وسائلها اعتراض ومنع

قيام دولة إسرائيل.. ثم أن الأمة العربية قضت نصفه الآخر تحاول وبكل طاقتها حصر هذه الدوله وضبط آثار وتداعيات قيامها .. وقد كانت الأمة العربية على حق ولكنه حق افتقد الوعى أحيانا وافتقد الإرادة أحيانا وافتقد كلا من الوعى والإرادة فى أحيان كثيرة» .(٧)

ولو قرأنا ما كتبه هيكل منذ أكثر من نصف قرن عن فلسطين لفهمنا الأسس التى قامت عليها اهتماماته بهذه القضية التى هى جوهر وقلب كل قضايا ومتاعب ومشاكل وهموم السياسة فى الوطن العربى .. وقد مرت السنين – على طولها – وكأن شيئا لم يكن .. وكأن أحداً لم يتعلم.

فى عدد رقم (١١) من مجلة «الكتب وجهات النظر» الصادر فى أول ديسمبر ١٩٩٩ كشف هيكل سرا أصاب كل من قرأه بالدوار .. هو أن العاهل المغربى الراحل الملك محمد الخامس كان يترك المخابرات الإسرائيلية (الموساد) تتجسس على مؤتمرات القمة العربية التى عقدت فى الدار البيضاء .. بما فى ذلك الجلسات المغلقة والسرية للملوك والرؤساء العرب .. وقبل ٥٠ سنة .. وفى عدد آخر ساعة رقم (٧٥٧) بتاريخ ٢٦ إبريل ١٩٤٩.. يكشف سراً من ذلك الطراز الدوار.. هو أن سكرتارية الأمم المتحدة كانت تتجس على العرب لصالح اليهود.. فقد اختارت سائقين يهود ليقودوا سيارات الوفود العربية .. وبعد أن تسربت القصة للوفود العربية قدم الأمير فيصل بن سعود احتجاجاً للسكرتير العام للأمم المتحدة المستر تريجفى لى .. وطلب منه أن يستبدل بسائقة اليهودى سائقا مسيحيا غيره .. وقبل المستر تريجفى لى الطلب .. ثم لم تلبث حرم الأمير فيصل أن اكتشفت بعد يومين أن سائق سيارتها هو الآخر يهودى.

وفى آخر ساعة أيضاً ولكن فى عدد رقم (٧٦٤) بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٩ يكشف هيكل سرا جديدا من الطراز المثير للدوار .. هو أن المتطوعين العرب فى حرب فلسطين بعد أن فرغوا من معركة «كفار عصيون» نجحوا فى أسر ١٤٣ فتاة يهودية كن يحاربن فى صفوف الهجاناة .. ونقلت الأسيرات إلى مدينة الخليل بحثا عن مأوى لهن .. فاقترح واحد من مشايخ فلسطين هو الشيخ الجعبرى أن يضع الأسيرات فى مخزن يملكه .. وبعد أن وصل خبر الأسيرات إلى الملك عبد الله قرر نقلهن إلى عمان .. وانتدب ضابط أردنى برتبة صاغ (رائد) اسمه حكمت مهيار كى يتسلم الأسيرات وينقلهن من الخليل إلى عمان .. وعند التوقيع على الاستلام وجد الضابط الأردنى أن عدد الأسيرات ١٤٠ فتاة .. ولم يستطيع الشيخ الجعبرى أن يفسر أين اختفت اليهوديات الأسيرات الثلاث؟.

وفى آخر ساعة كذلك ولكن فى عدد (٦٦٧) بتاريخ ٦ يوليو ١٩٤٩ يكشف هيكل مهازل القيادة العربية فى حرب فلسطين .. لقد سبقت الجيوش النظامية إلى فلسطين ما كان يعرف بجيوش التحرير .. وكان قائد هذه الجيوش هو الجنرال إسماعيل صفوت

باشا .. وقد استدعوه من بغداد لتعهد إليه الجامعة العربية بقيادة جيوش التحرير العام .. وفى اليوم التالى لوصوله القاهرة حدثت قصة أفقدت الناس الثقة فى كفاءته العسكرية .. والقصة للأسف مسجلة فى محاضر البوليس .. وتتلخص فى أن الجنرال غداة وصوله إلى القاهرة خرج يتجول فى شوارعها .. وبينما هو يتمشى فى شارع «إبراهيم باشا» أبصر بعض الغلمان يجلسون عند ناصية الطريق المؤدى إلى كلوت بك يلعبون لعبة الثلاث ورقات المشهورة .. ووقف الجنرال يتفرج عليهم .. وما لبث الغلمان - لاعبو الثلاث ورقات - أن استدرجوا قائد عام جيوش التحرير العربية لإنقاذ الأرض المقدسة إلى مشاركتهم فى لعبة الثلاث ورقات .. وبعد خمس دقائق كان الجنرال قد خسر كل ما معه من نقود وهو مبلغ خمسة وأربعين جنيها .. وهو بالقطع رقم قياسى فى تاريخ هذا النوع من المقامرة الشعبية.

وأحس الجنرال أنه سرق أو على الأقل سقط فى فخ عصابة من المتشردين .. وحاول أن يسترد نقوده منهم فلم يستطع .. وحاول بعضهم الجرى فجرى وراءهم الجنرال وأمسك بهم ثم صاح يستدعى البوليس .. وحرر محضرا بالواقعة .. لكن الجامعة العربية تدخلت لمنع نشر الخبر فى الصحف .. رفقا بسمعة الجنرال وإبقاء على هيبة منصبة كقائد لجيوش التحرر العربية لإنقاذ الأرض المقدسة من اليهود.

وفى فلسطين حاول هيكل أن يقابل الجنرال .. لكن قائد جيوش التحرير العربية لم يكن فى فلسطين ولم يسافر إليها وكان يدير المعارك فى المآدب الفاخرة التى كانت تقام له فى القاهرة ودمشق وبغداد وعمان .. وكان مقر قيادته فى عمان مخزن للدقيق يملكه أحد أصدقاؤه هو صبرى الطباع .. وبين أكوام الدقيق لاحظ هيكل اندماج الجنرال فى تدخين الشيشة .. ولاحظ وقوف سيارة لورى أمام المخزن .. وجاء منها رجل قال للجنرال: لم نستطع اليوم أن نؤجر أكثر من ثلاثين .. وقال الجنرال: شيعهم على رام الله .. وتبين أن قيادة جيوش التحرير تؤجر الفلاحين والعمال وترسلهم - هكذا بلا تدريب - لمحاربة اليهود .. وقبل أن يتحرك اللورى صاح الجنرال براكبه: لا تنسى أن ترسل لورى آخر إلى جنين .. أجروا خمسين بأسرع ما يمكن .. وعاد الجنرال ينفث دخان الشيشة الأزرق فى هدوء وراحة بال.

ويقول هيكل: ويبدو أن عقلية القائد العام كانت المثل الأعلى لمرؤوسيه من القواد المحليين فى فلسطين .. كان يقود جبهة القدس فى ذلك الوقت ضابط قديم فى الجيش العراقى هو عبد الحميد الراوى بك وكان يقود ما اسماه يومئذ جيش اليرموك تيمناً بجيش خالد بن الوليد .. وذهبت أقابله وكان قد عاد لتوه من معركة فى رام الله .. وجلس

يحدثنى وهو يشرب الشيشة أيضاً عن المعركة التى خاضها .. وقلت له: ألا أستطيع أن أراها على الخريطة؟ .. فقال ببساطة: إننا لا نستعمل الخرائط .. نحن بتوفيق الله نستغنى عنها .. وسكت ولم أقل شيئاً .. واستمر فى حديثه عن المعركة .. ثم انتهى بقوله: وعلى أى حال لا تحاسبنا عما صنعناه الأمس .. وإنما حاسبنا على ما سوف نفعل غدا .. وسألته: وما هو السبب؟.. وألقيت هذا السؤال وفى ذهنى أنه لابد أن يكون قد حصل على أسلحة جديدة أو إمدادات جديدة .. وأجاب هو بنفس البساطة: لقد كنت أمس اتخذ مقر قيادتى فى حجرة عادية ولكن اليوم نقلت قيادتى إلى الروضة الشريفة فى المسجد الأقصى .. ولم أقل شيئاً لقائد جيش اليرموك ولم أردد الحكمة التى تقول «إن الله لا يساعد إلا أولئك الذين يساعدون أنفسهم».

لكن .. الأهم من هذه الأسرار التى تثير الدوار هو تغطية هيكل لوقائع الحرب فى فلسطين ولوقائع الصراع العربى الإسرائيلى فى لحظة «الخلق الأولى عندما وقع الانفجار وتمددت كتلته وبدأ زمانه». (٨)

لقد سافر هيكل إلى فلسطين أول مرة بعد صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين فى عام ١٩٤٧ .. وفى الشهور الأولى من عام ١٩٤٨ عاد إلى فلسطين مرة أخرى يتابع ما يجرى «وأعيش فيه بقلبى وليس بقلمى فقط .. ورأيت حيفا تسقط ورأيت يافا تحاصر وتركت حى «القمطون» فى آخر سيارة غادرت القدس إلى عمان» .. ويستطرد هيكل: «وبقيت مع حرب فلسطين حينما أعلنت رسميا بعد ذلك متنقلا بين مواقعها من بيت لحم والخليل مع قوات المتطوعين – إلى المجدل وأشدود مع مجموعة الجيش الرئيسى التى تقدمت على الطريق الساحلى – إلى قوات عراق المنشية والفالوجا على طريق شمال النقب .. ثم سافرت إلى باريس فى شهر أكتوبر ١٩٤٨ لتغطية اجتماعات مجلس الأمن الطارئة لإقرار الهدنة فى فلسطين .. وأخير وجدتنى فى فندق الزهور (أوتيل دى روز) فى رودس حيث جرى توقيع اتفاقيات الهدنة فى مطلع سنة ١٩٤٩ .. وهكذا عشت حرب فلسطين من أول يوم إلى آخر يوم». (٩)

بل أكثر من ذلك لم يتردد هيكل فى الكتابة عن المفاجآت الإنسانية فى حرب فلسطين .. كتب عن أبطال الفالوجا (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٤ بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٤٩) وكتب عن أيامهم الأخيرة تحت الحصار (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٥ بتاريخ ٢ فبراير ١٩٤٩) وكتب عن جرحاهم الذين نقلوا إلى أرض الوطن (راجع العدد نفسه) وغطى استقبالهم فى شوارع القاهرة تحت عنوان: السماء تمطر وردا وشيكولاته فى يوم الفالوجا (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٦ بتاريخ ٩ فبراير ١٩٤٩) ونشر قصة الطيار عمر شكيب الطيار المصرى الذى عاد إلى الحياة بعد أن أصيب برصاصة فى قلبه وأعتبر فى عتاد الشهداء

(راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٧ بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٤٩) ونشر مقالا فى الذكرى السنوية الأولى لاستشهاد الفدائى أحمد عبد العزيز وصفه فيه بأنه كان شهابا لمع فى حياة بلده ومر مرورا خاطفا .. ثم مضى .. «ولقد مضى اليوم عام منذ اختفى شهاب.. ومع ذلك ما أكثر الضوء الذى تركه وراءه.. إنه مازال حتى اليوم ينير الطريق لكثيرين .. وسوف ينيره غدا .. وبعد غد .. وإلى الأبد ما بقيت فى حياة مصر مثل عليا» (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٧٤ بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٤٩).

ونشر مذكرات الأميرالاى (العميد) السيد طه أو «الضبع الأسود» قائد القوات المحاصرة فى الفالوجا .. ثم وبعد عدة شهور اختفى الضوء الذى كان مسلطا على الرجل .. بل وكان أن راجت الشائعات أنه معتقل فى الطور .. فكتب هيكل: «ضبع الفالوجا ليس معتقلاً فى الطور» .. وأكد: أنه ما من سبب أو نصف سبب يدعو إلى أعتقاله.

ولعل أهم ما فعله هيكل فى تلك الفترة المبكرة من عمر القضية الفلسطينية هو اهتمامه بنشر الدراسات والتقارير الجادة عن إسرائيل .. أو «العدو الذى حاربناه» على حد العنوان الذى نشره فى آخر ساعة فى عدد ٧٧٣ بتاريخ ١٧ أغسطس ١٩٤٧ .. وقد قال هيكل فى مقدمه التقرير «هذه لمحة سريعة عن العدو الذى حاربناه والذى قد نحاربه .. نريد أن نعرف عنه كل شىء .. من هو وكيف يعيش وكيف يفكر وماذا يقرأ .. من هذا كله نعرف كيف سيحاربنا وأهم منه .. كيف نستعد له حتى نلقاه؟».

وبعد أسابيع نشر هيكل تقريرا آخر عن إسرائيل كان مزودا بالوثائق والرسوم التوضيحية والإحصائيات .. واهتم بإبراز إن عدد سكان إسرائيل كان وقت إعلان الدولة حوالى ٧٥٠ ألف نسمة .. وأن الجيش ارتفع عدده من ١٢ ألف جندى إلى ١٢٠ ألفا خلال ٦ شهور بعد قيام الدولة .. ومن بين السكان يعيش ٣٥ ألفا فى أكشاك خشبية مؤقتة ويعيش ٨٠ ألفا فى خيام و٧٠ ألفا يعيشون فى قرى عربية و٢٠٠ ألفا يسكنون بمعدل خمسة أفراد فى كل غرفة و٧٥ ألفا يعيشون فى المستوطنات .. وقد تغيرت الصورة فيما بعد .. وكان هيكل حريصا على متابعة ذلك .. وكان أهم مشاريعه فى مؤسسة الأهرام هو إنشاء مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية وهو المركز الذى تأسس تحت شعار معرفة العدو على أثر هزيمة يونيو ١٩٦٧.

لقد كانت فلسطين هى «القصة الرئيسية» فى شباب هيكل وظلت كذلك .. «فيما وراء الصبا والشباب» .. ولعلها السبب الرئيسى وراء استمراره رغم تغير الظروف والنظم.. ولم يتابع هيكل القصة الرئيسية فقط .. وإنما تابع عواقبها وتداعياتها التى توالت فى صور اغتيالات وانقلابات.

لقد سارع بتغطية انقلاب حسنى الزعيم الذى أطاح بشكرى القوتلى .. ثم سارع بتغطية انقلاب سامى الحناوى الذى أطاح بحسنى الزعيم وانتهى بإعدامه .. وقيل أن حسنى الزعيم كان شجاعا وهو يتلقى رصاصات إعدامه .. وقيل أن سر شجاعته هو أنه كان غارقاً فى الخمر .. وبعد ٣ ساعات من الانقلاب الأخير قابل هيكل أرملة حسنى الزعيم التقط لها محمد يوسف صورا حزينة مع شقيقتها .. ونشرت آخر ساعة الصور فى صدر العدد ٧٧٤ المنشور فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٩ .. وفى الأسبوع التالى كتب هيكل عن متابعة مع الرقابة السورية فى تلك الظروف العصيبة فقال:

«كانت الرقابة العسكرية فى سوريا أكثر صرامه من شوارب وزير المعارف المصرى .. كان من المستحيل إذ عرضت على الرقيب رسالة من ألف كلمة أن يترك لك منها غير عشر كلمات .. معظمها من حروف الجر والإضافة وعلامات التعجب والاستفهام .. ثم اكتشفت وسيلة لتهريب الرسائل .. هى إرسالها عن طريق بيروت.. وفى اليوم التالى من أيام الانقلاب كانت هناك رسالة لا يمكن أن يجيزها الرقيب .. وأخذها أحد الزملاء فعبر بها الحدود إلى بيروت ومن هناك أبلغها باللاسلكى إلى القاهرة .. وبعد نصف ساعة كنت واقفا أمام رجال المكتب الثانى أحاسب حساب الملكين .. وقلت ببساطة: هذه رسالة زميلى وليست رسالتى.. وما ذنبى أنا إذا كان هو أرسل مثل هذه الرسالة ومن بيروت .. وأنا فى دمشق .. وخرجت من المكتب الثانى وقبل أن أغادر الباب كان هناك أمر بحجز زميلى إذا عاد مرة ثانية إلى أراضى سوريا .. وكنت أعلم أنه سيعود .. وانتظرته بالليل أنذره بالخطر ليعود عبر الحدود إلى لبنان .. وكانت قصة ليس هذا وقتها على أى حال..

«وفى الصباح فوجئت بأحد رجال المكتب الثانى يقول: شرف .. معى .. قلت: على عينى ورأسى .. وشرفت .. وكانت هناك قائمة طويلة مليئة بالأسئلة وكانت إجاباتى كلها مقتبسة من قصيدة الشاعر إيليا أبو ماضى التى عنوانها «لست أدرى».. ووسط هذا كله .. كان على الباحثين عن الحقيقة أن يبحثوا عن المتاعب».

لقد بدأ انقلاب حسنى الزعيم فى بداية عام ١٩٤٩ وبعد ٣ شهور وقع انقلاب سامى الحناوى ثم قتل سامى الحناوى فى بيروت وجاء إلى السلطة فى دمشق أديب الشيشكلى .. لكنه هو الآخر لم يستمر وهرب ليعيش على الهجوم على بلاده.

* * * *

فى ذلك الوقت كان هيكل يوصف بلقب «ساحر آخر ساعة» وقد بدأ فى كتابة أول باب أسبوعى تحت عنوان «البحث عن المتاعب» .. وإلى جانب عنوان الباب كانت عبارة «فرجينيا كاولز» الشهيرة: الصحافة هى مهنة البحث عن المتاعب» .. وهى العبارة التى يعرفها الناس ولا يعرفون صاحبها.

فى ذلك الوقت أيضاً أدت توابع حرب فلسطين - بعد الانقلابات - إلى اغتيالات .. وقتل فى القدس وهو على باب المسجد الأقصى الملك عبد الله ملك الأردن برصاصات شاب فلسطينى رفض ما جرى فى حرب عام ١٩٤٨ ورفض اتصالاته بالعدو الإسرائيلى .. وفيما بعد كشفت رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير فى مذكراتها أن الملك عبد الله كان يتنكر فى ثياب النساء قبل يلتقى بالإسرائيليين.. وقد أحتفظ حفيده الملك حسين بثوب جده وعليه آثار دمه .. وتولى الملك حسين العرش بعد الظروف المؤسفة التى أحاطت بوالده الملك طلال وأدت إلى خلعه وإدخاله مستشفى الأمراض العقلية فى استنبول.

وكشف هيكل فيما بعد أن الملك عبد الله كان له مضحك خاص يضع الملك إناء صغير فوق رأسه ثم يطلق الرصاص على هذا الإناء بينما تجلجل ضحكاته على الرعب الذى يلم بالمهرج التعس.. أما الملك حسين فقد قتل دون أن يقصد برصاصة طائشة مضحكه الخاص خالد النجارى .. إن ما جمعه هيكل من أسرار وحكايات عن الأسرة الهاشمية كان قذائف فى مدفعية جمال عبد الناصر الثقيلة ضد ما كان يوصف - فى فترة المد القومى - بالرجعية العربية.

وفى القاهرة تابع هيكل محاكمات قتلة محمود فهمى النقراشى .. لقد ذهب النقراشى ضحية التطرف الدينى .. فحرض الإخوان المسلمون شابا هو عبد المجيد أحمد حسن على إطلاق الرصاص عليه .. وخرجت الصحف تصف القاتل وشركاؤه - كما هى العادة فى مثل هذه القضايا بلا استثناء - بالإرهابيين .. وكالعادة أيضاً كان هناك متهما بإصادر فتوى تبيح القتل .. وكان المتهم هذه المرة هو الشيخ سيد سابق .. ويقول عنه هيكل وهو فى القفص: إنه شخصية غريبة حقا .. حتى فى ملامحها .. جلس فى القفص بلحيته السوداء ذات الزوايا والدوائر ونظارته الكثيفة والعمامه والكاكولة .. ثم انكب على مصحف صغير فى يده يتلو منه القرآن ويهتز مع الآيات بحماسة الأولياء الصالحين .. ومع ذلك فالمتهم عبد المجيد حسن يقرر أن ولى الله الصالح هو الذى أفتى بأن يقتل .. وهو الذى تلقى البيعة ذات ليلة فى الظلام على أن يبيع نفسه فداءاً للدعوة والجماعة .. وجاءوا بشاهد .. فإذا بالشيخ .. ولى الله .. «يثاءب فى سأم وملل .. يتثائب مرات متوالية ... وليست مرة واحدة عارضة .. وخيل إلى أن سيدة تشاهد أمامها عشرات من عارضات الأزياء يعرضن عليها آخر موضات الخريف ورأت منها الكفاية وكانت الأزياء مما لا يرضيها فدب الملل وبدأت تتثاءب .. تشبيه بعيد .. ولكن خيل لى».

* * * *

ثم امتلأت أشرعة كثيرة برياح ما بعد العاصفة فى فلسطين .. وكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى كانت الحرب فى الأرض المقدسة واحدة من العوامل المباشرة لقيامها .. ولسنا

فى حاجة للقول أن هذه الثورة كانت نقطة تحول أو نقطة انقلاب فى حياة هيكل .. بل لعلها كانت فاصلة بين مرحلتين فى حياته .. مثل كتاب من جزئين .. رغم اتصال موضوعة ووحده مؤلفه إلا أن هناك بداية ونهاية مستقلة لكل منهما.

الهوامش

(١) النشاشيبى : «قصتى مع الصحافة» - مصدر سابق - ص ٢٢٤ .

(٢) هيكل : «بين الصحافة والسياسة» - مصدر سابق - ص ٤١ .

(٣) هيكل : المصدر السابق - ص ٤١ .

(٤) مجلة آخر ساعة : عدد ٧٦٩ بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٤٩.

(٥) مجلة آخر ساعة: عدد ٦٦٧ بتاريخ ٦ يوليو ١٩٤٩.

(٦) النشاشيبى : المصدر السابق - ص ٧٤ و٧٥.

(٧) هيكل: «العروش والجيوش» - دار الشروق ديسمبر ١٩٩٨ - المقدمة.

(٨) هيكل : المصدر السابق - ملاحظة.

(٩) هيكل : المصدر السابق - ص ١٨ .

الفصل الثالث

الرهان على جمال عبد الناصر

■ ١٩ ■

أسكتوا أنتم ودعوا غيركم يتكلمون

■ كان نجاح هيكل المدوى فى صحافة أخبار اليوم مصدر تعاسة للآخرين .. كل الآخرين .. وذات يوم فى صيف ١٩٤٩ فوجئ على أمين بمظاهرة من ١١ محرراً وكاتباً يقتحمون مكتبه وهم يقولون له: «يا نحن .. يا هيكل» .. ووجد على أمين نفسه فى حيرة .. إن هيكل ـ الذى وصفه التابعى بساحر آخر ساعة ـ لا يكف عن السفر والسهر .. وتحقيقاته وتقاريره الصحفية فى الداخل والخارج مثار الانتباه ومصدراً من مصادر التوزيع .. لكن .. فى الوقت نفسه لا يستطيع على أمين أن يتجاهل كل هذا الغضب .. فكان أن طلب من الغاضبين .. الساخطين أن يقدموا له قائمة اتهامات محددة يقدر على أساسها أن يواجه هيكل وينفذ مطلبهم ويختار بينهم وبينه ..

كانت الاتهامات من عينة: إنه «غامض» .. «خطير» .. «العبان» .. لا يطيق زملائه .. متعال .. «مجرد من الإنسانية» .. «لا يرى سوى مصلحته» .. وضحك على أمين قائلاً: إن كل ما سمعه إنفعالات لا اتهامات .. أحاسيس لا وقائع .. غيرة مهنية لا جرائم قانونية .. وانفض الاجتماع لكن لم ينفض الغضب من هيكل.

إن على أمين كان مؤمناً بموهبة هيكل وبقدرته الفائقة على العمل .. لقد روى على أمين فى أحد أحاديثه: أنه فى أول اجتماع عقده هو ومصطفى أمين بعد شراء آخر ساعة أن

هيكل أبدى استعداده لعمل كل ما يؤدى إليه .. فقال له على أمين: حتى قصص الحظ مع أوراق اليانصيب .. فرد هيكل: أليست قصصاً صحفية؟ .. فأجاب على أمين: هى قصص صحفية من الدرجة الأولى .. فقال هيكل: إذن أنا معها.

ولم يتوقف نجم هيكل عن الصعود بمجرد أن ركب جواد أخبار اليوم .. وهو جواد كثيراً ما تحول إلى سيارة جيب تسافر لتحقيق حوادث مثيرة فى أطراف نائية .. وكثيراً ما تحول إلى طائرة تهبط فى أماكن التوتر خارج الحدود ..

وفى رحلات هيكل خارج الوطن كان يتلقى خطابات من صديقه الشاعر المرهف كامل الشناوى .. وهى خطابات يصفها هيكل بأنها «كانت خيطاً من الحرير يصل بينى وبين الوطن دائماً مهما كان البعد» .. وفى أحد منها كتب له كامل الشناوى: «ماذا تفعل أنت هناك؟ .. تتابع أحداث أوطان أخرى ووطنك هنا على شفا أحداث أكبر».

* * * *

وعاد هيكل إلى مصر فى خريف عام ١٩٥١ .. عاد مع الأيام التى ألغيت فيها معاهدة ١٩٣٦ .. فكان أن ترك مكتبه قبل أن يستقر عليه .. وجرى إلى منطقة القناه بحثاً عن المتاعب بعد أن اشتدت حركة المقاومة الوطنية ضد قوات الاحتلال البريطانى .. ثم طار إلى الخرطوم وقد توقع صداماً بين القوات البريطانية والقوة المصرية المرابطة هناك .. لكن شيئاً مما كان يشعر به بحاسته الصحفية لم يقع .. فعاد إلى القاهرة وهو يشعر بأنه أخطأ التقدير .. فلو كانت الحوادث سوف تتحرك «فإن حركتها سوف تكون فى القاهرة وليس بعيداً عنها».

وفى منتصف نهار ٢٦ يناير ١٩٥٢ ـ وبينما الملك فاروق يقدم ولى عهده الأمير الرضيع أحمد فؤاد إلى قادة الجيش والبوليس فى قصر عابدين ـ اتصل أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة) بهيكل يسأله: ماذا تفعل فى مكتبك والشارع المصرى يفور ويغلى؟. ونزل هيكل لوسط العاصمة لتتيح له الظروف «متابعة حريق القاهرة من اللهب إلى الرماد» .. ومن الفوضى إلى نزول الجيش فى الشوارع .. وفى تلك اللحظات الحاسمة والقلقة لم يكن من الصعب على هيكل أن يدرك أن أنقاض القاهرة قد اختلطت بأنقاض النظام الملكى الذى كان يتساقط وينهار يوماً بعد يوم.

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٢ فاجأ على أمين قراء آخر ساعة التى يتولى رئاسة تحريرها بمقال خصصه كله عن هيكل .. أنتهى بقوله: «إننى اليوم أقدم لكم استقالتى لأعود

محرراً عادياً فى آخر ساعة وأقدم لكم مع الاستقالة رئيس التحرير الجديد محمد حسنين هيكل» .. وقد تولى هيكل رئاسة تحرير آخر ساعة فى أول يوليو ١٩٥٢ .. وكان عمره حوالى ٢٩ سنة .. ولم يكن يعلم أنه بعد ٢٣ يوم فقط سيفتح له الطريق ليصبح أهم صحفى فى مصر - ثم فى العالم العربى تمهيداً للدوران فيما هو أكبر - حتى وإن بدت السحب كثيفة والرؤية غائبة .. إن رصيده الصحفى فى فلسطين أصبح رصيداً من ذهب والدبابات والمدرعات وأحذية الجيش الثقيلة تغير النظام فى مصر .. فالذين قرروا التغيير هم الذين حاربوا وهزموا فى فلسطين .. إن العبارة المفتاح فيما جرى يوم ٢٣ يوليو هى العبارة الشهيرة للشهيد أحمد عبد العزيز قائد الفدائيين المصريين فى فلسطين لضابط مدفعيته كمال الدين حسين: « إن حربنا الحقيقية هناك .. فى القاهرة» .. وكانت «تلك رؤية صادقة تكشفت لها الحقيقة فى لحظة عظيمة من لحظات الألم».

«لقد عاد كل الجنود العرب الذين كانوا يقاتلون فى فلسطين ومعهم ضمائر تتفاعل فى وجدانهم .. تحرك فى أعماقهم المسئولية عن تغيير الأوضاع .. وبعد ثلاثة شهور من انتهاء المعارك تحرك أول الجيوش العربية تحت الشعور بمسئولية التغيير فى دمشق .. لكن عوامل عديدة أخرجت محاولة التغيير عن أداء دورها التاريخى» .. ثم كان النجاح حليف الذين تحركوا تحت شعور مسئولية التغيير فى القاهرة.

«إن الذين عادوا من فلسطين هم الذين أعطوا أنفسهم لقوى الثورة الشعبية وتحركوا ليلة ٢٣ يوليو .. وتحقق لهم النجاح بتأييد الجماهير صباح ذلك اليوم الحاسم .. ثم استطاعوا بولائهم لهذه الجماهير أن يكتشفوا حقيقة دورهم».

وفيما بعد قال جمال عبد الناصر: «لم أكن واثقاً أن الثورة ستنجح ولم يكن النجاح هو كل ما أريده .. لقد كان حسبى أن نتحرك .. وحتى لو جاء الصباح فوجدنا أنفسنا جميعاً معلقين على المشانق فلقد كان يكفينى أن يقال أن هذا الجيل من شباب وطننا لم يرض أن يقف ساكناً أمام كل هذا الذى يجرى فى وطنه .. لقد كان يجب أن نفعل شيئاً .. أى شئ حتى تبقى شعلة التضحية الوطنية مرفوعة جيلاً بعد جيل».

وفيما بعد أيضاً .. كتب هيكل عن الجيش والثورة: «لو أن فناناً عظيماً خالقاً ومبدعاً أراد أن يرمز إلى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بلوحة أو تمثال لاقترحت عليه رسماً يمثل جندياً راكعاً على ركبتيه فى ولاء وإخلاص أمام الغالية الخالدة «مصر» بينما هى تعقد على رأسه إكليل زهر رمزاً للنصر ثم محبة له وتقدير».

وقد كان هيكل أول مدنى يدخل مقر قيادة الانقلاب العسكرى فور وقوعه فى ليلة ٢٣ يوليو .. وهو يعترف .. أنه فى تلك الليلة لم يكن يخطر فى باله أن الجيش فى مصر قادر على تحقيق المعجزة التى تحققت بالفعل .. ويستطرد:

«ولقد كنت واحداً من الناس الذين لا يتصورون الجيش إلا خاضعاً لسلطة شعبية مدنية عليا يتلقى منها أوامره ويخضع لتوجيهاتها .. ومع أننى ـ مثل كثيرين غيرى ـ قبل الثورة كنت أرى أن انحرافات القيادات المدنية تعفى الجيش من كل ولاء لها وتلزمه أن يتجه بولائه إلى المصدر الأصيل لكل سلطة وهو الشعب إلا أن الحيرة كانت تستبد بى وتسألنى دائماً: وكيف يستطيع الجيش متخطياً السلطات الرسمية أن يتقدم الشعب وما هى النقطة التى يمكن أن يبدأ منها واجبه وما هى الحدود التى يستطيع أن يمضى إليها .. ثم ما هو الضمان النهائى لهذه الحدود؟.

وفجر يوم ٢٣ يوليو .. «ومع أن الحماسة كانت تلهب كل شعره فى أعصابى إلا أن ومضات من القلق كانت تلسع بين وقت وآخر فرحتى بكل ما حدث .. وأذكر أننى مع أضواء الفجر الأول وقفت وحدى فى شرفة تطل على الفناء الواسع لقيادة الثورة وكان بعض الجنود الذين شاركوا فى أحداث تلك الليلة الهائلة يجلسون على الأرض بعضهم يستريح وبعضهم ينتهزها فرصة ليأكل فيها سندوتشات كانت فى جرابه طول اليوم لكنه نسيها ونسى الجوع مع الانفعالات التى عاشها ساعات متوالية خطيرة .. وكانت أفكارى فى تلك اللحظات فى ذات الصباح الحاسم تتحرك وتتداعى بسرعة مذهلة .. سألت نفسى مرة: ترى هل يعرف هؤلاء الجنود حقيقة ما قاموا به ومداه .. وآثاره؟ .. ثم قلت لنفسى: إن الذى حدث هذه الليلة كان لابد أن يحدث مهما كان الثمن .. ثم تستطرد خواطرى: لم يكن غير الجيش يستطيع القيام بمثل هذه المحاولة الجريئة من أجل تغيير الأوضاع».

«ثم أجد السؤال الخطير يفرض نفسه تلقائياً فى نهاية هذه الخواطر: لكن .. ماذا بعد ذلك؟ .. هل يحكم الجيش؟ .. هل تنتهى آمالنا الكبرى فى التغيير بإقامة نظام عسكرى يصدر الأوامر من أعلى؟ .. هل تصبح هذه المغامرة حادثة فى التاريخ استدعتها ظروف حتمية أو تصبح سابقة قابلةللتكرار وتتكرر الانقلابات مع المطامع الفردية وخيالات العظمة لدى بعض الجنرالات كما حدث فى تجارب سابقة فى بلاد غيرنا شهدت بنفسى بعضاً منها وعشت وقائعه؟».

ورغم أن هذه الأسئلة بدت سابقة لأوانها فى انقلاب لم يكن قد استقرت بعد عناصر نجاحه إلا أن تفكير هيكل فيها كان يعنى أنه قرر منذ اللحظة الأولى أن يشارك ولو بالنصيحة فى تقديم إجابات يحتاجها قادة الانقلاب الجدد الذين لم تكن لهم خبرة سياسية كافية .. كما أنهم كانوا فى حاجة لمن يساعدهم فى الإجابة على هذه الأسئلة التى سرعان ما ستفرض نفسها .. ومن ثم كان هيكل يعرف ما يفعل منذ البداية .. خاصة وأنه من الناحية الموضوعية .. كان فى مثل أعمارهم .. لكنه كان يمتاز عنهم بمعرفة الخريطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحالية .. كما أنه بالقطع كان يتمتع بسعة اطلاع وخبرة سفر ووفرة علاقات لا تتوافر فى معظمهم على الأقل يوم قاموا بحركتهم البدنية العنيفة.

* * * *

كان عدد آخر ساعة رقم ٩٢٦ جاهزاً للتوزيع صباح يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. ولم يكن فيه ما يشير للحدث الذى كان يجرى ليلاً فى مقر هيئة أركان الجيش التى استولى عليها الضباط الأحرار وأصبحت مقراً لحركتهم الجديدة .. كان غلاف المجلة كالمعتاد صورة ملونة لامرأة جميلة .. وكانت الصورة فى ذلك الأسبوع لكريمة محمود صالح الفلكى بك وكيل وزارة المالية وهى تجلس مبتسمة على كورنيش البحر فى الإسكندرية .. وكان العنوان الرئيسى والوحيد على الغلاف «مؤامرة دولية تنفذ فى القاهرة» .. ورغم أن العنوان لم يكن له علاقة بأحداث الثورة فإنه أصاب الناس الذين سمعوا أخبار الثورة وأمسكوا بآخر ساعة وقرءوا العنوان بالتباس واضح.

والمثير للدهشة .. أن العدد التالى من آخر ساعة لم يغير سياسته .. وبقى الغلاف صورة ملونة لامرأة مثيرة .. كانت هذه المرة للنجمة السينمائية جوديث براون .. وكتب تحتها «نظرات منتصرة» .. وكان العنوان الرئيسى للغلاف: «كيف احتفظ اللواء نجيب بالسر الكبير؟» .. إن ذلك الغلاف كان يعكس طبيعة الصحافة المصرية .. خاصة صحافة أخبار اليوم التى كانت تحترف الجاذبية وتصر عليها مهما كانت الأحداث التى تجرى حولها .. إن نجاح الانقلاب وتغير السلطة ورحيل الملك لم يقنع هيكل ولا طاقم تحرير آخر ساعة ولا أصحاب أخبار اليوم بالتنازل عن صورة جوديث براون ولو فى ذلك الأسبوع.

ولكن هيكل كتب فى الصفحة الثالثة من عدد ٣٠ يوليو ثلاث مقالات صغيرة تحت عنوان رئيسى للصفحة هو «أحداث الساعة» .. كانت المقالة الأولى بعنوان «لقد أصبح الحلم حقيقة .. من كان يتصور؟» .. وكانت المقالة الثانية بعنوان: «اسكتوا أنتم ودعوا

غيركم يتكلم» .. وكانت المقالة الثالثة بعنوان: «بدأ فى القاهرة وانتهى فى دوفيل .. تاج مصر أبقى من شخص فاروق» .. وبينما كانت المقالة الثالثة تقريراً ليس فيه جديد عن خروج الملك من مصر بعد تنازله عن العرش .. كانت المقالة الأولى تأيداً حماسياً واضحاً وبلا تردد للثورة .. وكانت المقالة الثانية محاكمة سريعة للسياسيين القدامى.

* * * *

ويصف هيكل ما جرى فى ليلة ٢٣ يوليو بأن الضباط الأحرار قد بدأوا تحركهم فى منتصف الليل .. وبعد ساعتين اثنتين كانوا قد حققوا ما أرادوه .. «وبعد دقائق كنت معهم» .. «ورأيت بعينى تاريخ مصر يتغير فى فجر يوم صيف».

ووسط حركة التاريخ وهى تجرى أمامه لم ينس هيكل مهنته .. أتصل بأخبار اليوم تليفونياً ليجد عامل التليفون يقول له: «مصطفى بك يبحث عنك فى الإسكندرية وفى كل مكان وهو الآن معى على الخط يتحدث مع سكرتير التحرير الأستاذ حسين فريد .. فهل تريد أن أوصلك به؟» .. ولم ينتظر رداً .. وسمع هيكل صوت مصطفى أمين الذى سارع بسؤاله: «أين أنت؟» .. وكانت إجابة هيكل: «لا يهم الآن» .. فقال مصطفى أمين: «هل تعرف أن ضباطاً فى الجيش تحركوا من ثكناتهم ونزلوا الشارع؟» .. أجاب هيكل: «إننى أعرف» .. وسأله: «كيف؟» .. فرد هيكل: «لأننى ببساطة هنا فى مقر قيادتهم» .. وحسب رواية هيكل المنشورة فإن الصمت ساد على الناحية الأخرى من الخط .. ثم تمالك مصطفى أمين نفسه وراحت الأسئلة تتسابق على الأسلاك .. فقال هيكل له: «إننى مع الأسف لا أستطيع ولا أملك أن أرد على سؤال منها .. وسأله عن رقم التليفون الذى يتكلم منه حتى يستطيع أن يتصل به مباشرة لأن الظرف بالغ الخطورة .. ثم أضاف أنه سيذهب به أيضاً إلى (نجيب) الهلالى باشا (رئيس الوزراء) الذى يهمه فى هذه اللحظة أن يسمع من هيكل.

وبذكاء هيكل الذى يحسب كل صغيرة قبل الكبيرة فى الظروف الحرجة أدرك أن «الموقف كله مما لا يسمح بأى حركة طائشة» .. فطلب من مصطفى أمين أن ينتظر .. والتفت إلى عبد الحكيم عامر وكان فى الغرفة ـ التى كانت من قبل مكتباً لمساعد اللواء حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى (سابقاً) ـ وقال له: إن مصطفى أمين معى على الخط .. حولونى إليه من سنترال أخبار اليوم وهو يطلب رقم التليفون هنا .. وهاج عبد الحكيم عامر وقال لهيكل: لا تعطيه الرقم .. ولكن كان رأى جمال عبد الناصر أن يعطيه التليفون .. وكان مبرره: «أنهم يريدون أن يعرفوا كيف نحن نفكر هنا .. لكننا من خلال أسئلتهم سوف نعرف كيف يفكرون هم هناك» .. ويعترف هيكل

بأنه أعجب بسرعة بديهة جمال عبد الناصر وقدرته على التصرف والحسم فى طرفة بصر أو ومضة زمان.

وفى فجر ذلك اليوم وصباحه الباكر اتصل مصطفى أمين بهيكل من الإسكندرية مرتين .. ثم أتصل نجيب الهلالى به من هناك مرتين أيضاً .. وقد حفر هيكل فى ذاكرته ما جرى وسجله فى أوراقه كذلك .. لقد أتيح له أن يلعب دور «الوسيط» بين رجال جدد لا يعرفهم جيداً ولكن يراهن عليهم .. وبين رجال قدامى يعرفهم جيداً وراهنوا على وجوده فى ذلك الظرف التاريخى الحرج .. إن هيكل كان على علاقة طيبة بنجيب الهلالى وكان معجباً بنزاهته فى وقت فسد فيه الجميع .. وكان مناصراً له فى شعاره ـ الذى شكل به حكومته فى مارس ١٩٥٢ ـ وهو: التطهير والتحرير .. وقد أتاح له نجيب الهلالى أن يلعب أول دور مباشر فى كواليس لعبة السياسة عندما رشح له اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية .. وكان اللواء محمد نجيب قد أصبح إسماً لامعاً بعد أن فاز فى انتخابات نادى الجيش .. ولكن ترشيحه لهذا المنصب لم يلق قبولاً من الملك.

قال نجيب الهلالى لهيكل عبر التليفون: «هيكل .. أنا أعرف أنك فى وضع صعب .. وربما كنا نحملك أكثر مما تحتمل .. ولكن بما أن الظروف قضت بأن تكون حيث أنت الآن فى هذه اللحظة فليس أمامنا ولا أمامك إلا أن نحمل مسئوليتنا .. وأنا أكلمك من أجل «البلد» وأرجو أن يكون ذلك واضحاً «للجماعة» عندك .. ثم استطرد يسأله: ماذا تريد «الجماعة» عندك .. إننى أريد منك أن تسأل من تعتقد أنه يستطيع الرد منهم .. ولن أسألك من هو؟» .. وبعد ثوان حمل هيكل رد «الجماعة» بعد أن سمعه من جمال عبد الناصر .. وهو أن ينتظر البيان الذى سيذاع بعد نصف ساعة من راديو القاهرة .. ونظر هيكل إلى ساعته لا إرادياً فوجدها تشير إلى السادسة وعشر دقائق.

■ ٢٠ ■

السكوت الذى ترقد تحته عاصفة

■ كان وجود هيكل فى مقر القيادة فى لحظات المخاض القلقة التى لم يكن قد تبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود هى فرصته الذهبية لمعرفة خريطة القوى الحقيقية للسلطة الجديدة التى استولت فى أقل من ساعتين على حكم مصر.

إن محمد نجيب .. «وجه الأب الطيب» الذى أطل على الناس فور نجاح الثورة لم يكن – رغم أهمية دوره – سوى واجهة أوفاترينة .. أما الذين كانوا يصنعون الأحداث ويحركونها فكانوا وراء الستار .. ينتظرون إشارة أو إيماءة من قائدهم قليل الكلام .. الكامن فى انتظار اللحظة المناسبة .. للانقضاض وهو جمال عبد الناصر .. لقد عرف هيكل هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى فلم يتردد فى الرهان عليها.

وربما كان هيكل هو أول من عرف أن جمال عبد الناصر هو الرجل القوى .. وربما ظل الوحيد الذى يعرف ذلك لبعض الوقت .. وكان السبب أن أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا قد اتخذوا قراراً بأن يظلوا جميعاً فى الظل وأن يترفعوا عن المظاهر ويرفضوا الأضواء والدعاية ونشر صورهم وأحاديثهم فى الصحف .. واستمر هذا الاتفاق سارياً حوالى ٣ شهور .. من ٢٣ يوليو إلى ١٣ أكتوبر ١٩٥٢.

لكن .. فى صباح يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٢ تمزق هذا الاتفاق وإنتُهك بمقال نشرته صحيفة الأخبار على الصفحة الأولى والصفحة الثالثة .. وكتبه مصطفى أمين وإن لم يوقعه .. وفيما بعد قال لى مصطفى أمين: إنه كتب المقال بإيحاء من جمال عبد الناصر نفسه .. وقد ألمح مصطفى أمين فى المقال إلى أن جمال عبد الناصر هو القائد الفعلى للثورة وأن الذين ساعدوه هم باقى ضباط القيادة .. جمال سالم وأنور السادات وعبد الحكيم عامر

وعبد اللطيف البغدادى وحسن إبراهيم وصلاح سالم وكمال الدين حسين وخالد محى الدين .. ونشر مصطفى أمين صورة كبيرة بجانب المقال فى الصفحة الأولى لجمال عبد الناصر ونشر صور الثمانية الآخرين بحجم أصغر فى الصفحة الثالثة .. ولم ينشر صورة لمحمد نجيب .. ولم يشر لباقى الضباط الذين قاموا بالثورة .. وغضب باقى الضباط الأحرار .. وتحول الغضب إلى ما هو أكبر من الاستياء .. وكان أن بدأت أزمة ضباط المدفعية .. ثم أزمة ضباط الفرسان .. وبدأت السلطة الجديدة تتصارع مع بعضها البعض .. وكان أن بقى البعض فى الحكم ودخل البعض الآخر السجن.

وقد أفرط مصطفى أمين فى وصف جمال عبد الناصر .. وقال عنه: إنه يتحدث بأعصاب حديدية صارمة .. وبوجه هادئ جامد .. «وشعره الأشيب يروى قصة كفاح سرى عجيب لم يتصوره أحد ولم يعلم به أحد».

وفى الحقيقة لم يكن مصطفى أمين أول من كتب عن جمال عبد الناصر وضباط القيادة .. لقد سبقه إلى ذلك هيكل بأكثر من ٤٧ يوماً .. فى عدد آخر ساعة رقم ٩٣١ .. بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٥٢ .. على صفحتين كاملتين .. بعنوان «من هم ضباط قيادة محمد نجيب؟ ـ الستار الحديدى الذى وضعوه حول أنفسهم» .. وحظى جمال عبد الناصر بالقطع بنصيب الأسد .. وكان ذلك هو أول ما كتبه هيكل عنه .. وإن لم يذكر اسمه صراحة .. فقد كان ضباط يوليو فى المرحلة الثورية .. الرومانسية .. وهى مرحلة كان نشر أسمائهم فيها جريمة .. وكانوا فى هذه المرحلة يشبهون أنفسهم بظواهر الطبيعة الخارقة الغامضة .. فهى موجودة .. تفعل فعلها .. وتؤدى عملها .. وتؤثر فيما حولها .. ولكن لا أحد يعلم على وجه التحديد من أين جاءت ولا إلى أين تروح؟.

كان عنوان أول مقال لهيكل عن جمال عبد الناصر: «السكون الذى ترقد تحته عاصفة» .. أما المقال نفسه فهو وثيقة هامة فى تاريخ هيكل .. لا يمكن التفريط فى عدم نشرها كاملة .. فهى بداية أهم مرحلة فى حياته وهى التى تحدد بدقة متى وكيف بدأت علاقته بجمال عبد الناصر.

قال هيكل فى المقال:

«سمعت عنه قبل أن ألقاه. كانوا يتحدثون عنه فى الفالوجا المحصورة كما يتحدثون عن الخرافات والجن العمالقة .. كان جريئاً إلى أبعد حدود الجرأة وفى الوقت نفسه كان هادئاً إلى أبعد حدود الهدوء .. وكان هذا المزيج من الجرأة والهدوء شيئاً عجيباً مثيراً ..

وكان كل زملائه يحبونه .. واشتهر بينهم بإسم تدليل (يقصد جيمى بينما كانوا يسمون عبد الحكيم روبنسون كروزو) كانوا يطلقونه عليه وينطقونه بإنفه وإعزاز حينما يتكلمون عنه وهم جالسون فى الخنادق فى خط النار ..

«وكان كثيرون فى الفالوجا يحبون الاستماع إليه فقد كان يتكلم لغة جديدة ويثير فيمن حوله مشاعر جديدة قوية .. وعندما كانت المعارك تهدأ يهرع إليه نفر من الضباط حيث يكون ثم تدور أحاديث تتجه كلها إلى الوطن البعيد حيث يفصل بينه وبينهم عدو يحاصر مواقعهم من كل ناحية .. وكان تخليص وطنهم أهم عندهم من تخليص أنفسهم من الحصار الذى كانوا فيه ..

«وعاد من الفالوجا هادئاً ساكناً وفى نفس الوقت هائجاً ثائراً .. وكتب البوليس السياسى عنه تقارير وصفته بأنه من الإخوان المسلمين واستدعاه رئيس الوزراء القائم بالحكم وقتئذ (يقصد إبراهيم عبد الهادى) لمقابلته وسأله: هل أنت من الإخوان؟ .. وكانت تهمة الالتصاق بالإخوان المسلمين فى ذلك الوقت تهمة مخيفة وكانت مفاجأة لرئيس الوزراء حين قال الضابط: نعم أنا منهم .. ودُهش رئيس الوزراء وصمت لحظة ثم قال: لقد أعجبتنى شجاعتك ولست أطلب منك تعهداً لى بأن لا تشترك فى أعمال عنيفة ..

«وحين خرج بعد إنتهاء وعرف بعض زملائه ما حدث أقبلوا عليه يسألونه: ولكنك لست منتمياً إلى جماعة الإخوان المسلمين فلماذا قلت أنك منهم؟ .. وقال هو بهدوء: لقد كان سيتصور إنى أتهرب وأجبن إذا قلت إنى لست منهم ..

«الذين اتصلوا بعمله يقولون إنه جندى محترف .. الجندية فى دمه وفى أعصابه وفى عقله .. ويستشهدون على ذلك بفترة قضاها فى كلية أركان الحرب وكان العقل المدبر للكلية .. ومن خريجى هذه الكلية جاء معظم ضباط حركة القوات المسلحة ..

«ثم التقيت به لأول مرة .. وكان اللقاء فى بيت اللواء محمد نجيب قبل أربعة أيام من حركة القوات المسلحة .. وكان يبدو أبعد بكثير مما سمعت عنه .. كان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادى اللون .. وبدا كأنه شاب عادى لولا الشيب الكثير الذى ملأ شعر رأسه .. وكنت قبل أن يدخل هو إلى بيت اللواء محمد نجيب جالساً مع اللواء نتحدث عن موضوع الساعة فى ذلك الوقت وهو حل مجلس إدارة نادى الضباط .. وحين دخل هو واصلنا الحديث فى نفس الموضوع وكان هو ساكتاً لا يتكلم ..

«وقلت له: ماذا .. هل ستتركون المسألة هذه المرة تمضى؟ .. وقال فى هدوء: ماذا نفعل؟ .. قلت: افعلوا أى شئ .. ولكن لا يمكن أن تمضى المسألة هكذا .. وقال فى بساطة: أهذا رأيك؟ .. قلت فى عصبية: وهل لك أنت رأى سواه؟ ..

«ثم التقيت به للمرة الثانية فى الساعة الرابعة من فجر ٢٣ يوليو .. كانت الحركة قد فرغت منذ أقل من دقائق .. وكانت رئاسة الجيش تعيش فى جو غريب .. حركات القوات حولها من كل ناحية .. والدبابات والسيارات المدرعة ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة .. واقترب منى فى صوت رقيق متزن يقول: ما هو رأيك .. هل يكفى هذا؟ ..

«ثم رأيته كثيراً بعد ذلك .. رأيته يلزم مكتبه سبعة أيام متواصلة .. وإذا غادره فإلى المكتب المجاور .. حيث يشهد مؤتمراً .. ورأيته يتكلم فى كل الموضوعات ويقترح حلولاً لكل المشاكل .. وبعضها بعيد عن العسكرية بُعد السماء عن الأرض .. ورأيته يجلس على ذوى القوة دون أن يحس بها فإن رأسه لم يدر ولم يركبه الغرور .. لقد كان فى هذا كله كما وصفوه أيام الفالوجا مزيجاً من الجرأة المتناهية والهدوء الوديع» .. أنتهى.

ويحدد هذا المقال الذى كُتب والحدث ساخناً متى بدأت علاقة هيكل بجمال عبد الناصر .. لقد كان اللقاء الأول فى ١٨ يوليو ١٩٥٢ .. قبل الثورة بأربعة أيام .. فى بيت محمد نجيب .. وقد كان اللقاء «مصادفة» على حد وصف هيكل عند إعادة الرواية فى عام ١٩٨٤ .. بعد ٣٢ سنة على وقوعها .. وعند إعادة الرواية قال هيكل أيضاً: إنه فى حضور عبد الحكيم عامر ومحمد نجيب دار نقاش ساخن حول ما يجرى فى البلاد ودور الجيش فيه .. «وتحمست أثناء المناقشة وقلت لجمال عبد الناصر ما معناه: أن الجيش عاجز عن رد كرامته إزاء عدوان الملك عليه .. ورد جمال عبد الناصر بالتساؤل عما يمكن أن يفعله الجيش .. أو ليست أى حركة من جانبه يمكن أن تؤدى إلى تدخل بريطانى يعيد فيه الملك فاروق تمثيل دور الخديوى توفيق ويعود فيه الجيش إلى مأساة عرابى؟ .. وتطوعت فقلت: إن الإنجليز لن يتدخلوا لأنهم لا يملكون وسائل التدخل .. وأحسست أن عبارتى رنت جرساً فى رأس جمال عبد الناصر لأنه التفت إلى وسألنى عن الأسباب التى تدعونى إلى القول بذلك .. كيف أستطيع أن أقطع على هذا النحو بأن الإنجليز لن يتدخلوا .. ورحت أشرح وجهة نظرى».(٢)

****

كان هيكل فى ذلك الوقت شاباً أنيقاً .. أعزب .. يدخن سيجاراً صغيراً أسود .. ويكتفى بأقل قدر من النوم .. أقل مما كان ينام جمال عبد الناصر .. ويتحدث الإنجليزية أفضل

مما كان يتحدثها فى ذلك الوقت جمال عبد الناصر .. وكان هيكل يتابع الصحف الأجنبية ويداوم على متابعة الكتب المنشورة فى لندن ونيويورك .. وعلى علاقة بطابور طويل من المراسلين الصحفيين القادمين من أربعة أنحاء المعمورة .. وكل ذلك جعل جمال عبد الناصر ينظر له نظرة مختلفة.

والمؤكد .. أن جمال عبد الناصر لم يكن يعرف هيكل معرفة وثيقة حتى قامت الثورة .. بل أنه لم يكن يثق فى صحافة أخبار اليوم ولا فى محرريها .. ولو أراد استغلال أخبار اليوم لصالحه فإن رأسها مصطفى أمين كان جاهزاً ومتطوعاً .. بل أن علاقة جمال عبد الناصر كانت أكثر متانة فى تلك الفترة بأحمد أبو الفتح .. بسبب علاقة النسب التى كانت تربط بين أحمد أبو الفتح وثروت عكاشة .. وقد كان أحمد أبو الفتح وراء تقديم موعد قيام الثورة بعد أن أبلغ ثروت عكاشة أن البوليس السياسى لديه قائمة بالضباط الأحرار .. وأنه على وشك أن يلتهمهم فى الغذاء قبل أن يلتهموا هم النظام فى العشاء .. ثم كانت علاقة جمال عبد الناصر أكثر متانة بإحسان عبد القدوس بعد موقفه الشجاع فى حملة الأسلحة الفاسدة .. وبعد الدور الذى لعبته روز اليوسف فى التمهيد للثورة والتحريض عليها .. فلماذا جاء هيكل منفرداً .. بلا مؤسسة صحفية يملكها .. وبلا قوة تسانده .. ليصبح الأقرب لجمال عبد الناصر .. ليصبح المدنى الوحيد الذى ينام جمال عبد الناصر على تليفون منه ويستيقظ على تليفون منه .. ويمكنه أن يزوره فى منزل منشية البكرى فى أى وقت وهو متأكد أنه سيلقى ترحيباً مهما كان الوقت متأخراً ليلاً؟.

حسب شهادة محسن عبد الخالق وقد كان واحداً من المقربين لجمال عبد الناصر ومديراً لمكتبه فى الفترة المبكرة للثورة فإن جمال عبد الناصر أعترف له بأن هيكل هو الوحيد «الذى فهمنى وفهم ما يدور فى عقلى قبل أن أترجم افكارى إلى كلمات» .. وكانت نص عبارة جمال عبد الناصر لمحسن عبد الخالق: «إن هيكل ببساطة يجلس فى رأسى».(٣)

وحسب شهادة وزير الإعلام الأسبق محمد فائق: فإنه كان فى رحلة مع جمال عبد الناصر لحضور أحد اجتماعات منظمة الوحدة الأفريقية بأديس أبابا .. «وجلسنا على العشاء وكان معنا هيكل .. وطلب منى جمال عبد الناصر بعض المعلومات لأننى كنت مسئولاً عن أفريقيا .. فقدمتها له .. فأخذها منى وقدمها لهيكل .. الذى قام وذهب إلى حجرته .. وعندما عاد كانت المعلومات قد صيغت بطريقة جذابة .. ومبهرة .. وبدت مطابقة لما يتصوره جمال عبد الناصر الذى كان هو الآخر عاشقاً للكلمة .. شاعراً أمام الأسلوب الحلو». (٤)

وقد كان كل الصحفيين فى مصر فى بداية الثورة يهتمون بأخبار محمد نجيب وتصريحاته ومقابلاته .. بينما ركز هيكل - كما يقول محسن عبد الخالق - على جمال عبد الناصر .. ولم يكن الناس قد عرفته بعد بأى صورة من الصور .. وفى تلك الفترة ألح هيكل على إجراء حوار معه .. وجرى الحوار فى بيت جمال عبد الناصر الذى قال لمحسن عبد الخالق عندما قرأ الحوار: «إن هيكل استطاع أن يقرأ حتى أفكارى التى لم أبح بها لأحد».

وفيما بعد راجت قصة تكررت على ألسنة كثيرة .. لقد لاحظ الصحفيون الذين رافقوا جمال عبد الناصر فى رحلته إلى مؤتمر باندونج أنه ينفرد كثيراً بهيكل ويدخلان فى حوار طويل .. وطالب هؤلاء جمال عبد الناصر بأن يعطيهم الأخبار كما يفعل مع هيكل .. لكن كانت المفاجأة أن جمال عبد الناصر قال لهم: «إن هيكل هو الذى يعطيه الأخبار» .. كان هيكل ينشط فى دوائر المؤتمر .. وينقل ما يجرى فيها لجمال عبد الناصر ليعطيه الفرصة للتصرف والرد والمناورة .. وأتصور أن هيكل كان هنا مثل أى صحفى يعرف أن الحصول على المعلومات يكون بالمعلومات .. فصيد سمكة كبيرة يحتاج لطعم من سمكة صغيرة .. وفى مقابل ما كان ينقله هيكل لعبد الناصر مما يجرى فى صحافة العالم وأحداثه أول بأول كان يحصل على كل وثائق الدولة أول بأول .. وهكذا .. بدا هيكل فى المنطقة الوسطى بين دور الشاهد ودور المشارك .. بين الصحافة والسياسة .. وهذه قصة أخرى.

ومنذ وقت مبكر للثورة قبل هيكل أن يلعب دوراً سياسياً يتجاوز دوره الصحفى .. ففى الوقت الذى قرر جمال عبد الناصر إيفاد أول بعثة عسكرية - يرأسها قائد الجناح على صبرى - إلى واشنطن لبحث إحتمالات عقد صفقة سلاح بين مصر والولايات المتحدة وافق جمال عبد الناصر على سفر هيكل إلى هناك ليحاول أن يستكشف ما يسبق ذلك وما يليه من إحتمالات سياسية .. وكان هيكل قد تلقى دعوة من السفير الأمريكى فى القاهرة جيفرسون كافرى لتغطية الانتخابات الأمريكية التى كانت ستجرى فى خريف ١٩٥٢ وفاز فيها الجنرال دويت إيزنهاور الذى راح يستعد لدخول البيت الأبيض فى ٢٠ يناير ١٩٥٣.

وحسب ما سجله هيكل بنفسه فإنه عاد إلى مصر متشائماً «من إمكانية حصول مصر على سلاح أمريكى» ويشهد هيكل «أن جمال عبد الناصر - من موقعه الذى لم يبرحه فى القاهرة - كان قد وصل إلى نفس القناعة وقال: «إننى قلت لبعض إخواننا هنا أننا لن نتسلم شحنات سلاح من أمريكا والشحنة الأولى التى سوف نتسلمها سوف تكون على صبرى نفسه» ..

لكن .. ضرورات السياسة لم تكن لتقنع بمشاعر التفاؤل والتشاؤم.

على أنه .. قبل أن نعرف كيف راهن هيكل على جمال عبد الناصر لابد أن نتوقف عند كتاباته الأولى التى عبر بها عن الثورة .. إن هذه الكتابات التى تصدرت صفحات آخر ساعة تحت عنوان «أحداث الساعة» .. كانت تتميز بالسرعة .. والرشاقة .. والفكرة الخاطفة .. والعنوان الملفت .. والحدة فى الرأى المنحاز للسلطة الجديدة .. والتحريض على دعمها ومساندتها والمشى فى ركابها .. وفى الصفحة الواحدة من آخر ساعة (وهى تساوى نصف صفحة جريدة) كان هيكل يكتب ما بين ٤ ـ ٦ مقالات قصيرة .. كان بعضها لا يزيد عن ١٥٠ كلمة وهو ما سهل على غالبية الناس قراءتها .. منها:

«ليست الثورة فيلماً من أفلام رعاة البقر نجلس لمشاهدته على مقعد وثير فى دار سينما مزودة بتكييف هواء لنرى البطل الشريف الوسيم يطارد زعيم العصابة اللص المكروه ثم نقف فى نهاية العرض نثنى على شجاعة البطل ونحن نتمطى فى تكاسل ثم يعزف النشيد الوطنى ثم نذهب إلى بيوتنا وننام ملء الجفون وأنتهى الأمر .. ليست الثورة هذا .. ولا هذا هو شعورها .. ولا تلك تبعاتها ولا هذه ضرائبها المقدسة .. لقد صفقنا طويلاً لضباط الجيش فى حربهم ضد الفساد ولكن أهذا هو كل دورنا؟ .. مجرد التصفيق .. ماذا فعلنا جميعاً لنقول للذين ثاروا حقيقة إننا معهم .. لنثبت لهم أننا عقدنا العزم على أن نقف معهم فى نفس الخط الذى يقفون فيه دفاعاً عن مستقبل مصر.»

من مقال: الثورة ليست فيلماً من أفلام رعاة البقر

١٣ أغسطس ١٩٥٢

«أكاد أفقد إيمانى بثورة سنة ١٩١٩ .. إن الثورة نفسها لم تعش إلا بضعة أيام بينما عاشت الثورة على الثورة أكثر من ثلاثين سنة .. إن تاريخ مصر بعد سنة ١٩١٩ هو قصة الثورة على الثورة .. إن أبطال الثورة تمردوا على المعانى التى جاهدوا من أجلها وتمردوا على القيم التى حاربوا فى سبيلها وتمردوا على الأهداف التى من أجلها سالت دماء إخوانهم فى الثورة .. لسبب غامض استحال الأبطال إلى قراصنة .. إن الذين كانوا أبطالاً وأستحالوا إلى قراصنة لا يريدون أن يفهموا أن الساعة عصيبة وأن الموقف لا يحتمل كل هذا التطاحن على بقايا ممزقة من غنائم تافهة.»

من مقال: كانوا أبطالاً فأصبحوا قراصنة

١٣ أغسطس ١٩٥٢

«إن جيل الشباب المصرى الحاضر جيل مسكين .. لقد شب ليجد الجيل الذى سبقه منهمكاً بأقصى قوته وبكل حماسة وإخلاص فى عملية هدم ليس لها مثيل .. كل رجل كان يكرس حياته لهدم رجل آخر .. وكل جماعة لا تتمنى إلا هدم جماعة أخرى .. والنتيجة أن جيل الشباب المصرى الحاضر كاد يفقد إيمانه بكل شئ حتى بنفسه .. إن آباءه لصوص وقادته خونة وأساتذته ومعلميه مرتشون فقدوا الأخلاق .. والحياء .. وبعد لقد شبعنا هدماً .. فمتى يحين دور البناء؟».

من مقال: جيل وسط الأنقاض

١٣ أغسطس ١٩٥٢

«إن الذين يجهدون أنفسهم بحمل الدستور ويجهدون عيونهم فى التدقيق بين مواده ويجهدون عقول الناس معهم فى تفسير ألفاظه يبدون اليوم فى مصر وكأنهم من عالم آخر لا يشعر بما نشعر ولا يحس بما يملأ نفوسنا من أحاسيس .. لقد حدثت فى البلد ثورة أفهموا هذا يا أيها الحالمون للدستور المدققون بين مواده المجتهدون فى تفسير ألفاظه .. إننا نريد الدستور .. هذه حقيقة خالدة ليس فيها نقاش .. فالدستور فى رأينا سور يحمى مقدسات الوطن الغالية ولكن قبل أن نحكم وضع السور علينا لأن نبنى المقدسات الغالية التى ينبغى لهذا السور أن يقوم بحمايتها.

من مقال: البناء قبل السور

٢٠ أغسطس ١٩٥٢

«بعض الذين أضنتهم الحياة داخل سجون الطغيان القديم لا يريدون أن يصدقوا أن عهداً جديداً قد بدأ .. إنهم مازالوا يتكلمون همساً ومازالوا يتصورون أن هناك من يعد عليهم الحركات والسكنات .. ومازالت فى عيونهم نظرات الرعب القديم .. ارفعوا أصواتكم وتكلموا وأطلقوا كل الحبيس فى صدوركم .. أنتم أحرار .. وافعلوا ما تريدون وانطلقوا فى الطريق الذى تشاءون فلن تعترض طريقكم جدران عالية تصدكم عن الانطلاق .. وافتحوا عيونكم وأديروها فيما حولكم .. لقد تحطمت الأسوار وانخلعت القضبان وليس فوقكم إلا السماء الصافية .. تكلموا .. تحركوا .. انظروا .. هذا عهد جديد.»

مقال: تكلموا .. تحركوا .. انظروا

١٧ سبتمبر ١٩٥٢

«يخطئ من يتصور أن الثورة هى هوجة يوم واحد تقفز فيه متحمسة مستعدة إلى مقاعد السلطان فتطرد الجالسين عليها أمواتاً وأحياء ثم تحتل مكانهم وينتهى الأمر .. لقد بدأت الثورة الحقيقة فى اعتقادى ساعة صدور قانون تحديد الملكية .. لقد بدأت وقتئذ أن هناك أمة تولد من جديد .. وبدا وقتئذ أن روح الثورة وروح التحرير ليسا ترفاً وإنما حقيقة تدب على الأرض الطيبة وتصدم العاملين فوق التربة السمراء وتقول لهم: اسمعوا .. لم تعودوا عبيداً.»

من مقال: ما هى الثورة

١٧ أغسطس ١٩٥٢

ولم يكن هيكل ليكتفى بالترويج للعهد الجديد دون أن يلسع بقلمه بعضاً مما كان يجرى .. فهو مثلاً ينتقد رئيس قوة البوليس التى تقوم بحراسة بيت رئيس الوزراء على ماهر لأنه يمنع مرور السيارات والبشر من أمام البيت .. ويستطرد هيكل: «ولقد أثار هذا التصرف دهشة كثيرين فقد تصور الناس أن الفوارق قد زالت وأن جميع المصريين أصبحوا سواء فى الحقوق والواجبات وأنه لا يمكن أن يقفل طريق عام لأن واحداً من كبار المسئولين يسكن فيه» .. ووصف هيكل مثل هذا التصرف بعقلية ما قبل ٢٦ يوليو .. تاريخ خروج الملك .. وإن كتب التاريخ فى عنوان المقال ٢٦ يناير .. خطأ.

* * * *

وبمرور الأيام تلاشت مساحة محمد نجيب فى رؤية هيكل على صفحات المجلة المصورة المؤثرة التى يرأس تحريرها .. وفى المقالات التى يكتبها .. وبدا واضحاً أن كل موهبة صناعة الضوء التى يتقنها قد أصبحت من نصيب جمال عبد الناصر رغم أن محمد نجيب قد أصبح أول رئيساً للجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٤.

لقد كثف هيكل براعته فى الدعاية السياسية والصحفية لتكون من نصيب جمال عبد الناصر بمفرده .. ولم يفقد هيكل رهانه على جمال عبد الناصر رغم الظروف الحرجة التى جرت فيما يعرف بأزمة مارس ١٩٥٤ .. لقد قدم محمد نجيب استقالته .. وترك مكتبه إلى بيته .. لكن المظاهرات الشعبية خرجت لتطالب بعودته .. ونجحت فى ذلك .. ولقد وصف هيكل هذه الأزمة بالمحنة .. ووصف محمد نجيب بقلب الثورة .. ووصف جمال عبد الناصر بعقلها .. وطالب بضرورة استمرار الحلف المقدس بينهما .. ولكن المحنة التى خرج منها محمد نجيب منتصراً كانت هدنة لجمال عبد الناصر استعداداً

لجولة جديدة حاسمة .. تصبح السلطة فيها من نصيبه كاملة .. بلا منازع .. وفي فترة الهدنة التي لم تزد عن شهور كان هيكل يتعامل مع جمال عبد الناصر على أنه الرئيس والزعيم والقائد رغم أنه كان لا يحتل سوى منصب رئيس الوزراء.

وقد كانت الدعاية لجمال عبد الناصر تصوره بما يتجاوز الحدود الضيقة للوطن بما هو أرحب وأوسع عربياً وعالمياً .. ففي عدد آخر ساعة ١٠٣٤ في ١٨ أغسطس صور لجمال عبد الناصر وهو في الأراضي في مكة يطوف بالكعبة التقطتها عدسة حسن دياب .. في صحبة تقرير يؤكد أن «شعوب الإسلام مع جمال عبد الناصر» .. ويشير إلى أن «الأراضي المقدسة تشهد أخطر الاجتماعات والمشاورات» .. وتقول: أن فكرة «الرئيس» جمال عبد الناصر بعقد المؤتمر الإسلامي الأول هناك نجحت ..

وقبل ذلك في عدد ١٠٢٤ من آخر ساعة في ٩ يونيو ١٩٥٤ نشر هيكل ترجمة للتحقيق الذي نشره بالصور الصحفي الإنجليزي ريتشارد طومسون عن بيت جمال عبد الناصر .. وفيه يقول: إنه قابل جمال عبد الناصر في بيته وليس في مكتبه وهو بيت صغير ملحق بإحدى ثكنات الجيش .. والحكومة هي التي تملك البيت ولكن الكولونيل عبد الناصر نقل إليه أثاثه القديم .. ولقد لفت نظري تقشف هذا الأثاث وهو حقيقة أثاث مريح ولكنه نموذج للتقشف .. وقد أدهشني أن جمال عبد الناصر يبدو في الطبيعة أحسن بكثير من الصور التي تنشر له .. إنه شاب في السادسة والثلاثين .. طويل .. ذو شعر مجعد غزاه الشيب من الجانبين .. وحرت في لون عينيه .. فهو مزيج من الأزرق والرمادي ولقد شعرت طول الوقت إنني مع شخصية مرحة ولكنها شخصية آمره .. ولفت نظري شئ آخر هو أن جمال عبد الناصر لم يتردد في الإجابة على أي سؤال وجهته إليه حتى الأسئلة التي ترددت أنا قبل إلقائها شعوراً بالحرج» .. ونشر مع التحقيق الصحفي صوراً لأثاث البيت .. ولأولاد عبد الناصر .. خالد ومنى فوق مائدة الطعام .. عبد الحميد يستمتع بقطعة شيكولاتة .. وعبد الحميد على حجر والده الذي كان ينظر إليه بحنان وابتسامة خفيفة ساحرة .. وصورة لهدى وهي تلعب على مرجيحة متواضعة في حديقة أكثر تواضعاً.

وقبل ذلك .. في عدد ١٠١٨ من آخر ساعة في ٢٨ إبريل ١٩٥٤ نشر هيكل ترجمة لقصة جمال عبد الناصر كما روتها مجلة لايف الأمريكية المصورة بقلم محررها جيمس بل الذي وصف جمال عبد الناصر لأول مرة «بالزعيم» ووصفه أيضاً «بالرجل الباسم الواثب المنقض الذي يمتاز بالشهامة والنخوة» .. وقال عنه: إنه ذو طبيعة متناقضة تجمع بين

الشفقة والقسوة والاندفاع والهدوء لكنه لم يعرف عنه أنه فقد أعصابه مرة واحدة .. هذا العملاق الذى يسير دائماً فى خطى متئدة حريصة حذرة أضفت عليه فى يوم من الأيام لقب الثعلب .. وأنه ليبتسم فى طلاقة وبشر وحرارة صادقة .. وتومض فى عينيه لمعات الحماسة .. وترسم على وجهه معانى الهمة الفياضة المتدفقة وتتجلى فى مجموعته كل مظاهر الزعامة بصورة مؤثرة مقرونة بالبساطة الطبيعية وعدم التكلف .. حتى أن المرء لا يملك إلا أن يتساءل: هل هذا الرجل غامض إلى أبعد حد أم هو سليم النية إلى ما لا نهاية؟ .. ونشرت المجلة صورة له وهو يرتدى «البيجامة» ويجلس مبتسماً وسط أولاده بعد أن أجرى عملية الزائدة.

لقد بدأت صورة البطل الشعبى القوى تتسرب إلى وجدان الناس .. وراحت الأسطورة تتشكل فى انتظار الفرصة لتفرض نفسها على الجميع وهم يشعرون بأنهم أخيراً قد وجدوا حاكماً منهم يحكمهم .. وينشر العدل والرحمة والمساواة .. ويعيد الكرامة الضائعة .. ويحول نهر النيل إلى نهر من العسل والحليب.

الهوامش

(١) عادل حمودة: نهاية ثورة يوليو ـ وثائق قضية المدفعية ـ الناشر مكتبة مدبولى ـ القاهرة ١٩٨٣.

(٢) هيكل: بين الصحافة والسياسة ـ مرجع سابق ـ ص ٤٩.

(٣) تعرفت على محسن عبد الخالق بواسطة الصديق عيسى سراج الدين وأنا أقوم بتحقيق وثائق قضية انقلاب المدفعية فى صيف ١٩٨٢ وجرت بيننا أحاديث كثيرة تناول بعضها علاقة هيكل وعبد الناصر.

(٤) حوار شخصى مع محمد فائق جرى فى منزلة فى ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة.

٢١

كتب «الدنيا بخير» .. ثم تزوج

■ فى خريف ١٩٥٤ تعرض جمال عبد الناصر لحادث ميدان «المنشية» بالإسكندرية .. انطلقت الرصاصات وهو يلقى خطابه الشهير وسط الجموع .. وأمام تماسكه الذى كان ملفتاً للنظر راحت الجماهير تهتف وتصرخ بحياته .. وفى تلك اللحظة أصبح جمال عبد الناصر هو المسيطر على السلطة بلا منازع .. لأول مرة منذ قيام الثورة .. وبعد أكثر من عامين من الصراعات داخل مجلس قيادة الثورة من ناحية .. وبين مجلس قيادة الثورة والقوى السياسية الأخرى من جهة أخرى .. ولم يكن من الممكن الاستهانة بهذه القوى .. فقد كانت تنظيمات الشيوعيين والإخوان المسلمين شديدة التغلغل والتأثير.

وقد أُستغل حادث المنشية دعائياً بصورة متقنة وبارعة للترويج لجمال عبد الناصر .. وفى هذه اللحظة الانقلابية بالتحديد .. لابد أن نعرف كيف عالجها هيكل .. لقد وصف جمال عبد الناصر فى البداية بالمحظوظ .. وقال: إن جمال عبد الناصر رئيس وزراء مصر الذى تعرض هذا الأسبوع لثمان رصاصات كان جنوده فى فلسطين يعتقدون أنه «محظوظ» .. و «كان جمال عبد الناصر نفسه يكاد يصدق ما يقوله جنوده .. وقد روى يروهان كوهين الضابط الإسرائيلى الذى قابله فى فلسطين أنه قال لجمال عبد الناصر وقد قابله على بضعة أمتار من الخطوط اليهودية: «ألا تخشى أن تقترب من خطوطنا إلى هذا الحد؟» .. فضحك جمال عبد الناصر وقال: «إن جنودى يعتقدون إننى محظوظ» .. وكان جمال عبد الناصر عندما كان أركان حرب الكتيبة السادسة يركب سيارته الجيب ويخرج من أحد المواقع إلى موقع آخر ماراً بقطاع مكشوف وكان رصاص المدافع الرشاشة

يلاحقه وسيارته تندفع تسابقه .. وكان هيكل يقصد بهذه القصة أن يؤكد أن شجاعة جمال عبد الناصر التى واجه بها رصاص حادث المنشية بثبات أثار دهشة العالم لم يكن جديداً عليه.

ثم بعد قصة «المحظوظ» دخل هيكل فى الجد وكتب فى افتتاحية أول عدد من آخر ساعة بعد الحادث (العدد ١٠٤٩ فى أول ديسمبر ١٩٥٤) مقاله بأكثر من عنوان: «هذه هى النقطة التى نقف فيها اليوم بالتحديد» .. «جمال عبد الناصر يتحمل المسئولية كاملة منذ هذه الدقيقة» .. «لن يقبل التاريخ عذراً .. ولن يلقى السمع إلى حجة».

****

كان الخلاف بين جمال عبد الناصر والإخوان المسلمين قد وصل إلى طريق مسدود بعد توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا .. لقد شن الإخوان أكثر الحملات السياسية والدعائية شراسة ضد جمال عبد الناصر .. وراحت المنشورات والتصريحات تهدد وتتوعد .. وتقطع وتمزق .. وراحت الصحافة الأجنبية تنشر وتشهر .. «الهضيبى (حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان) يعلن عداءه الصريح ويهدد حكومة جمال عبد الناصر بعرقلة اتفاقية الجلاء» .. «قولوا لا أو نعم هل اجتمع عبد الناصر فى شرم الشيخ برئيس الأركان الإسرائيلى وأعقب ذلك تجريد المجاهدين الفلسطينيين من السلاح وتخفيض عدد الجيش» .. «جمال عبد الناصر يدعى النبوة ويبنى سياسة مصر على علم الغيب وقراءة النجوم» .. «جمال عبد الناصر يزور تركيا لبحث إمكانية إنضمام مصر والدول العربية إلى حلف تركيا ـ باكستان» .. «مظاهرات ومعارك دامية فى مصر» .. «جمال عبد الناصر يخشى على حياته من الإخوان ويبدأ بحملة لاعتقال زعمائهم».

والحقيقة أن حملة الإخوان المسلمين على جمال عبد الناصر – والتى اتهمته بالكفر والإلحاد وإنكار يوم الحساب والتشكيك فى الآخرة – لم تتوقف عن مطاردته حياً .. وميتاً .. ولا يمكن إنكار أن هذه الحملة نجحت فى تصوير جمال عبد الناصر فى المخيلة الشعبية العامة معادياً للدين .. وقد سأل عماد أديب .. هيكل فى برنامج تليفزيونى عن قصة الحوار الذى دار بينه وبين جمال عبد الناصر والذى استخدمه البعض فى التشكيك فى رؤية جمال عبد الناصر الدينية .. فقال:

«عبد الناصر كان متديناً بطبعه وهذه القصة تؤكد أن هناك للإسف عملية تضليل

وتصيد.. وأصل الحكاية أننى كنت ضيفاً أضطرت للإقامة فى الفنادق لأن عائلتى كانت تذهب للإسكندرية وكنت أضطر للبقاء فى القاهرة لظروف عملى فى الأهرام .. كان عبد الناصر يتصل بى تليفونياً فى الهيلتون فأصف له جمال منظر النيل من روف الهيلتون وأعطيه صورة مشرقة عن الحياة فى الفنادق .. وأثناء مؤتمر القمة أخذ عبد الناصر جناحاً فى الدور (١٢) وكان كل الرؤساء موجودين وفى أحد المرات دار بيننا حواراً كان حاضراً فيه أنور السادات وحسين الشافعى .. والذى حدث بالتحديد ويكاد يكون بالنص أن عبد الناصر قال: «أدينا قاعدين فى الهيلتون ياسيدى.. بس رسمى» .. فقلت له: الناس بيستمتعوا وقاعدين يشربوا ويأكلوا ويعوموا فسأل: والحساب .. قلت له: الحساب يوم الحساب.. فقال: يعنى مفيش حساب.. وهذه هى القصة الحقيقية التى حرفوها وحوروها.

****

فى عام ١٩٥٣ أقترح هيكل على جمال عبد الناصر أن يكتب مذكراته عن حرب فلسطين .. واستجاب جمال عبد الناصر وسود بالفعل خمس مقالات نشرت باسمه .. وفى العام نفسه نجح هيكل فى إقناع جمال عبد الناصر بأن يشرح أفكاره الوطنية والقومية والعربية والإسلامية فى كتاب «فلسفة الثورة».

إن الحاكم لا يصبح زعيماً إلا إذا جاء وبيمينه كتاب .. هتلر ولينين وماوتسى تونج .. مثلاً .. وقبلهم الأنبياء الذين سادت رسالاتهم السماوية هم الذين نزلت عليهم كتب مقدسة .. بينما لا يذكر الناس أسماء مئات الأنبياء .. جاءوا وتلقوا التكليف وبشروا .. ثم تعرضوا للاضطهاد واختفوا .. إن الكتب تحفظ الأنبياء والزعماء .. والكتب توحى بالحكمة والرؤية والمعرفة .. وترفع أصحابها إلى مرتبة الفلاسفة والمفكرين.

وقد كان جمال عبد الناصر فى حاجة لهذا الكتاب حتى لا يبدو مجرد «كولونيل» مغامر مثل كولونيلات وجنرالات جمهوريات «الموز» فى أمريكا اللاتينية .. حيث كان يستولى على السلطة من يستيقظ مبكراً .. وحيث كانت الانقلابات تحدث لأسباب لا معنى لها .. قد يكون من بينها الاضطرابات العائلية والمعوية .. كان جمال عبد الناصر فى حاجة لتقديم نفسه بصورة مختلفة .. خاصة وأنها المرة الأولى التى يمارس ضباط الجيش السياسة والسلطة .. وما هو سائد عن ثقافتهم ومعرفتهم يتسم بالتواضع فى غالبيته .. وفى تلك الفترة بالتحديد كانت التيارات والتنظيمات السياسية اليسارية قد فرضت نفسها وآرائها وأفكارها وثقافتها على الجميع .. وكانت قادرة على توصيف وتفنيد وتشريح كل

ما يعرفه المجتمع من ظواهر وأحداث .. ولم يكن رأيها فى جمال عبد الناصر مناسباً أو لائقاً فى تلك الفترة على الأقل .. كانت تراه مجرد ضابط برجوازى جاء بانقلابه العسكرى ليعطل تفاعلات الثورة الشعبية الحقيقية ويجهضها .. أى أن ما جرى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان انقلاباً مبكراً لإجهاض الثورة التى كانت على وشك الانفجار.

إن كتاب «فلسفة الثورة» كان عملية تجميل ثقافى وفكرى وسياسى للبكباشى جمال عبد الناصر ليتحول من ضابط إلى زعيم .. وجاءت هذه العملية فى وقت لم تكن فيه مواقفه الوطنية التى صنعت زعامته وشعبيته قد كشفت عن نفسها .. ولعل اسم الكتاب يوحى بذلك .. فهى ثورة .. ولها فلسفة.

فى كتابه «الريس» يقول الصحفى الأمريكى «روبرت سان جون»: لقد اشترك هيكل وعبد الناصر فى كتابه ما أصبح يعرف باسم «فلسفة الثورة» .. لقد جاء روبرت سان جون إلى مصر فى شتاء عام ١٩٦٠ وقابل عبد الناصر وهيكل و١٠٠ شخصية مهمة أخرى وهو يستطرد: إن فلسفة الثورة كان ثمرة نقاش طويل بين هيكل وبين عبد الناصر لكنه هو الذى حرر الكتاب .. وقد أكد هيكل ذلك فيما بعد .. لقد بدأ كتاب فلسفة الثورة بثلاث مقالات نُشرت فى آخر ساعة .. ثم أعاد هيكل صياغتها لتصبح كتيباً نشرته «هيئة التحرير» .. وترجمته إحدى دور النشر الأمريكية بعنوان «تحرير مصر». (١)

وفيما بعد .. اعترف مراسل صحفى أمريكى أنه كان يناقش هيكل فى خطأ ارتكبه عبد الناصر .. فسأله هيكل: «وكيف تعرف وجهة نظر عبد الناصر فى ذلك؟» .. فقال المراسل: «إننى أعرف تفكيره معرفة تامة» .. ثم أخرج من حقيبته نسخة من كتاب «فلسفة الثورة» وراح يقلبه حتى وصل إلى فقرة كان يضع عندها علامة وبعد أن قرأها قال: «ها هى واضحة وضوحاً تاماً بكلمات عبد الناصر نفسه» .. فسأله هيكل مبتسماً: «بكلمات عبد الناصر نفسه؟» .. أجاب المراسل: «نعم فهذا هو كتاب «فلسفة الثورة» ولابد أنك قرأته؟» .. قال هيكل: «لابد أننى قرأته؟ نعم قرأته يا صديق وفى الواقع أنا الذى قمت بكتابته». (٢)

ومنذ ذلك الحين .. أصبح هيكل شيئاً فشيئاً ـ كما يقول الكاتب الفرنسى جان لاكوتور ـ «الشخص المقرب والمستشار ورجل المهمات الدقيقة والنصوص الصعبة على الكتابة والمدير المرن المرح ذو الأسلوب الأمريكى قليلاً لكنه فى الوقت نفسه مصرى جداً ونموذجى جداً فى كونه نمطاً جديداً من الرجال الأقوياء الواثقين من أنفسهم الذين يهوون الحياة المناسبة والقسوة فى العمل .. هذا النمط أفرخه النظام الجديد فى مصر». (٣)

لقد بدأ هيكل علاقته بعبد الناصر صحفياً ملتزماً .. ثم عندما قبل دور الوسيط بين عبد الناصر ونجيب الهلالى أضاف لدور الصحفى دور «المستشار» .. وتدخل فى السياسة دون أن يكون صاحب دور سياسى بالمعنى الدقيق .. ثم عندما جرى الصراع بين عبد الناصر ومحمد نجيب انحاز هيكل لعبد الناصر متجاوزاً دور الصحفى قليلاً ولاعباً دور «خبير الدعاية السياسية» كثيراً .. وقد وصل الدور الأخير إلى درجة عالية من البراعة بنشر كتاب «فلسفة الثورة» .. وعند هذه الدرجة تحولت الأدوار إلى صداقة وحوار متبادل وعلاقة متينة ستميز تاريخهما معاً .

* * * *

فى تلك الفترة كانت أخبار اليوم هى محور حياة هيكل وتحولت العلاقة بينه وبين على ومصطفى أمين إلى ما يشبه «علاقة أخوة» على حد تعبير هيكل نفسه (٤) وكانت علاقته بعلى أمين أكثر خصوصية وأكثر إنسانية .. وقد كان شاهداً على زواجه الأول من «خيرية خيرى» .. وكانت صحفية فى أخبار اليوم .. ولا جدال أن هذه العلاقة تضاعفت بعد أن أصبح هيكل قريباً من جمال عبد الناصر ومسموع الكلمة عنده .. حتى أن مصطفى وعلى أمين أدخلاه فى الوصية التى كتباها فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٣ والتى كانت ستنفذ فى حالة وفاتهما (٥) .. وطبقاً لهذه الوصية فإن هيكل سيكون واحداً من ١٠ أشخاص لهم الحق فى إدارة أخبار اليوم .. منهم محمد التابعى .. وأم كلثوم .. وكامل الشناوى .. وجلال الدين الحمامصى .. وطبقاً للوصية تنتقل ملكية أخبار اليوم إلى هذا المجلس ولا يكون للورثة الشرعيين .. الحق «فى التدخل أو ادعاء الملكية أو التصرف» .

وكما شهد هيكل على عقد زواج على أمين .. شهد على أمين على عقد زواج هيكل فى عام ١٩٥٥ .. كانت الشائعات قد رشحت أسماء فتيات بعينها للزواج من هيكل .. لكن هيكل خرج بمفاجأة خيبت كل الظنون والشائعات .. كان هيكل فى زيارة لعائلة صديقة عندما قابل هناك «رفيقة الدرب وسند الحياة» هدايت علوى تيمور بالصدفة وكانت بصحبة والدتها .. ويبدو أن ثراء عائلتها وأرستقراطيتها قد صعبا من اللقاء الأول .. فقد هاجمت والدتها جمال عبد الناصر بسبب قانون الإصلاح الزراعى .. وتحول الهجوم إلى «خناقة» .. ولكن ... فيما بعد فعل المثل الشعبى الذى يؤكد المحبة بعد العداوة سحره ومفعوله .

كانت هدايت مثل شابات ذلك الوقت مهتمة بالعمل الخيرى .. التطوعى .. وكانت نشيطة فى جمعية «الهلال الأحمر» .. وأكثر نشاطاً فى جمعية «النور والأمل» .. وهى

جمعية كانت ترعى المكفوفين تديرها السيدة استقلال راضى .. وكان لدى الجمعية ـ التى كانت مزاراً لزوجات حكام العالم ـ أهم فرقة مكفوفين موسيقية .. ويعترف هيكل بأن هدايت نجحت فى أن تنقل إليه الاهتمام بالعمل التطوعى (٦) .. كانت فى زيارة لأخبار اليوم للقيام بحملة واسعة لجمع التبرعات لهذه الجمعية عندما استقبلها هيكل فى مكتبه .. ثم قدم لها وللجمعية ما هو أكبر من كرم الضيافة .. راح يدعو معها إلى حملة التبرعات بالكتابة .. وبالاتصالات .. ويبدو أن سلطان الحب كان فى خدمة أعمال الخير .

لقد كتب فى افتتاحية مجلة آخر ساعة (العدد ١٠٤٤ بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩٥٤) مقالة بعنوان «الدنيا بخير» .. بدت لمن يعرف القصة أنها موجهة لمزيد من لفت أنظار هدايت أو لمزيد من إبهارها .. قال هيكل فى البداية: «الدنيا بخير .. أقولها بعد تجربة .. أنا الذى كنت إلى عهد قريب من هؤلاء الذين يمصمصون شفاههم فى حسرة ويهزون رؤوسهم فى تزمت ويترحمون على أيام زمان .. أيام كانت الدنيا دنيا .. والناس ناساً .. والخير يعم كل الأرجاء .. الدنيا مازالت دنيا ولم تصبح غابة موحشة والناس لم يتحولوا ـ معظمهم على الأقل ـ إلى وحوش بحر ضخمة سوداء هائجة تبتلع فى جوفها المظلم كل ما يقابلها على الموج العاصف والشر لم ينطلق حراً طليقاً من كل قيد يتخذ من الجماجم كؤوساً يحتسى منها خمور الخطيئة .. الدنيا بخير .. أقولها ـ كما قلت منذ سطور قليلة ـ بعد تجربة عشتها بعقلى وقلبى وأعصابى ..

«أما التجربة فهى قصة أسبوع النور والأمل .. لقد دخل مكتبى فى دار أخبار اليوم ذات صباح سيدتان نبيلتان (هدايت واحدة منهما) من الهلال الأحمر ومعهما الرجل الكريم الطبيب الدكتور المازنى الذى كان وكيلاً لوزارة الصحة وهو الآن يكرس جهده لمشكلة المكفوفين فى مصر .. ولم أكن فى حاجة إلى عناء كبير لكى أجد نفسى أترك مكتبى وأخرج معهم أطوف على مؤسسات رعاية العميان فى مصر وأعود بعدها إلى مكتبى وأنا أقول لنفسى «ما أقل الذى نراه حولنا» ثم أسألها بعد ذلك : كيف لا تخطر هذه المشاكل بخيالنا .. إن السياسة وحدها هى التى تبهر عيوننا القاصرة وهى التى تشد إليها تصوراتنا الظمأى فتجرى وراءها كالضائع فى الصحراء وراء السراب لا يحول عينيه عنه ولا يصل إليه أبداً ..

وبعد قليل يقول : «ووجدت نفسى جالساً مع سيدتى الهلال الأحمر والدكتور المازنى نناقش الذى يجب أن نفعله لكى ينجح أسبوع النور والأمل ويعود بأكبر من بضعة قروش

هزيلة معلولة يلقيها أصحابها بتأفف وتذمر لا يتكلفون مشقة إخفائها .. وكان هناك اقتراح أن يتبنى جمال عبد الناصر حملة النور والأمل .. وكنت فيما يتعلق بى يائساً .. وكتبنا اخيراً خطاباً إليه ولعلنا كتبناه إبراء للذمة .. وإنهاء لإلحاح الأمانى .. وكانت مفاجأة .. فقد رد جمال عبد الناصر بخطاب كان كل حرف فيه ـ فى حد ذاته ـ نوراً وأملاً .. ومع الخطاب كانت هناك خمسة جنيهات تبرعاً .. وكان نص الخطاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

« حضرات السيدات والسادة أعضاء اللجنة المشرفة على جمع التبرعات لأسبوع النور والأمل .. تحية طيبة وبعد » ..

« فإنى أرفق مع هذا الخطاب مبلغ خمسة جنيهات أرجو أن تتقبلوها من أجل أسبوع النور والأمل .. إنى أحس بالأسى يملأ قلبى وأنا أتصور حالة مائة ألف مواطن من إخواننا حرموا من نعمة البصر .. وحينما أتصور الظلام الموحش الذى شاء القدر أن يعيشوا فى دياجيره وأشعر بفداحة المسئولية التى لابد أن نتحملها نحن الذين قضت مشيئة الله أن نكون أحسن منهم حظاً .. إنى أؤمن أن أقل واجباتنا نحوهم أن نجعلهم يرون الحياة بعيوننا . بارك الله القلوب المتحمسة لهذا الهدف وبارك الله الأيدى التى سيتيح عطاؤها السخى لها فرصة النور والأمل» .

رئيس مجلس الوزراء

جمال عبد الناصر

وكان خطاب جمال عبد الناصر كفيلاً بفتح باب التبرعات على مصراعيه .. تبرع أمير الكويت بألف جنيه .. وتبرع المليونير أحمد عبود بخمسة آلاف جنيه .. أما الخبر الذى كان يستحق النشر فى الصفحة الأولى فكان خبر تبرع توفيق الحكيم بجنيه واحد .. وقررت أم كلثوم التبرع بالغناء .. وغنت أم كلثوم فى حفل جمع بين مناسبتين .. زواج هيكل وهدايت .. والحفل الخيرى للنور والأمل .. لقد أصرا على أن يتحول حفل الزفاف إلى حفل النور والأمل .. ولأنه لا يتحمل أن يجلس متخشباً لساعات يسمع فيها تخت أم كلثوم فقد ذهب هيكل إلى غرفة أم كلثوم بعد الوصلة الأولى .. وما أن رأته حتى أدركت بذكائها حالته .. وقالت له ضاحكة : أنا عارفة .. خلاص .. بدون إحراج .. كفاية عليك قوى وصلة واحدة . (٧)

ويقول هيكل: إن زوجته هى أبنة أسرة ليس لها علاقة إطلاقاً بالسياسة رغم أن كثيرين من أصدقاء العائلة كانوا من الساسة .. مثل الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) وفؤاد سراج الدين (باشا) .. ولكن فجأة بارتباطها بى وجدت نفسها فى خضم المعمعة السياسية فقررت منذ اللحظة الأولى تحديد مجالها الذى تتحرك داخله كزوجة وأم وعضو مجلس إدارة جمعية خيرية فقط .. وشب عود الأولاد قليلاً .. وكانت تسافر معى مرات .. وفى رحلة للهند شاهدت معى آثار ملوك المغول فى «فاتح بورسيكرى» ثم تصادفت بعد ذلك رحلة إلى الأندلس وهناك بهرتها الحضارة الإسلامية .. ومع مضى الوقت بدأت تظهر عليها أعراض الحنين الكامنة فى فروع عائلة تيمور وهى عشق دراسة العمارة والفن الإسلامى .. ورأت أن تأخذ هوايتها جداً وأن تدرس موضوعها علمياً وقررت أن تلتحق بكلية الآثار .. كانت قد أنهت تعليمها بالبكالوريا الفرنسية ولكن لدخول كلية الآثار كان لابد من ثانوية عامة عربية فبدأت من السنة الأولى وكان كثيرون من أصدقائنا فى دهشة وبينهم الرئيس أنور السادات الذى قال لها: «غير معقول» أن تصبحى من جديد تلميذة فى سنة أولى .. ونجحت هدايت فى مراحل التعليم الثانوى والتحقت بالجامعة ونالت شهادة التخرج بتفوق مما أتاح لها أن تصبح فى سلك التدريس الجامعى .. وأشك أن أحداً عرف أن زوجتى هى المعيدة ثم المدرسة الجامعية هدايت تيمور .. واستمرت فى منهجها فحصلت على درجة الماجستير وكان موضوع بحثها فيه «العمارة العثمانية فى مصر» .. بعدها استعدت لدرجة الدكتوراه وكان الموضوع الذى اختارته يدور حول تاريخ وخطط بولاق .. لكن مشكلتها فى أن أصدقائنا الكثيرين فتحوا أمامها كل الأبواب .. وعلى سبيل المثال فقد كان أحد أصدقائنا وهو السير دنيس هاميلتون رئيساً لمجلس أمناء المتحف البريطانى .. وهكذا فإن جميع قاعات ومكتبات ووثائق المتحف البريطانى تفتحت أمامها .. وشئ من نفس النوع حدث لها فى (متحف) اللوفر فى باريس فانكبت على البحث لتجد نفسها غارقة فى مادة تصلح لعشرين دكتوراه .. وفى النهاية قررت أنه لا جدوى من تلك الدكتوراه فهى فى حد ذاتها ليست هدفها .. بل لقد ذهبت إلى أبعد من هذا بأن استقالت من الجامعة أيضاً لأنها لم تعد تستطيع الوفاء بواجباتها الجامعية والعائلية والاجتماعية جمعاء إلى جانب اهتماماتها الثقافية .. والحقيقة أنها لم تخرج يوماً عن دورها الذى وضعته لنفسها ولا الخط الذى رأت ألا تتعداه وقد فضلت دائماً أن تتوارى عن الأضواء العامة . (٨)

وتقول له سناء البيسى: لقد ظلمتها معك .

فيقول هيكل: ربما .. قد يكون .. من حيث أنها لم تكن مستعدة لهذا النوع من الحياة .. لكنها تحملتها وتحملت آرائى المختلفة المتصادمة تماماً مع خلفيتها العائلية .. وتحملت بالتالى الدخول فى مناقشات محتدمة مع الآخرين .. أذكر مرة فى واشنطن أن دعتنا كاترين جراهام صاحبة (صحيفة) الواشنطن بوست .. دخلت هدايت فى مناقشات محتدمة مع ثلاثة من مستشارى الأمن القومى تعاقبوا على هذا المركز فى البيت الأبيض وكانت حول القضية الفلسطينية .. وخرجنا بعد العشاء وركبت إلى جوارى السيارة وفجأة لمحت دموعها وراحت تقول إنها ليست مضطرة بعد الآن لحضور أى مناقشات فى أمريكا حول القضايا العربية فأعصابها لا تحتمل شعورها بالظلم .. ولكن مسيرة الحياة جعلتها تضطر وتحضر وتسمع وتناقش .

والحقيقة أن هذه السيدة الرقيقة تتمتع بابتسامة دائمة تجمع بين المجاملة والخجل .. وهى شديدة الترحيب بضيوفها فى أى وقت وفى أى مكان .. لكنها سرعان ما تنسحب فى انتظار أن يأتى «محمد» كما تناديه .. ويبدو ذوقها الكلاسيكى واضحاً فى أثاث المكتب الذى يعمل فيه زوجها .. وبالغرفة الملحقة بالمكتب يحتفظ لها هيكل بلوحة زيتية عمرها يعود سنوات إلى الوراء .. ويبدو أنها تدير بيتها بقواعد تقليدية عريقة تحسب حساب كل شئ .. شكل فنجان القهوة .. طراز منفضة السجائر .. ألوان قماش الأثاث .. همسات الذى يقدم كوب من المياه .. ويندر أن تجد لها صورة منشورة فى أخبار المجتمع .. فهى مثل النباتات التى لا تزهر إلا فى الظل .. وهى ترى دائماً بما يصل إلى اليقين إن زوجها دائماً على حق .. إن هذه مجرد خواطر عابرة لرؤية خاطفة على سطح الأشياء .

ويؤمن هيكل أن الزواج مصير مشترك .. مصير واحد لشريكين .. «ومن ضروب المأساة أن يخبئ البعض عن زوجاتهم أوضاعهم «على حد قول هيكل الذى يستطرد: «وقد رأيت بنفسى ما يحدث للزوجة بعد رحيل مثل هؤلاء الأزواج وما تواجهه من مشاكل لا حدود لها لكى تستطيع أن تلم أطراف أشياء لا تعرف عنها شيئاً» .. ويصف هيكل فترة اعتقاله بأنها كانت فترة اختبار لمدى صلابة زوجته .. لقد كان متوقعاً الاعتقال بعدما ترك الأهرام خاصة فى الأيام التى كان فيها هجوم أنور السادات زائداً تجاهه .. ومن ثم فقد قال لزوجته: ألا تطلب من كائن من كان طلباً يخصه أو يخصها هى وأبناؤهما وألا تحادث سوى شخصين فقط هما الدكتور محمود فوزى (رئيس الوزراء الأسبق) كصديق .. هذا إذا أرادت الاستعانة بنصحه وأخذ رأيه فى تصرف ما إذا ما واجهتها مشكلة .. والشخص

الثانى ممتاز نصار المحامى .. ومن سوء الحظ أنه حين جرى اعتقال هيكل كان الدكتور محمود فوزى قد رحل عن عالمنا .. وفيما بعد لحق به ممتاز نصار .. ولا نعرف الآن ما هى الأسماء البديلة لو لا قدر الله وجرى لزوجها مكروه .

وقد زارت هدايت زوجها فى السجن مرة واحدة بعد شهرين من الاعتقال .. ويقول هيكل: «أحضر ممتاز نصار إذناً من المدعى الاشتراكى فزارتنى مع الأولاد بحضور ثلاثة من الضباط أحدهم من السجن واثنين من مباحث أمن الدولة .. فى اللحظة التى كنت أهبط فيها الزنازين على السلم الحديدى متجهاً إلى البوابة الحديدية التى تفصل بين العنابر وحجرة المأمور كانت هى والأولاد يدخلون من باب السجن فتلاقت خطانا أمام باب الحجرة لنجلس بداخلها نصف الساعة التى سمح لنا بها .. وكان استيعاب الموقف بهدوئه الظاهرى وكأننا اتفقنا عليه مسبقاً .. وتماسكت هى لتبدو مسيطرة تماماً على أعصابها رغم ما أعلمه بما يجيش به تدفق عواطفها .. لقد شاهدت إلى جانبى الكثير مما حدا بها يوماً إلى التفكير فى كتابة يوميات» . (٩)

وقد نجحت مساعى ممتاز نصار القانونية فى الحصول على تصريح بنقل المعتقل محمد حسنين هيكل لأسباب صحية إلى مستشفى «قصر العينى» .. وكان ابنه على طبيباً هناك .. فطليت حجرة أحد النواب ووضع فيها جهاز تكييف لتصبح زنزانة مؤقتة .. ولكن حادث اغتيال السادات وما ترتب عليه من عودة المعتقلين إلى الحرية جعل هذه الزنزانة الطبية البيضاء لا حاجة لها .. وكان يشغل هذه الحجرة الدكتور مصطفى أبو النصر الذى أصبح فيما بعد جراحاً مشهوراً ووكيلاً لكلية طب القاهرة .

تزوج هيكل وهدايت فى ٢٧ يناير ١٩٥٥ .. ومنذ اليوم الأول للزواج قال لها هيكل : أنها غير مطالبة بأية واجبات اجتماعية تجاه صدقاته السياسية .. وبالنسبة لجمال عبد الناصر - وطبيعته بنشأته العسكرية - لم «نجتمع على المستوى العائلى إلا فى حدود ضيقة .. وكانت صداقة معسكرات وليست صداقة صالونات .. والحقيقة أننا أصبحنا نرى قرينة جمال عبد الناصر أكثر بعد رحيله .. فقد كنا نحرص على زيارتها بطريقة منتظمة .. والحقيقة أن هذه السيدة الكريمة عاشت جزءاً من حياتها فى ظل زوجها وبعده عاشت وليست لها أمنية غير أن تلحق به فى مثواه الأخير» . (١٠)

الهوامش

(١) رشاد كامل: «هيكل بصراحة» ـ مجلة صباح الخير ـ ١٥ أكتوبر ١٩٩٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جمال الشلبى: «محمد حسنين هيكل استمرارية أم تحول» ـ مصدر سبق الإشارة إليه ـ ص ٤٣.

(٤) هيكل: «بين الصحافة والسياسية» ـ مرجع سابق ـ ص ٤٣.

(٥) المصدر السابق: ص ٤٥.

(٦) و (٧) و (٨) و (٩) و (١٠) حوار سناء البيسى مع هيكل فى مجلة نصف الدنيا ـ مصدر سبق الإشارة إليه.

■ ٢٢ ■

بداية الجراح الأهلية فى الصحافة المصرية

■ منذ الأيام الأولى للثورة وجدت الصحافة المصرية نفسها فى أكثر من مأزق .. وأحياناً وجدت نفسها فى الحبس .. لقد اتفق مصطفى وعلى أمين وهيكل على عقد اجتماع منظم فى أخبار اليوم ليبحثوا فيه الأوضاع الجديدة التى تمر بها البلاد .. وليقرروا فيه خطوط سياسة صحف ومجلات الدار .. لكن .. فجأة اعتقلت السلطة الثورية الجديدة مصطفى وعلى أمين ضمن من اعتقلتهم من حاشية القصر ورجال الملك .

وذهب هيكل إلى جمال عبد الناصر محتجاً على حد قوله .. ولكن جمال عبد الناصر طلب منه ألا ينظر للمسألة من زاوية شخصية .. وقال له : إن اعتقالهما «إجراء وقائى بعد معلومات تفيد أن مصطفى أمين أجرى اتصالاً يوم قيام الثورة مع جهة أجنبية خارج مصر وبما أن الظروف لا تحتمل أى مناورات فأنه أصدر أمر الاعتقال حتى تنجلى الحقائق» .. على حد قول هيكل فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» .

وعاد هيكل فى المساء ومعه محمد التابعي لمزيد من الرجاء والإلحاح .. وأخيراً تقرر الإفراج عنهما .. وأخذهما هيكل ومعه محمد التابعى وكامل الشناوى لمقابلة جمال عبد الناصر .. وفى تلك الجلسة أزيلت أثار كدمات أول لكمة تلقتها الصحافة من قبضة السلطة الجديدة .. لقد كانت بالفعل لكمة مهما كانت التفسيرات والمبررات .

لكن .. ما لفت الأنظار فى تلك الفترة المبكرة جداً من عمر الثورة هجوم هيكل المباغت والمفاجئ على الصحافة .. لقد طالب بعد ٢٠ يوماً فقط على الثورة بتطهير الصحافة .. وكان ذلك فى أكبر مقال نشره فى آخر ساعة (فى ١٣ أغسطس ١٩٥٢) بعد تغير نظام الحكم .. وقال:

«صاحبة الجلالة الصحافة وأفراد بلاطها السعيد يقومون هذه الأيام بدور غريب عجيب .. بعض أفراد هذا البلاط السعيد استباحوا لأنفسهم مقعد النائب العمومى وجلسوا يوجهون الاتهام ذات اليمين وذات اليسار ويحددون من الذى تعلق رقبته فى حبل المشنقة ومن الذى يكتفى بوضعه وراء القضبان .. وبعض أفراد هذا البلاط السعيد مضوا يقلدون كلاب الصيد .. تشم الأثر وتملأ خياشيمها بالروائح الطائرة فى الهواء ثم تجرى وهى تنبح عن الهاربين وتأتى بهم من مكامنهم الخفية وتنهش لحمهم وتسيل دمهم .. وبعض أفراد هذا البلاط السعيد مضوا يقلدون باباوات سان بيتر وصكوك الغفران الشهيرة التى كانوا يمنحونها للتائبين العائدين إلى حظيرة الإيمان ومضوا يقررون أن هذا برئ وهذا مجنى عليه وهذا لم يكن ذنبه إلى آخر صيغ صكوك الغفران التى كثرت هذه الأيام ..

«دعونى أشرح وجهة نظرى وأنا أحب أن أكون صريحاً إلى أبعد الحدود .. إننى أعتقد ـ وأنا واحد من أفراد البلاط السعيد لصاحبة الجلالة ـ أننا نحن ـ من أفراد هذا البلاط جميعاً ـ آخر من يحق لنا أن نصنع هذا .. آخر من يحق لهم أن يستبيحوا لأنفسهم مقعد النائب العمومى موزع الاتهام .. وآخر من يحق لهم أن يقلدوا كلاب الصيد ويبحثوا عن الفرائس .. وآخر من يحق لهم تقليد باباوات سان بيتر ومنح صكوك الغفران .. آخر من يحق لهم شئ من هذا لسبب واحد .. هو أننا فى حاجة أيضاً إلى تطهير ..

« من سوء الحظ إننا ـ بلاط صاحبة الجلالة ـ نملك قوة هائلة نحاسب بها الناس .. ولكن تمنع الناس من أن يحاسبونا .. ومن سوء الحظ أننا ـ بلاط صاحبة الجلالة ، نملك أن ننتقد الناس ولكننا لا نسمح لأحد أن ينقدنا لأننا نحن الذين نسيطر على ما يجب أن ينشر وما ينبغى ألا تراه عيون القراء ..

«إنى أقولها بصراحة ـ وأنا أعتقد أنها ستجلب لى متاعب الدنيا والآخرة .. إن بلاط صاحبة الجلالة فى حاجة إلى تطهير كبير .. لقد كان الملك السابق كارثة على مصر .. هذا صحيح .. وكان زعماء الأحزاب السياسية كارثة على مصر .. هذا صحيح .. وكان محترفو السياسة كارثة على مصر .. هذا أيضاً صحيح .. ولكننا ـ نحن بلاط صاحبة الجلالة ـ كنا كارثة أخرى .. ويجب أن نعترف أن علينا مسئولية كبرى فى كل الذى صارت إليه الأحوال .. ولقد بدأت مصر كلها تنادى بالتطهير وعلينا نحن أيضاً أن ننادى مع مصر بالتطهير .. تطهير أنفسنا قبل تطهير الآخرين ..

«إن الصحافة اليوم ليست ملك أصحاب الصحف ولا ملك المحررين .. إنما الصحافة اليوم مؤسسة عامة تؤدى دوراً بالغ الخطورة .. إنها أشبه ما تكون بعجلة القيادة للرأى العام وينبغى أن تتوافر كل الضمانات لعجلة القيادة فلا يكون بها خلل ينحرف بالمركبة

إلى اليمين حيث ينبغى أن تكون إلى اليسار .. أو ينحرف بها إلى اليسار حيث ينبغى لها أن تكون إلى اليمين .. لا يستطيع أحد أن يركب سيارة أصيبت عجلة القيادة فيها بخلل .. خصوصاً إذا كان سيقطع بها طريقاً شاقاً مليئاً بالمنحنيات والمنعرجات ..

«إنى لا أطالب بالحد من حرية الصحافة بل العكس أنا أعتقد أن الصحافة الحرة هى المعنى الوحيد للديمقراطية .. ولكن اسمعوا ما حدث فى إنجلترا .. وإنجلترا هى بلد حرية الصحافة مهما اختلفنا فى الرأى حول سياسة الإنجليز .. بعد الحرب العالمية الأخيرة ثار فى مجلس العموم لغط حول الصحف البريطانية واتجاهاتها وقرر مجلس العموم تأليف لجنة برلمانية لفحص حالة الصحافة البريطانية وتضمن هذا ما يلى:

١ ـ فحص الحالة المالية للصحف البريطانية ومن هم أصحابها ومن هم حملة الأسهم وما هى مصادر تمويلها .

٢ ـ فحص حالة الصحفيين وما هى اتجاهاتهم وما هى الآراء والتيارات التى تسيرهم فى الطريق الذى يسيرون فيه .

«حدث هذا فى إنجلترا بلد الحرية الصحفية التى لا تعرف حدود .. أما فى مصر فإن الحكومات تصرف مرتبات سرية لعدد من الصحفيين .. أما فى مصر فإن تيارات كثيرة ومصالح متشابكة معقدة ـ بل ومريبة ـ تعمل عملها فى الصحافة وليس هناك من يطالب بحساب أو بعقاب ..

وبعد فدعونى أقترح ثلاثة حلول ولتكن لنا الشجاعة فى مواجهتها :

١ ـ ينبغى إلغاء المصاريف السرية للصحافة فوراً .

٢ ـ ينبغى أن تعلن أسماء جميع الصحفيين الذين استحلوا لأنفسهم أموال المصاريف السرية فى جميع العهود .

٣ ـ ينبغى أن يقوم ديوان المحاسبة بفحص حسابات جميع الصحف المصرية لنعرف ما هى مصادر تمويلها وكيف تعيش .

هذا هو الطريق للتطهير .. تطهير أنفسنا قبل تطهير الآخرين .. وبعدها دعونا نصنع ما نريد .. نستبيح مقعد النائب العمومى .. ونقلد كلاب الصيد .. ونمنح صكوك الغفران كما كان يفعل باباوات سان بيتر» .. انتهى .

لقد كان هذا الهجوم المبكر من هيكل على الصحافة مثيراً للدهشة وملفتاً للانتباه .. ولابد أنه زرع بذور العداء بين عدد كبير من الصحفيين وأصحاب الصحف .. وهى البذور التى تفتحت أشجاراً .. ثم أنجبت الأشجار ثماراً من الغل والثأر فيما بعد .. وهى ثمار

شعر هيكل بمرارتها عندما وجد نفسه وحيداً عارياً بعيداً عن سلطته وسلطانه .. إن صراع الديناصورات الشرس الذى شاهدناه بعد خروج هيكل من الأهرام كانت جذوره عميقة ممتدة فى تربة الصحافة المصرية لحوالى ٢٢ سنة .. وقد عبر عن نفسه بكل هذا العنف الذى جرى لأن الكبت كان شديداً .. والبخار كان مكتوماً لسنوات طويلة .

وقد اعتبر الصحفيون الدعوة لتطهير الصحافة هى أول استعداء للسلطة الجديدة من داخل المهنة للتدخل فى شئونهم وتقييد حريتهم وتفتيش عقولهم رغم ما فى مقالة هيكل من إيمان ظاهر بحرية الصحافة .. ولم يمنع الغضب الذى قوبل به هيكل بعد نشر مقاله من الاستمرار في دعواه .. وكرر مطالبه فى مقالة أخرى نشرها فى آخر ساعة فى ربيع عام ١٩٥٣ بمناسبة مؤتمر الصحافة العربية الذى كان يعقد فى ذلك الوقت فى القاهرة .. ولم تمر هذه المقالة التى نشرت عنوان «حديث صريح عن الصحافة فى مصر» بسلام .. فقد قال هيكل فيها:

«إن صحافة مصر لا تستطيع أن تقول لنفسها أو للناس شيئاً والشكوك تحوم حولها والشبهات تأخذها من كل جانب .. لقد كنت أتمنى لو أن نقابة الصحفيين بدلاً من هذا الهذر والهراء الذى تضيع فيه وقتها تقدمت للمسئولين برجولة تقول : نحن نريد أن نمنح أنفسنا القوة والحرية ولن نستطيع هذا إلا إذا طهرت الصحافة وسنقول لكم بأنفسنا ما هو السبيل .. إننا نتقدم لكم بثلاثة مطالب: (١) أوقفوا المصارف السرية للصحفيين إذا كانت باقية لم تلغ .. (٢) انشروا كشوفات المصاريف السرية فى العهود الماضية حتى يعرف الناس من كان يتكلم بوحى من الضمير ومن كان يتكلم بوحى من الهوى .. (٣) ألفوا لجاناً قضائية تفحص حسابات جميع الصحف لتعرف مصادر تمويلها وما هى العوامل والاتجاهات التى قد تسيطر عليها وتدفعها إلى اليمين وإلى اليسار ..

بعد ذلك .. بعده وليس قبله اقفزوا خارج الحدود وحلقوا كما تحلق النسور القوية .. ووجهوا الدعوة إلى مؤتمر للصحافة العربية إذا أردتم أو لمؤتمر لصحافة العالم كله إذا شئتم أو حتى لمؤتمر لصحافة نيام .. نيام إذا طافت بخيالكم الفكرة» .. أنتهى .

لم يسكت الصحفيون هذه المرة .. ولم يبتلعوا ضربات ولكمات هيكل القوية .. وشعروا أن ما يقوله ظاهرة الرحمة وباطنه القسوة .. خاصة فى وقت لم تكن العلاقة بين الصحافة والثورة على ما يرام .. فى وقت كانت فيه الدبابات والسيارات العسكرية تقف بالقرب من دور الصحف مستعدة ومتحفزة .. ولم يكن الضباط الذين وجدوا السلطة فى أيديهم يؤمنون بالرأى الآخر .. ولا يقبل معظمهم الجدل والاختلاف .

بعد نشر المقال قررت نقابة الصحفيين تحويل هيكل إلى مجلس تأديب بتهمة إهانة المهنة .. وكانت فرصة لأن يرد هيكل بمقال أشد عنفاً .. نشره فى آخر ساعة فى ٢٣ إبريل عام ١٩٥٣ .. قال فيه :

«لقد وقفت نقابة الصحفيين ضدى وأحالتنى إلى مجلس تأديب ووقف الرأى العام معى فتلقيت مئات من المكالمات التليفونية والبرقيات والرسائل .. كلها تشعرنى إنى لست وحدى .. هكذا رد الفعل عند نقابة الصحفيين وهكذا كان رد الفعل عند الرأى العام .. فهل يمكن أن تكون هناك هوة أعمق من هذه وأعرض ؟ .. أريد أن أقف أمام مجلس التأديب لأكرر له ما قلته» .. وكرر هيكل بعض ما سبق أن قاله فى مقاله السابق .. واستطرد : « وسوف أروى لمجلس التأديب بعد ذلك مثلاً صغيراً .. مثلاً سمعته من أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وكان قد عاد لتوه من رحلة خارج القاهرة .. لقد قال لى وعلى تقاطيع وجهه إمتعاض وهذا تعبير مهذب لحقيقة ما كان مرتسماً على وجهه .. قال : هل تعلم ماذا اكتشفت اليوم .. لقد تبين لى أن واحداً من الصحفيين الذين كانوا معى كتب إلى جريدته وصف زيارتى لبلد معين قبل أن أدخل هذا البلد .. إنه لم يكلف نفسه مشقة الانتظار ورؤية شعور الناس والانفعال به ثم وصفه بعد ذلك وإنما جلس يرص العبارات الكبيرة التى ابتذل معانيها لأنه لم يكتبها وليدة إحساس أو تأثر » .

فيما بعد .. وجد هيكل فى حديقة نقابة الصحفيين - وهى التى كانت توصف بهايد بارك - من تعجب من نشر هذا المقال الذى يعرف فى لغة الصحافة «بالفبركة» بينما نسب لهيكل نفسه أنه أثناء تغطيته لمؤتمر للملوك والرؤساء العرب فى سوريا أنه نقل الكلمات الافتتاحية لهم فى الجلسة العلنية على أنها أحاديث أجراها معهم ونشرتها أخبار اليوم على هذا النحو .. وقد شاعت هذه القصة طويلاً .. ولم يتوقف خصوم هيكل وعلى رأسهم مصطفى أمين وموسى صبرى وناصر الدين النشاشيبى فى استخدامها فى التشهير به .. بل أن موسى صبرى فى مذكراته يقول: إن مصطفى أمين أصدر قراراً بفصل هيكل بسبب ذلك .. ولكن .. كامل الشناوى وعلى أمين توسطا لإلغاء القرار .

ويستطرد هيكل فى مقاله : «أريد أن أقف أمام مجلس التأديب لأكرر له ما قلته من مطالب كنت أتصور أن تتقدم بها نقابة الصحفيين إلى المسئولين بدلاً من أن تقدمنى أنا إلى مجلس تأديب» .. وكرر هيكل المطالب الخاصة بوقف المصاريف السرية ونشر أسماء من كانوا يتقاضونها وتشكيل لجان قضائية لفحص ذمة الصحف ..

ولا يمكن إنكار أن هيكل كان عنده الحق فيما كتب .. لكن كان الخوف أن يستخدم هذا الحق فى فرض الباطل على الصحافة .. وسحب حريتها منها .. وتحويلها من صاحبة

جلالة إلى صاحبة عصمة .. ومن ممثل إدعاء إلى متهم لا يخرج من قفص محكمة الجنايات أو محكمة الرأى العام .. وقد نشرت بالفعل قوائم المصاريف السرية التى كانت بعض الصحف وبعض الصحفيين يتقاضونها .. وكانت ضربة مؤلمة للمهنة كلها .. وأصبح الشك وعدم الثقة من نصيب كل من يعملون فيها .. كلهم .

ولم تكن قوائم المصاريف السرية هى كل عيوب وخطايا وعورات الصحافة .. لقد روى هيكل عن صحفى كان يوصل قطع الحشيش لعائلة صاحب الجريدة التى يعمل فيها .. وروى عن الكاتب الكبير الذى أنفق كل أمواله على ترف الحياة .. واضطر أن يكتب سلسلة مقالات مقابل مبالغ محددة كبيرة من المال .. ولكن .. هيكل نفسه وجد من يهاجمه لقيامه بتحرير صفحات إعلانية قبل الثورة.

لقد راح السادات يفتش عن خطأ مالى يستخدمه فى التشهير بهيكل .. لكنه لم يجد سوى حكاية الإعلانات الساذجة .. وهى ساذجة لأنها لا تقارن بمبنى الأهرام الذى بناه هيكل وتكلف حوالى ٥ ملايين جنيه إسترلينى دون هفوة مالية ولو عابرة .. دون ذرة غبار يمكن أن تعلق بذمته المالية .. وقد حدث أن كان يزور هيكل ـ أيام الحرب بينه وبين السادات ـ نجم التلفزيون الأمريكى مايكل والس فى محطة السى بى أس .. وبينما كان هيكل يودعه كعادته إلى باب المصعد قال له مايكل والس: «محمد .. هل عندك مشكلة مع الضرائب؟» .. وتعجب هيكل .. فاستطرد والس: «لقد كنت عند الرئيس السادات وقال أنه سيحاكمك بتهمة التهرب من الضرائب وسيقوم بسجنك لخمس سنوات» .. ولم يأخذ هيكل كلامه مأخذ الجد .. لكنه سرعان ما فوجئ باستدعاء أمام المستشار عدلى حسين ـ المحافظ فيما بعد ـ الذى وجه إليه ثلاث اتهامات :

(١) أنه كان يتقاضى من الأهرام ٣٠٠ جنيه شهرياً لا يدفع عنها ضرائب.

(٢) أنه كان يقتسم المكافآت التى يمنحها لبعض المحررين معهم.

(٣) أنه أخذ مبلغ ١٣ ألف جنيه من الأهرام دون وجه حق .

وبحضور محاميه ممتاز نصار ومندوبا عن مكتب عبد العزيز حجازى قال هيكل للمستشار عدلى حسين رداً على هذه الاتهامات: أن مبلغ الثلاثمائة جنيه هى مصاريف مكتبه ولم يكن يلمسها بيده وإنما كانت تتسلمها وتنفقها مديرة مكتبه نوال المحلاوى .. وكانت تنفق منها على الشاى والبن ..وغيرها من مصاريف المكتب المباشرة.

وبالنسبة للاتهام الثانى قال هيكل: إنه كان يستخدم المكافآت لتعويض المحررين الذين يتسمون بالنشاط عن مرتباتهم التى يتقاضونها مثلهم مثل غيرهم .. واسألوا على

حمدى الجمال .. وعبد الحميد سرايا .. وغيرهم .. هل كنت أقتسم المكافآت معهم أم كانوا يحصلون عليها كاملة .. اسألوهم وهم الآن على علاقة طيبة مع السلطة .. وأضاف هيكل: إن مرتبه من الأهرام كان ٥٠٠٠ جنيه سنوياً وأنه كان يتقاضى ٢٠٠٠ جنيه إسترلينى من حقوق نشر مقال بصراحة كان يدفع نصفها لصندوق تعليم أبناء العاملين فى الجامعة.

وبالنسبة للاتهام الثالث فإن هيكل تذكر فى تلك اللحظة قصته .. لقد جاء إلى القاهرة صحفى هندى كان على علاقة وطيدة بالمشير أحمد إسماعيل على وبالمخابرات العامة وقد أبدى استعداده للسفر إلى إسرائيل والتعاون معنا ولكنه رفض أن يتقاضى أموالاً من الدولة وفضل أن يأخذها من صحيفة كأنه كان يكتب لها .. وحسبت تكاليف الرحلة فكانت ١٣ ألف جنيه .. طلب السادات من هيكل أن يدفعها من الأهرام .. وطلب هيكل من الدكتور فؤاد إبراهيم العضو المنتدب أن يرسل له المبلغ .. وأرسله .. وبعد أيام سأله الدكتور فؤاد إبراهيم عن التسوية الدفترية والمحاسبية للمبلغ .. فاتصل هيكل بالرئيس السادات الذى قال له أنه سيوقع على المبلغ بصفته رئيس الاتحاد الاشتراكى مالك الصحف .. وكتب الإيصال ووقعه وأضاف إليه شكره لجريدة الأهرام على أداء هذه المهمة الوطنية التى ساهمت فى انتصار أكتوبر .. وأرسل هيكل الإيصال للدكتور فؤاد إبراهيم وطلب صورة منه كعادته .. لكن ماكينة تصوير الإدارة كانت معطلة فأخذ هيكل الأصل وأرسل صورة منه إلى الإدارة .. وعندما وجد هيكل نفسه متهماً راح يفتش عن الإيصال لكنه لم يجده .. ولكن بالصدفة ولستر الله دخلت عليه زوجته وهى تحمل آخر الملفات التى جاء بها من الأهرام وكان الإيصال فيها .. وقد قدمه إلى المحقق قائلاً : هل تعرف خط الرئيس السادات ؟ .. فنفى .. فقال له: هل تعتقد أننى يمكن أن أزور توقيعه ؟ .. فنفى .. فقدم هيكل دليل براءته .. إن كل هذه المقدمات ضرورة لنفهم لماذا صنعوا من حبة الإعلانات قبة .. فالذى حدث أنهم لم يجدوا قبة حقيقية .

* * * *

إن جذور الحرب بين هيكل وخصومه فى الصحافة قديمة وتتمتع بذاكرة قوية وهى خصومة متراكمة تزيد ولا تنقص .. وبعضها يمكن وصفه بالموضوعية .. والبعض الآخر لا يمكن تصنيفه خارج منطقة المشاعر الدفينة .

لكن .. تبقى أن الصحافة كانت قضية من القضايا التى اهتم بها هيكل وفتح عليها النيران بضراوة بعد الثورة .. بل أنه لم تردد في تقديم الاقتراحات المبكرة لتنظيمها .. إن عبارة «تنظيم الصحافة» وردت لأول مرة فى مقال لهيكل نشره فى آخر ساعة (عدد رقم

١٠١٧) فى ٢١ إبريل ١٩٥٤ .. كان عنوان المقال : «٤ اقتراحات للصحافة» .. وكانت هذه الاقتراحات هى:

الاقتراح الأول : تحديد أرباح الصحف وصاحب هذا الاقتراح هو الصحفى الإنجليزى الكبير ويكهام ستيد وهو يرى أن أكبر خطر على الصحافة هو سعيها للربح فهى فى هذا السعى تلجأ إلى الإسفاف وإثارة غرائز الجماهير والتبذل فيما تنشر من أخبار ومقالات وقصص .. ويقول ستيد: إن الصحف يجب أن تحتذى بهيئة الإذاعة البريطانية ولا تحقق ربحاً أكثر من ٨ ٪ ربحاً من رأس المال ولا يجوز أن تتجاوز هذه النسبة .. هذا هو الاقتراح الأول فهل يوافق عليه من حيث المبدأ أصحاب الصحف المصرية ؟».

الاقتراح الثانى: تشكيل مجلس مستقل يشرف على الصحافة .. وصاحب هذا الاقتراح هو مجلس العموم البريطانى .. ويحدد مجلس الصحافة المستقل حقوق الصحفيين وواجباتهم .. ويكون أعضاء هذا المجلس ممن يتصفون بالنزاهة والعدالة .. ويوكل إليهم الأشراف على الصحافة المصرية لصالح الصحافة ذاتها ولصالح الشعب كله .

الاقتراح الثالث : عهد شرف للصحفيين .. وصاحب هذا الاقتراح هو الأمم المتحدة .. وينص العهد أو الميثاق على أن يتحرى الصحفى الدقة فيما ينقله من أخبار والأمانة فى رواية كل ما يأتيه منها دون إخفاء شئ منها لمصلحة خاصة .. وينص على رعاية المصلحة القومية العامة والبعد عما يضر بهذه المصلحة من الشائعات والأراجيف .. وينص على احترام سمعة الغير والنأى عن سوء الأخبار التى تنال منهم فى حياتهم الخاصة دون أن يكون من وراء هذا منفعة عامة .

الاقتراح الرابع : إلزام الصحافة باحترام حرية الصحافة .. وصاحب هذا الاقتراح هو إيرون كانان رئيس تحرير أفضل الصحف الأمريكية «كريستيان ساينس منيتور» .. فحرية الصحافة قد تتعرض للتقلص من الصحافة نفسها .. فهناك قيود الحزبية التى تجعل من أصحاب الصحف أداة فى يد الحزب الذين يتبعونه .. وهناك قيود الإعلان .. فالمصدر الأول للصحف الكبرى هو الإعلان التجارى .. وهو ما يخضع سياسات تحرير الصحف لسطوة ومصالح كبار المعلنين .. وهناك قيود من داخل الصحف نفسها .. على رأسها الاستمرار فى الخطأ ورفض نشر التصويب والحقيقة.

ولم يؤخذ بهذه الاقتراحات .. فقد ساد بين الصحفيين اعتقاد بأنها محاولة التفاف من جانب السلطة الثورية الجديدة على حرية الصحافة .. خاصة بعد أن نشر إحسان عبد القدوس مقاله الشهير «الجمعية السرية التى تحكم مصر» أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ وترتب

عليه اعتقاله والقبض عليه ودخوله السجن .. وبعد أن خرج منه استقبله جمال عبد الناصر .. وفهم منه أن الزمن تغير .. فراح يكتب الروايات العاطفية والاجتماعية مبتعداً عن السياسة .. وفى غرفة مكتب إحسان عبد القدوس إناء الشرب الذى كان يستعمله فى السجن .. وتوتر العلاقة بين كامل الشناوى وجمال عبد الناصر بعد أن راحت التقارير السرية تذكر أن كامل الشناوى «يلسن» ويسخر من جمال عبد الناصر ويلقى عليه النكات .. ووجد كامل الشناوى نفسه أكثر فى كتابة القصائد العاطفية والدخول فى مغامرات نسائية فاشلة .. وشعر عباس العقاد بالقلق فراح يفكر فى الكتابات الدينية لقد كانت السلطة الثورية الجديدة غير قابلة للنقد ومن ثم كانت تجد فى الصحافة مشكلة ليست هينة .. وفى الوقت نفسه كان الفساد فى الصحافة هو الثغرة التى نفذت منها لتقليص حريتها بدعوى تنظيمها.

ومن جانبها حاولت السلطة الثورية الجديدة أن تخلق لها صحافة خاصة بها تعبر عنها .. فأصدرت مجلة «التحرير» وجريدة «الجمهورية» .. وقد شدت «التحرير» الناس إليها .. لكنها بعد سنوات تدهورت وأغلقت .. أما «الجمهورية» فقد صدر ترخيصها باسم جمال عبد الناصر .. وظل الفارق بين الثورة والحكومة فيها ضائعاً .. وفيما بعد صدرت مجلة «بناء الوطن» لتنضم لعائلة الثورة الصحفية .. ورغم الإمكانيات المادية التى أتيحت لها إلا أن مصيرها كان محتوماً .. الإغلاق .. فالصحافة لا تتنفس إلا فى الهواء الطلق.

الفصل الرابع

انقلاب فى بلاط صاحبة الجلالة

٢٣

صحيفة شاخت مع الأيام

■ عندما قرر جمال عبد الناصر إصدار جريدة الجمهورية كان أول من فكر فيه ليتولى مسئولية تحريرها هو هيكل .. لكن .. هيكل سارع بالاعتذار .. وكانت وجهة نظرة .. «إنه متمسك بأخبار اليوم ومتمسك بعمله فيها وبصداقته مع أصحابها» .. ثم «أن الفارق بين الثورة والحكومة ضائع .. وفى النهاية فليست هناك صحيفة ستصدر عن الثورة وإنما عن الحكومة» .. ولم يتصور هيكل نفسه «فى جريدة حكومية» .. ثم «أن الثورة لا تحتاج جرائد تعبر عنها .. فكل صحافة مصر تفعل هذا الشئ» . (١)

لكن .. تمسك هيكل بأخبار اليوم لم يستمر طويلاً .. فقد راحت الأهرام تشير إليه بما هو مغرى ومثير .

لقد جاء مؤسس الأهرام سليم تقلا من سوريا هرباً من جور السلطان عبد الحميد الذى كان يمد نفوذه المباشر من تركيا على سوريا .. وفى الوقت نفسه لم يتردد سليم تقلا فى أن يضع نفسه فى خدمة الخديوى إسماعيل الذى كان مهووساً بالدعاية وحب الظهور .. فكان أن قدم له التماساً فى ٢٧ ديسمبر ١٨٧٥ بإنشاء مطبعة الأهرام .. ووافق الخديوى إسماعيل .. وفى ٥ أغسطس ١٨٧٦ صدر العدد الأول من الأهرام الأسبوعية فى ٤ صفحات .. وابتداء من يوم الإثنين ٣ يناير ١٨٨١ أصبحت الأهرام جريدة يومية .. وفى أول أغسطس ١٩٥٧ وعلى صدر العدد رقم ٢٦٠٠٠ وُضع اسم هيكل رئيساً للتحرير .

لكن انتقال هيكل من أخبار اليوم إلى الأهرام لم يكن عملية سهلة .. لقد عرض على الشمسى باشا ـ رئيس مجلس إدارة البنك الأهلى ورئيس مجلس إدارة الأهرام ـ رئاسة

تحرير الأهرام عليه فى لقاء جرى خارج الحدود فى يونيو ١٩٥٥ .. كان هيكل فى جنيف يتابع مؤتمر أقطاب العالم الكبار الذى أنعقد فيها (وهم نيكيتا خروتشوف من الاتحاد السوفيتى ودويت أيزنهاور من الولايات المتحدة وأنتونى أيدن من بريطانيا وإدجار فو من فرنسا) وأثناء وجوده هناك قابل هيكل على الشمسى وفى فندق «دى برج» فاتحه على الشمسى فى فكرة انضمامه إلى الأهرام .. فسأله هيكل: «ماذا أفعل فى الأهرام؟» .. فكان الجواب: «تراس تحريره» .. ولكن هيكل سارع بالاعتذار وطرح له أسبابه وهما جالسان فى ردهة ذلك الفندق القديم العريق .. قال له:

«أولاً فإن رئاسة تحرير الأهرام شرف بالنسبة لأى صحفى .. ولكننى ثانياً لا أظن أن فى استطاعتى أن أترك دار أخبار اليوم التى أعتبر نفسى سعيداً فيها إلى جانب ما يربطنى بها من صداقات أعتز بها كثيراً .. ثم أننى ثالثاً أنتمى إلى مدرسة صحفية قد تختلف عن المدرسة الصحفية التقليدية للأهرام .. فلقد بنيت حياتى الصحفية على أساس العمل الأخبارى وتحركت فى ذلك مراسلاً سياسياً وحربياً وراء المتاعب فى كل قارات العالم .. وذلك كله اتجاه إلى الحركة يختلف عن ثبات الأهرام .. وكذلك - رابعاً - فإننى لا أعرف أحداً فى الأهرام وفيما مضى فلقد كنت أعرف أنطون الجميل رئيس تحريره السابق كما كنت أعرف كامل الشناوى - الذى كان ولا يزال أعز الأصدقاء وأغلاهم ولكن كامل الشناوى هو الآخر ترك الأهرام .. وأخيراً - وهذا هو السبب الخامس - فإن قارئ الأهرام لا يعرفنى ومعنى ذلك أنه يتحتم على أن أبدأ من جديد» .

وقال على الشمسى: «تستطيع أن تجد السعادة فى الأهرام كما وجدتها فى أخبار اليوم .. إن السعادة أن تنجح .. وأن تنجح رهن بما تقدمه من عمل وهذا فى يدك .. وأنت تتحدث عن ثبات الأهرام وتتحرج من أن تقول جمود الأهرام .. مع أن هذا هو رأيى فيه .. إن الأهرام يحتاج إلى الحركة وهى طابع العصر كله» .. و «هناك مسألة أخرى .. أن الأهرام يخسر مالياً وأخشى أيضاً أنه يخسر فى قرائه لأن المنافسة اشتدت عليه وأصحاب الأهرام تراودهم فكرة بيعه وتلك فى رأيى سوف تكون خسارة وطنية فمن يعرف من يشتريه وكيف يديره صحفياً وسياسياً؟» .

وانتهى حديث جنيف سنة ١٩٥٥ وأبعد هيكل الفكرة كلها من فكره .

كانت الأهرام امتحاناً مهنياً حقيقياً لهيكل .. فهى «صحيفة شاخت مع الأيام» وعجزت عن المنافسة أمام سخونة وحيوية الصحافة الشابة التى تمثلها أخبار اليوم .. ولو استطاع هيكل «تجديد دمائها» لأثبت نفسه «مستقلاً» .. إن من السهل إنجاح صحيفة جديدة .. من الصعب إعادة الحياة فى صحيفة تحتضر .. تخسر القراء والأموال .. ولا أمل فيها

سوى إغلاقها ودفنها مهما كانت الخسارة المعنوية والتاريخية فادحة .. ولا جدال أن إعادة الحياة لصحيفة وهى على فراش الموت يحتاج إلى «مسيح» صحفى .. يحى الموتى .. ويحرك المشلول .. وينطق الأخرس .

كان هيكل أمام تحدى مهنى صعب .. كيف يترك بريقاً يحظى به فى أخبار اليوم ـ التى كان الرجل الثالث فيها بعد صاحبيها ـ إلى جريدة كل ما تملكه ماض عريق ولكن «مستقبلها محفوف بالشكوك» والفشل .. ويصعب «وقف تآكل الصدأ فيها» إلا بمعجزة؟ .. ولكن .. فى الوقت نفسه كان هيكل يشعر بأن شيئاً ما «فى تركيبة أخبار اليوم الداخلية يحول دون إعادة تنظيمها على قاعدة مؤسسية قابلة للبقاء والتطور والتجدد» . (٢)

كان هيكل ممزق المشاعر بين الاستقلال المهنى المتوقع فى الأهرام والبريق المهنى المستقر فى أخبار اليوم .. وفى وسط هذه الحيرة .. عاد على الشمسى باشا يلح ويضغط .. كان ذلك فى ربيع ١٩٥٦ .. وفى هذه المرة أبدى هيكل اهتماماً أكبر للسمع .. كانا يدوران فى مجرى سباق الخيل فى نادى الجزيرة وبعد الدورة الثانية قال هيكل: «دعنى أفكر لبعض الوقت» .. وبعد أن انتهى فنجان الشاى بينهما ذهب هيكل إلى صديق يثق به هو شيخ المحامين مصطفى مرعى الذى تحمس للفكرة قبل أن يكمل هيكل عرضها .. وقال له: إنه سيكون محاميه فى التعاقد مع أصحاب الأهرام .. وبالفعل ذهب معه لعدة لقاءات مع عضو مجلس الإدارة المنتدب للأهرام وقتها ريمون شميل .. وهو ينتمى لأسرة مسيحية لبنانية شهيرة جاءت إلى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر .. وكان نقيباً لمحامى المحاكم المختلطة والمستشار القانونى الدائم لأسرة تقلا مالكة الأهرام .

وعرف هيكل فى تلك اللقاءات أن أسرة ت «تقلا» مصرة على بيع الأهرام إذا لم يقبل هيكل عرضها .. وقد جرت بالفعل مفاوضات بينها وبين دار التحرير للطباعة والنشر التى أسستها الثورة لإصدار الجمهورية .. وتوقفت الصفقة لأن أسرة تقلا طلبت ٨٠٠ ألف جنيه ثمناً للأهرام .. نصفها للأصول والمطابع والمبان .. والنصف الثانى لأسم الأهرام .. وقد وجد أنور السادات الذى كان يمثل دار التحرير ويرأس تحرير الجمهورية أن الثمن مبالغ فيه .

وتقدمت المفاوضات بين هيكل وريمون شميل ووصلت إلى درجة كتابة عقد وقعا عليه بالحروف الأولى تسجيلاً للنوايا وتمهيداً لاتفاق نهائى .. وكان ذلك فى يونيو ١٩٥٦ .. ثم طلب هيكل ترك الموضوع حتى يتحدث مع أصحاب أخبار اليوم .. ولا جدال أن هيكل شعر بقلبه يختنق عندما دخل أخبار اليوم فى ذلك اليوم وفى جيبه عقد الأهرام .. لقد قضى فى أخبار اليوم ١٠ سنوات يصفها بالخصوبة وبأنها وضعت الأساس لأى شئ

يمكن أن يصل إليه مهنياً .. وفيها عرفه الناس وقرءوا له .. وفيها جمعته علاقات إنسانية «واصلة إلى الأعماق» بنجوم الصحافة والكتابة .. خصوصاً كامل الشناوى وتوفيق الحكيم وإبراهيم عبد القادر المازنى وسلامة موسى وأحمد الصاوى محمد وبيرم التونسى .. وقبلهم على ومصطفى أمين .. وتساءل هيكل بينه وبين نفسه: «كيف أترك هذا كله وأخرج؟ كيف أترك بيتاً شاركت فى بنائه وألفت كل شئ فيه ثم أذهب إلى بيت آخر غريب عتيق يكاد يتهاوى تحت وطأة الأيام والحوادث؟» . (٣)

فى صباح يوم ٢١ مايو ١٩٥٦ ترك هيكل مكتبه وقصد مكتب على أمين وطلب منه أن يدعو مصطفى أمين للانضمام إليهما .. وما أن جاء مصطفى أمين حتى استجمع هيكل شجاعته وأفضى بلا مقدمات بما فى جوفه .. لكنه قبل أن يكمل حتى قام على أمين وأغلق باب الغرفة بالمفتاح وهو يجهش بالبكاء .. وانتقلت عدوى الدموع إلى مصطفى أمين وإلى هيكل نفسه .. وبشكل ما أنتهى المشهد العاصف بورقة كتب هيكل فيها خطاب اعتذار إلى أصحاب الأهرام .. لأنه وجد أن روابطه بأخبار اليوم أقوى من اعتبارات أخرى تصورها أثناء مناقشاته معهم .. ثم جرى عناق وقبلات .. وبعدها أخرج على أمين مفتاح باب المكتب من جيبه وفتح الباب . (٤)

«ولم تعط الأحداث فرصة لأحد لمراجعة ما جرى فى مكتب على أمين» .. كان تأميم قناة السويس فى صيف ١٩٥٦ .. ثم حرب السويس فى خريف العام نفسه .. ثم كان النصر السياسى الكبير الذى تحقق لجمال عبد الناصر .. ووصوله لنقطة الذروة فى شعبيته على كافة المستويات .. فى الداخل والخارج .

****

فى يوم ٦ إبريل ١٩٥٧ كان هيكل على موعد لفنجان شاى فى نادى الجزيرة مع على الشمسى .. وانضم لهما وهما يتمشيان فى ساعة الغروب أستاذ الاقتصاد المعروف الدكتور على الجريتلى .. وكالعادة فى مثل هذه الأحوال راح الحديث العشوائى يتشعب من السياسة إلى الصحافة .. ومرة أخرى قفزت قصة الأهرام .

كان على الشمسى قد ترك رئاسة مجلس إدارة الأهرام للسيدة رينيه تقلا أرملة جبرائيل تقلا .. وقد حاولت المستحيل للتخفيف من حدة خسائر العشر سنوات الأخيرة والتى وصلت إلى مليون ونصف المليون جنيه .. بالإضافة لتدنى توزيع الصحيفة إلى حدود ٦٨ ألف نسخة - وقد راح يتناقص كما كانوا يقولون بعدد إعلانات الوفيات فى الأهرام - ولم يكن أمام السيدة رينية تقلا سوى البيع .. ولم تكن فرصة الشراء مغرية

فمتوسط عمر العاملين فى تحرير الأهرام كان ٥١ سنة .. وكانت مطبعة الأهرام فى بولاق مصنوعة عام ١٩٢٨ .. وكان عنبر الحفر فى الأهرام يحتوى فى الغالب على معدات صنعت فى فرنسا عام ١٩٠٤ .. وكانت مبانى الأهرام ما بين سراديب تحت الأرض أو جسور معلقة فى الهواء .. تصل ما بين مبنى ومبنى ولم يقم أى منها ليكون داراً صحفية وكان أهمها وهو مقر التحرير أصله فيللا خاصة سكنها القنصل الإيطالى فى القاهرة عام ١٩٠٠ وتم استأجرها منه فى ذلك العام عندما انتقل الأهرام عقب صدوره من الإسكندرية إلى القاهرة .

قال الدكتور الجريتلى: «أنه ليس من حق أحد أن يتصرف فى الأهرام كملكية خاصة لأن الأهرام مؤسسة عريقة فى تاريخ مصر السياسى والصحفى» .. ثم أضاف: «أنه لابد للشمسى باشا أن يمارس كل نفوذه كى يحول دون انتقال ملكية الأهرام إلى مالك جديد لا يعرف كيف يحافظ عليه» . (٥)

وقال الشمسى باشا: «إنه جرب إقناع أسرة تقلا بأن الأمر يحتاج إلى تجربة أخيرة قبل أى قرار نهائى .. وفى رأيه - كما قال لهم - أن الأهرام يحتاج إلى صحفى شاب يستطيع تجديد حيويته مع الحفاظ على تقاليده» .. «ورد الدكتور الجريتلى بأن تلك فكرة صائبة .. وإذا بالشمسى باشا يقاطعه قائلاً: أنه عرض رئاسة تحرير الأهرام فعلاً على صحفى شاب ولكن هذا الشاب تردد فى اللحظة الأخيرة وأوقعه فى حرج كبير» .. ودون أى حسابات .. ولعله العقل الباطن الذى يدفع الكامن فيه على السطح وجد هيكل نفسه يقول للشمسى باشا: «إنه سوف يريحه إلى أبعد حد .. فى العام الماضى عرضوا الأهرام على واعتذرت وفى هذا العام أنا الذى أعرض نفسى على الأهرام» .. وكان من الصعب على الشمسى باشا أن يصدقه بعد ما حدث من قبل .. ولكنه استطرد: «الماء يكذب الغطاس .. وها هو بيت ريمون شميل على طرف نادى الجزيرة البحرى فلنذهب إليه الآن ونتكلم» .. وذهب هيكل والشمسى باشا إلى بيت ريمون شميل على غير موعد وكان الرجل جالساً فى صالون بيته إلى البيانو وأصابعه تجرى على المفاتيح بلحن كنسى لباخ .. وبعد أن تجاوز الرجل الدهشة جرت اتصالات وحضر آخرون وانتهى المساء بتوقيع عقد ملزم للطرفين بالشروط السابقة وأخذ هيكل نسخته وذهب إلى بيت مصطفى مرعى الذى قال لهيكل عبارة واحدة: «خير ما فعلت» . (٦)

وفى تلك الليلة - التى يصفها هيكل بأنها كانت بيضاء كثلوج الجبال - لم ينم .. لقد اتخذ قراراً مصيرياً فى حياته .. كذلك فإن عليه قبل أن يذهب ويتسلم عمله فى الأهرام أن يخبر جمال عبد الناصر وأصحاب أخبار اليوم بما فعل .

فى صباح اليوم التالى كان أمام جمال عبد الناصر فى مكتبه ببيته بمنشية البكرى .. وبدون مقدمات جرى بينهما الحوار التالى :

هيكل: إننى وقعت عقداً مع الأهرام .

ناصر: أليس غريباً أن تقبل العمل فى الأهرام وأصحابه أسرة تقلا بينما تعتذر عن العمل فى الجمهورية وأنا صاحبها ؟ .

هيكل: الأهرام له صاحب أستطيع أن أتعامل معه مهنياً .. وأما الجمهورية فلا يمكن أن يكون لديك الوقت لممارسة مسئوليات صاحبها .. وبالتالى فهى بلا صاحب .. وهذا يجعلها مهنياً معضلة شبه مستحيلة .

ناصر: سوف تتعب مع هؤلاء الناس .. ما أسمعه عنهم غير مشجع .. ولا أظنهم يتركون لك الفرصة لتفعل ما تريد .

هيكل: الحكم بينى وبينهم هو العمل نفسه .. هم يريدون نجاحاً لجريدتهم .. وهو ما أريده أيضاً .. الموقف كله يختلف إذا لاحت علامات نجاح .

ناصر: هل هناك مشاكل فى أخبار اليوم؟

هيكل: مطلقاً .. كل شئ هناك فى مجراه العادى لكننى أشعر أننى وصلت ـ مهنياً إلى آخر السلم فيما يمكن تحقيقه فى أخبار اليوم .. فى الأهرام شئ مختلف .. سلم جديد من بدايته .. والطريق طويل .. وهو فى كل الأحوال امتحان أشعر أننى متحمس لدخوله ..

ناصر: الأمر لك كما تراه .. فهو عملك ومستقبلك .. وإن كنت لا أخفى أننى مشفق عليك من عناء تجربة جديدة مع اعتقادى أنك قادر على النجاح .

وانتقلا إلى موضوع آخر . (٧)

وبقيت أمام هيكل مهمة توصيل الخبر إلى على ومصطفى أمين .. واستقر رأيه على أن يكون التوصيل كتابة حتى لا يتكرر مشهد الدموع المشحون بالانفعالات والعواطف .. وهكذا .. كتب هيكل لهما رسالة شرح فيها ما شرح .. ثم سافر إلى الإسكندرية دون أن يترك عنوانه لأحد .. وحينما عاد إلى القاهرة بعد ١٠ أيام كان الخبر قد أصبح حديث الوسط الصحفى .. وأصبح الجميع أمام أمر واقع لا يمكن الرجوع عنه مهما كانت المشاعر والروابط .

وفى يوم وصوله القاهرة التقى الثلاثة فى مكتب على أمين .. وجرى الحوار بينهم هذه المرة هادئاً .. عاقلاً .. واتفقوا فى البداية على أن الخروج لم يكن بسبب مشاكل ولا خلافات .. ويعترف هيكل بأن هذا صحيح .. ثم اتفقوا على أن الانتقال إلى الأهرام لا يعفى

هيكل من الاستمرار فى رئاسة تحرير آخر ساعة لمدة سنة على الأقل .. وهو ما سبب لهيكل مشاكل مع أصحاب الأهرام .. ويقول هيكل: أنهم كانوا على حق .. ثم اتفقوا على لقاء منظم بينهم كل أسبوع .. لا يحتاج إلى دعوة أو تأكيد .. وأن يكون على الغذاء كل ثلاثاء فى بيت مصطفى أمين .. واستمر هذا التقليد لمدة ٨ سنوات لم يمنعه خلالها إلا الشديد القوى .. ويعترف هيكل بأن غذاء كل ثلاثاء «أثبت فاعليته فقد كان دوماً فرصة منظمة تزيل أية عوائق وتحول دون تراكمات» .

وفى يوليو - شهر الحظ - ولكن فى عام ١٩٥٧ دخل هيكل الأهرام .. لتبدأ مرحلة جديدة فى حياتهما معاً .. هو والصحيفة العريقة .

* * * *

بعد شهر كامل من دراسة أوضاع الأهرام من الداخل ذهب هيكل إلى مجلس إدارته - وكان قد أصبح عضواً فيه - وهو يحمل معه أول تقرير عن المستقبل .. كان مجلس إدارته يتكون من السيدة رينيه تقلا رئيسة لمجلس الإدارة والأستاذ ريمون شميل عضواً منتدباً والأستاذ نعوم بحرى مديراً عاماً والأستاذة بشارة تقلا وفريد شقير أعضاء .. وكان أول ما فوجئ به هيكل فى الاجتماع أن لغة المناقشة فيه ولغة محاضرة الرسمية هى اللغة الفرنسية .. وكانت فرنسيته لا تزال تترك الكثير من التمنى على حد تعبيره .. وفى الاجتماع اعترض هيكل على تحميل الأهرام المصاريف الشخصية لأصحابه .. مثل لوج دائم فى الأوبرا .. والحفلات .. والولائم .. وسباق الخيل .. والتبرعات الخيرية .. وطلب ١٠ ٪ من الأرباح .. نزلت إلى ٧,٥ ٪ .. وفى نهاية العام الأول كان هناك وفرا ٢٠٠٠ جنيه .. وكان هذا المبلغ هو أول خميرة بناء مشروع المبنى الجديد .

ودخل هيكل الأهرام ومعه أربعة سبقوه إلى هناك هم على حمدى الجمال وقد أصبح مديراً للتحرير وكمال الملاخ وقد أصبح محرراً للصفحة الأخيرة وتوفيق بحرى وقد أصبح مديراً للشئون الفنية ونوال المحلاوى مديرة مكتبه .. وفى داخل الأهرام كان ممدوح طه رئيس قسم الأخبار وجورج عزيز رئيس القسم الخارجى ونجيب المستكاوى رئيس القسم الرياضى وزكريا نيل محرر الشئون العربية .. وبهذه المجموعة بدأ هيكل تجربته فى الأهرام .. وكان الطابع الذى اختاروه هو الطابع الخبرى .. «أن يكون الأهرام سباقاً بكل خبر .. وأن يكون كل خبر فى الأهرام صادقاً إلى أبعد حد .. وأن يكون عرض الخبر فى الأهرام عن طريق التحقيق الذى يعطى للخبر كل أبعاده وليس طريق «التزويق» الذى يغطى ملامح الحقيقة فى الخبر» .

من يوليو ١٩٥٧ إلى فبراير ١٩٧٤ بقى هيكل فى الأهرام حوالى ١٧ سنة رئيساً للتحرير ثم رئيساً للتحرير ورئيساً لمجلس الإدارة .. وبقدر خوف هيكل وقلقه من انتقاله إلى الأهرام بقدر ما كان نجاحه المذهل فيها .. لقد كان باعة الصحف يصفون الأهرام «بأهرام هيكل» .. وعندما بنى هيكل المبنى الجديد للأهرام فى شارع الجلاء وأنتهى منه فى يوليو ١٩٦٧ وُصف بأنه «الهرم الرابع» .. لكن .. ذلك لا يقارن بالقفزة الصحفية النوعية التى حققها هيكل للصحيفة العتيقة التى تسلمها وعمرها حوالى ١٢٥ سنة ومصابة بكل أمراض وأعراض الشيخوخة .. لكن .. الصحيفة العجوز أعطت للصحفى الشاب الذى كان عمره لا يزيد عن ٣٤ سنة شهرة بقدر ما أعطاها حيوية .. وأعطته ثقة بقدر ما أعطاها قوة .. ودعمت مستقبله بقدر ما حافظ هو على ماضيها .

لقد قفز توزيع الأهرام فى عشر سنوات من ٦٠ ألف نسخة إلى ٣٥٠ ألف نسخة يومياً .. أما العدد الأسبوعى .. عدد «الجمعة» الذى كان ينشر فيه هيكل مقاله «بصراحة» فكان يصل إلى ٧٥٠ ألف نسخة .. وهو رقم لم تصل إليه صحيفة عربية من قبل .. لكن .. كلما كان الرقم يرتفع .. كلما كان عدد «السيجار» الذى يدخنه يزيد .. وكذلك عدد أقراص الفيتامينات وأقراص «الالكاسلز» المهضمة .. وبمرور الوقت أضيفت أقراص علاج المرارة .. وكلها أقراص كان يحرص على وضعها على مكتبه بجوار حجم معين من ورق «الدشت» ـ وهو فائض الأوراق التى تطبع عليها الجرائد ـ قبل أن يغلق عليه الباب يوم الثلاثاء ـ من الثامنة صباحاً حتى الثالثة عصراً ـ ليكتب مقال «الجمعة» الشهير «بصراحة» .. دون أن يجروء أحداً على إزعاجه .. ويقال أن جمال عبد الناصر كان يعرف موعد كتابة المقال .. ولكنه كان ينسى أحياناً ويطلبه .. وعندما ترد سكرتيرته «نوال المحلاوى» كان يبادر بالاعتذار قائلاً : «أنا متأسف .. نسيت أن الأستاذ بيكتب النهارده» . (٨) وفيما بعد .. عندما أصبح هيكل يعمل فى مكتبه الخاص أضيفت أقلام الفلوماستر السوداء .. وورقة فى حجم الكف يسجل عليها مواعيد الأسبوع .. بخلاف أوراق صفراء يسهل نزعها بعد لصقها .. يستخدمها فى كتابة الملاحظات السريعة .

ويقال أيضا : أنه كان يحتفظ فى جيبه بنوته حمراء صغيرة يسجل فيها ـ وهو فى أى مكان ـ بعض الجمل والعبارات الرشيقة والجذابة التى يسمعها أو تخطر على باله . (٩) ويقال أنه قليل الشطب والحذف .. ويصر على مراجعة «بروفة» مقاله بعد أن تصفها حروف المطبعة بنفسه مرتين على الأقل .. وقد رأيته بنفسى وهو يراجع بروفة كتابه «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» .. وكان بطيئاً دقيقاً فى المراجعة .

وقد رأيت الكرسى الذى يجلس عليه فى مكتب بيته .. ويقال أنه اشتراه «جينو» لكننى لم أر المقعد الذى كان يجلس عليه فى مكتبه بالدور الرابع من المبنى الرئيسى للأهرام .. ويقال أنه كان أيضاً من تصميم «جينو» .. وقد وضع فى مخازن الأهرام بعد خروجه .. وحسب رواية سكرتيرته نوال المحلاوى فإن جمال عبد الناصر عندما دخل مكتب هيكل - وهو يفتتح المبنى الجديد للأهرام - وجد أنور السادات - الذى كان معه - يشير إلى المقعد ويقول: «شايف .. يا ريس .. محمد بيقعد على كرسى شكله إيه؟» .

ولو كان أنور السادات قد أنتبه إلى الكرسى فإن جمال عبد الناصر قد أنتبه إلى الأهرام كله .. فقد قال لهيكل مازحاً فى هذه الزيارة: «أنا عاوز أرفدك علشان أخذ مكانك فى رئاسة التحرير» . (٩)

ويروى مساعدو هيكل: أنه لم يكن من السهل أن يرى الناس هيكل .. حتى المحررين .. «كان دخوله وخروجه سراً .. يجرى سلالم مبنى الأهرام القديم فى شارع مظلوم فى وسط القاهرة ليدخل حجرته إلى شمال المبنى فى جزء منعزل تحرسه سكرتيرته .. وفى مدخل الأهرام كان يجلس رجل نوبى كبير أسمه عم صالح يسجل دخول وخروج المحررين على ساعة ميقاتية يخرج منها شريط طويل عليها اسم المحرر وساعة حضوره وانصرافه .. كل شئ كان سراً غامضاً .. رقم تليفونه .. وموعد حضوره .. ومن النادر أن كانت سيارته تقف أمام باب الأهرام» . (١٠)

وراء كل هذا الغموض كانت سكرتيرته نوال المحلاوى .. إن التاريخ الصحفى فى مصر لا يذكر - وربما لن يذكر - شخصية سكرتيرة رئيس تحرير مثل نوال المحلاوى .. لقد عملت مع هيكل منذ دخوله الأهرام وبقيت معه ١٣ سنة ولم يبعدها عنه إلا كارثة سياسية من النوع الثقيل .. وقد تخرجت فى الجامعة الأمريكية فى عام ١٩٥٦ بعد أن درست الصحافة والإدارة .. وأجادت اللغة الإنجليزية .. لكن كانت أهم مواهبها حفظ وكتمان الأسرار .. وحتى وفاتها بالسرطان فى عام ١٩٩٩ ظلت ترفض كتابة مذكراتها .. وماتت .. وماتت معها معظم الأسرار .. وكل ما عُرف عنها .. أنها عملت لمدة عام واحد محررة فى وكالة أنباء الشرق الأوسط .. ثم تركتها إلى مكتب هيكل .. لتصبح الشخصية القوية فى الأهرام بعد رئيسها .. لدرجة أن جمال عبد الناصر عندما جاء لزيارة الأهرام لم يعترض عندما أعدت له بيدها فنجاناً من القهوة وقدمته له .. وكان مقرراً أن لا يشرب .. ولا يأكل شيئاً .. وتناول جمال عبد الناصر القهوة وقال لها: «أريد أن أتصور معك .. كان نفسى أشوفك من زمان .. كنت أسمع صوتك فى التليفون بس» . (١١)

لكن .. نوال المحلاوى ذات الشأن فى الأهرام والتى تتمتع بحماية هيكل الصديق الشخصى لجمال عبد الناصر قُبض عليها فى مايو ١٩٧٠ هى وزوجها ولطفى الخولى الذى كان رئيساً لتحرير مجلة «الطليعة» اليسارية التى كانت تصدر عن الأهرام .. ولم ينشر الأهرام خبر الاعتقال الذى فسر بأنه كان بسبب انتقادات النظام .. وبعد أن أُفرج عنها لم تعد إلى مكتب هيكل .. وإنما نُقلت إلى مكان آخر فى الأهرام .. وفيما بعد .. تولت مسئولية إدارة نشر وترجمة الكتب .. وهو آخر منصب لها فى الأهرام .. وبقيت فيه حتى وفاتها .

وقد أشار هيكل لواقعة اعتقال نوال المحلاوى أثناء التحقيق معه أمام المدعى الاشتراكى عندما قال: «أعتقد أن الأهرام فى ذلك الوقت ورغم قرب رئيس تحريرها بصداقة حميمة مع الرئيس جمال عبد الناصر كانت أكثر الصحف تعرضاً لضربات بعض الأجهزة وعلى سبيل المثال فقد جرى اعتقال الدكتور جمال العطيفى واعتقال الأستاذ لطفى الخولى واعتقال الأستاذ حمدى فؤاد (كان محرراً للشئون الدبلوماسية) والأستاذ أحمد نافع (محرر الشئون العربية) والأستاذ يوسف صباغ من هيئة تحرير الأهرام .. ووَصل الأمر إلى حد اعتقال سكرتيرتى الخاصة بعد ٣ أيام من تعيينى وزيراً للإرشاد (الإعلام فيما بعد) وكنا جميعاً فى ذلك كله نصمد .. لا نهرب ولا نستسلم .. ولا نحول موقفنا إلى حالة غضب شخصى .. وإنما ندافع عن مبدأ لنا ولغيرنا .. وإذن فقد كنا ننتقد التجاوزات ونتعرض لبعضها» . (١٢)

وقبل أن يترك هيكل الأهرام كانت الصحيفة التى تسلمها مديونة قد أصبحت تحقق أرباحاً سنوية ما بين ٣ ـ ٤ ملايين جنيه .. وكانت أصولها الثابتة تزيد عن ٤٠ مليون جنيه .. وحجم عملياتها السنوية لا يقل عن ١٠٠ مليون جنيه .. وأصبحت الأهرام ذات سمعة دولية جعلتها واحدة «من الصحف العشر الكبرى فى العالم طبقاً لتقرير نشرته جريدة التايمز .. وأصبحت دارها الصحفية بما فيها من تجهيزات حديثة ومعدات واحدة من الدور الصحفية الثلاث الأكثر تقدماً فى العالم وذلك بشهادة مؤتمر الصحافة العالمى فى لوس أنجلوس سنة ١٩٧١ .. إن كل ذلك تم بدون أية معونات خارجية وبدون أية مساعدات وإنما تم بالعمل الإنسانى وحده لكل الذين شاركوا معى فى إعادة بناء الأهرام» . (١٣) .. وفيما بعد .. نجح إبراهيم نافع فى أن يضع من جانبه بصمات واضحة على الأهرام.. جعلته متطوراً مع العصر، سابقاً عن غيره فى شارع الصحافة.

وقد كانت الأهرام وقت دخول هيكل إليها تعتمد على ماكينات طباعة مصنوعة فى فرنسا فى الفترة ما بين عامى ١٩٠٤ و ١٩٢٨ .. وكان رأسمال الشركة التى تصدر الأهرام هو ٤٠٠ ألف جنيه .. وقد زادت خسائر الأهرام عن رأس المال عدة مرات .

لقد ذكر هيكل هذه الأرقام بنفسه فى الجلسة السادسة من جلسات التحقيق معه أمام المدعى الاشتراكى .. وكانت هذه الجلسة فى يوم الثلاثاء ٤ يوليو ١٩٧٨ .. وفى الجلسة الثامنة التى كانت فى يوم الأربعاء ١٢ يوليو ١٩٧٨ تعمد هيكل أن يتحدث عن مساحة الرأى والحرية التى تمتع بها الأهرام فى عهده .. لقد استغل هيكل سؤال المحقق عن أخطاء جمال عبد الناصر ليقول فى إجابته المطولة:

«إننى أتشرف بأن الأهرام فى فترة عملى فيها كانت منبراً يكاد يكون وحيداً للدفاع عن حرية الرأى والنقد .. ولم يكن ذلك لامتياز خاص أدعيته لنفسى أو أعطاه لى غيرى .. إنما كان عن إيمان بدور الصحافة الحرة .. وعلى سبيل المثال فلقد نشر الأهرام فى تلك الفترة لكبار كتابنا أعمالاً نقدية بارزة أذكر منها على سبيل المثال «بنك القلق» لتوفيق الحكيم .. وأتذكر فيما يتعلق ببنك القلق - وهذه الواقعة موجودة فى مقالاتى فى تلك الفترة - أتذكر أن توفيق الحكيم كتب «بنك القلق» لغير النشر وأعطاها لى كى أقرأها .. وقلت له: إننا سوف ننشرها .. وأبدى انزعاجاً شديداً .. وقلت بالحرف وهذا مسجل فى مقال لى «إذا كنت أنت وجدت الشجاعة كى تكتب فإن لدى الشجاعة كى أنشر» .. وحينما صدرت الحلقة الأولى من «بنك القلق» احتجت أجهزة أمن كثيرة فى تلك الفترة .. ومن بينها جهاز المخابرات الذى كان النقد أساساً موجهاً إليه فى «بنك القلق» .. وفوجئت أن الرئيس جمال عبد الناصر يدعونى إلى لقائه ومعى نسخة مما كتبه توفيق الحكيم لأنه كما قال لى لم يكن قد قرأه .. ولكنه تلقى احتجاجات كثيرة عليه .. وقد وصلت إلى مكتبه فعلاً فوجدت هناك المرحوم المشير عبد الحكيم عامر الذى واجهنى من أول لحظة بغضبه الشديد مما نشرته الأهرام .. وقلت له أمام الرئيس: إننى أعتقد أن ما نشرناه يقع فى دائرة ما نعتقد أنه مسئوليتنا وأنه لا يتعارض مع الأمن القومى ..

«وقال الرئيس عبد الناصر إنه يطلب منا نحن الإثنين أن ننتظر حتى يقرأ الحلقة بنفسه .. وجلسنا ساكنين .. ولكن الحديث بيننا بالإشارة ظل مستمراً .. فالمشير يشير برأسه مصراً على الاعتراض على النشر .. وأنا أشير برأسى إلى ضرورة التأنى فى إصدار حكم .. وبما يعنى أن الصحافة يجب أن تمارس دورها خصوصاً على هذا المستوى الفكرى .. وطلب إلينا الرئيس أن نخرج حتى يستطيع أن يقرأ ما يقرأه بهدوء .. وخرجنا إلى صالون مجاور للمكتب .. واتصلت المناقشة بيننا .. ثم دخلنا عندما دعانا الرئيس بعد أن فرغ من القراءة .. وقال إنه يرى استمرار النشر .. وأضاف «إنه لا يستطيع أن يتصور توفيق الحكيم الذى نقد العصر الملكى فى «يوميات نائب فى الأرياف» لا يستطيع نقد العصر الثورى مهما كان الثمن» .. وحسم الموضوع .. واستمر النشر .. أضيف إلى ذلك «ثرثرة على النيل» و «اللص والكلاب» وغير ذلك مما نشرته للأستاذ نجيب محفوظ» .

وفى مذكراته التى نشرها على لسانه رجاء النقاش يقول نجيب محفوظ: إنه تعرض لغضب المشير عبد الحكيم عامر بعد أن نشر له هيكل رواية «ثرثرة على النيل» .. ولم يعرف نجيب محفوظ بحقيقة ما جرى إلا عندما جاء إليه ثروت عكاشة إليه لتهنئته بجائزة نوبل .. كان ثروت عكاشة وقتها وزيراً للثقافة .. وبينما هو يستعد لرحلة عمل إلى إيطاليا استدعاه جمال عبد الناصر وسأله عما إذا كان قد قرأ الرواية .. ولما لم يكن قد قرأها فقد طلب منه عبد الناصر قراءتها وإبداء رأيه فيها بعد عودته من إيطاليا .. وقرأ الدكتور ثروت عكاشة الرواية فى أثناء رحلته .. وفى أول لقاء له مع الرئيس عبد الناصر دافع عنها وفند اتهامات المهاجمين لها .. وأكد للرئيس أن نجيب محفوظ ينبه إلى أخطاء موجودة وليس لديه سوء نية فى مهاجمة نظام الحكم .. ثم قال له: إن من الضرورى أن يتوافر للأدب هذا القدر من الحرية لينقل صورة واقعية حقيقية عن المجتمع .. وإذا لم يجد الأدب هذا القدر من الحرية مات وأضمحل تأثيره .. واستطاع ثروت عكاشة إقناع عبد الناصر بأن حرية الأدب هى أفضل دعاية للنظام فى الخارج .. وبالفعل اقتنعْ عبد الناصر .. وقال لثروت عكاشة «اعتبر المسألة منتهية» . (١٤)

وفى مذكراته يروى نجيب محفوظ أنه شعر بالعجز عن كتابة الرواية منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٥٧ .. كان قد أنتهى من «الثلاثية» التى استغرقت كتابتها ٤ سنوات متصلة (١٩٤٨ ـ ١٩٥٢) .. وفيها انتقد المجتمع المصرى وعندما قامت الثورة وتصور أن التغيير الذى ينشده قد حدث تساءل عن جدوى الكتابة .. وكان أن اتجه لكتابة السيناريو مع المخرج صلاح أبو سيف .. وكان أن قرر الزواج فى عام ١٩٥٤ .. ولكن فى عام ١٩٥٧ شعر أن دبيب غريب يسرى فى أوصاله ووجد نفسه منجذباً مرة أخرى ناحية الأدب .. وكانت فرحته غامرة عندما أمسك بالقلم من جديد وكتب رواية «أولاد حارتنا» التى سيطرت عليها أفكار التصوف والدين والفلسفة .. وفى حفل أقامه له إحسان عبد القدوس بمناسبة فوزه بجائزة الدولة فى الرواية عرض عليه على حمدى الجمال نيابة عن هيكل أن ينشر أول رواية يكتبها مسلسلة فى الأهرام .. وعندما انتهى من «أولاد حارتنا» ذهب بها إلى الجمال الذى تصور أنها رواية تدور فى حارة فسارع بنشرها .. ولم يمر على النشر سوى حلقتين حتى هاجمها كاتب فى الملحق الأدبى لجريدة الجمهورية ووصفها بالإلحاد وطالب بتدخل الرئاسة ومشيخة الأزهر لمنعها .. ووقعت أزمة لكن هيكل لم يوقف النشر بل سارع بنشر أكثر من حلقة فى الأسبوع حتى ينتهى من النشر قبل أن يأخذ الأزهر قراراً بمنعها .

ويروى لى أحمد حمروش فى حوار شخصى معه: إنه عندما كان مديراً للمسرح القومى فوجئ بمحرر فى الأهرام لا علاقة له بالمسرح يصف مسرحية يعرضها المسرح القومى لجان بول سارتر بالإباحية والإلحاد .. وينتقد الرقابة لإجازتها النص .. «وذهبت إلى هيكل فى مكتبه بالأهرام القديم وعبرت له عن فزعى مما نشر .. فكان أن قال أنه أشد فزعاً منى لأن أفكاراً مثل هذه الأفكار تسربت إلى صفحات الأهرام» .

وفى نهاية حوار طويل جرى بينهما فى استراحة الرئيس فى «القناطر» قال هيكل لجمال عبد الناصر: «ترى ما الذى أريده من كل هذا الحشد من قادة الفكر والمثقفين الذين حشدتهم فى الأهرام؟ .. إنهم ليسوا مجرد حلى ذهبية أزين بها صدر الأهرام .. ولكنهم وظيفة ودور لا غنى لمصر عنه ولا غنى له عنها .. آراؤهم كلها .. اجتهاداتهم بما فيها من خطأ وصواب .. أفكارهم النافذة إلى كل ركن وناحية من حياتنا الوطنية والقومية .. إثراء لهذه الحياة .. لا حدود له .. كل ما حاولناه وما نحاوله أن ندير على مستوى الوطن كله حواراً مفتوحاً ومسموعاً ـ ومعمقاً بقدر ما نستطيع ـ أمام الناس وأمامك أنت أيضاً» .

كان سبب هذا الحوار هو ما جرى ذات سبت من عام ١٩٦٨ للدكتور جمال العطيفى .. لقد أُعتقل بعد نشر مقاله له فى الأهرام عن القوانين التى تصدر وتنشر فى أعداد استثنائية محدودة من جريدة الوقائع المصرية دون أن تعمم على الناس بالقدر اللازم لعلمهم بها .. ورفع هيكل سماعة التليفون وأملى مدير مكتب الرئيس رسالة تتلخص فى أن ما كتبه جمال العطيفى يدخل فى إطار حرية النشر .. وأن ما جرى له يتعارض مع «اتفاقى مع الرئيس بشأن حرية الأهرام وهى جزء من حرية الصحافة أعتبر نفسى مسئولاً عنه مباشرة لأنه من صميم عملى واختصاصى .. إن الأهرام يستمد قيمته من حريته وهى حرية حرصنا عليها دائماً على أن تكون حرية مسئولة .. وفى ممارساتها فإننا نشرنا كثيراً من الآراء المفتوحة لأكبر كتاب مصر مما يجعل الأهرام وقتها حصناً منيعاً لمثقفى مصر .. ثم أن هذه الإجراء العنيف لا يقتصر تأثيره على الأهرام وحده وإنما سوف يمتد تأثيره إلى قضية أوسع هى قضية المثقفين فى مصر .. وأبسط ما يمكن أن أقوله هو أن مثل هذا الإجراء سوف يثير قلقهم وسوف يدفع بكثيرين منهم إلى السلبية والصمت .. وهذه خسارة ضخمة لمصر قبل أى طرف آخر .. وأخيراً فأننى أنا الذى نشرت المقال كرئيس تحرير مسؤول فإذا كانت هناك عقوبة فليس كاتب المقال هو الذى يستحقها وإنما المستحق ناشره وهذه قاعدة مسلم بها» .

وشعر هيكل بالجرح مما جرى وانتظر رداً لم يأت من جمال عبد الناصر واقترح عليه أنور السادات أن يتصل مباشرة بالمعلم ـ وهو اللقب الذى كان يطلقه على عبد الناصر ـ

ولا يترك المجال بينهما مكشوفاً للآخرين .. ولم تطاوع هيكل يده ليمسك بالتليفون ويتصل بالمعلم إلا يوم الخميس فدعاه لاستراحة القناطر وكان عنده أنور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري .. وعلى ظهر «ذهبية» راسية على شاطئ النيل بالقرب من الاستراحة قال هيكل ما قال عن دور الكتاب والمفكرين والمثقفين فى الأهرام .. وأنتهى الحوار بأمر واضح مباشر إلى وزير الداخلية: يا شعراوى (يقصد شعراوى جمعة) افرجوا عن جمال العطيفى الآن . (١٥)

وبعد هزيمة يونيو نشر نزار قبانى قصيدته الشهيرة (هوامش على دفتر النكسة» التى حولته من شاعر الحنين إلى شاعر يكتب بالسكين .. وقد أثارت القصيدة مشاعر متناقضة بين التأييد والتجريم .. بين الإعجاب والتخوين .. وكان أن صدر قرار من السلطات فى مصر بمنع القصيدة وبمنع دواوين نزار قبانى وأغانيه فى الإذاعة وبمنعه هو شخصياً من دخول مصر .. وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٦٧ أمسك نزار قبانى بالقلم وكتب رسالة شخصية لجمال عبد الناصر قال له فيها: «سيادة الرئيس جمال عبد الناصر .. فى مثل هذه الأيام التى أصبحت فيها أعصابنا رماداً وطوقتنا الأحزان من كل مكان يكتب إليك شاعر عربى يتعرض اليوم من قبل السلطات فى الجمهورية العربية المتحدة إلى نوع من الظلم لا مثيل له فى تاريخ الظلم .. وتفصيل القصة أننى نشرت فى أعقاب نكسة الخامس من حزيران قصيدة عنوانها (هوامش على دفتر النكسة) أودعتها خلاصة تمزقى وكشفت فيها عن مناطق الوجع فى جسد أمتى العربية لاقتناعى أن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتوارى والهروب وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا .. وإذا كانت صرختى حادة وجارحة وأنا أعترف سلفاً بأنها كذلك لأن الصرخة تكون بحجم الطعنة ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح» .

ويتساءل نزار قباني: «من منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران؟ .. من منا لم يخدش السماء بأظافره؟ .. من منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض؟» .. «وماذا تكون قيمة الأدب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ووجهها الأسود معاً؟ .. ومن يكون الشاعر يوم يتحول إلى مهرج يمسح أذيال المجتمع وينافق فيه؟» .

ويستطرد: «لذلك أوجعنى يا سيادة الرئيس أن تُمنع قصيدتى من دخول مصر وأن يُفرض حصار رسمى على أسمى وشعرى فى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها .. والقضية ليست قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر لكن القضية أعمق وأبعد .. القضية أن نحدد موقفنا من الفكر العربى .. كيف نريده؟ .. حراً أم نصف حر؟ .. شجاعاً

أم جباناً؟ .. نبياً أم مهرجاً؟ .. القضية أن يسقط أى شاعر نحو حوافر الفكر الغوغائى لأنه تفوه بالحقيقة .. والقضية أخيراً هى أن نعرف ما إذا كان تاريخ ٥ حزيران سيكون تاريخاً نولد فيه من جديد بجلود جديدة وأفكار جديدة ومنطق جديد» .

ويضيف: «لم يكن بإمكانى وبلادى تحترق الوقوف على الحياد فحياد الأدب موت له .. لم يكن بوسعى أن أقف أمام جسد أمتى المريض أعالجه بالأدعية والحجابات والضراعات .. فالذى يحب أمته يا سيادة الرئيس يطهر جراحها بالكحول ويكوى - إذا لزم الأمر - المناطق المصابة بالنار» .. «لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه والمجروح على جراحه ويسمح باضطهاد شاعر عربى أراد أن يكون شريفاً وشجاعاً فى مواجهة نفسه وأمته فدفع ثمن صدقه وشجاعته .. يا سيدى الرئيس .. لا أصدق أن يحدث هذا فى عصرك» .

ولم يطل صمت جمال عبد الناصر ولم تمنعه مشاكله الكثيرة وهمومه التى تجاوزت هموم البشر من الاهتمام برسالة نزار قبانى .. فقد روى هيكل - الذى حمل الرسالة إلى عبد الناصر - أنه وضع خطوطاً تحت أكثر مقاطع الرسالة وكتب بخط يده التعليمات الحاسمة التالية: (١) لم أقرأ قصيدة نزار قبانى إلا فى النسخة التى أرسلها إلى وأنا لا أجد أى وجه من وجوه الاعتراض عليها . (٢) تلغى كل التدابير التى قد تكون اتخذت خطأ بحق الشاعر ومؤلفاته ويطلب من وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة . (٣) يدخل الشاعر نزار قبانى إلى الجمهورية العربية المتحدة متى أراد ويكرم فيها كما كان فى السابق ..

التوقيع: جمال عبد الناصر .

ويقول نزار قبانى: «بعد كلمات جمال عبد الناصر تغير الطقس وتغير اتجاه الرياح وتفرق المشاغبون وانكسرت طبولهم ودخلت (الهوامش) مصر ورجعت أنا إلى القاهرة .. لأجد شمس مصر أشد بريقاً ونيلها أكثر اتساعاً ونجومها أكثر عدداً» .. «لقد كسر الرئيس عبد الناصر بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الفن والسلطة .. بين الإبداع والثورة .. واستطاع أن يكشف بما أوتى من حدس وشمول فى الرؤية - أن الفن والثورة توأم سياسى ملتصق .. وحصانان يجران عربة واحدة .. وإن كل محاولة لفصلهما سيحطم العربة ويقتل الحصانين» .

الهوامش

(١) هيكل: «بين الصحافة والسياسة» ـ مرجع سبق الإشارة إليه ـ ص ٦٣.

(٢) المرجع السابق ـ ص ٦٥.

(٣) المرجع السابق ـ ص ٦٦.

(٤) المرجع السابق ـ ص ٧٠.

(٥) و (٦) المرجع السابق ـ ص ٧١.

(٧) الحوار مستخلص من المرجع السابق ـ ص ٧٢.

(٨) سمير صبحى: «الجورنالجى» ـ مرجع سابق ـ ص ٢٥.

(٩) مجلة الدستور اللندنية ـ العدد رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٧٣.

(١٠) سمير صبحى: المرجع السابق ـ ص ٩١.

(١١) المصدر السابق ـ ص ١٣٠.

(١٢) هيكل: وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى ـ الناشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ الطبعة التاسعة ـ ١٩٨٨ ـ ص ٢٢٤.

(١٣) المصدر السابق: ص ٢٢٥.

(١٤) رجاء النقاش: نجيب محفوظ ـ صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته ـ الناشر: الأهرام ـ ١٩٨٨.

(١٥) هيكل: السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة ـ رسائل إلى صديق هناك ـ الناشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨٦ ـ ص ٣١٦.

ـ ٢٤ ـ

مـــثـــل قـــصـــة بـــولـــيـــســـيـــة مـــثـــيـــرة

■ فى صيف ١٩٧٨ .. وعلى مدى ٣٠ ساعة من «التحقيق السياسى» واجه هيكل أسئلة المدعى العام الاشتراكى المستشار أنور حبيب فى مبناه المطل على ميدان «لاظوغلى» .. كان التحقيق بين سؤال وجواب لا يتناول وقائع أو أحداث وإنما يتناول آراء وأفكار .. كان الخلاف بينه وبين الرئيس أنور السادات قد وصل إلى «حائط سد» .. ولم يكن أمام السياسة إلا أن تحاكم الصحافة ـ بعد أن تقطعت الأوصال بينهما ـ بأثر رجعى .. وكانت مقالات هيكل التى كتبها فى الأهرام تحت عنوان «بصراحة» هى عريضة الاتهام .. أو هى عريضة محاكمة من نوع انقرض .. كان يُعرف فى العصور الوسطى بمحاكم التفتيش .

وكان المدعى العام الاشتراكى قد حاول أن يبنى تحقيقه السياسى من خلال التفتيش فى الأحاديث الصحفية والتلفزيونية ـ العربية والأجنبية ـ التى أدلى بها .. لكن هيكل قال له: إن من الصعب أن أتذكر الأحاديث .. خصوصاً فى التليفزيون .. فما يعرض فيه قد لا يكون مسجلاً فى الأرشيف .. «ومع ذلك فإن أى كاتب له مواقف واضحة ثابتة وخطوط مستمرة .. وما يقوله فى أحاديثه لا يمكن أن يقول نقيضه فى مقالاته .. إننى كتبت حتى الآن أكثر من ١٥٠٠ مقال تحت عنوان «بصراحة» .. وهذا فى اعتقادى كافياً لأى مناقشة أو حساب» .

* * * *

كان مقال «بصراحة» الذى كان يكتبه هيكل هو أشهر مقال صحفى ظهر فى النصف الأخير من القرن العشرين فى الصحافة المصرية .. فقد كانت الإذاعة المصرية تقرأه كاملاً فى يوم صدوره .. وكان الرأى العام فى الداخل والخارج يؤمن بأن ما فى المقال هو ترجمة جذابة لما فى عقل جمال عبد الناصر من أفكار وبرامج فى كثير من الأحيان .

وقد كتب هيكل فى منتصف الأربعينات فى «آخر ساعة» تحت عنوان «البحث عن المتاعب» .. وعندما تولى رئاسة تحريرها فى بداية الخمسينات كان يكتب تحت عنوان «أحداث الساعة» .. وبعد أيام من توليه رئاسة تحرير الأهرام .. وبالتحديد فى ١٥ أغسطس ١٩٥٧ بدأ فى كتابة أول مقال له تحت عنوان «بصراحة» .. وكان المقال بعنوان «السر الحقيقى فى مشكلة عُمان» .. عن مشكلة الصراع فى جنوب الجزيرة العربية بين إمارتى مسقط وعمان .. أما آخر مقال كتبه «بصراحة» فكان بعنوان «الظلال .. والبريق» .. عن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط بعد حرب أكتوبر .

لم يكن مقال «بصراحة» فى البداية بنفس الصورة التى استقر عليها قبل أن يختفى .. لقد أختفى المقال وهو يشغل مساحة عمودين من الصفحة الأولى ليستكمل فى الصفحة الثالثة (من ألفين إلى ألفين وخمسمائة كلمة) .. وبنفس التصميم نشر رؤساء تحرير الأهرام بعد هيكل مقالاتهم ..

أيضاً .. لم يكن مقال «بصراحة» فى البداية بنفس المساحة التى استقر عليها فيما بعد .. كانت مساحة المقال فى البداية لا تزيد عن مساحة عمود فى الجريدة .. وربما أقل أى من حوالى ٤٠٠ إلى ٧٠٠ كلمة .. وأحياناً كان المقال يكتب فى نصف هذه المساحة .. لكن .. فيما بعد ذلك .. كان ما يريد أن يقوله هيكل لا يكفى مقال واحد .. كان يحتاج إلى سلسلة مقالات .. ومن ثم كان نشر «بصراحة» فى كثير من الأحيان يكون كل يومين .. أو ثلاثة أيام .. وليس فقط كل «جمعة» كما اعتاد القراء .. وكانت أول سلسلة مقالات نشرها هيكل هى «العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط» .. وقد استمرت ٧ حلقات .. ابتداء من ١١ يناير ١٩٥٨ .. أما أشهر هذه السلاسل فهى .. «رأيت الدنيا على حافة الهاوية» .. خمس حلقات ابتداء من ٢٢ يوليو ١٩٥٨ عن رحلة رافق فيها جمال عبد الناصر على ظهر اليخت «الحرية» إلى يوغسلافيا .. و «البحث عن نهاية الفصل الأول» وهى ٧ حلقات ابتداء من ٧ ديسمبر ١٩٥٨ عن الصراع بين القومية العربية والغرب .. و «أسرار من مذكرات أيدن» وهى ٧ حلقات ابتداء من ٢١ يناير ١٩٦٠ .. و ٤ حلقات غير متصلة عن «أزمة المثقفين» .. ابتداء من ٢ فبراير ١٩٦١ .. و ٩ حلقات عن حقيقة الانفصال السورى عن مصر بعنوان «حديث صريح عن التجربة الأولى للوحدة» ابتداء من ١٣ أكتوبر ١٩٦١ .. وأكبر مسلسل نشره هيكل تحت عنوان «بصراحة» كان المحاضر الرسمية لجلسات محادثات الوحدة الثلاثية .. وكان ٢٦ حلقة .

وتحت العنوان نفسه نشر هيكل الرحلة التى قام بها إلى أفريقيا على ٧ حلقات ابتداء من ٥ نوفمبر ١٩٦٥ .. والرحلة التى قام بها إلى آسيا على ٦ حلقات ابتداء من ١٨ فبراير ١٩٦٦ .. والرحلة التى صحب فيها الزعيم السوفيتى نيكيتا خروتشوف من موسكو إلى القاهرة على ٤ حلقات ابتداء من ٨ مايو ١٩٦٤ .

أما أطول مسلسل سياسى كتبه هيكل فكان «نحن وأمريكا» .. على ١١ حلقة ابتداء من ٢٤ فبراير حتى ١٢ مايو ١٩٦٧ .. وكان يمهد للصراع المكتوم بين مصر وإسرائيل والذى انفجر فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وقد انتهت هذه الحلقات بمقال كتبه هيكل قبل الحرب بثلاثة أيام بعنوان «الصراع الذى يدور فى التفكير الإسرائيلى الآن» ..

ومن أغسطس ١٩٥٧ وإلى يونيو ١٩٦٧ يمكن أن نلخص مقالات هيكل فى الموضوعات التالية:

١ـ مواجهة ساخنة ضد النظم العربية المحافظة أو الرجعية ـ على حد الوصف الذى شاع وقتها ـ فى الخليج والأردن والسعودية .

٢ـ مواجهة بنفس السخونة للنظم العربية الثورية المعادية للناصرية مثل العراق أيام عبد الكريم قاسم .. والجزائر فى بداية انقلاب هوارى بومدين على أحمد بن بيلا .

٣ـ نقد حاد للسياسة الغربية .. الأمريكية واعتبراها القوة الدافعة الوحية لدول العالم الثالث ناحية الاتحاد السوفيتى .

٤ـ دفاع عن سياسة عدم الانحياز وترويج لها باعتبارها الفرصة الوحيدة لدول العالم الثالث لكى تجد لها مكاناً دافئاً آمناً تحت الشمس .. تتنافس عليها الدول الكبرى .. بدلاً من أن تجد نفسها فى ركبها وأسيرة لها .

٥ـ كشف طبيعة المجتمع والنظام السياسى والعسكرى فى إسرائيل ومتابعة تطوراته بما ذلك توصله للقنبلة الذرية .

٦ـ متابعة دقيقة لما يجرى فى دول عربية كانت تراهن عليها مصر فى ذلك الوقت مثل سوريا ولبنان .. ثم ليبيا بعد ثورة العقيد معمر القذافى .. واليمن بعد ثورة العقيد عبد الله السلال .

٧ـ التعرض بدرجة أقل وحسب الظروف الملحة لقضايا العمل الداخلى مثل دور المثقفين فى ظل النظام الثورى .. ومشاكل القطاع العام .. وطبيعة الديمقراطية فى ظل التحولات الاشتراكية .. ودور الصحافة فى ظل هذه التحولات أيضاً .. وضرورات تقديم الميثاق الوطنى .. وضرورات إعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى .. التنظيم السياسى الوحيد .

٨ـ دور الفرد أو دور البطل فى التاريخ مع تطبيق مباشر على جمال عبد الناصر .

وقبل أن نتوقف عند القضايا المصيرية التى تناولها هيكل (خاصة قضايا الحريات والصحافة والديمقراطية والمثقفين ودور الفرد فى التاريخ وهى القضايا التى كان حسابه عليها فيما بعد) نتوقف عند لحظات الحرج التى تعرض لها عندما فرضت عليه الظروف أن يوجد وجها لوجه أمام الحكام العرب الذين جلد سياساتهم وأشخاصهم بقلمه.

* * * *

فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣ روى هيكل هذه القصة التى وصفها بأنها «كقصة بوليسية مثيرة جرت مشاهدها فى باريس» .. ويستطرد: «وقع المشهد الأول فى نفس اللحظة التى وصلت فيها إلى فندق «الكريون» الواقع على نقطة التقاء «الشانزليزيه» بميدان «الكونكورد» فى قلب العاصمة الفرنسية .

«ووجدتنى أوقع باسمى فى سجلات الفندق محاطاً بجو غريب .. نظرات فاحصة وأسئلة لا مبرر لها ثم تدقيق فى جواز السفر كأنما الذين امسكوا به يقلبون صفحاته ويعيدون تقليبها يريدون أن يحفظوا كل حرف فيه .. وبعد دقائق نزلت إلى صالون الفندق على لقاء مع الصديق صلاح بسيونى (فيما بعد اختلف معه هيكل بعد أن أصبح مسئولاً عن جمعية السلام بين مصر وإسرائيل) سكرتير السفارة المصرية فى باريس» .. «وفجأة أحسست للمرة الثانية بنفس الجو الغريب يحيط بى .. وقلت لصلاح بسيونى: هل تعرف هذا الرجل الغريب الواقف هناك لا يرفع بصره عنى أو يحوله؟ .. ونظر صلاح بسيونى إلى الرجل وبدت على ملامحه إمارات عجب وقال: هذا مسئول البوليس السرى الفرنسى المكلف بالقسم العربى .. وهو فعلاً فيما يبدو ينظر إليك؟؟ ولم تكد العبارة تنتهى حتى وقع شئ أغرب .. أقبل ستة رجال طوال عراض ووقفوا صفاً واحداً أمام باب الصالون الذى كنت أجلس فيه وأغلقوه تماماً بأجسادهم وكانت ظهورهم جميعاً نحونا إلا واحد فى نهاية الصف كان وجهه إلينا وإحدى يديه فى جيبه يمسك فيها بشئ لا نراه لكن تصوره ميسور من الشكل العام للمشهد الذى نجده أمامنا .. مسدس أغلب الظن .

«ووضعت ما كان بيدى من أوراق على منضدة أمامى وقلت: زادت المسألة ولم تعد مفهومة .. وقال زميلى: بيدك الحق .. لم أر من قبل ما أراه الآن .. على أى حال من الخير أن لا تتحرك وأن ننتظر بعض الوقت لعل الغامض ينجلى .. وتناهت إلى أسماعنا حركة فى البهو أمام الصالون الذى كنا نجلس فيه وبعدها بقليل تفرق الرجال الستة الذين كانوا يسدون الباب علينا وبدا وكأن الحصار المضروب علينا قد توقف .. ونهض صلاح بسيونى

يقول لى: دعنى أسأل ما الذى يجرى هنا؟ .. وعاد بعد دقائق ضاحكاً وقال وهو يتخذ مقعده: يبدون أنهم يعتبرونك إرهابياً خطراً أتى إلى هنا ليدبر جريمة اغتيال سياسى .. قلت بدهشة: اغتيال سياسى لمن؟ .. قال: للملك حسين ملك الأردن .. يظهر أنه ينزل هنا فى نفس الفندق معك .. وقد وصل قبلك بساعة واحدة .. لقد كان أحد أفراد حاشيته أول من رآك وأنت تنزل من التاكسى الذى وصلت به إلى الفندق فأسرع وأبلغ مسئول البوليس الفرنسى المرافق للملك أنك من أعدائه وأن وصولك إلى الفندق الذى ينزل فيه وبعد وصوله بساعة ينذر بشر مستطير .. ويظهر أن مسئول البوليس الفرنسى ذهب إلى أحد الوزراء المرافقين للملك وسأله عما إذا كنت فعلاً من أعدائه الخطرين فإذا الذعر يركب الوزير الأردنى إلى الدرجة التى حملت مسئول البوليس السرى الفرنسى على أن لا يترك شيئاً للصدفة فى سبيل حماية الملك منك .

«وعدت فى الليل إلى غرفتى وأقنعتنى النظرة الأولى إليها ـ وتجارب كثيرة سابقة ـ أن الغرفة جرى تفتيشها بدقة وحرص فى الوقت نفسه وقلت لنفسى: فى الصباح أترك الفندق كله إلى غيره تجنباً للمشاكل .. على أن محاولة البحث فى الصباح أقنعتنى أن الزحام فى باريس أقوى من شكوك مرافقى الملك حسين ووزرائه فى نواياى الإرهابية .. وقلت لنفسى: على أى حال لن يروننى فى الفندق كثيراً إن عملى كله خارجه وسوف تقنعهم التجربة أن ملكهم ليس هدفاً من أهدافى فى باريس .. لكن مساء ذلك اليوم وضعتنى الظروف وجهاً لوجه مع الملك حسين .. فقد كان يجلس فى صدر صالون دخلت إليه مع أريك رولو رئيس قسم الشرق الأوسط فى صحيفة اللوند الشهيرة .. ولقد حاولت أن لا أنظر إلى اتجاه الملك ثم جلست مع أريك رولو على مقعد يتجه بظهره ناحية الملك .. لا رغبة فى إساءة ولكن تحاشياً لأى لبس .. وقال رولو هامساً: لقد كان الملك يبتسم لك ساعة دخلت .. قلت: خير من بعض رجاله الذين يظنون أنى قدمت إلى هناك فى مؤامرة عليه .. لقد لمحته بطرف عين يبتسم لكننى أدرت ظهرى وجلست بهدوء .. ولحقت بنا بعد قليل روزى زوجة رولو وخرجنا إلى عشاء فى مطعم صغيرأقيم فى قبو من أقبية جزيرة «لويس» بنى فى القرن الخامس عشر ومازال على حاله من يومها .

«وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل دق التليفون فى غرفتى وكنت قد دخلتها قبلها بدقيقة أو على الأكثر دقيقتين ورفعت السماعة لأتلقى سؤالاً باللغة العربية عنى قلت: نعم .. هو .. كان المتكلم هو الكولونيل عمر المدنى الملحق العسكرى الأردنى فى سوريا ولبنان .. وطلب أن يقابلنى .. وأصر على أن يكون اللقاء فى غرفتى فى التاسعة

صباحاً على أن لا يأخذ منى سوى عشر دقائق .. وجاء فى موعده تماماً .. ودخل وهو يرتدى ملابس مدنية قاتمة وقلت محيياً: أهلاً وسهلاً .. يؤسفنى أن أستقبلك فى غرفة نوم لكن هكذا أردت أنت .. قال: لا بأس .. نحن أخوة وإن فرقتنا السياسة .. وأحس أننى أنظر إليه مترقباً فقال على الفور: سوف أدخل فى الموضوع مباشرة .. إننى أعتبر نفسى ـ وأفخر بذلك ـ خادماً للملك حسين .. هل ترانى مخطئاً فى شعورى نحو الملك؟ .. قلت له: ليس ذلك شأنى .. مهما يكن فأنا أحترام الناس فى آرائهم قدر احترامى لحقى فى رأيى .. قال: قرأت كل ما كتبته عنه فى «صراحتك» لكنك ـ أستاذ ـ تظلمه .. قلت: ربما .. لكننى مخلصاً ـ أصوره كما أراه ـ ولقد يكون ما أراه هو الصواب .. ولقد يكون هو الخطأ .. لست أملك الحقيقة المطلقة .. لكننى أملك ما أراه منها .. أو هكذا أحاول جهدى .. قال: لماذا لا تقابله؟ .. قلت: قابلته كثيراً من قبل لأحاديث طويلة وأنا هنا الآن فى باريس فى رحلة لا علاقة لها بالعالم العربى ومشكلاته .. قال: هل تريد أن تقول أن وجودك فى باريس فى نفس الفندق مع الملك مجرد صدفة؟ .. قلت على الفور: أقسم لك أننى عندما اكتشفت وجوده هنا فكرت فى تغيير الفندق وإذا كنت لم أفعل ذلك فبسبب الزحام فى باريس .. قال: هى على كل حال إذن صدفة سعيدة ولا يجب أن نتركها تمر دون فائدة .. إن الملك رآك أمس وابتسم لك لكنك أدرت وجهك .. قلت: لم يكن ذلك سوء سلوك ولكن تفادياً لأى لبس .. قال: هب أن الملك هو الذى يريد أن يقابلك .. قلت: إن الملك مهما كان خلافى معه رئيس دولة عربية وأنا مواطن عربى .. وحين يطلبنى ـ خصوصاً إذا كنا نحن الإثنين فى الخارج ـ فأنا رهن إشارته » .

وفى الساعة التاسعة والنصف جرى اللقاء بين هيكل وحسين .. وكان هيكل حريصاً على أن يأخذ من الملك اعترافاً أن اللقاء جاء بناء على رغبة منه .. وأنه لن تكون فيه ألقاب ملكية انتهت من مصر بعد الثورة .. ومع السجائر والشاى الذى قدمهما الملك لهيكل جرى الحوار الذى كان أهم قال فيه الملك أن السعوديين ليسوا أصدقائه وأنه يختلف معهم كثيراً .. وأن حزب البعث هو سبب الوقيعة بين مصر والأردن .. وأن بترول العرب لا يذهب خيره إلى العرب .. وفى النهاية قال الملك : هل ضايقتك بإصرارى على الاجتماع بك؟ .. وقال هيكل: أبداً .. أنت تعرف شعبنا .. إننا نختلف مع الناس ولكن بغير حقد عليهم .. بل قد نحارب سياستهم ولكن بغير كراهية لهم وبغير غل .. قال باسماً: لقد عشت فى مصر سنوات حلوة (يقصد سنوات دراسته فى كلية فيكتوريا بالإسكندرية) .. وأنهى هيكل الحوار قائلاً: «وصافحت يده الممتدة ... ومشيت» .

وفى عام ١٩٦٥ عندما بدأت بوادر الصلح بين القاهرة والرياض بعد أن وصل الخلاف بينهما إلى حد الحرب المسلحة فى اليمن كان على هيكل أن يرافق جمال عبد الناصر إلى جدة .. إن السياسة تتخاصم وتتصالح .. وفى النهاية تبقى الكتابة والصحافة هى التى تقف فى الحلق والزور .. تبقى الكتابة والصحافة وقد أحاط بهما هواجس الجميع وانتقاداتهم .. وهو ما يعنى حرجاً على الكاتب أن يخرج منه وإلا اتهم بأنه أداة فى يد السياسة تستخدمه هراوة فى الخصام وتستخدمه غصن زيتون فى الوئام .

فى ٢٧ أغسطس فى ذلك العام كتب هيكل مقاله «بصراحة» بعنوان «كنت فى جدة» قال فيه: «ذهبت هذا الأسبوع إلى جدة مع عشرات الصحفيين العرب والأجانب أتابع عن قرب أنباء مسعى السلام الذى آثر جمال عبد الناصر أن يقوم به قبل أن تصل الأمور إلى الحافة .. وإلى الخطر .. ولقد تعودت دائماً أن أكون على استعداد للرحيل فى أى وقت وإلى أى مكان وراء الحوادث ـ أو قبلها إذا استطعت ـ ومع ذلك أعترف أن فى هذه الرحلة إلى جدة بالذات ساورنى تردد لم أواجهه من قبل ..

«إن لى مواقف إزاء أشخاص وتصرفات فى السعودية .. وأنا أعرف سلفاً أن هذه المواقف قد أغضبت البعض هناك .. ومن هنا فلقد يبدو ذهابى إلى المملكة أمراً غير مرغوب فيه خصوصاً وأن النظرة الذاتية فى الشرق العربى مازالت ـ قبل النظرة الموضوعية ـ تلون الرؤية كما يشاء الهوى .. ولقد رجحت فى النهاية أن أذهب وفى ذهنى اعتباران .. الأول: أننى ذاهب وراء الحوادث ومن أجلها والحوادث هذه المرة كبيرة ومضاعفاتها المحتملة خطيرة ولا يملك أى صحفى مهما كانت أسباب الحرج أن يبقى بعيداً يبنى أحكامه على السمع وينقل روايته عن الأطراف البعيدة عن مسرح التاريخ .. والثانى: إن الالتزام الأصيل للصحفى ليس أمام الذين يكتب عنهم وإنما الذين يكتب لهم مهما كانت أسباب الحرج مرة أخرى .. هكذا .. آثرت الذهاب إلى جدة .. مع إنى ـ كما قلت ـ لى مواقف إزاء أشخاص وتصرفات فى السعودية إلا أننى ـ وبغير تحفظ ـ على أتم استعداد لأن أتحمس من قلبى لعودة العلاقات طبيعية بين الجمهورية العربية المتحدة والسعودية .. والعودة للطبيعة لا تنفى وجود الخلاف بل أن أسباب الخلاف فى الطبيعة ذاتها» .

أكثر من ذلك .. كان اختفاء مقال «بصراحة» فرصة للقيل والقال .. للقول والتقول لخصومه .. يفتحون اجتهادات تختلط فيها الشائعات بالأمنيات .. لقد اضطرت ظروف هيكل أن يسافر إلى لندن لمدة ثلاثة أسابيع لإجراء جراحة فى عين طفله «على» عندما كان صغيراً فى يوليو ١٩٦٥ .. وقد فتحت هذه الإجازة الإجبارية الضاغطة من الكتابة الأبواب

على مصارعها للإيحاء بأن هيكل قد وقع فى خلاف مع جمال عبد الناصر وأنه حُرم ومُنع من الكتابة .. بل ووصل الأمر إلى حد تصور أنه قد أُعتقل .

وعندما عاد هيكل إلى الكتابة كان لابد أن يشرح ما جرى لوقف نزيف التكهنات والاستنتاجات .. قال فى مقال نشره فى ٦ أغسطس ١٩٦٥ بعنوان «بعد زيارة لندن»:
«لابد أن أقدم شكرى غالياً وعزيزاً للذين شغلوا أنفسهم بأمرى خلال ثلاثة أسابيع لم أكتب فيها هذا الحديث (يقصد بصراحة) أكثرهم رعاهم الله قبلوا عذرى بأننى كنت فى لندن لزيارة خاصة وأكاد أقول شخصية .. وأقلهم خصوصاً فى صحف دمشق وفى بعض صحف بيروت وفى إذاعات إسرائيل تمنعوا فى قبول هذا العذر وأصروا على أن هناك أسراراً أخرى وعلى أن وراء الأكمة ما وراءها .. ومع أننى لم أترك سراً يبقى عن سبب زيارتى للندن .. فإن عشاق الأسرار أصروا على وجودها .. وإذا لم تكن فى أغراضى فلابد أن تكون فى أغراضهم ..

«وخلال ثلاثة أسابيع فإننى أتوقف لأنفى كل ما راحوا يتصورونه أو يصورونه عن مهمتى فى لندن وعن أسبابها .. ولا أستطيع أن أنكر على كل حال أننى استمتعت إلى أقصى حد بكل الضجة التى أثاروها من حولى .. شئ ما فيها كان مرضياً لشئ ما فىّ .. لعله الغرور .. أعترف وأستغفر» .

وهكذا .. كان نشر «بصراحة» يثير الجدل .. وعدم نشرها أيضاً .. ولعل هذا ما جعل هيكل يقول فيما بعد .. خير للكاتب أن يسأل الناس لماذا لا يكتب عن أن يسألوا لماذا يكتب؟ .. والأفضل أن يكون الكاتب مثاراً للتساؤل دائماً سواء كتب أم احتجب .

■ ٢٥ ■

محكوم علينا تكرار التاريخ

■ كان هيكل برفقة جمال عبد الناصر على ظهر الباخرة الحرية فى رحلة العودة بعد زيارة شهيرة جرت إلى يوغسلافيا فى شهر يوليو ١٩٥٨ .. «كانت الباخرة الحرية تتقدم فى جو الهدوء المخيف على أمواج البحر الأدرياتيكى متجهة إلى البحر المتوسط» .. فى ذلك الوقت وقعت ثورة العراق التى قام بها عبد الكريم القاسم .. وأعقبها اندفاع القوات الأمريكية البحرية من الأسطول السادس إلى شواطئ لبنان .. ثم اندفاع الطيران البريطانى عبر إسرائيل لإنزال آلاف من جنود المظلات البريطانية لحماية عرش الأردن .. كان الجو الدولى على حد وصف هيكل «مكفهراً» (١) .. وكان «العالم العربى واقفاً على حافة الحرب» .

كانت الباخرة فى طريقها إلى الإسكندرية .. وكانت فى تلك اللحظة من بعد ظهر يوم ١٤ يوليو تتقدم نحو البحر المتوسط الذى يسيطر عليه الأسطول الأمريكى والأسطول البريطانى من بعده .. وبعثت القاهرة تطلب - لدواعى السلامة - أن يتجه الرئيس إلى الشاطئ اليوغسلافى وأن يركب من هناك طائرة مصرية أو يوغسلافية تعود به مباشرة - تحت ستار الليل - إلى الوطن فى ساعات بدلاً من ثلاثة أيام معرضة مكشوفة فى البحر .. وكان ذلك هو نفس الرأى فى يوغسلافيا .. حيث بعث المارشال جوزيف تيتو إلى عبد الناصر يرجوه فيها أن لا يتقدم فى هذه الظروف إلى البحر المتوسط .. وفى ذلك الوقت أحست المدمرة اليوغسلافية التى تتولى مرافقة الباخرة الحرية لدى عبورها الأدرياتيكى أن هناك محاولة استطلاع من الجو .. ومن ثم أعطت إشارة الإنذار وطلبت إطفاء جميع الأنوار فى «الحرية» كما أطفأت هذه المدمرة بدورها جميع أنوارها .. وساد البحر كله ظلام مخيف .

ولم تمر دقائق حتى دعا عبد الناصر وزير الخارجية فى ذلك الوقت الدكتور محمود فوزى إلى الاجتماع به فى مكتبه على سطح الباخرة .. وقال له: «لقد خطر لى رأى فكرت فيه اليوم طويلاً وأريد أن أستشيرك فيه» .. واستعرض عبد الناصر الموقف السياسى والعسكرى كله ثم خلص بنتيجة وهى أن حركة القومية العربية مقبلة على معركة عنيفة .. ثم قال فى النهاية: «لقد خطر لى أن نعود إلى الشاطئ اليوغسلافى ولكن لا لنركب طائرة بالليل إلى مصر وإنما أريد أن أذهب لمقابلة خروتشوف فى موسكو كى أتحدث إليه وأعرف على وجه التحديد ما هو موقف الاتحاد السوفيتى من احتمالات الحرب فى الشرق الأوسط» .. واستطرد عبد الناصر وهو يمسك بورقة كان قد كتبها وقال: «إن هناك عوامل تحبذ هذا الرأى وعوامل أخرى تعارضه» .. وبدأ يقرأ تقديره للموقف من الناحيتين .. التحبيذ والمعارضة .. ثم التفت إلى الدكتور فوزى وقال: «والآن أريد رأيك» .

طلب الدكتور فوزى مهلة للتفكير .. ووافق عبد الناصر على ساعة .. وخرج الدكتور فوزى من الغرفة .. ولمحه هيكل بعد ذلك يسير على ظهر الباخرة يداه وراء ظهره وعيناه تتطلعان إلى ظلام البحر المخيف .. ومضت نصف ساعة .. وعاد الدكتور فوزى إلى مكتب عبد الناصروقال له: «لقد فكرت بكل طاقتى واستعرضت كل الأسباب المؤيدة لهذا الرأى والمعارضة له ولم أستطيع أن أرجح فيها جانباً على جانب آخر .. إن الحساب الدقيق لهذه الخطوة متوازن .. وفى رأيى أننا فى لحظة من تلك اللحظات التى لا يمكن أن تخضع التصرفات فيها للحساب الدقيق وحده وإنما لابد لها بجانبه من شئ آخر لا يستطيع أن يقرر فيه غيرك» .. وساد الصمت دقائق .. ثم قال عبد الناصر: «إذن على بركة الله نذهب إلى موسكو» .. ثم بعث رسالة إلى خروتشوف وأصدر أمراً بأن تستدير الباخرة عائدة إلى الأدرياتيكى فى اتجاه بولا حيث يركب طائرة إلى موسكو .

والتقى هيكل بالدكتور فوزى على ظهر الباخرة بعدها .. وراحا يسيران معاً حول الباخرة كلها .. وكان حديثهما عن دور البطل فى حياة أمته .. «بل ضرورة البطل فى حياة أمته فى بعض مراحل التاريخ «على حد صياغة هيكل .. الذى يستطرد: «حاجة الأمة إلى رجل غير عادى يرى بالحساب الدقيق كل الاحتمالات فى اللحظة الحاسمة من التاريخ ثم يتخذ قراره .. لا على أساس من الحساب الدقيق وحده وإنما على شئ آخر معه .. من شئ غامض مثير .. من صلة غير عادية تربطه بضمير أمته وتنقل إليه عن هذا السبيل قدرة على تحدى المستحيل وعلى تحمل مسئوليات ليست لها حدود فى مواجهة أهوال ليس لها آخر» .

إن هيكل من المتحمسين لدور البطل ـ أو القائد أو الفرد ـ فى التاريخ ومن المؤمنين به .. ولم يكن حماساً أو إيماناً مؤقتاً ارتبط بفترة صعود جمال عبد الناصر وأنتهى بفترة شحوبه ثم رحيله .. وإنما بقى حماس وإيمان هيكل بدور الفرد من الأفكار التى لم يغيرها .. وإن كان قد ناقشها بعمق أكثر فيما بعد .

ولا جدال أن هذه النظرية فى تفسير التاريخ يعتبرها البعض «نوعاً من الهرطقة السياسية» .. خاصة الماركسيين الذين يؤمنون بالحتمية التاريخية التى تبدأ بسيطرة الإقطاع وتنتهى بسيطرة البروليتاريا عبر صراع طبقى تصادم فيه رأس المال والعمل حول أدوات وعلاقات الإنتاج .. وفى هذا الإطار «الحديدى» يغيب دور الفرد فى التاريخ الذى يصفونه بأنه «اختراع برجوازى» .. ويظن هيكل أن مثل هذا التفسير يتعسف مع التاريخ .. «وأول شاهد على تعسفه أنه يوقع أصحابه فى تناقض محرج .. ذلك أن مجتمعات هذه النظرية كانت بعينها المجتمعات التى استفحلت فيها عبادة الفرد .. ولست أرانى فى حاجة لأن أشير إلى الهالات المقدسة التى أحاطت برجال مثل كارل ماركس وفلاديمير اليتش لينين» (٢)

وتختلف قضية «عبادة» الفرد عن قضية «دور» الفرد فى التاريخ .. ولا تلغى أى نظرية سياسية هذا الدور .. «فالظاهرة موجودة ومتكررة عبر القرون الممتدة وليس لذلك كله معنى إلا إشارة إلى قانون يحدث أثره كلما توافرت شروطه .. لكن أحداً لم يصل بعد إلى صياغة كاملة له .. وهكذا يبقى دور الفرد فى التاريخ مفتوحاً لإجتهادات واسعة تحاول اكتشاف ظروفه وشروطه وتجرب صياغتها» .

هناك مدرسة قديمة ترى «أن دور الفرد ليس مجرد قانون ولكنه هو القانون» .. وهناك مدرسة حديثة ترى أن ظاهرة دور الفرد فى التاريخ تتلازم مع التخلف .. أما المجتمعات السابقة إلى الرقى فإنها لا تحتاجه .. لأن حياتها أصبحت ترتكز إلى شرائع دستورية تتجاوز هذا الدور» .. ولا تحتاجه إلا فى وقت أزمة أو محنة عارضة .. ونستون تشرشل فى بريطانيا فى وقت الحرب العالمية الثانية .. شارل ديجول فى الوقت نفسه لكن فى فرنسا .

ويفضل هيكل وهو يناقش هذه القضية أن يعود بالتخصيص إلى عبد الناصر .. ويروى أن هذه القضية كانت موضوع حوار ذات يوم بينه وبين الزعيم الفلسطينى صلاح خلف (أبو أياد) بعد رحيل عبد الناصر بحوالى ١٠ سنوات .. كانا يجلسان فى شرفة مكتب هيكل يجوبان العالم بالحديث .. ثم فجأة ساد صمت شرد فيه كل منهما .. ثم إذا أبو أياد يقول وكأنه يحدث نفسه : «هل يعقل أن يغيب رجل واحد من ساحة أمة فتختلف

أمورها إلى هذا الحد؟» .. وفهم هيكل إشارته .. وتركه يستطرد قائلاً: «لم يكن فى مقدور أحد أن يقنعنى أن فرداً واحداً يمكن أن يكون له تأثير لولا أن الحقيقة أمامنا: قبله كنا فى حال وفى وجوده أصبحنا فى حال وبعده ها نحن كما ترى .. حالنا يصعب على الكافر».

****

ويلخص هيكل دور عبد الناصر التاريخى: «رجل أعطته أمته يقيناً متجدداً بأنها موجودة وأعطى لهذا اليقين المتجدد بالوجود حركته التاريخية وأنجز بهذه الحركة مهاماً كبيرة على أرضها وحول أرضها وفى العالم» .

ويضيف: «إن الاعتراف لأى رجل تاريخى بدوره لا يعطى هذا الرجل ـ جمال عبد الناصر أو غيره ـ أكثر مما يستحق .. ثم هو لا ينزع عنه صفته كبشر معرض للصواب والخطأ .. وللنصر والهزيمة .. لكن معيار الحكم على هذا الرجل لا يكون بحساب مرات الصواب والخطأ ولا مرات النصر والهزيمة وإنما يكون المعيار هو: إلى أى مدى أستوعب الرجل حلم أمته وجسد أرادتها وحرك هممها .. ليس معنى ذلك أن الصواب والخطأ لا قيمة لهما وأن النصر والهزيمة لا حساب عليهما وإنما معناه أن تقييم الدور التاريخى له معادلات مختلفة .. والدليل على ذلك أن أى دور عادى ينتهى بانتهاء عمر صاحبه وأما الدور التاريخى فإنه يظل قضية حتى بعد انتهاء عمر صاحبها» .

وفى العصر الحديث فإن ونستون تشرشل مازال قضية وكذلك جوزيف ستالين وشارل ديجول وماوتسى تونج وجمال عبد الناصر .. لكن هيكل يرى أن قضية جمال عبد الناصر كانت ومازالت أعقد .. «ربما لأن الحركة التاريخية التى قادها لا تزال فى مفترق طرق حين غاب عنها .. ربما لأن الحركة التاريخية التى قادها أثرت فى منطقة لها حساسية خاصة بفعل الموقع والموارد .. ربما لأن الحركة التاريخية التى قادها تصادمت مع أكبر القوى وأعتى القوى وأغنى القوى فى هذا العصر والزمان» .

ولوقت طويل بعد رحيله كان كثيرون على طول المنطقة وعرضها يقفون أمام أى حدث وأى تطور وأى طارئ ويسألون أنفسهم: «ترى هل كان عبد الناصر يفعل نفس الشئ أو كان فعله مختلفاً؟ .. ترى هل كان مثل ذلك يحدث لو أنه كان هنا ؟ .. ترى كيف كان يمكن أن يفكر؟ .. كيف كان يمكن أن يقرر؟ .. كيف كان يمكن أن يتحرك؟» .

ووجد هيكل تطبيقاً عملياً مباشراً على ذلك .. كان قد فرغ من إلقاء محاضرة فى جامعة أوكسفورد عن مشاكل السلام فى الشرق الأوسط ـ وكان قد جرى بين مصر وإسرائيل ما جرى فى كامب ديفيد وما بعدها ـ وبعد انتهاء المحاضرة وجد نفسه وسط

مجموعة من الدارسين الشباب من جنسيات متعددة يحملون هموماً ثقيلة .. ولم تمض دقائق إلا وكانت الحلقة قد تحولت إلى حصار أسئلة .. وكان السؤال البارز المتكرر .. لو أن جمال عبد الناصر كان مازال هناك فهل كان يمكن أن يجرى هذا الذى جرى فى المنطقة؟.

ويقول هيكل: لقد تفرعت المناقشة وتشعبت ولكن اسم جمال عبد الناصر ظل اللحن الرئيسى فى المعزوفة بتنويعات متعددة .. تذكره بوضوح أو تشير إليه من طرف قريب أو بعيد .. ثم علا سؤال: لماذا يفعلون ذلك به؟ .. كان السؤال يقصد الحملة الشرسة التى عرض لها جمال عبد الناصر ضرباً وطعناً وتشهيراً من كافة الجوانب .

وقال هيكل: من هم الذين يفعلون؟ .. الذين يفعلون هم أعداؤه .. أعداء دوره أو أعداء ما يمثله فكرة وموقفاً وعملاً .. وهذا حقهم .. على الأقل طبقاً لقوانين الحرب .

ولم يقنع صاحب السؤال ويسكت وإنما استطرد: وإلى متى؟ .. فقال هيكل: لا أعرف إلى متى ولكن الطريق مازالت لها بقية .. هل تذكر تاريخ بريطانيا؟ .. ماذا حدث لكرومويل بعد أن ضربت الثورة الإنجليزية الأولى وعادت الأسرة الملكية من المنفى؟ .. ماذا فعلوا بكرومويل؟ .. كان كرومويل قد مات قبلها بسنوات ولكن الملوك العائدين لم يقنعوا بالموت وإنما أجروا محاكمة للثورى الإنجليزى العظيم .. ثم أدانوه فى محكمة القرود وأصدروا عليه حكماً بالإعدام وقرروا تنفيذه .. وهكذا استخرجت عظام كرومويل من القبر وعلق هيكله العظمى فى حبل مشنقة واعتقدوا أنهم بلغوا منه ما يريدون .. وأين هم هؤلاء الملوك الآن؟ .. وأين كرومويل؟ .. لا يذكر تاريخ بريطانيا إلا وذكر اسم كرومويل لأنه كان دوراً تاريخياً .

وكان السؤال: ألا نتعلم من التاريخ؟ .

وأجاب هيكل: «قليلون يتعلمون .. ولذلك فإن الذين لا يتعلمون من التاريخ محكوم عليهم بتكراره» .

إن إيمان هيكل بعبد الناصر هو الذى دعم - أو ربما خلق - إيمانه بدور الفرد أو البطل فى التاريخ .. لقد كان عبد الناصر بالنسبة له ظاهرة بشرية استثنائية .. كانت قادرة على تجاوز الحسابات .. واحتملت ما لا تحتمل الجبال .. وقد عبر هيكل عن ذلك بمقال يستحق أن نتوقف عنده .. نشره فى يوم ١٠ يناير ١٩٦٠ .. فى اليوم التالى لتحويل مجرى نهر النيل تنفيذاً لمشروع السد العالى .. أى فى ذروة التألق الناصرى .. كان عنوان المقال «تحية له» .. لجمال عبد الناصر .. تحدث فيه عن تجارب النجاح والقلق من قيام الثورة - مروراً بحرب السويس - وحتى تحويل مجرى نهر النيل .. تمهيداً لإستكمال حلم بناء السد العالى.

الهوامش

(١) هيكل: مقال بصراحة المنشور فى الأهرام فى ٢٥ مايو ١٩٦٢ بعنوان «الأمة ودورها فى صنع البطل ودور البطل فى حياتها» .

(٢) هيكل: كتاب «السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة» ـ مرجع سبق الإشارة إليه وقد كان هذا المرجع هو المصدر الأساسى فى تفسير إيمان هيكل بنظرية الفرد التاريخية .

■ ٢٦ ■

الصحافة بين الحرية والحكومة

■ فى منتصف مايو ١٩٦٠ دعا جمال عبد الناصر معظم رؤساء تحرير الصحف المصرية لاجتماع عاجل وسرى معه .. كانت التعليمات تقضى بعدم الإشارة إليه قبل وبعد حدوثه .. وبعد ثلاث ساعات من الحوار المتسم بالقلق والحرج خرج الجميع من قصر القبة فى حالة غير التى كانوا عليها لحظة دخولهم .

فى ذلك اليوم أعلن جمال عبد الناصر تأميم الصحافة أو تنظيمها .. لا فرق .. فالواقع الذى عاشته الصحافة منذ ذلك اليوم حتى الآن .. أكثر من ٤٠ سنة .. يؤكد أن حريتها خرجت ولم تعد .. وأن حريتها فقدت إلى ما شاء الله .

لقد تلقت الصحافة المصرية جزاء سنمار .. أيدت الثورة .. وخاضت معاركها .. وتغنت بانتصاراتها .. ثم جاء الوقت لتدفع الثمن .. حريتها .. وتحويلها إلى موظفة أميرية .. حكومية .. تفقد أصولها .. وتضيع حرفتها .. ويصبح البقاء فيها للأكثر تجسساً على زملائه .. وللأكثر نفاقاً للسلطة .. وفى النهاية على الجميع أن ينتظروا التعليمات .. وقد كان الصحفيون يدفعون الثمن بدخولهم السجن .. أما الآن فالسجن قد جاء إليهم .. فقد تحولت مؤسساتهم إلى معتقلات .

فى الاجتماع وجه جمال عبد الناصر جام غضبه على إحسان عبد القدوس وقال بالحرف الواحد: «أنا لا أسمح أن تدخل مجلات صباح الخير وروز اليوسف لبيتى» .. ثم توجهت قذيفة اللهب إلى مصطفى أمين وأستطرد جمال عبد الناصر: «أنا أخجل من الصور العارية التى تنشرها مجلة آخر ساعة» .. وعندما حاول إحسان عبد القدوس أن

يفسر الدافع الاقتصادى وراء ما ينشر فى مجلاته خاصة بعد فرض رقابة ثقيلة على الأخبار والتحقيقات السياسية بدا أن جمال عبد الناصر لا يحتمل المناقشة ..

وقال: أنت بتقول إيه يا إحسان؟ .. إذا كانت المسألة مادة وبيع ومكاسب وربح .. هناك أساليب أخرى تضمن لك ربحاً أكثر وأوفر .. الواحد يبقى تاجر أعراض ويفتح بيوت دعارة سرية» .. وكاد يغمى على إحسان . (١)

وحسب رواية شاهد عيان حضر اللقاء: «تسابق الصحفيون فى تأييد قرار تأميم الصحافة» .. تزلفاً ونفاقاً للرئيس الذى جاء ينعى لهم صحافتهم .. لقد نهض فكرى أباظة ـ بوقاره وشيخوخته واسمه ـ كى ينكت وينافق لكن الرئيس تجاهله .. فوقف السيد أبو النجا مدير عام أخبار اليوم كى يتحدث فى موضوع الورق .. ورق .. ورق إيه يا دكتور .. وتجاهله جمال عبد الناصر هو الآخر فجلس كالمشدود إلى عامود خشبى بانتظار أن ينفذ فيه حكم الإعدام . (٢)

وخرج الجميع من الاجتماع وعلى رؤوسهم الطير .. كامل الشناوى لم يذهب كعادته إلى كافتيريا فندق الهيلتون للإلتقاء بأصحابه ومعاكسة بنات الكافتيريا وانتظار مكالمة تليفونية من المطربة نجاة الصغيرة .. وعلى أمين أشعل السيجارة العاشرة بعد المائة قبل أن يأتى المساء .. وصلاح سالم تمتم ببعض اللعنات للجميع .. وموسى صبرى اكتفى بإغلاق باب مكتبه على نفسه منتظراً استدعاء مصطفى أمين .. وأحمد بهاء الدين عاد إلى منزله ولم يخرج ليلتها من غرفة نومه .. وفكر فى الصباح أن يعتزل الكتابة لكنه سرعان ما أخذ طريقه إلى مكتبه .. أما إحسان عبد القدوس فقد كان الأكثر تصميماً على تنفيذ قراره بالتخفيف من الكتابة السياسية وزيادة التورط فى الكتابة الروائية .. الاجتماعية والعاطفية .

ولم تمر عدة أيام على هذا اللقاء ـ الذى لم يسمح جمال عبد الناصر بنشر ما جرى فيه ـ حتى صدر قانون الصحافة فى ٢٤ مايو ١٩٦٠ .. القانون رقم ١٥٦ لسنة ١٩٦٠ .. وهو القانون الذى يحكم الصحافة ـ بصورة أو بأخرى ـ حتى الآن .. رغم تغير الظروف السياسية والأوضاع الاقتصادية فيما بعد .. لقد أسدلت الستائر السوداء (بلاك أوت) على الصحافة ولم ترفع من يومها .

****

لكن .. من ناحية أخرى .. لم تكن الصحافة بريئة أو نقية أو زهرة برية .. كانت تتفجر فساداً ونفاقاً .. وكان كل هم أصحابها جمع مغريات الحياة فى شباك المتعة .. المال .. النساء .. السلطان .. والتوحش فى مواجهة الخصوم.

إن كشوف المصاريف السرية التى كان يتقاضاها صحفيون وتتقاضاها صحف ومجلات من وزارة الداخلية قد أسقطت الكثيرين فى نظر ثوار يوليو الذين كانوا فى مرحلة البراءة والنقاء .. لقد شعروا أن الكتاب والصحفيين الذين قرءوا لهم وأعجبوا بهم ليسوا إلا عرائس متحركة بين أصابع القوى الخفية .

ولم يصدق جمال عبد الناصر نفسه وهو يقرأ ما كتبه مصطفى أمين عن فضائح وغراميات وفساد الملك فاروق .. هل هو نفسه مصطفى أمين الذى بدأ مشوار أخبار اليوم بالدفاع عن الملك فاروق والهجوم على حزب الأغلبية .. حزب الوفد .. فى سلسلة المقالات الشهيرة: لماذا ساءت العلاقة بين الوفد والقصر؟ .

وربما نكشف سراً لو قلنا أن الذى قام بالوشاية بين الثورة ومصطفى أمين ـ وهو ما أدى إلى اعتقاله هو وشقيقه على أمين بعد أيام من الثورة ـ هو كاتب وصحفى وشريك فى صحيفة .. هو الذى اتهمه بالتآمر على الثورة وهى لا تزال فى المهد .

ولم يتردد أحمد أبو الفتح فى الدعاية السياسية المضادة والشرسة ضد الثورة فى وقت لم تكن فيه قد وقفت على قدميها .. لقد تعرف جمال عبد الناصر على أحمد أبو الفتح عن طريق صهره ثروت عكاشة الذى كان عضواً مرموقاً فى تنظيم الضباط الأحرار .. ولم ينس جمال عبد الناصر له أنه كان وراء التحذير الشهير بأن القصر يعرف بأمر التنظيم وأنه على وشك القبض على ١٣ ضابطاً ممن ينتمون إليه .. لذلك كان صوته مسموعاً لدى مجلس الثورة فى الفترة المبكرة .. ثم أنه كان حلقة الاتصال بين الثورة وحزب الوفد فى تلك الفترة .

لكن .. وحسب تفسير هيكل فى كتابه: «لمصر لا لعبد الناصر» بدأت الخلافات تدب فى العلاقة بينه وبين جمال عبد الناصر مع بداية عام ١٩٥٣ .. وكان لهذه الخلافات ثلاثة أسباب:

(١) سبب سياسى هو تفسير كل منهما للديمقراطية .. «كان جمال عبد الناصر يرى أن أى تعبير سياسى انعكاساً لحقائق اجتماعية واقتصادية وإذا كان المطلوب إقامة ديمقراطية سياسية سليمة فى مصر تعبر عن رأى الأغلبية وسلطتها فإن ذلك لن يتأتى إلا إذا كانت الحقائق الاجتماعية والاقتصادية فى الوطن تعطى لهذه الأغلبية وزنها وثقلها» .. وكان رأى أحمد أبو الفتح يختلف عن ذلك .. فقد كان يرى أن حل مشكلة الديمقراطية هو بإجراء الانتخابات فوراً .. حتى لو أدت إلى إعادة العناصر القديمة إلى السلطة .

(٢) سبب نفسى مرجعه أن أحمد أبو الفتح بالغ - ربما بحسن نية - لدى أصدقائه القدامى فى أهميته بالنسبة للسلطة الجديدة .. «وبالتالى فقد كان حزبه وجماعته وأسرته ينتظرون منه أن يحقق أشياء عجز عن تحقيقها وبإحساسه بالحرج فقد تحول خلاف الرأى إلى عناد ثم إلى عداء» .

(٣) سبب يعود إلى أن أحمد أبو الفتح كان يشعر بوفاء شديد لأخيه محمود أبو الفتح .. لكن محمود أبو الفتح كان قد ترك الصحافة وجريدة «المصرى» له وتفرغ تماماً لدور رجل الأعمال .. وأحس أحمد أبو الفتح أن أخاه لا يأخذ ما يعتبره هو حقاً له وأن فرصاً كثيرة ضاعت أو ضيعت عليه لأسباب لا يعرفها .

ويستطرد هيكل: «ولعل أكثر يوم شعرت فيه بأبعاد أزمة أحمد أبو الفتح هو يوم أتيح لى أن ألتقى فيه بشقيقه محمود أبو الفتح فى بيروت .. فى شهر يناير من سنة ١٩٥٤ .. كنت عائداً من دمشق عن طريق بيروت .. وفى فندق «سان جورج» التقيت بمحمود أبو الفتح ووقفنا فى ردهة الفندق نتبادل أحاديث مجاملات .. ثم سألته عن أحمد وكان قد غادر القاهرة إلى جنيف .. وقال لى محمود: إنه يريد أن يجلس لحديث طويل معى عن العلاقات بين جمال عبد الناصر وأحمد أبو الفتح .. وجلسنا نحن الاثنان تلك الليلة فى ركن من صالون «السان جورج» نتحدث حتى الساعة الرابعة صباحاً .

«وبعد أيام من عودتى إلى القاهرة كان محمود أبو الفتح قد أتصل بالدكتور السيد أبو النجا المدير العام لجريدة المصرى وقتها وطلب منه أن يتصل بى لكى نرتب ما اتفقنا عليه فى بيروت .. وكنا قد اتفقنا على ترتيب مقابلة بين جمال عبد الناصر وأحمد أبو الفتح .. والتقيت مع السيد أبو النجا وكان يريد أن يستوثق من نقطة معينة هى أن أضمن عودة أحمد أبو الفتح إلى جنيف مهما كانت نتائج مقابلته مع جمال عبد الناصر .. وتعهدت للسيد أبو النجا أن أكون فى استقباله وأن أكون فى وداعه .. وجاء أحمد أبو الفتح وذهبنا معاً إلى بيت جمال عبد الناصر وجلسنا ثلاثتنا لحديث طال أربع ساعات .. وفى الواقع كان الحديث بين الاثنين .. وكنت أتابع ما يدور بينهما صامتاً .. أتدخل أحياناً عندما تظهر عقدة فى حباله .. لكن الخلاف كان واضحاً بين الاثنين فى الآراء والمواقف .

«وارتفعت درجة حرارة الحديث مرتين: مرة عندما أثار جمال عبد الناصر مسألة الاتصالات التى يقوم بها أحمد أبو الفتح فى أوروبا وفى العالم العربى - خصوصاً مع نورى السعيد رئيس وزراء العراق وقتها والمروج لفكرة حلف بغداد - وكان رد أحمد أبو الفتح أن علاقات أخيه بنورى السعيد هى علاقات رجل أعمال يورد مهمات لمشروعات

تنفيذ فى العراق إلى جانب اهتمامه بتوريد السلاح كوكيل لبعض شركاته» ..وكان رأى جمال عبد الناصر ـ بناء على معلومات لديه أن العلاقات والاتصالات فيها عنصر سياسى.

ثم ارتفعت درجة حرارة الحديث مرة أخرى عندما تساءل أحمد أبو الفتح: «لماذا تضار مصالح أخى محمود فى مصر ولا يحصل على حقه؟» .. وسأله جمال عبد الناصر: «وهل حدث ذلك؟ .. ورد أحمد أبو الفتح: «نعم .. إن أخى تقدم لمشروع أتوبيسات النقل فى القاهرة ولكن عبد اللطيف أبو رجيلة أخذ المشروع ولم يأخذه محمود أبو الفتح .. ثم أن محمود أبو الفتح تقدم وكيلاً عن شركة سلاح يعرض بندقية من عيار ٨٦ وهذه هى البندقية التى أقرت لحلف الأطلنطى ومعنى ذلك أنها ممتازة ولكن اللجنة العسكرية التى تشرف على مشتريات السلاح رفضتها» .

وبدت الدهشة على وجه جمال عبد الناصر وسأل: «وهل تتصور أن لى علاقة بذلك .. إننى لا أتدخل فى مثل هذه الشئون .. هذه مسائل تقررها الوزارات المسئولة» .. وبدأ الضيق على ملامح جمال عبد الناصر وشاع الأسف فى نبرة صوته وهو يقول بالحرف «جرى أيه يا أحمد .. أتوبيسات أيه وبنادق أيه؟» .

«وكان واضحاً أمامى أن الحديث سار إلى طريق مسدود .. وذهبت أودع أحمد أبو الفتح طبقاً لما تعهدت به وأقلعت الطائرة التى استقلها إلى جنيف .. وفى الأسابيع التالية بدأت اسمع من جمال عبد الناصر أكثر من مرة وبأسف أكثر من غضب عن النشاط المنسوب إلى أحمد أبو الفتح فى أوروبا وفى بعض العواصم العربية وبالذات بغداد نورى السعيد .. ثم عرفت فى ٢٧ إبريل ١٩٥٤ أن نشاط أحمد أبو الفتح أحيل إلى محكمة الثورة وأن قرار الإدعاء ضده ينص على: «أنه أتى أفعالاً ضد سلامة الوطن من شأنها إفساد أداة الحكم وذلك أنه فى غضون عام ١٩٥٤ وما قبلها أرتكب الأفعال التالية: (١) قام بدعايات واتصالات ضد نظام الحكم القائم بقصد تقويض النشاط القومى للبلاد . (٢) أغرى موظفاً عمومياً بطرق غير مشروعة على المساهمة فى إتمام صفقة تجارية لمصلحته الذاتية» .

«وفى يوم ٢ مايو ١٩٥٤ أصدرت محكمة الثورة حكمها وكان الحكم إلى جانب السجن والمصادرة ينص بالحرف الواحد على «سحب رخصة جريدة المصرى منه وبذلك تعطل الجريدة عن الصدور ابتداء من اليوم» .. وكان تشكيل محكمة الثورة من: عبد اللطيف البغدادى رئيساً وأنور السادات عضو يمين وحسن إبراهيم عضو يسار .. ثم عرض الحكم على محمد نجيب فصدق عليه» .

إن أوضاع الصحافة لم تكن مرضية .. ولم تكن محل رضاء جمال عبد الناصر .. فلم يتردد هيكل فى التعبير عن ذلك منذ الساعات الأولى للثورة .. ويعترف هيكل قائلاً :

«إنه منذ أول يوم فى الثورة لم يكن جمال عبد الناصر راضياً عن الظروف المحيطة بملكية الصحافة فى مصر .. كان يعتقد أن «آل زيدان» أصحاب دار الهلال و «آل تقلا» أصحاب الأهرام و «آل نمر» أصحاب المقطم قد أدوا دورهم فى مرحلة معينة من تاريخ مصر .. لكن مصر الآن أمام مرحلة جديدة لا يستطيعون مسايرتها .. وكانت له تجربة مزعجة مع «آل أبو الفتح» أصحاب المصرى .. كما أن علامة استفهام ظلت أمامه طول الوقت على «آل أمين» أصحاب أخبار اليوم .. ولم يكن جمال عبد الناصر فى أى وقت من الأوقات يفصل بين المال وهوى صاحبه وكان رأيه أن هوى كل صاحب مال يرتبط بمصالحه وغير ذلك غير جائز وإذا جاز فهو مؤقت تفرضه ضرورات» (٢).

باختصار لم يكن جمال عبد الناصر راضياً عن الملكية العائلية للصحف وظلت هذه القضية تؤرقه وتشغله طوال ٨ سنوات .. من ثورة يوليو إلى تنظيم المهنة .. ولم يكن هيكل من جانبه يرضى عن أوضاع الصحافة .. لكنه فى الوقت نفسه كان يرى أن تأميم الصحافة وتحويل ملكيتها من العائلات إلى الدولة كارثة الكوارث .. على أنه كما يقول «لم يكن هناك حل وسط» . (٣)

فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ كتب هيكل مقالاً بعنوان «حرية الرأى» عبر فيه عن ما كان يرفضه جمال عبد الناصر فى الصحافة الخاصة .. لكنه لم يتصور أن ذلك سيؤدى بعد أقل من سنتين (بالتحديد بعد سنة وخمسة شهور و ٢٦ يوماً) إلى تأميم الصحافة .. أكثر الشرين صعوبة وأصعبهما قسوة (الملكية الخاصة والملكية العامة) ..

قال هيكل فى المقال :.

«من أهم المسائل التى نواجهها اليوم مشكلة حرية الرأى .. بل أنها أكبر كثيراً من الحد المفهوم من وصف «المشكلة» .. ذلك أنه فى هذه المرحلة من تاريخ وتطورنا السياسى والاجتماعى والفكرى لابد أن يبرز الرأى الحر ليكون المقدمة الحقيقية للركب وهو يسير والدليل الأمين للقافلة وهى تسعى نحو المستقبل .. ولكن الرأى الحر فى بلادنا لا يمارس الآن هذا الدور الخطير .. لعدة أسباب ..

«أسباب عامة تتصل بظروف الحياة .. وأسباب خاصة متصلة بأدوات التعبير عن الرأى ووسائله .. من الأسباب العامة مثلاً: أنه فى ظروف الحياة السريعة التى نعيشها الآن طغى الخبر على الرأى وغطت الحادثة على الفكرة .. ومن الأسباب الخاصة المتصلة

بأدوات التعبير أن الصحافة وهى أول هذه الأدوات تعيش تحت رقابة قاسية .. والمحنة الحقيقية أن هذه الرقابة ليست فرضاً على الصحافة من الخارج وإنما هى قيد من الداخل ..

والأسباب كثيرة .. أولها ـ أن صحافتنا فى كثير من الأحيان لم تستطع أن تتحول بعد عن كونها صحافة شخصية ومن هنا فإن تعبيرها عن «الرأى الخاص» لأصحابها ومحرريها أشد ظهوراً من تعبيرها عن «الرأى العام» لمجتمع بأكمله على اختلاف طبقاته .. ثانيهما ـ أن صحافتنا حين أعوزها إيمانها الأصيل بغايات محددة ووسائل إلى هذه الغايات تركت رسالة التوجيه واقتصرت على «المسايرة» .. «مسايرة» الحوادث على علاقتها و «مسايرة» التطورات كما تجئ .. من هنا وهذه حقيقة فرضت الصحافة على نفسها ما لم يفرضه عليها غيرها أخذا بالأحوط والأسهل وإيثاراً للعافية والسلامة .

إن الحقيقة ـ أننا ـ نحن الصحافة سكتنا حين زحمتنا الحوادث فلم نجد لنا فى وسطها رأيا وحين بقينا على هامش التطورات نسايرها .. ولا نغوص فى أعماقها بحثا عن الإيمان نجاهر به ونقاتل دفاعا عنه .. على أنه ينبغى أن يكون هناك مفهوم لحرية الرأى .. إن حرية الرأى ليست العناوين الثائرة الغاضبة على شخص بعينه وليست الحملات المنطلقة فى ضراوة ووحشية تبحث عن كبش فداء .. إن حرية الرأى هى حرية المناقشة .. إن الفكرة المتحررة داخل العقل مقدمة .. وانطلاق هذا الفكر حديثا ناطقا على اللسان أو حديثا صامتا على الورق نتيجة .. وبغير المقدمات لا يمكن الوصول إلى النتائج وبغير النتائج لا تصبح للمقدمات فائدة .. هذا هو فهمنا لحرية الرأى» .. أنتهى .

وواضح أن هيكل جنح ـ فى الخلاف بين الصحافة والثورة ـ ناحية الثورة .. فالصحافة لم تمارس رقابة على نفسها من الداخل تهرباً من الحرية أو استجابة لسرعة العصر التى جارت على الرأى لصالح الخبر وجارت على الفكرة لصالح الحادثة .. ولكنها خشيت من الضربات المتلاحقة التى تعرضت لها بعد الثورة .. وهو ما فرض مناخاً بوليسياً فى داخل مكاتب الصحف والمجلات .. لم تعد فيه الموهبة هى الأساس وإنما العلاقات بمصادر القوة ومنابع السلطة .. وجعل الأقلام تتسابق للتأييد ولما هو أكثر من التأييد .. كذلك فإن هيكل يحاول فرض مفهوم ضيق لحرية الرأى يحصر هذه الحرية فى المناقشة ولا يمتد إلى ما يرفضه من الحملات الصحفية على شخص أو تصرف .. لكن ذلك كله لا يمنع الاعتراف بأن هيكل فوجئ بقرار تنظيم الصحافة .. ثم أنه صدم فيه .. وحاول التخفيف منه .. لكنه فى النهاية لم يقدر على مواجهة الشلال المندفع بقوة من أعلى .

فى كتابه «الصحافة والسياسة» الذى نشره بعد تنظيم الصحافة بربع قرن من الزمن يقول أن جمال عبد الناصر دعاه إلى ما وصفه هيكل «بواحدة من أصعب مقابلاتنا» .

وقال جمال عبد الناصر له: «إنه مهما كانت أرائك فى الصحافة فقد وصلت الآن إلى اقتناع كامل بأننى لا أستطيع أن أترك الأمور كما هى» .. واستطرد مؤكداً أنه لا يريد أن يتخلص من احد .. لأنه لو أراد فإن لديه السلطة والشجاعة لينفذ .. وأضاف: «أننا مقبلون على تحولات اجتماعية كبيرة وقد بدأت هذه التحولات بتأميم البنك الأهلى وبنك مصر (صدر قرار تأميمهما فى ١١ فبراير ١٩٦٠) وإذا كنا نريد إجراء خطة للتنمية فلا بديل عن سيطرة المجتمع على وسائل المال والإنتاج .. ولا أستطيع عقلاً ولا عدلاً أن أفرض سيطرة المجتمع على الاقتصاد ثم اترك لمجموعة من الأفراد أن يسيطروا على الإعلام .. أنهم لا يسيطرون الآن عملياً لأن الثورة قوية وذلك مجرد خوف وأنا لا أثق فى خائف خصوصاً إذا تغيرت الظروف .. ثم أن المرحلة الجديدة من التحويل الاجتماعى تحتاج إلى تعبئة اجتماعية شاملة وأعرف أن الموجودين الآن سوف يصفقون لأى قرار لكن المطلوب شئ آخر غير التصفيق» .

وكانت مخاوف هيكل على المهنة ـ كما قال ـ واضحة .. لكن كان اقتراح جمال عبد الناصر له: «فكر فى أية ضمانات تريدها للمهنة ولنلتق هنا غداً فى الساعة الحادية عشر صباحاً وسوف يكون معنا محمد فهمى السيد .. المستشار القانونى للرئاسة» .

ويستطرد هيكل: «وفى اليوم التالى حاولت بكل ما أستطيع .. وربحت بعض النقط وخسرت بعضها الآخر .. ربحت فيما أظن عندما استبعدت منطق التأميم بحدوده القاطعة ووصلنا إلى صيغة تسمح بمرونة .. وهكذا كان «تنظيم الصحافة» وليس «تأميمها» .. وحاولت أن أجعل الملكية مشتركة بين التنظيم السياسى وبين جمعية العاملين فى كل دار صحفية: ٥٠ ٪ لكل فريق .. ولم يقبل جمال عبد الناصر وخرج باقتراح وسط .. انتقال الملكية إلى التنظيم السياسى (الاتحاد القومى فى ذلك الوقت ثم الاتحاد الاشتراكى فيما بعد) وليس إلى الدولة واحتفاظ كل صحيفة بأرباحها داخلها ثم توزيع هذه الأرباح مناصفة: نصف للتجديد والإحلال فى دور الصحف ونصف لجمعية العاملين فى كل دار صحفية .. واعترضت على المذكرة التفصيلية للقانون .. فقد أحسست أن المنطق والمبررات الواردة فيها يمكن أن تحتمل ما يمكن اعتباره نقداً لما كانت عليه الأحوال فى المهنة .. الأمر الذى استوجب إعادة ترتيب هذه الأحوال بالقانون .. واشهد أن جمال عبد الناصر كان صبوراً

.. فقد قال لى : «دعك من مذكرة فهمى وأكتب أنت واحدة غيرها» .. وكتبت مذكرة كانت فى الواقع إعلاناً بتأكيد حرية الصحافة أكثر منها مذكرة تفسيرية للقانون» .

* * * *

ويعترف هيكل بأن مخاوفه من القانون الجديد كانت ذاتية .. ويضيف: «ففى ذلك الوقت كان قد مضى على فى رئاسة تحرير الأهرام ثلاث سنوات .. وكان التيار فيها قد تحول: فالأهرام بدأ يربح بدلاً من الخسارة .. ثم أن توزيعه بدأ يصعد بدلاً من الهبوط .. وكنت قد اتفقت مع مجلس الإدارة وأنا أعرض أمام أعضائه تقريرى الأول عن خطة العمل التى اقترحتها ـ أنه إذا حقق الأهرام أرباحاً فإنه يكون مسموحاً لى أن أبدأ بتطوير منشآت الأهرام (المبنى والمطابع) .. والآن كان تخوفى أن مشروع تطوير الأهرام قد يتوقف بعد أن بدأ خطواته الأولى .. فالقانون الجديد يضعنا أمام احتمالات مجهولة لا أعرف هل أستطيع فى ظلها أو أواصل أو أنه سيفرض على أن أطوى ملفات الخطط والبرامج والرسوم مودعاً حلمى إلى الأبد» .

لكنه .. يستطرد: «وصباح اليوم الذى أذيعت فيه نصوص القانون دعوت أسرة تحرير الأهرام إلى اجتماع عام كى أتشاور معهم فى الأوضاع الجديدة .. وشرحت لهم فى البداية موقفى .. قلت: أننى «لم أكن متحمساً للقانون من ناحية المبدأ» .. وفوجئت بالزميلة الراحلة السيدة جاكلين خورى تقاطعنى قائلة: «هل نستطيع أن نسألك «لماذا؟» .. أليس الوضع فى ظل القانون الجديد أحسن مائة مرة للمهنة وللصحفيين من الملكية الخاصة للصحف؟» ..

«وبدا لى أن تياراً قوياً يؤيدها .. ودهشت .. واستطردت أشرح مجمل الأسباب التى تدعونى ـ من ناحية المبدأ ـ للتخوف .. وكان أولها قلقى من احتمالات تدخل التنظيم السياسى (الاتحاد القومى وقتها ثم الاتحاد الاشتراكى فيما بعد) الذى انتقلت الملكية إليه فى سياسات الصحف وتوجيه تحريرها بدعوى القانون .. ثم كان هناك تخوفى من احتمال تأثير الظروف الجديدة على مشروعنا لتطوير الأهرام وقد قلت للجميع أننا أمام معركة جديدة ويجب أن نقاتل فيها» .

ويواصل هيكل روايته:

«وعند الظهر اتصل بى جمال عبد الناصر تليفونياً معاتباً: «إن تقريراً وصل إليه عما قلته فى اجتماع محررى الأهرام ومع تقديره لكل الظروف فهو يرى أننى أضعف موقفى

بهذه المسافة التى أريد أن أضعها بينى وبين القانون الجديد .. وأنه سمع تحفظاتى من ناحية المبدأ وحاول بكل جهده أن يريحنى فى التفاصيل .. وبذلك فإنه لم يعد هناك داع لأن أعود فأتخذ موقفاً سلبياً من القانون .. خصوصاً وأن هناك من قد ينتهزون هذه الفرصة ضدى» .

ثم قال جمال عبد الناصر:

«إنهم حاولوا أن يصوروا لى قولك: بأننا يجب أن تقاتل على أساس أنها معركة ضد القانون .. وقد قلت لهم أن هذا التعبير يجرى على لسانك كثيراً فى صدد مواجهة أى عقبة .. وأن ذلك لا يعنى أنك فى معركة ضد القانون وإنما أنكم فى معركة لإثبات أنفسكم فى الأهرام فى ظل القانون» .

«وحين انتهت المكالمة كنت أشعر بعرفان شديد لصبره وأظننى أيضاً كنت أراجع نفسى وأسائلها ما إذا كانت وساوسى وهاوجسى قد تجاوزت بى الحد المعقول» .

وكتب هيكل عدة مقالات عن القانون الجديد .. أتصور أنها تستحق أن نقرأها كما هى بنصوصها.

* * * *

«قد قصدت أن أنتظر يومين أو ثلاثة قبل أن أتكلم فى موضوع تنظيم الصحافة .. قصدت أن أنتظر يومين أو ثلاثة لتكون الدوائر المتوالية المتسعة التى حدثت نتيجة لإلقاء الحجر فى الماء قد وصلت إلى مداها ويكون التأمل فى أثار الفعل الذى تم قد حقق مستلزماته فى التفكير والتحليل ..

وقبل أن ندخل فى صميم الموضوع لابد أولاً من مناقشة لبعض الافتراضات حتى نحدد ما يمكن منها أن يكون أساساً للكلام ونستبعد منها ما لا يصلح أن يكون ركيزة لمنطق أو قياس ..والافتراضات التى يمكن أن تناقش جميعها تبدأ بسؤال واحد: هل كان التنظيم الذى صدر منذ يومين أو ثلاثة يستهدف تحقيق هوى أم انه كان تطبيقاً لمبدأ؟ .. ونبدأ نستعرض افتراضات الاحتمال الأول وهو أن يكون التنظيم الجديد استهدافاً لتحقيق هوى .. وفى هذه الحالة: ما الذى يمكن أن يكون هذا الهوى؟ .. هل يمكن أن يكون «هوى» الدولة من هذا التنظيم أن تكبح جماح معارضة عنيفة ضد سياستها فى الصحف؟ .. معارضة تهز أركانها وتزلزل دعائمها؟ .. والرد البديهى على ذلك بالنفى الواضح ..

أولاً ـ لأن مفهوم الدولة عندنا استقام معناه منذ تحملت ثورة يوليو مسئولياتها التاريخية باعتبار الحكومة التي يبحث عنها إرادة شعبية .. لم تعد الحكومة مجموعة أمراء من قولة ومجموعة مستشارين من لندن ومجموعة إقطاعيين وانتهازيين يتأرجح ولاؤهم ما بين قولة ولندن .. لم تعد صلة الشعب بالحكومة صلة الصيد بالصائد على حد تعبير سعد زغلول وإنما أصبحت الصلة هى صلة الكيان بالإرادة .. الشعب هو الكيان كله والحكومة هى إرادة هذا الكيان ..

وثانياً ـ لأن الشعب يستفتى كل يوم تقريباً فى أمر حكومته وتأييده الكاسح لها ظاهر فى وقوفه الصلب العنيد بجانب سياستها وفى إظهاره بكل الوسائل إنها ـ هذه السياسة ـ تعبير عملى عن إرادته تستوى فى ذلك جميع مجالات السياسة الخارجية منها أو الداخلية ..

ثالثاً ـ لأن الصحافة بالفعل مهما كانت أوضاعها لم يكن أمامها إلا أن تعكس ذلك كله وكان تعبيرها عن تأييد الشعب لحكومة ٢٣ يوليو ـ وإن اختلفت أساليبه ـ كاملاً وظاهــراً ..

وننتقل بالمناقشة إلى نقطة أخرى .. إذا لم يكن «هوى» الدولة من هذا التنظيم هو كبح جماح معارضة عنيفة ضد سياستها فى الصحف والمناقشة الحرة الطليقة الصريحة للأمر تقطع بأنه ليس كذلك .. فهل يمكن أن يكون هذا الهوى هو الرغبة فى إضافة موارد الصحف إلى خزينة الدولة علها تسد عجزاً أو تواجه نفقة؟ .. والرد البديهى على ذلك ـ أيضاً ـ هو بالنفى الواضح ..

أولاً ـ لأن مجموع ما تكسبه الصحف التى خضعت للتنظيم لا يزيد على مائة أو مائتى ألف من الجنيهات كل سنة وهو مبلغ لا يمكن أن يكون فى خزينة الدولة غير قطرة فى بحر إذا تذكرنا أن ميزانية الدولة ـ فى الإقليم المصرى وحده ـ تزيد عن خمسمائة مليون جنيه فى السنة ..

وثانياً ـ وهذا هو الحد الفاصل فى أمر هذا الافتراض أن قانون تنظيم الصحافة الجديد جعل فائض ربح الصحف كلها لها .. نصفه يصرف لعمالها وموظفيها ومحرريها مكافأة عن جهدهم ونصفه الآخر يرصد لأعمال التجديد والتوسع تدعيماً لوجودها وتعزيزاً لإمكانياتها .. ونخلص من هذا كله بأن «هوى» الدولة لا يمكن أن يكون هدف التنظيم الذى تم منذ يومين أو ثلاثة وعلى هذا لا يتبقى من احتمال الهوى واحتمال المبدأ إلا ثانيهما ..

أى أن الأمر كان تطبيقاً لمبدأ .. ولربما كان هناك من يقول لى وقد وصلنا إلى هذا الحد من الكلام: هذه الطريقة التى تناقش بها هى منطق التشكيك .. إن هذه الطريقة تبدو وكأنها دفاع عن التنظيم الذى تم وتبرير له .. وأقول على الفور: ربما ولقد قصدت ذلك على أى حال .. قصدت أن أبدأ المناقشة من تحت الصفر لكى لا يكون «الواحد الصحيح» افتراضاً يلقى للمناقشة دون أساس تتحدد عنده نقطة البداية .. ولكى يكون الواحد الصحيح هنا نتيجة منطقية بجانب كونه نتيجة بديهية ..

نتيجة منطقية باعتبار أن هذا التنظيم كان تطبيقاً لمبدأ .. وحقيقة بديهية على أساس أن وسائل التوجيه فى مجتمع اشتراكى لا يمكن أن يكون زمامها إلا للشعب ذاته .. ومع ذلك فلماذا نأخذ الحقيقة البديهية كذلك وكأنها حكم أنزل من السماء؟ .. ولماذا لا نضع هذه الحقيقة مهما كانت درجة البداهة فيها موضع المناقشة والاختيار؟ ..

ونسأل أنفسنا: ما هى الصحافة؟ .. والردود دون حذلقة وشرود وراء الضباب: أن الصحافة أداة من أدوات الرأى العام أداة فى خدمته تنقل إليه وتنقل عنه .. تنقل إليه الأخبار والأفكار وتنقل عنه صداها فى نفسه وتفاعله معها .. هكذا فإن الصحافة تفقد كل خصائصها وكل قداستها إذا ما تحولت من كونها أداة من أدوات الرأى العام إلى أن تصبح أداة للرأى الخاص .. ومعنى ذلك ـ تدرجاً مع تداعى المنطق ـ أن الصحافة لابد أن تكون تعبيراً عن تيارات فكرية واجتماعية عميقة وعريضة ولا يمكن أن تكون تعبيراً عن رغبة شخص أو مصلحة ذات .. ويترتب على ذلك ضرورة أن تكون الصحافة ملكاً للشعب وتعبيراً عنه ولا تكون ملكاً لفرد ووسيلة فى يده ..

وفى العالم المتمدين .. المتمدين فعلاً .. لا ذلك الذى تقاس مدنيته بتعداد كباريهات الليل وكازينوهات القمار .. فى هذا العالم المتمدين حقيقة نجد النماذج والأمثلة .. ولنأخذ الصحافة البريطانية .. هل يوجد فى بريطانيا صحف تمثل «الرأى الخاص» لأصحابها أم أنها جميعاً تمثل الرأى العام أو تيارات فكرية بارزة فيه .. التايمز على سبيل المثال تعكس وجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية .. الديلى أكسبريس تعكس وجهة نظر حزب المحافظين .. الديلى هيرالد تعكس وجهة نظر حزب العمال .. الجارديان تعكس وجهة نظر حزب الأحرار .. الديلى وركر تعكس وجهة نظر الحزب الشيوعى .. كلها وغيرها تمثل الرأى العام البريطانى أو قطاعات منه أو تيارات تسرى فى المجتمع البريطانى وتحركه وتؤثر فيه ..

بل لقد كان ذلك هو الحال عندنا فى مصر قبل الثورة فيما نقلنا من أشكال الديمقراطية الغربية - دون معناها الحقيقى ودون مضمونها .. كانت الصحف تعبر عن قطاعات من الرأى العام أو تيارات مؤثرة فى المجتمع .. كان هناك حزب الوفد وكانت هناك صحف تعكس وجهة نظر الوفد .. وكان هناك الحزب السعدى وحزب الأحرار الدستوريين إلى آخره .. وكانت هناك صحف تعكس وجهة نظر الحزب السعدى وحزب الأحرار الدستوريين إلى آخره .. وكانت هناك صحف تبدى الاستقلال عن الأحزاب ومع أن ذلك لم يكن إلا ستارا خارجياً لتحزب خفى فإنه حتى هذا الستار الخارجى بإدعاء الاستقلال كان يمثل - ولو تمثيلاً سطحياً - تياراً فكرياً واضحاً فى المجتمع المصرى الذى كان يضيق ذرعاً بالأحزاب فى ذلك الوقت ..

«ما الذى نصل إليه بعد هذا كله ؟ .. نصل إلى أن الصحافة لا يمكن أن يكون لها ما لابد أن يكون لها كم قيمة ومعنى إلا إذا كان التجاوب والتفاعل بينها وبين الشعب كاملاً متصلاً .. يستوى فى ذلك أن يكونِ الشعب كله فى وحدة واحدة تفرضها ظروف الكفاح فى مراحله الأولى العسيرة أو أن يكون الشعب - بعد إتمام انطلاقته الأولى - موزعاً على شكل مجموعات تختلف فى وسائل العمل إلى ذات الهدف وهو صالح المجموع ..

«ولقد اقتضى كفاحنا الذى يجتاز الآن مراحله الأولى العسيرة - من أجل الوطن - اقتضى هذا الكفاح وجود وحدة وطنية شاملة يعبر عنها الاتحاد القومى .. وفى إطار هذا الاتحاد القومى كان لابد أن تتجمع كل الأفكار والتيارات وتتفاعل معاً تفاعلاً حياً واعياً لتصنع المجتمع الجديد .. فهل كان فى وسع الصحافة أن تبقى بمعزل عن هذا الإطار الوطنى .. أعنى .. هل كان يمكن أن تبقى الصحافة شذوذاً على الأسس الديمقراطية فى العالم المتمدين كله - وسيلة للتعبير عن الرأى الخاص لأصحابها مهما حسنت النوايا ومهما سمت أغراضهم؟ ..

«ومن الناحية المحلية البحتة ما الذى كان يبرر لفرد أو مجموعة من الأفراد أن يملكه وحدهم وسيلة التوجيه الكبرى ويتجهوا بدفتها حيث شاءوا؟ .. ويتبادر هنا إلى الذهن سؤال: هل معنى ذلك أن تصدر جميع الصحف على رأى واحد؟ .. والجواب على ذلك: بالقطع لا .. لأن الاتحاد القومى ذاته ليس رأياً واحداً .. ليس طابوراً طويلاً يقف كل من فيه على الصف كتفاً إلى كتف .. إنما الاتحاد القومى إطار .. إطار لا يتطلب منك داخل فيه غير الإيمان بالوطن .. والإيمان بالوطن هو الإيمان بالتاريخ المشترك والواقع المشترك والمصير المشترك .. أما ربط ذلك كله معاً وتحويله إلى عقيدة تلهم الكفاح الوطنى وتدفعه فأمر

مفتوح للأفكار والآراء تتعدد وتختلف بل تتصارع وتتلاطم ثم تتفاعل وتلتقى لتصنع فى النهاية إرادة وطنية حية .. خصبة وخلاقة ..

وسؤال أخير: وحرية الصحافة؟ .. وإجابة أخيرة: هى بخير .. وكيف يمكن أن يخطر على البال أن الضمانات لحرية الصحافة كانت مصونة حين كانت الصحف فى ملكية فرد أو أفراد منهم تخرج خطوط التوجيه وإليهم يدخل فائض الربح ثم يكون الخوف على هذه الضمانات أن تقل .. وقد أصبحت الملكية المعنوية فى الصحف للشعب كما أن الملكية المادية قد انتقلت من فرد أو أكثر من أصحاب الصحف إلى ألف أو أكثر من عمال كل صحيفة وموظفيها ومحرريها وكتابها ؟ ..

«بل لقد كان قانون تنظيم الصحافة الجيد حاسماً فى تقييمه لحرية الصحافة حين نص صراحة فى مذكرته التفسيرية على اعتبار الصحافة جزءا من التنظيم الشعبى لا يخضع للجهاز الإدارى وإنما هو سلطة توجيه ومشاركة فعالة فى بناء المجتمع شأنها ى ذلك شأن غيرها من السلطات الشعبية كالموتمر العام للاتحاد القومى وكمجلس الأمة..

«ثم لا يبقى بعد ذلك إلا أن نفتح باب المناقشة على آخره للشعب.. يبدى رأيه فى مستقبل الصحافة ويمنحها الضوء الذى تسير على هداه باعتباره وحده سيدها وسندها».

محمد حسنين هيكل

مقال : «الصحافة» – الأهرام

٢٨ مايو ١٩٦٠

****

«كتبت يوم السبت الماضى عن تنظيم الصحافة والقانون الجديد الذى صدر بشأنه .. ومنذ يوم السبت الماضى تلقيت أسئلة كثيرة تطلب إيضاح بعض ما قلت .. ولقد بدأ الأهرام فى صفحة الرأى أمس بنشر بعض ما تلقيت من تعليقات .. أما اليوم فأنا أبدأ محاولة الإجابة على بعض ما وجه إلى من أسئلة..

«سؤال – لماذا يتحتم أن يملك الشعب وسائل لتوجيه فى مجتمع حدد اتجاهه بأنه اشتراكى؟ .. جواب: أن نصل إلى إجابة كاملة على هذا السؤال لابد أن نحدد المفاهيم التى يجرى على أساسها القياس والتقييم .. ذلك أن ظروف البلبلة الفكرية والمعنوية التى تحيط بمجتمعنا غطت وجه الحقيقة بأستار من الغمام كما تفعل الريح بوجه الشمس فى

أيام العاصفة .. على هذا الأساس نسأل أنفسنا أولا: ما هى الاشتراكية؟.. هل الاشتراكية مجرد شعار أم هدف؟ .. هل الاشتراكية علم ملون مزركش نرفعه أيام الاحتفالات ليخفق مختالا مع النسيم ثم نطويه بعد الاحتفال حتى يجىء احتفال جديد؟ .. أم أن الاشتراكية هى إرادة شعبنا ليس فقط بحكم الإختيار الحر وإنما أيضا باعتبارها الطريق الوحيد المفتوح أمامه إلى مستقبل أفضل..

وما هى الاشتراكية بعد ذلك؟ .. الاشتراكية ببساطة هى توسيع اشتراك مجموع الشعب فى توجيه مستقبله وفى العمل على أساس التوجيه وفى الحصول على نصيب عادل من الثمار التى تأتى نتيجة لذلك .. هذا هو المفهوم الاشتراكى عموما بغض النظر عن كثير من التفاصيل وبغض النظر عن كثير من القوالب والمصطلحات الاقتصادية التى يمكن أن تحفل بها الكتب والنظريات..

ونخلص من هذا بشىء هام .. أن الاشتراكية لها أساسان: ١ – ديمقراطية .. ٢ – عدل .. والديمقراطية ومنبعها الأصيل وسندها حق الشعب فى الاشتراك فى التوجيه وهو ما يمكن أن يعبر عنه بتكافؤ الفرص .. ثم المشاركة فى الثمار التى يمكن أن تأتى نتيجة للتوجيه الحر وللعمل القائم على تكافؤ الفرص .. هكذا لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية بدون ديمقراطية .. وهكذا – أيضاً – لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية بدون عدل.

ونتوقف هنا لحظة قبل أن نمضى فى الكلام .. نتوقف لنواجه أسئلة جديدة .. وما أكثر الأسئلة فى هذا الحديث .. نتوقف لنسأل: وما هى الديمقراطية وكيف تتوفر؟ .. وما هو العدل وكيف يستقر؟ .. إن الإجابة على هذين السؤالين هى التى ستقودنا إلى الإجابة على السؤال الأول وهو: الاشتراكية .. ما هى؟ .. وكيف يمكن أن تطبق؟..

ونبدأ بالكلام عن الديمقراطية؟ .. ما هى الديمقراطية؟ .. هل الديمقراطية هى مجرد مجلس للنواب ومجلس للشيوخ كما كنا ندرس فى كلية الحقوق أم أن مجلس النواب ومجلس الشيوخ وغيرها من المؤسسات والمنظمات هى مجرد أشكال خارجية فى محاولة للتعبير عن الديمقراطية؟ .. هل الديمقراطية هى مطلب الذين يجلسون القرفصاء على شرفات فى النوادى الأنيقة بالزهر والعطر يحتسون الويسكى بالصودا ساعة الغروب ثم يبدون الحسرة على الديمقراطية التى تضيع والحرية المهدد بالخطر؟ .. هل هذه هى الديمقراطية؟ .. أم أن الديمقراطية فى حقيقتها هى: أن يحكم الشعب نفسه ومن أجل نفسه؟..

ومن هو الشعب؟ .. هل الشعب هو القلة التى أتاحت لها الظروف أن تتعلم وأن تعيش وأن تدخل الفنادق الكبرى والأندية الفواحة بالزهر والعطر وأن تسافر كل صيف إلى مغانى أوروبا وبحيراتها وجبالها؟ .. أم أن الشعب هو الكثرة التى تخالفت ضدها الظروف فلم ترث الفرصة ولم يتح لها بالتالى أن تتمتع بما يمكن أن يكون للفرصة المتكافئة من نتائج؟..

إذا كانت الديمقراطية فى حقيقتها هى حكم الشعب فمعنى ذلك أنها فى حقيقتها إرادة الكثرة لا إرادة القلة .. إرادة الأغلبية لا إرادة الأقلية .. هكذا فإن الجالسين اليوم على شرفات النوادى الفواحة بالزهر والعطر يذرفون الدموع على الديمقراطية هم آخر من يستطيع أو يقدر على مواجهة حقيقة الديمقراطية .. من هنا فهم يحاولون كل شىء إلا مواجهة الحقيقة .. من هنا التلاعب بالشعارات ومن هنا الرغبة فى عرقلة التطور الذى لابد منه لمواجهة الحقيقة والانسجام معها وإزالة التناقض الذى يحكم مجتمعنا ويقسمه بالميراث قسمين: قسما يملك كل شىء.. وقسما لا يملك أى شىء .. والذى يملك كل شىء: يملك التوجيه ويملك الفرصة ويملك الثمار .. والذى لا يملك أى شىء .. بعيد عن التوجيه بعيد عن الفرصة بعيد فى النهاية عن الثمار ..

ونسأل: هل كان يمكن أن يستمر هذا الوضع؟ .. والإجابة: كان مستحيلا أن يسكت الشعب .. ونسأل: وماذا كان بوسعه أن يفعل؟ .. والإجابة: يثور الثورة التى هى وسيلة الشعب لفرض احترام الحقيقة .. ولقد ثار الشعب فى ٢٣ يوليو .. هل ثار الشعب ليسقط الملك .. غيظاً من كرشه الضخم وشواربه؟ .. هل ثار الشعب ليطرد الاستعمار .. كراهية فى العيون الزرق لجنود الاحتلال؟ .. هل ثار الشعب لينهى الإقطاع لأن الخواتم الماسية فى أصابع سادته تزغلل بصره وتبهره؟ .. تلك كلها كانت خطوات إلى الهدف الأصيل من الثورة .. أو هى كانت خطوات تمهيدية من أجل الوصول إلى الحقيقة.. من أجل الديمقراطية باعتبارها اشتراكا حرا فى التوجيه ومن أجل العدل باعتباره اشتراكا حرا فى الفرصة وفى ثمارها .. أو بعبارة اشمل من أجل الاشتراكية باعتبارها مضمونا شاملا للديمقراطية والعدل..

وما الذى يمكن أن تفعله الثورة حينئذ؟ .. كان أمامها طريقها: أما أن تكون انفجارا مدمراً تنطلق منه الطاقات التى حبسها الظلم الطويل والكتب والاستغلال لتنتقم وتحطم وتحرق وتسفك الدماء بلا سيطرة عليها أو توجيه .. وإما أن تتصدى لها القيادة الثورية الواعية وتحول طاقتها من مجرد انفجار مدمر لتصبح قوة محركة ودافعة .. ومن حسن

حظ وطننا أن الطريق الثانى كان طريقنا .. من حسن حظنا أنه فى اللحظة الحاسمة للإنطلاقة الثورية كان هناك من يقول: إن الصراع الدموى يجب تجنبه .. وأن تطاحن الطبقات وسيطرة واحدة منها على الكل أمر يمكن تلافيه .. إن التطور السلمى قادر على أن يجنبنا الصراع الدموى .. إن تفاعل الطبقات يمكن أن يجنبها التطاحن بينها ويمكن أن يخلق تيارا مستمرا دائما إلى التقارب..

ولم يكن موقف القيادة الثورية هنا مجرد رغبة شخصية أو تطوعا خيرياً وإنما كان استقراء منطقيا واتساقا طبيعيا مع تقاليدنا وظروفنا الوطنية وسلامة مجموع شعبنا وأمان مستقبله سواء فى الداخل أو فى الخارج. ولكن هل تسكت القلة التى كان فى يدها كل شىء؟.. طبيعة الأشياء أنها لا تسكت .. إن الذى يمسك بزمام التوجيه لا يتخلى عنه بسهولة .. والذى يملك الفرصة لا يتنازل عن جزء منها برضا .. والذى يحصل على الثمار وحده يريد أن يستمر فى الحصول عليها وحده .. ذلك كله من طبائع البشر ولن يتغير البشر بين يوم وليلة وتشف أجسادهم من الزهد والتقى وتتحول إلى أعمدة من النور المشع.

ولكن ماذا فى طاقتهم أن يفعلوا؟ .. إن المد الثورى كاسح فهل يتصدون له وقوفا؟ .. لا .. وإذن فأسلحة أخرى غير التصدى الواضح الذى لا تؤمن عواقبة .. وما أكثر الأسلحة غير المباشرة .. هناك محاولة عرقلة التطور من وراء ستار .. هناك محاولة تشكيك الشعب فى مطالبه ووسائله إى هذه المطالب .. هناك محاولة التفتيت .. تفتيت إجماع الشعب وتفريق اتجاهاته وتنويع مجالات اهتمامه وإلهائه عن متابعة معركة الحقيقة بوعى ويقظة.

وأسأل بعد ذلك كله هل كان يمكن أن تترك وسائل التوجيه والصحف فى مقدمتها فى يد غير يد الشعب؟ .. هل كان يمكن أن تترك لتصبح أساس التوجيه فيها هو المصلحة المادية وحدها؟ .. هل كان يمكن أن تترك لتظل الاشتراكية شعارا ليس له صدى من الواقع وعلما يرفع أمام الاحتفالات؟.. هل كان يمكن إن تترك لتصبح سيدة المجتمع التى هربت من زوجها أسطورة يتابع الناس أخبارها فى لهفة وشوق؟ .. هل كان يمكن أن تترك ليصبح شاغل الناس هو حكايات الليل وجرائم هتك العرض بالرضا أو بالغصب؟ .. أم أن وسائل التوجيه يجب أن تكون فى يد الشعب لكى يستطيع أن يوجهها فى دفع التطور وخدمة الحقيقة الكبرى؟..

هل أصاب الصداع رؤوسنا من هذا الكلام الجاد جرعة واحدة؟ .. إذن نتوقف .. نتوقف قليلا .. نتأمل صورة جميلة أو نسمع حكاية مسلية .. إن الشمس مازالت مشرقة وأزهار الربيع تضوى على الشجر الأخضر الندى .. والكلام الجاد لا ينبغى له أن يحبس عن الحياة ابتسامتها المشرقة بالأمل والمنى».

محمد حسنين هيكل

مقال: الصحافة – لماذا يتحتم على أن يملك الشعب وسائل التوجيه بصراحة – الأهرام فى أول يونيو ١٩٦٠

****

سؤال: لماذا يقال أن القانون الذى صدر بشأن الصحافة أخيرا هو قانون «لتنظيم الصحافة» ولماذا لا يقال صراحة أنه قانون لتأميم الصحافة؟ .. جواب: لأن الصحافة لم تؤمم ..نقول ذلك لا تجنبا لكلمة التأميم أو حذرا منها فإن كلمة التأميم كلمة لها قيمتها ولها احترامها فى مجتمع يؤمن بالاشتراكية .. وإنما نقول إن الصحافة لم تؤمم انسجاما مع الواقع والتزاما له .. إن تأميم مؤسسة من المؤسسات معناه انتقال ملكيتها من دائرة رأس المال الخاص إلى دائرة رأس المال العام ومعناه بالتالى انتقال إدارتها إلى الأجهزة الحكومية المختصة بنوع نشاطها ودائرة عملها ومعناه أخيرا توجيه فائض دخلها إلى ميزانية الدولة التى هى حصيلة المال العام .. فهل هذا هو ما حدث للصحف؟ .. هل تنطبق شروط التأميم وخصائصه بل حتى مظاهرة مع أحكام القانون الذى صدر بشأن الصحافة؟..

الإنسجام مع الواقع والالتزام به يحتم الإجابة بالنفى .. إن ملكية الصحف لم تنتقل من أصحابها السابقين إلى دائرة رأس المال العام ولم تصبح خاضعة لأجهزة الحكومة ولن يذهب فائض ربحها إلى وزارة الخزانة .. إنما انتقلت ملكية الصحف إلى الاتحاد القومى وهو التنظيم الشعبى الذى يجمع العمل السياسى وينظمه فى الوطن كله وللوطن كله .. والاتحاد القومى ليس فرعا من جهاز الحكومة بل العكس هو الصحيح .. أى أن الحكومة هى فرع من الاتحاد القومى وهى الفرع التنفيذى لإرادة الشعب المتمثلة فى هذا الاتحاد القومى.

أكثر من هذا فإن الاتحاد القومى لا يملك ملكية شاملة بالمعنى المفهوم .. كيف؟ .. إن الملكية فى الواقع شيئان : ملكية معنوية وملكية مادية .. والاتحاد القومى يملك الصحف معنويا ولكنه لا يملكها ماديا .. إنه يملك «الحق» مجرد الحق فى إصدار صحيفة أى يملك

رخصة إصدارها .. ولكنه لا يملك الصحيفة ماديا لأن الملكية المادية فى حقيقتها هى الانتفاع .. والاتحاد القومى لا ينتفع بهذه الصحف فى غير دائرة المبادىء والأفكار .. أما الذى ينتفع بملكيتها المادية فهم عمال هذه الصحف وموظفوها ومحرريها وكتابها .. هؤلا الذين نص القانون على حقهم فى أن يحصلوا مباشرة على نصف فائض ربح الصحيفة التى يعملون بها مباشرة بينما خصص النصف الثانى من فائض الربح لعملية تدعيم وتوسيع صحيفتهم ودفع تقدمها أى نهم يحصلون على ثمار ملكيتها المادية .. نصفها بطريق مباشر والنصف الثانى بطريق غير مباشر .. من هنا يتضح أن الصحف فى واقع الأمر لم تؤمم..

لقد انتقلت ملكيتها من أصحابها .. هذا صحيح .. ولكن الملكية بعد هذا الانتقال انقسمت قسمين: قسما معنويا يتعلق بالمبادىء يملكه الاتحاد القومى .. يملكه الشعب .. وقسما ماديا ولقد تحولت الملكية فيه إى شىء أقرب ما يكون إلى مؤسسه تعاونية .. يحصل كل واحد من أفرادها على نصيب من ربحها يتناسب مع ما يضعه فى رأسمالها .. ورأس المال هنا عمل وجهد..

ونسأل هيز سالزبرجر صاحب جريدة نيويورك تايمز التى لم تستطع أن تجفف دموعها بعد تأثرا على حرية الصحافة فى بلادنا .. نسأله: هل يستطيع أن يطرح بين عمال صحيفته وموظفيها ومحرريها وكتابها استفتاء ويسألهم فيه عما إذا كانت حرية الصحافة فى جريدتهم – التى يملكها – يستقر معناها ويعود احترامها إذا تحولت ملكيتها منه هو – هيز سالزبرجر – لتنتقل إليهم هم .. عمل نيويورك تايمر وموظفيها ومحرريها وكتابها .. أم ما هو رأيهم؟ .. هل يستيع هيز سالزبرجر أن يطرح هذا الاستفتاء حراً صريحاً داخل نيويورك تايمز؟ .. لا نشك فى النتيجة .. لن تكون النتيجة على هواه أو على هوى الصهيونية العالمية التى تشرف على جريدته وتوجه سياستها لصالح إسرائيل فى كل الأحيان وضد مصالح الشعب الأمريكى الذى يشترى نسخها فى معظم الأحيان..

سؤال – كيف يكون دور الصحافة فى المجتمع الجديد؟ .. جواب – إن الأمر لم يترك للاجتهاد الشخصى .. لقد كان قانون تنظيم الصحافة واضحا فى هذا الشأن حين نص صراحة على أن الصحافة سلطة شعبيه لا تخضع للجهاز الإدارى شأنها فى ذلك شأن مجلس الأمة .. لقد كملت الصورة واتضحت معالمها..

والاتحاد القومى الآن هو الخلاصة النهائية لوحدة الشعب والوحدة التى تمثل فى آخرها إجماعه على أهدافه وأمانيه .. الحكومه هى الإرادة المنفذة لهذه الأهداف والأمانى

تتلقاها من الشعب وتحولها إلى تخطيط ثم إلى خطط .. ثم إلى مشاريع محددة مفصلة .. مجلس الأمة هو سلطة التشريع والرقابة على التنفيذ .. الصحافة صلة يومية وأبدية بين هذه السلطات كلها .. سلطة يملكها الشعب .. مهمتها أن تساعد على بلورة الأهداف والأمانى المستقرة فى ضمير الشعب ثم تساعد على تعبئة الجهود ودفع التنفيذ تحقيقا لها ثم تساعد فى التوجيه والرقابة لأهداف الشعب وأمانية من أن تتعثر أو تتأثر باعتبارات العجز أو المرض..

سؤال – هل سبقنا أحد إلى مثل هذا الذى وصلنا إليه .. هل سبقنا أحد إلى شيء مثل الاتحاد القومى وإلى ما استتبعه من خطوات آخرها تنظيم الصحافة؟ .. جواب – لم يسبقنا إلى مثله أحد لكن سوف يلحقنا إليه كثيرون من الذين يتطلعون الآن إلى الاشتراكية بأعتبارها الباب الوحيد المفتوح أمامهم .. إن شعوبا كثيرة فى أسيا وأفريقيا سوف تقتفى فى الغد آثار خطانا على الطريق الذى نسير فيه .. ولقد تسأل قبل المضى فى المناقشة إلى بعيد: والذين سبقونا فى الاشتراكية لماذا لم يكن ذلك طريقهم؟ .. ونرد قائلين: اختلف طريقهم لأن الزمان كان يختلف ولأن ظروف الزمان كانت تختلف .. قبلنا دول كثيرة سبقت إلى الاشتراكية منها مثلا مجموعة إسكندنافيا: السويد والنرويج والدانمارك .. إنما هذه الدول بدأت تطورها منذ نحو مائتى سنة .. كانت الظروف – أيامها – تمنحها كفاية الوقت .. ولم يكن غيرها يسبقها بكثير وإنما كانت فى تطورها تتحرك مع الطليعة المتقدمة فى العالم كله . وكان بعد المسافات وبطء وسائل المواصلات – فى ذلك الوقت – يعطيها الاستقلال .. إن لم نقل العزلة التى تستطيع فيها أن تباشر تطورها الحر وتصونه وتدفعه .. لم تكن تواجه فى ذلك الوقت مثل ما نواجهه الآن وما تواجهه شعوب مثلنا..

يقظة متأخرة بعد كفاح شاق ومستميت ضد الاستعمار وآثاره .. ثم تخلف طويل وضعها – بالكاد فى بداية عصر البخار – بينما التقدم العالمى سبقها إلى عصر الكهرباء وبدأ يترك وراءه عصر الكهرباء ويدخل إلى رحاب عصر الذرة ومشارف الفضاء .. ثم هى تعيش وسط الدوامة لا تملك – حتى إذا أرادت – أن تستقل بعيدا عن غيرها أو تنعزل حتى تصنع تطورها بمنأى عن المؤثرات الخارجية وضغطها وإلحاحها .. لقد تلاشت المسافات وانهارت الحدود بفعل التقدم الخيالى فى وسائل المواصلات .. الطائرات أصبحت تعبر الفضاء بأسرع من الصوت .. الصاروخ أصبح يدور حول الكرة الأرضية كلها فى أقل من ساعة .. الكلمة التى تقال فى أى مكان من العالم أصبحت تسمع فى كل مكان من العالم فى نفس ومضة النطق بها .. ثم الظروف الدولية الملحة وآثارها من الحروب الباردة وحروب

الأعصاب .. كلها لا تترك أحدا فى حالة وإنما هى تقتحم على كل شعب حياته وتؤثر فيه أراد أو لم يرد وقد تجره من مكانه لتحوله إلى تابع أو ذليل..

«هذا هو الفرق الكبير بين ظروف التطور فى دول سبقتنا وبين الظروف التى نعيش فيها الآن .. فى النصف الثاني من القرن العشرين .. هكذا فإن التطور بالوسائل العادية .. الوسائل التقليدية للقرن التاسع عشر لم يعد ممكنا هذه الأيام .. ولقد يقال مثل أن الاتحاد السوفيتى قام بتطوره الكبير فى القرن العشرين وقفز بنفسه من عصر البخار إلى مقدمة عصر الذرة والفضاء فى أربعين سنة .. وهذا صحيح .. ولكن كيف استطاع الاتحاد السوفيتى أن يصنع المعجزة؟ .. صنعها بالثمن الغالى والضريبة الفادحة .. صنع المعجزة بكل ما يوجه اليوم حتى فى الاتحاد السوفيتى نفسه إلى ستالين وكل ما يمثله إسم ستالين من سياسات .. سياسة الستار الحديدى الكامل حول روسيا .. سياسة العزلة التامة عن العالم .. سياسة معسكرات العمل وتحول الأفراد إلى قطع من آلات .. سياسة حملات التطهير وحمامات الدم .. سياسة قمع الفكرة والكلمة والهمسة .. بهذا الثمن وبهذا الضريبة استطاع الاتحاد السوفيتى فى ظروف القرن العشرين أن يحقق انطلاقته المادية الكبرى ..

«ونعود للحديث عن أنفسنا .. ماذا كان لدينا لنحقق انطلاقتنا الكبرى .. وسائل القرن التاسع عشر .. وهى فى القرن العشرين سراب وضياع .. سياسة ستالين .. وهى أبعد ما تكون عن طبيعة شعبنا وقيمه المعنوية .. أو .. أو نبحث لنا عن طريق ثالث جديد يصون لشعبنا استقلاله دون ستار حديدى .. ويحتفظ لشعبنا بوحدته دون إرهاب وحمامات الدم .. ويحقق لشعبنا بالتالى انطلاقته دون تجنيد كامل تضيع معه كل حرية فردية .. أو بمعنى أصح كنا نريد أن نحقق انطلاقتنا بوسيلة تتناسب مع ظروف عالمنا بشرط أن تكون هذه الوسيلة تعبيرا أمينا عن خصائصنا الوطنية وترجمة صادقة لطبيعة شعبنا .. وكان الاتحاد القومى .. اتجاه لم يسبقنا إليه كما قلت أحد .. ولكن سوف يلحقنا إليه كما قلت كثيرون».

محمد حسنين هيكل

مقال : الصحافة .. الصحافة لم تؤمم

بصراحة – الأهرام فى ٣ يونيو ١٩٦٠

انتهت المقالات الثلاث التى كتبها هيكل فى قانون تنظيم الصحافة .. ولا يمكن أن ننكر أن وجهة النظر التى روج لها هى وجهة نظر مناسبة لمجتمع يتحول إلى الاشتراكية .. حيث تكون أدوات التأثير والتغيير والتعبير فى يد قوة واحدة .. وحيث تكون وسائل التعبير مرآة عاكسة لقوة التأثير .. ولكن .. ما جرى فيما بعد .. وضع قانون تأميم الصحافة فى مأزق .. لقد ذهبت الاشتراكية واقتصاديات الدولة المركزية إلى غير رجعة .. وعاد القطاع الخاص ليسترد مواقعة الاقتصادية .. وفى الوقت نفسه ظلت السلطة محتفظة بأدوات التأثير والتغيير والتعبير فى يدها .. وهو صورة صارخة من عدم التجانس .. أن تكون حرية فى السوق ومركزية فى الإعلام .. أن يحدث إصلاح اقتصادى وموات سياسى.

ورغم ذلك فإننى لم استسغ وصف هيكل للصحافة وباقى وسائل الإعلام بوسائل التوجيه فالتوجيه يعنى فرض رأى واحد أو وجهة نظر واحدة .. وهو ما يتنافى مع حرية الصحافة التى لا تكون إلا بالتنوع والاختلاف وتعدد الآراء.

وقد خيبت التجربة العملية كل التوقعات المتفائلة .. فالتنظيم السياسى – الاتحاد القومى – الذى كان مالكا معنويا للصحافة أختفى بين يوم وليلة بقرار من السلطة التنفيذية التى أخرجت على أنقاضه تنظيم سياسى جديد هو الاتحاد الاشتراكى العربى .. كذلك .. فإن الصحافة أصبحت خاضعة للسلطة السياسية .. تنقل وترفت وتعين ما تشاء دون أن تعود للمالك المعنوى .. أصبحت الصحافة أداة فى يد الرئيس وتابعة له مباشرة .. أضيفت إليه مع باقى السلطات والصلاحيات .. ولو كان هناك مبررات صاغها الحلم الناصرى وراء ذلك فإن ما جرى فيما بعد أجهض الصحافة وتركها كائنا مشوها .. ولا يزال.

وهو ما جعل هيكل فيما بعد يسخر من عبارة «السلطة الرابعة» التى تطلق عادة على الصحافة (٤) .. بل أنه يقول بصريح العبارة «إن الصحافة لا يمكن أن تكون سلطة رابعة لأن الفقه الدستورى فى الدنيا لا يعرف غير سلطات ثلاثة: التنفيذية والتشريعية والقضائية .. إن السلطات لا تخترع من الهواء وإنما هى وليدة تطورات تاريخية واجتماعية وسياسية مشهودة ومؤكدة».

ويتساءل هيكل: «كيف يمكن أن تكون الصحافة سلطة رابعة إذا كانت مملوكة لجهاز تعينه السلطة التنفيذية .. ثم إذا كانت هذه السلطة التنفيذية تمارس رقابة ظاهرة أو مستترة على أقدار ومصائر العاملين فى هذه الصحافة؟» .. «كيف يمكن أن تكون الصحافة سلطة رابعة فى أى بلد من بلدان العالم الثالث كله وهذه البلدان – باستثناءات قليلة – لا

تعرف غير سلطة فعلية واحدة .. سلطة أولى واحدة» .. «وإذا كان موضع شك أن تكون هناك – بعد السلطة الواحدة الأولى – سلطة ثانية وثالثة فكيف يكون هناك مجال لسلطة رابعة؟».

والسؤال الأخير وجيه .. لكن هيكل على ما يبدو لا يميل إلى طرحه بأثر رجعي .. يرفض تطبيقه على ما يبدو أيضاً على ما جرى للصحافة فى صيف حار ملتهب .. بدأ فى مايو عام ١٩٦٠.

الهوامش

(١) ناصر الدين النشاشيبى: قصتى مع الصحافة – مرجع سابق – ص ٤٤٥.

(٢) هيكل: «بين الصحافة والسياسة» – مرجع سابق – ص ٧٥.

(٣) المرجع السابق – ص ٧٥.

(٤) هيكل : السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة – مرجع سابق – ص ٢٠٧.



■ ٢٧ ■

الإخـوان : هـو أغـنـى اشـتـراكـى فـى مـصـر

■ ليس فى الموت ما يخيفنى .. أظن أننى قربت من الوقت الذى يمكن أن أفكر فيه .. ولا أظن أن الفكرة تفزعنى .. لقد كتبت ظرفا مقفولا مع زوجتى .. وفيه نعيى .. وراسم فيه جنازتى .. هذا لا يخيفنى .. إن ما فعلته فى حياتى يجعلنى أنظر ورائى فى غير غضب.. بل أشعر بالرضا .. وأقول: أننى نسبيا عملت الكثير فى حياتى .. بقدر ما استطعت جريت .. وبقدر ما جريت نجحت .. وربما لم أنجح .. لكن فى النهاية الحمد لله .. أنا راض .. وربما يثير الاستغراب إذا ما قلت أن بالقرب من مزرعتى مكانا لمقبرتى .. وهى مقبرة بسيطة .. لكن حولها ورد كثير». (١)

إن هيكل الذى يتميز بحساب كل شىء لم يتردد – عندما وجد نفسه يتجاوز السبعين من عمره – فى أن يكتب كلمات نعيه المختصرة .. وصورة مقبرته .. وموقعها .. ونوع الزهور التى تحيط بها .. وقد أختار أن يكون بيته الريفى فى «برقاش» هو المكان الذى يطل منه على الدنيا من العالم الآخر .. وربما كان لذلك ما يبرره .. فهذا المكان الذى يسمى عادة «العزبة» ويفضل هو ان يسميه المزرعة هو أكثر الأماكن التى يستريح فيها – ولها – هيكل .. وقد رفض أن يحوله – بما فيه من أرض خصبة وأشجار مثمرة وزهور نادرة – إلى مشروع استثمارى من أى نوع .. واكتفى بأن يكون هذا المكان لمتعته الشخصية .. وفيه يلعب البنج بونج مع أولاده .. وفيه كرسى على الطراز الفرعونى أهداه له كمال الملاخ وصنعه أحفاد توت عنخ أمون الذين صنعوا له منذ آلاف السنين تحفه التى تصيب العالم بالذهول .. وفيه سلالات متميزة من الكلاب.

ومزرعة «برقاش» حوالى ٢٥ فدانا .. وهى فى مكان كان يسمى «نكلة» ويقع على بعد دقائق بالسيارة من المنصورية القريبة من القاهرة .. والمجاورة للأهرام الفرعونية .. وفيها فيلات وقصور الأثرياء فى مصر.. وعند حدود الجار يقع البيت الريفى لواحد من أقدم أصدقاء هيكل هو رجل الأعمال الوفدى الشهير أمين فخرى عبد النور .. وتعود علاقتهما لأيام الشباب الأولى .. عندما كانت أسرة «فخرى عبد النور» تسكن فى العباسية وكان هيكل يأتى من بيته فى شارع الجيش (أو شارع فاروق فيما قبل) لزيارته .. وكان من أصدقاء تلك الأيام أيضاً .. محمد ياسين صاحب مصانع الزجاج «ياسين» .. والذى تولى أبنه فيما بعد إدارة المشروعات التجارية فى مؤسسة الأهرام .. ومن أصدقاء تلك الأيام أيضاً .. محمود محرم حماد .. وأحمد صدقى شيرين .. ويقول لى أمين فخرى عبد النور: إنه وشقيقه سعد فخرى عبد النور – محام أسرة تقلا – اشتركا فى مفاوضات تولى هيكل رئاسة تحرير الأهرام. (٢)

وقد اشترى هيكل مزرعة برقاش من محام عائلة تقلا .. وتسببت الصفقة فى فتح نيران الهجوم على هيكل .. لقد اتهمته مجلة المصور بأنه اشتراها من «رجل كان تحت الحراسة مستغلا فيها سلطته» .. وطيرت الاتهام وكالة الأنباء الفرنسية .. ولم يتردد هيكل فى رفع الأمر إلى القضاء .. لقد تعود أن لايرد على محاولات تشويهه .. لكن .. هذه المرة يتعلق الأمر بذمته المالية .. وأمام المحكمة اعتذرت وكالة الأنباء الفرنسية وسجلت اعتذارها فى المحكمة فأخرجها هيكل من القضية عملا بقاعدة ناقل الكفر ليس بكافر.

كانت المصور قد قالت: أنه اشترى قطعة أرض من أجنبى تحت الحراسة .. ويقول هيكل: «أنا اشتريت قطعة الأرض على دفعتين .. الجزء الأول اشتريته من عضو فى مجلس إدارة الأهرام وهو الذى عرضها على .. وحصل إننى أخذت مكافأتى من أخبار اليوم وذهبت لأشترى أسهما أضعها فى شركة أيسترن للدخان (الشركة الشرقية) وكان هو مساهما حينذاك فيها .. فقال لى: لماذا الأسهم وليس قطعة أرض .. أنا عندى قطعة أرض أخذتها بدل أتعاب .. أبيعها لك.. وكان هو قد أهمل هذه الأرض بعد وفاة زوجته .. لما رأيت الأرض تحمست لها .. وكان ذلك فى عام ١٩٥٦ .. لم يكن هناك حراسات إطلاقا .. ثم أننى اشتريت الأرض بسعر أعلى من المعروض لأنه سمح لى بالتقسيط .. وكل هذه الأمور أطلعت المحكمة عليها وأطلعتها على كل الإيصالات المالية .. بما فيها فاتورة بثلاثين قرشا ..

«الجزء الثانى من الأرض اشتريته من ناس مصريين ليسو أجانب ولم يكونوا تحت الحراسة .. إنهم ورثة عزمى باشا الذى كان جارى وعنده قطعة أرض قرب منزلى من

ضمن أرضه فاشتريت منهم قطعة الأرض بسعر أعلى من السعر المطلوب وهؤلاء قدموا شهادتهم..

«طيب .. يقولون من أين أتى بالمال؟.. فى المحكمة أنا وضعت كل إقرار ذمتى المالية .. الأرض الأولى كانت بعشرة آلاف جنيه دفعتها على ثلاث سنوات .. وقبلى كان كذا واحد يريدون شرائها منهم الدكتور جمال العطيفى .. وآخر سعر وصلت إليه الأرض كان ٨ آلاف جنيه .. وبسبب التقسيط دفعت ١٠ آلاف جنيه..

كانت مكافأتى من أخبار اليوم ٧ آلاف جنيه ولأنى أعرف حساسية المسائل المالية طلبت أن تكون المكافأة فى «شيكين» .. الشيك الأول بخمسة آلاف جنيه أخذته وعلى ظهره حولته لصاحب الأرض وقبض المبلغ على شيك صادر باسمى من أخبار اليوم .. القسط الثانى حولت له أسهما فى شركة «الخزف والصينى» وكانت بثمن ألفى جنيه وأرسل لى الإيصال من عند سمسار البورصة .. الجزء الثالث .. بعت أسهمى فى شركة «شاهر» وكانت لأقرباء لى .. بعتها فى البورصة بألفى جنيه .. والألف الأخيرة كان من السهل أن أدبرها..

قطعة الأرض الثانية كان ثمنها ٢٣ ألف جنيه اشتريتها بعد كتابى «عبد الناصر والعالم» وقبل أن اشتريها كان تحول لى من فلوس الكتاب خمسون ألف جنيه إسترلينى .. والبنك الأهلى موجود .. لو سألنى أحد عن حالتى أقول الحمد لله .. كويسه قوى .. إن أول كتاب صدر بعد أن تركت الأهرام طبع بحوالى ٢٦ لغة .. لما يطلع لأى كاتب فى العالم كتاب بكل هذه اللغات ويأخذ من كل كتاب عدة قروش يطلع له فى النهاية مبلغ ... لذلك أنا مستعد أن اسكت عن كل الكلام الذى يقال من ناحية الحياة السياسية .. لكن الذمة المالية .. لا .. لا أتردد فى الذهاب إلى المحكمة .. وبسرعة». (٣)

****

على أن القضية لم تكن بالنسبة لخصوم هيكل قضية ذمة مالية ولكنها كانت قضية تشهير بالدرجة الأولى .. وكان الهدف من التشهير هو ما يوصف بالاغتيال المعنوى والسياسى للشخصية .. لفقدان المصداقية .. والتشكيك فى تجربة جمال عبد الناصر الوطنية التى ظل هيكل يدافع عنها بعد رحيل صاحبها .. وكان الرصاص الى يطلق على هيكل كان الهدف منه هو قتل جمال عبد الناصر .. مع أن جمال عبد الناصر عاش متواضعا ومات مستوراً .. لم يكن يعرف كيف يستمتع بالحياة .. ولم يكن يتصور أن فى العالم طعام يزيد عن الأرز والخضار .. وكانت كل متعته فى الحياة هى التصوير

الفوتوغرافى .. بل أكثر من ذلك .. كان وهو رئيس دولة لا يعترف فى بعض الأحيان بالبروتوكول إذا ما تعارض مع طبيعته.

يروى هيكل: أن جمال عبد الناصر كان فى زيارة لليونان بدعوة من الملك «بول» .. وعند السلم .. على مدخل قاعة العشاء التقى جمال عبد الناصر مع الملك «بول» .. كانت السيدة قرينته .. السيدة تحية كاظم تصحبه فى الزيارة .. وكانت معها الملكة «فردريكا» قرينة الملك «بول» .. كان الأربعة يستعدون لدخول قاعة العشاء الكبرى التى امتلأت بالمدعوين .. ينتظرون دخول الرئيس المصرى وقرينته وملك اليونان وملكتهم .. وتولت الملكة «فردريكا» تنظيم خطى الدخول إلى القاعة..

«المنظر أمامى كأنه نابض بالحياة .. الملكة «فردريكا» تقول لجمال عبد الناصر: «أننى سوف أضع يدى فى ذراعك وندخل معا .. ثم تضع قرينتك يدها على ذراع الملك ويدخلان معا» .. وسألها جمال عبد الناصر ببساطة «لماذا؟» .. وقالت الملكة ضاحكة: «أن هذا هو البروتوكول ياسيدى الرئيس» .. وضحك جمال عبد الناصر وقال لها: «من سوء حظى أننى لا أعرف إلا بروتوكول الصعيد فى مصر .. أدخل مع الملك .. وأنت تدخلين مع زوجتى» .. ولم ينتظر جمال عبد الناصر .. مد يده إلى الملك «بول» يدعوه إلى الدخول معه .. وترك الملكة مع قرينته تدخلان وراءهما .. وضاع بروتوكول أوروبا .. وفرض بروتوكول الصعيد نفسه».

لم يكن من السهل الطعن فى الحياة الشخصية لجمال عبد الناصر واتجهت الطعنات والطلقات لحياته السياسية .. أما الطلقات والطعنات الشخصية فقد اتجهت لبعض أولاده .. واتجهت لهيكل أيضاً.

إن عمر التلمسانى المرشد العام للإخوان المسلمين – بعد وفاة جمال عبد الناصر – يقول: «إذا كنت تريد أن تعرف كم كانت السياسة الاقتصادية الناصرية مدمرة للأمة مربحة لمؤيديها وأتباعها فاقرأ صحيفة أخبار اليوم عدد ١٠ ديسمبر ١٩٧٧ لتعرف أن هيكل هو أغنى اشتركى فى مصر .. إنه يملك شقة فى الهرم وشقة على شاطىء النيل تتكون من ١٦ غرفة وشقة فى الإسكندرية على شاطىء المعمورة وهو الذى لم يكن قبل الثورة وقبل التعرف على عبد الناصر يملك مبالغ بسيطة كان يتلقاها مقابل بعض الإعلانات فى الصحيفة .. هذا هو الصحفى اللامع كما هو». (٤)

ولو كان هيكل قد فسر أمام القضاء وبالمستندات كيف حصل على عزبة برقاش فإن حصوله على شقة على النيل ليسكن فيها وهو رئيس تحرير الأهرام أمر لا يستحق التوقف .. ولا يصعب تفسيره دون سؤاله .. وفى الحقيقة هناك خلط بين ما امتلكه هيكل

وهو فى الأهرام .. وبين ما أمتلكه وهو كاتب متفرغ يكسب من واء كتبه ومقالاته الكثير .. وهناك خلط بين أن يمتلك عقاراً من حر ماله وناتج علمه حتى أيام عبد الناصر وبين أن يحصل على ذلك استغلالا لنفوذه .. إن أحدا لم يستطع أن يثبت أنه حصل على شىء مستغلا موقعه ونفوذه..

والشقة التى يصفها عمر التلمسانى بأنها تتكون من ١٦ غرفة .. هى فى الحقيقة شقتان متجاورتان فى الدور الرابع فى العمارة التى تطل على نيل القاهرة عند فندق الشيراتون .. كانت الأولى لسكنه .. أما الثانية فقد اشتراها بعد أن خرج من الأهرام ودفع ثمنها من النقود التى حصل عليها من كتبه الأولى التى نُشرت له فى الخارج :. وقد اتخذ قراره بتشجيع من زوجته ليحولها إلى مكتب .. بعد أن قررت صاحبتها الهجرة من مصر .. وقد حول هيكل جزء من عائد كتبه – عبر الجهاز الادارى لناشره الأجنبى – إلى حساب بنكى لصاحبة الشقة.

والشقة المكتب .. تبدأ بطرقة غير عريضة يضع على جدرانها صوره الفوتوغرافية مع حكام العالم وزعمائه .. والنصيف الأكبر منها لصوره هو وجمال عبد الناصر .. وتنتهى الطرقة بغرفة يجلس فيها مدير مكتبه منير عساف وفيها كومبيوتر ومكتبة وأرشيف صغير .. بالقرب منها غرفة مكتبه .. وفيها مكتب كلاسيكى أمامه مقعد واحد .. يصفه كل من يجلس عليه بأنه «كرسى الاعتراف» .. وتطل الغرفة على النيل .. وتنتهى بشرفة مغلقة بالزجاج يستقبل فيها زواره إذا زادوا عن واحد .. ويغطى أرضية الغرفة موكيت أخضر فاتح .. «وهناك جلد نمر ملون كأنه جاء من الغابة ولقى قدره مصلوبا على الأرض .. وآية شريفة من القرآن الكريم «أقرأ باسم ربك» تزين أحد الأركان .. هدية من زوجته .. والآية لم تفارق مكتبه فى الأهرام .. وأزهار حمراء تتوسط «فازة» فى قلب المكتب .. وعلى الحائط ثلاث خرائط قديمة للعالم .. وهناك موسيقى سوناتا شوبير تنبعث من أحد الأركان بجواره تبدو خلفية هامسة ومريحة» (٥) وإلى جواره مباشرة تمثال للكاتب المصرى الجالس القرفصاء .. وفى المكتبة التى تبدو محملة بكتب أجنبية وتماثيل فرعونية صغيرة متناثرة.

وتؤدى هذه الغرفة إلى غرفة أكبر هى أشبه بصالون ملحق .. فيه لوحات .. وتماثيل .. وتحف .. وكتب .. وتلفزيون .. وآرائك عريضة .. وابرز اللوحات لوحة زيتية لزوجته التى تبدو بصماتها واضحة على معظم الأشياء هنا .. كما أنها المسئولة عن رعاية المكان وصيانته .. وكثيرا ما تستغل غياب هيكل خارج القاهرة لتعيد للمكان رونقه بإصلاح ما جرى ما أفسده الوقت والاستعمال.

ويحرص هيكل على أن يوصل ضيوفه إلى الأسانسير .. ويحرص على أن يكون الشخص الذى يقدم فنجان القهوة مرتديا ملابسة السوداء .. الكاملة .. ولا يتردد هيكل فى أن يعرض على ضيوفه تدخين سيجار كوبى فاخر من طراز «كوهيبة» الذى كان يفضله عندما كان يدخن .. وهو يحتفظ بكل ما يحتاجه السيجار الفاخر من قاطع حاد .. وصندوق خاص به مادة توفر للسيجار الرطوبة التى يحتاجها ليظل طازجا..

وقد كان السيجار – وهو من مظاهر الثراء رغم أن أهم الدول التى تنتجه وهى كوبا شيوعية – سببا فى توجيه الانتقاد إلى هيكل الذى لم يتردد فى الترويج لأفكار جمال عبد الناصر الاشتراكية .. خاصة وأن باشوات ما قبل الثورة كانوا يشتهرون بتدخين السيجار .. وعلى رأسهم فؤاد سراج الدين الذى لا يزال يدخنه رغم أنه يقترب من التسعين من عمره .. بل أن هيكل يقول: أن علاقته بالسيجار قد بدأت فى عام ١٩٤٩ وكان أيامها من المعجبين بنجيب الهلالى باشا آخر رئيس وزراء فى العهد الملكى وكان أيضا أحد نجوم السياسة المثقفين والبارزين فى ذلك الوقت .. وكان هيكل يذهب للقائه فى كل يوم جمعة فى حضور زوج أبنته الدكتور محمود محفوظ (وزير الصحة الأسبق فيما بعد) وأبنه نبيل الهلالى الذى احترف المحاماه ونزل تحت الأرض معتنقا الأفكار الشيوعية .. وكان من عادة نجيب الهلالى باشا أن يقدم لكل منهم سيجارا من النوع الفاخر الذى يدخنه بعد العشاء .. وباستثناء نبيل الهلالى الى كان يرفض السيجار من والده تأدبا (وربما لأن يعارض ما يؤمن به من أفكار أيدلوجية) فقد عرف هيكل ومحمود محفوظ طريقهما إلى تدخين السيجار .. وعندما عرف نجيب الهلالى باشا ذلك أصبح يعطيهما بعد عشاء كل جمعة سيجارا وستة سيجار لكل منهم ليدخنه بقية أيام الأسبوع .. وفيما بعد أصبح هيكل يدخن حوالى ١١ سيجارا فى اليوم. (٦)

ويقول هيكل وهو يتحدث عن الأشياء الصغيرة فى حياته .. إنه يفضل اللون الأزرق . ويفضل البدل التى يرتديها ولا يتعامل مع الجاهز .. والهدايا التى يقبلها هى الكرافته والأقلام والسيجار .. وهى هدايا سهلة ومأمونة .. وذات مرة أهداه أبنه أحمد «هراشة» اشتراها من باريس..(٧)

فى يوم ٣ أكتوبر ١٩٩٦ كان هيكل مسافرا هو وزوجته إلى لندن .. وقبل أن يركبا الطائرة اتفقا على أن يكفا عن التدخين .. هو عن السيجار .. وهى عن السيجارة .. وأطفأ كل منهما ما كان فى يده إلى غير رجعة .. لكن .. هناك سبب آخر – غير الحرص على الصحة – جعل هيكل يكف عن تدخين السيجار .. هو أنه لاحظ أن الأثرياء الجدد يفرطون ويتباهون بتدخينه .. ويتعاملون معه بمظهرية مزعجة .. وقد أهدانى هيكل صندوق

سيجار «كوهيبة» بعد أن كف عن تدخينه .. وعندما وجدنى أتعامل معه باحترام أقل مما يجب .. قال: «إن السيجار مثل المرأة لا تطفئه بعد أن تشعله» .. وقد حاول كثير من الكتاب والصحفيين تقليد هيكل بتدخين السيجار واستخدام جملة السريعة الخاطفة فى الحوار .. لكنهم اكتشفوا أنه ليس بالسيجار ولا بطريقة الكلام يبرع الكتاب.

ويؤمن هيكل بأن المال «خادم جيد وسيد سيىء» .. ويقول: «ما لا تسمح به مواردى لا أطلبه» (٨) .. ويضيف: «كل شىء عندى هو الأحسن بصرف النظر عن عامل المقارنة بغيره .. فهذا لا يفرق معى .. أنا معتقد أن مكتبى أحسن مكتب .. وبيت أحسن بيتى .. إلى آخره».

وليس لهيكل طلبات كثيرة .. ولهذا فهو يعيش على ما يحققه من دخل .. سواء كان هذا الدخل كبيرا أم متواضعا .. ولكن .. المشكلة بالنسبة لخصومه ليست فى مستوى الدخل وإنما فى أسلوب الحياة .. الجولف والسيجار والبيت الريفى .. وربما كان خصومه ينفقون أكثر منه .. لكنهم لا يظهرون ذلك .. أو ينفقون أموالهم فى العقارات والأراضى أو يضعونها فى بنوك فى الخارج .. فيبدون أكثر تواضعا .. رغم أنهم أكثر ثراء .. كما أنهم لا يعرفون أن الاستمتاع بالحياة قد لا يكون مكلفا .. قراءة كتاب .. حوار بين أصدقاء .. مداعبة للأحفاد .. وهى أشياء تضفى السعادة ولا تكلف مالا .. على أن هيكل سواء فعل أو لم يفعل فإن سيظل هدفا لحرب باردة بينه وبين خصومه .. لكنه فى النهاية وعلى حد قوله .. لا يطلب سوى الدعاء العظيم الذى كانت تدعو له به أمه .. الصحة والستر.

الهوامش

(١) سناء البيسى : حوارها مع هيكل الذى سبق الإشارة إليه.

(٢) حوار شخصى جرى بينى وبينه فى مارينا فى صيف ١٩٩٩ فى بيت الدكتور ميلاد حنا.

(٣) هيكل: «أحاديث فى العاصفة» – دار الشروق – القاهرة ١٩٨٧ – ص ٧٥.

(٤) عمر التلمسانى: «قالوا ولم أقل عن عبد الناصر» – دار الاعتصام – القاهرة ١٩٨٥ – ص ٣٣.

(٥) مفيد فوزى: مجلة صباح الخير فى ٢٥ مارس ١٩٨٢ نقلا عن «أحاديث فى العاصفة» – ص ٢٤٤.

(٦) صلاح منتصر: عمود «مجرد رأى» – الأهرام فى ٧ يناير ١٩٩٧.

(٧) سناء البيسى: المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق.



الصورة الوحيدة فى مكتبه التى تجمع بينه وبين عبد الناصر والسادات



صورة نادرة .. أم كلثوم تسأل فى حوار على الهواء وهو يجيب.



فى مفاوضات سرية فى موسكو مع الفريق محمد فوزى



فى رحلة أخيرة إلى إيران حيث تمتد علاقته بها إلى الخمسينات



هيكل ورفيقة الدرب السيدة هدايت تيمور

(العدد ٨١٨) القاهرة فى يوم الخميس ٢٣ صفر سنة ١٣٦٣ — ١٧ فبراير سنة ١٩٤٤ (السنة التاسعة عشرة

إنه الفاروق ...

الملك في الصعيد .. الملك يزور مناطق المرض بنفسه ليشرف على مايجرى، وليواسي شعبه ..

هذا هو النبأ .. النبأ العظيم الذي لم يدهش له أحد ولم يعجب له أحد، ولكن الناس جميعا اضاءت عيونهم بنور الأمل والثقة، وتقابلت أنظارهم فتبسموا ابتسامة حب وحنان :

انه الفاروق..

انه الفاروق دائما .. فاروق الأمس.. فاروق اليوم .. فاروق الغد

بالأمس عند ما اشتدت ازمات التموين ذهب الملك بنفسه ليرأس مجلس الوزراء ليبحث معه مشاكل الشعب

وقالوا له :

فليجتمع مجلس الوزراء في القصر

— ولماذا لا اذهب اليه انا ؟

وقالوا له :

— ولكن التقاليد لم تصطنع ان يذهب الملك الي المجلس !

فأجابهم :

— وهل اصطنعت التقاليد ان يجوع الشعب ؟!

وذهب الملك

واليوم عندما اشتد المرض على جزء من شعب الملك، وعلم الملك انهم يعيشون في محنة وضر، وعلم انهم يتعذبون ويتألمون، ارسل لهم المال والزاد واهتم بحالتهم ولكن قلبه لم يطاوعه فقال :

— سأذهب بنفسى لأراهم، ولأعيش معهم لأواسيهم واشعرهم انى اتألم لألمهم.

ووضعوا ايديهم على قلوبهم وقالوا.



قلب أمة ..

— العدوى .. التعب .. الصحة

وقال الملك :

— شعبي ..

وقالوا :

— عيدك .. عيد ميلادك

وقال :

— انا لا استطيع ان احتفل ميلادى، وشعبي فى قنا واسوان فى الحالة .. وان ذهابي اليوم وزيارتي لهـ عندي خير احتفال بالعيد

وذهب الملك ..

ذهب الملك الى شعبه الذي هـ من اعماق قلبه .. يعيش فاروق منقذا يعيش فاروق حبيب الفـــلاح .. الفاروق نصير الفقراء .. زيارتك يامولانا .. إحنا فى حلم يامولانا .. ليلة القدر .. هذه الزيارة بعثت فينا الـ نريد أن نقبل يدك .. رفعت ر وشرفت مقدارنا

وقال الملك:

— بل انا منكم

وهتفوا له :

— فاروق .. فاروق .. فاروق

أجل انه الفاروق

محمد حسنين هيكل

قصة يرويها الملك

هي قصة من قصص المجد، وقصة من قصص الحب والوفاء .. هي قصة يرويها الملك .. وهي هنا بألفاظه :

— أنا لا أستطيع ان أحتفل بعيد ميلادي وشعبي فى قنا واسوان فى هذه الحالة، وان ذهابي اليوم وزيارتي لهم، هي عندى خير احتفــال بالعيد

« أنا فاروق .. أنا فاروق جيت أسأل عنكم وأسألكم اذا كنتم تريدون شيئاً

« ان الذي يشفيكم هو الطعام وقد أمرت أن يتوفر لكم وما تحتاجون اليه .. كانت ليلة القدر عندى هى عند ما أزور كل هذه الاكواخ فى المرة القادمة، فأجد صحتكم جيدة، ومساكنكم صحية، والطعام متوفر لكم جميعا »

« سلموا لي على جيرانكم

« استمروا فى أعمالكم، فان اكبر تحية تقدمونها لي أن تستمروا فى خدمة شعبي هؤلاء المرضى

« انني نفخر بالسيدة المصرية التى تضحي براحتها فى سبيل هؤلاء الفقراء، فهذه التضحية ضريبة يجب أن يؤديها الغني للفقير، فهؤلاء جميعاً اخواننا وآلامهم آلامنا جميعاً »

يالها من قصة خالدة ..

أول مقال عن الملك فاروق فى مجلة روز اليوسف

طاغية الصعيد .. ذو الشعر الأصفر والعيون الزرق!

« لقد قتل الخط »

هذا هو نص الاشارة التليفونية التي تلقتها آخر ساعة ..

وبعد ساعات قلائل كانت سيارة طراز « جيب » تشق طريقها من منفلوط ومن منفلوط تشق الوادي الى حضن الجبل وسط الصحراء مارة بالقرى والنجوع والكفور التي كان الخط يتخذها مسرحا لاباحه الاخيرة ..

وكان في سيارة « الجيب » الاستاذ محمد حسنين هيكل محرر باخر ساعة والاستاذ محمد يوسف كبير مصوري « دار اخبار اليوم » ..

الرصاصة الاخيرة !

ان الرصاصة الاخيرة [illegible]

[illegible]

خالتي فضة !

[illegible]

ولا شيء ولكنك تكاد تلمح وراء الدموع والشجن قوة الاعصاب والعزم الاكيد على ان الثأر لن ينسى ....

وهي « رشيدة » زوجة « الخط » الفتاة الجميلة التي تزوجها وهي في التاسعة من عمرها ولم ترحلان منذ زواجها أكثر من عشر مرات. هذه الفتاة هي الاخرى تكاد تلمح في عينيها ظلال المعركة المقبلة عندما يكبر ابنها ويصير رجلا .

انها لم تعرف زوجها كما يجب ومع ذلك فالثار هو الثار ... عندها هي شريعة درنكة !

ولقد نعى « الخط » الى جبل الطير عندما تزوجها ثم فر وعاد ليستعيد عمر المذكورة وهو (١)

وفي الشهور الاخيرة كان « الخط » يتسلل الى منزله كل شهر او شهرين ليقضي مع زوجته ساعة عاطفة وناعسة « خالتي فضة » مدفع التومي السريع وتقف بباب المنزل تحرس على الغرام ، وقد يتصادف أن يمر ساعتها واحد من أهالي درنكة فيراها ويبادرها — مساء الخير يا خالتي فضة .

وترد « خالتي فضة » وهي تهز مدفع التومي في يدها وترحمه تتراقص في وجه عابر السبيل ، ويفهم أن « الخط » في الداخل ، ويمضي في طريقه لا يلوي على شيء .. ولا يفتح فمه ..

وهكذا نتردد قبل ان نقول ان « رشيدة » كانت تحب « الخط » وانها لهذا سوف ترضع ابنها لبن الانتقام .... ولكن مرة أخرى الثأر هو الثأر .. ثم ان خالتي فضة ستكون صاحبة الكلمة الاولى وهي تعلم الخطر المحدق بهاشم وهي على الافق ستعرف كيف تجعله يدافع عن نفسه ويتقي شر الرصاصة الاخيرة .. أو يطلقها هو لتتبعها رصاصات أخرى كثيرة تعود بها معركة « الخط » الى الحياة بعد سنوات طويلة !

الخط .. ام الخلق ؟

— أتعلمون ماذا قال لي جلالة الملك اليوم ؟

وكان المتكلم هو عزيز اباظة باشا مدير أسيوط ... وكان الحديث أثناء اجتماع عقده في مكتبه في أسيوط من شهور طويلة لجميع مأموري مراكز مديرية أسيوط ...

ونظروا اليه متسائلين ، واستطرد عزيز باشا قائلا :

— حضرت تشريفات العيد ، وحينما جاء دوري لأصافح جلالة الملك نظر الى جلالته وقال :

— قل لي يا عزيز باشا أترى اسمه « الخط » أم « الخلق » ؟

ونهض قصد جلالته [illegible] اللوم الخفي في ثنايا الكلمات [illegible] بانه يجب بذل كل الجهود الممكنة وغير الممكنة للخلاص من « الخط » ..

وسكت عزيز باشا [illegible] هم يتكلمون .. وطال الاجتماع ساعات بحثوا خلالها أنجح الوسائل للقبض على « الخط » ثم انتهى الاجتماع بتأليف فرقة اسموها « فرقة الموت » .. ان على افرادها أن ينالوا رأس « الخط » أو ينال « الخط » رؤوسهم جميعا ..

وبدأت المعركة !

صراع مع الموت !

وكان « الخط » « اسمه الخط » أدوى مائة مرة من الموت وفرقة الموت ...

ويقول الملازم أول محمد سعيد هلال رئيس فرقة الموت :

— لقد كان الخط خصما للخطر لم يحتل عنه طوال المطاردة التي طلب عاما كاملا .. كان يسدد بندقيته من طراز « ال اعيند » ثم يطلقها بلا تردد وتسقط ضحيته ويهب لمطاردته وإذا هو لم يترك أثرا يدل عليه ... ثم يرسل الينا « الخط » من يروي لنا حركاتنا نحن وسكناتنا خلال التحقيق ... يرويها بطريقة لا تدع مجالا للشك في أن « الخط » كان أقرب الينا مما نظن ومع ذلك فساعتئذ كان يبدو لنا انه أبعد من السماء ...

وكم من مرة أحكمنا الخطط للقبض عليه وكنت أنظر الى القوات المحتشدة فلا يساورني شك في أن « الخط » في ايدينا ومع ذلك كان يفلت دائما ..

وكانت بندقيته لا تخونه أبدا وكأنها هي رسول الخط اليه .. يسدد من بعد ألف متر ويضرب .. ويضرب في القلب تماما ..

وكان ذكاؤه أيضا خارقا للعادة .. ولم يكن أقوى من ذكائه الا قوة ارادته وقوة أعصابه وقوة عضلاته ..

وذات مرة لاح امام أعيننا تحت سفح جبل الشيخ يخيس وشرنا وراءه وبدأ يتسلق الجبل ورصاصنا لا يباليه ، فقد كان حريصا على أن تحمي الصخور ظهره وهو يتسلق .. وبعد أربع دقائق ونصف كان قد وصل الى قمة الجبل ولم نستطع نحن أن نصل الى القمة الا بعد ساعة ونصف » وكان وصولنا عندنا فتحن الآن في مملكة « الخط » ومطاردته منا

رشيدة وهاشم .. تزوجها في حماية « التومي » او المدفع الرشاش!

الرجل الذي قتل الخط .. عمدة جحدم .

التحقيق الصحفي الذي كتبه عن خط الصعيد - آخر ساعة عام ١٩٤٧



على رؤوس النخيل وبين الاكواخ المظلمة المتداعية ، وعلى شواطىء الترع والغدران ، وفى الوديان وفوق رمال الصحراء يسعى ميكروب الكوليرا فى قرية « القرين » ويجر فى اذياله الموت اينما ذهب !

ان معركة الموت والحياة على اشدها فى « القرين » .

ينشر الوباء دخانه القاتم الخانق على القرية الصغيرة .. فتنهض الحياة لتبدد بسماتها المشرقة هذا الدخان وتظل تقاومه وتقاومه .. وقد تختفى الابتسامة المشرقة احيانا وتحل محلها الدموع ومع ذلك فان الحياة لا تستسلم ابدا ،ولاتزال تثبت فى « القرين » انها اقوى من الموت ! .

جزء كبير من سكان القرين من غير أهلها ..

معسكر التل الكبير يقع على حدودها ، وقد نزح اليه عمال كثيرون من كل انحاء القطر ليعملوا فيه واستقر جمهور كبير من هؤلاء فى « القرين » واصبحت هذه القرية التى كان تعدادها ١٥ الفا تضم ٢٥ الفا دون ان يزيد على مبانيها بيت واحد

وربما كان اهل « القرين » دون غيرهم من سكان قرى مصر قد اخذوا بنظام «البنسيونات» فكل فلاح كان له بيت ، وكل بيت كان صاحبه يوفر من حجراته حجرة او حجرتين يؤجرها « لغريب » من العمال الذين يعملون فى القرين ! .

وحين تفشى الوباء انتشر بادىء الامر بين عمال الجيش « الغرباء »وكان الفلاحون من اصحاب البيوت يخافون التبليغ عن الاصابات خيفة ان يعزلوا هم الاخرون ... ويموت «الغريب» وليس هناك من يسأل عنه .. ويحمله اهل البيت الى الجبل فيدفنونه ويعودون فاذا سئلوا عنه فى الغد قالوا :

— فر .. وخرج من «القرين»

— متى ؟

— قبل الوباء ! .

وحدث ان فاحت من الجبل روائح خبيثة وذهب بعض المستطلعين وعادوا يقولون ان هناك جثثا ، ويظهر ان الذين قاموا بدفنها كانوا فى عجلة من امرهم فدفنوها على بعد قريب من سطح الارض .

واعلن « عمدة » القرين ، وفى القرين اكثر من عمدة ، انهم [illegible]

ويحزنون من اجلهم ! .

وفى اليوم التالى بدأت اجراءات الحفر والبناء ، وخرج عدد كبير من اصحاء القرين يساهمون فى بناء المقابر « للغرباء » وكان بين العاملين رجل اسمه «رفاعى» فقد اباه وزوجته وابنا له صغيرا افترسهم جميعا ميكروب الكوليرا وبقى « رفاعى » وحده على قيد الحياة .. ولقد حفر بنفسه ثلاث مقابر لابيه ، وزوجته ، وابنه . ومع ذلك فان هذا لم يمنعه من الاشتراك فى حفر المقابر ... « للغرباء » ! .

الحزينة .. بلا سبب

ولقد ظهر نوع من الفتيات فى « القرين » نوع الحزينات بلا سبب .. أو هكذا يرى أهلهن . [illegible] « الغرباء » .

« الغرباء » من العمال الشبان رواد السينما وسكان المدن .. وحين هبطوا على القرين لم يكن هناك مفر من حدوث قصص غرام بينهم وبين عذارى القرين الجميلات ..

وبعض هذه القصص انتهى بالزواج بين عذارى القرية والغرباء ، وبعضها لم يتسع الوقت ... واقبل الوباء وماتت اغانى الغرام فوق الشفاه !

ويقبل احد الآباء على بيته فى الليل وتقابله ابنته الشابة تسأله : أين كان ؟ ولماذا تأخر وطرق القرية كلها مفاجآت ؟

ويجيب الأب المتعب :

كنا نشترك فى دفن غريب

وتسأله ابنته من باب الفضول

— من هو ؟

فيقول لها اسمه ... ثم ينسى ان يلاحظ ابنته وهى تهرب لتخفى الدموع التى تفجرت فجأة من عينيها

وكل يوم يموت غرباء ... وكل يوم تسيل دموع !

الايدى المربوطة !

ومستشفى « القرين » الذى يشهد احتدام الصراع لا يزال يشرق بابتسامات مرحة عالية.

هناك طبيب المستشفى الشاب يخرج من خيام المرضى فيطلب من احدى الممرضات ان تربط له يديه حتى لا يصافح احدا ... ويقابلك وهو يضحك ويمد يديه المربوطتين ويقول :

— لا فائدة غير هذا ... قد انسى واسلم على احد ... والله وحده يعلم ماذا فى يدى ...

ثم ترتفع ضحكته مرة اخرى ويقول :

— كوليرا !

من الترعة .. ماء وكوليرا. وايمان بالقدر !

تحقيق الكوليرا الذى حصل به على أول جائزة صحفية - آخر ساعة عام ١٩٤٧

■ ٢٨ ■

الديمقراطية .. الفريضة الغائبة

■ نحت هيكل كلمات وتعبيرات فرضت نفسها على لغة الناس المكتوبة والمنطوقة .. النكبة .. النكسة .. زوار الفجر .. حادث المنصة .. فلسفة الثورة .. الطليعة الثورية .. تنظم الصحافة .. الديمقراطية الاقتصادية .. الميثاق .. أهل الثقة وأهل الخبرة .. وغيرها .. بل أنه يمكن القول أن عنوانا لكتاب له وهو «السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة» ألهم زعيم تنظيم الجهاد – الذى اغتال أنور السادات – فى اختيار عنوان كتابه «الفريضة الغائبة» وهو بمثابة دستور التنظيم .. وتنظيمات مشابهة .. متشددة أخرى .. وقد لفتت هذه القدرة نظر الدكتور إدوارد سعيد فقدم رسالة عنها فى جامعة بواسطن الأمريكية.

لكن هنا تعبير فرض نفسه من منتصف الخمسينات إلى منتصف الستينات كان نحتا مشتركاً بين هيكل وغيره من الكتاب البارزين – مثل لطفى الخولى والدكتور لويس عوض وتوفيق الحكيم – وهو تعبير «أزمة المثقفين» .. وقد تحول التعبير فى تلك الفترة إلى ساحة من الشد والجذب حول الخلاف بين الثورة والمثقفين.

إن هيكل الذى حاول تبرير ما جرى للصحافة فى صيف ١٩٦٠ حاول تبرير ما جرى للمثقفين فى صيف عام ١٩٦١ .. فكانت سلسلة مقالاته الشهيرة «أزمة المثقفين» التى بدأ نشرها فى ١٢ يونيو ١٩٦١ والتى أثارت جدلا واسعا بين التيارات السياسية المختلفة ثم جُمعت فى كتاب حمل نفس الاسم ونشرته دار المعارف فى العالم نفسه.

لقد بدأ الضربة الأولى الكاتب الماركسى المنفتح على الثورة لطفى الخولى بمقالات كتبها فى مارس ١٩٦١ (فى ذكرى أزمة مارس ١٩٥٤ الشهيرة) حول تعريف ودور المثقفين فى الثورة .. ويمكن القول أن ما وصف بأزمة المثقفين كان نوعا من المواجهة الأيدلوجية – كان من الصعب تجنبها – بين المثقفين والسلطة .. «فمن جهة كان المثقفون يشعرون أنهم أبعدوا عن الحياة السياسية والاجتماعية بسبب رفضهم لعبة «فلسفة الثورة» التى صاغها هيكل وعبد الناصر .. ومن جهة أخرى كانت السلطة الجديدة – التى عبر عنها هيكل – ترى أن مثقفيها ليسوا على مستوى ما يجرى من تغيرات فى البلاد ولا يعرفون أدوارهم الجديدة». (١)

ولم يكن الهدف – كما كتب هيكل فى مقالاته – أن يتعاون المثقفون مع السلطة فقط وإنما يدخلون فى «علاقة تفاعل معها» لرعاية مسيرتها وتأمين فكرها وتأكيد نظريتها ودعم خطواتها المتتالية .. الإصلاح الزراعى .. إلغاء الأحزاب السياسية .. الوحدة مع سوريا .. تأميم الصحافة .. وغيرها..

ويعرف هيكل المثقفين بأنهم «أولئك الذين أوتوا فرص التعلم والحصول على الشهادة ليضطلعوا بالمسئولية الفكرية فى مجالات متعددة: سياسية واجتماعية واقتصادية» .. وقد أثار التعريف جدلا وخلافا واسعا .. فهو يقتصر على المتعليمن الذين تخرجوا فى المدارس والجامعات فقط .. وهو ما جعل لويس عوض يقول: إن المثقفين هم الأشخاص ذوى الاهتمامات العامة الجادة (٢) .. وبينما وصف لطفى الخولى الأزمة بأنها «أزمة منهج» تمشى عليه الثورة كان من رأى الدكتور عبد الرازق حسين (رئيس مركز الأبحاث فى البنك الصناعى) أنها «أزمة ثقة» .. ثقة المثقفين بأنفسهم وثقتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه .. وفى الوقت نفسه كان وصف لويس عوض للأزمة بأنها «أزمة تفاعل» بين الثور والمثقفين.

أما هيكل فقد فتح النار على المثقفين .. فهم فى رأيه «اصبحوا طبقة لها مصالحها المتميزة عن مصالح الجماهير» .. وهم «فيما عدا ظواهر فردية كانوا بعيدين عن المعركة» .. وبعضهم «بارتباطاته الطبقية كان يقف فى الصف المعادى للجماهير» .. و«البعض الآخر فضل إيثار العافية» .. وفى المحصلة النهائية فإنه لم يستطيعوا أن يروا الثورة القادمة ولا نذرها وما تدل عليه وما تشير إليه .. وبعد الثورة تبنى بعضهم موقفا سلبيا فى حين وقف البعض الآخر فى صف النظام الجديد معتبرا إياه واقعا قائما لا يمكن

تجاهله .. لكن تأييد هؤلاء المثقفين ظل يتأرجح بين الدعم والشك .. بل إن أكثرهم قد لجأ بشكل أو بآخر إلى نوع من الانتظار أملاً فى أن يحمل له الوقت أخباراً جديدة. (٣)

ولكن .. هيكل يعترف بوجود ثلاث أزمات بين الثورة والمثقفين:

(١) قامت الأزمة الأولى حول المطالبة بعودة الجيش إلى ثكناته فى أعقاب تصديه لتنفيذ ثورة ٢٣ يوليو وكان هناك من يبنى هذه المطالبة على أساس أن الجيش ليس سلطة حكم وإنه وقد قام بالثورة عليه أن يتنحى وترك الحكم لإربابه والعارفين بأصوله.

(٢) وقامت الأزمة الثانية حول المطالبة بعودة الحياة النيابية وبعودة الأحزاب السياسية باعتبار أن ذلك فى رأى المطالبين به هو أساس الديمقراطية وصورته التى لا تتغير.

(٣) وقامت الأزمة الثالثة حول ما أسموه فى ذلك الوقت بالمفاضلة بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» وتركزت هذه الأزمة فى الواقع حول تعيين بعض العسكريين فى عدد من الشركات والهيئات والمؤسسات وفى وظائف يبدو أنها فنية بحتة لا تحتمل غير المتخصصين فى أعمالها.

وفى الأزمة الأولى لا يتحمس هيكل لعودة الجيش لثكناته .. فالذى تحرك فى ٢٣ يوليو لم يكن الجيش بقيادته وجنرالاته وقادة الأسلحة فيه .. الذى تحرك فى تلك الليلة .. طلائع شابة «بقى اتصالها بالجماهير مفتوحاً لا تعوقه مصالح طبقة ولاتصده انتهازية أو سلبية» .. و«كان الحد الفاصل بين النجاح والفشل هو موقف الجماهير .. وقد اندفعت الجماهير فى الشوارع .. هى التى اندفعت من غير تحفظات فى تأييد الطلائع الشابة التى خرجت من الجيش استجابة لندائها وتفاعلا معها بعد أن عجزت كل الفئات الأخرى عن مواجهة التحدى الذى فرضته الحوادث» .. ولعل خطأ المثقفين الفادح أنهم لم يدركوا أن التغيير لم يكن تغييرا فى رأس الحكم وإنما كان تغييرا فى المجتمع من أساسه.

ولم يكن هيكل وحده الذى يعرف أن العسكريين لن يعودوا إلى ثكناتهم .. كل المثقفين كانوا يعرفون ذلك .. ويدركونه .. فالذى يصل إلى السلطة بالقوة لماذا يتركها؟ .. ثم والأهم أن الثورة نفذت ما عجزت عنه كل القوى السياسية والحزبية والثقافية .. بل أن التنفيذ هو أبرز حسنات الثورة .. فهى لم تأت بأفكار جديدة .. وإنما نفذت ما كان مطروحاً للجدل والمناقشة .. مثل الإصلاح الزراعى .. والعدالة الاجتماعية .. واستكمال مسيرة التعليم المجانى .. وبرامج التصنيع .. بل أن الأفكار القومية كانت سابقة عليها .. لقد كان

المثقفون يفكرون .. ولكن الثورة هى التى نفذت .. وغيرت .. ومن ثم كان الشعب معها .. مع من نفذ .. لا مع من فكر وتصور.

لكن .. شعار «نحن نفكر والثورة تنفذ» الذى طرحه المثقفون فى بداية الثورة سرعان ما أصبح دخانا فى الفراغ .. فالثورة أصبحت هى التى تفكر .. وتنفذ .. ولا تريد من المثقفين سوى التأييد بالطريقة التى تحددها وتختارها .. ولا مانع أيضاً من نقدهم بقسوة واتهامهم بالسلبية والانتهازية والتكاسل.

وفى الأزمة الثانية يرفض هيكل عودة الأحزاب السياسية القديمة .. والسبب فى رأيه أن الأحزاب الثلاثة الكبرى التى كانت قائمة قبل الثورة - الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين - لفظت أنفسها السياسية بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ .. ولم يعد الوفد بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ قادراً على الفعل أو على تحقيق التغيير .. وباعد بين هذه الأحزاب وبين الثورة ارتكازها على كبار ملاك الأراضى .. ورفضها إعادة توزيع الأراضى وهى الخطوة الأولى نحو الثورة .. «ولقد كانت هذه الصورة كلها أساس ما كان يشكو الناس منه قبل الثورة من قيام الأحزاب على غير برامج وإنما على مجرد أسماء الأشخاص .. كذلك ما كان يشكو الناس منع سهولة التنقل بين الأحزاب .. فالأحزاب الثالثة فى حقيقتها كانت حزبا واحدا من حيث كونها مصلحة واحدة تمثل كبار ملاك الأراضى ومن جذبهم بريق الثروة والسلطان إلى ناحيتهم من المثقفين». (٤)

«وفى مواجهة هذه الأحزاب الثلاثة التى اضطلعت بالحكم كانت هناك مجموعات أخرى من تنظيمات العمل العام استطاعت أن تجذب إليها أعدادا من المثقفين لم يجذبهم إليها إيمانهم الكامل بها بقدر ما جذبهم محاولة البحث عن طريق . وكان الإخوان المسلمون أكبر هذه التنظيمات ولكن فلسفتهم كانت تلفت إلى الوراء .. وكانت التنظيمات الشيوعية تليهم فى القوة ولكن الثورة فى تقديرهم لا تصنع محيا وإنما يتم استيرادها .. واستيرادها جاهزة ملفوفة بالسيلوفان الأحمر مختومة بالنجمة الحمراء من الاتحاد السوفيتى أمر لا مناص منه .. وكان الحزب الوطنى أصغر هذه التنظيمات وربما أطيبها ولكنه على أى حال أبعدها عن قدرة العمل الثورى». (٥)

«وكما أن الأحزاب الثالثة غير الحاكمة (الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين) استطاعت أن تشد جماعات كبيرة من المثقفين الذين كان بمقدروهم أن يقوموا بالثورة .. فإن هذه التنظيمات غير الحاكمة (الإخوان والشيوعيون والحزب الوطنى) استطاعت أن

تشتت جماعات كبيرة أخرى من المثقفين وأن تستنزف منهم طاقة كان يمكن أن تدفع الاتجاه نحو الثورة .. ثم تبقىٰ بعد ذلك من المثقفين جماعة الذين آثروا أن يتوافروا على عملهم الفنى سواء فى وزارات الدولة أو فى منشآت القطاع الخاص .. وهؤلاء آثروا لسبب أو لآخر ألا يمارسوا العمل العام» .. ولكن هيكل يستطرد قائلاً: إنه بهذا التحليل لا يسلب من الأحزاب والتنظيمات التى عددها مواقف لها مهدت للثورة: «إننى أسلم بوجود مثل هذه المواقف ولكنها تأثير ظروف مرحلية لا تقدر على المضى فى فتح الطريق وصولاً إلى الثورة» .. وهو بهذا التحليل لا يستبعد وجود عدد من المثقفين خارج الأحزاب والتنظيمات التى عددها كان ينظر إلى ما يجرى حوله من غير رضا ولكنه ولم يكن فى تعبيره عن عدم رضاه غير أن يضرب كفا بكف ويتحسر .. وكانت الحسرة شىء والثورة شىء آخر».

ثم يقول: «وحصيلة هذه الصورة للعمل السياسى فى النهاية هى وجود فراغ هائل كبير فى النهاية كان بنفسه هو الذى دعا الطليعة من ضباط الجيش الذى تحركوا ليلة ٢٣ يوليو إلى حركتهم.. هو الذى ناداهم وأكاد أقول ألح عليهم فى النداء .. أكاد أقول هذا وأنا أذكر حديثا لجمال عبد الناصر قال فيه: لم أكن واثقا أن الثورة ستنجح ولم يكن النجاح هو كل ما أريده .. لقد كان حسبى أن نتحرك».

أى أن كل ما يبنيه هيكل من تقرير للثورة هو الحركة البدنية التى قام بها الضباط الأحرار .. معطيا دورا أقل - أو دور يبدوا عابراً - لكل الذين مهدوا لها من تنظيمات وجماعات وأحزاب .. فالعبرة عنده بالإنجاز .. بالتغيير .. وربما يكون عنده بعض الحق .. ولكن .. هل كان الشعب سيستقبل ما جرى فى ٢٣ يوليو بكل هذه الحفاوة وبكل هذا الحماس ويحولها من انقلاب إلى ثورة لو لم تمهد التنظيمات والجماعات والأحزاب لها؟

ثم أن هناك تحليل يلقى رواجا كبيراً بين المثقفين - المعارضين والمؤيدين للثورة - هو أن ضباط الجيش تحركوا فى الوقت المناسب لا لأن غيرهم كان عاجزا عن الحركة وإنما لإجهاض حركة الآخرين قبل أن تحدث الثورة الشعبية بمفهومها المباشر .. لا بالمفهوم الذى يطرحه هيكل .. وهى نظرية سادت .. واستخدمت فى تفسير النجاح العاجل غير المتوقع لثورة يوليو وفى تفسير عدم تدخل القوات البريطانية للإجهاز على الثورة .. وكان مرشحا للثورة أو كانوا على أطرافها - حسب هذه النظرية - قوة الإخوان وقوة الشيوعيين .. وهما قوتان تمثلان خطرا على معادلة السلطة فى دولة مهمة فى المنطقة مثل مصر .. فكان لابد أن تخرج قوة ثالثة معتدلة تصل إلى السلطة وتكون جاهزة

لتحقيق إصلاح مقبول فى اتجاه العدالة الاجتماعية بعيدا عن تطرف الإخوان والشيوعيين .. وهكذا .. تحركت ما اسماه هيكل بالطليعة الثورية من ضباط الجيش.. ويرى أصحاب هذه النظرة أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت وراء ذلك كله.

ويخلص هيكل من رفضه لعودة الأحزاب القديمة إلى ثلاث نتائج: (١) أن المطالبة بعودة الأحزاب القديمة كان معناها تجميد الثورة من حيث أنها دعوة للمصالح القديمة أن تعود إلى الحكم .. بل إلى التحكم .. (٢) أن المطالبة بتأليف أحزاب جديدة كانت دعوة نظرية باعتبار أن التغيير الثورى الذى وقع حتى ذلك الوقت لم يكن قد سمح بفرصة لظهور مصالح جديدة قوية وقادرة .. (٣) أن مطالبة الطليعة التى تصدت للثورة بتأليف حزب واحد تنطوى على كثير من التجنى .. فإن هذه الطليعة بسبب بعدها عن مجال العمل السياسى بصورته الطبيعية لم تكن تملك إلا إرادة التغيير الثورى .. ولم تكن قد وصلت بعد إلى عقيدة تقود خطاها إلى التغيير وإنما هى حتى ذلك الوقت كانت تمارس عملها الثورى بالتجربة والخطأ. (٦)

ويصل هيكل إلى الأزمة الثالثة .. وهى المفاضلة بين أهل الثقة وأهل الخبرة .. وفى بداية مناقشة هذه الأزمة يضع هيكل بعض النقاط على بعض الحروف: (١) التسليم بأنه فى عدد من الظروف كانت لأهل الثقة أفضلية معينة .. (٢) أن المفاضلة بين أهل الثقة وأهل الخبرة ليست مفاضلة بين العسكريين والمدنيين .. (٣) أنه ليست هناك خطوط فاصلة قاطعة ونهائية بين أهل الثقة وأهل الخبرة .. فكثير من أهل الثقة يمكن أن يكونوا أهل خبرة (محمود يونس فى قناة السويس ومحمود رياض فى الخارجية مثلا) .. كما أن كثيرا من أهل الخبرة يمكن أن يكونوا فى نفس الوقت أهل ثقة (سيد مرعى فى الزراعة وعزيز صدقى فى الصناعة وعبد المنعم القيسونى فى الاقتصاد وهم من المدنيين مثلاً). (٧)

وبينما اعتبر لويس عوض أن جمال عبد الناصر كافأ بالمناصب الذين قاموا بالثورة معه وتحملوا معه عبء المخاطر وهو ما خلق أهل الثقة فإن هيكل يرى أن الثورة لجأت إلى هؤلاء بسبب الفراغ الذى وجدت الدولة فيه بعد أن تغيرت السلطة .. «فالجموع التى جاءت إليها كانت أشياعا متفرقة وفلولا متناثرة «وأضاف جمال عبد الناصر فى «فلسفة الثورة»: «وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى والخبرة من أصحابها ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير .. كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر .. وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا لهدم فكرة أخرى .. ولو أطعنا كل ما سمعناه لقتلنا جميع

الرجال وهدمنا جميع الأفكار» .. وكان لابد أن تخلق الثورة رجالها وأن توسع الدائرة بعد ذلك.

هل تغيرت رؤية هيكل لمشكلة الديمقراطية فيما بعد؟.

إنه لا يتحدث الآن عن «أزمة المثقفين» وإنما يتحدث عن «أزمة الديمقراطية» أو بتعبيره الذى يراه أدق «مشكلة الديمقراطية» والمشكلة أكبر من أزمة (٧).. ولكنه يطرح هذه المشكلة بعيدا عن المشهد المصرى وبمنظور عين طائر يحلق فوق سماء العالم الثالث.. باعتبار أن مصر هى جزء منه.

وهو يرى أن الديمقراطية مشكلة «فى بلادنا» مثلها مثل مشكلة الفقر .. ومشكلة الجهل.. ومشكلة التفاوات الطبقى الفادح .. وهى قضايا لا يستطيع حاكم بالذات أن يتحمل كل المسئولية عنها «لأن الحقيقة التاريخية أكبر من عمر أى حاكم» .. ويلاحظ أنه يتحدث عن الحاكم لا عن الحكم.. «لأن الظاهرة السائدة فى معظم بلدان عالمنا الثالث هى ظاهرة الرجل الواحد .. الحاكم الفرد «بنص كلامه».

وبنص كلامه أيضاً:

• إن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق إلا فى مناخ يسمح بحل المشاكل عن طريق المناقشة الحرة .. الحوار الديمقراطى.

• إن ذلك لا يمكن أن يتوفر إلا إذا كان المجتمع المنتج قادرا على أن يصنع ثروة تكفى مجموعة .. وأن يكون توزيع هذه الثروة على أساس يكفل لكل فرد نصيبا عادلا فى الثروة العامة يكفى لتلبية احتياجاته الأساسية من الغذاء والكساء .. من الصحة والمسكن .. من التعليم والثقافة.

• مثل ذلك التوازن الاقتصادى الاجتماعى هو القاعدة التى يمكن أن يقوم عيها التوازن السياسى داخل أى مجتمع .. التوازن السياسى يعبر عن نفسه بمؤسسات دستورية .. المؤسسات الدستورية وعاء الحوار .. ثم مصدر القرار بعد الحوار.

• الديمقراطية هى أعقد قضايا الإنسانية فى ماضيها وحاضرها .. ربما مستقبلها .. سبب التعقيد أن الكل طلبوها ويطلبونها وسوف يلحون فى طلبها .. لكن أحد لا يعرف بالتحديد ماذا يريد منها .. أو حتى هى على وجه اليقين؟ .. وعالم اليوم على سبيل المثال يختلف فى مذاهبه واتجاهاته .. لكن كلمة الديمقراطية على لسان كل المختلفين .. هناك مثلاً: رأسمالية واشتراكية وماركسية وبين هذه المذاهب حروب لكنها جميعا تجرى تحت

لواء الديمقراطية .. كلهم ديمقراطيون .. وهناك مثلا: شرق وغرب وشمال وجنوب .. وبين هذه الاتجاهات جميعا فوارق وفواصل بعيدة بعد السماء عن الأرض .. لكن الاتجاهات الأربعة تلتقى عند حديث واحد هو الديمقراطية .. بالحق أو بالادعاء.

• الحل الديمقراطى هو أن يصبح الحكم فى غير حاجة إلى القوة العسكرية إلا فى حماية الأمن الخارجي للدولة.

• ورغم ذلك كله تبقى كلمة ذلك الديمقراطى العظيم مونتيسكيو خالدة : «إن الديمقراطية الحقيقة لم توجد قط .. ولن توجد قط».

ولا أزيد.

الهوامش

(١) جمال الشلبى : «محمد حسنين هيكل – استمرارية أم تحول؟» – مصدر سابق – ص ٥٧.

(٢) عادل حمودة: «أزمة المثقفين وثورة يوليو» – مكتبة مدبولى – القاهرة ١٩٨٥.

(٣) المقال الأول لهيكل بعنوان «أزمة المثقفين» – الأهرام فى ١٢ يونيو ١٩٦١.

(٤) المقال الثانى لهيكل بعنوان «لماذا فتحت المناقشة فى هذا الموضوع الآن؟» – الأهرام فى ١٦ يونيو ١٩٦١.

(٥) المقال الثاني.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المقال الثالث لهيكل بعنوان «المطالبة بعودة الحياة النيابية» – الأهرام فى ٢٣ يونيو ١٩٦١.

(٨) المقال الرابع بعنوان «أهل الثقة وأهل الخبرة» – الأهرام فى ٣٠ يونيو ١٩٦١.

(٩) هيكلك «السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة» – مصدر سابق – ص ٢٣٦.

الفصل الخامس

نحن وأمريكا.. من الثورة إلى الهزيمة

٢٩

فتش عن المخابرات المركزية

■ دخل الرئيس الأمريكى ليندون جونسون على بعض السفراء العرب فى قاعة استقبال وزارة الخارجية فى واشنطن.. كانت مشاعر القلق تسيطر على الجميع بعد هزيمة العرب فى حرب يونيو ١٩٦٧ .. وكان هناك تصور أن هذا اللقاء بين السفراء العرب - الذين بقوا فى واشنطن رغم قطع العلاقات بين بلادهم والولايات المتحدة - والرئيس الأمريكى سيخفف من حدة هذا المشاعر .. واعتبر السفراء العرب أن لقاء الرئيس جونسون مفاجأة سارة لأنها تتيح لهم التحدث معه والتعبير عن مشاعرهم .. لكن الدهشة سرعان ما استبدت بهم حين دخل جونسون إليه وهو يمسك بوثاق من الجلد يقود به كلبه الذى يسبقه إلى الدخول .. ثم جلس .. وكانت بداية حديثه - لذهولهم - موجهة إلى الكلب وأسمه على نفس فصيلته «بيجل» قائلاً له بالحرف الواحد تقريباً:

«اسمع يا بيجل .. حكاية رجل شرير تخانق مع جاره الطيب متصورا أن هذا الجار الطيب لا يستطيع الرد عليه .. ولكن الجار الطيب يا بيجل استجمع كل قواه ولكم جاره الشرير لكمة قوية طرحته على الأرض .. له حق يا بيجل .. أليس كذلك؟ .. لماذا يحق لأصحاب هذا الرجل الشرير أن يشتكوا للآخرين؟ .. ماهو رأيك يا بيجل؟».

وكاد يغمى على السفراء العرب المدعوين .. بل وكاد يغمى على بعض السفراء الأمريكيين الحاضرين .. وإن تكلف بعضهم ابتسامات مغتصبة .. ثم قام الرئيس جونسون وبيجل لا يزال يسابقه .. فقد كان كلبه الأثير إليه ضمن أربعة كلاب يحتفظ بها من نفس الفصيلة أهدتها إليه ماتيلدا كريم .. حسب رواية هيكل فى كتابه «الانفجار».

إن ما تيلدا كريم من أب سويسرى كاثوليكى وأم إيطالية يهودية .. وقد كانت جاذبيتها لا تقاوم .. وقد تزوجت من يهودى هو ديفيد داتون كان الرأس المدبر لحادث اغتيال اللورد موين وزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط والذى كان مقيما فى القاهرة .. وعندما وقع جونسون فى هواها وأصبحت عشيقته كانت فى الأربعين من عمرها وإن لم تفقد سحرها ولا تأثيرها على الرئيس الأمريكى الذى صورته الصحافة العربية فى ذلك الوقت على هيئة راعى بقر .. كاوبوى قبيح وخشن.

لقد كان مشهد جونسون وكلبه بيجل هو ذروة الشماتة الأمريكية فى أصعب لحظات عاشها جمال عبد الناصر .. وقد تلقت تجربته وأحلامه الوطنية والقومية أعنف ضربة سياسية وعسكرية .. وبهذه الضربة وصلت العلاقات المصرية الأمريكية إلى حائط سد .. لم يكن من الممكن هدمه وإعادة فتح الطريق من جديد أمام هذه العلاقات إلا بمعجزة سماوية .. أو بتغير النظام فى مصر.

ولم تكن صدفة أن يروى هيكل قصة العلاقات المصرية الأمريكية قبل ساعة صفر الحرب .. فالعلاقات المتوترة بين البلدين كانت طرفاً فاعلاً ومؤثراً فى السخونة المتصاعدة على الحدود العربية الإسرائيلية .. بل ربما كانت الطرف الرئيسى فى الأزمة التى انتهت بكارثة .. فلو لم تجدها الولايات المتحدة فرصة لتوجيه ضربة صاعقة للنظام الناصرى فى مصر لما منحت إسرائيل ضوءاً أخضر للهجوم الخاطف على النحو الذى عجل بالهزيمة فى ساعات قليلة.. وقد شاركت الولايات المتحدة فى خطة الخداع عندما وافقت على استقبال زكريا محيى الدين فى واشنطن فى نفس اليوم الذى كان مقررا فيه أن تبدأ إسرائيل الحرب.

كتب هيكل ١١ مقالاً بعنوان «نحن وأمريكا» .. نشر المقال الأول فى ٢٤ فبراير ١٩٦٧ .. ونشر المقال العاشر فى ٥ يونيو فى ٢٤ فبراير ١٩٦٧ .. يوم الحرب .. ونشر المقال الأخير بعد أسبوع من الزلزال .. فى ١٢ يونيو ١٩٦٧ .. وكانت أجواء الهزيمة تخيم على الجميع .. وكانت هذه السلسلة من المقالات هى منطقة فاصلة فى كتابات هيكل بين ما قبل الهزيمة أو النكسة .. وما بعدها.

وصف هيكل «أمريكا» بالغنى الغبى .. وصف تصرفاتها «بحماقة القوة» التى تتحول بكثرة التهور والتورط إلى مركب خطر وشرير .. ومن ثم فإن أسلوب تصدينا للصدام معها «لابد له من تقديرات سليمة وحسابات دقيقة» .. «وأول ما ينتج عن ذلك ضرورة أن لا يكون رد الفعل مطلقا .. رد الفعل المطلق ضد خصم لا نطوله بطريقة مباشرة يصبح

من جانبنا حالة هياج عصبى .. كلما زادت كلما قل تأثيرها» .. ورغم أن هيكل استطرد قائلاً: «وأود أن يكون واضحا أن ذلك شيء يختلف عن المساومة والمهادنة» إلا أن التيارات السياسية والثقافية اليسارية والماركسية – التى حلت تنظيماتها ووجدت نفسها قادرة على التعبير فى أجهزة الإعلام المختلفة – اعتبرت ما يكتبه عن الولايات المتحدة «مساومة ومهادنة» .. خاصة فى وقت وصل فيه العداء لأمريكا إلى حد الغضب الكاسح الذى يصعب معه مناقشة أى شيء يتعلق بها دون «هياج عصبى» .. وراحت هذه التيارات تروج لفكرة سادت فى تلك الأيام هى أن هيكل «أمريكانى» .. وهى فكرة لم تلغها اتهامات الإخوان المسلمين له بأنه «اشتراكى» ..

****

إن الصراع والصدام بين هيكل والاتحاد الاشتراكى كان يرجع إلى ما بعد قانون تنظيم الصحافة .. كان الاتحاد الاشتراكى – الذى آلت إليه الملكية الأسمية للصحافة – يريد أن يمارس نفوذا مباشرا عليها .. وكان أن أقترح تشكيل مجلسا أعلى للصحافة يمارس من خلاله هذا النفوذ .. لكن .. كان لهيكل رأى آخر .. هو تشكيل ما يسمى بهيئة الصحافة العربية المتحدة .. على غرار تجربة الملكية التعاونية فى صحيفة «اللوموند» الفرنسية.. وهو ما جعله يوجه دعوة لرئيس مجلس إدارتها «بيف ميرى» ليكون ضيفا على الأهرام ليشرح التجربة .. وكانت صيغة هيئة الصحافة العربية المتحدة – التى صاغها فى قالبها القانونى الدكتور جمال العطيفى – وكما قال لى هيكل بنفسه: كانت تعطى استقلالا كاملا للصحف .. بأن تؤجر كل صحيفة رخصتها من الاتحاد الاشتراكى التى يملكها لمدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد مقابل ٥٠ ألف جنيه سنويا .. وهو ما رفضه رئيس التنظيم السياسى على صبرى الذى كان يهمه الهيمنة على الصحافة ولا يهمه ما يجنيه من ورائها مالياً .. وهكذا .. وُلد الخلاف والصدام بينه وبين هيكل.

وما زاد الطين بلة أن جمال عبد الناصر رحب بمشروع هيكل وطلب تنفيذه فى الأهرام وأخبار اليوم على أن يكون هيكل هو رئيس مجلس إدارة هذه الهيئة الجديدة .. على أن تخرج منها جريدة الجمهورية التى كان من رأى جمال عبد الناصر أن تترك للاتحاد الاشتراكى لتكون جريدته وليشرف عليها على صبرى .. ولم يكن هيكل مستريحا لإدارته لأخبار اليوم إلى جانب الأهرام .. وكان ما قاله لجمال عبد الناصر : «أن ذلك تركيز للقوة الصحفية فى يد واحدة بأكثر مما هو ضرورى وصحى» .. لكن .. جمال عبدالناصر كان مُصر.. وهكذا زادت سخونة الخلاف والصدام بينه وبين الاتحاد الاشتراكى.

كانت أخبار اليوم قد مرت بتطورات حادة بعد تنظيم الصحافة .. فقد عُين أمين شاكر من ضباط الثورة رئيسا لمجلس إدارتها .. وتدخل هيكل .. ووافق جمال عبد الناصر على أن يعود مصطفى وعلى أمين إلى أخبار اليوم .. ولم تهدأ الصراعات .. بل تضاعفت .. وكان أن خرج أمين شاكر .. وجاء بعده كمال رفعت .. ثم خالد محيى الدين .. إلى أن تقرر أن يشرف عليها هيكل .. وبخروج هؤلاء السياسيون من أخبار اليوم وصل الخلاف والصدام بين هيكل والتنظيم السياسى إلى نقطة اللاعودة.

وفيما بعد .. بعد الهزيمة عندما راح هيكل يدعو إلى «تحييد أمريكا» ووجدها الاتحاد الاشتراكى فرصة لفتح النيران عليه فى جريدة «الجمهورية» .. لقد قال له جمال عبد الناصر: «ليس لدى اعتراض على ما تكتب .. ولن يصيبك أحد بسوء طالما أنا على قيد الحياة .. لكن لن أمنع أحد من الهجوم عليك.. دافع عن نفسك ودافع عن أفكارك» .. وما كاد هيكل يفتح سيرة «تحييد أمريكا» حتى وجد هجوما عليه من أقطاب التنظيم السياسى .. على صبرى وضياء الدين داود ولبيب شقير .. فقد كتبوا يهاجمونه فى ثلاثة مقالات نشرتها «الجمهورية» فى يوم واحد.

* * * *

كانت هناك ثلاثة مشاكل رئيسية مزمنة بين القاهرة وواشنطن – ناقشها هيكل فى مقالاته المطولة – راحت حدتها تزداد يوما بعد آخر:

(١) مشكلة إسرائيل : وقد انتقل الدعم الأمريكى لها من مجرد مجاملة لأصوات اليهود فى انتخابات البيت الأبيض إلى مساندة عسكرية واقتصادية بلا حدود وضمان لأمنها وسلامتها فى اتفاقات استراتيجية يصعب الرجوع فيها.

(٢) مشكلة ملوك العرب الرجعيين: وقد انتقل الدعم الأمريكى لهم من دعم نظمهم بالدعاية والمساندة السياسية إلى دعمها بالقوة المسلحة ومؤامرات الكواليس بما فيها محاولات القتل والاغتيال.

(٣) مشكلة الضغط الاقتصادى : وقد انتقل من مجرد تجميد الأرصدة المصرية كما حدث فى حرب السويس عام ١٩٥٦ إلى حرب التجويع بمنع القمح عن الشعب المصرى كما حدث فيما بعد .. فى بداية الستينات.

وكانت هناك أربع مراحل مرت بها العلاقات المصرية الأمريكية من التفاهم إلى الصدام:

(١) مرحلة محاولة الترويض: وهى مرحلة ممتدة من قيام الثورة عام ١٩٥٢ إلى توقيع صفقة الأسلحة السوفيتية عام ١٩٥٥.

(٢) مرحلة محاولة العقاب: وقد بدأت من عام ١٩٥٦ بالحرب النفسية وسحب عرض المساهمة فى مشروع السد العالى ثم امتدت بعد الحرب المسلحة فى السويس إلى حرب اقتصاديه عنيفة استمرت إلى عام ١٩٥٨.

(٣) مرحلة محاولة الاحتواء : وقد بدأت من عام ١٩٥٩ مستغلة الخلاف الذى وقع بين مصر والاتحاد السوفيتى بسبب دور الشيوعيين فى العراق الذين حكموا بقوة عبدالكريم قاسم الذى كان قد وصل إلى السلطة هناك فى عام ١٩٥٨ .. واستمرت هذه المرحلة إلى عام ١٩٦٣ حين بدأ الصدام بين مصر والسعودية فى اليمن .. ساعتها تراجعت أمريكا عن الاحتواء ودخلت العلاقات بينها وبين مصر فى مرحلة جديدة.

(٤) مرحلة محاولة العنف : وقد بدأت منذ عام ١٩٦٣ .. ووصلت إلى ذروتها فى حرب يونيو ١٩٦٧.

* * * *

فور قيام الثورة كان على صبرى يوقظ صديقه الملحق الجوى الأمريكى من نومه ويبلغه بما وقع .. وبهذه المكالمة التاريخية بدأت المرحلة الأولى فى العلاقات بين الثورة وواشنطن .. المرحلة التى يطلق عليها هيكل مرحلة «الترويض» .. وهذه المرحلة بدأت بطلب شراء أسلحة لمصر من الولايات المتحدة وانتهت بصفقة الأسلحة من الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٥٥.

كانت كلمة «السلاح» هى الكلمة - المفتاح فى هذه المرحلة التى استمرت نحو ثلاث سنوات .. وكان هذا متوقعا على الأقل من جانب النظام الثورى الجديد فى مصر .. فالجيش الذى تقدم ليحتل موقع القوة فى البلاد كان يشعر بالضعف والمهانة .. والإنجليز من جانبهم لم يقتنعوا بالجلاء والرحيل - خلال مفاوضات ما قبل الثورة - «لأنه لم تكن هناك قوة مسلحة قادرة على فرض الاقتناع» .. ووراء القاعدة التى يحتلها الإنجليز تترامى أرض عربية أخرى هى فلسطين واجه عليها الجيش المصرى محنته القاسية فى عام ١٩٤٨.

وفى جو كان يوحى بالتفاهم كان أول طلب تقدمت به مصر إلى الولايات المتحدة هو طلب شراء أسلحة يُدفع ثمنها بالإسترلينى من أرصدة مصر المجمدة لدى بريطانيا وقتها .. ولم ترفض الولايات المتحدة الطلب .. بل على العكس رحبت به واستجابت للتفاوض بشأنه على الفور .. بل أنها تذكرت اتفاقا وقعته مع النظام الملكى للحصول على سلاح

منها بمقتضى قانون الأمن المتبادل .. وإن كانت الأسلحة المطلوبة لا تصلح إلا لقوات الأمن الداخلية.

بعد أسابيع قليلة وفى شهر نوفمبر ١٩٥٢ على وجه التحديد وصل إلى القاهرة ويليام فوستر مساعد وزير الدفاع الأمريكى وقتها .. وقالت السفارة الأمريكية وهى تخطر بمجيئة: «لقد جاءكم من تستطيعون الحديث معه فيما تريدونه كله» .. ووجه السفير «جيفرسون كافرى» دعوة عشاء إلى جمال عبد الناصر ورفاقه على شرف الضيف الأمريكى .. وذهب جمال عبد الناصر وفى جيبه قائمة بما يحتاجه الجيش المصرى لتكوين فرقة مدرعة حديثة .. وقد استغرق أعداد هذه القائمة شهرا كاملا .. وأعقب العشاء جلسة امتدت ثلاث ساعات وافق ويليام فوستر على القائمة مع بعض التعديلات.. ثم وضع سيجارا كبيرا كان يدخنه على منفضة بجانبه وأمسك ورقة وكتب عليها بيده عبارة «طريقة السداد وشروطه».

وانتهى العشاء بأن تسافر بعثة عسكرية مصرية إلى واشنطن لتوقيع اتفاق تفصيلى .. وسافرت البعثة برئاسة على صبرى وكان مديرا لمكتب جمال عبد الناصر .. وفى الوقت نفسه كان هيكل هناك بدعوة رسمية لتغطية الانتخابات الرئاسية الجديدة .. وهناك راح يراقب من بعيد عمل بعثة على صبرى ونشاطها الذى لم يزد عن زيارة مصانع وقواعد السلاح .. وراح كذلك يجرى اتصالات مع قيادات الخارجية والبنتاجون .. وقد شرح هيكل ما جرى وما كان بالتفصيل فى مجموعة كتبه «حرب الثلاثين عام» .. وخلاصته أن واشنطن لن تعطى مصر السلاح الذى تطلبه إلا إذ دخلت فى تسوية مع إسرائيل .. ودخلت فى الحلف الإسلامى الذى يضم تركيا وباكستان (مثلث أنقرة – القاهرة كراتشى).

طال غياب على صبرى وبعثته .. وكانت تعليمات جمال عبد الناصر أن يحضر بنفسه شحن أول دفعة من السلاح الأمريكى المنتظر .. ولكن الانتظار طال والشحنة الأولى لم تصل .. وكان أن قال جمال عبد الناصركلمة أصبحت شهيرة فيما بعد : «يظهر أن على صبرى سوف يكون هو نفسه الشحنة الأولى إلى مصر .. وبغير سلاح».

وهكذا فشلت بعثة على صبرى .. وكان سر الفشل مكالمة تليفونية من رئيس الحكومة البريطانية ونستون تشرشل للرئيس الأمريكى الجديد دوايت ايزنهاور وكان صديقا شخصيا له منذ أيام الحرب العالمية الثانية .. وقال تشرشل على التليفون: «ياصديقى العزيز ويارفيق السلاح القديم .. هل يعقل أن تعطوا المصريين أسلحة يقتلون بها أولادنا من جنود قاعدة السويس؟» .. وكان تعليق ايزنهاور: «إن ذلك لن يحدث بسهولة» .. وإنه

كقائد عام سابق لقوات الحلفاء «لا يمكن أن يسمح بأى شىء من شأنه إلحاق أذى بجنود ربما كانت فرقتهم وكتائبهم بالذات تحت قيادته فى الحرب العالمية الثانية».

ولم تتوقف المناورة الأمريكية .. ففى ربيع عام ١٩٥٣ جاء وزير الخارجية جون فوستر دالاس إلى مصر فى زيارة كان يروج فيها لسياسة «سد الفراغ» فى الشرق الأوسط لتطويق الخطر الشيوعى .. السوفيتى .. والتقى الوزير الأمريكى بجمال عبد الناصر وجرى بينهما حوار رصدته التقارير الرسمية وسجلته الميكروفونات الخفية.. وكانت النهاية رفض جمال عبد الناصر مطالب واشنطن وتسويف واشنطن فى بيع السلاح لمصر.

ويقول هيكل : إن دالاس يقول فى الأوراق التى تركها بعد وفاته لجامعة برنستون: إنه اهتم بوجهة نظر جمال عبد الناصر .. لكنه كره صاحبها .. وكان السؤال الذى طرحه فى واشنطن أثناء اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى عرض فيه لنتائج رحلته إلى الشرق الأوسط هو: إن ناصر بدا مقنعا بما أبداه من حجج ولقد بدا لى متعصباً «كالرينو» — وحيد القرن — ولكن المسألة هى مدى قوة ناصر فى مصر ومدى تأثيره خارجها؟.. هل يستطيع ناصر أن ينطح مشروعاتنا فى المنطقة .. أغلب الظن أنه لا يقدر .. فظروف مصر لا تعطيه أكثر من قرن من الصفيح .. وبدأ التفكير يومها فى حلف بغداد مع استبعاد مصر.

وقبل أن استطرد أسجل أننى أنقل من مقالات نشرها جمال عبد الناصر فى «عز» قوته .. إنه لم يغضب من نشر الأوصاف التى وصفه بها دالاس .. «وحيد قرن» .. و«قرن من الصفيح» .. وقبل ذلك فإنه لم يتردد فى السماح بنشر مثل هذه الأسرار وإطلاع الناس عليها.

ولم يكن موقف جمال عبد الناصر مع دالاس هو الموقف الوحيد الذى إتسم بالإثارة .. كان هناك موقف آخر مع السفير الأمريكى الجديد هنرى بايرود الذى كان شابا فى الأربعين ليسهل على الإدارة الأمريكية معرفة جمال عبد الناصر — الذى كان فى منتصف الثلاثينات — بصورة أدق يرسمها شخص قريب من جيله وعمره .. خاصة وأن السفير الأمريكى السابق جيفرسون كافرى كان قد تجاوز الستين .. وقد استمر بايرود سفيراً لمدة ٣ سنوات .. من عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٥٦ .. «لكن المشكلة أنه استطاع أن يرى من وجهة النظر المصرية أكثر مما كانت واشنطن مستعدة لرؤيته والنتيجة أن بايرود وقع فى تناقض مؤلم بين ما كان يطلبه وبين ما كان مطلوبا منه».

وفى ذلك الوقت جاء إلى القاهرة كيرميت روزفلت (مسئول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية الأمريكية) مبعوثا شخصيا للرئيس أيزنهاور .. وفى الوقت نفسه كان فى القاهرة أريك جونسون .. صاحب المشروع الشهير باسمه لاستغلال مياه نهر الأردن .. ورتب سفير مصر فى واشنطن «أحمد حسنين» وكان وقتها فى إجازة فى القاهرة – عشاء يحضره جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مع كيرميت روزفلت وأريك جونسون وهنرى بايرود .. «وكان واضحا حتى قبل العشاء أن بايرود يعانى بسبب التناقض الذى يعيش فيه تمزقا داخليا .. وعندما وصل جمال عبد الناصر وبدأ حديث ما قبل العشاء كان روزفلت وجونسون يسألان أسئلة متعددة وجمال عبد الناصر يجيب ويقول بين الحين والآخر: «إن بايرود يعرف هذا كله ولقد قلته أكثر من مرة» .. وفجأة قال بايرود : «سيدى الرئيس» «إننى أعرف هذا كله .. ولكننى لا أعرف لماذا ضرب أحد رجالى اليوم فى السويس؟».

ونظر الكل إلى بايرود فى دهشة لتحويلة مجرى الحديث وللعصبية المكبوته فى كلماته .. واستمر بايرود يقول: «إن المستر «فينش» الملحق العمالى فى سفارتى كان يقوم بزيارة لمصنع تكرير السويس وقد ضربه العمال هناك إلى حد كاد يفضى به إلى الموت».

وقال جمال عبد الناصر فى هدوء: «إن المستر «فينش» كما تقول معلوماتنا ليس مجرد ملحق عمالى ولكنه ممثل للمخابرات الأمريكية .. ولقد طلبنا إليكم أكثر من مرة أن يمتنع عن الذهاب إلى المناطق العمالية لكنه مازال يذهب وعليه أن يتحمل أيه مشاكل تقع له من جانب نقابات عمالية تعرف مهمتها وترفض دخوله وسط عمالها».

وقال بايرود وكانت ظروفه كلها تضج بتفاعلات داخلية عنيفة داخلة: «أخشى أن أقول يا سيدى الرئيس أن عمالكم تصرفوا بطريقة غير متحضرة».

ونظر جمال عبد الناصر إليه .. ومرت فترة صمت حبس فيها الجميع أنفاسهم .. وفجأة أطفأ جمال عبد الناصر سيجارته فى مطفأة على مائدة أمامه ثم قال: «سوف أتركك الليلة تقرأ كتابا عن الحضارة المصرية وتاريخها البعيد وعندما تتعلم منه شيئا نتكلم مرة أخرى» .. وقام جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر وسار معه حتى باب سيارته مبعوثا أيزنهاور: روزفلت وجونسون ويحاولان الاعتذار إليه .. وكان بايرود وحده فى الصالون الذى شهد الأزمة يدرك تماما أنه وقع فى خطأ مروع ولا يعرف كيف يخرج منه أو يعتذر عنه .. وفى اليوم التالى كان هيكل يقول لروزفلت وجونسون: إن بايرود قد انتهى .. وفى ذلك اليوم نفسه أبرق مبعوثا أيزنهاور برقية مشتركة إلى جون دالاس تقول

فى بدايتها: «إننا نأسف لأن نقول لك إننا نعتبر – وهذا تقديرنا نحن الاثنين – أن بايرود لم يعد يصلح أن يكون سفيرا فى القاهرة بعد حادث وقع أمس» .. ثم ذكرا ما جرى.

كان كيرميت روزفلت قد كون رؤية واقعية دقيقة لجمال عبد الناصر .. فقد كان فى رأيه: شخص يؤثر فيمن يقابله .. صبور .. لا يحيد عن هدفه رغم أن يوحى بغير ذلك أحيانا .. يتحلى بكفاءات تؤهله لقيادة المنطقة وتجميع شعوبها ودفعها إلى مستقبل أفضل .. بارع فى «التكتيك» وإن لم يصبح بعد صاحب «إستراتيجية» محددة.

ورغم أن جمال عبد الناصرقبل اعتذار بايرود فيما بعد إلا أن الرأى فى الخارجية الأمريكية أن بايرود لم يعد يصلح .. فهو لم يستطع أن يؤثر على جمال عبد الناصر «فقد تأثر بدلا من أن يؤثر» .. وعندما سامحه جمال عبد الناصر فإنه شعر بدين أدبى تجاهه .. أو بالتعبير المصرى الشائع إنه «كسر عينه».

ثم جاءت سنة ١٩٥٥ وهى سنة حاسمة وخطيرة .. ففى بدايتها .. فى شهر يناير تكون حلف بغداد وقادته الأسرة «الهاشمية» من بغداد .. وفى شهر فبراير وقعت الغارة الإسرائيلية الشهيرة على غزة .. وفى ذلك الوقت قال جمال عبد الناصر للسفير الأمريكى: «إن مصر لن تدخل فى حلف بغداد ولن تقبل بحمايةالغرب الذى هو نفسه حامى إسرائيل.. وإذا لم نستطع الحصول على السلاح من مصدر غربى فسوف نحصل عليه من حيث نجد» .. وسأل بايرود فى قلق: «إننى لم أفهم تماما سيدى الرئيس هذه العبارة الأخيرة» .. وقال جمال عبد الناصر: «أقول بوضوح: إذا لم أحصل على السلاح منكم فسوف أحصل عليه من غيركم».

وسافر جمال عبد الناصر إلى باندونج فى إبريل ١٩٥٥ وعلى الطريق إلى هناك التقى فى مدينة رانجون عاصمة بورما بشواين لاى رئيس وزراء الصين .. وفى لقاء بينهما جرى يوم الاحتفال بعيد المياه شرح جمال عبد الناصر تطورات الأزمة فى الشرق الأوسط ثم وصل إلى السؤال الصعب: هل يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يبيع لنا سلاحاً؟.. ونقل شواين لاى السؤال إلى موسكو – وكانت العلاقات بينها وبين بكين على ما يرام – ولم تمر سوى شهور معدودة حتى كانت الإجابة جاهزة .. ففى مايو ١٩٥٥ نقل السفير السوفيتى فى القاهرة «سولود» رسالة هامة وسرية إلى جمال عبد الناصر .. كان ملخصها: «إن الاتحاد السوفيتى يقدر لمصر أنها رفضت بتصميم أن تجعل من بلادها قاعدة عسكرية فى مخطط الغرب لتطويق الاتحاد السوفيتى وحصاره .. ومع أن الاتحاد السوفيتى يقدر

أن مصر فعلت ذلك من إصرارها على الاستقلال الوطنى الكامل فإن الاتحاد السوفيتى لا يشعر بأن ذلك لا يقلل من عرفانه لموقف مصر .. والاتحاد السوفيتى يرى أن أبسط ما يستطيع أن يعبر به عن تقديره وعرفانه هو أن يستجيب لطلب مصر بشراء السلاح منه».

ودعى جمال عبد الناص بايرود بعد أيام لمقابلته وقال له: «لم أتلق منكم ردا بلا أو نعم.. وأنا أريدك أن تفهم أننى لا أناور .. وأنا أعنى ما أقول» .. وخرج بايرود ليبرق لواشنطن بأن جمال عبد الناصر يعنى ما يقول .. لكن واشنطن لم تصدقه .. وقال دالاس : «إن جمال عبد الناصر نجح فى تهويشة» .. ولكن سرعان ما شعرت المخابرات المركزية أن صفقة الأسلحة السوفيتيه هى مسأله جادة .. فطلب كيرمت روزفلت موعدا من جمال عبد الناصرالذى أحس وهو يوافق على ا لطلب أن واشنطن ستمارس ضغطا لمنع الصفقة .. وكان أن اتخد قرارا بإعلان النبأ قبل وصول روزفلت وكان رأيه: أنه فى حاجة إلى تعبئة الرأى العام «سلاحه الأساسى والوحيد فى مواجهة الضغط المنتظر.. كذلك فإنه لا يستطيع أن يعطى الآخرين حق سؤاله وهو يرفض إذا سئل أن يجيب بغير الصدق .. كما أن الإعلان عن الصفقة سوف ينقل الموقف خطوة إلى الأمام ويفرض على واشنطن أن تحدد رد فعلها» .. ولم يجد جمال عبد الناصر مناسبة لإعلان النبأ سوى معرض للقوات المسلحة .. لكن إعلان النبأ كان أكبر من أى مكان يمكن أن يعلن منه.

ويقول هيكل فى مقال بصراحة نشره فى يوم الجمعة ٢١ إبريل ١٩٦٧ : «واذكر أننى قابلت كيرميت روزفلت صباح يوم وصوله – وكان صديقا قديما من أيام اشتغاله بالصحافة وعندما كتب كتابه الشهير «بترول العرب وتاريخهم» .. وكان «كيم» يبدو فى ذلك الصباح قلقا وعصبيا وقد قال لى: «ليس هناك حل آخر غير إلغاء الصفقة مع الاتحاد السوفيتى .. أو على الأقل التعهد بعدم تنفيذها» .. فقال هيكل: «ظنى .. كواحد من الذين يتابعون الأحداث .. أن كلا الطلبين مستحيل» .. قال «كيم»: «إذن ستكون العواقب رهيبة» .. ثم استطرد: «إن الأمور قد تتطور إلى قطع العلاقات الاقتصادية بيننا وبين مصر.. ثم قد نقطع العلاقات السياسية .. ثم قد نفرض حصاراً على الشواطىء المصرية لمنع وصول السفن الحاملة للأسلحة».

وكان شبح ما جرى فى جواتيمالا يثير الفزع .. لقد حاصر الأمريكيون شواطئها وغزوها من الداخل عندما اشترت سلاحا سوفيتيا .. وكان رأى جمال عبد الناصر : «إن جواتيمالا هناك فى أمريكا اللاتينية .. ونحن هنا فى العالم العربى .. ولو فتش الأسطول

السادس سفننا فلن يجد عليها شيء .. وإذا استوقف سفن غيرنا فلن تكون المشكلة معنا».

وتقرر أن يأتى جورج آلن مساعد وزير الخارجية إلى القاهرة وكان فى جيبه إنذاراً مكتوبا من دالاس إلى جمال عبد الناصر بوقف صفقة الأسلحة أو التعهد بعدم تنفيذها .. وإلا .. وأبلغت رئاسة الجمهورية السفارة الأمريكية وأبلغت كيرميت روزفلت برسالة مضمونها: (١) أن الرئيس جمال عبد الناصر سوف يستقبل جورج آلن. (٢) أن الصفقة مع السوفيت أصبحت أمرا واقعا لا يقبل البحث أو المناقشة خصوصا مع أى طرف أجنبى. (٣) أن مصر لست مستعدة لسماع إنذار أمريكى فضلا عن قبوله وإذا حدث أثناء مقابلة جورج آلن مع الرئيس جمال عبد الناصر أن بدر منه ما قد يفهم ولو بالتلميح على أنه إنذار فإن الرئيس جمال عبد الناصر سوف يدق الجرس على مكتبه ويستدعى تشريفاتى الرئاسة منه أن يسحب جورج آلن إلى طريق الباب مطرودا. (٤) بعدها فإن الرئيس جمال عبد الناصر لن ينتظر بل إنه هو من جانبه سوف يخرج ليعلن قطع كل العلاقات مع أمريكا.

«كان الوقت يجرى بسرعة وطائرة جورج آلن تقترب من القاهرة وبايرود روزفلت كلاهما قد اصبح واثقا أن جمال عبد الناصر سوف «يعملها» ويطرد مساعد وزير الخارجية الأمريكية من مكتبه إذا تصور أنه يهدده أو أنه يحمل إليه إنذاراً أو ما يمكن أن يوصف بأنه إنذار .. وقصد الاثنان مطار القاهرة ينتظران وصول جورج آلن .. وعندما اقتربت طائرته ودخلت إلى المجال الجوى طلبا الإبراق إليه برسالة عاجلة تسلم إليه فى الطائرة قبل الهبوط .. وكانت الرسالة تقول له: «إن الموقف فى القاهرة قابل للانفجار ومن رأينا – نحن الاثنين – أن لا يظهر تلميح أو تصريح من كلامك مع الصحفيين الذين ينتظرونك فى المطار أنك تحمل تهديدا أو إنذاراً إلى عبد الناصر».

ونفذ جورج آلن النصيحة .. وسأل: هل يستطيع عبد الناصر أن يطردنى من مكتبه؟.. فقال روزفلت: «نعم يستطيع» .. ذهب جورج آلن لمقابلة عبد الناصر .. ووجد مناسبا أن لا يخرج من جيبه على الإطلاق رسالة دالاس المكتوبة مستعيضا عنها برسالة شفهية قام هو بإعدادها عن الرغبة فى حسن العلاقات مع مصر وعن الأمل فى أن لا تحدث مضاعفات من شأنها الإساءة إليها .. وخرج مساعد دالاس من مكتب عبد الناصر منكسرا.. وعلى حد تعبير هيكل: فإنه بهذا المشهد انتهت محاولة أمريكا لترويض الثورة المصرية بالفشل .. «وكانت الثورة المصرية قد تمردت واتخذت موقف العصيان علنا .. وكان على الولايات

المتحدة أن تتجرع الكأس المرة إلى القطرة الأخيرة .. وكان عليها أن تفكر فى المرحلة القادمة .. وفكرت فى محاولة العقاب».

وبعد سقوط مرحلة الترويض أمام مفاجأة صفقة الأسلحة السوفيتية وصدمتها فإن القاعدة الموضوعة للعلاقات المصرية - الأمريكية تهاوت من أساسها .. ولم يكن اختيار الأحجار لبناء القاعدة الجديدة أمر سهلاً .. قريب المنال..

فى بداية شهر نوفمبر ١٩٥٥ وبعد مناقشات واسعة فى وزارة الخارجية الأمريكية اشترك فيها ممثلون عن وزارة الدفاع عن إدارة المخابرات المركزية الأمريكية - بدا دالاس مقتنعا بأن أسلوب تخويف جمال عبد الناصر غير مجد وأن أسلوب الترغيب قد يكون أقرب إلى التحقيق.. وكانت نقطة الترغيب تعرض نفسها بنفسها .. فقد كان مشروع السد العالى يناقش باهتمام فى مصر كأمل من أعز الآمال وأغلاها .. ووافق دالاس على فكرة أن تعرض الولايات المتحدة على مصر مساعدتها فى تنفيذ المشروع ولم يكن فى ذلك بريئا كل البراءة وإنما كانت له مقاصده وأبرزها: (١) أن المساعدة فى بناء السد العالى هى مساعدة فى مشروع سلام وهى مساعدة تختلف عن ما قدمه السوفيت من أسلحة هى فى النهاية تصب فى الحرب. (٢) أن المشروع طويل الأجل لن يستغرق أقل من ١٥ سنة وفى هذه الفترة ستكون مصر فى حاجة مستمرة ومتصلة لواشنطن. (٣) إن المشروع يشد جمال عبد الناصر إلى الداخل ويبعده عن الخارج وبالذات العالم العربى حيث لا تريده السياسة الامريكية ولا تريد تأثيره.

لكن بعد أسبوعين غير دالاس رأيه بحجة أن عبد الناص أهان السياسة الأمريكية وتحداه شخصياً وأن معلومات السفارة الأمريكية أنه لن يكف عن شراء الأسلحة السوفيتية .. وعكست تقارير السفارات الأمريكية فى بغداد وأنقره وطهران وكاراتشى مخاوف حلفاء واشنطن هناك من نجاح سياسة التمرد التى قام بها عبد الناصر فى تحقيق مكاسب له ولوطنه أكثر مما حققه الحلفاء والأصدقاء .. «وفوق ذلك فإن دالاس قال بنفسه فى اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى عقد فى البيت الأبيض تحت رئاسة أيزنهاور: «إننى أكره جمال عبد الناصر ولا أظنه سوف يكون صديقا لنا فى يوم من الأيام ولا يجب أن نسمح له بأن يذهب آمنا بما أخذ وإنما يجب أن نعيده إلى حجمه الطبيعى» .. وهكذا فى فترة ١٥ يوما انتقل دالاس من النقيض إلى النقيض .. وإن اخفى قرار سحب تمويل السد العالى لمدة ٦ شهور كاملة» - هيكل: بصراحة مقال يوم الجمعة ٢١ إبريل ١٩٦٧.

وقرر جمال عبد الناصر أن يرد .. قرر الاعتراف بالصين الشعبية .. وصدمت القاهرة دالاس - الذى كان قد نجح فى عزل الصين الشعبية - صدمة جديدة .. ولم يتردد دالاس

فى إعلان قرار سحب تمويل السد العالى .. فكان أن قام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس .. وبدأت مقدمات حرب السويس .. فى محاولة لغزو مصر وتصفيه الثورة وجمال عبد الناصر من الداخل .. وفشل العدوان الثلاثى (البريطانى الفرنسى الإسرائيلى) وخرج جمال عبد الناصر منتصرا سياسيا على الأقل .. وبدأ دالاس بعد انتهاء المعارك يجرع أسلوبه.

«كانت مصر فى حاجة إلى قمح وطلبت شراؤه من أمريكا على أن تدفع ثمنه بالدولار من أرصدتها التى جمدتها .. ورفض دالاس بيع القمح لمصر.. ورفض أيضا بيع الدواء .. لكن مصر لم تأكلها المجاعة ولم يحصدها الوباء ولم تركع أمامه .. ثم بدأ دالاس عملية إقناع الملك سعود بن عبد العزيز (ملك السعودية) بفكرة الحلف الإسلامى .. ثم رتب مع تركيا عملية غزو لسوريا .. لكنه فوجى بوجود قوات مصرية هناك .. ثم فوجى بالوحدة بين مصر وسوريا .. ثم فوجىء بالثورة فى لبنان .. ثم كان الانقلاب فى العراق ومصرع الملك فيصل وهروب نورى السعيد وسقوط حلف بغداد .. وبدت السياسة الأمريكية كلها «كرجل فقد صوابه» .. وهكذا انتهت مرحلة محاولة العقاب وبدأت مرحلة محاولة الاحتواء – المصدر السابق.

****

وجاءت المرحلة الثالثة .. مرحلة محاولة الاحتواء بعد فشل مرحلة محاولة الترويض .. ومرحلة محاولة العقاب .. ورسمت المرحلة الجديدة مجموعة من الصور بينها: «الحصار بغير عنف والعرقلة بدون استعمال القوة وكسوة اليد الحريرية بالقفازات الحريرية».

«كان الترتيب الأقرب إلى المنطق هو أن يكون العنف تالياً للعقاب بغير فاصل يتطفل على السياق المعقول لخط سير الأحداث باعتبار أن العنف ذروة يتصاعد نحوها العقاب .. وفى الحقيقة فإن مرحلة الاحتواء كانت دخيلة بالفعل على خط سير العلاقات المصرية – الأمريكية فى تلك الظروف التى استيقظت فيها الولايات المتحدة صباح ١٤ يوليو ١٩٥٨ فإذا حلف بغداد حطام وإذا أصدقاؤها الهاشميين فى العراق موتى بغير قبور وإذا عرش عمان يترنح يحتاج إلى سند سريع من الإنجليز يجيئه عبورا من أجواء إسرائيل وإذا الأعوان فى لبنان لا يحميهم إلا تدفق جنود البحرية الأمريكية من قطع الأسطول السادس على شواطيء بيروت .. فى تلك الظروف بدت القاهرة وواشنطن وكأنهما سفينتان على «مجرى صدام محقق» حسب التعبير البحرى الشهير» .. لكن فجأة «وقع تحول فى مجرى

الصدام المحقق ولم يبدو الانفجار الملتهب وأفاق الذين كانوا ينتظرونه بأعصاب مشدودة فإذا هناك تداخل غير منطقى يؤجل مرحلة العنف ويحشر فى خط سير العلاقات بين البلدين مرحلة طارئة هى الاحتواء » - هيكل: بصراحة يوم الجمعة ٢٨ إبريل ١٩٦٧.

كان سبب التداخل المفاجىء والطارىء هو أن المخابرات البريطانية اكتشفت بسرعة شخصية اللواء عبد الكريم قاسم الذى تصدر ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق .. وكانت من اعقد الشخصيات التى ظهرت على مسرح التاريخ العربى واشدها غرابة .. إنه كان على استعداد لأن يواصل سياسة وضع بغداد فى موقع مضاد للقاهرة .. وأنه أختلف نتيجة ذلك مع القوميين .. وهو ما خلق صراعا بينهم وبين الشيوعيين .. وهو أيضاً ما جر الاتحاد السوفيتى إلى الميدان، وهكذا .. وقع الخلاف بين القاهرة وموسكو وصل إلى حد تبادل الاتهامات علنا بين جمال عب الناصر ورئيس الحكومة السوفيتية نيكيتا خروتشوف .. ووجدت واشنطن أن خطر جمال عبد الناصر أهون من خطر الشيوعية .. فاضطرت أن تضع فرامل على اندفاعها نحو الصدام العنيف مع مصر.

وقدمت الولايات المتحدة لمصر مساعدات محدودة تصورت أنها يمكن أن تشجع القاهرة على هجر موسكو وربما تؤدى بهما إلى القطيعة .. كانت مصر وقتها قد بدأت فى تنفذ خطة السنوات الخمس الأولى .. فسعت واشنطن لبيع القمح لها بالجنية المصرى .. وكانت مدة الاتفاق ٣ سنوات .. وقيمته ٣٠٠ مليون دولار .. جرعة كبيرة قد تخلق العادة .. ثم تجعل القمح بهذه الشروط السهلة بندا لا يمكن الاستغناء عنه ببساطة فى خطة التنمية .. وتقدمت مصر من جانبها بطلب ثان وهو تحويل طلبة البعثات - الذين بدءوا يتعرضون للمضايقات - من الاتحاد السوفيتى إلى الولايات المتحدة .. وعلى الفور تقدمت واشنطن بثلاثمائة منحة دراسية .. ومضت الحوادث فى تطورها.

تمكنت القاهرة من حصار النفوذ الشيوعى فى بغداد .. ونجحت فى توقيع عقد بناء السد العالى مع موسكو .. وفى الوقت نفسه رفضت القاهرة اقتراحا - سجلة فى خطاب رسمى - للرئيس الأمريكى جون كيندى لتسوية النزاع العربى الإسرائيلى .. وتابعت واشنطن بقلق قوانين يوليو الاشتراكية .. ثم تابعت بقلق أشد تجربة إطلاق الصواريخ المصرية .. وخشية أن تصل القاهرة فى عملية تطوير الصواريخ إلى السلاح النووى .. ثم وقعت مفاجأة الثورة اليمنية فى عام ١٩٦٢ .. وعبرت قوات مصرية البحر الأحمر بطوله وذهبت إلى اليمن لمساعدة ومساندة الثورة هناك .. وكان أن بدأ القفاز الحرير يتمزق من تحت اليد الحديدية .. وراحت مرحلة العنف فى العلاقات المصرية الأمريكية تطلب وتشخص وتستعد للتعبير عن نفسها.

فى عام ١٩٦٥ كانت الولايات المتحدة تظن أن الأوضاع مواتية لترفع ضغطها على مصر إلى درجته القصوى .. ٣ فرق من الجيش المصرى فى اليمن على مسافة قريبة من السعودية .. موطن مصالحها البترولية الحيوية .. وكانت هذه الفرق على بعد ألفى كيلومتر من وطنها .. تتعرض لمناوشات من الشرق والشمال يحركها العرش السعودى .. ومناوشات من الجنوب تحركها القواعد البريطانية فى عدن وما حولها .. وكان على هذه القوات أن تتصرف بحذر .. وقد تركت هذه القوات فراغا أمنيا أغرى الإسرائيليون فيما بعد بتنفيذ خطة الحرب فى يونيو ١٩٦٧ .. وكانت هناك متاعب اقتصادية تتمثل فى التضخم الذى سببته خطة التنمية .. وتراجع واشنطن عن الاستمرار فى تنفيذ اتفاقية القمح .. وكانت هناك مؤامرات الإخوان المسلمين وعلاقتها بالمخابرات المركزية .. ولم تكن الظروف الدولية مواتية .. فخروتشوف سقط فى موسكو .. والصراع بين موسكو وبكين تفجر .. والمخابرات الأمريكية تقود الثورة المضادة فى إفريقيا .. وتستعد لضربات إضافية فى آسيا .. وفى وسط كل هذه الظروف بدت السياسة المصرية على حد تعبير هيكل «ساكتة .. ساهمة» .. وكان السؤال: «كيف تستطيع مصر أن تتقدم للمواجهة وخيوط العنكبوت الضخم الرهيب تبدو وكأنها أمسكت بحركتها؟».

ولم يتح لهيكل الإجابة على السؤال .. فقد كانت الأحداث من حوله تجرى أسرع من أن يلحق بها أحد .. وكانت الأحداث تتجه بمرحلة العنف إلى ذروتها الدرامية والسياسية .. حرب يونيو ١٩٦٧ .. وكان أن قطع هيكل سلسلة مقالات «نحن وأمريكا» .. ليكتب مقالا بعنوان: «الصدام بالسلاح مع إسرائيل محتم .. لماذا؟» .. نشره فى ٢٦ مايو ١٩٦٧ .. ثم كتب مقالا بعنوان: «الصراع الذى يدور فى التفكير الإسرائيلى الآن» .. نشره فى ٢ يونيو ١٩٦٧ .. وكان المقالان هما آخر ما نشره قبل ١٩٦٧ .. وبهما انتهت مرحلة كاملة من مراحل كتاباته السياسية.

٣٠

هيكل ومصطفى أمين .. بلا عودة

■ فى عام ١٩٦٥ وقعت حادثة غير متوقعة ضاعفت من جو التوتر المشحون بالعنف بين القاهرة وواشنطن .. وفى الوقت نفسه أصابت كل الصحافيين فى بلاط صاحبة الجلالة بالذهول .. وكانو جميعا فى حاجة لبعض الوقت لتقبل الصدمة .. ثم تجاوزها

فى ١٥ مارس من نفس العام كان موعد الاستفتاء على مدة رئاسية جديدة لجمال عبد الناصر .. وفى ٢٣ إبريل من نفس العام طلب على أمين من هيكل أن يترك أخبار اليوم ويذهب للعمل معه فى الأهرام .. وكانت حجته: «إن جو العمل فى أخبار اليوم أصبح ثقيلا عليه وقد أصبح ضيق الصدر بكل شىء.. ويكاد ينفجر فى أى لحظة» .. ووافق هيكل .. بل ووافق أن يكون على أمين مراسلا مقيما للأهرام فى لندن .. وفى مساء ذلك اليوم كان على موعد مع جمال عبد الناصر وأخبره بما فعل .. ثم وجد نفسه يضيف: «أن على أمين يحمل فى قلبه طفل رغم اندفاعاته أحيانا» .. وفوجىء بجمال عبد الناصر يسأله: «ومصطفى..؟» .. وأحس هيكل أن لديه شيئاً يعرفه ولا يريد أن يقوله .. ثم حدث بعد فترة شىء أصاب هيكل بالدهشة .. كان على موعد مع جمال عبد الناصر فإذا به وسط حديث طويل يقول له: «أنت تتقابل مع مصطفى أمين بطريقة منتظمة وليس من شأنى أن تقابله أو لا تقابله .. هذه مسألة تخصك ولكنى أرجوك أن تتحفظ فى أحاديثك معه».

كان موعد الغذاء يوم الثلاثاء – الذى اتفقوا عليه فى بيت مصطفى أمين بعد أن ترك هيكل الأهرام – قد أصبح من عادات هيكل الثقيلة .. فهو قد لاحظ أن مصطفى أمين يحاصره بالأسئلة التى تدور حول كل ما يجرى فى البلد .. وقد حاول كثيرا أن يتهرب منه

.. كما أنه فى كل ثلاثاء كان يرسم سيناريو للهروب من أسئلة مصطفى أمين .. وكان هذا الموعد فى الأصل هو موعد غذاء هيكل الأسبوعى فى نادى «الروتارى» .. وقد أصر عليه على أمين .. ولم يشأ هيكل أن يخذله للعشرة القديمة بينه وبينهما.

ويقول هيكل فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» وهو المصدر الرئيسى لنا فى هذه الرواية: أنه بعد أن سمع تحفظات جمال عبد الناصر راح وهو فى طريقه إلى مكتبه يفكر فيها .. «وتداعى فى خواطره لدى استعادته لملاحظات جمال عبد الناصر شعور غريب راوده مرات فى أثناء غذاء الثلاثاء.. كنت أشعر أحيانا لمحاولة «ضخ» أو «سحب» من نوع ما يحدث لبئر ماء أو بترول يسقطون فيه ماسورة تتصل بمحرك قوى «يشد» و«يشفط» .. وكان هذا الشعور بذلك يحدث معى دائماً أثرا عكسيا فقد كان رد فعله الغريزى انقباض يحتبس به أى كلام له معنى أو فيه قيمة .. وكنت أعزو ما أتعرض له فى هذا الشأن إلى الرغبة الحارقة لدى صحفى تقطعت عنده مصادر الأخبار من ينابيعها فراح يحاول اصطيادها من حيث يجدها».. ولم يكن هيكل يتصور أن ما يقوله يوم «الثلاثاء» يعيده مصطفى أمين يوم «الأربعاء» بصورة أو بطريقة أخرى لمندوب المخابرات الأمريكية .. ولم يكن يدرى أن عيون المخابرات المصرية وآذانها ترصد وتسمع وتصور وتسجل.

لم يطل هيكل التفكير فيما سمعه من جمال عبد الناصر .. فانصرف إلى شواغل العمل .. وانصرف إلى ترتيبات السفر إلى لندن لإجراء جراحه لأبنه «على» فى عينيه هناك .. فى مستشفى مورفيلد .. وقد سافر هيكل إلى لندن على وعد أن يعود قبل احتفالات ٢٣ يوليو .. ولكن كانت هناك رسالة من القاهرة تطلب منه العودة قبل ٢١ يوليو .. وهو اليوم الذى أجريت فيه عملية أبنه.

وصل هيكل يوم ٢٠ يوليو .. وفى اليوم التالى كان فى بيت جمال عبد الناصر مستعدا لمناقشة معه تسبق كتابة خطاب الرئيس فى الاحتفال بعيد الثورة .. وبعد نصف ساعة من الدردشة العابرة .. وقبل أن يدخل فى تفاصيل الخطاب دق جرس التليفون على مكتبه .. وتوجه إليه من حيث كانا فى ركن من القاعة تطل نافذته على الحديقة .. ولم يكن جمال عبد الناصر يتكلم وإنما كان يسمع .. ولم يستغرق الوقت طويلا على التليفون فما لبث أن قال لمحدثه بهدوء «طيب» .. ثم وضع السماعة وعاد إلى حيث كنت أجلس .. وكنت قد نظرت إلى ساعتى عند قيامه استجابة لرنين التليفون وكانت الساعة الثالثة إلا ثلثا بعد الظهر.

ويستطرد هيكل: وبعد أن أستقر جمال عبد الناصر فى مقعده أمامى أشعل سيجارة جذب منها نفسا عميقا وهو ما جعلنى أشعر بأن فكره تحول عن ما كنا نتكلم فيه .. ثم

قال لى وصوته يحمل نبرة حزم وأسف فى نفس الوقت: «إننى سأقول لك الآن شيئاً أعرف أنه سيضايقك» .. ثم أضاف: «لقد قبضوا على مصطفى أمين متلبسا بالتجسس للأمريكان» .. وعقد الذهول لسانى وتساءلت غير مصدق لما سمعت: «غير معقول» .. قال: «ذلك ما حدث للأسف» .. وقلت والذهول مازال مستبد بى: «سيادة الرئيس .. لا أفهم تماما ما تقول» .. وراح بنفس النبرة التى يختلط فيها الحزم والأسف يقول: «أسمع .. أننى أريدك أن تعرف بشكل واضح أن الموضوع كبير وخطير .. وأنا لا أريدك أن تحتكم إلى مشاعرك الشخصية».

وطلب جمال عبد الناصر من هيكل أن يفعل شيئاً واحدا .. أن يعبر الشارع الذى يفصل بين مكتبه ومكتب سامى شرف .. وأن يطلع بنفسه على الملفات والأوراق ويستمع إلى التسجيلات الصوتية .. ثم عليه بعد ذلك أن يفكر على مهل فيما سوف يقرؤه ويسمعه .. ثم يذهب لينام على أن يعود فى الصباح .. ليناقش كما يشاء.

ونفذ هيكل ما اقترحه جمال عبد الناصر .. ودخل غرفة فيها الملفات والتسجيلات .. دخلها فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر تقريبا.. ولم يخرج منها إلا فى الساعة الثامنة مساء .. وعلى حد قول هيكل «دخلتها مهموما وخرجت منها ممزقا».

****

القصة من واقع الملفات تبدأ فى عام ١٩٦٤ .. فى وقت كانت فيه العلاقات المصرية الأميريكية قد دخلت مرحلة العنف .. ويظهر اسم «بروس تايلور أوديل» لأول مرة فى القصة فى تقرير أرسله مندوب المخابرات المصرية فى «أثينا» فى ٦ مارس ١٩٦٤ .. يقول فيه: «أن معلومات وصلته تفيد أن أحد رجال المخابرات الأمريكية واسمه «بروس تايلور أوديل» سيجىء للعمل فى القاهرة تحت ستار دبلوماسى كمستشار فى السفارة الأمريكية فى القاهرة» .. ولم يكن ذلك مثيرا للدهشة .. فأكثر من ٤٠٪ من الدبلوماسيين فى السفارات الأمريكية هم فى الحقيقة عملاء لوكالة المخابرات المركزية.

وصل بروس تايلور أوديل القاهرة فى أغسطس من نفس العام وراح يتصرف بما لا يثير الريبة .. حضور الحفلات الدبلوماسية .. إجراء اتصالات لا شبهة فيها .. القيام بالنشاط الدبلوماسى المألوف .. وفى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٦٤ ومارس ١٩٦٥ بدأ أسم مصطفى أمين يظهر فى تقارير متابعة أوديل .. وكانت اللقاءات فى البداية متفرقة .. ثم بدأت فى الانتظام كل يوم «أربعاء» .. فى اليوم التالى للقاء المعتاد بين هيكل ومصطفى أمين .. وكان اللقاء الأسبوعى يجرى فى بيت مصطفى أمين فى شارع «صلاح الدين»

رقم (٨) فى الزمالك .. وكانت اللقاءات تحاط بتصرفات تتسم بالغموض والسرية .. منها أن أوديل كان يوقف سيارته بعيداً عن بيت مصطفى أمين ثم يمشى على قدميه .. ومنها أنه كان يصعد بالأسانسير إلى دور أعلى ثم ينزل الشقة على السلالم.

ونجحت المخابرات المصرية فى الحصول على أذن من القيادة السياسية فى تسجيل اللقاءات .. وزرعت رجالها فى مطبخ مصطفى أمين .. وزرعت أجهزة التصنت فى جدران شقته بالزمالك.. وفى جدران فيلته بالإسكندرية .. فى ٢٦ شارع الإسماعيلية المتفرع من طريق الحرية .. وتراكمت الملفات التى ترصد كلمات وهمسات وتحليلات ولقاءات الصحفى ورجل المخابرات الأمريكية .. وكان عدد هذه الملفات ثمانية .. وما فى هذه الملفات كان كافيا لاستصدار أمراً بالقبض عليه .. عندما جرى ذلك كان فى جيب مصطفى أمين خمسة آلاف جنيه .. وقبل ذلك كانت هناك أموال أخرى حصل عليها .. ولم يكن مصطفى أمين يأخذ أموالا فقط وإنما كان يعطى أموالا لرجل المخابرات الأمريكية لتحويلها إلى عملة صعبة يهربها إلى الخارج.

وفى التسجيلات والملفات التى تضمها القضية ينسب مصطفى أمين أخبار وأحاديث يقول لرجل المخابرات الأمريكية أنه سمعها مباشرة من الرئيس الذى يرمزان له بحرف «ر» أو «R» الحرف الأول من كلمة «ريس» .. وهى الكلمة الشائعة التى كان يُنادى بها «الرئيس» .. وأغلب الظن أن مصطفى أمين أراد أن يوهم أصدقائه الأمريكيين أن صلته القوية بجمال عبد الناصر لم تنقطع أو تهتز .. وهى الصلة التي وصلت إلى ذروتها عندما كان جمال عبد الناصر يكلفه بمهام سياسية فى واشنطن.. مثل مهمة إبلاغ «دالاس» بعد تأميم القناة: «أن العدوان المتوقع على مصر أصبح فى ذمة الله» .. ثم حدث العدوان بعد ذلك .. وقال مصطفى أمين فى القضية: إنه عندما كان ينقل أخبارا على لسان «الريس» فإنه كان يتصور أنه بهذه الطريقة يستطيع الحصول على معلومات هامة من الأمريكان .. ويضيف: «وعندما أعود لنفسى وأتذكر ما قلت أجد أننى أخطأت ولكن شفيعى فى ذلك حسن نيتى وأننى قدمت لبلادى نتيجة هذه الأتصالات الكثير».

وكشفت القضية أن «أخبار اليوم» كانت تتحول فى بعض الأحيان إلى غرفة عمليات يشترك فيها مصفى أمين وهيكل وبعض رجال وكالة المخابرات الأمريكية فى مصر .. مثل ذلك ما حدث فى أيام العدوان الثلاثى الأولى .. وفى اعترافات مصطفى أمين المكتوبة نجده يقول بنفسه: «إن المباحثات بشأن وقف إطلاق النار وإرسال البوليس الدولى إلى مصر كانت تجرى فى مكتب فى أخبار اليوم بحضور محمد حسنين هيكل وبيل ميلر .. وكنا نبلغ الرئيس جمال عبد الناصر أول بأول بكل المعلومات ونقوم بمهمة الاتصال بين

الرئيس جمال عبد الناصر وأيزنهاور حتى أن الرئيس جمال عبد الناصر قال يومها: إن أخبار اليوم أصبحت وزارة خارجية تحت الأرض».

وكشفت القضية أن مصطفى أمين كان يستغل محررى أخبار اليوم فى جمع الأخبار والمعلومات ليس للنشر ولكن لاستخدامها سواء فى إرسالها للدولة .. أو لاستعمالها فى لقاءاته مع رجل المخابرات الأمريكية .. وكانت هناك مكافآت من خزانة أخبار اليوم لمن يستجيب لهذه المهمة وينفذ ما يريد مصطفى أمين.

وكشفت التسجيلات أن مصطفى أمين كان يتحدث فى موقف القوات المصرية فى اليمن .. وفى حجم مخزون القمح فى مصر .. وإمكانية تجويع المصريين ليضغطوا على النظام .. ومعلومات عن شراء أسلحة جديدة من الاتحاد السوفيتى .. والحالة المالية «السيئة» فى مصر .. وسيطرة الشيوعيين على جريدة الأخبار ومجلتى روز اليوسف وآخر ساعة .. واكتشاف خلايا سرية فى وحدات المشاة فى الجيش المصرى .. ومرض السكر الذى يزداد على الرئيس والذى أصابه بعد الانفصال فى سوريا.

****

شعر هيكل وهو يسمع ويقرأ مفاجآت الملفات «بنوع من الدوران والغثيان» .. وسأله سامى شرف: «ما رأيك؟» .. فقال هيكل: «إننى أريد أن أفكر أكثر فيما سمعت وقرأت» .. فقال سامى شرف: «ألا ترى أن على أمين ضالع فى القضية أو على الأقل أن اتصالا قد تم به؟.. أنك أنت الذى توسطت له كى يخرج والواجب يقضى عليك أن تعيده إلى هنا» .. وسأله هيكل: «وكيف أفعل ذلك؟» .. قال: «فكرت فى هذا الموضوع .. واقتراحى أن تبعث إليه ببرقية تستدعيه إلى القاهرة للتشاور .. إنه بالطبع لم يعرف أن مصطفى قد اعتقل .. فنحن لم نذع شيئا عن ذلك حتى الآن» .. قال هيكل له: «إننى مع تفهمى لدوافعه لا أستطيع أن أستدرج على أمين إلى فخ .. لا أستطيع ذلك إنسانيا ولا مهنيا ولا أخلاقيا» .. ويشهد هيكل أن سامى شرف لم يلح فى طلبه.

وترك هيكل بيت الرئيس ومكتبه .. وركب سيارته وهو لا يعرف كيف حملته من منشية البكرى إلى شارع مظلوم .. حيث كان مقر الأهرام فى ذلك الوقت .. ويسجل فى يومياته: «إن كل شىء بدا لى مسطحا فارغا .. حتى منظر الشوارع فى وسط المدينة بألوانها وأضوائها بدت مجرد صور .. وكانت الأفكار والهواجس فى رأسى دوامات ورياح وأمطار».

التجأ هيكل فى مكتبه إلى مقعده «المألوف» فى الركن القريب من المكتبة .. وقبل أن يواصل قراءة أوراق القضية تذكر أسرته «لأول مرة فى ساعات بدت لى دهوراً» .. وإتصل

تليفونيا بلندن يطمئن على أبنه بعد الجراحة التى أجريت له .. وعرف أن أحوال أبنه طيبة .. «كثيرون جاءوا لزيارته وجاءوا معهم بلعب وزهور وحلوى .. وكان على أمين فى المستشفى طوال اليوم وانصرف مساء» .. وألغى هيكل رحلة السفر إلى لندن .. وعاد إلى القضية التى قلبت كيانه .. وراحت علامات الاستفهام تتدافع صلبة وعنيدة أمامه .. وكان من الصعب أن يجد لها حلاً .. فقد تساءل عن تكييف ما قرأ وما سمع؟ .. وتساءل عن تأثير ذلك على مهنة الصحافة؟.. وتأثيره على علاقته الشخصية والعائلية والإنسانية بعائلة على ومصطفى أمين؟ .. ثم كان التساؤل الصعب: «ماذا أقول لجمال عبد الناصر؟ .. لقد صدقنى فيما قلت وأجابنى إلى ما طلبت ومن حقه أن يعتب ومن حقه أن يشك فى أحكامى على الناس وعلى الحوادث» .. و«أخيرا هل أعفيه من كل حرج واقدم له استقالتى؟.. وكيف يؤثر ذلك على المهنة؟ وبالتأكيد فإنها سوف تصبح حرما مباحا لمراكز قوة أرادت دائما أن تسيطر على الصحافة وهى على استعداد فى أى وقت لكى تأخذ البرىء بجريرة غير البرىء .. ولا أقول المذنب .. ليس بعد . ثم ألست بتقديم استقالتى الآن أغامر بوضع نفسى فى دائرة لم أدخل إليها وفى مجال لا شأن لى به.. وفى كل الأحوال ماذا أقول لجمال عبد الناصر؟ .. وكيف أواجهه ..وبأى لغة أتحدث إليه .. وحتى مطلع الفجر لم يكن قد استقر لى قرار وكانت معظم الأسئلة لا تزال تتدافع من داخلى ومن حولى فى كل اتجاه».

كان موعد هيكل مع جمال عبد الناصر فى الساعة العاشرة صباحا .. لكنه ذهب مبكرا نصف ساعة لعله يجد معلومات جديدة فى القضية .. كانت هناك بعض المعلومات عن واقعة القبض على مصطفى أمين وأوديل .. لقد فوجئا بوكيل نيابة أمن الدولة وبعض ضباط الأمن القومى يدخلون عليهما فى ركن ظليل من حديقة البيت الذى استأجره مصطفى أمين فى ذلك الصيف فى الإسكندرية .. وجرى تفتيش أوديل وعثر معه عى بعض الأوراق التى كتبها خلال المقابلة .. وأثناء تفتيشه أحتج بصفته الدبلوماسية وأخرج جواز سفره الدبلوماسى .. وسئل عن ما يفعله .. فقال: إنه كان مدعو إلى الغذاء ومع مصطفى أمين .. وأنهما كان يتحدثان فى مشاكل العالم» .. وقد أفرج عنه بعد مصادرة الأوراق التى كانت معه .. وهى خمس ورقات صغيرة الحجم».

الورقة الأولى مكتوب فيها كلمات وإشارات أقرب إلى رؤوس الموضوعات: الخطاب ٢٢ .. المحتويات .. هل هناك خطاب فى الإسكندرية يوم ٢٦ .. اليمن .. العمرى .. ماذا حدث للنعمان؟ .. السعودى .. التغيير فى الحكومة .. مؤامرات الإنقلابات .. حالة السخط .. الاتحاد السوفيتى .. الصين.

أما الورقات الأربع الأخرى فتسجل حوار ادعاه مصطفى أمين جرى بينه وبين «ر» حول إضرابات عمالية فى شركتى النسيج والجوت فى الإسكندرية .. وفى شركة النقل فى القاهرة .. لعدم صرف أرباح لعمالها .. لأنها لم تحقق أرباحا .. وشائعة عن تخفيض العملة المصرية .. ورفض «ر» لهذه الشائعة لأن الحكومة تطبع ما تشاء من أوراق النقد .. وتصريح من «ر» بأن خطابه يوم ٢٢ (يوليو) سيكون ارتجاليا .. وأنه سيرد فيه على الناس التى تهاجمه وتهاجم المتصلين به .. وقال «ر» أن كل ما يحدث من الخليج الفارسى إلى المغرب هو من تخطيط المخابرات المركزية».

وجاء موعد هيكل مع جمال عبد الناصر .. وكان واضحا أن جمال عبد الناصر يتفهم الحالة التى كان فيها هيكل .. فبادره بالكلام .. وقال له عدة نقاط محددة: (١) أن لا ضغوط قد جرت فى التحقيق. (٢) إنه يعرف الصلات الإنسانية بينه وبين عائلة مصطفى أمين وأنه لا يخلط بين المسائل وعليه أن يتصرف إنسانيا كما يشاء. (٣) لن يسمح له مهما كانت الأسباب والدوافع بزيارة مصطفى أمين. (٤) ليس عليه مسئولية فيما فعل من وساطات بينه وبين مصطفى وعلى أمين .. وطلب منه أن يمسك أعصابه حتى لا يستغل أحد ما جرى ضده .. أو للنيل منه».

وطبقا لسجلات رئاسة الجمهورية فأنه فى ظهر يوم ٢٢ يوليو دعى كل من أحمد بهاء الدين وفتحى غانم وعلى الشلقانى (مساعد خالد محيى الدين فى إدارة أخبار اليوم والمحامى الشهير فيما بعد) ومحمود أمين العالم وأحمد حمروش وسميرة الكيلانى (من الإذاعة) وحسن فؤاد للاطلاع على كل التقارير والوثائق .. ثم تقرر أن يقوم وزير الخارجية محمود رياض باستدعاء السفير الأمريكى فى القاهرة لوشيوس باتل وإبلاغه باستياء مصر مما جرى واعتبار بروس تايلور أوديل شخصا غير مرغوب فيه .. و«لم يكن محمود رياض فى حاجة إلى أن يلح على هذا الطلب الأخير فقد تبين أن السفير الأمريكى طلب من أوديل فور علمه بما جرى بان يركب أول طائرة ويخرج من مصر .. وقد كان» – هيكل: «بين الصحافة والسياسة».

فى مساء ٨ أغسطس كان هيكل مدعو للعشاء مع جمال عبد الناصر فى استراحة المعمورة بالإسكندرية .. وخرجا بعد العشاء يتمشيان على شاطئ البحر ويتحدثان طويلا وبعيدا فى كل شىء.. وفجأة قال جمال عبد الناصر: سوف أعطيك نسخة من خطاب بعث به مصطفى أمين إلى .. سوف تذهل من قراءته فهو اعتراف كامل.

وسأله هيكل عما يقصده باعتراف كامل فقال: «أنه خطاب بخط يد مصطفى أمين من ٦٠ صفحة» .. ثم أضاف: «لا أظنك تستطيع أن تقول ضغطا وقع عليه من أى نوع كى

يكتب خطابا من ٦٠ صفحة .. بالضغط يمكن لأحد أن يكتب صفحة صفحتين.. أما أن يكتب كتابا كاملا .. ويتفرغ لكتابته أربعة أو خمسة أيام .. فهذا مستحيل» .. ثم استطرد: «لكى أكون دقيقا معك فإنى أعتقد أنه فوجىء بالتسجيلات وبكمية ما تحتويه من «مصائب» ثم أنهم طمأنوه إلى أقصى حد لكى يعترف .. قالوا له فيما أتصور أن خبر القبض عليه لم ينشر وأنه إذا اعترف اعترافا كاملا فإن الموضوع كله يمكن أن يكون محل نظر.. وقالوا له أن اعترافا مفصلا هو الشىء الوحيد الذى يوفر إمكانية حصر الضرر الذى يمكن أن ينشأ نتيجة لما قاله لضابط المخابرات الأمريكى وقد يساعد هذا على التصرف فى القضية».

* * * *

ولا جدال أن الخطاب – الاعتراف مكتوب بلغة تقريرية صحفية لا تخلو من السلاسة والجاذبية وهو ما اشتهر به مصطفى أمين كواحد من أفضل المخبرين الصحفيين إذا لم يكن أفضلهم .. ولكن يبدو أن الصحفى الذى تعود أن يجد نفسه فى القمة ثم وجد نفسه ينحدر قد قرر مواصلة الانحدار فراح يراهن على جواد المخابرات الأمريكية متصورا أنه جواد رابح لا يمكن أن يخسر السباق مهما كانت قوة جمال عبد الناصر .. خاصة فى ظروف كانت العلاقات بين القاهرة وواشنطن فيها قد وصلت إلى أسوأ ما يمكن .. ولا يتصور أن جمال عبد الناصر يمكن أن يزيد من السوء الذى يحكمها ويقبض عليه متلبسا بما فعل.

إن المخبر البارع لم يتردد فى أن «يفبرك» ما يسمعه وينسبه لرئيس الدولة .. وكان واضحا أنه فى حالة من اليأس جعلته يندفع ناحية الانتحار .. فهو يتحدث عن رغبته الجدية فى طلب إجازة طويلة من أخبار اليوم «لأننى مرهق ومن رأيى أنه يجب أن أعتزل أى عمل صحفى إدارى بعد بلوغى سن الخمسين وأننى أفكر فى أن أكون مراسلا متجولا لأخبار اليوم ويكون مركزى بيروت ولكنى أخشى على حياتى فى بيروت .. فقد سبق أن حذّرت أن حياتى فى خطر فى هذه المدينة» .. وسأل مصطفى أمين رجل المخابرات الأمريكية عن أفضل مدينة آمنة يمكن أن يلجأ إليها .. وكان رأيه أنها لابد وأن تكون خارج المنطقة العربية .. لأنه فى حالة وقوع انقلاب شيوعى فى مصر فلن تكون هناك عاصمة أو مدينة عربية آمنة .. وكان متوقعا أن تكون هذه المدينة هى لندن .. وكان متوقعا أن يفاتح جمال عبد الناصر فى هذه الرغبة .. ويبدو أن عمليات تحويل الأموال المصرية الى كانت تقوم بها المخابرات الأمريكية هى عملية تمهيدية لخروجه من القاهرة إلى لندن.

ولم تتضمن المعلومات التى قدمها مصطفى أمين معلومات سياسية عسكرية واقتصادية فقط وإنما امتدت للمعلومات الشخصية .. فقد كانت هناك صورة للسيدة

«قدرية» صديقة حسن إبراهيم نائب الرئيس وقد كتب عليها باللغة الإنجليزية «نائبة رئيس الجمهورية» .. وحسب ما قاله مصطفى أمين فإن جمال عبد الناصر لم يوافق على زواج حسن إبراهيم بها.

ولم يتردد مصطفى أمين فى كشف وسرد تاريخه الطويل مع المخابرات الأمريكية منذ كان يدرس هناك وهو طالب فى جامعة «جورج تاون» والتى لم يكمل دراسته فيها ولا فى غيرها.. وقد استفاد - على حد اعترافه - من علاقته بالولايات المتحدة فى الحصول على الأخبار والوثائق .. وحصل على امتياز طبع ونشر مجلة «المختار» الشهرية .. وحصل على امتياز طبع مجلة «الصداقة» الدعائية .. وحصل على إعلانات لصحف أخبار اليوم من الشركات الأمريكية .. وحصل على صفقة ورق أمريكية بحوالى ٢ مليون جنيه .. وحاول شراء مطابع أمريكية حديثة .. ثم أنه ساعد أم كلثوم على السفر إلى واشنطن والعلاج هناك بالذرة بدون مقابل.

ويروى مصطفى أمين: أنه حدث فى سنة ١٩٥٤ أن أخبرنى ايكل بيرجر من رجال وكالة المخابرات المركزية فى السفارة الأمريكية فى القاهرة أنه أطلع على برقية سرية جداً وصلت على التو من السفير الأمريكى فى تل أبيب بأن الجيش الإسرائيلى سيقم بعدوان فى يوم معين على مصر وألح فى أن لا أخبر الرئيس بهذا الأمر وقال أنه لو عرف أحد أن هذه البرقية تسربت فسوف يفقد عمله .. وأسرعت على الفور وأخبرت الرئيس عبد الناصر بما حدث .. واهتم الرئيس بهذا النبأ وطلب معلومات أوسع عن هذه العملية الخطيرة ومكانها .. واتفقنا أن أذهب أنا ومحمد حسنين هيكل ونقابل مستر بايرود السفير الأمريكى واستطاعنا أن ندحرجه ونعلم أن الخبر صحيح مائة فى المائة .. وأحضر السفير بايرود البرقيات السرية التى وصلت إليه وتفاهمت أنا وهيكل أن يشغله هيكل بالحديث بينما أنا أنقل البرقية وفعلا استطعت أن أنقل نص البرقية وقدمناها إلى الرئيس جمال عبد الناصر وأصدر الرئيس على الفور أمره إلى الجيش المصرى بالاستعداد لهذا العدوان المفاجىء .. وتم العدوان فى موعده .. وكان الجيش المصرى مستعدا له.. وأعطى الجيش المصرى يومها درسا لليهود .. وقد شكرنى الرئيس جمال عبد الناصر يومها على هذا العمل الذى قمت به وقال أننى خدمت خدمة كبرى.

ولم يشأ هيكل فى هوامش كتاب «بين الصحافة والسياسة» - الذى نشر فيه نص خطاب مصطفى أمين إلى جمال عبد الناصر - أن يعلق على هذه الرواية .. وقال بالحرف الواحد: «يُورد الأستاذ مصطفى أمين اسمى فى عدة مواضع من هذه الرسالة ولا أريد اعتراض النص هنا بالتوقف أمام نفى أو تصحيح فليس هذا مجاله» .. وقال سألته عندما

جاء الوقت المناسب عن صحة هذه الواقعة فنفاها .. وكان رأيه أن خيال مصطفى أمين النشط قد شطح إلى أقصاه .. وأنه لا يمكن تصور أن السفير والدبلوماسيون ورجال المخابرات المركزية فى السفارة الأمريكية بهذه السذاجة .. لا يمكن أن يقولوا له نص برقية سرية جاءت من إسرائيل على هذه الدرجة من الخطورة .. وإذا فعلوا فالهدف هو أن يعرف جمال عبد الناصر .. ولا يمكن أن يحضر السفير الأمريكى البرقية عندما نطلبها منه .. ولا يمكن أن يتركها لينقلها مصطفى أمين على النحو البوليسى «الأهبل» الذى يرويه.

****

مرت ساعتان وهيكل يقرأ هذه الرسالة التى أرسلها له مكتب جمال عبد الناصر فى شرفة تطل شاطئ البحر بالإسكندرية .. «ورحت أنظر من بعيد إلى البحر الذى غطاه الظلام وإن لم يستطع أن يوقف حركته .. كان صوت تدافع الأمواج على الشاطيء يصل إلى فى سكون الليل .. وكانت السماء ملأى بالنجوم التى تلألأ بريقها أكثر فى تلك الساعات التى تسبق طلوع الفجر .. ورحت أحدق فى النجوم العالية البعيدة .. وبعض السحب التى تجرى تحتها وتخفيها عن ناظرى لبعض الوقت ثم تذهب إلى حال سبيلها» .. و .. «كان فى ذهنى سؤال واحد يطرح نفسه على بغير صخب وبغير إلحاح .. وكان السؤال هو: ولكن ما هى الحقيقة؟ ما هى الحقيقة وراء ما يبدو فى هذه الأوراق التى فرغت لتوى من قراءتها .. ما هو جوهر الحقيقة؟».

والحقيقة أن الإجابة تأجلت أكثر من عشرين سنة ولم تتبلور إلا عندما راح هيكل يكتب كتابه «بين الصحافة والسياسة» الى كان حادا ودامغا وقاطعا فى الرد على الحملات الشرسة التى خاضها أنصار مصطفى أمين ضده فيما بعد .. بعد أن ترك الأهرام . وبعد أن عاد مصطفي وعلى أمين إلى الصحافة من جديد .. وبعد أن أنقلبت مصر على جمال عبد الناصر وعلى نفسها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وأيدلوجيا.

قال هيكل: «كان سهلا على أن آخذ بالتفسير البسيط والمسطح وأنسب الأمر كله إلى الخيانة والعمالة وما إلى ذلك من كل ما شاع فى القاموس السياسى العربى من نعوت .. وكان ما سمعته وقرأته – بما فيه الرسالة الوثيقة – يوافق ويؤيد .. ثم كان فى استطاعتى أن أتذكر مما أعرفه ما قد يعزز هذا التفسير ويؤكده».

أما ما يعرفه هيكل ويعزز هذا التفسير ويؤكده فهو : أن الولايات المتحدة كانت وهى ترتب لوراثة الإمبراطوريات القديمة بعد الحرب العالمية الثانية تسعى إلى نشر القيم الأمريكية وطريقة الحياة الأمريكية فى كل انحاء الدنيا .. خصوصا فى بلاد الأعداء السابقين

الذين خسروا الحرب وأصبحوا تحت رحمتها .. وكذلك فى البلدان التى كانت واقعة تحت نير الاستعمار التقليدى الذى فكت الحرب قبضته وأوشك الذين كانوا تحت حكمه أن يتحرروا وأن يختاروا لأنفسهم ما يريدون من مجموعات القيم وطرق الحياة .. كسب هؤلاء جميعا كان أولوية تسبق غيرها من الأولويات فى السياسة الأمريكية بعد الحرب.

«بمقتضى ذلك وتأسيسا عليه قامت المخابرات الأمريكية بعمليات واسعة فى عالم النشر .. وبالتحديد فى المجالين السابقين .. مجال الأعداء الذين استسلموا فى أوروبا والشرق الأقصى .. ثم فى مجال الدول التى انفكت عنها قبضة الاستعمار التقليدى وجاءتها الفرصة لتتحرر .. لم يعد ذلك ضربا من الظن وإنما أصبح اليوم أدلة وشواهد لا سبيل إلى إنكارها».

فحسب تقرير السيناتور «تشرش الذى قدمه للكونجرس فى عام ١٩٧٤ عن نشاط وكالة المخابرات المركية فإن مجلة «المختار» أو النسخة العربية من مجلة «ريدر دايجست» كانت من المجلات التى ساندتها المخابرات الأمريكية .. وكذلك مجموعة صحف «دار كيهان» التى ظهرت فى إيران فى عام ١٩٤٥ .. وصحيفة «دى فيلت» فى ألمانيا .. وصحيفة «يميورى» فى اليابان ويستطرد هيكل: «ويخطر على البال أن أخبار اليوم ظهرت فى نفس الفترة – أواخر ١٩٤٤ – فهل كانت أخبار اليوم منذ اليوم الأول حلقة من هذه السلسة؟» .. إن ما قاله مصطفى أمين فى خطابه – الاعتراف لا يجعل الإجابة فى صالحه.

* * * *

بعد انتهاء التحقيقات الأولية معه .. نُقل مصطفى أمين إلى سجن الاستئناف فى ميدان «باب الخلق» .. ومن هناك بعث برسالة لهيكل مع ضابط شاب فى مصلحة السجون هو عباس لبيب الذى أصبح فيما بعد ناقدا رياضيا مشهور فى الأهرام .. وكان مجيئه لهيكل بهذه الرسالة هو بداية صلته به ومقدمة التحاقة بالقسم الرياضى فى الأهرام.

كان مصطفى أمين يريد أن يرى هيكل .. وكذلك كان يريد بعض أدوية وفيتامينات لم تكن متوفرة فى السوق المحلية فطلبها هيكل من سعيد فريحة صاحب دار الصياد فى بيروت .. وأنتهز هيكل فرصة لقاءه بجمال عبد الناصر وعرض عليه الأمر .. ونجح فى إقناعه بأن زيارة مصطفى أمين ليست رغبة شخصية وإنما هى مصلحة عامة تثبت أن ليس فى مصر ستارا حديديا نزل لإخفاء واحد من أشهر الصحفيين فى العالم العربى.

وفى الساعة العاشرة إلا خمس دقائق من صباح الثانى من نوفمبر عام ١٩٦٥ كان هيكل يقف أمام سجن الاستئناف ومعه محمود عبد العزيز حسين رئيس قسم الحوادث

فى الأهرام وقتها .. وكان يحمل فى يده تصريح الزيارة .. وشعر هيكل فى هذه اللحظة «بانقباض من هذا الموقف الذى كان فى سبيله إلى مواجهته ولم يكن منه بد».

وفى غرفة مأمور السجن .. وفى انتظار مصطفى أمين .. شعر هيكل أن الدقيقة تمر دهرا .. وشعر بأن الموقف بالغ الصعوبة عليه وعلى مصطفى أمين .. لكن مصطفى أمين أقبل «فاتحا ذراعية يعانقه ويقبله على الخدين .. وفى لحظة واحدة ذابت أشياء كثيرة» .. وتبادلا أسئلة بلهاء عن الصحة والأحوال . وكان السبب وجود مأمور السجن الذى انسحب تقديرا للظروف رغم أن اللوائح تقضى بالبقاء .. وأصبح هيكل ومصطفى أمين بمفردهما .. ويروى هيكل تفاصيل تلك اللحظات العصيبة .. ويقول:

«بدأنا ندخل فى الموضوع .. قلت على الفور: أريد أن أطمئن منك أولاً عن معاملتك أثناء التحقيق؟.. هل وقع عليك ضغط .. إكراه أو قسر؟ .. فقال بصوت خفيض: لقد عزلت عن الدنيا أربعين يوما لم أقرأ فيها صحيفة ولم أعرف ماذا يجرى؟ .. قلت: إننى لا أسألك عن ذلك .. طبيعى أن تكون هذه العزلة أثناء التحقيق .. ما أسألك عنه هو: هل كان هناك شىء آخر؟ .. وهز رأسه نفيا ثم أجاب بالنفى .. ثم سألنى: لقد كتبت خطابا شخصيا إلى الرئيس فهل وصله؟ .. وقلت: نعم ..وقد قرأته .. أعطانى الرئيس نسخة منه .. وفجأة أفلت زمام السيطرة منى فقلت له: مصطفى .. لماذا؟ .. وكان صوتى جريحا بمشاعر الأسى .. ولاحت فى عينيه دمعة تتأرجح .. وأصررت على سؤالى أكرره: لماذا؟ .. لماذا؟.

واندفع يتكلم: إننى خائف من الشيوعيين .. خائف منهم على سيادة الرئيس .. أرجوك أن تحذره .. أنهم فى كل مكان فى الصحافة وفى الجيش .. يرتبون أنفسهم داخل الجيش .. أنت لا تعرف ماذا يفعلون .. إننى كنت أريد إخراج ما لدى من فلوس إلى الخارج قبل أن يستولوا على السلطة .. ووجدت نفسى مضطرا إلى مقاطعته قائلا: يا مصطفى .. اين هم هؤلاء الشيوعيون؟ .. وعلى فرض أنهم على هذا النحو الذى تصفه فهل هذا يبرر أن تتصرف على هذا النحو الذى تصرفت به؟ .. وقال: ربما أكون أخطأت .. وسالت دمعته المتأرجحة .. وأعطيته منديلى .. ووجدتنى أمسك بيده .. وتمالك نفسه .. وعاد يسألنى عما نشر فى مصر وفى بيروت عن قضيته .. وأجبت ..

«وعاد يسألنى : ماذا سيفعل سيادة الرئيس؟ .. وقلت : لم تعد المسألة ماذا سيفعل سيادة الرئيس ؟ .. القضية الآن فى الطريق إلى المحكمة .. ولا أخفى عليك أننى أدعو الله أن تكون المحاكمة سرية لأن كل ما فى الأوراق والشرائط مسىء ... مسىء ... للمهنة ولكل الأطراف .. ومع ذلك فلا أظن أن الصورة ستتضح إلا بعد انتهاء المحاكمة ..

«وعاد إلى حكاية خطر الشيوعية والشيوعيين ولم أشأ أن أجادله فلقد أحسست أنه يقف عند خط دفاعه الأخير .. وكان لابد له من غطاء أمام الناس وربما أمام نفسه .. بدا لى أنه من الظلم فى هذه الظروف أن أحاول - أنا على الأقل - تشديد الجدل فى حكاية خطر الشيوعية والشيوعيين .. وإذا سقطت ورقة التوت أثناء اشتداد الجدل فأى نفع يمكن أن يعود عليه أو حتى على الحقيقة من سقوطها .. إن سقوطها - هكذا بدا لى - سوف يؤدى إلى انفكاك تماسكه ومن الظلم له أن يدفع إلى هذه الحالة فى تجربة يحتاج فيها إلى أكبر قدر من تماسكه العقلى والنفسى - بصرف النظر عن الأساس - حتى يستطيع أن يعبر رحلة الأسابيع والشهور - وربما السنين - القادمة.

«وسألنى: كم من الوقت أقدر أن تطول المسألة؟ .. وقلت : وكيف لى أو لغيرى أن يعرف؟ .. وقال: ألم يكن كافيا أننى اعترفت بكل أخطائى؟.. ولم أقل شيئا .. واستطرد: لدى اقتراح بدل المحكمة والمحاكمة لماذا لا يعتقلنى سيادة الرئيس بقرار منه فترة تأديبية؟ .. أو لماذا لا يحكم هو على بالنفى من مصر؟ .. وقلت: مصطفى .. دعنا نواجه الواقع كما هو ولا فائدة الآن من التعلق بأوهام .. وأطرق برأسه ساكتا .. ورحت أحدثه عن بناته .. ثم انتقلت إلى بعض الشئون العامة المنشورة فى الصحف وقد تصورت أنه يخفف عنه أن يشعر بصلة مع ما يجرى خارج السجن .. وسألنى: إذ كنت أستطيع أن أرتب إرسال صحف ومجلات القاهرة وبيروت له وجهاز راديو صغير .. ووعدته».

ودخل مأمور السجن إلى الغرفة ومعه أحد جنود السجن يحمل صينية عليها فنجانين من القهوة وقال بأدب: تشربان القهوة .. ثم تنتهى الزيارة .. قالها وهو ينظر إلى ساعته .. وراح مصطفى أمين يفتح طرود الأدوية والفيتامينات التى بعث بها سيعد فريحة ويراجع محتوياتها .. ثم رفع رأسه وسأل مامور السجن: متى يسمحون لى بأن أتلقى طعاما من بيتى؟ .. وقال مأمور السجن: فور أن يصلنا تصريح بذلك.. وقال هيكل للمأمور: أننى سأعمل على أن يصل التصريح هذا اليوم ونحن على أى حال كصحفيين نترك الأستاذ مصطفى أمين أمانة عندك واثقين أنك تعرف مكانته بالنسبة لنا جميعا .. وقال مصطفى أمين موجها كلامه لمأمور السجن: هه .. هل سمعت؟ .. ورد مأمور السجن: أستاذ مصطفى .. هل هناك ما تشكو منه؟ .. أننا بالطبع نعرف أن السجن ليس تجربة «مفرحة» ونحن نتمنى لكل نزيل عندنا أن تثبت براءته ويذهب إلى بيته .. لكننا حتى يحدث ذلك أمام قوانين ولوائح .. وعلى أى حال فإننا نحاول أن نعطيك كل التسهيلات التى تسمح بها هذه القوانين واللوائح .. وإذا كانت لديك ملاحظات فإننى أرجوك أن تقولها الآن أمام الأستاذ هيكل .. وتدخل هيكل بسرعة قائلا: بالعكس إننى لم أر صحة الاستاذ مصطفى أمين

منذ وقت طويل جيدة كما أراها الآن .. أخذ إجازة هنا من العمل ومن السهر ومن بعض الناس .. وضحك الجميع على الأقل من حناجرهم على تعبير هيكل .. وجاءت لحظة الوداع ولم يكن عبئها النفسى بأخف من لحظة اللقاء.

****

كانت هناك شخصيتان عربيتان على درجة كبيرة من الأهمية كانتا تتابعان قضية مصطفى أمين .. سعيد فريحة .. ومحمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الأسبق .. وقد حاولا التدخل أكثر من مرة لإقناع جمال عبد الناصر بالإفراج عنه .. لكن جمال عبد الناصر كان يرى أن القضية ليست قضية شخصية وإنما هى قضية تخابر تمس الأمن القومي للبلاد .. وكل ما وافق عليه جمال عبد الناصر إنسانيا هو السماح لزوجة على أمين وابنتى مصطفى أمين بالسفر إلى حيث يقيم على أمين فى لندن.

ثم كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. وذات يوم من شهر إبريل عام ١٩٦٨ كان هيكل مع جمال عبد الناصر .. وعلى غير تحسب قال له جمال عبد الناصر: «يظهر أن صديقك مصطفى أمين يعتقد أن محاكمة صلاح نصر فرصة مواتيه له .. يقول فى السجن أن صلاح نصر أوقع به لأنه كان يحس بالغيرة منه عندما قلت لمصطفى مرة أن تقاريره التى يكتبها لى تؤهله لمنصب مدير مخابرات أخذها جد .. كان يكتب تقاريرا لصلاح نصر أيضاً لكنه الآن يقول ان صلاح نصر لم يغفر له أبدا مناقشته له فى الحصول على المعلومات وكتابتها فى التقارير .. مصطفى أيضا يدعى الآن أن صلاح نصر عذبه .. لقد سمع أن بعض حالات التعذيب وقعت وأننا نحقق فيها وقرر إدخال نفسه فى العملية على أمل أن يجد مكانا فى الزحام .. هو أيضا يتهم الإسرائيليين بأنهم وراء قضيته .. غريبة هذه القدرة لدى بعض الناس على أن يكذبوا حتى على أنفسهم».

وفى يوم السبت ٢١ سبتمبر ١٩٦٨ قام هيكل بأخر زيارة لمصطفى أمين فى السجن .. وكان معه هذه المرة سعيد فريحة الذى حمل إلى السجن صناديق التفاح وغيره من المأكولات الفرنسية التى جاء بها من بيروت والريفيرا .. وأراد سعيد فريحة طمئنة مصطفى أمين فقال له: «أننا كنا أمس مع سيادة الرئيس وحدثناه فى أمرك ووعدنا خيرا بأذن الله» .. ويقول هيكل: إن هذه العبارة كان لها تأثير السحر فى غرفة مأمور السجن .. «بعدها بدأ المناخ المحيط بنا يتغير بسرعة ولم تمض غير دقائق حتى كنا نقوم بجولة فى السجن ودليلنا هو مصطفى أمين .. يمشى وسطنا ومن حولنا مأمور السجن وبعض الضباط .. وذهبنا إلى ورشة السجن وإلى المخبز والمطبخ ثم إلى المكتبة .. وكانت المكان الوحيد الذى

تقرر أن ينفذ فيه مصطفى أمين عقوبة السجن مع الشغل .. شغلة فى المكتبة .. وداعبته قائلا له: على الأقل تقرأ بعض الكتب .. وضحكنا .. فقد كنت ألومه مرات فى الأزمنة الخوالى لأن قراءاته كانت قاصرة على الصحف والمجلات لا يتعداها .. وراح مصطفى أمين أثناء تجوالنا فى السجن يقدمنا إلى بعض زملائه .. وفى لحظة من اللحظات راودنى الإحساس بأننا فى فناء مدرسة ولسنا وسط جدران سجن .. وأخذنا من الوقت أكثر من ساعتين ثم جاء من ينبه إلى أن الزيارة تجاوزت كل القواعد المقررة وخرجنا».

وبعد ٤٨ ساعة .. أى فى صباح يوم ٢٣ سبتمبر .. اتصل جمال عبد الناصر بهيكل فى مكتبه مبكرا .. قال له على الفور: «لولا عيد ميلادك لما اتصلت بك اليوم .. الحقيقة أننى غاضب منك وأنت تعرف أننى لا أحب أن أتصل بأحد وفى قلبى ذرة غضب» .. وتساءل هيكل عن السبب .. فراح جمال عبد الناصر يسأله عما جرى فى السجن أول أمس .. ولم ينتظر إجابته ولكنه استطرد يقول: «إننى أعرف ما حدث وأنا فى دهشة من أنك تركت مصطفى أمين يستغلك إلى هذا الحد .. يطوف بك السجن كله و«يهوش» الناس باعتبارك صديقى .. هل تريد أن تعرف أكثر من ذلك؟ .. قال لبعضهم فى السجن أننى بعثت بك رسولا إليه تفاوضه فى الخروج على أساس استعمال اتصالاته فى الظروف الراهنة (بعد الهزيمة) هل يرضيك ذلك؟» .. وأعرب هيكل صادقا عن أسفه لأن ذلك حدث .. وقال انه سيكون أكثر حرصا فى المرات القادمة .. لكن رد جمال عبد الناصر كان قاطعا: «لن تكون هناك مرات قادمة».

* * * *

ورحل جمال عبد الناصر وجاء أنور السادات .. ووجد سعيد فريحة فرصته ليفتح من جديد حوار العفو عن مصطفى أمين .. لكن ما أن سمع السادات السيرة حتى أنتفض فى مقعده وقال: «جرى إيه يا سعيد؟ .. عفو يشمل مصطفى أمين؟ .. أنا لا أعفو عن الجواسيس» .. ولم ييأس سعيد فريحة .. وقال: «ولكن ياسيادة الرئيس ما وقع لمصطفى أمين نوع من الخطأ ونحن لا نجادل فيه ....» .. وقاطعة السادات: «لم يكن نوعا من الخطأ .. كان تجسسا .. بالعربى الفصيح تجسس .. ولم لم أكن واثقا من الموضوع مائة فى المائة لأفرجت عنه من أول يوم .. أنا أعرف تاريخ مصطفى حتى من قبل القبض عليه وأنا بنفسى حذرت «جمال» وحذرت هذا الجالس هنا «.. وكان يقصد هيكل الذى أشار إليه وسأله: «ألم يحدث؟» .. فقال هيكل فى حيرة: «الحقيقة لا أذكر» .. وراح السادات يذكر هيكل بيوم حذره فيه .. وهو ما لم تصل إليه ذاكرة هيكل .. وحسم السادات الموضوع بنبرة بدت غريبة على هيكل قائلا: «سعيد .. أقفل هذا الموضوع ولا تفتحه معى أبداً».

وكان تعليق سعيد فريحة الذى قاله لهيكل بعد أن خرجا من عند السادات: «يا ويلى .. شو ها العنف» .. ثم استطرد – حسب رواية هيكل فى كتاب «بين الصحافة والسادات»: «مع جمال عبد الناصر كنا نستطيع أن نناقش .. وهذا الرجل قفل الباب على الفور».

وكان عند السادات كل الحق .. فقضية مصطفى أمين محفوظة فى متحف المخابرات العامة المصرية تحت رقم «واحد» .. ولم يحدث – كما حدث فى بعض القضايا الأخرى – أن خرج من رجال العهد السابق من يشكك فيها .. ولكن .. جاءت الأيام والأحداث ما قلب الأمور فى رأس السادات.

بعد حرب أكتوبر١٩٧٣ وبعد مباحثات «فض الاشتباك» بين مصر وإسرائيل كان واضحا أن الإسرائيليين يريدون – فى المباحثات – الإفراج عن جواسيسهم .. ويبدو أن هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت والذى كان يلعب دور الوسيط بين مصر وإسرائيل وجدها فرصة للمطالبة بالإفراج عن جواسيس الولايات المتحدة .. وكان رأى السادات: أنه لن يوجع رأسه بهؤلاء جميعا .. وأن سوف يعطيهم لهم و«يخلص نفسه».

لكنه على غير انتظار أو توقع قال لهيكل: «ما رأيك فى الإفراج عن مصطفى أمين؟.. ألم تطلب منى أكثر من مرة أن أفرج عنه؟» .. يبدو أن علامات دهشة بدت على ملامح هيكل .. فاستطرد السادات بالحرف: «لماذا تشعلق حواجبك من الدهشة .. هكذا .. إنهم يطلبونه وأنا أريد أن أجاملهم فيه» .. وتساءل هيكل: «من هم؟» .. وقال السادات: «كثيرون .. الأمير سلطان طلبه .. وكمال أدهم (الوسيط السعودى لدى المخابرات الأمريكية) أيضاً» .. وسكت لحظة ثم استطرد: «... ولماذا لا أجامل الأمريكان فيه» .. وقال هيكل: «الأمر لك بالطبع .. وإن كنت أخشى من أن الإفراج عنه فى هذا الإطار الذى كنت تتكلم فيه – إساءة له .. لماذا لا تجعل فاصل أسبوع أو أسبوعين بين الإفراج عنه والإفراج عن كل هؤلاء الذين طلبتهم إسرائيل وطلبهم هنرى كيسنجر؟» .. ثم أضاف هيكل: «إننى جئت الآن وكان فى نيتى أن أنقل إليك رسالة من على أمين (وكان قد عاد إلى مصر) يرجوك فيها الإفراج عن توأمه وهو على استعداد لأن يأخذه من باب السجن إلى باب طائرة تذهب بهما إلى أى مكان خارج مصر» .. وقال السادات بسرعة: «عال .. يأخذوه .. ويغوروا» .. ولاحظ السادات أن هيكل غير مستريح لمجرى المناقشة فنظر إليه بنصف ابتسامة ونصف عين وقال: «أنت تدعى أنك تفهم فى السياسة وأنا أقول العكس .. لو أنك كنت تفهم فى السياسة لوافقتنى على ما قلت بالعكس .. من الأفضل الإفراج عن مصطفى ضمن هذه الصفقة حتى لا يتجاسر يوما ويفتح فمه وإذا فتحه فنقدر نضربه بـ«..........» .. ولم

يكن لدى هيكل ما يقول .. وإن أصر فيما بعد أن يسجل هذا الحوار أما المدعى العام الاشتراكى فى محاضر التحقيق حتى يثبت حدوثه فى وقت كان فيه السادات ومصطفى أمين على قيد الحياة.

كان هذا الحوار قد جرى بين السادات وهيكل فى ٢١ يناير ١٩٧٤ .. وفى ٢٧ يناير قرر السادات الإفراج عن مصطفى أمين إفراجا صحيا .. وفى مساء ٣١ يناير عرف هيكل وهو فى بيته بقرار إخراجه من رئاسة تحرير الأهرام.

خرج هيكل من الصحافة المصرية .. وعاد إليها مصطفى أمين وعلى أمين وأحمد أبو الفتح .. وظهر فوق سطحها من كان غائرا أو غائصا ممن وجدوا فى نفاق العهد الجديد وتصفية الحسابات مع العهد السابق فرصة لأن يحتلوا المساحات والمناصب فى بلاط صاحبة الجلالة .. وعكست السياسة نفسها – كما هى العادة – على الصحافة .. وبدأت حملات التشهير بجمال عبد الناصر .. وبهيكل .. وبدأت الصحف السعودية والصحف اللبنانية والمصرية الممولة من السعودية تفتح ذراعيها لروايات مصطفى أمين التى راح يسهب فيها فى كتبه التى بدأها بكتاب «سنة أولى سجن» .. ثم «سنة ثانية سجن» .. وهكذا .. واتهمت هذه الصحف هيكل بأنه هو الذى كان عميلاً للمخابرات الأمريكية .. وأنه كان يقبض منها .. واستشهدت بما نشرته مجلة «الحوادث» اللبنانية أن الزعيم السوفيتى «نيكيتا خرتشوف» واجه هيكل فى أحد مقابلاتهما بأنه أخذ من جريدة «واشنطن بوست» مبالغ فى مقابل مقالات .. وأن هذه المبالغ – وكانت بمئات ألوف الدولارات – لا تتناسب مع قيمة ما كتب هيكل .. «ولو يكن لهذا معنى إلا أن هذه المبالغ كانت مكافأة لهيكل على خدمات غير صحفية .. وبعدها طلب خرتشوف منه أن يغادر الاتحاد السوفيتى فورا».

وقد سألت هيكل عن هذه الواقعة فقال: أننى لم أكتب فى حياتى كلها مقالا فى الواشنطن بوست ولم أتقاضى منها بالتالى دولاراً واحدا .. وفيما يتعلق بخروتشوف فإنه هو الذى دعانى فى مايو ١٩٦٤ فى بيته فى «يالتا» كى أرافقه طوال رحلته من «يالتا» إلى «الإسكندرية» .. وهى رحلة استغرقت خمسة أيام فى البحر .. وذلك حتى يستطيع أن يسألنى فيما يريد ويتعرف منى على عالم عربى وإسلامى وأفريقى يوشك أن يزوره لأول مرة بزيارته لمصر لحضور الاحتفال بإتمام المرحلة الأولى من السد العالى .. وبعدها لم أر خروتشوف لأنه فى أكتوبر من نفس السنة سقط من السلطة فمتى كانت الواقعة التى نشرتها الحوادث؟».

ومرت فى النهر تيارات ودوامات وغطت المياه أحداث وأحداث .. وأذكر أننا كنا نتناول طعام الإفطار فى يوم من أيام شهر رمضان عام ١٩٩٧ فى بيت الدكتور ميلاد حنا .. كان هناك على المائدة التى أشرفت عليها زوجته الكاتبة الصحفية إيفلين رياض كوكبة من نجوم الصحافة والفن وزوجاتهم . سلامة أحمد سلامة .. صلاح منتصر .. عادل إمام .. لينين الرملى .. وفى هذا الجو المشحون بالود والسماحة طرح صلاح منتصر فكرة أخذت إنصات الجميع وانتباههم .. أن يتصالح هيكل ومصطفى أمين .. فقد تغيرت الظروف .. وسكنت المعارك .. ولم يعد هناك من يضمن الحياة من الموت .. واعترف إننى كنت متحمسا لاقتراح صلاح منتصر الذى لم يعلق عليه هيكل وفضل إدارة دفة الحوار إلى منطقة أخرى .. لكن.. بعد أن انتهيت من فحص ودراسة ملف الخلاف بين هيكل ومصطفى أمين تراجعت فى حماسى .. فالقضية ليست قضية شخصية وليست صراعا أشبه بصراع الديناصورات أو الحيتان الهائجة .. القضية قضية اختلافات فى رؤية النظام السياسى وطبيعته وتوجهاته ونوعية القوى التى يجب أن تديره وتسيطر عليه .. ومهما كانت المواقف الشخصية فإن المواقف السياسية هى التى تغلب وتحسم فى النهاية.

■ ٣١ ■

أصعب وأطول يوم فى حياة عبد الناصر !

■ فى ثلاث ساعات ونصف الساعة – فى الثامنة صباحا إلى الحادية عشر والنصف – وقعت هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ .. كانت هذه المدة الزمنية القصيرة هى المدة التى استغرقتها الضربة الجوية الإسرائيلية .. وكانت ضربة قاضية .. قاصمة .. أنهت الحرب قبل أن تبدأ .. وجعلت الأراضى العربية فى الدول المتحاربة سهلة المنال وكأنها قالب من «الجيلى» بين أسنان جائع للسطوة والسيطرة.

كانت هناك ٤٩٢ طائرة إسرائيلية انطلقت على ٣ موجات لضرب مطارات العمق .. وحطمت الطائرات التى كانت نائمة فى هناجرها .. وحطمت معها أعصاب القيادة العسكرية المصرية .. وهو الهدف الأول فيما يسمى بالحرب الخاطفة .. وكانت النتيجة الطبيعية أن الجيش المصرى قد أصبح فى وضع عسكرى لا يطاق .. ولا يحسد عليه .. فرجاله كانوا يقاتلون بدون غطاء جوى .. ومع سيطرة جوية كاملة للعدو .. وفى صحراء مكشوفة فإن القتال لا يعود قتالا .. وإنما يتحول إلى قتل مهما كانت شجاعة الرجال.

ولم يجد قائد عام الجيوش عبد الحكيم عامر ما يفعله أمام هذه الصدمة سوى أنه أمر بالانسحاب قبل مرور أقل من ٢٤ ساعة .. وهو ما رفع عدد القتلى من ٢٩٤ شهيد فى اليوم الأول إلى ٦٨١١ شهيدا فى الثانى .. ومع الفوضى التى صاحبت الانسحاب تحولت الخسائر إلى خسائر فادحة.

والمؤسف أن الخطة الإسرائيلية فى حرب (٦٧) هى نفسها الخطة الإسرائيلية فى حرب (٥٦) .. فالخطط عادة لا تتغير لأنها محكومة بشروط وتضاريس الجغرافيا .. ولكن

التغيير يكون فى أساليب القتال .. وعنصر المفاجأة .. طبيعة الظروف السياسية الدولية .. وكان رأى وزير الدفاع الإسرائيلى الأسبق موشى ديان: أن العرب لا يقرءون .. وإذا قرءوا لا يتعلمون .. وإذا تعلموا لا يثقون فى أنفسهم.

* * * *

لم يفصل هيكل بين ما جرى فى يونيو (٦٧) وبين ما كان يكتبه قبل الهزيمة مباشرة تحت عنوان «نحن وأمريكا» .. اعتبر هيكل ما جرى فى يونيو ٦٧ هو أقصى درجات العنف فى التعامل مع التجربة الناصرية .. وقد استخدم هيكل العبارة نفسها .. عبارة «أقصى درجات العنف» لتكون عنوان أول مقال له بعد الهزيمة.

لكن .. قبل أن نحدد إلى أى مدى وصلت أقصى درجات العنف .. لابد أن نشير إلى أن هيكل فور إعلان مصر إغلاق خليج العقبة كتب مقالا فى الأهرام بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٦٧ يقول فيه : «إن هذا القرار معناه الحرب المسلحة مع إسرائيل» وشرح بالتفصيل نظرية الأمن الإسرائيلية .. ثم قال فى المقال نفسه: «إننا سوف نتلقى الضربة الأولى فى المعركة» .. ثم أضاف بالحرف الواحد: هناك ملاحظة لابد أن نقولها من الآن وهى أنه لابد أن نتوقع أن يوجه العدو علينا الضربة الأولى فى المعركة ولكنه يتعين علينا ونحن ننتظر الضربة الأولى من العدو أن نقلل إلى أقصى حد مستطاع من تأثيرها ثم تكون الضربة الثانية فى المعركة وهى ضربتنا الموجهه إليه ردا وردعا – ضربة مؤثرة إلى أبعد حد مستطاع» .. وقبل ثلاثة أيام من المعركة أشار هيكل فى مقال نشر فى ٢ يونيو ١٩٦٧ إلى أن إستيلاء المؤسسة العسكرية الإسرائيلية – وهو الإستيلاء الذى تمثل فى عودة الجنرال موشى ديان إلى وزارة الدفاع والجنرال حاييم بارليف إلى وكالة الأركان العام للجيش الإسرائيلى – معناه أن الهجوم الإسرائيلى أصبح مسألة ساعات» .. ولكن لم يكن فى مصر فى ذلك الوقت من كان قد تعود على السمع والقراءة .. فكانت الكارثة متجاوزة كل تقدير وتوقع.

ولابد أن تكون الكتابة فى مثل هذه الظروف القاسية صعبة ومؤلمة .. وهو ما عبر عنه هيكل فى بداية مقاله المنشور فى يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ .. بعد ٤ أيام فقط من الهزيمة .. فقد كتب يقول: «فى أوقات المحن الكبرى – وما أكثرها على طريق بناء الأمم – لحظات يشعر فيها الذى يمسك بالقلم أنه لا يكتب ما يكتبه على الورق بقطرات من الحبر ولكن بقطرات من دمه .. ومثل هذا شعورى اليوم .. لكن مثل هذا الشعور بالرغم من أى شىء وبالرغم من كل شىء لابد تنحيته جانبا فإن هناك الآن ما هو أولى وأبدى .. وأولى وأبدى الأشياء

الآن أن نتمثل بوضوح حقيقة ما حدث .. بتعقل كامل مهما كانت انفعالاتنا العاطفية .. وبصدق مع النفس مهما كانت نزعاتنا إلى التبرير .. ومع أن الانفعال العاطفى والنزوع إلى التبرير طبائع بشرية فإن أمتنا العربية تحتاج فى ظروفها الراهنة إلى أن ترتفع حتى فوق الطبيعة ذاتها..

«ماذا حدث تماما؟.. وما هو معنى العاصفة العاتية التى هبت على العالم العربى ابتداء من اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ .. ثم توقفت فى اليوم العاشر من هذا الشهر بعد أن تركت على أجزاء عديدة من وطن الأمة العربية حطاما وركاما وأشلاء كثيرة؟.. كيف؟.. ولماذا؟.. وإلى أين بعد الآن؟..

«نقول وبالحق: إن ما رأيناه خلاف هذه الأيام الخمسة الرهيبة هو أقصى درجات العنف فى الصدام الذى احتدم بين الأمة العربية وبين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية والمصالح التى تمثلها وسياسات السيطرة والقوة التى تمارسها؟.. هذا هو الموضوع نفسه .. وأى شىء غيره، ظواهر عارضه تعبر عن الشكل الخارجى للحوادث ولا تعبر عن صلب الحقيقة فيه .. ولقد كنت قبل أسابيع منهمكا فى حدث طويل عن المراحل المتعددة للصدام بين ما تمثله الولايات المتحدة الأمريكية وما تمثله الجمهورية العربية المتحدة .. وعددت من مراحل هذه الصدام أربعا كانت آخرها مرحلة العنف .. ولقد تركت ذلك الحديث ومرحلة العنف فى بدايتها وأعود إليه الآن ومرحلة العنف قد بلغت أقصاها».

وقد رصد هيكل مظاهر مرحلة «أقصى درجات العنف» التى مارستها الحكومة الأمريكية فى حرب يونيو .. ومنها .. إرسال ٢٠٠ طائرة على عجل لإسرائيل .. بالإضافة إلى إرسال قرابة ألف متطوع من الطيارين والملاحين العسكريين .. وتكفلت حاملات الطائرات الأمريكية بحماية الشواطئ الإسرائيلية لتترك كل القوة الإسرائيلية للهجوم .. وقامت طائرات التجسس الأمريكية الشهيرة «يو – ٢» بالسيطرة على أجواء المنطقة وقت العمليات .. وكانت هناك أيضاً سفينة التجسس الأمريكية المعروفة «ليبرتى».

وينهى هيكل مقاله قائلاً: «ولا أستطيع أن أقول – أمانة – أننا كنا بلا خطايا .. ولكننا نستطيع أن نقول – أمانة – أنه فى عام ١٩٥٦ جاءتنا إسرائيل ووراءها بيومين بريطانيا وفرنسا .. وفى سنة ١٩٦٧ جاءتنا إسرائيل .. وقبلها بشهرين على الأقل الولايات المتحدة الأمريكية».

كانت كل الإدارات والأجهزة والمؤسسات الأمريكية العلنية والخفية طوال الشهرين – على الأقل قبل الهزيمة فى حالة استنفار كامل لتوجيه الضربة إلى جمال عبد الناصر أو

«الديك السمين» على حد الاسم الكودى أو الرمزى لعملية ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وقد كانت الأيام الخمسة من الأثنين ٥ يونيو إلى الجمعه ٩ يونيو هى أسوأ الأيام فى حياة جمال عبد الناصر وأكثرها عذابا على حد وصف هيكل الذى أضاف «كانت أيام محنة حقيقة لرجل تحمل بتبعات مشروع عربى كبير .. وكانت بعض الساعات خلال هذه الأيام أشبه ما تكون بكوابيس مطبقة على عمر بأكمله .. وقد انقضت عليه وقائع أشبه ما تكون مطبقة على عمر بأكمله وقد انقضت عليه وقائع ما جرى وكأنها صواعق من نار وظلام».

كان جمال عبد الناص قد ذهب فى الحادية عشر من صباح الاثنين ٥ يونيو إلى مقر القيادة فى مدينة نصر .. وكان ذهابه إلى هناك خروجا عن ما تعود عليه فيما قبل وهو أن يترك جو العمليات للعسكريين دون تدخل أو ضغط سياسى .. لكنه فى الساعة التاسعة والنصف بدأ يشعر بالقلق بعد أن عرف بأمر الضربة الجوية الإسرائيلية .. لكنه لم يستطع تقدير حجمها .. وبدت التقارير التى يتلقاها مرتبكة ومشوشة .. فقرر الذهاب بنفسه إلى مقر القيادة .. وعندما وصل إلى هناك أحس بالشؤم عندما وجد أن عبد الحكيم عامر يتجنب النظر فى عينيه .. وعلى حد وصف هيكل «بدت له أجواء القيادة شديدة الارتباك بأكثر مما هو منتظر .. أن بعض الارتباك فى مثل هذه الظروف ضرورى ولكن ما رآه أمامه كان أقرب إلى حالة الفوضى منه إلى مجرد ارتباك عابر».

«ومضت الساعات عصيبة رهيبة .. فقد بدأت آلة الدعاية الأمريكية والإسرائيلية تعملان بهمة ونشاط على إلحاق أكبر الأضرار المعنوية بالأمة العربية كلها .. وجاء دور الصلف الأمريكى عندما فرضت واشنطن وقف إطلاق النار إلا عندما تعلن مصر سحبها واعتذارها عن معلومات خرجت منها باتهام الولايات المتحدة بأنها شاركت عمليا فى ضرب الطيران المصرى .. وفى نهاية ساعات مأساوية وحزينة لم يكن أمام جمال عبد الناصرغير أن يوافق على وقف إطلاق النار بدون ربطه بضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية إلى المواقع التى كانت فيها قبل أن ينشب القتال .. وفى هذه اللحظة عرف جمال عبد الناصر من شمس بدران أن المشير عبد الحكيم عامر مصمم على الانتحار .. وذهب إليه جمال عبد الناصر وهو يرجوه ألا يضيف الفضيحة إلى المصيبة».

كان جمال عبد الناصر مقتنعا أن النظام قد «أنتهى» .. وقال لعبد الحكيم عامر: «إن أى نظام يعجز عن حماية حدود وطنه يفقد شرعيته .. وأنه مهما كانت أحزاننا الآن فإن علينا أن نعرف أن دورنا قد انتهى نهاية مأساوية ولم يبق أمامنا إلا مهمة أخيرة هى ترتيب «أوضاع البلد» بما يمكن معه تحقيق انتقال إلى ظروف تختلف اختلافا بيناً عما هى الآن»

.. واستطرد جمال عبد الناصر قائلاً: «إنه أصبح مقتنعا بضرورة اعتزال الحياة العامة فقد انتهى دوره وانتهت فى رأيه ثورة يوليو» .. وكان اقتراح جمال عبد الناصر بعد ذلك هو أنه سيقدم استقالته للأمة وسوف يقترح فى نفس الوقت أن يكون شمس بدران رئيسا مؤقتا للجمهورية ريثما يمكن ترتيب الأمور .. وكان يعتقد أن وجود شمس بدران وزيراً للحربية يجنب احتمال الصدام بين الجيش والجماهير .. ووافق عبد الحكيم عامر على هذا الاقتراح .. وانضم لهما زكريا محى الدين وأنور السادات وشمس بدران.

وفى الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم الخميس ٨ يونيو اتصل جمال عبد الناصر بهيكل بالتليفون فى مكتبه بالأهرام .. كان جمال عبد الناصر فى مقر القيادة .. وكان قد أدرك بنفسه أن الموقف «بالغ السوء» .. وهو ما جعله قرر وقف إطلاق النار .. ويقول هيكل: إن صوته بدا للوهلة على التليفون مثقلاً بهموم الدنيا كلها .. وقال: أنه «يتحمل المسئولية كاملة» غير أن يذهب أو «يمشى» على حد تعبيره .. ويقول هيكل أنه «قد سألنى ما الذى أقترح عمله؟.. وكان رأيى أنه لم يبق أمامه غير الاستقالة .. وكان رده بالحرف: هذا ما فكرت فيه تماما .. وكان ردى: أنه ليس هناك خيار آخر .. وكان تعليقه بالموافقة».

وطلب جمال عبد الناصر من هيكل أن يكتب له خطاب الاستقالة ليلقية يوم الجمعة ٩ يونيو .. وقال هيكل .. سوف أسهر عليه طوال الليل وهى مهمة لم أكن أتمنى فى حياتى أن تعهد لى بها ولكنى أقبلها عارفا بمسئولية الظروف» .. واتفقا على اللقاء فى بيت جمال عبد الناصر فى الساعة الثامنه صباحا .. «فقد كان يعرف أننى لن أنام مثله» .. وبالفعل قضى هيكل الليلة فى مكتبه فى حماية نوال المحلاوى .. «تلك الصديقة الوفيه والصلبة» التى كانت «مسئولة عن المكتب مقيمة فيه قبل دخولى إليه وبعد خروجى منه» .. وعند الفجر «جاءت نوال المحلاوى بآخر فنجان قهوة ومعه قطعة من خبز «الكرواسان» «.. وشرب هيكل القهوة ولم يجد فى استطاعته مضغ شىء فى فمه.

****

فى ملف خاص من ٢٦ ورقة كتب هيكل ما جرى فى ذلك اليوم الذى وصفه بأنه «يوم طويل .. طويل» .. كان ذلك اليوم هو يوم الجمعة ٩ يونيو .. اليوم الذى قدم فيه جمال عبد الناصر استقالته .. لقد بدأ ذلك اليوم من اليوم الذى قبله .. يوم الخميس ٨ يونيو .. بدأ منذ اللحظة التى كلفه فيها جمال عبد الناصر بكتابة خطاب التنحى .. ويصف هيكل هذه المهمة بأنها «كانت تجربة فى الكتابة من أقسى ما عانيت فى حياتى .. وقد ظللت معها ليلة كاملة دون نوم تحت وطأة هم الكلمات وقبلها هموم الحوادث».

فى ذلك اليوم فكر هيكل فى أن يعتزل الكتابة .. أو على الأقل يقدم استقالته هو أيضا من رئاسة تحرير الأهرام .. فكل شىء من حوله ملفوف بالضباب .. ويحجب رؤية ما هو قريب ولكن .. لابد من الإشادة بقدرته على التماسك والسيطرة على نفسه وعلى أعصابه .. فرغم كل المعاناة فقد نفذ المهمة التى بدت وهو ينفذها وكأنها المهمة الأخيرة للرجل الذى ارتبط به كظله .. جمال عبد الناصر .. إن أحدا غيره ما كان يقدر على هذه الدرجة فى فصل ضغوط العواطف عن ضغوط الدور العام.

لم يكن أمامه طول الليل سوى فناجين القهوة «السادة» وسحب دخان السيجار .. وفى الطريق إلى بيت جمال عبد الناصر كان معه ملف فيه مشروع الخطاب «الذى أرهقنى سطوره أكثر من أى شىء آخر كتبته من قبل .. وظننت أننى حفظت العبارة والألفاظ من كثرة ما راجعتها وغيرت فيها وبدلت» .. وترك هيكل الملف على مقعد السيارة .. وأمسك بنسخة من جريدة الأهرام الصادرة فى ذلك اليوم «والذى لم أكن قد شاركت فى إعداده لأنى كنت مأخوذا بالكامل بعيد عنه» .. وبدت له عناوين الأهرام كلها وغيرها «بقايا مرحلة مضت وتوشك أن تلحقها اليوم مرحلة لا أظنها خطرت ببال أحد .. فمحتويات الخطاب الملقى إلى جانبى كفيلة بأن تفتح عالما آخر مجهولا وموحشا توشك الأمةالعربية أن تخطو إلى عتباته».

وراح هيكل يتطلع إلى شوارع القاهرة والسيارة تمرق فيها فى هذه الساعة المبكرة من الصباح .. كانت العاصمة مازالت نائمة .. «وبدت لى رقيقة وجميلة وحزينة لا تعرف ما تخبئة لها المقادير .. لقد عاشت أياما مرهقة شدت أعصابها على الآخر وهى الآن مقبلة على يوم لم تتهيأ له .. وهو يوم قد يكون فاصلا فى حياتها ومصائرها بعده معلقة بميزان دقيق».

ويواصل هيكل كشف خواطره وملاحظاته على هذا اليوم فى كتاب «الانفجار» الذى كتبه عن الهزيمة فى سلسلة كتبه «حرب الثلاثين عاما» ثم أعاد نشرها فى عدد أغسطس ٢٠٠٠ من مجلة «وجهات نظر» .. ويقول: «ولأن الطريق كان خاليا فقد وجدت سيارتى أمام بيت جمال عبد الناصر فى الساعة السابعة إلا عشر دقائق .. وعرفت أنه فى غرفة مكتبه منذ ساعات .. وتوجهت إليه مباشرة .. وكان (يقف وراء مكتبه مرتديا بنطلونا رماديا يتزل عليه من خارجه قميص أبيض) وممسكا بسماعة التليفون يناقش طرفا آخر .. ووقفت أمامه لثوان .. وعرفت مسار الحديث أن الطرف الآخر هو عبد الحكيم عامر .. ثم فهمت بعد لحظات أن عبد الحكيم عامر يبلغه بان القوات الإسرائيلية تضغط بالغارات

الجوية على القوات غربى القناة وأن هناك معلومات عن جسور منقولة على حاملات ضخمة .. وكل التقديرات ترجح أنها محاولة إسرائيلية لعبور القناة إلى الضفة الغربية .. كان جمال عبد الناصر يناقش هذه المعلومات .. وبدا لى الموضوع من أساسه فى حاجة إلى تدقيق .. ويظهر أننى هززت رأسى بأشارة تحمل هذا المعنى .. وقال جمال عبد الناصر لعبد الحكيم عامر على التليفون إننى أقف أمامه ولدى ما أريد أن أقوله .. وأزاح سماعة التليفون وتطلع نحوى منتظرا ما أقول .. وأبديت رأيا مفادة أننى أستبعد تماما أن تكون هذه المعلومات صحيحة .. وأضفت أن إسرائيل حققت أكثر مما تريد وعبورها إلى الضفة الغربية من قناة السويس فوق ما تحتمله الموازين الدولية .. وأيضا فوق ما تحتمله قواتها المشدودة الآن على آخرها .. لقد وصلت هذه القوات بعد زحف طويل إلى الضفة الشرقية وعبورها إلى الضفة الغربية معناه أن تجد نفسها داخله فى نوع من المعارك ليست مستعدة له خصوصا بعد زحفها الطويل وهو معارك المدن .. فالجيش الإسرائيلى لا يستطيع أن يواجه عملا أو حركة وسط التجماعات السكانية فى منطقة القناة لأن ذلك سوف يعرضه إلى ما كان يتجنبه باستمرار .. قلت ذلك باختصار .. وأعاد جمال عبد الناصر سماعة التليفون إلى وضع الحديث الطبيعى وقال لعبد الحكيم عامر: إن هيكل له رأى مختلف .. ثم لخص له وجهة نظرى وطلب إليه أن يظل على اتصال به إذا ما جد جديد».

ترك جمال عبد الناصر كرسى مكتبه وجلس فى مواجهة هيكل على مقعد آخر فى الناحية الأخرى من مكتبه .. ولأول مرة كان فى استطاعة هيكل أن يرى ملامح وجهه .. لقد كانت آخر مرة رآه فيها قبل ذلك منذ ثمان وأربعين ساعة .. «وهو الآن يبدو وكأنه أضاف إلى عمره عشر سنوات على الأقل .. كان مرهقا بشكل يصعب وصفه .. وكانت فى عينيه سحابة حزن لم أرها من قبل رغم اننى رأيته كثيرا فى خضم أزمات عاتية سبقت».

وسأله جمال عبد الناصر عن ما فعل .. وأضاف: «لابد أنك وجدت صعوبة كبيرة فى كتابته؟» .. وأخرج هيكل مشروع الخطاب .. وقال له: أن لديه ملاحظة قبل أن يقرأه .. وكانت ملاحظة هيكل خاصة بشمس بدران .. الذى قرر جمال عبد الناصر أن يخلفه بعد الاستقالة .. قال هيكل: لقد «حاولت أن أكتب اسمه فى سياق الخطاب ولم أستطع رغم كل المحاولات» .. وسأله جمال عبد الناصر بصوت متعب عن السبب .. فقال هيكل: «إننى أنا الذى أريد أن أعرف السبب .. لماذا شمس بدران؟» .. وكان رد جمال عبد الناصر هو أن كرر ما سبق أن قاله بالأمس عن تجنب الاحتكاك بين الجيش العائد جريحا من سيناء والجماهير

الغاضبة بمفاجأة الهزيمة .. وقال هيكل: أنه لم يفهم هذه النقطة .. وأضاف: إن شمس بدران هو أحد المسئولين عما جرى .. وهو واحد من مجموعة ليس لديها رصيد عند الناس.

«ثم أن هناك فى الأمر محظورا لا يجب السماح بوقوعه .. ذلك أن تعيين وزير الحربية وهو مسئول ولو جزئيا عن الهزيمة بحجة تجنب صدام بين الجيش والشعب يعنى فى المحصلة النهائية رخصة للقادة المهزومين بحق لهم فوق مشاعر الناس .. فالشعب سوف يغضب بلا جدال وهؤلاء القادة المهزومين ليس عندهم ما يدافعون به عن أنفسهم غير السلطة .. فإذا أصبح الرجل الذى كان وزيرا للحربية قبل الهزيمة رئيسا للجمهورية بعدها .. إذن الصدام قادم لا محالة .. ولا أظن أن ظروف البلد تحتمله الآن أو غداً».

كان يراود هيكل وقتها إحساس مبهم بأنه يعبر فى هذه اللحظة عما هو أكبر من صديق وأكثر من صحفى وقد استغرب هذا الشعور المبهم .. وقد قال لجمال عبد الناصر: «أنه وقد قرر الاستقالة وهو قرار سليم لا بديل عنه فإن المنطق الطبيعى بعده أن تعود الأمور بالكامل للناس فيكون هناك رئيس مؤقت مقبول منهم يشرف على لم أجزاء الموقف وشظاياه ثم يجر بعد ذلك استفتاء عام للناس على أساس جديد ودستور جديد وبرنامج يلبى مطلب مرحلة مختلفة».

وسأله جمال عبد الناصر: «إذا لم يكن شمس بدران فمن؟» .. وفكر هيكل لثوان .. ثم سأله: «من هو الأقدم بين الأعضاء الباقين من مجلس قيادة الثورة؟» .. وفكر جمال عبد الناصر لحظة ثم قال: «زكريا محيى الدين» .. وابدى هيكل ما يفيد معنى الارتياح .. وقال جمال عبد الناصر: «زكريا رجل عاقل وهو ذكى» .. ثم استطرد: «وفيه مميزات كبيرة» .. «ويمكن أن يكون مقبولا دوليا وهو بالتأكيد قادر على الحوار مع الأمريكيين وهى ضرورة حتمية الآن» .. و«إن كان السوفيت لن يعجبهم اختياره بانطباعاتهم السطحية عنه» .. ثم سأل: «هل أتحدث مع زكريا؟» .. ورد بنفسه على سؤاله قائلاً: «لا فلو تحدثت إليه فمن المؤكد أنه سيعتذر» .. وأضاف: «الحقيقة أنه حمل ثقيل .. وكئيب أيضاً .. والرجل لا ذنب له فيه».

وطلب جمال عبد الناصر من هيكل أن يقرأ الخطاب .. وراح هيكل يقرأ .. لكن .. ما أن قرأ ثلاث أو أربعة سطور حتى استوقفه تعبير «النكسة» الذى استخدم لأول مرة .. وسأله جمال عبد الناصر لماذا أختار هذا التعبير .. وإن لا يمنع أنه مستريح إليه .. وقال هيكل: «إننى توقفت كثيرا قبل أن استقر عليه .. كان على أن اختار بين كلمة النكسة وبين ثلاثة

أوصاف أخرى طرحت نفسها على أثناء الكتابة .. كلمة «صدمة» وقد وجدتها أقل من اللازم .. وكلمة هزيمة وقد وجدتها أسوأ من اللازم» .. واستطرد هيكل: «إننا لو استعملنا كلمة هزيمة فذلك سوف يحدث خطرا لأن كلمة الهزيمة معناه أن جمال عبد الناصر أو من يجيء بعده قرر الاستسلام.. كما أن كلمة هزيمة تؤثر على معنويات قوات ما تزال تشكيلاتها - أو بعضها - تقاتل فى سيناء وعلى ضفتى القناة» ..

ثم واصل هيكل القراءة إلى أن وصل إلى الفقرة الخاصة بقراره أن يتنحى (عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى) وعندها توقف هيكل ونظر إليه .. وفيما بعد كتب هيكل: «كنت أريد فرصة للتوقف لأننى أحسست أن نبرات صوتى - وقد حاولت أن أضعها كلها فى خدمة ما أقرأ - على وشك أن تتحشرج تأثرا .. كان اعتقادى من أول لحظة أن ذلك لا يصح أن يحدث .. الرجل يحتاج الآن إلى أصدقاء يشجعونه على قراره الصعب وأن ضعف أصدقاؤه أمامه فقد يؤثر عليه .. وتذكرت أنه لسوء الحظ أنه ليس هناك معنا الآن أصدقاء كثيرون يستطيعون المساعدة على التماسك .. هناك أنا وهو وليس معنا غير الله» ..

وواصل هيكل القراءة حى وصل إلى الفقرة الجوهرية التى تقول: «وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفى من الأزمة فإننى على استعداد لتحمل نصيبى من المسئولية» .. عندها قاطعه جمال عبد الناصر قائلاً: «أنه يعترض على هذه الجملة لأنه يتحمل المسئولية كاملة.. ولا يرى مجالا لتجزئتها بأن يتحمل «نصيبا منها» بينما هو يرى أنه يتحمل المسئولية كاملة» .. ولم يختلف هيكل معه فيما قال وأعاد صياغة العبارة على الفور كالآتى: «وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفى من الأزمة فإننى على استعداد لتحمل المسئولية كلها» .. وكان تعليقه على هذه الصياغة الجديدة: «أن تلك هى الحقيقة .. وهذا أدق وأكرم» .. وقال: إنه لن يعرف ما الذى سيفعله به الناس؟ .. واستطرد: إنه سوف يرضى بأى شيء ولن يلتمس لنفسه دفاعا وسوف يقبل كل شيء حى، ولو الشنق فى ميدان العتبة.

استغرق هذا الحوار أكثر من الساعة .. كانت الساعة قد أصبحت الثامنة والثلث عندما أبدى جمال عبد الناصر استعداده أن يلقى بالخطاب فى الساعة السادسة أو السابعة بعد الظهر .. وطلب من هيكل أن يذهب إلى مكتب سامى شرف لطبع الخطاب على الآلة الكاتبة .. لمراجعته فى صورته النهائية مرة ومرات قبل إعلانه .. وقال: أنه سوف يظل فى مكتبه إلى أن يعود هيكل إليه بعد أن يعطى سامى شرف مشروع الخطاب وبعد أن يكون

قد تأكد من «أنهم» استطاعوا فك رموز خطه .. وكان عند جمال عبد الناصر كل الحق .. فخط هيكل يبدو مثل الخط الذى يكتب به الأطباء روشتات الدواء .. دقيق .. صغير .. لكن كثيرا من حروفه ضائعة .. ولكن فى مكتب سامى شرف من كان متخصصا فى حل طلاسمه .. وحمل هيكل مشروع الخطاب وسار على قدميه فى اتجاه باب البيت وعبر الشارع إلى مكتب سامى شرف.

ويروى هيكل: «كان سامى شرف فى حالة من العصبية البالغة .. ويبدو أنه لن يكون فى صورة آخر التطورات .. وعندما أعطيته نص مشروع الخطاب راح يقلب صفحاته بسرعة يستقرىء ما يستطيع استقراءه من السطور والكلمات .. ووصل عند الفقرة التى يعلن جمال عبد الناصر قراره بـ «التنحى تماما ونهائيا عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى» .. وأصابته حالة من الهستيريا .. فراح يصرخ بصوت عال بأن «هذا مستحيل .. ثم أنه حرام .. والله حرام .. أنها مصيبة لا تقل عن المصيبة العسكرية» .. وبينما هو فى حالة الهياج التى انتابته دق جرس التليفون الذى يصل بينه وبين جمال عبد الناصر .. فقد خطر للرئيس فيما يبدو أن يطلب منه شيئا .. ويظهر أن جمال عبد الناصر فوجىء بحالة الهياج التى أصابته فطلب إليه أن يعطينى السماعة وسألنى: عن هذا الصراخ الذى سمعه .. وشرحت له بسرعة رد فعل سامى شرف .. وكان تعليقه عليه أنه «لا يريد أعصابا فلتانة الآن» .. وقلت له: سوف أتأكد من أن كل شىء يسير على ما يرام .. ثم أعود إليه فى المكتب بأسرع ما يمكن .. واحتاجت أعصاب سامى شرف إلى وقت حتى اقتنع بأن يطلب من الموظف المختص فى مكتبه بقراءة خطى ويعطيه مشروع الخطاب ويطلب إليه أن يجىء بآلته الكاتبة وأن يجلس أمامه فى حجرته ويطبع ما هو مطلوب منه حفاظا على السرية الكاملة».

جاء الموظف المختص واسمه عبد الرحمن سالم .. ووقف هيكل بجانبه حتى يقرأ نص الخطاب قبل أن يبدأ بطباعته فإذا ما استعصت عليه قراءة كلمة ساعده على فك رموزها .. وعندما وصل الموظف إلى النقطة التى أثارت غضب سامى شرف قبله لم ينفعل بالغضب وإنما انفعل بالبكاء .. فإذا هو يجهش به ودموعه تتساقط على الورق .. وعادت حالة الهياج العصبى لسامى شرف وقام من وراء مكتبه وهجم على عبد الرحمن سالم محاولا ضربه قائلا بأعلى صوت: كيف تطاوعك نفسك على أن تكتب هذا الكلام يا...... (سباب) ؟ .. وفوجىء هيكل بالرجل المستسلم تماما للبكاء يقول: أنه لايقدر ولا يستطيع أن يكتب هذا الكلام .. واندفع خارجا من المكتب.. وراح هيكل يهدىء سامى شرف قائلا: «سامى .. إن الرجل فى محنة وليس أمامه إلا الإنهيار وهو شىء ما اختاره ونحن نملك إحدى وسيلتين:

إما أن نسهل له قراره ونساعده على اجتياز المحنة بأقل قدر من الخسائر وإما نضغط عليه وندفع بأعصابه إلى حد الانهيار وهو شيء لا يليق بتاريخه ولا بمكانتة التى أعطتها له الأمة .. وأعرف أن ذلك آخر ما يمكن أن يكون قصدك الآن» .. وكانت عدوى البكاء قد انتقلت إلى سامى شرف .. وقضى هيكل حوالى الساعة حتى تأكد أن عبد الرحمن سالم قد استطاع أخيرا أن يمسك بنص مشروع الخطاب وأن يجلس أمام آلته الكاتبة ويبدأ فى طبعه.

وعبر هيكل الطريق من مكتب سامى شرف إلى مكتب جمال عبد الناصر بعد أن اتصل بالأهرام وعرف آخر تطورات الموقف .. وفى هذه المرة قال جمال عبد الناصر وقد ضايقه ما حدث فى مكتب سامى شرف يضايقه: «تحتاج الأمة إلى من يضمد جراحها حتى تتمالك نفسها بعد صدمة ما جرى .. الأمم بمواردها الإنسانية قبل مواردها الأخرى من أى نوع .. وأن معرفته باتساع الموارد الإنسانية للأمة هو الذى يشجعه على قراره ويطمئنه على «بكرة» أو «الغد» ..

ثم أضاف: «إن زكريا نبيه ومناور من الدرجة الأولى وسوف يستطيع مواجهة الضرورات» .. وأضاف على حد رواية هيكل: أنه لم يتصور فى يوم من الأيام أن زكريا هو الذى سيخلفه .. كانت يتصور باستمرار أن عبد الحكيم عامر هو الذى سيخلفه .. «فقد كان أول عضو تمكنت من ضمه إلى تنظيم الضباط الأحرار .. وفى السودان كان معى ليل نهار .. وبعد الثورة تركت له التنظيم فى القوات المسلحة .. قربه منى كان مشكلة المشاكل فى مجلس الثورة .. كانت «الخناقة» فى المجلس باستمرار على موقع الرجل الثانى .. وقد وقفت معه معتقدا بأن معدن «فلاح الصعيد» فيه سليم وأنه يمكن أن يكون مؤتمنا على الثورة» .. ثم استطرد: «إنه تغير .. وكان لازما أن أرى أنه تغير كثيرا بعد سوريا ..عندما رجع بعد الانفصال مكسورا وأراد أن يعوض .. وتسامحت معه كثيرا لأنى قدرت أنه يريد أن يعوض .. يظهر أننى أخطأت .. التسامح معه أضره أكثر مما أفاده أو أفاد البلد .. تغير أكثر فى السنة الأخيرة .. وكنت ألاحظ .. ولا أربط بشكل كاف .. لاحظت أن قمصانه وربطات عنقه تحسنت فجأة .. ملابسه كلها .. ولفت نظرى مرات كلمات غريبة على قاموسه يرددها .. ونغمة يسار بألفاظ تزيد على لسانه .. وكان يجب أن أعرف أن مؤثرات أخرى دخلت حياته ولم تتركه كما كنت أعرف .. ظننته الضعف الإنسانى لرجل خام واجه الغواية لأول مرة .. ولكنه كان الغرق».

كان جمال عبد الناصر يقصد زواجه السرى من الفنانة برلنتى عبد الحميد .. وقد جرى الزواج على ورقة أقرب ما تكون إلى خطاب غرامى شهد عليها بعض المقربين منه ..

وقد أثمر هذا الزواج طفلا لم يعلن عنه بسهولة .. وكان وراء ذلك كله مدير المخابرات الأسبق صلاح نصر الذى تصور أن وضع عبد الحكيم عامر فى جيبه يعنى أن الجيش قد أصبح فى جيبه ومن ثم يصبح الأقوى فى البلد كلها.

ترك هيكل مكتب جمال عبد الناصر وذهب إلى مكتب سامى شرف ليحصل على نسخة نهائية من الخطاب ثم عاد من جديد إلى جمال عبد الناصر ليقدم له نسخة الخطاب .. وراحت عينا جمال عبد الناصر تجريان على سطوره فى صمت .. كانت الساعة قد وصلت إلى الثالثة والنصف .. وأحس هيكل بأن على جمال عبد الناصر أن يستريح بعض الوقت حتى يحين موعد إلقاء الخطاب .. ولكن جمال عبد الناصر طلب منه أن يبقى .. وعاد الحديث بينهما بلا ترتيب .. وعندما بلغت الساعة الخامسة وخمس دقائق سأل جمال عبد الناصر هيكل فجأة: «ألا تريد أن تجىء معى إلى قصر القبة وتحضر إلقاء الخطاب؟» .. ورجاه هيكل أن يعفيه من هذه التجربة .. فهى أكثر مما يستطيع احتماله .. وقال: إن كل ما أدعو الله به أن يوفقه فى هذا الموقف الذى سيقف فيه أمام الأمة.

وفاضت مشاعر جمال عبد الناصر وقال لهيكل: أنه كان معه أكثر من أخ .. وهو لا يعلم هذه اللحظة ماذا سوف يحدث غدا .. «وإذا كنا سنلتقى مرة أخرى فى يوم من الأيام أو أنه اللقاء الأخير» .. ثم تحدث عن الصداقة التى جمعت بينهما وقال لهيكل فى النهاية: «إن عليك أن تعرف إلى آخر العمر أنك لى أخا».

وفى تلك الليلة أمر جمال عبد الناصر أن يكون هيكل مسئولا عن كل ما يقال أو يذاع باسمه حتى يتسلم زكريا محيى الدين مسئوليته .. وأعطى تعليماته بذلك إلى شعراوى جمعة (وزير الداخلية) وسامى شرف (مدير مكتبه) ومحمد فائق (وزير الأعلام أو وزير الإرشاد) .. وتصافح الرجلان .. ولمح هيكل دمعة فى عينى جمال عبد الناصر لأول مرة فى حياته .. واستدار هيكل خارجا من غرفة مكتبه . «فلم أكن أريده أن يرى دمعة أخرى فى عينى».

* * * *

خرج هيكل من بيت جمال عبد الناصر إلى بيته وقد استقر رأيه على أن يكون بمفرده أثناء متابعة الخطاب .. وفى الساعة السابعة إلا خمس دقائق كان جالسا أمام التلفزيون .. كانت هناك مارشات حماسية .. كان أول من يعلم أنها متناقضة تماما مع المفاجأة التى سيفجرها بعد دقائق الخطاب.

ويكتب هيكل بنفسه شارحا خواطره: «وظهرت صورته على الشاشة وراح يقرأ .. وكنت أكثر من غيرى أشعر بمدى الجهد الذى يبذله كى يظل مسيطرا على الموقف .. وكادت سيطرته أن تفلت منه للحظة عندما وصل إلى الفقرة التى يعلن فيها تنحية .. ثم فرغ من الخطاب .. واختفت صورته من الشاشة .. ولأول مرة بدأت تصوراتى تذهب إلى ما يحتمل أن يحدث بعد انفجار النبأ .. ولم تمض غير دقائق حتى جاءت الإجابة عما كنت أتساءل فيه .. فإذا أنا أسمع أصواتا فى الشارع لا أتبين مصدرها .. ثم اقتربت من نافذة تطل على كوبرى الجلاء فأجد ألوف من الناس يجرون عليه ولا يعرفون إلى أين .. ولكنهم ذاهبون بأقصى سرعة .. وصراخهم متصادع ينادى بما لم استطع تمييزه من مكانى .. ورحت أدير جهاز الراديو على بعض محطات الإذاعة أحاول التقاط ما عساه أن يكون للنبأ من صدى فى العالم الخارجى .. وكانت بعض المحطات تقطع إرسالها وتذيع النبأ..

«واتصلت بالأهرام أسأل عن برقيات وكالات الأنباء وما حملته أو جاءت به مما أعلنه جمال عبد الناصر قبل دقائق فى قصر القبة .. وأحسست بالمفاجأة الضخمة التى وقعت على كل الرؤوس من هؤلاء الذى تحدثت إليه فى الأهرام .. ثم قيل لى أن جماهير كبيرة من الناس تتدفق على مبنى الأهرام ٠ وكان وقتها فى وسط المدينة فى شارع المساحة وأن هتافهم الملح هو كلمة واحدة «ناصر»..

«وفى هذه الحظة دق جرس تليفون آخر كان موصولا بالشبكة الخاصة للرئاسة .. وكان المتحدث هو شعراوى جمعه .. وكان انفعاله على الآخر .. وهو يصرخ فى التليفون متسائلا عن هذا الذى حدث .. قائلا إنه ليس فى مقدوره ولا فى مقدور غيره أن يمسك بزمام الأمن فى البلد لأن كل المعلومات التى وصلت إليه فى نصف الساعة التى مضت منذ ألقى الرئيس خطابه تقول أن طوفانا من البشر يتدفق إلى الشوارع مناديا باسم «عبد الناصر» ومطالبا ببقائه .. ثم قال لى أن سامى شرف ابلغه الآن فقط أن أوامر الرئيس قاطعة فى أن لا تقال أو تذاع أى كلمة بدون الرجوع «إليك» ..وقد عرف من سامى شرف أن الرئيس لا يريد أى اتصال مباشر به .. وهو على اقتناع كامل بأن الموقف قد يفلت فى الشارع فى أى لحظة .. وسألنى عما يمكن عمله .. وكان رأى أن عليه أن يبقى فى مكتبه وأن يحاول قدر ما يستطيع .. فهى ساعات اختبار لنا جميعا .. ولم يكن على استعداد لأن يسمع شيئاً وإنما قال لى بسرعة إنه فى طريقه إلى بيت الرئيس ليستطلع رأيه فيما يجرى..

وبعد قليل اتصل بى زكريا محيى الدين .. وكانت دهشته بالغة .. وكانت أول عبارة صدرت عنه هى سؤاله عن هذا الذى فعلناه به .. وهل هذا معقول؟ .. وأنه عرف أن مظاهرات فى الشوارع تهتف ضده وتطالبه بان لا يقبل ما كلف به وإلا فهو أمام الناس خائن .. ثم قال لى أيضاً إن سامى شرف أبلغه أن الرئيس ترك فى يدى مسئولية ما يمكن أن يقال أو يذاع .. وهو يطلب على الفور إذاعة بيان بأنه أعتذر عما كلف به وأنه مستعد لمواصلة دوره فى الخدمة العامة تحت قيادة جمال عبد الناصر .. وهو ما يطالب به الناس جميعا .. وقلت له أننى أتفهم منطقة وأقدر حرج موقفه .. ولكن قرار جمال عبد الناصر كان واضحا .. ولا أظن أن فى إمكان أحد أن يفعل شيئا قبل الصباح .. وخرج عن هدوئه الطبيعى وقال لى «بهذا الشكل لن يطلع صباح» .. وراح يحدثنى عما يجرى فى الشوارع ليس فى القاهرة فقط وإنما فى كل مكان فى مصر..

«وعاد الأهرام يتصل بى لإبلاغى أن ما يحدث فى القاهرة متكرر فى كل عاصمة عربية .. وأن وكالات الأنباء تنقل صورا رهيبة عن بحور من البشر تتدفق إلى الشوارع مطالبة ببقاء جمال عبد الناصر وأن صوت الرصاص بدأ يلعلع فى بيروت..

«وكان شعراوى جمعة مرة أخرى على الخط الآخر يقول لى إنه ذهب إلى بيت الرئيس وأن هناك حصارا بشريا مخيفا حول البيت وكل الأخبار لديه أن القاهرة معرضة لحريق أسوأ من حريق سنة ١٩٥٢ ما لم تصدر كلمة عن جمال عبد الناصر تطمئن الناس وتهدىء مشاعرهم..

«ثم اتصل بى محمد فائق يقول لى أن المشير عبد الحكيم عامر اتصل به صاخبا ومهتاجا وقائلا إن لديه بيانا يريده أن يذاع على الناس .. وأن رد عليه بعدم استطاعته إذاعة شىء إلى بعد الاتفاق معى .. ثم قال أنه يرجح أن المشير سوف يتصل بى الآن ولابد أن الاحظ أن أعصابه فى آخر درجة من الهياج .. ثم قال لى إنه كاد يضرب فى طريقة إلى بيت جمال عبد الناصر لأن بعض الناس أخطأوا وتصوروه زكريا محيى الدين..

«وصدق ما توقعه محمد فائق لم أكد أضع سماعة التليفون بعد حديثى معه إلا والمشير عبد الحكيم عامر على الخط مهتاجا بطريقة لا يبين منها كلام مفهوم .. وحاولت تهدئته قدر ما أستطيع بأن طلبت منه أن يبعث لى بالبيان الذى يريد إذاعته مع رجائى له بأن يكون ما فيه مساويا لحرج الموقف كله..

«ولم تمض دقيقة حتى دوت صفارات الإنذار مؤذنة بغارة جوية على القاهرة وحاولت الاتصال بشعراوى جمعه فى مكتب سامى شرف وكانت جميع الخطوط مشغولة بلا

توقف .. ودق جرس التليفون .. وكان المتحدث هو عبد الحكيم عامر مرة أخرى يقول أنه يفضل إملائى البيان بدلاً من إرساله اختصارا للوقت .. وكان البيان الذى يريد إذاعته هو إعلان بأنه قدم استقالته من جميع مناصبه ابتداء من الساعة السابعة والنصف مساء .. وأن استقالته قبلت .. وسألته: «من قبلها» .. واستغرب السؤال .. وقلت له: إن الرجل الذى كان فى اختصاصه قبول الاستقاله أعلن على الناس استقالته فى الساعة السابعة .. ولم يعد فى إمكانه أن يقبل شيئا أو يرفضه .. وفوجيء المشير .. وقال انه سيعاود الاتصال بى بعد دقائق .. وعاد وكان اقتراحه أن يصدر إعلان عنه بـ «أنه ابتداء من الساعة السابعة والنصف تخلى عن كل مسئولياته .. ورجوته فى صياغة ما يريد وإرساله مباشرة إلى الإذاعة اختصارا للوقت .. وأننى سوف اتصل بمحمد فائق .. والواقع أن هدفى كله فى تلك الساعة كان أن أكسب الوقت بأقل قدر ممكن من دواعى التفجير .. وكان غضبه قد بدأ يتزايد ولكنى أشهد أن كلمة خارجة لم تصدر عنه .. ورجوته أن يراعى أن أعصاب الجميع مشدودة على الآخر .. وإذا فلتت منا أعصابنا فإن أحدا منا لا يستطيع أن يضمن كيف يجيء الصباح علينا.

«وعدت أحاول الاتصال بشعراوى جمعة وإذا بى أجده على الخط الآخر يطلبنى والصورة لديه عن الجماهير الزاحفة فى اتجاه بيت جمال عبد الناصر قد أصبحت مقلقة رغم الإنذار بوقوع غارة .. وسألته عن هذا الإنذار .. وكان رده أن الدفاع المدنى رصد طائرات معادية فى اتجاه القناطر الخيرية وكان ذلك يدعو إلى قلق كبير .. وما هى إلا دقائق حتى أعلنت قيادة الجيش الإسرائيلى أنه لم تكن لها «هذا المساء» طائرات على الإطلاق فى العمق المصرى .. وعدت أتصل بشعراوى جمعة وقد أحسست من لهجته بشعور غامض جعلنى أتساءل بعد المكالمة ما إذا كانت هناك غارة حقيقة أو أن صفارات الإنذار كانت وسيلة فكر فيها أحد لإقناع الناس بإخلاء الشوارع .. وبدا لى أنه حتى إذا كان ذلك هو القصد فإن النجاح لم يكن حليفه لأن الجماهير الزاحفة فى الشوارع كانت فى انفجار مشاعرها أقوى من أية قنابل يمكن أن تلقيها طائرات ..

«واتصل بى أنور السادات رئيس مجلس الأمة الذى حاصره أعضاء المجلس فى مظاهرة امتزج فيها الأسى والغضب طالبين منه أن يفعل شيئاً لتدارك الوضع الخطيرة فى كل مكان .. قد حاول عدد منهم أن يذهبوا معه إلى بيت الرئيس أيضاً .. ولم يتمكنوا من الوصول إليه .. وعاد أنور السادات إلى المجلس مصرا على ضرورة أن يصدر بيان يقول للناس على الأقل بأن الرئيس سوف يعاود التفكير فى الأمر .. وقلت له «أنه ليس فى

استطاعتى كتابة هذا البيان أو طلب إذاعته .. وكان عدد كبير من نواب مجلس الأمة قد دخلوا قاعة المجلس واعتبروا أنفسهم اجتماعا شرعيا فيه باسم الشعب ملحين على طلب عودة جمال عبد الناصر .. وكانت تلك بالضبط هى الصيحة العامة من المحيط إلى الخليج وورائهما طبقا لما كانت تتناقله وكالات الأنباء على خط طويل ممتد من أقاصى أسيا حتى المغرب الأقصى..

«وكان الليل على وشك أن ينتصف .. ودق جرس التليفون .. وكان جمال عبد الناصر هو المتكلم .. وكان سؤاله بصوت مثقل هو «ما الذى حدث؟» .. كانت الدولة كلها قد انتقلت إلى مكتب سامى شرف المواجه لبيته .. وكان بحر الجماهير الزاحفة قد أحاط بهذا البيت من كل جانب .. وكانت خشية المسئولين بدون استثناء أنه إذا طلع الصباح دون رد على المشاعر الجامحة فإن الموقف سوف يفلت تماما وسوف تكون العواقب خارج تصور أى إنسان .. وهكذا اقتحمت باب بيت جمال عبد الناصر مجموعة من المتحمسين لطلوع الصباح وصعد بعضهم إلى غرفته ودخلها عدد منهم يضعون أمامه صورة الموقف .. ولم يصدق ما سمعه .. واتصل بى يسألنى عما يجرى .. ورويت له صورة مصر والعالم العربى كما كانت بادية لى لحظتها .. وكان سؤاله المتكرر «ليه؟» وراح يردده مستغربا».

****

لقد جرت كل هذه الاتصالات فى خمس ساعات كانت الأعصاب فيها مشدودة ورؤية الصباح غامضة .. وفى هذه الساعات الخمس كان هيكل هو الذى يدير ما جرى .. كانت كل الخطوط تنتهى إليه .. وكانت كل التصورات تخرج منه .. وهو ما جعل البعض يكرر فيما بعد أن هيكل كان على الأقل الرجل الثانى فى مصر .. أقول على الأقل لأن البعض أعتبرها «الأول مكرر» .. وفيما بعد أجاب هيكل فى حوار صحفى أجرته معه مجلة «نصف الدنيا» فى صيف عام ٢٠٠٠ قائلاً:

«أعتقد (أن حكاية الرجل الثانى) كلام فارغ .. وكان ممكنا من ناحية الغرور الإنسانى الطبيعى أن أقول أن هذا الكلام صحيح .. لكن واقع الأمر إن هذه الكلام لم يكن صحيحا .. ولا جدال أننى فى ذلك الوقت كنت أقرب الناس للقمة .. لكننا ننسى دائما طبائع السلطة عندما يقال أن فلان الثانى أو الثالث أو الرابع .. وأعتقد أننا فى النظم الموجودة فى عالمنا الثالث وهى فى غياب عمليات فرز وديمقراطية حقيقة تصبح مسأله الرجل الثانى والثالث شائعة .. والأمر هكذا ادعاء أعمى .. وفى أمريكا مفهوم أن الرئيس هو الأول

والثانى هو رئيس المحكمة العليا لأن السلطة هناك موزعة طبقا لقانون وطبقاً لأوضاع حقيقة وعندما نتكلم عن العالم الثالث فإننا نتكلم عن سلطة رجلٍ واحد (لا يستطيع أن يبنى هرما ولكن يعمل حوله دائرة) وهذه الدائرة قد تتغير .. أو هى قابلة دائما للتغيير .. يعنى عبد الحكيم عامر كان يمكن أن تجده فعلا الرجل الثانى .. ليس بحكم منصبه لكن بحكم القوات المسلحة .. ثم أنتهى .. ومعنى ذلك أن الرجل الثانى موجود لكنه قضية متغيرة دائما..

«أنا بالفعل – كنت قريبا من الدائرة .. وكنت صديقا من أقرب الناس إلى جمال عبد الناصر .. ولكن هذا لا يجعلنى أن أكون الرجل الثانى فى النظام .. ولأن الرجل الثانى فى النظام لابد أن يكون مهيئا ليحل محل الرجل الأول وهذا لم يكن موجودا فى حالتى على الأطلاق .. هذا على فرض أننى نسيت يوما أن الصحافة هى حياتى وليست فقط مهنتى .. وحتى لا نطيل النقاش فى هذه النقطة فأنا فعلا كنت فى الدائرة القريبة لجمال عبد الناصر ولكن حكاية الرجل الثانى غير مطروحة من ناحية السلطة ولا من ناحية التنفيذ».

ولوجوده فى الدائرة القريبة – أو لوجوده فى مركزها فى ذلك اليوم – فإن هيكل عندما اتصل به جمال عبد الناصر لم يتردد فى إقناعه بضرورة إصدار بيان يهدىء على الأقل الخواطر الهائجة .. واتفق على أن جمال عبد الناصر سيذهب فى الغد إلى مجلس الأمة ليناقش معه الأمر .. لكن الجماهير التى غطت الشوارع لم تعد إلى بيوتها .. وفضلت البقاء خارجها .. بلا نوم.

واتصل جمال عبد الناصر بهيكل مرة أخرى بعد منتصف الليل ليقول له : أنه يشعر بتعب لم يشعر به من قبل وأنه يحس بحاجة شديدة إلى أن يغمض عينيه وينام .. وأنه بالفعل سوف يبلع قرصا منوما ويحاول .. لكن المحاولة لم تنجح .. لأنه عاد واتصل بهيكل فى الساعة الخامسة والربع قائلاً: إن القرص المنوم أضر به أكثر مما نفعه .. فقد أصابه بعوارض النوم وفى نفس الوقت فإن فكره كان يقظان .. وسأله: متى أستطيع أن أراك ؟ .. فرد هيكل: على الفور إذا أردت .. ونزل هيكل من بيته .. وكانت كل الطرق فى تلك الساعة من الصباح مسدودة وبخاصة ميدان التحرير .. وتمكنت من الوصول إلى الأهرام بصعوبة بالغة .. واتصلت به أقول أننى سوف أتأخر رغم إرادتى لأن الطرق كلها مغلقة .. ولم يكن قادرا – على حد وصف هيكل – أن يستفيق من دهشته .. وكان تعليقة بصوت تشيع فيه حيرة كاملة «إن هذا الشعب غريب تصورت أنه سينصب لى مشنقة فى ميدان التحرير فإذا تصرفه على عكس ذلك تماماً» .. وقال لهيكل أيضا: «إنه من الأفضل

أن تظل فى مكتبك حيث أستطيع الاتصال بك فى أى وقت بدلا من أن تتوه فى وسط الزحام فلا تصل إلى بيتى ولا تبقى حيث أستطيع أن أتصل بك».

وكما فشل هيكل فى الوصول إلى بيت جمال عبد الناصر .. فشل كل المحيطين بجمال عبد الناصر فى البحث عن وسيلة لوصوله إلى مجلس الأمة .. وكان أن اقترح هيكل أن يوجه جمال عبد الناصر برسالة إلى مجلس الأمة بدلاً من الذهاب إليه .. على أن يكون الذهاب إليه فيما بعد عندما تعود الجماهير إلى منازلها .. وطلب هيكل مهلة ربع ساعة لكتابة الرسالة .. وراجعها مع جمال عبد الناصر عبر التليفون .. وبهذه الرسالة انتهى يوما من أطول الأيام فى مصر.

■ ٣٢ ■

زوار الفجر يحاولون اغتياله بالرصاص !

■ كان هيكل فى مبنى الأهرام القديم عندما طلب سكرتير التحرير توفيق بحرى ليذهبا معا لتفقد مبنى الأهرام الجديد .. وبينما هما يعبران الشارع لركوب سيارة هيكل فوجئا بصوت طلقات رصاص .. وسارعا بالاختباء .. وعندما جاءت الشرطة للمعاينة - بناء على بلاغ تقدم به الدكتور جمال العطيفى - كان من السهل التأكد أن هيكل هو المقصود .. فآثار طلقات الرصاص كانت واضحة على سيارته.

وفيما بعد .. أمام محكمة جنايات القاهرة سئل هيكل : هل حقيقة أنه تم إطلاق النار عليك فى وقت من الأوقات؟ .. وأجاب هيكل: نعم .. وسئل أيضاً: ومن الذى أطلق عليك النار؟.. فقال: جهة أمنية؟.

كانت المحكمة تنظر قضية ضد صلاح نصر وتحاكمه بتهمة التعذيب .. وكانت المحاكمة بناء على بلاغ إلى النائب العام تقدم به مصطفى أمين متهما مدير المخابرات العامة الأسبق بتعذيبه .. وقد استدعى هيكل شاهدا . وفجر المحامى شوكت التونى مفاجأة إطلاق النار على هيكل .. وفيما بعد سألت هيكل عن هذه الواقعة .. فقال: نعم الواقعة صحيحة .. وكان الهدف من إطلاق النار على هو «إحداث فرقعة» .. أو «عمل حاجه ترن» .. أو ربما كان الهدف تخويفى بعد ما كتبته نقداً فى المخابرات .. وإشارة إلى «زوار الفجر».

كان ذلك بعد أحداث ٩ و١٠ يونيو التى أعادت جمال عبد الناصر إلى السلطة .. وبعد أن بدأ هيكل يكتب عن الجبهة الداخلية .. والتغيير والمجتمع المفتوح .. ودولة المؤسسات ..

ومراكز القوى .. وكيفية القضاء عليها .. لقد شعر المجتمع المصرى أن الهزيمة لم تكن هزيمة عسكرية فقط وإنما كانت هزيمة سياسية وحضارية أيضاً .. وظهرت فى ذلك الوقت – إلى جانب سخرية النكات وجلد الذات – دعوات لوضع الصراع العربى الإسرائيلى فى حجم يتجاوز الصراع العسكرى المسلح إلى حجم أكبر .. هو حجم الصراع الحضارى الدائم .. وإذا كان أحمد بهاء الدين هو صاحب فكرة «الصراع الحضارى مع العدو» فإن هيكل كان صاحب فكرة «التعمير الحضارى» .. وقد نشطت الفكرة بعد عام ١٩٦٨ وتكون لها مجموعة خاصة من المفكرين والباحثين كان على رأسهم الدكتور محمود فوزى .. وكان الدكتور عبد الملك عودة هو المقرر .. وقد كان هيكل يحلم بان تصل الفكرة إلى الذروة فى الاحتفال الذى كان يحلم به بمناسبة مرور ١٠٠ عام على الأهرام فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٥ .. ولكن السادات لم يتح له تحقيق حلمه فقد خرج من الأهرام قبل ذلك بأكثر من عام.

لقد راح هيكل يتحدث عن دور الجبهة الداخلية فى حل الأزمة التى خلقتها هزيمة يونيو .. وفى مقال يحمل عنوان «الجبهة الداخلية» نشره على أسبوعين ابتداء من ١٠ نوفمبر ١٩٦٧ قال: «إنه لا جبهة قتال قوية .. بدون جبهة داخلية أقوى» .. وأضاف: «أن القوة العسكرية لا قيمة لها إلا أن تكون مظهرا وتعبيرا على قوة اجتماعية شاملة اقتصادية وسياسية وروحية وثقافية ومعنوية .. ومن هنا فإن الجبهة الداخلية هى الأصل والقوة العسكرية شكل من أشكالها الخارجية .. إن الجيش هو قشرة صلبة يفرزها المجتمع الذى يبنيه لكى يحمى بها نفسه من التقلبات المحيطة به والقشرة لا قيمة لها بغير ما يصلها خلال الأنسجة والخلايا الحية للجسم وهى به تعود إلى الالتئام إذا انشرخت بل وتجدد نفسها إذا تحطمت».

ويضيف : «ولقد ظهرت سلامتها وصلابتها يومى ٩ و١٠ يونيو مجموعة عوامل من بينها غريزة البقاء .. لكنه من الخطأ والخطر أن تترك غريزة البقاء وحدها تحكم الجبهة الداخلية وتوجه سيرها» .. غريزة البقاء يجب أن تتحول إلى إرادة بقاء .. ثم إلى إرادة انتصار .. ووسيلة ذلك هى «العمل السياسى قبل أى شىء آخر وبعده» .. على أن حجم العمل السياسى وفاعليته – كما يقول هيكل – «لم يكن بالقدر الكافى» .. «وقد حان الوقت لمحاولة أكثر عمقا وأبعد مدى بزيادة حجم وفاعلية العمل السياسى».

ولا يتردد هيكل فى أن يقول: إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا «بعمل ديمقراطى شعبى» .. ولم ير فى «ظروف الأزمة» حاجزا أمام الديمقراطية .. بل رأى أنها «حافز للمزيد منها»

.. لكنه أضاف شرط «أن نحسن فهمها» .. وهو يعرف الديمقراطية بأنها «شعور الشعب أنه يملك الحقيقة» .. فملكية الحقيقة هى «المعيار الأصيل للديمقراطية السليمة» .. وبهذا التعريف ليس ضروريا للديمقراطية السليمة – على حد قوله – وجود معارضة .. «فهدف المعارضة هو أن تظهر الحقيقة أمام الشعب ليملكها ويقرر بملكيتها ما يشاء» .. لكن .. كيف يمكن أن تظهر الحقيقة أما الشعب بدون معارضة؟ .. يقول: «إن الحوار الهادىء يستطيع أن يحقق صيغة معقولة للديمقراطية .. بل إن التأمل المتأنى مع وضوح كاف يستطيع أن يؤدى إلى نفس النتيجة» .. «إن المادة الخام للتوعية الديمقراطية آراء ومعلومات تحمل من الصدق أكبر شحنة متاحة أو ممكنة وتزدهر بالمناقشة ولا تذبل بعدها .. والشعارات المسكوكة مهما كان رنينها أصبحت الآن كالصناديق المقفلة تاهت مفاتيحها ولا يعرف أحد حقيقة ما تحتويه وهى تنقل وتلقى هنا وهناك دون أن يعنى ذلك كشفا حقيقيا أو رؤية واضحة» .. واعتقد ان تصور هيكل للديمقراطية على هذا النحو لا يخلو من التصورات غير الملموسة وغير المحسوسة.

وفى هذا المقال يذكرهيكل أنه كان أول من كتب ناقدا جهاز المخابرات .. وتحدث عن انحرافاته «حين كان جهازها فى عنفوان قوته وسطوته .. وأعاد ما سبق أن قاله قبل أن تبدأ التحقيقات مع صلاح نصر ورجاله .. «لقد قلت بالحرف الواحد: إن أجهزة المخابرات إذا تُركت بغير رقابة كافيه تكتسب فى نوها طبيعة سرطانية مدمرة» .. ويذكر هيكل فى المقال أيضاً أنه كان أول من استخدم تعبير «مراكز القوى» .. وأول من حذر من خطورتها وأخطارها .. لكنه أضاف متسائلاً: «هل يمكن أن نعود مرة أخرى إلى أوضاع مراكز القوى .. والأجهزة المتحكمة؟» .. وبصراحة يرد: «نعم .. يمكن» .. ويشرح: «إن صميم المسألة ليس هو أن مجموعة من الأفراد هنا أو هناك تجاوزوا الحدود وخرجوا .. وإنما صميم المسألة هو وجود المناخ الذى يسمح بهذا التجاوز والخروج .. المناخ هو الذى يسمح .. بل هو الذى يغرى .. حيث توجد سلطة فردية لأى شخص مهما كان دوره .. ينشا على الفور مركز قوة .. وحيث توجد أجهزة لا رقابة عليها فإنها تتحول على الفور من الخدمة العامة إلى السيطرة والتحكم .. وإذا ما تحدثنا مثلا عن «مراكز القوة» فلقد نستطيع القول بأن الظروف الأولى للثورة أتاحت الفرصة لظهور هذا الوضع لكن استمراره بعد ذلك أصبح عقبة ضد الثورة لعدة أسباب: (١) أن ذلك يحول الولاء من المبادىء إلى ولاء للأشخاص .. (٢) أن ذلك يساعد على الانحرافات نتيجة لمحاولات الأشخاص أن يستبقوا الولاء لأنفسهم أو أن يستزيدوا منه.. (٣) أن ذلك يؤدى إلى تقسيم السلطة فى الدولة

فينشأ نوع من الإقطاع - التصرف المطلق - وهو لا يختلف كثيرا عن الإقطاع التقليدى وأن كان يكتسى ثوبا حديثاً .. (٤) أن ذلك من أول العوامل التى يمكن أن تساعد البيروقراطية - أى التحكم الإدارى - والسبب فى ذلك أن مراكز إصدار أى قرار تصبح محددة وضيقة فى حين أن مهام الدولة الجديدة تتطلب تعدد واتساع مراكز إصدار القرار .. (٥) إن ذلك يمكن أن يؤدى إلى صراعات على السلطة..

«وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى «الأجهزة المتحكمة» وأجهزة المخابرات بالطبع أولها فإننا نستطيع القول بان مثل هذه الأجهزة ضرورية لأمن الدولة الحديثة .. ولكن فى الوقت نفسه وحتى لا تتجاوز هذه الأجهزة حدودها يجب: (١) تحديد مهمتها تحديدا قاطعا فاصلا .. (٢) وضعها تحت رقابة من نوع معقول .. يضع فى اعتباره دورها وأهميته .. وبالتالى يحصر اهتمامه فى متابعة خط عملها ولا يقحم نفسه على تفاصيل عملياتها ..

«وفى النتيجة مما يمكن استخلاصه من ظروف قبل النكسة فإن هذين العائقين على وجه التحديد - وضع مراكز القوى ووضع الأجهزة المتحكمة - وقفا عائقا أمام حرية التعبير والتفكير .. والتعبير والتفكير هما الدورة الدموية الصحيحة للديمقراطية .. اقصد أن أقول أن التفكير وحده نصف ديمقراطية لا يكتمل ولا يحقق قيمته بغير النصف الآخر .. وهو حرية التعبير .. وكلا الوضعين - وضع مراكز القوى ووضع الأجهزة المتحكمة - فرض قيودا على إمكانية التفكير والتعبير بطريقة منظمة .. أى بطريقة جماعية .. ولم يعد هناك - فى بعض الأحيان - غير التفكير التعبير الفردى .. الذى يقف وحده فى الجو العام الموحش وأمام العواصف .. هذه مغامرة غير مأمونة لأنه لا يمكن أن يطلب كل الناس أن يبلغوا مرحلة القديسين والشهداء.

وأغلب الظن أن التوصيف الذى قدمه هيكل على هذا النحو يصلح لأن نطبقة على ما جرى فى مصر .. فيما بعد .. سواء كانت مراكز القوى هى مراكز سياسية داخل النظام .. أو كانت مراكز مالية خارجه ولكنها متحالفة معه .. وعلى ظل فإنه مع تغير الظروف والأشخاص وطبيعة النظام الحاكم فى مصر فإن المشكلة ظلت كما هى بلا حل .. بل وبقيت الدعوة التى ظهرت فى ذلك الوقت - دعوة التغيير - كما هى دعوة مزمنة بلا استجابة.

إننا نتساءل الآن عن : ما هو السبيل إلى التغيير؟ .. وهو نفسه التساؤل الذى طرحه المصريون فى تلك الأيام القاسية .. وقد حدد جمال عبد الناصر الإجابة على السؤال بعبارة «تقنين الثورة» .. أن سيادة حكم القانون .. ويضيف هيكل إلى «تقنين الثورة» ..

«الحرية» .. لكنه يضيف: إنه ليس من شك أننا نعيش مع غيرنا من الشعوب فى عالم يعانى ما يمكن أن نسميه «أزمة حرية» .. ويصبح السؤال: «كيف يمكن مثلا أن تصان الحرية فى عالمنا بينما هناك دول كبيرة تملك من الأسلحة ما لا قبل بها للدول الصغيرة؟.. وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية فى مجتمعات تملك فيها الدولة - حتى الدول الصغيرة - أسلحة لا قبل للمواطن العادى بها أو التصدى لها؟.. وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية فى ظل التفاوت الاقتصادى الفادح على مستوى الشعوب وعلى مستوى الأفراد؟ .. وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية مع مظنة وجود تصادم بين مضمونها الاقتصادى وحركتها السياسية؟.. وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية بكل وسائل الإعلام المتاحة عندما تتحول من وسائل إعلام إلى وسائل إعلان؟».

ورغم مرور أكثر من ٣٣ سنة على طرح هذه الأسئلة فى مصر فإن من المؤكد أن لا أحد كان قادرا على التوصل إلى إجابة مناسبة .. أو غير مناسبة .. بل أن الأسئلة التى بدت فى تلك الأيام سهلة وبسيطة أصبحت الآن معقدة وصعبة .. ولا نقول مستحيلة.

ولو كان هيكل فى تلك الأيام قد نقل عن جمال عبد الناصر تحذيره من خطورة الاعتماد على الفرد .. فإن التحذير مع مرور الأيام وتغير النظم وتعاقبها قد تحول إلى مساحة من النيران الحمراء التى نندفع إليها دون أن نشعر بخطر الانتحار والفناء .. فنحن لا نستفيد من أخطائنا .. ونحن نبدأ دائما من الصفر .. ونحن لا نتعلم من دروس التاريخ لذلك فنحن نكرر عيوبنا وعاهاتنا بنفس الحماس وبنفس الحيوية.

لقد بقيت مفاتيح حل الأزمة السياسية فى مصر - وهى سيادة القانون والمؤسسات والعمل السياسى والمعلومات والوقائع والحقائق والمشاركة والديمقراطية وحرية التفكير والتعبير - ملقاة على قارعة الطريق لا تجد من يمسك بها أو يستعملها حتى أصابها الصدأ .. وأصاب الناس اليأس .. فكان أن أصبح الناس فى واد .. والحكومة فى واد .. وتحولت العلاقة بينهما إلى علاقة ضارب ومضروب .. أو راكب ومركوب.. أو فاعل ومفعول به.

كذلك فإن السؤال الذى طُرح فى تلك الأيام عن «ما هى الضمانات التى يمكن أن تحول دون تكرار ما حدث؟» يظل سؤالا مفتوحا حتى الآن .. حتى لو كان ما حدث قد اختلف من هزيمة عسكرية إلى هزيمة سياسية .. أو تحول من نكسة فى سيناء إلى نكسة فى الداخل .. نكسة اقتصادية واجتماعية وديمقراطية .. والغريب أن جمال عبد الناصر قد حدد

بوضوح طريق الإجابة .. لكن الغريب أيضا أن لا أحد مشى فى هذا الطريق .. أو لا أحد سمح له بالمشى فى هذا الطريق .. أما ما قاله جمال عبد الناصر فهو: «الآن يبدو واضحا أن كثيرين لم يتكلموا حين كان واجبهم يقضى عليهم أن يتكلموا .. ومن هنا فلسوف يبقى أهم الضمانات فى نظرى أن يكون فى هذا الوطن دائما الفرد المؤمن الذى يقول كل ما يريد قوله حتى إذا أعطى رأسه ثمنا لذلك».

وقد اقتبس هيكل هذه الإجابة ونشرها فى مقال يوم الجمعة ٨ نوفمبر ١٩٦٨ بعنوان «المعنى الحقيقى لكل ما تكشف بعد النكسة» .. وأضاف إليها: «وبالحق فإنه ليس هناك وقت تشتد فيه حاجتنا إلى أن نتكلم أكثر مما تشتد الآن .. وأن نتكلم بالتصريح أولى من التلميح .. وأن نشترك فى مناقشات واسعة وأن ندعو إلى مناقشات أوسع بل وأن نحرض عليها تحريضا إذا لزم الأمر .. وفضلا عن ذلك فلست أعتقد أن رؤوسنا معرضة .. بل أن رؤوسنا سوف تكون معرضة إذا لم نتكلم لأن كل ما حدث سوف يتكرر كما أن الوطن ليس ملكا لبعض من فيه دون البعض الآخر .. إن كثيرين لديهم ما يقولونه وقد يكون نافعا وقد لا يكون .. لكن المهم أن لا نتحرج ولا نتردد» .. أن نتكلم .. هذه هى روشتة العلاج التى لم نأخذ بها حتى الان رغم أن الجسم السياسى يزداد ضعفا وهزالا.. فقد تعودنا أن لا يصحح النظام السياسى تلقائيا .. بل يجب أن يجبر على ذلك تحت وطأة ضغوط مفاجئة لا قبل له بتجاوزها .. وساعتها قد يكون التصحيح والتغيير قد فات أوانهما .. كما حدث فيما بعد .. فى حادث المنصة الذى دفع فيه السادات حياته ثمنا لعناد لم يكن له أى معنى .. وكما حدث بعده فى مواقف أقل حدة .. ولكنها راحت تتراكم منذرة بما يهدد أو على الأقل يثير القلق.

ويتذكر هيكل أنه قال لجمال عبد الناصر: أنه «لابد أن يرى ناس ويحاورهم» .. لابد أن يسمع لأعداد كبيرة ومتنوعة منهم حتى لا تضيق الرؤية والمعرفة وتقفز مراكز القوى مسيطرة وضاغطة .. واقترح هيكل على جمال عبد الناصر أن يدعو من وقت إلى آخر عدة شخصيات .. عشرة مثلا .. فى بيته .. بعيدا عن «رسميات» العمل .. ويتكلم معهم بلا قيود .. ونفذ جمال عبد الناصر الاقتراح مرتين .. لكن .. في المرتين لم نجد من تكلم.

ويفسر هيكل صمت الناس فى مواجهة جمال عبد الناصر بالكاريزمة التى كان يتمتع بها .. لقد حدث أثناء مناقشة «قانون السلطة القضائية» أن اتصل هيكل – وكان فى الإسكندرية – بالدكتور جمال العطيفى ليسمع منه رأيه فى القانون .. وبعد أن اقتنع هيكل بملاحظاته قال له: أنه سيمر على جمال عبد الناصر فى المنتزة ليناقشه فى القانون

.. واقترح أن تأتى معى فى السيارة وتنتظرنى .. فإذا احتاج الأمر لشرح منك طلبت من الرئيس أن تنضم إلينا .. وفور أن عرف جمال عبد الناصر أن جمال العطيفى ينتظر أمر بأن يأتى وينضم إليهم .. ولكن .. ما أن دخل جمال العطيفى علينا وصافح جمال عبد الناصر حتى انعقد لسانه .. لم يستطع الكلام .. والسبب .. ربما هيبة اللقاء .. ربما كاريزميا جمال عبد الناصر .. ربما .. ربما .. لكن هذا هو ما حدث.

وأغلب الظن أن قدره هيكل على الحديث والكلام مع جمال عبد الناصر كانت سبب فى أن يثير غضب وحقد الآخرين .. ويروى هيكل : إن السادات كان عنده فى مكتبه بالأهرام عندما رن التليفون الساخن بين هيكل وجمال عبد الناصر .. وقال السادات قبل أن ينسحب تاركا له حرية التحدث مع جمال عبد الناصر: آه لو قطعوا سلك التليفون ده يا محمد .. بعد خمس دقائق حيقطعوا رقبتك.

* * * *

وقد طرح هيكل ضمن ما طرح فى تلك الأيام ضرورة إحداث انقلاب حاد فى التنظيم السياسى .. لتجديد دمائه .. ولسريان الحيوية فى مفاصلة .. ولكن يبدو أن خلافاته القديمة والمزمنة مع قيادات الاتحاد الاشتراكى رأت فيما كتبه تعريضا بها .. وتقليلا من شأنها ودورها .. وتهديدا لوجودها واستمرارها .. فكان أن راحت تتحين الفرصة للانقضاض عليه .. لرد الهدية بأحسن منها .. وقد جاءتها الفرصة على طبق من فضة فى مظاهرات الغضب التى اجتاحت الشباب فى مصر .. فى فبراير ونوفمبر عام ١٩٦٨ .. لقد أطلقت بعض عناصر المخابرات عليه الرصاص لإرهابه.. أما قيادات التنظيم السياسى فقد أطلقت عليها الهتافات فى المظاهرات التى راحت تلقى الطوب والحجارة على مبنى الأهرام .. وتصرخ فى وجهه بعبارات خلت من اللياقة أحيانا .. وقد عرف هيكل فيما بعد أن هذه المظاهرات تحركت بأمر من قيادة التنظيم فى القاهرة .. ولأن التنظيم السياسى كان محكوما بسطوة الأمن الداخلى فى المباحث العامة (مباحث أمن الدولة فيما بعد) فإن المظاهرات انقلبت إلى منشورات .. كتبت ضده فى مكاتب الأمن السياسى .. وبدأت نوعاً من الحرب الخفية للتخلص منه .. ولم يشفع له فى هذه الحرب علاقتة بجمال عبد الناصر .. الذى قال له: لقد اخترت .. تحمل.

لقد تفجرت المظاهرات فى أعقاب الأحكام التى بدت هزيلة فى قضية قادة الهزيمة وعلى رأسهم الفريق صدقى محمود قائد سلاح الطيران .. وقد حاول هيكل قدر استطاعته أن يفتح حواراً مع المتظاهرين .. ويرد على الشعارات .. بالكلمات .. وكان رأيه .. «إن

المظاهرات مهما فيها – بعض الأحيان – من جموع تعتبر فى الواقع ظاهرة صحية وهى فى أبسط صورها تعبير عن اهتمام بالمصير لابد من تقدير دوافعه وحتى لو ثبت أنه كانت هناك محاولات لاستغلالها فإنه من الضرورى أن نفرق بين النوايا» .. كلمات غير قاطعة .. فيها محاولة بارعة لتجنب إثارة غضب طرف من الطرفين المتناقضين فى ذلك الوقت .. الشباب الغاضب .. والدولة التى لا تزال تلملم جراحها .. وبنفس الأسلوب القريب من أسلوب سائق سيارة سباق مسرعة فرضت عليها الظروف أن يدخل فى حوارى ومنحنيات يستطرد هيكل: «إن لمسات الجموح فى هذه المظاهرات تعكس بالدرجة الأولى شعورا عاما يهز المجتمعات العربية كلها بالقلق وهو شعور يتخلخل فى أسس «اليقين» الذى يسند كل تصوراتنا العامة قبل النكسة .. وسواء كانت هذه التصورات السابقة صحيحة أو كانت مخولة بشىء من التوهم فلقد كنا قبل النكسة نقف على أرض «يقين» معين فميا يتعلق باحتمالات المواجهة مع العدو الاستعمارى الإسرائيلى .. لكن النكسة هزت هذه الأرضية وحدث بالنتيجة تخلخل فى «اليقين» وفى وسط المراجعة والبحث عن يقين جديد تجرى على أرضيته المواجهة المقبلة مع العدو .. فإن القلق واقع لا يمكن إنكاره».

واعترف – وقد كنت واحد من جموع الشباب الغاضب التى فجرت وشاركت فى المظاهرات – أننا لم نكن نقتنع كثيرا بما قاله هيكل .. كان نوعا من المناورة العقلية لم تكن تقبلها عقولنا التى كانت فى حاجة إلى يقين واضح .. وعلامات طريق لا تحدث التباسا فى الاختيار .. وفى حالة فقدان الثقة التى أصابتنا وشملت كل شىء – بما فى ذلك شخصية جمال عبد الناصر – لم يعجبنا التفسير النفسى لأزمة الشباب الذى تبناه هيكل .. أعجبنا أكثر قصائد الجلد التى كتبها نزار قبانى .. وأحمد فؤاد نجم.

وقال هيكل لجماعة من الشباب وجدت طريقها إليه فى مبنى الأهرام .. إن الشباب على حق فى أسلوب تعامل أبعد إدراكا وعمقا .. وهو بحاجة إلى حقائق أوضح فى أيديهم .. بأكثر من حاجتهم إلى شعارات أعلى .. لها فى آذانهم مثل فرقعة السياط .. وقد قال هيكل ذلك لكى يمهد به إلى نتيجتين .. «النتيجة الأولى: إننى برغم أى شىء لست متحمسا لأسلوب التعبير بالمظاهرات خارج الجامعة .. والنتيجة الثانية: إننى برغم أى شىء لست متحمساً لإعادة المحاكمة بالنسبة للقادة السابقين للسلاح الجوى» .. ثم راح يشرح أسباب اقتناعه بهاتين النتيجتين.

لم يكن متحمسا لأسلوب التعبير بالمظاهرات خارج الجامعات لأكثر من سبب: (١) أنه فى حرم الجامعة يمكن للطلبة أن يناقشوا كل شىء وأن يبدوا أي رأى .. ولكن الخروج إلى الشارع فلا يعطيهم «الحصانة المطلوبة» .. لأننا فيه لا نكون فى رحاب الجامعة .. ولأننا فيه لن نكون وحدنا .. ولا نضمن أن تسير الأمور على النحو الذى نريده ونرضاه» .. (٢) إن المظاهرات قد تعطى انطباعا خاطئا عن سلامة الجبهة الداخلية .. (٣) إن الشهور السابقة منذ معارك يونيو وإلى اليوم شهدت إيجابيات ضخمة تحققت بما لا يدع مجالا للشك .. وكانت تحقيقها بواسطة أكثر الجهود مشقة وضنى.

ولم يكن متحمسا لإعادة المحاكمة بالنسبة للقادة السابقين للسلاح الجوى لأكثر من سبب: (١) إذا كنا جادين فى تحرير أرضنا المحتلة فيجب أن ندرك أن ذلك مرهون بقدرة قواتنا المسلحة وأى نتيجة سياسية أو عسكرية نصل إليها لحل الأزمة هى محصلة صحيحة لقدرة قواتنا المسلحة.. (٢) إن القيادة العسكرية التى سوف تتحمل مسئولية المواجهة مع القدوة يجب أن تعمل فى ظل تقاليد محفوظة ومصانة .. ولم يحدث أن حوكم قائد عسكرى لأنه دخل معركة ثم خسرها .. قصارى ما يمكن أن يلحق بأى قائد عسكرى مهزوم - إلا إذا ثبتت عليه تهمة التواطؤ والخيانة مع العدو - هو أن يعزل من الخدمة وأن يفقد سمعته العسكرية .. ليست هناك سابقة لمحاكمة قائد عسكرى خسر معركة أمام العدو حتى وإن كان هزيمة رخيصة .. وحتى إذا كان العدو قد فاجأه برغم تحذيرات واضحة لديه.

فى نوفمبر من نفس العام تجددت المظاهرات فى الجامعات .. بدأت فى المنصورة وتصاعدت فى الإسكندرية .. وكأن الأقاليم البعيدة عن القاهرة أرادت القول أنها هى أيضا من حقها الغضب .. أو أرادت القول أن الغضب ليس حكرا على القاهرة التى تستحوذ على كل شىء .. إن بركان الغضب فى صدر الجيل الجديد كان يبحث عن مبرر أو سبب مهما كان لكى ينفجر .. ويلقى بما فى صدره من حمم وشياط .. وكالعادة فى مثل هذه الظروف - التى يحول فيها الشباب الكبت إلى انفجار - بدأ الكلام السابق واللاحق عن «أزمة الشباب» .. و«مشكلة الشباب» .. وهكذا .. كتب هيكل فى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٨ عن «قضية الشباب».

ويدخل هيكل على أطراف أصابعه إلى «القضية» .. والسبب كما يقول: أنه يعرف مقدما أن الحديث عن قضية الشباب - خصوصا فى هذه الظروف - ديناميت .. «ذلك أن بعض الحق فى الموضوع قد لا يعجب الذين يرون فى شباب اليوم نفعا ولا أملا كما أن

بعضه الآخر قد لا يعجب الشباب .. بطل القضية .. ومهما يكن فإن أوضاع الأمة العربية الآن تفرض على كل من فيها التعامل مع الديناميت يوميا أينما كانت مواقعهم وإذن فما تحرجى اليوم منه أو خشيتى إزاءه؟».

ثم يقول: «وفى البداية أحدد خطين يجرى عليهما هذا الحديث كما يجرى القطار الحديدى على شريطه المتوازى – حتى تكون هناك نقطة قيام ونقطة وصول لا يحدث بينهما عطل أو خروج:

الخط الأول: إن حركة الشباب حركة عالمية وهى حركة إلى الأمام بطبيعة التطور ذاته ومن الخطأ أن نقع فى الخلط بين حركات الشباب العالمية وبين ما قد نلحظه من مظاهر الانحراف التى تنسب تجاوزا إلى حركة الشباب كما هو الحال بالنسبة لجماعة الهيبز المشهورة فى أمريكا مثلا وهى ظاهرة الشباب الشارد الطويل الشعر والذقون والأظافر يتعاطى المخدرات ويمارس الجنس بغير ضوابط تحت شعار دع الحرب وتفرغ للحب إلى غير ذلك مما يفعل ويقول .. إن حركة الشباب العالمية شىء ومثل هذه المظاهر أو الظواهر التى انفلت عيارها شىء آخر بل لعل تدقيق النظر فى هذه الظواهر برغم ما فيها من شذوذ يكشف أنه حتى هذه الظواهر إنما هى انعكاس لقلق ضل طريقه إلى المثل العليا وتخبط وسقط بينما هو يحاول أن يتحرر وينعتق من الأغلال القديمة.

والخط الثانى: إن حركة الشباب المصرى هى جزء من الحركة العالمية للشباب وامتدادا لها مع إضافة الأوضاع المحلية ومناخها العام وخصائصها إلى التأثير العالمى .. وهنا أيضا فإنه من الخطأ أن تقع فى الخلط ما بين حركة الشباب المصرى وما بين الإنزلاقة غير المفهومة لبعض تلاميذ المنصورة أو التشنج العصبى الذى رأت الإسكندرية يوم الاثنين الماضى لمحة منه .. إن سوء التعبير مرة أو مرتين لا ينبغى له أن يؤثر على حق التعبير أساساً كما أن جموح قلة ليس له أن يغطى على موقف الكثرة الغالبة التى تتمثل فيها حركة الشباب.

«وأنا أعلم أن بيننا من تغضبه – وأحيانا تفزعه – اللغة التى يتكلم بها شباب اليوم وأقول بغير تحفظ: إننى أختلف مع الذين يتركون أنفسهم للغضب أو للفزع .. ذلك أننا يجب أن نسلم بأن الجيل المعاصر من الشباب يعبر عن نفسه بلغة تختلف كثيرا عما ألفناه وذلك لظروف موضوعية كثيرة .. وإذا أردنا أن نحتفظ بقدرتنا على الحوار مع هذا الجيل – وتلك ضرورة حيوية – فإنه يجب علينا أن نحذر التحدث إليه – أو عنه – بأسلوب التعالى الأبوى من منطق أننا نعرف أكثر مما يعرف فذلك ليس صحيحا تماما .. والتمسك

به سوف يؤدى حتما إلى انقطاع الحوار بين الأجيال وسوف يقود أكيدا إلى التصادم بينها».

وفى الأسبوع التالى واصل هيكل مناقشته لقضية الشباب فى تلك الأيام .. أيام ما بعد الهزيمة .. ولكن ما بين المقالين كان هناك سبعة أيام من الاختلاف معه فيما قاله .. وقد كنت واحد من أولئك الذين اختلفوا معه .. وكنت أنا وجيلى الذى كان لا يزال يدرس فى الجامعة نعتقد أنه ليست هناك صلة بين قضية الشباب العالمى وبين المظاهرات التى اشعلناها فى الجامعة .. وكنا نعتقد أن ما أورده هيكل عن ذلك «ليس إلا نوعا من التبرير أو على الأقل محاولة التبرير» .. وقد رد هيكل على هذا الاتهام فى مقاله المنشور فى ٦ ديسمبر ١٩٦٨ بعنوان «الشباب بين النيران والثلوج» .. وقال: إن التبرير أو محاولته لم يكن قصده .. ولا كان موضوعه .. «لكننى مقتنع بوجود تأثيرات مشتركة بين قضية الشباب فى العالم وقضية الشباب فى بلادنا» .. «إن لدى سؤال بسيط أوجهه إلى الذين يرون انقطاع الصلة بين القضيتين هو: هل شبابنا يعيش فى عالمه وفى عصره أو هو فى عزلة عنهما؟ .. إذا كان يعيش فى عالمه وفى عصره فهو متأثر بما يتأثر به غيره .. وهذا طبيعى وإذا كان لا يتأثر فهو إذن فى عزلة عن عالمه وعصره .. وهذا غير طبيعى .. ولو صح لكانت تلك المشكلة أخطر».

وفى الحقيقة فإن جيلنا فى ذلك الوقت لم يكن يعيش عالمه وعصره .. أو بالدقة .. لم تكن القيود والحواجز الإعلامية والأمنية لتسمح له أن يعيش عصره وعالمه .. أو يتصل عن بعد بهما .. ولو أن ذلك كان قد حدث فإن صدمات ومفاجآت الهزيمة كانت أقوى وأخطر واشد من أى تأثير خارجى .. لقد قيل أن جيلنا «كان على موعد مع القدر» «فإذا به على موعد مع «الكارثة».. قيل له أنه سيبنى فإذا به يقاتل.. قيل له أننا نتمتع بأكبر قوة ضاربة فإذا بنا نفاجأ بأنها أكبر قوة مضروبة .. إن انهيار الأحلام والرموز المفاجىء والمباغت كان السبب الأول والأخير فيما جرى فى الجامعات المصرية من غضب فى ربيع وخريف ١٩٦٨.

وقد كان تقديرنا أن هيكل يحاول أن يشغلنا فيما كتب عن أسباب الغضب الكامنة فى النفوس .. ولم يعجبنا أن يستعمل هيكل تعبير «الشغب» وهو يتكلم عن المظاهرات .. وقبل ذلك كله كنا نؤمن بأنه كان شريكا فيما حدث .. وقد حاول هيكل فى مقاله الثانى أن يعيد التوازن إلى ما قال من قبل .. فكان أن دخل مباشرة فيما يعانيه الشباب المصرى من تناقضات حادة على وجه التخصيص .. وراح يشير إلى بعضها:

(١) التناقض بين المثل الأعلى فى خيال الشباب وبين بعض أسباب القصور مما تكشفت خباياه بعد النكسة.

(٢) التناقض بين الحماسة الزائدة وقت المعركة وبين النكسة الزائدة بعدها.

(٣) التناقض بين أسلوب التعبئة قبل المعركة وأسلوب تفريغ هذه التعبئة بعد المعركة نفسها.

(٤) التناقض بين استمرار الحرب وعدم استمرار القتال .

«ثم تضاف لهذه المتناقضات الكبرى أسباب أخرى: (أ) أن شبابنا لم تتح له الفرصة لكى يرى المنجزات الحقيقة لثورة بلاده.. لم ير السدود ولم ير المصانع ولم ير الأرض الجديدة .. لقد سمع عن ذلك كله وحتى سماعه عنها لم يكن بالأسلوب السليم .. وبدلا من أن نجعله يرى بعينه ما استطاعت الثورة تحقيقة للمستقبل وهو أكثر من الكثير فلقد رحنا نقرع – وأكاد أقول نجلد – سمعه بمنجزات تحققت فى أوانها ومضت .. كأنما نحن نطلب منه أن يكون غده رهينة لأمس جيل سبقه .. وحين طغت موجة الشك بعد النكسة فإن حواجز الموج لم تكن بما فيه الكفاية صلابة وعلوا .. (ب) إن التنظيم السياسى فى الماضى لم يستطع أن يسلم الشباب المفاتيح الفكرية التى تمكنه من النفاذ إلى صميم المسائل .. ولقد ركزت منظمة الشباب مثلا جهدها على تعليم الشباب كيف يصرخ بالهتافات لكنها لم تعلمه أن التفكير يستطيع الاستغناء عن الهتافات .. أن الحماسة تستطيع أن تعبر عن نفسها بغير الصراخ .. وكان الخطأ الأكبر للتنظيم السياسى أنه حاول أن يجعل من الشباب «أداة سياسية» ولم يحاول أن يجعل منه «قوة سياسية» والفارق شاسع بين الاثنين .. وقد استيقظ الشباب يوما فإذا الهتاف متجمد على الحناجر وإذا الحماسة شلل .. وكان رد الفعل وحشة ضائعة .. (ت) وبعد مظاهرات فبراير الماضى – وقد كانت محاولة من الشباب لاستعادة ثقته بنفسه وتأكيدها – فإن أسلوب التعامل معه انتقل من النقيض إلى النقيض .. ولقد شرح عدد من أساتذة الجامعات الذين تحدثوا أمام المؤتمر نماذج محزنة من أسلوب التعامل الجديد .. بدا وكأن النظام لا يقود الشباب وإنما يداريه .. وبدا كأنه لا يوجه الشباب وإنما يسترضيه .. وحدثت تجاوزات لم يكن هناك سبب لها مع أن القبول بها كان يهدد الشباب نفسه قبل غيره بان تتحول الثقة بالنفس إلى نوع من الغرور تتسنى معه حقائق الأشياء وحقائق الأمور».

ورغم أن هيكل أنهى مقاله بأن مشكلة الشباب ليست من اختصاص السلطة وإنما من صميم عمل السياسة فإن ما جرى بعد مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ هو أن مشكلة الشباب أصبحت من صميم عمل أجهزة الأمن .. فقد خرجت منظمة الشباب - ميدان المَمارسة السياسية الوحيد للشباب رغم كل ما قيل عنها - من الجامعات .. وتُرك الشباب لأنشطة الاتحادات الطلابية .. وهى أنشطة تركز جهدها على الرياضة والرحلات واستضافة نجوم الفن والكتابة .. ثم كان أن سيطرت التقارير السرية على انتخابات هذه الاتحادات .. وهكذا .. لم يبق من دعوة هيكل سوى كلمات أضيفت للقاموس السياسى الرسمى فى مصر .. كلمات مثل «قلة» .. و«شغب» .. و«مثيرى الفتنة».

٣٣

الحرية والتغيير والمجتمع غير المفتوح !

■ قبل أن تفرض الأحداث على هيكل مناقشة قضية الشباب كان ينوى فتح مناقشة واسعة عن موضوعين فرضا نفسيهما على المجتمع والدولة فى مصر بعد الهزيمة المروعة .. كان الموضوع الأول: التغيير .. وكان الموضوع الثانى: الصحافة.

وقد كان هيكل وراء صك كلمة «التغيير» وطرحها للتداول فى تلك الأيام .. فقد كتب سلسلة من المقالات بدأ نشرها فى يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٧ بعنوان «تفويض للتغيير» .. وكان ذلك هو «التفسير الذى وجده ولم يجد غيره فيما حدث فى يوم ٩و ١٠ يونيو» .. وقد كان رأيه: إنه لا معنى لما حدث فى هذين اليومين سوى أنه «تفويض جديد لجمال عبد الناصر «لكنه «لم يكن تفويضا على بياض» .. وإنما «كان تفويضا للتغيير أعطته الجماهير من منطق رفض الهزيمة ومن منطق الإصرار على المقاومة».

وقد بدأ التغيير بالتخلص من مجموعة المشير عبد الحكيم عامر فى القيادة العامة للقوات المسلحة والمتحالفة مع مجموعة صلاح نصر فى المخابرات العامة .. وهما معا تشكلان ما وصفهما هيكل بمجموعة السلطة .. وقد تصورت هذه المجموعة أنهم «أصحاب حق شرعى فى أن يرثوا السلطة ويرثوا الثورة» .. وتصورت «أنهم فوق القانون» .. وتصورت أن السلطة يجب أن تعود عليهم بالمنافع والمكاسب.

وأغلب الظن أن جمال عبد الناصر فكر قبل الهزيمة بوقت كاف فى التخلص من هذه المجموعة .. وهو ما كشفه هيكل بالتفاصيل الدقيقة فيما بعد فى كتابه «الانفجار» عندما قال أن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ونصف بوهيمى .. لطيف جدا .. عسكرى لا

يصلح لقيادة جيش .. تكفيه كتيبه .. ولم يقرأ .. أو يتابع الجديد فى فنون الحرب .. ولم يكن لديه الوقت ليكون قائدا للجيش .. «لقد توقفت معلوماته العسكرية عند رتبة صاغ (رائد) .. ولم تزد واحدة حتى مات».

«وقد راح عبد الحكيم عامر يدلل الضباط حتى أفسدهم .. فتحول رجال مكتبه إلى تجار ومهربين .. ففى مارس عام ١٩٦٦ كانو يجيئون ببضائع وثلاجات وأجهزة تكييف وتلفزيونات من عدن عن طريق اليمن ويبيعونها فى السوق السوداء فى القاهرة».

وبعد سنة تقريبا على هذه الفضيحة انفجرت قنبلة الزواج السرى للمشير من نفيسة عبد الحميد حواس الشهيرة ببرلنتى عبد الحميد .. وقد دبر اللقاء الأول بينهما صلاح نصر .. ويقال أن التعارف بينهما جرى على ضوء ولاعة أشعل لها بها سيجارة .. كان هذا اللقاء فى أواخر عام ١٩٦٠ .. وقد تطورت العلاقة إلى زواج عرفى وقع عليه حسن ومصطفى شقيقا المشير فى أوائل عام ١٩٦٥ .. وفى ٢٠ فبراير ١٩٦٧ – حسب ما يقول هيكل – قرأ جمال عبد الناصر تقريرا كان بمثابة صدمة .. كان التقرير عن زواج عامر وبرلنتى .. وأنهما ينتظران مولودا نتيجة لهذا الزواج .. ورأى جمال عبد الناصر أن ينتظر أياما قبل أن يفاتح عامر فى الموضوع حتى لا تملكه انفعالات الغضب وتصعب المناقشة الجادة فى تصرف يصعب السكوت عليه».

كان شعور جمال عبد الناصر لأول وهلة أن عامر يجب أن يبتعد عن منصبه .. ومادام قد اختار أن يغلب ضعفه الإنسانى على شعوره بالواجب فإن الأمور تقتضى حسماً .. وقام جمال عبد الناصر باستدعائه لمقابلته فى يوم أول مارس ١٩٦٧ وكانت مشاعره مختلفة بين الأسى والغضب ..

«وحين وصل عامر إلى مكتب جمال عبد الناصر فى بيته فى منشية البكرى فإنه أحس على الفور بأن شيئا غير عادى فى الجو وبدا من بعض تصرفاته أن لديه فكرة عن الموضوع الذى استدعى من أجله .. كان أسلوب عامر المعتاد عندما يوجه إليه أى تساءل عن تصرف من تصرفاته أن يبدأ بإثارة زوابع صغيرة ويتخذ مظهر الغاضب المجروح المعتدى عليه .. وهكذا عندما سأله جمال عبد الناصر فى موضع زواجه السرى بدا متألما غاضبا وقال: إنه سئم من هذه الحملات الموجهة ضده والتى تثور من وقت إلى آخر وأنه لم يعد يطلب غير أن يبتعد ويستريح وأنه يفضل أن يعود إلى قريته «أسطال» بالمنيا ويعيش هناك فلاحا عاديا يزرع ويقلع ولا يكون نائبا لرئيس الجمهورية أو نائبا للقائد الأعلى للقوات المسلحة .. وانتظره جمال عبد الناصر حتى أفرغ ما لديه ثم كان تعليقه أن كل ما سمعه منه خارج الموضوع .. وأن سؤاله كان سؤالا محددا .. وليست هناك جدوى من

تجنب الرد عليه مباشرة .. وهكذا .. هبط عامر فورا من الغضب إلى التظاهر به دفاعا عن النفس .. واعترف بعلاقته مع برلنتى عبد الحميد .. ولم يجد ما يبرر به تصرفاته سوى أنه وجد أخيرا الإنسانة التى تستطيع أن تفهمه .. كانت الدموع تلوح فى عينيه وهو يحاول أن يكتمها .. ثم لم يتمالك نفسه وراحت دموعه تجرى على خديه .. وسأله جمال عبد الناصر عن الظروف التى تعرف فيها عليها.. وكان رده أنه تعرف بها عن طريق صلاح نصر».

وفى وسط شواغل وهموم جمال عبد الناصر فى ظروف ما بعد الهزيمة جاء إلى بيته على غير موعد صلاح نصر .. وعلى حد شهادة هيكل نقلا عن جمال عبد الناصر فإن صلاح نصر أبدى دهشته من أن الرئيس لم يطلب استدعاءه لكى يسمع ما لديه من معلومات المخابرات العامة خلال الظروف الأخيرة .. وكان رد جمال عبد الناصر عليه مباشرة هو قوله: «إنه كان مشغولا بالبحث عن حلول لمأزق صعب يواجهه البلد وهو ليس متأكد من أن صلاح نصر هو جزء من الحل أو هو جزء من المصيبة .. وظهرت تعبيرات القلق على وجه صلاح نصر وراح يقسم أنه حاول بكل جهده أن يساعد على حل مشاكل كثيرة بدون أن يزعج الرئيس بها .. وسأله جمال عبد الناصر عن هذه المشاكل التى حلها .. وكان رده «أنه طوال الوقت يخشى من انفلات عبد الحكيم عامر إلى تصرفات لا تحمد عواقبها» .. ولم يسكت جمال عبد الناصر وإنما راح يقول له: إنه شخصيا أحد المسئولين عما جرى لعبد الحكيم عامر .. ولعله يلاحظ أنه (جمال عبد الناصر) لم يقابله منذ شهور وكان ينوى عزله من منصبه لولا الظروف الخارجية التى طرأت فجأة .. ثم قال له: «إن عبد الحكيم عامر كان قطة مغمضة حتى تولى هو (صلاح نصر) فتح عينيه على ما لم يكن يجوز له أن يتورط فيه» .. وراح صلاح نصر يقسم بأغلظ الإيمان أنه لم يكن له ذنب فيما تورط فيه عبد الحكيم عامر .. وأنه يعترف بحقيقة أنه هو الذى قدم له برلنتى عبد الحميد ولكنه لم يكن يتصور أن تصل الأمور إلى الحد الذى بلغته .. وسأله جمال عبد الناصر عن السبب الذى دعاه – وهو مدير المخابرات العامة فضلا عن علاقته المباشرة به – إلى إخفاء ما جرى عنه فى وقته .. وقال صلاح نصر «أنه تصور أن المشير سوف يفوق بعد وقت قصير ثم ينتهى الأمر وينسى الموضوع كله .. ولكن ما توقعه لم يحدث وغاص المشير فى ورطته إلى شوشته».

ويواصل هيكل روايته قائلا: «وربما كان أهم ما قاله صلاح نصر فى هذا الصدد أن عامر كان تحت ضغط عنيف فى الظروف التى بدأت فيها الأزمة .. ذلك أن برلنتى عبد الحميد التى أنجبت منه مولودا راحت تطالبه بأن يعلن زواجه منها لكى تجعل «وضعها

الاجتماعى محتملا» .. ويظهر أنها صارحته (ومن وجهة نظرها فقد كان يمكن فهم إلحاحها) بأنها على استعداد لأن تذهب لأسرته وتشرح موقفها وتطلب قبولها فى الأسرة بحق الشريعة التى لا تحول بينها وبين هذا الطلب».

وما لم يقله هيكل وقاله شاهد عيان كان فى موقع رسمى هو رئيس النيابة عماد الدكرورى أن برلنتى عبد الحميد تقدمت بطلب لإثبات بنوة ابنها لأبيه عبد الحكيم عامر .. وكما قال لى شاهد العيان – وكنا فى إجازة ليوم فى فايد – أن جمال عبد الناصر من جانبه لم يكن معترضا .. وبقى أن يتولى أشقاء المشير إقناع زوجته الأولى بشرعية الطلب والنسب .. إن عماد الدكرورى كان هو المحقق فى قضية وفاة المشير .. وقد حسم الرجل – الذى يحمل إنتقادات حادة لسنوات حكم جمال عبد الناصر – فى شهادته لى الجدل الذى لم يتوقف حول هل أنتحر المشير أم قتل .. وكان رأيه أنه قد أنتحر .. ولديه أكثر من دليل على ذلك .. وهذه قصة أخرى.

* * * *

لم يدخل هيكل فى تفاصيل هذه الوقائع وهو يتحدث عن التغيير .. كما إنه لم يقصد أن يكون التغيير مجرد إزاحة «مجموعة السلطة» المنحرفة فى الجيش والمخابرات لتأتى مجموعة أخرى لتحل محلها .. وربما كررت انحرافاتها .. فطبيعة السلطة هى التى تخرج ما فى الإنسان الفساد .. أو هى التى تجريه على الخط المستقيم .. وعلى ذلك تساءل هيكل: من أين يبدأ التغيير؟ .. وكانت إجابته: (١) أن تتسع عناصر السلطة وأن تصبح هذه العناصر تعبيرا حقيقيا عن قوى الشعب العاملة وأن تذوب قوة المجموعات القديمة أو ما تبقى منها فى إطار ديمقراطى وأن تنتهى الحقوق التاريخية المكتسبة لأى فرد لأنه أسهم فى يوم من الأيام فى عملية (سياسة أو ثورية) مهما كانت قيمتها.. (٢) أن يتقدم لإدارة منجزات الشعب أقدر وأكفأ من تستطيع الطاقة الشعبية – وهى وحدها صانعة المعجزات – تقديمهم .. (٣) أن يصل الجيل الجديد إلى مواقع المسئولية فكر مفتوح ومناقشة .. وأغلب الظن .. أن هذه «الروشتة» للعلاج ظللت بعيدة عن تحويلها إلى دواء يمكن به الشفاء .. سواء فى تلك الأيام .. أم فى هذه الأيام.

ثم يتساءل هيكل : «هل تحقق التغيير؟» .. وقد وضع السؤال عنوانا لمقال نشره فى ١١ أكتوبر ١٩٦٨ .. وقد أجاب: «إن التغيير الذى كنا نتحدث عنه ونرجوه وقع ولم يقع» .. وقع فى القوات المسلحة .. وفى بعض مواقع الإنتاج .. «وفى هذه النواحى نستطيع أن نقرر باطمئنان أنه وقع تغيير .. لكننا لا نستطيع أن نقرر ذلك بنفس الأطمئنان فى نواحى

أخرى .. «فى روح العمل السياسى مثلا لم يقع تغيير كاف ونفس الشىء بالنسبة «للضمانات المطلوبة للممارسة الديمقراطية» وبالنسبة «للقواعد الصلبة التى لا يمكن بغيرها أن تقوم الدولة العصرية» .. فيما يتعلق بما هو مادى وقع الكثير مما كنا نرجوه من التغيير .. وفيما يتعلق بما هو معنوى لم يقع الكثير مما كنا نرجوه من التغيير.. لماذا؟ ..لماذا لم يقع التغيير شاملا وعميقا برغم تفويض به وبرغم دعوة إليه وبرغم تقنينه شريعة سياسية تحكم فوق أى حكم؟.

إن السبب فى رأى هيكل لا يرجع إلى طبيعة الأشياء وإنما يرجع إلى طبيعة الظروف .. فقوى «التصحيح» أثبتت أنها أكبر من أى أخطاء وقعت وتراكمت ضمن العوامل التى أدت إلى الهزيمة .. إن وجود «قوى التصحيح» وفاعليتها حقيقة لا شك فيها ويكفى لاثبات ذلك أن تستعرض عملية النقد الذاتى التى فرضها المجتمع المصرى على نفسه بعد الهزيمة «وهى عملية يندر أن يكون لها مثيل فى أى مجتمع عانى تجربة من هذا النوع» .. ولم تكن «عملية النقد الذاتى يأساً بقدر ما كانت أملاً .. ويكفى أن منطقها الأساسى لم يكن «الاستسلام» وإنما كان «الصمود» .. ولم يكن «السكون» وإنما كان التحرك بسرعة نحو البناء» .. وذلك يقطع على «أن السبب الذى من اجله لم يحدث التغيير شاملا عميقا لا يرجع إلى طبيعة الأشياء» .. وإنما يرجع إلى طبيعة الظروف .. ظروف المعركة .. وظروف القوى الدولية .. وظروف التكنولوجيا التى تحتكرها الدول الكبرى .. وظروف الدول النامية فى ظل سطوة الدول الغنية.

والحقيقة أن الدعوة إلى التغيير و«التصحيح» ظلت نوعا من الطموح البعيد فى السماء لم تجد من يهبط به على الأرض إلا بعد أن تغيير النظام فى مصر .. بعد أن رحل جمال عبد الناصر .. وجاء أنور السادات .. لقد أراد النظام الجديد أن يقدم عربونا سياسيا يبدأ به مشواره .. فكان التغيير والتصحيح وبداية تصور «المجتمع المفتوح» .. ومع أن نظام السادات أنتهى إلى نفس المأزق .. ووصل إلى مرحلة المطالبة بخطوة جديدة فى التغيير والتصحيح فإن البدايات كانت تحمل الكثير من التفاؤل.

لقد كان «بيان ٣٠ مارس» – الذى قدمه جمال عبد الناصر إلى المثقفين لتجاوز الهزيمة نفسيا وسياسيا واجتماعيا بعد مظاهرات الطلبة – يتضمن إشارة إلى «المجتمع المفتوح» .. وقد التقط هيكل الإشارة ووضع عبارة «المجتمع المفتوح» عنوانا لمقاله المنشور فى ١٨ أكتوبر١٩٦٨ ليواصل حرث وتقليب التربة المصرية التى نمت فيها الأعشاب الضارة وتسربت إليها العفونة .. إن عبارة «المجتمع المفتوح» كانت فى رأى هيكل عبارة «تلخص

كل شىء» .. أو أنه «لا يمكن أن تكون هناك عبارة أقرب إلى الحقيقة ولا أصدق فى التعبير عنها من هذه العبارة» .. ثم يبدأ هيكل بعد ذلك فى الشرح والتفسير قائلاً:

«ليس هناك شك أنه فى وقت مضى فإن بعض القوى أرادت وبعض الظروف ساعدت على محاولة جعل مصر مجتمعا مغلقا .. ولكن الأمانة تقتضى أن نسجل أن هذه المحاولة لم تنجح وإن كانت قد سببت من أعراض التمزق النفسى ما كنا فى غنى عنه» .. فقد أدى المجتمع المغلق إلى أن بعض «أجهزة السلطة ظنت نفسها فوق الرأى العام .. توهمت أنه لا يراها .. وإذا رآها فإنه لا يستطيع حسابها» .. وأدى المجتمع المغلق إلى حركة طبائع الأشياء .. أدت إلى تناقضات حادة .. مؤلمة ومعوقة .. إن الفشل سيظل حليف كل دعاة المجتمع المغلق فى مصر .. لماذا؟..

«لأن مصر هى فجر ما يمكن أن نسميه بالحضارة العالمية المتصلة والتى انتقلت من العصر الفرعونى إلى العصر الإغريقى إلى العصر الرومانى إلى العصر العربى إلى عصر النهضة إلى ما وصف تجاوزا بعصر الحضارة الغربية والذى تحول الآن تياراً عالمياً غلاب وبالتالى فإنها لا تستطيع أن تنعزل والعزلة ضمن أوصاف المجتمع المغلق .. ومصر بدورها الحضارى المتصل كانت دائما – بحكم وجودها على مفارق وطرق القارات – نقطة تجمع ونقطة تفرع .. وحتى بالوضع الجغرافى فإن مصر بشاطئها الشمالى على البحر الأبيض (المتوسط) وشاطئها الشرقى على البحر الأحمر – تقبع فى مكان بارز وسط العالم .. ولو تصورنا – فى تشبيه لمجرد التبسيط – أن العالم الحديث الذى اقترب من بعضه اقترابا لم يسبق له مثيل يشبه قلب مدينة كبيرة حافلة بالحركة .. اذن فإن مصر – وفق التشبيه – موقع يقوم على ناصية طريقين من أكثر الطرق ازدحاما وعمرانا .. والواجهتان اللتان تبرز عليهما الناصية المصرية هما فى الواقع من زجاج مهما كانت سرعته أن يلمح بعض ما يجرى وراء الواجهات الزجاجية .. ويتصل بذلك مباشرة أن مصر جزء عضوى من وطن عربى .. وهى من أهم أجزاء هذا الوطن إذا لم تكن – بغير ادعاءات إقليمية – أهم أجزاء هذا الوطن إطلاقا .. ومصر تأخذ من انتمائها إلى هذا الوطن العربى قوة بقدر ما تعطيه .. ثم إن هذا الوطن العربى الواحد مقسم إلى دول عربية متعددة .. وسلطة الدولة فى مصر محصورة فى رقعة الوطن المصرى لا تمتد ولايتها إلا بالاتصال المفتوح وإلا بالاقتناع الحر حيث لا قسر ولا إجبار .. وإذا تحولت مصر إلى مجمع مغلق أى مجتمع منعزل فهى بذلك تقطع شريانا من أهم شرايين حياتها أو هى فى أقل القليل تقطع مصدرا كبيراً من أهم مصادر قوتها وتأثيرها .. هكذا فإنه من ناحيتين: ناحية علمية وناحية عربية لا يمكن لمصر أن تنعزل أى لا يمكن أن تتحول إلى

مجتمع مغلق .. تضاف إلى ذلك ناحية ثالثة وهى تأثير هذا الارتباط العالمى والعربى علي الشعب المصرى ذاته مما يجعله يرفض رفضا قاطعا أن يحاصر فى العزلة أو يرضى بالتحول إلى مجتمع مغلق».

كانت دعوة «المجتمع المفتوح» جزء من دعوة أكبر - فرضتها الهزيمة - للنظر فى العمق الإنسانى المصرى .. فجاء أحمد بهاء الدين بنظرية الصراع الحضارى مع العدو الصهيونى .. وبدأ الدكتور لويس عوض يعيد إحياء رموز التنوير فى مصر وعلى رأسهم شيخهم .. رفاعة الطهطاوى .. ويعيد رواية تاريخ الفكر الحديث منذ الحملة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية .. وبدأ نجم الدكتور جمال حمدان فى البريق بعد أن راح يرسم ملامح «شخصية مصر» .. لقد تسابق الجميع على إزالة طبقات الغبار التى تراكمت على مصر فى ظل إختناقات المجتمع المغلق وطيور الظلام التى راحت تدفعه إلى كارثة الهزيمة.

ولست وحدى الذى يؤمن بأن الطريق إلى حرب أكتوبر - ١٩٧٣ لم يكن طريقا عسكريا فقط بل كان طريقاً حضاريا أيضاً .. ولذلك لم أندهش عندما وجدت هيكل فى مقدمة كتابه: «أكتوبر٧٣ - السلاح والسياسة» يقول أنه خطر له أن يهدى الكتاب إلى جمال حمدان .. ذلك العالم المصرى الفذ الذى أعطى المكتبة العربية أثره المتميز: «شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان» .. وقد استطرد هيكل: «وفى تاريخ مصر مع بداية العصر الحديث كتابان لهما مذاق خاص وبينهما تقابل من نوع ما .. الكتاب الأول هو: «تخليص الإبريز فى وصف باريز» الذى كتبه شيخ التنوير الجليل رفاعة رافع الطهطاوى فى أخريات القرن التاسع عشر .. والكتاب الثانى هو: «شخصية مصر» الذى كتبه العالم الراهب المعتزل جمال حمدان فى بدايات النصف الثانى من القرن العشرين».

كان جمال حمدان قد قرر العزلة بعيدا عن الناس .. لا يقابل أحدا .. ولا يحاور أحدا .. وكانت كل صلته بالعالم والناس رسائل من تحت الباب تصل إليه .. وردود عليها يصل مرسليها عن طريق ناشر كتبه يوسف عبد الرحمن .. وهكذا وصلتنى كتبه عليها إهداء منه عليها .. وقد حاولت كما حاول هيكل وحاول غيرنا أن نخرجه من دير العزلة والعودة إلى دنيا الناس .. ولكنه لم يقتنع مصرا على أنه «أعتزل وحركة التيار إلى أمام فكيف يعود والحركة معاكسة سواء إلى وراء أو إلى أسفل؟» .. وقد انتهى الدكتور جمال حمدان نهاية مأساوية .. انفجر فى بيته المتواضع المغطى بأطنان الكتب والصحف والأبحاث أنبوبة بوتاجاز.. وأتت النيران عليه .. وعلى ما كان يقرأ ويكتب .. وهكذا .. انتهت «حياة ذلك

العالم الراهب المعتزل والمهموم بشخصية مصر وعبقرية مكانها .. الموقع والموضع» .. وربما من هنا خطر لهيكل أن يهدى إليه كتاب عن حرب أكتوبر .. الذى بدأ برفض الهزيمة الحضارية .. ثم تجاوز الهزيمة العسكرية.

****

ولم يبق من القضايا التى فجرتها الهزيمة – وفجرها هيكل – سوى قضية الصحافة .. بعد مراكز القوي .. والتغيير .. والمجتمع المفتوح .. والديمقراطية .. جاء الدور على الصحافة .. لقد تعرضت الصحافة فى تلك الأيام السوداء لكثير من النقد الجارح وصل إلى الشك فيها .. حسب العنوان الذى اختاره هيكل لمقاله بصراحة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٨ وكان: «الشك فى الصحافة المصرية» .. إن هيكل الذى هاجم بضراوة صحافة ما قبل الثورة .. وصحافة ما بعدها مباشرة وجد صحافة ما بعد التأميم – التى كان هو ألمع من فيها – فى حالة طعن دائم فى مصداقيتها .. بل أن هناك من أشار بأصباع الاتهام إلى الصحافة وأعتبرها المسئولة عن ما جرى فى يونيو ١٩٦٧ .. فهى التى حجبت الحقيقة عن الناس وساهمت فى تضليلهم حتى كان ما كان.

وتستحق مقاله هيكل عن الصحافة أن تقرأ كاملة .. فهى تشرح وتفسر .. تراجع وتحلل .. وتبدأ من عندها مشكلة الصحافة المصرية بعد التأميم التى راحت تتراكم وتزمن وتتعقد إلى أن وصلت إلى ما هى عليه الآن.

يكتب هيكل :

«تواجه الصحافة المصرية الآن أزمة نستطيع وصفها بأنها «أزمة شك» وهى أزمة لا يمكن إخفاؤها إلا بتفكير النعام الذى يدفن رأسه فى الرمل متصورا أن الصياد لم يعد يراه لمجرد أنه – هو – لم يعد يرى الصياد .. ولو أردنا تحليل عناصر هذه الأزمة فلقد يكون خير أسلوب لذلك أن نعرض لمواقف عدد من الأطراف تعنيهم مسألة الصحافة المصرية ولهم فيها ما يرون من وجهات نظر مختلفة هى نفسها من خيوط أزمة الشك..

أولاً – الرأى العام والصحافة:

(١) من زمن سابق بكثير على يوم الهزيمة فى ٥ يونيو فإن قطاعات من الرأى العام المصرى كانت تنظر إلى صحافتها بالكثير من الضيق والتململ .. كانت الصحف فى رأيها تخرج كل يوم وكأنها مصبوبة على قالب واحد ليس فيه ما يكفى من التجديد

والتنوع .. وكانت فوق ذلك تخرج إليه مصابه بداء تتناقض أعراضه بين الهزل والورم .. مجاعة فى قلة الحقائق وانتفاخ من كثرة الدعايات .. وكان من الصعب على الصحافة أن تشرح لهذه القطاعات من الرأى العام المهتمة بأمرها تفاصيل ظروف تتعرض لها: بينها أن القيود على النقد المتاح لاستيراد الورق حددت عدد صفحاتها وأن قيود الانتقال حددت مجال حركتها وأن قيود الخوف حددت مجال انطلاقها .. ومع ذلك - للإنصاف - فإن الصحافة المصرية حاولت فى مواجهة كل هذه القيود بقدر ما استطاعت وأصابت النجاح مرات وأصابت الفشل مرات أخرى.

(٢) وحين تكشف ما تكشف بعد النكسة فلقد كان السؤال الذى وجه إلى الصحافة المصرية هو : أين كنتم؟ .. وكان من الصعب على الصحافة المصرية أن ترد وتقول: إن الإيجابى فى التجربة المصرية وهو كثير كان يغطى على السلبى فيها .. ثم أن عوامل الإخفاء كانت تمارس دورها إزاء الصحافة كما مارسته إزاء قوى كثيرة غيرها .. ومع ذلك فلقد كانت تقنع بالتلميح دون التصريح .. وبالاختصار فإنه لم يكن فى مقدورنا أن نصل بعلمنا إلى خبىء ولا كان فى مقدورنا أن نضع كل ما يصل إلى علمنا على طرف أقلامنا..

(٣) وعندما حلت النكسة فإن قطاعات كبيرة من الرأى العام كانت ترى أن الصحافة خدعتها وأنها أعطتها من الآمال فوق ما كان من الاحتمال .. ومع التسليم بأن الكثير مما نشرته الصحافة فى ذلك الوقت كان نوعا من السباحة فى بحر من الألفاظ الإنشائية والحماسية - إلا أن الصحافة بالنسبة لصميم الموضوع كانت مجنيا عليها ولم تكن جانية .. وحين يقف قائد عسكرى مسئول ويقول «إن لدينا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط» فلقد كان على الصحافة أن تنقل عنه وتصدقه وأنى لها أن تعرف أن الطيران مثلا سوف يفاجأ حيث لم يكن داع للمفاجأة أو أن القيادة العامة سوف تنهار نفسيا من الداخل قبل أن يبدأ الصدام الفعلى مع العدو وقبل أن يتاح للجزأ الأكبر من قواتنا أن يشتبك معه..

(٤) قبل النكسة وبعد النكسة فإن قطاعات من الرأى العام كانت تحاسب الصحافة بمعيار فيه الكثير من العنت والإرهاق .. وكأن الصحافة تملك سبيلا إلى تنفيذ ما تنادى به أحيانا أو كأن طاقتها تتعدى حدود مسئولية الكلمة وحدها..

(٥) وقبل النكسة وبعدها فإن الصحافة عكست - وكان ذلك طبيعيا - جوانب من الصراع الإجتماعى والسياسى الدائر فى الوطن المصرى وكان بين ما عكسته الصحافة

تناحر أقصى اليمين المتهالك مع أقصى اليسار المتحجر ثم ساعدت ظروف لا أريد أن أخوض فى وقائعها على صنع انطباع سطحى بدا معه وكأن نصف الصحافة عملاء للغرب ونصفها الآخر عملاء للشرق .. ولم يكن ذلك صحيحا وإن كان من الصحيح أيضا أن هناك عناصر من اليمين تلكأت بعد زمانها كما أن هناك عناصر من اليسار حاولت أن ترث مواقعها بدون جدارة تؤهلها لذلك وبغير حق شرعى يجيزه لها.. ومن الحق أن نضيف شيئا آخر ونحن ما نزال فى صدد «الرأى العام» كطرف فى أزمة الشك التى تواجهها الصحافة المصرى الآن .. إن أزمة الشك لها جذور بعيدة ولعلها بدأت منذ راحت الصحافة المصرية تتحول من صحافة رأى إلى صحافة خبر وكان ذلك إبان الثلاثينيات .. من هذا القرن .. وكان الأهرام أول من عالج هذا التحول - فيما أظن - وساعده عليه اختياره لما سمى فى ذلك الوقت بموقف الحياد والاستقلال تجاه الصراعات السياسية المصرية حينئذ..

«قبل ذلك ومنذ بداية القرن الحالى (القرن العشرين) كانت الصحافة المصرية صحافة رأى .. بل إن التيارات الفكرية الكبرى والأحزاب المصرية الفاعلة كانت فى واقع الأمر صحفا وكانت صحف كل منها هى المظهر الفعلى لوجودها وكان هى أداتها الرئيسية للتأثير فى مجرى الأحداث .. كانت صحيفة «الجريدة» ورئيس تحريرها أحمد لطفى السيد هى نفسها تيار الديمقراطية السياسية بمفهومها الليبرالى .. وكانت صحيفة «اللواء» ورئيس تحريرها مصطفى كامل هى نفسها قوة الحزب الوطنى بكل ما كان ينادى به.. وكانت صحيفة «الجهاد» و«البلاغ» و«المصرى» و«الوفد المصرى» و«صوت الأمة» هى حرية حزب «الوفد» فى مراحل مختلفة .. وكان دور حزب الأحرار الدستوريين هو نفسه حجم توزيع جريدة «السياسة» كما كان حجم «السعديين» هو جريدة «الدستور» وكما كان حجم حزب «الكتلة» هو جريدة «الكتلة» .. كانت الصحف هى الأحزاب والأحزاب هى الصحف وكان لكل صحيفة قراؤها هم أنصار حزبها وكان لكل صحيفة مقاطعوها هم خصوم حزبها .. وكان الوفد أكبر الأحزاب المصرية وأقربها اتصالا بالجماهير فى الثلاثينات وكانت اللعنة التى يمكن أن تحل بأى صحيفة من صحفة وقتها هى أن يصدر الحزب بيانا بأنها لا تعبر عن رأيه، وواجهت صحيفة «الجهاد» على سبيل المثال هذه المحنة مرة وانهارت بعدها ولم تقم لها قائمة..

«وحين كانت الصحافة صحافة رأى لم يكن القارىء العادى لم يكن يشك .. لم يكن للشك فى ذلك الوقت مكان لأن الحدود ظاهرة والأعلام مميزة بألوانها .. ثم بدأ الشك مع صحافة الخبر .. والخبر - حتى وإذا كان صادقا - يرضى بعض الناس ولا يرضى بعضهم الآخر مع اختلاف مواقفهم .. ومن السهل أن يحدد كل إنسان موقفه إزاء رأى واضح .. ومن الصعب أن يحدد كل إنسان موقفه إزاء خبر حتى وإن كان صادقا .. ثم جاءت فنون الصحافة الحديثة وعلومها فوضعت الرأى فى ثياب الخبر وأصبحت المشكلة أعقد أمام أى قارىء .. أين حدود الرأى وأين حدود الخبر فيما يطالعه؟ .. أو بعبارة أخرى .. ما هو المقصود لتأثير معين .. وما هو المقصود لذاته هنا؟ .. وزادت المشكلة تعقيدا على تعقيد بثورة وسائل المواصلات التى جعلت أى صحيفة فى الدنيا تتلقى من الأخبار أكثر مما يتسع له حيزها عشرات المرات وهنا تنشأ ضرورة الاختيار على أساس أولويات الاهتمام العام ومجرد الاختيار حتى وإن راعى النزاهة إلى أقصى درجاتها.. رأى .. أو هو فى الواقع اعتراض لعملية التدفق الطبيعى للأخبار .. أى نوع من التدخل..

ثانيا: التنظيم السياسى والصحافة:

لقد قام فى مصر تناقض لم يكن ينبغى له أن يقوم بين بعض أجهزة التنظيم السياسى وبين بعض الصحف .. ولقد ساعد على إبراز هذا التناقض أن قانون تنظيم الصحافة نقلها من إطار الملكية الفردية إلى إطار ملكية التنظيم السياسى .. ولا يمكن أن يعارض صحفى مثل هذا الانتقال فملكية فرد له مصلحته الخاصة وله موقفه الطبقى .. ولكن التناقض مع ذلك نشأ ونشأ من تفسير «معنى الملكية» .. الصحافة تريد أيضا أن تبقى صحافة وتريد أكثر أن تحقق لنفسها أكبر قدر من الحرية على أساس الالتزام وبعض أجهزة التنظيم لا تتصور الملكية إلا فى شكلها التقليدى كما أنها تتعسف فى تفسير الالتزام وتخلط بينه وبين الإلزام .. والالتزام هو الخضوع للفكرة والمبدأ والإلزام هو الخضوع لاجتهادات المسئولين عن التنظيم والإنصياع لها بغير مناقشة تجرى على أساس الفكرة والمبدأ .. والمسافة بين الاثنين واسعة .. ومن هنا فإن بعض أجهزة التنظيم رأت فى موقف بعض الصحف عصيانا لا يغتفر وساعدت على ذلك عدة أسباب:

(١) كان أسهل الأشياء دائما بالنسة لبعض أجهزة التنظيم أن تلقى بمسئولية قصورها على الصحف إذا كان هناك ارتباك .. فلأن الصحف لم تحسن عرض الأفكار .. وإذا كان هناك عدم اقتناع .. فلأن الصحف لم تخص حيزا كافيا للشرح .. كان لابد دائما أن يوجد

«الولد» الذى يجلد حتى بغير ذنب جناه وإنما نيابة عن غيره ممن لا يمكن جلدهم كما كان يحدث لأبناء الأمراء فى العصر الأمبراطورى لليابان حين كانت مدرسة القصر الملكى تضع بجوار كل واحد من أبناء الأمراء واحدا من أبناء الشعب فإذا أخطأ ابن الأمير أو تعثر فى الإجابة على أى سؤال تعرى ظهر الجالس بجواره من أبناء الشعب وتجلده نيابة عنه .. فداءاً وتكفيراً.

(٢) وكان بعض المسئولين فى أجهزة التنظيم يقيسون التزام الصحف بمدى الحيز الذى تخصصه من صفحاتها لما يفعلون وما يقولون.

(٣) ثم كان اخطر من ذلك أن بعض أجهزة التنظيم لم تكن تعطى القدر الكافى من التفكير للظروف المتغيرة ولم تكن تأخذ المبادرة فى يدها حين كان يجب أن تأخذ المبادرة .. ثم كانت لا تريد لغيرها أن يتحرك .. وهذه المشكلة بالذات عانى منها الأهرام أكثر من غيره فى ظروف عديدة .. وليست سرا أن بعض أجهزة التنظيم السياسى حرضت يوما على إحراق نسخ من الأهرام تعبيرا عن السخط عليه كما أن منشورات صدرت تدعو إلى مقاطعته وتعتبره خارجا مارقا .. وزادت المسألة بعد النكسة حين أجرى الأهرام لنفسه تحليلا للموقف العام كله خرج منه باجتهادات تقبل الصواب أو الخطأ لكنه طرحها للمناقشة المفتوحة .. بينها مثلا أنه أعتبر أن مرحلة ما بعد النكسة تقتضى لمواجهتها عملا عربيا مشتركا فى حين أن بعض أجهزة التنظيم كانت ترى باستمرار الصراع الداخلى فى العالم العربى كما كان قبل المعركة تحت دعوى أنه لا ينبغى تمييع قضية الثورة .. وبينها مثلا أن الأهرام أعتبر أن هناك صداما لا يمكن تجنبه بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية ولكن هذا الصدام لا ينبغى أن يعبر عن نفسه بأسلوب التنطح رأسا برأس لأن تلك مخاطرة غير مأمونة وينبغى أن يحل محلها أسلوب آخر فى الصدام يجعلنا كمصارع الثيران فى وجه الثور الهائج لا يواجهه مباشرة ولكن ينهك قواه ويرشقه بالسهام حتى يستنزف ضراوته .. ولكن بعض أجهزة التنظيم وجدت ذلك استسلاما للولايات المتحدة الأمريكية ودعوة للتردد والانهزام تجاهها .. وفى حين أن الأهرام كشف سياسة الولايات المتحدة بالوثائق فإن هذه الأجهزة من أجهزة التنظيم لم يكن لديها فى كشف السياسة الأمريكية غير ألفاظ مستهلكة وتعبيرات كقطع العملة القديمة التى أنهكها التداول فانمحت نقوشها..

وبينها مثلا أن الأهرام أعتبر أن هناك وقتا سوف ينقضى فى إعادة البناء العسكرى وأن هذا الوقت لا ينبغى أن يضيع على الجبهة الداخلية فلا تجد فيه ما تفعله سوى أن تلعق جراحها وبدلا من ذلك فإن لابد من عملية مراجعة فى الداخل تعيد للمواطن إحساسه بالحرية فى الوطن الحر .. وركز الأهرام فى ذلك على ضرورة إنهاء إجراءات الاعتقال والفصل والحراسة .. وعلى مناقشة أوسع فى مجتمع مفتوح وعلى سيادة القانون .. ولكن بعض أجهزة التنظيم وجدت فى ذلك ردة إلى الرجعية وسقوطا فى شراك الثورة المضادة .. وبينها مثلا أن الأهرام وهو يحاول أداء واجبه الإخبارى بكامل جهده – سبق بالأخبار إلى قرائه بأسرع مما وصلت بعض أجهزة التنظيم إلى قواعدها وأصبحت هذه خطيئة فكان الصحافة تريد أن تظهر أمام جماهير الشعب أنها أسبق إليها من بعض أجهزة التنظيم .. وكان ما كان من أمر التناقض الذى أشرت عليه بين بعض أجهزة التنظيم وبين بعض الصحف.

ولابد لكى يكون البحث وافيا فى هذه النقطة أن أضيف أن بعض التناقض لم يكن منه بد بين بعض أجهزة التنظيم وبين بعض الصحف .. لماذا؟ .. لطبيعة الأمور .. إن تنظيم الاتحاد الاشتراكى نشأ فى وسط السلطة التنفيذية وهناك تناقض طبيعى بين جوهر رسالة الصحافة وبين واقع عمل السلطة التنفيذية فى أى بلد من البلدان .. الصحافة فى عملها عليها أن تلقى بأكبر قدر من الضوء على أكبر رقعة من العمل الوطنى .. والسلطة التنفيذية لها ما تريد إعلانه ولها فى نفس الوقت ما تريد إخفاؤه .. والصحافة عملها أن تتكلم .. والسلطة التنفيذية همها فى بعض الأحيان أن تتكتم .. وإذن فهناك تناقض بين الأثنين .. وهذه الحساسية مظهر صحة وليست عرض مرض .. والخطأ فى الموضوع بالنسبة لعلاقة الصحافة ببعض أجهزة السياسى أن هذه الأجهزة تسرب إليها من تأثير الصلة بينها وبين السلطة التنفيذية بعض من هذه الحساسية .. وكما قلت فإن هذا أمر طبيعى .. ولكن الضرورة تفرض تصفية آثارة وذلك بالقطع سوف يحدث مع تقدم العمل فى بناء التنظيم السياسى ومع إدراك كل أجهزته بأن وراءها من سند ثورة ٢٣ يوليو ومبادئها ومنجزاتها ما هو أقوى وأبقى من كل مظاهر الحكم وهيلمان السلطة.

ثالثاً : البيروقراطية المصرية .. والصحافة:

إن البيروقراطية المصرية وهى قوة راسخة على قلب العمل الوطنى فى مصر منذ أزمان بعيدة لا تحس بالاطمئنان تجاه الصحافة فهى تشعر فى مرات كثيرة بأن الصحافة

تقحم نفسها على مشاكل هى فى صميم اختصاصها وولائها .. وفى الفترة الأخيرة ومع التداخل المتشابك بين العمل السياسى والعمل التنفيذى فإن البيروقراطية المصرية كادت أن تضع وتفرض معايير قاسية تجاه ما تمارسه الصحافة حيالها .. ووصلت فى ذلك إلى حد تكاد أن تقرر فيه أن النقد البناء هو مجرد التصفيق لكل تصرف وأما النقد الهدام فهو الاعتراض على أى تصرف ..

وإلى هنا ثلاثة أطراف قوية تشارك فى شد خيوط أزمة الشك فى الصحافة المصرية .. قطاعات من الرأى العام .. وبعض أجهزة التنظيم السياسى .. ثم الثقل الرازح للبيروقراطية المصرية .. لكن هناك طرفا خارجيا رابعا..

رابعا : الاستعمار .. والصحافة:

إن الصحافة المصرية والصحافة العربية الوطنية عموما تعرضت لحملة شك ضارية من جانب الاستعمار الذى أحسن – للأسف – تقدير دورها ضمن قوى الثورة العربية الشاملة .. ولو سألنا مثلا: كيف سقط حلف بغداد أكبر وأخطر المؤامرات الاستعمارية على المنطقة؟ .. لكان الرد : لقد سقط حلف بغداد أمام قوة جمال عبد الناصر وقيادته الشعبية ثم أمام تأثير الصحافة العربية المقروءة والمسموعة .. إن الصحافة المقروءة والمسموعة كانت المدفعية الثقيلة التى هدت حصون حلف بغداد وحطمت استحكاماته بدون طلقة نار واحدة .. وأخشى أن أقول أنه فى معارك عديدة من معارك القومية العربية كانت الصحافة المقروءة والمسموعة هى التى تفتح الطريق وكانت السياسة المنظمة وغير المنظمة هى التى تجىء وتسده .. الصحافة المسموعة والمقروءة حطمت حلف بغداد .. والسياسة المنظمة وغير المنظمة هى التى مكنت عبد الكريم قاسم على أنقاضه .. والصحافة المقروءة والمسموعة كانت من عوامل الوحدة .. والسياسة المنظمة وغير المنظمة هى التى أعطت الفرصة للانفصال .. وهكذا .. وهكذا.

«من هنا فإن حرب الاستعمار على الصحافة العربية الوطنية كانت حربا لا هوادة فيها بكل الوسائل .. وبينها التشكيك..

ثم ليس معنى ذلك أن حساب الصحافة أبيض لم يمسسه سوء .. ذلك إدعاء لا أتطاول عليه .. وإنما لقد كانت الصحافة أخطاؤها العديدة مما لا يمكن إنكاره كما أن عليها من الشوائب ما يمكن الدفاع عنه .. لكن ما قلته حتى الآن يدخل فى مجال تشخيص أزمة الشك فى الصحافة المصرية وفى وصف هذه الأزمة .. لكنه حتى الآن لم يقترب من حل أو

علاج .. وجزء هام من المشكلة فى رأيى ورأى كثيرين أن وضع الصحافة المصرية كله معلق بتحديد صريح لمعنى ملكية الاتحاد الاشتراكى لها .. لا هى ملكية سياسية أو هى ملكية عينية؟.. هل شرطه عليها هو الالتزام بالمبدأ والفكرة أو هو خضوع الإلزام للأشخاص المنفذين؟ .. هل يريدها فى خدمة قرائها – وهم جماهير قوى الشعب العاملة – أو هو يريدها فى خدمة الصراعات الصغيرة والعقيمة؟ .. هل يريدها أداة من أدوات الحرية فى مجتمع مفتوح أو هو يريدها أداة من أدوات السلطة فى مجتمع مغلق؟..

وفى الفترة الأخيرة فلقد كان هذا الموضوع بين الشواغل التى طرحت نفسها على كثيرين من المهتمين بالعمل السياسى والصحفى وعقدت اجتماعات طويلة ودارت مناقشات مازال فيضها يتدفق حتى الآن لكنه – الأجتماعات الطويلة ولا المناقشات المتدفقة وصلت بعد إلى خاتمة مطاف .. ولقد ترددت خلال الاجتماعات والمناقشات مقترحات فيها المعقول وفيها اللامعقول .. طرح مثلا اقتراح بإنشاء مجلس أعلى للصحافة فى الاتحاد الاشتراكى يشرف على الصحف ويهيمن فوقها .. وقيل فى مناقشة هذا الاقتراح: ما هو مبرر هذه السلطة الجديدة المقترح إقامتها؟..

قبل أن تنشأ السلطة لابد أن نحدد اختصاصها .. وهناك سلطات كثيرة على اتصال بالصحافة وعملها .. هناك سلطة قانون العقوبات .. وهناك سلطة وزير الإرشاد الذى يتولى أمر الرقابة فى ظروف الحرب .. هذا من الناحية التنفيذية .. وأما من الناحية السياسية فهناك الالتزام بالميثاق وبما صدر مكملا من وثائق النضال الشعبى وبينها بيان ٣٠ مارس .. ثم هناك حق الملكية السياسية للاتحاد الاشتراكى .. وتمثلها لجنة الإعلام المنبثقة عن اللجنة المركزية .. وإذن فلماذا مجلس أعلى؟..

«وأسرع أصحاب اقتراح المجلس الأعلى فى عد الاختصاصات التى يطلبونها له تفصيلا .. كان رأيهم أن إنشاءه حتمى لكى يحقق – على حد قولهم – عدالة أكثر فى توزيع الأخبار وعدالة أكثر فى توزيع الإعلانات وعدالة أكبر فى توزيع أرباح الصحف بحيث تدفع الصحف التى تكسب للصحف التى تكسد .. وقيل فى مناقشة هذا التفصيل: ليس هناك شئ فى الصحافة اسمه العدالة فى توزيع الأخبار ذلك أن الأخبار ليست فى جيب أحد يعطيها لصحيفة ويضن بها على أخرى .. إن كل صحيفة لها طابعها ولها تنظيمها الذى يخدم طابعها ولها مصادرها فى الخارج وفى الداخل والمصادر نوع من الاستثمار المادى والإنسانى تختلف فيه الطاقات وتتفاوت .. وليس هناك شىء فى الصحافة اسمه العدالة فى توزيع

الإعلانات ذلك أن الإعلانات ليست إعلانات والمعلن صاحب مصلحة يبحث عن أكفأ الوسائل لتحقيقها وبالتالى فإن حجم إعلانات أى صحيفة هو حساب مادى لمحصلة مجموعة من العوامل هى: مدى انتشار الصحيفة وعدد قراء النسخة الواحدة منها ونوعيات قرائها والوقت الذى يقضيه قارئها معها لأن ذلك يجعل فرصة عثوره على الإعلان المنشور فيها احتمالا منه فى غيرها .. وليس هناك شيء اسمه العدالة فى توزيع الأرباح بحيث تدفع الصحف التى تكسب ضريبة للصحف التى تكسد .. إن قانون الصحافة صريح فى هذا الصدد .. يخص العاملين فى كل صيحفة بنصف الأرباح المحققة فيها ويخصص النصف الباقى لعملية تجديد منشآتها .. وأن يفرض على صيحفة تكسب أن تعطى أرباحها لجريدة تكسد معناه مكافأة الفشل أو ما هو أسوأ من ذلك إذا لاحظنا أن هناك – على اتساع العالم كله – ظاهرة عظيمة فى مجال الصحافة وتلك هى أن أكثر الصحف أرباحاً هى أكثرها احتراماً .. إن القارىء فى العام كله سئم صحافة الإثارة والرخص وهو يميل الآن إلى صحافة أكثر جداً وأكثر ارتفاعاً .. هذه هى الصحافة التى تحقق الآن اتساعاً أكبر فى توزيعها وبالتالى اتساعاً أوفر فى إعلاناتها ومن نماذجها فى صحافة العالم اليوم «النيويورك تايمز» فى أمريكا .. و«الصنداى تيمس» و«الأوبزرفر» فى بريطانيا و«الموند» فى فرنسا وغيرها.

«ويعود أصحاب اقتراح المجلس الأعلى يسألون: أليست هناك حاجة للتنسيق بين الصحف المصرية؟ .. إذن يقوم بها «المجلس الأعلى» .. وقيل فى مناقشة هذا السؤال : إن التنسيق يقوم به اتحاد للصحافة ، كما يحدث فى كل بلاد الدنيا – يوجهه همه إلى خدمة المهنة كمهنة فوق كل المنافسات المشروعة وقبلها وبدعها .. هناك حاجة للتنسيق بالنسبة لتدريب الصحفيين مثلا فى عصر هو ثورة فى وسائل المواصلات أى ثورة فى الصحافة .. إن هناك الآن أدوات جديدة باهرة ولابد أن يحيط صحفيونا بها وأن يستوعبوا كل إمكانياتها لكى تستطيع خدمتهم وخدمة مهنتهم .. وهنا حاجة إلى التنسيق بالنسبة للعمل على زيادة ما يمكن أن نسميه الطاقة القرائية فى الوطن .. فى بلد مازال عدد قراء النسخة الواحدة من أى صحيفة لا يزيد عن خمسة .. وهنا حاجة إلى التنسيق بالنسبة للعمل على زيادة ما يمكن أن نسميه الطاقة الإعلانية فى الوطن .. فى بلد مازال حجم الإعلانات المتاحة فيه كلها لجميع وسائل الإعلان أقل من خمسة ملايين جنيه فى السنة.. وما هو أوجب من التنسيق المادى هو أن يكون للمهنة قانون شرف تلتزم به على الأقل

إزاء الجمهور بحيث يستطيع أى قارئ أو أى مؤسسة أو أى مسئول أن ينتصف لنفسه من الصحافة فيما لا يقع تحت طائلة قانون العقوبات وإن كان يقع تحت طائلة قانون الأخلاق .. تنشر أى صحيفة خبرا عن قارئ أو عن مؤسسة أو عن مسئول ويشعر من تناول النشر أنه قد أسيء إليه أو أن ما نشر كان مختلفا عليه حتى بغير إساءة ويلجأ إلى قانون شرف المهنة وتنصفه الصحافة من نفسها .. لكن ذلك ليس لا حاجة فيه إلى اقتراح مجلس أعلى وإنما أولى الجهات مسئولية عنها هى الصحافة نفسها ..

ويفرغ صبر أصحاب اقتراح المجلس الأعلى فيقولون بالغضب: وأين أذن ملكية الاتحاد الاشتراكى للصحف وكيف تتحقق؟ .. وقيل لهم: ليس بالغضب حل المشاكل .. قبل كل شيء لابد من تحديد معنى الملكية هنا .. إن قانون تنظيم الصحافة – فى الحقيقة – أعطى الملكية المادية للعاملين فيها فلهم نصف الأرباح مباشرة والنصف الآخر يعود إلى صحفهم نفسها .. وذلك نوع آخر من الملكية يختلف عن المعنى الشائع للملكية العامة التى تعود أرباحها كلها إلى الخزينة ولقد كان ذلك قصد أراده المشرع فى قانون تنظيم الصحافة وعناه .. ولهذا فإن القانون لم يكن تأميم الصحافة وإنما كان تنظيم الصحافة .. ومع ذلك فإن الاتحاد الاشتراكى يملك .. ولابد أن يملك .. ولكن أين نوع من الملكية؟ .. إن المعنى الضيق للملكية المادية ليس واردا هنا سواء بنص قانون تنظيم الصحافة أو بالمفهوم الواجب لرسالة الصحافة ودورها . ولو أخذنا المعنى الضيق للملكية لواجهتنا محاذير .. إن الصحف فى البداية إنتقلت إلى ملكية الأتحاد القومى .. ولقد صفى الأتحاد القومى ولكن الصحف لم تصف ولم يكن من الممكن تصفيتها .. وانتقلت ملكية الصحافة إلى ملكية الاتحاد الاشتراكى .. وتجميد الاتحاد الاشتراكى مرتين .. مرة بعد معارك يونيو سنة ١٩٦٧ .. ومرة قبل صدور بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ولكن الصحف لم تتجمد معه ولم يكن ممكنا تجميدها..

وإذن فهو نوع آخر من الملكية لابد من تحديده والاتفاق على حدوده.. هى الملكية السياسية بالدرجة الأولى مع ضمان الرقابة المالية على أوضاع الصحف وكفالة ضرورة المراجعة عليها .. ويستطيع البحث المدقق أن يعثر على صيغ ملائمة تحقق كل الضمانات للصحافة وللاتحاد الاشتراكى وللرأى العام المهتم بالصحافة .. وبعد فلقد أكون أطلت .. لكن القضية حيوية .. إن الصحافة المصرية وراءها تاريخ مجيد ويشرف به كل من ينتمى إليه، والصحافة المصرية إلى جانب التاريخ المجيد حاضر يعيش الواضع المعاصر بكل ما فيه ويناضل فى الطليعة من قواه المناضلة ثم أن الصحافة المصرية مستقبل يستحق

الحرص عليه لأن مصير الصحافة فى أى بلد هو نفسه مصير الحرية فى هذا البلد .. من هنا فإن أزمة الشك فى الصحافة المصرية ليست وحدها وإنما هى شركة مع كل قوى التطور والمستقبل والحرية فى وطننا».

انتهى المقال .. وبدأت الحرب على هيكل من الاتحاد الاشتراكى .. وهى حرب كانت شرسة استخدم فيها التنظيم السياسي صحيفة «الجمهورية» .. ونشرة «الاشتراكى» التى كانت تصدر للتثقيف الداخلى لقيادات التنظيم .. ووسائل التشهير المنظمة .. والمنشورات .. وهتافات المظاهرات .. وإلقاء الحجارة على مبنى الأهرام .. وكان هيكل فى هذه الحرب بدون مساندة من جمال عبد الناصر الذى لم يعترض على ما كتب لكنه طلب منه أن يتحمل تبعاته .. وفيما بقى هيكل .. وانهار الاتحاد الاشتراكى.

■ ٣٤ ■

اللحظات الأخيرة فى حياة عبد الناصر !

■ ولد جمال عبد الناصر في ١٥ يناير عام ١٩١٨ .. وورث عن والدته السيدة فهيمة محمد حماد الاستعداد للإصابة بأمراض القلب .. وقد ماتت هى بالسكتة القلبية فى عام ١٩٢٦ .. وورث شقيقه عز العرب عنها نفس الاستعداد لنفس المرض .. وقد مات بأزمة قلبية فى عام ١٩٧٧ .. وكان عمره لا يزيد عن ٥٥ عاما .. وكان مديرا لمكتب جريدة «الجمهورية» بالإسكندرية .. ولم تعان الأم بمرض السكر .. ولم يعان الأب عبد الناصر حسين منه .. ولم يعان من أمراض القلب .. وقد مات فى سبتمبر ١٩٦٨ وكان عمره يزيد عن ٨٠ عام .. لكن جمال عبد الناصر ورث السكر عن عمه خليل الذى رباه فى القاهرة .. وكذلك شقيقه «عز العرب» .. أى أن جمال عبد الناصر ورث أمراض القلب عن عائلة أمه .. وورث مرض السكر عن عائلة إبيه .. وكانت هذه هى جذور المرض فى شجرة العائلة.

والشائع أن جمال عبد الناصر أكتشف إصابته بالسكر فى عام ١٩٥٨ على أثر مفاوضات شاقة أجراها فى موسكو مع السوفيت بعد ساعات من قيام ثورة عبد الكريم قاسم فى العراق .. وقد توحش السكر فى جسده بعد الانفصال السورى عن دولة الوحدة فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ .. وأدى توحش السكر إلى انخفاض وزنه بسبب تكسر البروتين .. وأدى إلى هبوط القلويات الاحتياطية فى الدم .. فزاد إحساسه بالجفاف والعطش .. ثم رفع السكر راية الخطر عالية فى عام ١٩٦٤ أثناء زيارة قام بها هو وخورتشوف لمديرية التحرير .. فقد تحول إحساسه بالعطش إلى إحساس بالغثيان .. ورغبة فى القيء .. واكتشف الأطباء ارتفاع نسبه «الأستون» وهو ما يعنى اضطرابا فى عملية احتراق المواد الكربوهيدراتية .. وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وصل خطر السكر إلى مداه بتهديد الأعصاب الطرفية.

وبعد الهزيمة أيضا بدأت متاعب القلب التى وصلت إلى حد الجلطة فى سبتمبر ١٩٦٨ عندما تسللت سرية برمائية إسرائيلية إلى نقطة «الزعفرانة» على شاطيء السويس الغربى واستولت على محطة راداد وصورت فيلما سينمائيا بما فعلت عرضته فى تلفزيونات العالم .. وبقى جمال عبد الناصر حوالى الشهرين تحت الراحة والعلاج .. وخلال هذه الإجازة الإجبارية كانت هناك لجنة لتسيير العمل الداخلى تتكون من أنور السادات رئيس مجلس الأمة وسامى شرف مدير مكتب الرئيس وأمين هويدى الذى تولى مسئولية المخابرات العامة بعد التخلص من صلاح نصر وشعراوى جمعة وزير الداخلية ومحمد فوزى وزير الحربية .. ومحمد حسنين هيكل .. وفى تلك الأيام جاء الطبيب السوفيتى يفيجينى تشازوف لمتابعة علاجه .. وبدون مقدمات قرر جمال عبد الناصر فى يوليو عام ١٩٧٠ السفر إلى موسكو للعلاج.

فى سبتمبر عام ١٩٧٠ كان جمال عبد الناصر يستريح فى مرسى مطروح عندما جاءته الأنباء السيئة عن الحرب الأهلية الشرسة بين المقاومة الفلسطينية والقوات الأردنية فى عمان .. ولم يتردد جمال عبد الناصر فى العودة إلى القاهرة .. وبناء على دعوة لقمة عربية لحقن الدماء العربية بدأ الحكام العرب يتدفقون على القاهرة .. وعندما انتهت هذه القمة فى ٢٨ سبتمبر .. انتهت معها حياة جمال عبد الناصر .. وكان عمره وقتها ٥٢ سنه و٨ شهور و ١٣ يوما.

ولا جدال أن هذا أليوم من أخطر الأيام التى مر بها هيكل .. إن رفيق العمر على مدى ١٨ سنه قد رحل .. والرجل القوى الذى كان سندا له لم يعد على ظهر الحياة .. وصراعات السلطة المكتومة أصبحت على وشك الانفجار .. ولا أحد يعرف ما الذى تخبئة الساعات أو حتى الدقائق القادمة التى بدت مشحونه بالقلق والتوتر.

ما الذى جرى فى الأربعة وعشرين ساعة الأخيرة فى حياة عبد الناصر؟ .. ما الذى سجله هيكل عنها؟ .. كيف كانت لحظات النهاية؟

إن هيكل – الذى لا يمكن أنى يكون قد ترك تفاصيل ذلك اليوم تمر دون أن يمسك بها – يروى ما جرى .. وما كان .. ودون أن يترك سرا وقع أو همسا حدث .. ويقول:

«كان البحر الأبيض – قلب الدنيا وبؤرة التاريخ – كان يستعد يومها لحدث كبير .. كبير .. كان مأساة عنيفة – مما روى تاريخ الإغريق – تحوم حول آفاقه وتوشك أن تترك على شواطئه كالزلزال ترجه رجاً من الأعماق السحيقة إلى قمم الموج العالية:

فى شرق الأردن فى عمان كان القتال مازال محتدما بشدة وقسوة وكانت دبابات الجيش الأردنى من طراز باتون تركز هجماتها على منطقة الأشرفية تريد أن تخلع منها

بقايا جيوب المقاومة الفلسطينية فى عمان وكان مستشفى الأشرفية بالذات هدف تركيز شديد .. فقد كان معروفا أن قيادة المقاومة الفلسطينية اتخذت منه ـ فى وقت الصراع ـ مقرا لها توجه منه عملياتها .. وكان الدمار فى أبشع صورة قد حل بكل شوارع العاصمة الأردنية القائمة على سبعة تلال وكان القتلى تحت الأنقاض بالمئات وكان الجرحى بالآلاف تتعالى أناتهم وصرخاتهم تطلب النجدة أو تطلب الرحمة وكان الجوع والعطش يمسكان المدينة بقبضة عذاب أليم لا عاصم منه ولا مغيث .. الأخ يسفك دم أخيه ورفاق السلاح لا يقاتلون عدوهم ولكن يقتتلون فميا بينهم ..

فى شرق البحر الأبيض أيضا .. فى القدس المحتلة كان التدبير الأمريكى ـ الإسرائيلى قد أعد مخططاته كاملة للتدخل فى أزمة الأردن ولم يكن باقيا إلا صدور الأمر فى اللحظة التى تقتضى التدخل من وجهة نظر المدبرين المتواطئين .. كانت خطة التدخل كما يقول بنجامين ويلز الصحفى العليم بدخائل الأمور فى واشنطن قد تم وضعها يوم ٢١ سبتمبر بعد مشاورات بين واشنطن وتل أبيب وهى مشاورات جرت فى البيت الأبيض نفسه واشترك فيها مع الرئيس ريشارد نيكسون كل من ويليام روجز وزير الخارجية وجوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط وهنرى كيسنجر مستشار نيكسون لشئون الأمن القومى وريتشارد هيلمز مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والأدميرال توماس مور رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية والجنرال إيزاك رابين سفير إسرائيل فى واشنطن ورئيس هيئة أركانها السابق ومساعده السياسى فى السفارة الإسرائيلية شلومو أرجوف .. كانت اجتماعاتهم تعقد فى البيت الأبيض وكانت خرائط المنطقة من حولهم وكانت المعلومات التفصيلية تتدفق على غرفة العمليات من مصدرين يحددهما بنجامين ويلز بأنهما: المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية.

وتقرر بينهم أن تكون ساعة الصفر فى التدخل هى اللحظة التى يزيد فيها عدد الدبابات السورية التى تدخل الأردن ـ كما يقولون ـ على مجموعة اللواءين التى قالوا أنها دخلت فعلا شمال الأردن وهى الخطة التى يبدو فيها أن زحف الدبابات قد تجاوز منطقة الرمثا .. وكانت الخطة التى تم الاتفاق عليها أن تبدأ العملية بضربة جوية يقوم بها الطيران الإسرائيلى ضد المدرعات السورية فإذا لم تحقق هذه الضربة هدفها تقدم طابور مدرع إسرائيلى لمحاصرة القوات السورية وإبادتها مع احتلال مثلث الرمثا ـ أربد ـ جرش .. وفى نفس الوقت كانت الخطة تتضمن إنزال كتيبة مظلات من الفرقة الثامنة الأمريكية ـ المتمركزة فى «مينتر» بألمانيا الغربية لتحتل مطار عمان الدولى .. وتقيم من حوله نطاق دفاعات يسمح بإنزال لواء من المشاة على طائرات النقل على أن يتولى الأسطول السادس

الأمريكي بطائراته حماية التدخل الإسرائيلي ـ الأمريكي ضد أي عمل قد تقوم به مصر أو قد يفكر فيه الاتحاد السوفيتي.

وفي شمال البحر الأبيض كان الرئيس ريتشارد نيكسون قد وصل بنفسه إلى نابولي وكانت أقوى قطع الأسطول السادس الأمريكي أمامه تحيط بجزيرة كابري .. ثلاث من حاملات الطائرات هي «ساراتوجا» و «أندبندانس» و «جون كينيدي» وعلى ظهرها قرابة ثلاثمائة طائرة قاذفة مقاتلة أكثرها من طراز فانتوم وعليها مجموعة من بطاريات المدفعية وقواعد إطلاق الصواريخ تمثل قوة نيران رهيبة وتتقدم هذه الحاملات مجموعة من البوارج والطرادات الصاروخية يتقدمها الطرادان «جوام» و «سبرنجفيلد» ثم أسطول جرار من قوارب الطوربيد والغواصات وكاسحات الألغام .. وكان مقررا لهذه القوة البحرية أن تقوم بمناورة تكون بمثابة مظاهرة بالنار .. وكان مقررا أن يشهد نيكسون هذه المناورة من جسر حاملة الطائرات ساراتوجا المعقود لها لواء القيادة في الأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض وكان المقصود من هذه العملية كلها على حد ما يقول الصحفي المشهور ماكس فرانكل ـ من كبار محرري النيويورك تايمز ـ وكان مع الرئيس نيكسون على ظهر حاملة الطائرات ساراتوجا ـ شيئا واحد: أن يسمع جمال عبد الناصر في القاهرة دوي مدافع الأسطول الأمريكي السادس .. وكان الموعد المقرر لبدء المناورة هو الساعة العاشرة من مساء يوم ٢٨ سبتمبر!!.

وفي جنوب البحر الأبيض في القاهرة كان جمال عبد الناصر في لحظة من أروع لحظات حياته ونضاله يحاول ولا يكل من أجل السلام العربي والسلامة العربية لكي تظل أمته في وضع القدرة على مواجهة التحدي المستمر ولكي يوقف نزيف الدم المتدفق من قلبها .. كان جهده مركزا أشد ما يكون التركيز .. وكان فكره رائقا صافيا مجددا وكانت كلمته طوال الوقت لكل الأطراف: «ماهو الهدف؟ .. يجب ألا ننسى أنفسنا وسط التفاصيل والاتهامات المتبادلة .. ما هو الهدف؟ هذا هو السؤال الذي يتعين علينا أن نجيب عليه ونتصرف وفق متطلباته والباقي كله حسابات سهلة يمكن تسويتها فيما بعد .. ما هو الهدف؟ هذا سؤالي لكم دائما» .. وكان عمله متواصل لا ينقطع .. وكان صورة كل مايجري حول شواطيء البحر الأبيض واضحة أمامه بالعلم وبالفهم وبالضرورة القصوى لحفظ قوى النضال العربي كشرط لازم لاستمرار المعركة ضد إسرائيل .. وأهم من هذا كله أن ذلك الإنسان العظيم وسط ما كان من حوله ـ ودوره هو فيه ـ كان يعرف حقيقة ما به وكان يدرك مخاطر ما يقوم به من عمل وما يعانيه من انفعالات على صحته المثقلة بالألم وعلى قلبه الجريح من جلطة جاءته في سبتمبر سنه ١٩٦٩.

وأقول لنفسي الآن ولم تعد هناك جدوى من أى قول: «كأنه كان يعرف» .. وأقول لنفسي الآن وقد فات الأوان: «كيف لم افهم؟ وكيف فاتنى المعنى الحقيقى لإشارات سمعتها منه وكان يجب أن أتوقع منها ما حدث ولا أفاجأ بلحظة الرحيل وأجدنى أياما بعدها عاجزا عن التصديق وأياما تليها عاجزا عن التصور .. وتجيش فى أعماقى الآن مشاعر متناقضة ملتاعة وأن أتذكر بعض ما سمعت من إشاراته وأنظر إليها على خلفية ما أعطى من جهد وأعصاب فى أيام الأزمة فى الأردن .. قوله مرة وكنت أحدثه عن عمله الذى يفوق طاقة احتمال صحته .. بل طاقة أى بشر حتى وإن كان فى تمام صحته وكان قوله: «فى مثل ظروفى لا أستطيع أن أتصرف إلا كما أتصرف الآن .. وعلى أن أتحمل النتائج كيفما تكون» .. وقوله مرة أخرى وكنا نتحدث عن الحرب وعن اعتزاله السياسة عندما يتحقق النصر وكيف يجب أن نجلس معا ونحن شيوخ لكى نكتب مذكراتنا عن قصة جيلنا وحتى تبقى للأجيال وكان قوله: «لا تعتمد على فى ذلك .. لا تنتظرنى فى الشيخوخة .. لا تنتظرنى هناك» .. وقوله مرة ثالثة بعد النوبة القلبية الأولى وكان حديث الاعتزال يتردد بين وقت وآخر فى خواطره بصوت عال أمامى وكان قوله: «أحيانا أفكر .. هل أستطيع أن أعتزل؟ .. لا أعرف .. يُخيل إلى أنه ليس أمامى خيار .. إما أن أكون هنا فى المسئولية أو أكون هناك فى القبر .. وقوله مرة رابعة فى أعقاب خطابه فى المؤتمر القومى الأخير يوم ٢٣ يوليو وكان قد عاد إلى بيته واتصل بى تليفونيا وتصورت أنه سوف يتحدث عن أصعب ما كان فى خطابه ذلك اليوم وهو قبوله لمشروع روجرز ولكنه بدأ بشيء آخر وكان قوله: «لقد كنت متأثرا وأنا أعلن انتهاء بناء السد العالى .. كنت أتمنى أن أعيش إلى اليوم الذى أعلن ذلك فيه .. إن السد العالى كان يعنينى كرمز وإتمام بنائه يعنى بالنسبة لى شيئا كبيرا» .. ثم يضيف بالحرف: «يستطيع الواحد أن يموت غدا مطمئنا إلى أن الناس هنا يستطيعون تحمل كل شيء ويستطيعون تحقيق كل شئ» .. وقوله مرة خامسة فى أواخر الأيام وكنا فى فندق هيلتون أثناء أزمة الأردن وكنا جلوسا على الغذاء وكان معنا أنور السادات وحسين الشافعى وعلى صبرى وكان حديثنا عما يجرى فى الاجتماعات وتساءلت أنا: هل سيجيء يوم نكتب فيه وقائع هذه الأيام كما نراها أمامنا والتفت ناحيتى على مسمع من الكل وكان قوله: «أنت المسئول عن ذلك فى يوم من الأيام إنك تعرف كل شيء وأنا لم أحتفظ بأوراق خاصة لى .. وأنت تتحدث عن الإحساس بالتاريخ دائما والكتابة صناعتك .. ولك أن تتصرف كما تشاء» .. والتفت يشهد الآخرين على ما يقوله ووجدتنى أقول بسرعة: «مازال أمامنا وقت طويل قبل أن يجيء أوان الكتابة عن هذه الأيام» .. وكان رده: «أريد أن أخلى مسئوليتى أمام التاريخ» .. ثم «ليطمئن قلبى» ..

ثم قوله فى اليوم الأخير .. يوم الرحيل وكان قد أتصل بى تليفونيا فى الساعة الواحدة ظهرا وأحسست أنه منهك مجهد وسألته عما إذا كان من الضرورى أن يذهب إلى المطار لوداع أمير الكويت وكان آخر المسافرين من القاهرة بعد انتهاء اجتماعها الكبير وكان قوله: «لابد أن أقوم بالواجب إلى النهاية وعلى أى حال فهذا هو الوداع الأخير» .. وأحسست بعبارته تنغرس فى قلبى كأنها سكين .. وشعرت بضيق غريب ووجدتنى أقول له: «تقصد أنه وداع آخر واحد من الملوك والرؤساء العرب الموجودين فى القاهرة؟» .. وقال: «ما هو الفرق بين ما قلته أنا وما قلته أنت؟» .. ولم أشأ أن أفصح عما أحسست به واكتفيت أن أقول: «لا شيء فى الواقع .. لا فرق».

وأترك هذه الإشارات وأعود إلى ما كنا فيه .. كنا عندما يجرى على شواطيء البحر الأبيض شمالا وشرقا .. وكان هو فى القاهرة جنوب البحر الأبيض يرقب كل الآفاق القريبة والبعيدة ويفكر ويحسب ويتحرك ويحرك أياما بعد أيام .. وكان ذلك الإنسان العظيم وسط ما كان من حوله ودوره فيه يعرف حقيقة ما به وكان يدرك مخاطر ما يقوم به من عمل وما يعانيه من انفعالات على صحته المثقلة بالألم وعلى قلبه الجريح من جلطة جاءته تحذيرا فى سبتمبر سنه ١٩٦٩ .. وسوف أكتفى هنا بالأربع والعشرين ساعة الأخيرة أروى وقائعها كما عشت بجانبه .. حتى جاءت لحظة الرحيل.

كنت قد تركته عند الرابعة بعد الظهر ـ يوم الأحد ٢٧ سبتمبر ـ فى الجناح الذى كان يقيم فيه بفندق هيلتون حيث يترك كل الملوك والروساء العرب الذين التقوا فى القاهرة بحثا عن حل «يوقف نزيف الدم فى الأردن» كما كان هو يقول .. كانت هناك جلسة بعد الظهر عاصفة فقد حضرها الملك حسين لأول مرة .. وكانت هذه الجلسة قد بدأت فى الواحدة بعد الظهر وانتهت فى الثالثة والنصف .. وكنت فى قاعة الاجتماع قبل أن يدخل عبد الناصر وكان جوها متوترا .. كان الملك حسن مع بعض ضباطه فى ركن من القاعة .. وكان ياسر عرفات على مقعد فى صدرها يضبط أعصابه بالكاد .. وكان الملك فيصل فى مقعده التقليدى فى هذه الاجتماعات وكان واضعا يده على خده يفكر وتحدثت قليلا مع ياسر عرفات وكان على وشك أن ينفجر .. ودخل وقتها العقيد معمر القذافى يجلس إلى جوار ياسر عرفات ..

وانتقلت إلى حيث الملك فيصل جالسا اقطع عليه تفكيره وأقول له: «الا تريد جلالتك أن تقوم بعملية نزع سلاح فى هذه القاعة؟» .. والتفت الملك فيصل إلى يسألنى عما اقصد وقلت: «إن الملك حسين يعلق مسدسا فى وسطه وياسر عرفات يعلق مسدسا فى وسطه ومعمر القذافى يعلق مسدسا فى وسطه .. والجو كله مشحون» .. قلت ذلك وابتسمت .. وقال الملك فيصل: «لا أعرف فى الحقيقة .. هل جئنا إلى هنا لنتفاهم أم لنتقاتل؟» .. ثم

استطرد الملك: «ولكنى لا أستطيع أن أنزع سلاح أحد .. ربما يستطيع فخامة الرئيس .. هو وحده الذى يستطيع » .. وأشار الملك فيصل إلى باب القاعة وكان الرئيس عبد الناصر يدخل منها فى تلك اللحظة ويتجه نحونا وقال له الملك فيصل : «فخامة الرئيس .. لا أريد أن أجلس وسط كل هذه المسدسات» .. وقال الرئيس ضاحكا من قلبه: «لا عليك .. سوف أجلس أنا وسط هذه المسدسات .. وتفضل أنت فأجلس مكانى».

وغادرت أنا قاعة الاجتماع لأنه مقصور على الملوك والرؤساء وحدهم .. وعندما انتهت الجلسة فى الثالثة والنصف كنت فى انتظاره بجناحه فى الدور الحادى عشر وعرفت منه بعض التفاصيل عما حدث وتركته ليستريح بعض الوقت .. دخل على غرفة نومه وكانت الساعى الرابعة وتوجهت أنا إلى بيتى اغير قميصى كما قلت له وأعود بعد قليل وكان الموعد المحدد للجلسة الختامية هو الساعة السادسة مساء .. وفى الساعة الخامسة كنت أدخل عليه على أطراف أصابعى مرة أخرى إلى جناحه وكان محمد داود الذى يقوم بخدمته الخاصة واقفا على باب حجرة النوم واقترب منى يقول: «إن الرئيس نائم وقد طلب إيقاظه فى الساعة الخامسة والنصف» .. ودخلت غرفة الصالون المواجهة لغرفة النوم واتجهت إلى الشرفة أطل منها على النيل .. وأنتظر.

وبعد دقائق جاءنى محمد أحمد السكرتير الخاص للرئيس يقول لى: «إن الرئيس (السودانى) جعفر نميرى و(رئيس الحكومة التونسية) باهى الأدغم فى طريقهما إلى جناح الرئيس فهل نوقظه ؟» .. ونظرت فى ساعتى ـ كما أتذكر جيدا ـ وكانت الخامسة وسبع دقائق وقلت: «ننتظر بعض الوقت .. نعطيه دقائق إضافية من النوم لو كنا نستطيع» .. وقمت باستقبال الرئيس نميرى والسيد باهى الأدغم وقلت لهما همسا: «إن الرئيس نائم ولم نشأ إيقاظه .. ولكننا نوقظه إذا أرادا» .. وقال الرئيس نميرى: «نتركه بعض الوقت .. لقد جئنا بمشروع اتفاق كلفنا بإعداده على ضوء مناقشات جلسه بعد الظهر ليكون أساسا لحديثنا فى جلسا المساء» .. وناولنى الباهى الأدغم مشروع الاتفقا لأقرأه .. وقرأته على مهل وفى ذهنى أن أطيل الوقت إلى أقصى حد ممكن .. وتناقشنا فى بنود المشروع .. واتجه حديثنا إلى بعض ما دار فى جلسة بعد الظهر .. ثم كان الوقت يقترب من الخامسة والنصف وطلبت من محمد داود أن يدخل لإيقاظ الرئيس .. وجاء محمد داود بعد دقيقة إلى غرفة نوم الرئيس وذهبت وكان واقفا بجوار الفراش واستمع إلى فى ثوان قليلة ثم قال: «اجلس معهما وسوف آخذ حماما سريعا وألحق بكم» .. واستطرد وهو ينتهد: «لقد كنت فى نوم عميق من شدة التعب» .. والحق بنا إلى الصالون وكانت الساعة الخامسة والنصف تماما.

وأمسك بيده مشروع الاتفاق ولم يجد نظارته وناولنى الورق وطلب منى أن أقراه على مسمعه وكان تعليقه أن المشروع يمكن أن يكون أساسا مقبولا «إذا خلصت النوايا» .. وجاء محمد أحمد يسلمنى رسالة بعث بها ياسر عرفات الذى كان يقيم فى الدور الرابع من الفندق وسألنى الرئيس عما بها وقلت: «إن ياسر عرفات تلقى من عمان معلومات بان الجيش الأردنى يكثف هجماته لتتم له السيطرة على عمان الليلة وهو يريد تعليمات تصدر إلى ضباط المراقبة المصريين الذين سافروا هذا الصباح إلى عمان لكى يباشروا عملهم وبالذات فى منطقة الأشرفية» .. وقال الرئيس: «فلنطلب ياسر عرفات نبحث معه مشروع الاتفاق قبل الجلسة .. واسألوا أيضا عن معمر القذافى قد وصل .. وينضم إلينا هنا».

وجاء ياسر عرفات وكان منفعلا وبادر إلى القول موجها حديثه إلى الرئيس: «سيادة الرئيس .. لا فائدة وليس أمامنا إلا أن نهد الدنيا على رؤوسهم ورؤوسنا ولتكن النتيجة ما تكون» .. وقال الرئيس: «ياسر .. لا يجب لأى شىء الآن أن يجعلنا نفقد أعصابنا .. لابد أن نسأل أنفسنا طول الوقت: ماهو الهدف؟ .. الهدف كما اتفقنا هو وقف إطلاق النار بأسرع ما يمكن .. إننى تحركت من أجل هذا الهدف بناء على تقديرى للظروف وبناء على طلبك أنت لى من أول لحظة .. إن موقفكم فى عمان مرهق ورجالكم فى أربد عرضه للحصار ولقد قلت لك من أول دقيقة إننا لا نستطيع مساعدتكم بتدخل عسكرى مباشر من جانبنا لأن ذلك خطأ .. لأن معناه إننى سأترك إسرائيل لأحارب فى الأردن .. كما إن ذلك إذا حدث سوف يفتح الباب لتدخلات أجنبية تنتظر هذه اللحظة .. إننى أحاول أن أكسب وقتا لكى أستطيع زيادة قدرتكم على المقاومة ولتصلوا إلى حل معقول .. إننى خلال الأيام الأخيرة فتحت لكم أبواب كل ما أردتموه من سلاح وذخيرة .. كما إننى بعثت إلى بريجنيف لكى يضغط الاتحاد السوفيتى بكل قوته على الولايات المتحدة الأمريكية حتى لا تتدخل .. ولقد بعثت أنت لى تطلب عن أن أفعل ذلك وقد فعلته .. كل ذلك فى سبيل أن تكسب وقتا تحول فيه دون ضربة قاصمة توجه للمقاومة وتعوق كذلك وحدة قوى النضال العربى».

واستطرد عبد الناصر: «إننى حرقت دمى خلال الأيام الأخيرة لكى أحافظ عليكم وكان أسهل الأشياء بالنسبة لى أن أصدر بيانا إنشائيا قويا أعلن فيه تأييدى لكم ثم أعطيكم محطة إذاعة تقولون منها ما تشاءون ضد الملك .. ثم أريح نفسى وأجلس لأتفرج .. لكننى بضميرى وبالمسئولية لم أقبل ذلك» .. واستطرد عبد الناصر: «إننى أستطيع أن أنهى المؤتمر هذه اللحظة .. إن المؤتمر من الوجهة السياسية قد حقق كثيرا .. ذهب الأخ نميرى

أول مرة وعاد بأربعة من زعماء المقاومة استخلصهم بالضغط من السجن .. وذهب الأخ نميرى مرة أخرى وعاد بك .. ثم صدر عنا بتقرير نميرى والبعثة التى رافقته إلى عمان تقرير أوضح الحقيقة كلها وشكل قوة ضغط أستطيع أن أترك الأمور على هذا الحد وأستريح .. ولكننى اسأل نفسى وأسألك : ما هو الهدف ؟ .. هذا هو السؤال الذى يجب ألا ننساه .. هدفنا مازال هو وقف إطلاق النار لإعطائكم فرصة لإعادة تقدير موقفكم وإعادة تجميع قواكم .. ونحن الآن أمام فرصة للاتفاق .. هل نحاول ؟ أو نسكت وننسى هدفنا؟ لك القرار لأن موقفى منذ اللحظة الأولى كان من أجلكم من أجل حمايتكم وحماية الناس الذين لا ذنب لهم والذين هم الآن قتلى لا يجدون من يدفنهم .. وجرحى لا يجدون من يعالجهم .. وشاردون بين الأنقاض أطفالا ونساء يبحثون فى يأس عن أبسط حق للإنسان وهو حق الأمن على حياته».

وسكت عبد الناصر .. وساد الصمت لحظة .. ودخل العقيد معمر القذافى .. وجاء بعده محمد أحمد يقول أن كل الملوك والروساء العرب بدءوا يفدون على القاعة فى انتظار بدء الاجتماع .. وقال الرئيس عبد الناصر: «هل نذهب؟» .. وأردف : «هل نذهب لنفض الاجتماع .. أو لنواصل الحديث سعيا وراء هدفنا ؟» .. وقام الجميع إلى المصعد .. نازلين إلى قاعة الاجتماعات فى الدور الثانى وكان ياسر عرفات ممسكا بيدى يقول لى: «له الله .. كتب عليه أن يحمل هموم العرب كلهم .. وخطاياهم أيضا».

كان الاجتماع مقصورا على الملوك والرؤساء وعدت إلى الدور الحادى عشر فى فندق هيلتون أدخل الغرفة التى كان يقيم فيها أنور السادات وكان جالسا فى الشرفة وأمامه جهاز راديو يحاول أن يسمع منه إحدى المحطات .. ووقفت معه بعض الوقت نتحادث فيما هو جار وفيما هو محتمل ثم ذهبت أجرى اتصالا تليفونيا مع الأهرام وجاء من يطلبنى بسرعة إلى قاعة الاجتماعات وكان السيد الباهى الأدغم هو الذى يريدنى ووقف معى فى مدخل القاعة يقول لى إنه إذا انتهى الاجتماع إلى اتفاق .. وإذا أقر تكليفه برئاسة لجنة الرقابة على تنفيذه فهو يريد أن يأخذ معه وفدا من الصحفيين يمثل الصحافة العربية والعالمية .. ليكون الرأى العام نفسه رقيبا وشاهدا .. وحبذت الفكرة .. وعاد الأدغم إلى القاعة وفكرت من جانبى ـ متوقعا أن يطول الاجتماع ـ فى الذهاب إلى الأهرام بنفسى بدل عناء الاتصالات التليفونية .. ووصلت إلى الأهرام لأجد كبير الياوران على التليفون يطلبنى ويقول لى: «إن الرئيس يريدك فى القاعة فورا».

وعدت بسرعة إلى فندق هيلتون متوجها إلى القاعة ولمحنى الرئيس عبد الناصر أدخل من بابها فأشار إلى أن أجلس بجانبه .. وقال لى همس: «لقد تم الاتفاق .. وهم الآن يكتبون صيغته النهائية على الآلة الكاتبة لكى نوقعها جميعا» .. وكانت الدهشة من

السرعة بادية فى غينى .. وقال الرئيس ضاحكا: «مالك ؟» .. وقلت: «لم يتغير رأى بعد الاتفاق عما كان عليه وقت الصراع مازلت أقول كما كنت أقول: العقل العربى فى حالة تراجع إلى الغريزة .. تفكيرنا رماد .. وعواطفنا حريق» .. قال: «حتى بعد الاتفاق تقول ذلك ؟» .. قلت: «نعم .. وأقول إننا كنا ومازلنا قبائل .. نغضب فى لحظة ونهدأ فى لحظة .. نشهر السلاح فى وجه بعضنا .. وبعد قليل نتصافح ونتعانق كان لم يحدث شئ» .. قال وهو لا يزال يضحك: «دعك الآن من الفلسفة .. ليس هناك وقت لها .. هناك هدف نسعى إليه الليلة وأما الفلسفة فنستطيع تأجيلها إلى الغد وسيكون لديك لكل الوقت لتغرق فيها !!» .. ثم راح يتحدث عن ترتيبات إعلان الاتفاق .. ثم تنفيذه .. ثم طلب إلى أن الحق به بعد الاجتماع فى جناحه.

وجاء إلى جناحه فى الساعة الحادية عشر وكانت سعادته بالوصول إلى اتفاق تغطى إحساسه بالإرهاق بعد كل ما عمل وبذل .. ووقف فى الشرفة المطلة على النيل وقال: «هذا إجمل منظر تراه العين» .. وجاء أنور السادات وحسين الشافعى وعلى صبرى وراح يروى لهم بطريقته المرحة بعض ما دار فى الاجتماع .. ثم سأل فجأة: «أين معمر القذافى؟» .. وجاء محمد أحمد بعد قليل يقول: إن الرئيس معمر القذافى توجه من قاعة الاجتماع إلى المطار ليعود إلى بنغازى وأنه صافح الرئيس بعد انتهاء الجلسة .. فعل ذلك مودعا وهو لا يرد أن يثقل على الرئيس ولهذا فهو يرجوه أن لا يذهب لوداعه فى المطار .. وقال الرئيس على الفور: «اتصلوا بالمطار وعطلوا الطائرة حتى أذهب .. لابد أن أودعه بنفسى» .

ثم قال على الفور: «أظن أنه لم يبق هناك داع الآن لبقائى فى الفندق .. أريد أن أعود إلى بيتى .. لقد أوحشنى الأولاد «ولعلى أستطيع أن أراهم قبل أن يناموا الليلة» .. والتفت إلى يقول: «هل إنت متعب ؟» .. قلت: «أبدا» .. قال: «إذن أبقى هنا لقد كلفت الفريق (محمد أحمد) صادق (رئيس الأركان) أن يقابل الباهى الأدغم وأن يبحث معه ترتيبات سفر لجنة الرقابة .. احضر معهم هذا الاجتماع» .. ثم استطرد: «ولعلك أيضا تقابل إخواننا فى المقاومة» .. وقلت: «إننى سابقى .. ومشيت معه من جناحه إلى المصعد وسلمت عليه قبل أن يقفل الباب .. ولم يكن يخطر بخيالى أنها آخرُ مرة أصافحه» .

وقضيت ساعة مع الفريق صادق ومع الباهى الأدغم .. ثم قضيت نصف ساعة أخرى مع ياسر عرفات ومع بعض زعماء المقاومة الفلسطينية .. ثم أحسست أننى لا أستطيع أن أحتمل أكثر فغادرت الفندق ذاهبا إلى بيتى .. ولم أكد أدخل حتى دق جرس التليفون وكان المتحدث السير «تشارلز بومونت» السفير البريطانى فى القاهرة يقول لى: إنه يريد أن يقابلنى فورا لأن هناك رسالة عاجلة من إدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا .. وأن هذه الرسالة لابد أن تصل إلى الرئيس جمال عبد الناصر الليلة .. وجاء السفير البريطانى إلى

بيتى وناولنى برقية من لندن تتصل بالإفراج عن الفدائيين العرب السبعة المحتجزين فى بريطانيا وألمانيا الغربية وسويسوا فى مقابل الإفراج عن بقية الرهائن من ركاب الطائرة المخطوفة إلى الأردن .. وكان الرئيس قد كلفنى ببعض الاتصالات الخاصة بهذا الموضوع وتحدثت فيه بالتليفون أكثر من مرة من جناحه الخاص فى فندق هيلتون وأمامه مع السفير البريطانى السير «تشارلز بومونت» .. ونزل السفير البريطانى وكانت الساعة الثانية عشر مساء .. منتصف الليل بالضبط .. وتحيرت: هل أطلب الرئيس فى غرفته بالتليفون المباشر أو أنتظر إلى الصباح .. واتصلت بسامى شرف وزير الدولة وسكرتير الرئيس للمعلومات والساهر الدائم باستمرار فى انتظار أوامره أسأله: «هل نام الرئيس وهل انطفأ النور فى غرفته؟» .. وقال لى سامى شرف: «لقد كان يتحدث معى الآن على الفور .. وتستطيع أن تتصل به بسرعة».

وأدرت رقم التليفون وسمعت صوته يرد واعتذرت لإزعاجه وقال برقة: «أبداً .. مازال هناك وقت طويل قبل أن أنام .. كنت أفكر فيما حدث وفيما يمكن أن يحدث» .. وقلت: «أول ما يجب أن يحدث هو إجازة لك» .. وقال: «سوف نتحدث فى هذا غداً» .. ورويت له عن لقائى بالسفير البريطانى ثم سألنى عن اجتماعى بياسر عرفات ثم عن الاجتماع الذى حضرته بين الفريق صادق والسيد الباهى الأدغم .. ثم قال كمن تذكر شيئا: «هل فعل أحد شيئا بالنسبة للترتيبات المالية للجنة الرقابة .. هل سيذهب الباهى الأدغم إلى عمان ولا يجد تحت تصرفه ما يدفع به فاتورة الفندق الذى تقيم فيه البعثة فضلا عن أية مصاريف أخرى» .. قلت: «فى الحقيقة لا أعرف» .. قال: «اتصل بسامى ـ يقصد سامى شرف ـ وقل له أن يرتب وضع ثلاثين ألف جنيه تحت تصرف البعثة .. عشرة تدفعها مصر .. وعشرة تدفعها السعودية .. وعشرة تدفعها الكويت .. قل له أن يكلف أحد بالاتصال بالملك فيصل وبأمير الكويت من أجل تأمين أسهمهما فى الاعتماد المخصص للبعثة».

ثم قال فجأة: «هل تذكر بيتى الشعر اللذين قلتهما لى أثناء الأزمة؟» .. قلت: «نعم» .. وكنت عندما استحكم الخلاف بين الأطراف قد قلت له مرة: «لقد فعلت كل ما تطيقه البشر .. ويكفيك ما فعلت .. وعلى كل جانب أن يتحمل المسئولية» .. ثم أضفت وقتها مستشهدا ببيتين من الشعر الجاهلى يقول فيهما الشاعر «أمرتهموا أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد .. وما أنا إلا من عزمه إن غوت غويت وإن ترشد عزمه أرشد» .. وكان عندما سمع منى البيتين أول مرة علق بقول: «مع الأسف فإنى لا أستطيع أن أقول إن غوت غويت وإن ترشد عزمه أرشد» .. وأعدت عليه فى التليفون تلك الليلة بيتى الشعر كما طلب .. وقال وصوته يحمل نبرة الارتياح: «إلا يجب أن نحمد الله لأنهم

رأوا الرشد الليلة ولم ينتظروا عليه إلى ضحى الغد» .. ثم قال بصوت خفيض يحمل أثقال الجهد .. وأحسست به يتنهد ويقول: «من يعلم ماذا سيأتى به الغد؟» ..

ووصلت إلى مكتب فى الأهرام فى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى الاثنين ٢٨ سبتمبر .. وحين دخلت كان أول ما قيل لى: «إن الرئيس اتصل بنفسه وسأل عنك .. ولما عرف أنك لم تحضر بعد قال لا داعى لأن تطلبه لأنه خارج إلى المطار الآن وسوف يتصل بك هو عند الظهر» .. ولم أذهب إلى وزارة الإرشاد كما أفعل عادة فى الحادية عشرة صباحا وأنما بقيت فى الأهرام قريبا من التليفون الذى يطلبنى عليه عادة .. كان تليفونه قبل الثامنة والنصف أول اتصال أجراه ذلك اليوم .. ثم قال ـ كما عملت فيما بعد ـ إلى حمام الصباح ثم جلس إلى إفطاره وأكل تفاحة واحدة من صندوق تفاح جاء به الوفد اللبنانى إلى مؤتمر القاهرة ثم فنجان قهوة مع السيدة الجليلة قرينته .. وقالت له هى قبل أن يتركها إلى أول وداع رسمى ذلك اليوم فى مطار القاهرة: «إن الأولاد سيكونون جميعا على الغذاء اليوم» .. وسألها عن أحفاده قائلا: «وهالة» و «جمال» .. وقالت هى: «إن جمال منذ الصباح الباكر جاءت به منى وهى فى طريقها إلى عملها وتركته فى البيت لكى يراه جده كما طلب قبل أن ينام .. وأما هالة فهى فى الطريق الآن» .. وقال لها : أنه سيراهما على الغذاء .. وخرج من البيت قبل الساعة التاسعة بدقيقتين ..

وفى الساعة الواحدة دق جرس التليفون فى مكتبى .. وجاءنى صوته وأحسست به متعبا .. متعبا إلى أقصى حد .. وأعدت عليه حديث الإجازة وقال: إنه يستريح بعد وداع أمير الكويت .. وسألته عما يشعر به قال: «أجد نفسى غير قادر على الوقوف» .. وسألته: «هل رأيت الطبيب ؟» .. وقال: «كان عندى الدكتور الصاوى (حبيب) وأجرى رسما جديدا للقلب .. وقال إن كان شيء كما هو» ..وقلت: «وآلام الساق .. أما من دواء لها؟» .. وقال: «سوف أضع قدمى فى ماء دافيء به ملح وأظن أن الألم سوف يتحسن .. هو طول الوقوف فما اعتقد» .. وعدت ألح فى حديث الإجازة واقترح أن يذهب إلى الاسكندرية وقال : «لا أستطيع الذهاب متعبا بهذا الشكل .. سوف أنام هنا يوما كاملا .. وبعدها أفكر فى الذهاب إلى الإسكندرية» .. ثم تطرق الحديث إلى السياسة كالعادة وسألنى عن رد الفعل فى إسرائيل لاتفاق حكومة الأردن مع المقاومة .. وأجبته بملخص البرقيات التى وردت ذلك الصباح .. ثم قال: «هل تعرف أن بيرجيس ـ يقصد دونالد بيرجيس القائم على شئون الرعايا الأمريكيين فى القاهرة ـ سوف يسافر إلى إيطاليا وهناك سوف يجتمع بنيكسون .. إنه اتصل بالخارجية أمس وسأل إذا كان هناك ما يستطيع أن ينقله إلى نيكسون .. أريدك أن تطلبه الآن وأن تبلغه رسالة منى إلى نيكسون .. أطلب منه أن ينقل له إننى مازلت أسعى إلى حل على أساس قرار مجلس الأمن .. إن موقفى لم يتغير .. إن الضجة

التى تثيرونها عن الصواريخ زادت عن حدودها وهى بلا منطق .. إذا كانت إسرائيل تنوى الانسحاب من كل الأراضى المحتلة فما هو خوفها من الصواريخ على فرض إننا قمنا بتركيبها؟ ..

قلت له : «إننى سأطلب بيرجس» .. قال: «إطلبه الآن» .. ورفعت سماعة التليفون الآخر وطلبت إلى مكتبى إيصالى بدونالد بيرجيس وقلت له: «إن لدى رسالة كلفت بإبلاغها إليك لكى تنقلها إلى نيكسون» .. وقال بيرجيس: «متى تريدنى أن أجيء ؟» .. قلت له: «الساعة السابعة مساء» .. وأقفلت التليفون معه والرئيس على الخط يواصل الحديث ولا يخطر ببالى إننى سأؤجل موعدى مع بيرجيس لأن عبد الناصر سوف يكون قد رحل قبل الموعد المحدد .. ثم تشاء المقادير أن اسلم الرسالة إلى ريتشارد سون الذى رأس وفد العزاء فى عبد الناصر وكان قد جاء ليتحدث معى .. وقلت له: «ليس لدى ما أقوله لك غير رسالة كلفنى بإبلاغها إلى بيرجيس لينقلها إلى نيكسون وهذه الرسالة الآن لك» ..

واستطرد الرئيس يقول: «لا أظنهم سوف يفهمون شيئا ومع ذلك فلابد أن يكون موقفنا واضحا ولو أمام أنفسنا وليتصرفوا هم كما يشاءون» .. ثم مضى الرئيس يقول: «قد لا أتصل بك فى المساء لأننى سوف أنام» .. ووجدتنى أقول بطريقة تلقائية: «تصبح على خير» .. وقال ضاحكا: «ليس بعد .. نحن مازلنا الآن فى عز النهار» .. وكانت تلك آخر مرة أسمع فيها صوته.

واستراح قليلا فى غرفته ثم قام يرتدى ملابسه مستعدا للتوجه إلى المطار لمراسم الوداع الأخير مع أمير الكويت .. واتصل بسامى شرف يسأله عما إذا كان هناك جديد ؟ .. وقال سامى شرف أنه ليس هناك جديد ولكنه يلح على الرئيس فى ضرورة أن يريح نفسه لأن الجهد الذى يبذله عنيف .. وقال الرئيس: «سوف أنام بعد أن أعود .. سوف أنام نومًا طويلا» .. ثم استطرد: «وفى الغد نتكلم عن الإجازة» .. وخرج من غرفته متوجها إلى السلم أمام المصعد ثم ضغط على الزر يطلبه .. وكانت أول مرة منذ تركيب المصعد فى بيته يستعمله فيها للنزول .. كان دائما يستعلمه فى الصعود .. وعند النزول كان يفضل السلم .. وفى وداع أمير الكويت أحس فى الدقائق الأخيرة أنه متعب بأكثر مما يحتمل لكنه تماسك بجهد لا يصدق .. وقبل أمير الكويت وهو يتصبب عرقا .. والدوار يعتريه.

وصعد أمير الكويت إلى طائرته والتفت الرئيس يطلب سيارته .. وكان ذلك على غير المعتاد فقد كانت العادة أن يذهب هو ماشياً إلى حيث تقف سيارته وأن يحيى المودعين .. وجاءت السيارة ودخل إليها وهو يقول لمحمد أحمد: «أطلب الدكتور الصاوى يقابلنى الآن فى البيت» .. واستقل المصعد من الدور الأول فى بيته إلى الدور الثانى .. وكانت الأسرة كلها فى انتظاره .. وأحسوا جميعا أنه متعب ولكنه وقف وسطهم دقيقة يتحدث مع

حفيديه هالة وجمال ثم يتوجه بعد ذلك إلى غرفة نومه وتلحق به السيدة الجليلة قرينته تسأله متى يريد الغذاء ويقول لها وهو يخلع ملابسه: «لا أستطيع أن أضع شيئا فى فمى» .. ويرتدى بيجامة بيضاء مخططة بخطوط زرقاء ويدخل إلى سريره ويجىء الدكتور الصاوى وتستأذنه السيدة الجليلة قرينته فى الخروج لأنها ـ كما عودها دائما ـ لا تقف فى الحجرة وهناك فيها غيره حتى ولو كان الطبيب .. ولكن قلبها لا يطاوعها على الخروج بغير سؤال لمحه الرئيس فى عينيها قبل أن تنطق به .. وقال لها مطمئنا: «لا تخافى .. أظنه نقصا فى السكر» .. وقال بسرع: «أجيئك بشىء ؟» .. وقال الدكتور الصاوى: «أى عصير» .. وذهبت هى تعصر ليمون وكوب برتقال .. بينما الدكتور الصاوى يشعر من أول لحظة أن هناك طارئاً خطيراً .. ويخرج من الغرفة ليتصل بمحمد أحمد على التليفون ويطلب منه استدعاء الدكتور منصور فايز والدكتور زكى الرملى ..

ويعود إلى الغرفة والسيدة الجليلة قرينة الرئيس تدخل إليها حاملة كوب عصير برتقال وكوب عصير ليمون .. ويختار الرئيس كوب البرتقال ويشربه .. وتخرج هى من الغرفة ويبدأ الدكتور الصاوى محاولاته لوقف الطارىء الخطر .. كان تشخيصه على الفور أن هناك جلطة فى الشريان الأمامى للقلب .. ولما كانت الجلطة السابقة فى سبتمبر من العام الماضى قد أثرت فى الشريان الأمامى .. إذن فالموقف دقيق وحرج .. ويصل الدكتور منصور فايز وعند وصوله تحس السيدة الجليلة قرينة الرئيس أن هناك شيئا غير عادى .. كانت طوال الوقت واقفة تنتظر فى قاعة الجلوس التى تجتمع فيها الأسرة وهى على مدخل البهو المؤدى إلى غرفة مكتب الرئيس ثم غرفة نومه فى الدور الثانى من البيت .. وحين وجدت الدكتور منصور فايز أمامها اقتربت منه والقلق يشد ملامحها لتقول له: «لا تؤاخذنى يا دكتور .. لا أقصد الإساءة .. ولكن مجيئك يقلقنى .. أنت تجىء عندما يكون هناك شىء غير عادى» .. وقال لها الدكتور منصور فايز: «أرجوك أن تطمئنى .. كل شىء بخير إن شاء الله» .. ودخل .. وبعد قليل جاء الدكتور زكى الرملى .. كان التشخيص واحدا .. وكانت الإسعافات التى بدأها الدكتور الصاوى قبل مجيئهما مستمرة وكان الرئيس منتبهاً إلى كل ما يجرى ..

وحوالى الساعة الخامسة بدأ الأمل يقوى .. كان النبض قد بدأ ينتظم وضربات القلب تعود إلى قرب ما هو طبيعى .. واستراح الأطباء والتقطوا أنفاسهم وهم بجواره وهو يراقبهم بابتسامة هادئة على شفتيه .. ثم بدأ يتحدث معهم .. كانت الساعة الخامسة إلا خمس دقائق بالضبط .. وقال الدكتور منصور فايز: «إن الرئيس فى حاجة إلى إجازة طويلة» .. وقال الرئيس: «كنت أريد أن أذهب إلى الجبهة قبل الإجازة .. هل أستطيع أن أذهب لأرى أولادنا هناك قبل الإجازة؟» .. وقال الدكتور منصور فايز: «إن ذلك سوف

يكون صعبا .. ويجب أن تسبق الإجازة أى نشاط آخر» .. وقال الرئيس: «إن كل الوزراء اليوم فى الجبهة .. لقد طلبت أن يذهبوا إلى هناك وأن يعيشوا يومين مع الضابط والجنود .. يجب أن يعرفوا ويعرف كل مسئول حقيقة ما يقوم به الجيش فى الجبهة» ..

وهم الرئيس من فراشه ومد يده إلى جهاز راديو بجانبه وفتحه يريد أن يسمع نشرة أخبار الساعة الخامسة من إذاعة القاهرة .. وبينما اللحن المميز لنشرة الأخبار من إذاعة القاهرة ينساب فى الغرفة ويبدد بعض الشيء جوها المشحون بالطارئ الخطر أحس الدكتور منصور فايز أنه يريد أن يدخن سيجارة وتصور أن خروجه من الغرفة ليدخن سيجارة قد يكون فرصة تطمئن فيها السيدة الجليلة قرينة الرئيس على صحته .. وخرج فعلا إلى غرفة المكتب ثم إلى البهو المؤدى إلى غرفة الجلوس ووجدها أمامه ويدها تعصران وجهها من القلق ومشقة الانتظار .. وقال باسما: «إنه بخير والحمد لله» .. وسألته بلهفة: «صحيح ؟» .. وقال لها: «إننى كطبيب أسمح لك بان تذهبى وتريه بنفسك» .. وقالت له: «أخشى إذا دخلت أن يشعر بقلق ويتضايق .. إنه لم يتعود أن أدخل وهناك أطباء وإذا دخلت فقد يتصور أن هناك شيئا غير عادى» ..

فى غرفة نوم الرئيس كان المشهد يتغير بسرعة لم تكن متوقعه .. أستمع الرئيس إلى مقدمة نشرة الأخبار ثم قال: «لم أجد فيها الخبر الذى كنت أتوقع أن اسمعه» .. ولم يقل شيئا عن الخبر الذى كان ينتظر سماعه .. وتقدم منه الدكتور الصاوى وقال: «ألا تستريح سيادتك .. إنك فتحت جهاز الراديو ثم قفلته ولا داعى لأى مجهود الآن» .. وعاد الرئيس يتمدد تماما على فراشه ويقول بالحرف: «لا يا صاوى .. الحمد الله .. دلوقت أستريحت» .. ولم يفرغ الدكتور الصاوى من عبارة يقول فيها «الحمد لله يا فندم .. » لم يفرغ ونظر مركز على الرئيس حتى وجده يغمض عينيه ثم وجد يده تترك من فوق صدره حيث كان وضعها وتستقر بجواره بعدها لم يشعر عبد الناصر بشيء .. لم يقل كلمة .. وكانت ملامح وجهه تعكس نوعا غريبا من الراحة المضيئة .. وجرى الدكتور الصاوى هلعا ينادى الدكتور منصور فايز ووقف كل الأطباء أمام الفراش وبيدهم وعقولهم كل ما يستطيعه العلم ..

ووصلت إلى البيت وصعدت السلم قفزا وكانت السيدة الجليلة قرينة الرئيس أول من لقيت وكانت إحدى يديها تضغط على خدها واليد الأخرى تمسك برأسها وليس على لسانها وقد ملكها الخوف والخطر إلا نداء واحد: «جمال .. جمال» .. وكانت تكتم نداءها حتى لا ينفذ إلى حيث يرقد هو .. وعبرت غرفة مكتبه بسرعة إلى غرفة نومه وإلى فراشه وكان الأطباء مازالوا من حوله وكان ممددا على الفراش وسطهم .. بالبيجامة البيضاء بخطوطها الزرقاء .. وفوجئت بما رأيت ..

عندما دعيت إلى البيت لم يخطر ببالى ما قدر لى أن أراه .. أقصى ما خطر ببالى عندما دعيت إلى بيته «لأنه متعب» هو أن شيئا مما ألم به فى العام الماضى قد عاوده .. لكننى لم أكن مهيئا لما رأيت .. ولأول نظرة على الفراش فإننى أحسست بما لا أستطيع اليوم ولا غدا أن أصفه من مشاعرى ..

كان هناك على الفراش هدوء غريب .. صمت كامل .. كان هناك شيء واحد يلمع بشدة وهو دبلة الزواج فى يده ينعكس عليها ضوء النور المدلى من السقف .. ولم أحاول أن أقترب من أى واحد من الأطباء فلم يكن من حق أحد أن يشغلهم .. والتفت حولى إلى بقية من فى الغرفة: شعراوى جمعة وسامى شرف ومحمد أحمد .. وكانوا جميعا مثلى معلقين بين السماء والأرض .. ووجدتنى أدور فى الغرفة وأبتهل .. أردد والدموع تنزل صامتة: يارب .. يارب .. ثم أرقب محاولات الأطباء الأخيرة وأناديه فى علاه: يارب غير ممكن .. يارب غير معقول .. وتستمر محاولات التدليك الصناعى للقلب .. وتتكرر تجربة الصدمة الكهربائية والجسد الطاهر يختلج ولكن الهدوء يعود بعد كل اختلاجه .. بلا حس ولا نبض .. وأحسست أن الأطباء فقدوا الأمر .. وأنهم لا يحاولون بالعلم .. ولكن يحاولون ضد العلم ..

وجاء على صبرى ووقف مبهوتا أمام ما يجرى .. وجاء حسين الشافعى واستدار إلى القبلة يصلى لله .. وجاء أنور السادات ووقف أمام الفراش رافعا وجهه إلى السماء يتمتم بآيات من القرآن .. ودخل الفريق أول محمد فوزى والذهول يملأ وجهه فى نفس اللحظة التى قال فهى أحد الأطباء «إن كل شيء قد أنتهى» .. وقال الفريق أول فوزى بحدة ملتاعة: «لا .. لا يمكن .. واصلوا عملكم» .. وانفجر الدكتور منصور فايز باكيا .. وانفجر معه كل الأطباء باكين .. وانهمرت الجموع .. طوفان من الدموع ..

ودخلت السيدة الجليلة قرينته إلى الغرفة المشحونة بالجلال والحزن .. لا يمكن لأحد أن يصف أحزانها المتوهجة كالجمر المشتعل .. «والتفت تقول: لا تقولوا الرئيس .. قولوا جمال عبد الناصر وكفى .. سيبقى بالنسبة لى وللناس كلهم جمال عبد الناصر» .. ثم انحنت عليه تقبل يده مرة أخرى وهى تقول: «لم يكن فى الدينا سواه .. ولا أريد فى الدنيا غيره .. ولا أطلب شيئا إلا أن اذهب إلى جواره حيث يكون» .. ثم التفتت السيدة الجليلة فى حزنها الذى يفتت الصخر تسألنى: «قل لى أنت .. رد على .. ألن أسمع صوته بعد الآن؟» .. وأقبل أحد الأطباء يغطى وجهه ونظرت إليه متوسلة بالدمرع والنشيج: «اتركوه لى .. أنظر إليه .. أملأ عينى به» .. واستدار كل من فى الغرفة خارجين .. تاركين اللحظة الأخيرة وحدها معه ..

وعندما جاءت السيارة تنقل جثمانه الطاهر إلى قصر القبة كانت فى وداعه حتى الباب وكانت كلمتها المشوية باللهب الحزين والسيارة تمضى: «حتى بعد أن مات ... أخذوه منى .. لم يتركوه لى» .. وانطلقت السيارة فى جوف الليل الحزين.

وسرى النبأ كعاصفة من برق ورعد .. وزلزال يهز البحر الأبيض ـ قلب الدنيا وبؤرة التاريخ ـ من أعماق الأعماق .. إلى ذرى الأمواج العالية .. وفى شرق البحر الأبيض ـ فى عمان ـ تسمرت الدبابات فى أماكنها وخرج رجال المقاومة من خنادقهم يصرخون وينادون عليه .. وأجهش حافظ الأسد وزير الدفاع السورى بالبكاء وهو يقول: «كنا نتصرف كالأطفال وكنا نخطيء .. وكنا نعرف إنه هناك يصحح ما نفعل ويرد هو أثاره» .. وفى شرق البحر الأبيض ـ فى تل أبيب ـ كان النبأ أخطر من أن يصدق للوهلة الأولى وقالت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل «من الذى أطلق هذه النكتة السخيفة ؟» .. ثم تأكد النبأ وخرجت جولدا مائير تشارك الشعب الإسرائيلى فرحته بالخلاص من أعدى أعداء إسرائيل .. أصدر (موشى) ديان (وزير الدفاع) أمره إلى القوارب المعدة للتدخل الإسرائيلى ـ الأمريكى أن تتفرق .. وفى شمال البحر الأبيض كان الرئيس ريتشارد نيكسون قد صعد لتوه إلى ظهر حاملة الطائرات ساراتوجا .. ثم توجه إلى كابينة القيادة التى سيحل بها أثناء مناورات الأسطول السادس التى كان الهدف منها أن يسمع جمال عبد النصر فى القاهرة صوت مدافعه .. ودخل عليه مساعده هالدمان بالنبأ .. وذهل نيكسون ثم كان قوله بعد قليل: «لا داعى الآن لهذه المناورة كلها» .. وصمتت قعقعة السلاح على قطع الأسطول الأمريكى السادس وطأطأت المدافع رؤوسها للحدث الخطير الذى يتعدى بآثاره كل الحدود..

وخيم على البحر الأبيض ـ قلب الدنيا وبؤرة التاريخ ـ سكوت كثيف ـ وهدأت العواصف وارتمت الأمواج على الشواطيء وقد استنفذت قواها .. وكان جمال عبد الناصر فى حياته أكبر من الحياة .. وكان جمال عبد الناصر بعد رحيله أكبر من الموت» .

انتهى .

■ ٣٥ ■

هيكل لا يقرأ التقارير السرية الحمراء !

■ بكى هيكل فى حياته لأسباب عامة ثلاث مرات .. مرة عند وفاة جمال عبد الناصر .. ومرة عند هبوط طائرة أنور السادات فى إسرائيل .. ومرة عندما سمع وهو فى السجن نبأ اغتيال أنور السادات.

كان هيكل وقت رحيل جمال عبد الناصر وزيرا للإرشاد أو للإعلام .. وقد فاجأه جمال عبد الناصر بنبأ تعيينه وزيرا فى ٢٥ إبريل عام ١٩٧٠ دون أن يخبره لأنه كان يعرف مسبقا أنه سيرفض .. وقد تردد هيكل فى قبول المنصب .. وكان سبب تردده هو «أن الصحافة قد أصبحت حياته الحقيقية وهو لا يستطيع ممارسة مهنة أخرى» .. ووافق جمال عبد الناصر على أن يبقى هيكل فى موقعه بالأهرام وهو وزيرا للإعلام .. لكن كان رأى هيكل فى رسالة كتبها إليه: «أن القرار الذى يكلفه بالاضطلاع على التوالى بمسئوليات فى الأهرام وبمسئوليات وزارية يحمله عبء مسئولية كبيرة وهو يعتبر نفسه غير قادر عليها .. ولذلك يفضل تركيز جهوده على خدمة الأهرام» .. كما «أن الجمع بين المهمتين يعطيه جميع الوسائل التى تجعل منه رجل سلطة وقوة وذاك يمكن أن يؤذى النظام» .. كما أنه فى النهاية: لا يرى فى نفسه الاستعدادات والكفاءات التى تتطلبها المهمة الوزارية.

لكن جمال عبد الناصر نجح فى إقناع هيكل بأن يكون بجانبه فى منصب رسمى حتى نهاية الحرب مع إسرائيل .. ولم يملك هيكل إلا القبول .. وقد رفض هيكل هذا المنصب ثلاث مرات فيما قبل .. فى خلال حرب السويس (عام ١٩٥٦) .. وفى أثناء الوحدة المصرية السورية (بعد عام ١٩٥٨) وبعد الانفصال (عام ١٩٦١) .. وواضح من هذه التواريخ أنها تواريخ أزمات حادة كان وجود هيكل فيها وزيرا للإعلام ضرورة حيوية .. وفى المرة

الرابعة ـ التى قبل فيها هيكل الوزارة ـ كانت الأزمة السياسية فى أشد حالتها .. بعد الهزيمة .. وبعد الانتهاء من الخطة «جرانيت – واحد» الهجومية لعبور قناة السويس بخمس فرق على ثلاثة محاور .. وبعد الانتهاء من الخطة «جرانيت اثنين» للعبور والوصول إلى المضايق والتمسك بها.

وقد وضع هيكل وهو وزيرا للإعلام قانون هيئة اتحاد الإذاعة والتلفزيون متأثرا بالقانون الذى يحكم هيئة الإذاعة البريطانية (بى . بى . سى) ويمنحها صلاحية التصرف المستقل من خلال مجلس أمناء بعيدا عن التدخل الحكومى لوزير الإعلام .. واختير الدكتور مصطفى خليل أول رئيسا لاتحاد الإذاعة والتليفزيون .. لكن .. هذه الاستقلالية لم تستمر فيما بعد .. فالسيطرة فى النهاية كانت لسلطة وزير الإعلام.

واكتشف هيكل خلال علمه فى وزارة الإعلام وجود مخصصات سرية لبعض الصحف اللبنانية خاصة مجلة «الحوداث» التى كان يملكها ويرأس تحريرها سليم اللوزى وهو فلسطينى الأصل .. هاجر إلى القاهرة فى الأربعينيات وعمل سكرتيرا لتحرير مجلة «روز اليوسف» ثم ترك مصر إلى لبنان ليستقر فيها .. وقد انتهى نهاية مؤسفة بأن خطف وحرقت أصابعه ثم حرق جسده فى أحماض حارقه حتى مات .. كانت وزارة الإرشاد فى مصر تدفع للصحف اللبنانية للدعاية للنظام الناصرى .. وقد رفض هيكل هذا التصرف .. واعتبره سلوكا غير طبيعى .. ولم يكن من الممكن وهو الذى أدان المصاريف السرية فى بداية الثورة أن يوافق على مثل هذا السلوك.

وقد فوجئ هيكل فى أول يوم تولى فيه وزارة الإعلام بمدير مكتبه يعطيه ملفا يضم أوراقا حمراء هى تفريغ شرائط مراقبة التليفونات التى كانت ضمن اختصاصات وزارته .. وعندما عاد إلى البيت فُزع هيكل مما قرأ .. ورفض فيما بعد قراءة هذه الأوراق اليومية الحمراء لأنها رغم ما فيها من تسلية وتميمة وأسرار تسيطر على رأس من يقرأها وتغير رؤيته للناس الذين يعرفهم .. وفى حمام وزير الإعلام كانت هناك خزينة عندما فتحها لجردها عرف أن الأموال التى بداخلها من حقه التصرف فيها دون مراجعة أو محاسبة .. وقد رفض هذا الأسلوب.

وحارب هيكل وهو وزير للإعلام مدرسة المبالغة فى قوة الذات والمبالغة فى عيوب العدو .. بل كان واقعيا فى توصيف العدو وقراءة خرائط القوى التى يتحرك عليها .. وقد كان هذا هو خطه الواضح فى مقالاته بعد الهزيمة .. فهو فى مقال بتاريخ ٢٠ أكتوبر

١٩٦٧ عنوانه «وقفة قرب الجانب العسكرى من النكسة» يقول: «لقد كنا أمام عدو متعلم وعصرى» .. ولم نكن أمام عدو يستعمل كلمة الشطارة أو يلعب بالبيضة والحجر على حد التعبير المصرى الدارج .. وفى مقال بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٦٩ عنوانه «نظرة على خط وقف إطلاق النار» وكان للتمهيد لحرب الأستنزاف يقول: «سوف تكون الفترة القادمة حافلة بتضحيات كبيرة وكثيرة عزيزة وغالية» .. وفى ١٣ مارس ١٩٧١ كتب المقال الشهير «تحية للرجال» الذى عدد فيه صعوبات وتضحيات الحرب مع إسرائيل .. وقد حُوكم هيكل على هذه المقالات وغيرها فيما بعد أمام المدعى العام الاشتراكى ووجهت إليه تهمة «الانهزامية» .. وقد رد عليها فى ١٠ جلسات .. كل منها ٣ ساعات.

وفور وفاة جمال عبد الناصر سارع هيكل بتقديم استقالته من وزارة الإعلام إلى خليفته أنور السادات .. لكن أنور السادات طلب منه تأجيلها حتى ينتهى من إجراءات نقل السلطة إليه .. لقد قدم هيكل استقالته فى يوم السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠ ولكن أنور السادات لم يقبلها إلا فى يوم الأحد ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ .. وكان نص خطاب الاستقالة:

سيادة رئيس الجمهورية بالنيابة

الأخ والصديق أنور السادات

الآن وقد استقر جثمانه الطاهر فى ثرى مصر الخالدة فإنى أتقدم إليك راجيا أن تأذن بإعفائى من العمل فى وزارة الإرشاد القومى .. إن وصولى إلى القرار يدفعنى إلى التقدم بهذا الرجاء إليك لم يصدر عن إحساس بلوعة عاطفية ـ مع أنه لدى منها أكثر مما يتصور أحد ـ ولكنه يصدر أيضا عن اعتبارات عديدة إنسانية وفكرية وعملية أجملها فيما يلى:

١ـ إن الكل يعلم أننى حاولت طوال عمرى أن أبتعد عن المناصب الرسمية تمسكا بمهنة اعتقدت ومازلت أعتقد أن حياتى فيها.

٢ـ إننى خرجت عن هذه القاعدة نزولا على أمر كريم منه عندما شاء أن يكلفنى بالتعبير الرسمى عنه فى فترة من النضال الوطنى بالغة الحساسية وكان هذا من جانبه اختياراً شخصياً .. من بعده فإننى لا أملك هذا الحق بالنسبة لغيره كما أننى لا أستطيع أن أبقى على رأس وزارة الإرشاد القومى تعبيرا عن نفسى فمكان ذلك الصحيح هو الأهرام وحده وليس أى مكان آخر.

٣- إن جزءاً كبيرا من مهمة إعادة تنظيم وزارة الإرشاد القومى قد تم بإنشاء اتحاد الإذاعة والتلفزيون العربى وبالدراسات المعدة للبت فى شأن الهيئة العامة للاستعلامات وغيرها من مؤسسات الوزارة .. ومع أن عملية إعادة التنظيم لم تظهر آثارها بعد أمام الناس فإنى أتوقع - مع بداية سنه ١٩٧١ - بمشيئة الله أن تكون هذه الآثار أمام الجميع مرئية ومسموعة.

٤- إننى لم أعد أستطيع بكل ما أحس به الآن التوفيق بين وزارة الإرشاد والأهرام وكنت قد استطعت ذلك بجهد جهيد لبضعة شهور .. لكننى الان أجد أن ذلك سوف يكون مستحيلا بالنسبة لى .. وإذا كان لى أن أختار - والخيرة لله - فإننى أوثر أن ابقى فى المكان الذى أسهمت فيه مع الآف من أبنائه فى تحويله إلى إطلالة مصرية على العصر الحديث .. وكان ذلك ولكى أكون منصفا للتاريخ بتشجيع معنوى كبير منه وبإلهام مضئ.

٥- إننى أعتقد إلى جانب ذلك أن على مسئولية أتحملها أمام الأجيال فلقد اقتربت من فكره وعمله «جمال عبد الناصر» ولابد أن أُعيد ترتيب أوراقى وذكرياتى عنه لأننا نحن الذين عرفناه عن قرب وشرفنا بالوقوف حيث تمكنا من رؤيته وهو يحلم ويناضل ويحقق - لا نملك وحدنا قصة حياته فهذه القصة ملك لشعبنا ولأمتنا العربية وللإنسانية.

ولعلك تذكر أيها الصديق الكريم وكنا معا أخيرا فى فندق هيلتون - أثناء أزمة الأردن التى كانت أخر معاركة المنتصرة - أننا تحدثنا عن التاريخ وكيف سيروى حكاية هذا العصر وتذكر أنه أمامك وأمام السيدين حسين الشافعى وعلى صبرى أشار إلى وقال: «إنه هو المسئول عن ذلك .. لقد كان يعرف كل شئ .. وهو يتحدث دائماً عن الإحساس بالتاريخ .. والكتابة صناعته» .. ومن جانبى أيها الأخ الكريم فإننى أعتبر تلك الوصية يسألنى عنها ضميرى وسوف يسألنى عنها الضمير العام لأمتى .. وليس معنى ذلك أننى أفكر فى النشر العاجل فأنا أول من يقدر أن هناك أشياء لم يحن أوانها ولكنى بأمانة المسئولية أمام ذكراه الغالية لا أستطيع أن أترك شيئا للضياع أو النسيان ..

إننى أرجوك ملحا ومن كل قلبى الا تعتبر هذا تخليا منى فى وقت عصيب .. إنك تعلم أن ذلك لا يمكن أن يخطر لى ببال فأنت الرجل الذى اختاره هو بنفسه نائبا له فى وقت علم فيه أنه معرض لمخاطر مؤامرات خطط لها الذين تصدى طوال عمره لمطامعهم وسيطرتهم على مقدرات أمته .. وذلك الاختيار وحده يكفى ليس بالنسبة لى وحدى وإنما بالنسبة لكل الذين تراودهم اليوم أعظم الآمال بان يستمر الخط الذى رسمه لأمتنا سواء لمرحلة النصر أو لما بعد النصر بإذن الله ..

إنى أناشدك أن تغفر لى ما أستأذنك فيه الآن إذا كان رأيك فيه مخالفا لرأيى وأتمنى على الله وعليك أن يكون غفرانك من فهمك لموقفى وظروفى ومشاعرى .. وأريدك فى النهاية أن تعرف أن قلبى معك وأن عقلى معك بكل ما أستطيع دفاعا عن مبادئه وعن سياسات أجراها نابعة من تلك المبادئ .. ولك الدعاء خالصا وصادقا أن يعينك الله على ما تحملت أمانته .. ولك التحية والمحبة.

محمد حسنين هيكل

السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠

ورد الرئيس أنور السادات على خطاب الاستقالة بالخطاب التالى:

عزيزى الأستاذ/ محمد حسنين هيكل

وزير الإرشاد القومى

تحية الإسلام مباركة طيبة وبعد

فلقد تلقيت كتابك وقرأته بكل عناية وتقدير فليس أحب إلى فى هذه الحياة من معنى مثل معنى الوفاء فى كل صورة وألوانه .. من أجل ذلك فإنه لا يسعنى إلا أن أجيبك إلى طلبك أيها الصديق واثقا أن جهدك وقلمك سوف يظلان كما عودت زعيمنا الراحل أن يكونا فى مكانهما من معركتنا المقدسة شاكرا لك ما بذلته من جهد خلال توليك الوزارة داعيا لك المولى عز وجل أن يوفقك فى مكانك الذى اخترته بإرادتك وأن يمنحك الصحة وموفور السعادة والله أسأل أن يسددنا جميعا بتوفيقه .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أنور السادات

الأحد ١٨ أكتوبر ١٩٧٠

كان واضحا أن هيكل بدأ منذ رحيل جمال عبد الناصر فى تسجيل تجربته .. وربما كان هذا أحد أسباب تقديم استقالته من وزارة الإرشاد أو الإعلام بعد أقل من ٦ شهور فقط قضاها فيها .. وكان واضحا أيضا أن الفكرة بدأت تلح عليه فى المقال الذى كتبه فى مناسبة ميلاد جمال عبد الناصر فى ١٥ يناير ١٩٧١ .. وفى المقال حوار على غذاء فى مطعم لاسير (أو صوبة النباتات) فى باريس مع المفكر والروائى ووزير الثقافة فى عصر الجنرال شارل ديجول .. أندريا مالرو .. لقد سأله مالرو فجأة: «هل كتبت ما تريد أن تكتبه عن

عبد الناصر ؟» .. فقال هيكل: «لدى أوراق كثيرة ومذكرات بغير نهاية» .. وقال مالرو: «لا تنتظر .. أبدأ كتابة ما تريده من الآن كاملا .. ثم تصرف فى النشر كما تقتضى الظروف .. أكتب كل شئ على الفور ثم قرر بنفسك ماذا تنشر ومتى ؟».

وسأله هيكل: «هل فعلت أنت ذلك؟» .. قال: «إننى الآن اكتب .. سوف أكتب علاقتى بديجول كاملة فى جزأين .. جزء ينشر الآن وجزء يبقى لا ينشر حتى أذهب إلى الموت أنا الآخر».

والحقيقة أن هيكل لم يسارع بالكتابة عن جمال عبد الناصر .. شغلته حياته الصحفية اليومية فى الأهرام .. وشغلته مساندته القوية حتى حرب أكتوبر للرئيس أنور السادات .. ولم يبدأ هيكل تنفيذ وصية جمال عبد الناصر إلا بعد أن خرج من الأهرام فى فبراير ١٩٧٤ .. فكتب «وثائق القاهرة» .. و «عبد الناصر والعالم» .. و «علاقة العرب بالسوفيت» .. أو «أبو الهول والكوميسير» .. و «الطريق إلى رمضان» .. ثم بعد أن فتحت النيران على جمال عبد الناصر كتب «لمصر لا لعبد الناصر» .. وعندما استقرت الأمور بالنسبة له بعد اغتيال أنور السادات كتب رباعيته شديدة الأهمية عن حرب الثلاثين سنه .. وهى «ملفات السويس» و «سنوات الغليان» و «الانفجار» و «أكتوبر: السلاح والسياسة» .. وبهذه الرباعية يمكن القول أنه نفذ بأمانة وبراعة وصية جمال عبد الناصر.

ولكن .. ما كتبه هيكل عن ثورة يوليو وجمال عبد الناصر لم يمنع الكثيرين من توجيه أسئله بالمئات إليه عن ما جرى وما كان فى تلك الأيام .. فهو «المرجعية» الموثوق فيها لتلك الفترة الحيوية والساخنة من التاريخ المصرى المعاصر .. لقد كان أقرب الذين «كانوا هناك» إلى جمال عبد الناصر .. وهو ما جعل لديه جديد يقوله دائما عنه .. حتى لو كان هذا الجديد تفاصيل صغيرة .. أو تفاصيل رفيعة .. ولو لم تكن هناك أسرار وحكايات فهناك آراء وتعليقات .. وربما مفاجآت.

لقد فوجئت مثلا عندما قال لى: أنه لم ينضم لتنظيم سياسى واحد من تنظيمات الثورة .. هيئة التحرير .. الاتحاد القومى .. والاتحاد الاشتراكى .. وفوجئت أكثر بأن جمال عبد الناصر لم يضغط عليه ويجبره على الدخول أوالانضمام .. وقد قال: «اتركوه» .. ولم يكن من الممكن بعد ذلك أن أفاجأ بأنه لم ينضم إلى الحزب الناصرى .. وقال لى : «إنه يكتفى بأن يكون صديقا للحزب.. ويبرر ذلك بأنه بطبيعته لا يقبل الصف .. لا يقبل أن يكون فى الصف .. «إن التنظيم لا يناسبنى» .. و «شغلى الأساسى هو أن أفكر وأكتب»

.. وهو يتطلب حرية لا تتوافر فى الأحزاب .. «فكل حزب له تنظيمه وقواعده وانضباطه .. والكاتب بطبيعته لا يستطيع أن يقبل قيداً أو تنظيماً».

ولعل أهم ما قاله لى ونحن نتحدث عن الحزب الناصرى ـ وكان الحزب قد أصبح حقيقة فى صيف ١٩٩٢ ـ أن أول ما على الحزب الناصرى أن يفعله «هو تقييم التجربة الناصرية .. لا يستطيع أن يبدأ بدون ذلك .. وأتصور أن يضع هذا التقييم فى برنامجه .. إنه استئناف لما كان قائما فى يوم من الأيام .. ولا تزال ثوابته باقية .. أول شئ على الناصريين فى حزبهم أن يقولوه هو ماذا فعلوا فيما مضى ؟ وأين وجه القصور؟ وأين كان وجه الإنجاز ؟ وماذا كانت النتائج ؟ وكيف يمكن أن نعيد صياغة النتائج والثوابت بأسلوب جديد للحركة ؟».

لكن .. الناصريون ليسوا الحزب الوحيد الذى غرق فى الماضى ولم يقدم رؤية للمستقبل .. إن كل الأحزاب السياسية القائمة فى مصر هى «بقايا مما كان ذات يوم» على حد تعبير هيكل فى حوار جرى بينى وبينه فى صيف ١٩٩٣ .. فحزب الوفد فى رأيه ليس لديه رؤية للمستقبل .. وهو عودة إلى ما كان .. وحزب «العمل» هو بقايا حزب «مصر الفتاة» الذى كان .. والحزب «الوطنى» الحاكم نفسه هو البقية الباقية لكل الجماعات التى كانت تلتف حول السلطة فى مصر.

وقد ظل حزب الوفد ينظر إلى الوراء فى غضب .. وظل يهاجم ثورة يوليو .. وينسب لها كل الشرور التى لحقت بمصر منذ قيامها .. ولم يرحب رئيس الحزب فؤاد (باشا) سراج الدين بنشر رأى هيكل فى جريدة الحزب التى تحمل اسمه ولو فى قضية مثل قضية الأقباط والوحدة الوطنية .. وهى القضية الجوهوية التى استند إليها مؤسس الحزب القديم سعد زغلول وهو يفجر ثورته الليبرالية فى مارس ١٩١٩ لينقل المجتمع المصرى بعدها من مجتمع يستمد شرعيته من الخلافة التركية إلى مجتمع شرعيته من الدستور والبرلمان والقوانين المدنية.

كان هيكل يتناول طعام العشاء على مائدة أحد الأصدقاء .. وكان على الناحية الأخرى من المائدة جمال بدوى رئيس تحرير صحيفة الوفد فى ذلك الوقت من عام ١٩٩٣ .. وكما هى العادة فى مثل هذه اللقاءات جرت المناقشة العشوائية حول ما يجرى فى البلد من أحداث.. وكان أهم ما يجرى من أحداث دعوة من عالم الاجتماع الدكتور سعد الدين إبراهيم لمؤتمر عن العالم العربى من خلال مركز «ابن خلدون» الذى يملكه ويديره على طريقة الجمعيات الأهلية التى تتلقى دعما من الخارج.. واتفق هيكل وجمال بدوى على أن

الأقباط فى مصر ليسوا أقلية ووصفهم بهذا الوصف هو علامة خطر يجب التوقف عندها .. مع كل التقدير والاحترام للذين يرون أن هناك فى مصر ما يسمى بالمسألة – أو بالمشكلة – القبطية .. ودعا جمال بدوى هيكل ليعبر عن رأيه فى هذه القضية فى صحيفة الوفد .. ووافق هيكل .. وكتب رأيه فى صورة خطاب مفتوح إلى جمال بدوى .. لكن .. جمال بدوى لم يستطع نشر الخطاب لاعتراض فؤاد سراج الدين على هيكل .. ووجد رئيس تحرير الوفد نفسه فى حرج شديد .. فقدم استقالته من موقعه .. وعرض عليه أن يصبح كاتبا متفرغا فى الأهرام .. وقد سارعت الأهرام بنشر ما رفضته الوفد .. ولكن أزمة جمال بدوى لم تستمر طويلاً.. وعاد إلى موقعه بعد سحب الاستقالة.

لقد تصور هيكل – على ما يبدو – أن الوفد الليبرالى يمكن أن يحتمل رأيه خاصة فى هذه القضية الخطيرة .. لكن .. الوفد – على ما يبدو أيضاً – كان لايزال متأثرا بالماضى .. غير قادر على تجاوزه .. وهى – على كل حال – ملاحظة صحيحة ودقيقة .. فقضية الهجوم على ثورة يوليو وعلى جمال عبد الناصر لا تزال قضية ضاغطة على الوفد .. لايستطيع الفرار منها .. أو الابتعاد عنها.

ولم ينجح الوفد فى تشويه صورة جمال عبد الناصر .. ولكنه نجح إلى حد كبير فى ترويج صورة وردية عن ما كان فى مصر قبل الثورة.. وتصورت الأجيال التى لم تعش فى تلك الأيام أن عليها أن تجلس فى محطة الماضى تنتظر عودة الملك السعيد ذى الرأى الرشيد الذى سيعيد إليها الزمن الجميل .. وسيحمل الذهب إلى بيوتنا .. وسيغرقنا فى أنهار اللبن والعسل .. وسيضع على موائدنا الكافيار واللانجوست والبان كيك .. وسيعيد إلى الدستور قدسيته .. وإلى القانون احترامه .. وإلى الحرية وجودها .. وإلى الأصول والتقاليد نفوذها .. وسيجعل العميان يبصرون .. والأموات ينهضون .. والفقراء يشبعون .. وأمام هذه الصورة المرسومة بألوان قوس قزح عن مصر قبل الثورة والتى تباع للجائعين للخبز والحرية، سافرت حوالى ٥٠٠ كيلومترا – ذهابا وعودة – لأحاور هيكل فى قرية «الرواد» فى الساحل الشمالى .. كان ذلك فى عام ١٩٩٤ .. وكان قد مر على ثورة يوليو فترة كافية لتقييمها .. حوالى ٤٢ عام.

سألته: ألست معى يا أستاذ هيكل أن الثورة نجحت لأن النظام الذى أسقطته كان ضعيفا؟.. فقالك «النظام الذى أسقطته الثورة كان هشا.. ولو لم يسقطه جمال عبد الناصر لأسقطه غيره .. وبنفس السهولة .. لو عشت مثلنا فى تلك الأيام لآمنت مثل غالبية الناس أن إعصار التغيير قادم .. قادم» .. وسألته: «ألا يشفع لنظام ما قبل الثورة أنه

كان نظاما ليبراليا .. ديمقراطيا؟» .. فقال: «فى العصر الليبرالى الديمقراطى الذى يتحدثون عنه ضرب زعيم الإخوان المسلمين حسن البنا بالرصاص فى الشارع .. وأجهزوا عليه فى مستشفى قصر العينى .. هل هذا معقول؟» .. وسألته: «وهل هذا يختلف كثير عن ما جرى بعد الثورة؟» .. فقال: «أنا سمعت مؤخرا أحد وزراء الداخلية يحذر من العودة إلى العصر الناصرى .. الشمولى .. قلت له: إنه طوال حكم جمال عبد الناصر .. فى ١٨ سنة طبقا لبيان ألقاه وزير الداخلية الأسبق فى مجلس الشعب كان عدد المعتقلين ١٤ ألفا .. النهاردة عندك ٤ أضعاف هذا العدد .. عن أى نظام شمولى يتحدثون؟».

وقلت له: «كان من السهل – كما تقول – أن يمد جمال عبد الناصر ورفاقه أيديهم ويأخذوا السلطة الملقاة فى عرض الطريق .. وهو ما حدث .. لكن .. كيف تحول جمال عبد الناصر من ضابط انقلابى إلى زعيم ثورى؟» .. قال: «جمال عبد الناصر شأنه شأن أى شاب لم يكن يدرك الحقيقة .. كان يرى مظهرها .. لا جوهرها .. لذلك لم يكن فى ذهنه فى البداية سوى هدفين فقط هما: إلغاء النظام الملكى والألقاب .. وتحديد الملكية الزراعية .. وقد نجح فى تحقيق الهدف الأول .. لكنه عندما جاء فى موضوع الملكية الزراعية أدرك أنه لو جرت انتخابات برلمانية فإنه لن يحدث تغيير لأن الانتخابات ستأتى بملاك الأراضى .. ستأتى بنفس الوجوه القديمة .. هنا بدأ التحول فى تفكيره .. أن تتحول الثروة الزراعية والصناعية للناس .. فكان الإصلاح الزراعى .. وتحديد الملكية .. وكان التمصير .. ثم التأميم .. أكتشف أن المصريين لا يملكون بلادهم .. وأكتشف أن عليه وعلى السلطة الثورية الجديدة أن تعيد ملكية البلد إلى أصحابها الحقيقيين .. وهو ما كان .. وهو ما حاسبوه عليه فيما بعد».

وسألته: «إلى مدى أثرت فى جمال عبد الناصر؟ .. فقال: «أعتقد أننى أثرت فيه بقدر ما تأثرت به .. إنها طبيعة العلاقات الإنسانية .. وقد كان مشغولاً .. لكنه كان أيضاً مستعد أن يسمع .. وفى الوقت نفسه اختلفنا .. نعم اختلفنا .. لكن .. عيب أن أذكر ما اختلفنا فيه حتى لا أدعى بطولة على حساب رجل لم يعد على ظهر الحياة» .. قلت له: «هل كان من الممكن الاختلاف معه دون عقاب؟» .. قال مستنكرا: «ليس صحيحا .. فقد كان مفتوحا للمناقشة بلا حدود .. الحملات التى شُنت عليه فيما بعد حرفت كل ما قال وكل ما فعل .. هذه الأمة – تلف وتدور .. تروح وتجىء – ليس فى تاريخها الحديث إلا محمد على وجمال عبد الناصر .. كل منهما كان له مشروعه القومى الذى نجح فى تنفيذه ثم عوقب على ذلك .. وأنا أعتقد أن كل انقلاب على جمال عبد الناصر يضاعف من حالة «الخلخلة» التى نعيشها الآن .. نحن كمن يجلس على جزع شجرة وهو ينشر فيه».

قلت: «لكنك من القلائل الذين عملوا مع جمال عبد الناصر واستمروا معه إلى آخر لحظة فى حياته دون أن ينقلب عليهم» .. قال: «هذه مقولة لم تختبر .. كثيرا ممن عملوا معه استمروا طويلاً إلى جانبه .. بل إن بعضهم استمر أكثر من اللازم متجاوزا عمره الافتراضى .. أعضاء مجلس قيادة الثورة بقوا معظم الوقت .. كانوا موجودين على الأقل من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٤ .. وشوف عزيز صدقى ومحمود فوزى ومحمود رياض وصدقى سليمان وعلى صبرى ومئات غيرهم ... أنا لم أر شخصا انقلب عليه جمال عبد الناصر .. بالعكس الرجل كإنسان من صفاته البارزة أنه صديق حقيقى .. كان يدرك أهمية التحكم فى أعصابه .. وكان يقول دائما: أنا ما أقدرش «أتنرفز» .. وإذا شعرت بذلك لا أقابل أحد .. لأسباب كثيرة منها «الكاريزما» التى كانت تنبع منه وما يستتبع ذلك من سلطة معنوية جعلته قادرا على أن يفعل ما يريد، كان جمال عبد الناصر يشعر بسلطته .. لذلك كان حريصا على ألا يصدر قرارا وهو عصبى .. ثم أنه لم يخن طبقته وظل ينام على سرير فى غرفة نوم هى عهدة لإدارة الأشغال العسكرية .. وبعد أن توفى طالبت الأشغال العسكرية بالعهدة .. هل يصدق أحد ذلك؟ .. رجل غير قابل للفساد احتفظ بولاءاته الطبقية .. هل أحد يتصور حاكما فى العالم الثالث يملك كل هذه السلطة ولا يفسد؟».

ثم كان سؤالى عن ما تبقى من ثورة يوليو بعد مرور كل هذه العقود ووقوع كل هذه الانقلابات عليها؟.. وجاءت إجابة هيكل مطولة .. قال: «لابد أن نتفق على أن هناك فهما خاطئا للتاريخ . مرات نتصور أن حادثا تاريخيا معينا لابد أن يبقى مستمرا بصفاته وذاته وشكله فإذا ما اختلفت نهايته عن أصله فهذا معناه أنه فشل .. نحن ننسى عملية «الهضم التاريخى» .. وهى شبيهة بعملية هضم الطعام .. وثورة يوليو حدث .. لو ظل فى طوره أو شكله لأنتهى بتحطيم نفسه .. نحن أمام حدث استوعبناه وأحدث فينا أثره .. وهذه قضية يجب فصلها تماما عما آل إليه هذا الحدث .. وعندما نسأل .. أين ثورة ٢٣ يوليو؟ .. سنجدها فى مسائل مادية كثيرة أصبحت جزءا من الحياة العادية اليبيعية ونجدها دخلت فى عروق المجتمع ونسيجه .. مثل السد العالى وقناة السويس وشبكة المصانع المتنوعة .. قيمة الحدث التاريخى لأنه يحول مجموعة أحلام إلى جزء من واقع الحياة .. لو ظلت الأحلام أحلاما .. ولو ظلت الثورة فى حالة فوران .. فى حلة تغير مستمر وعنيف .. نكون كمن لم يفعل شيئاً حقيقيا»..

ويستطرد : «أنا عندى السد العالى وقناة السويس وعملية تصنيع ليس لها مثيل فى العالم الثالث وهى ناجحة .. ليست فاشلة كما يقال .. صروحها موجودة .. وجدناها فى الأوقات الصعبة .. ولا تزال تخدمنا .. ليس هذا فقط .. بل يضاف أنها كانت متميزة .. الاتحاد السوفيتى اقترح أن نبدأ بالصناعات الثقلية لكن جمال عبد الناصر رفض وأصر على أن يبدأ بالصناعات الاستهلاكية .. وأنا حضرت هذه المناقشة فى موسكو عام ١٩٥٨ عندما ذهبنا للاتفاق على أول برنامج تصنيع .. كان رأيه أن عنده قطنا وقصبا ونحتاج لسماد وأسمنت .. فلابد أن تبدأ الصناعة من هذا المحور . .وهذا ما جعلنا لا نتعرض لما تعرض لأى نقص فى معظم المنتجات الاستهلاكية .. وهذا ما جعل الاتحاد السوفيتى - الذى أخذ منهجا مضادا - يتعرض للحرمان والأنهيار .. إذن على المستوى المادى حققت الثورة إنجازات ضخمة وهى إنجازات استوعبها المجتمع وأصبحت جزءا من حياته اليومية وأنا أعتبر ذلك نجاحاً..

وعلى المستوى المعنوى .. أنا أتوقف طويلاً عند التعليم .. البعض يرفض المجانية .. يرفض أن يتعلم ابن البواب .. والبعض يرى أن التعليم مستواه انخفض .. وأنا لا اعترض .. لكن نصف متعلم أفضل من جاهل .. فالجاهل لا يمكن أن يستوعب التكنولوجيا .. أنا ليس عندى مانع أن يكون مستوى التعليم يثير الشكوى .. لكن عندى معيار واحد للتعليم هو أنه المنفذ الوحيد للحراك الاجتماعى .. ثم أن كثيرا من النابغين خرجوا من نظام التعليم الحكومى الذى نرفضه .. مثل دكتور مجدى يعقوب .. كذلك فإن التعليم فتح آفاق التغيير .. فلم تعد المهن تورث كما كانت قبل الثورة .. فليس مكتوبا على ابن الفلاح أن يظل فلاحاً .. ولا على ابن البواب أن يظل بوابا .. وهكذا .. ومع ٢٣ يوليو ارتبطنا بالعالم وبالمنطقة التى حولنا .. وارتبطنا بالعصر، لقد استوعبت الثورة العصر .. وعندما فقدت قدرتها على ذلك شاخت وانتهت»..

كان لابد أن أساله: متى حدث ذلك؟ .. وقد قال: «نستطيع أن نقول أن العصر بدأ يختلف ابتداء من عام ١٩٦٥ .. وفى هذه الفترة كان العالم يتغير .. وأنا واحد من الناس الذين يعتبرون كارثة عام ١٩٦٧ نتيجة طبيعية لعدم الوعى الكافى بأن العالم من حولنا يتغير .. وكان عزرنا الوحيد هو أن العالم نفسه لم يكن يعى أنه يتغير .. ابتداء من عام ١٩٦٥ جاء الكومبيوتر والفضاء ووسائل الإنتاج الحديثة .. وفى هذه الفترة حدثت أزمة الاتحاد السوفيتى الداخلية .. وحدثت أزمة الولايات المتحدة بسبب حربها فى فيتنام .. إننا لم نستوعب التغيير ولم نستوعب آثاره على القوى الكبرى .. على سبيل المثال نحن فى

عام ١٩٦٧ لم نستوعب أن الاتحاد السوفيتى يملك أن يسمح بان تواجهه أزمة كالتى واجهناها .. وفى واقع الأمر لم يكن الاتحاد السوفيتى قادرا على مواصلة التحدى أكثر مما فعل .. اختلفت قواعد اللعبة فى عام ١٩٦٧ عما كانت عليه فى عام ١٩٥٩ .. لكننا لم نستوعب ذلك .. فوقعت كارثة الهزيمة».

وكان سؤالى الأخير فى هذا الحوار: «هل ثمة تشابه بين الوضع الذى كان قائما قبل الثورة والوضع فى مصر الآن بعد مرور أكثر من ٤٠ سنة عليها؟» .. وقال: «لا أريد أن أقول تشابها إلا من حيث كم الخطورة .. نحن الآن فى مرحلة شديدة الخطورة .. لا تقل فى نوعها عما كنا عليه قبل الثورة .. لكن ليست مثلها .. الأسباب والمظاهر مختلفة».

ولا يزال هيكل يدافع عن الحلم الذى جاء به جمال عبد الناصر وان لم يخف انتقاداته لتنفيذ الحلم .. وهو يؤمن بأن هذا الحلم ما زال صالحا .. لكنه يحتاج إلى بعض الوقت حتى يسترد الناس ثقتهم فيه .. وربما لا يكون الوقت بعيداً .. لأن كل محاولات نفى جمال عبد الناصر قد نفت نفسها .. فعاد الناس يبحثون عنه من جديد .. وهذه قصة طويلة .. تبعتها قصص ووقائع وأحداث أخرى مثيرة وصارخة جرت لهيكل ولمصر وللعالم منذ رحيل جمال عبد الناصر وحتى الآن .. تستحق قليلا من الانتظار.

الكتاب الثانى

هو والسادات ومبارك

الفهرس

صفحة

الموضوع

الفصل الثالث

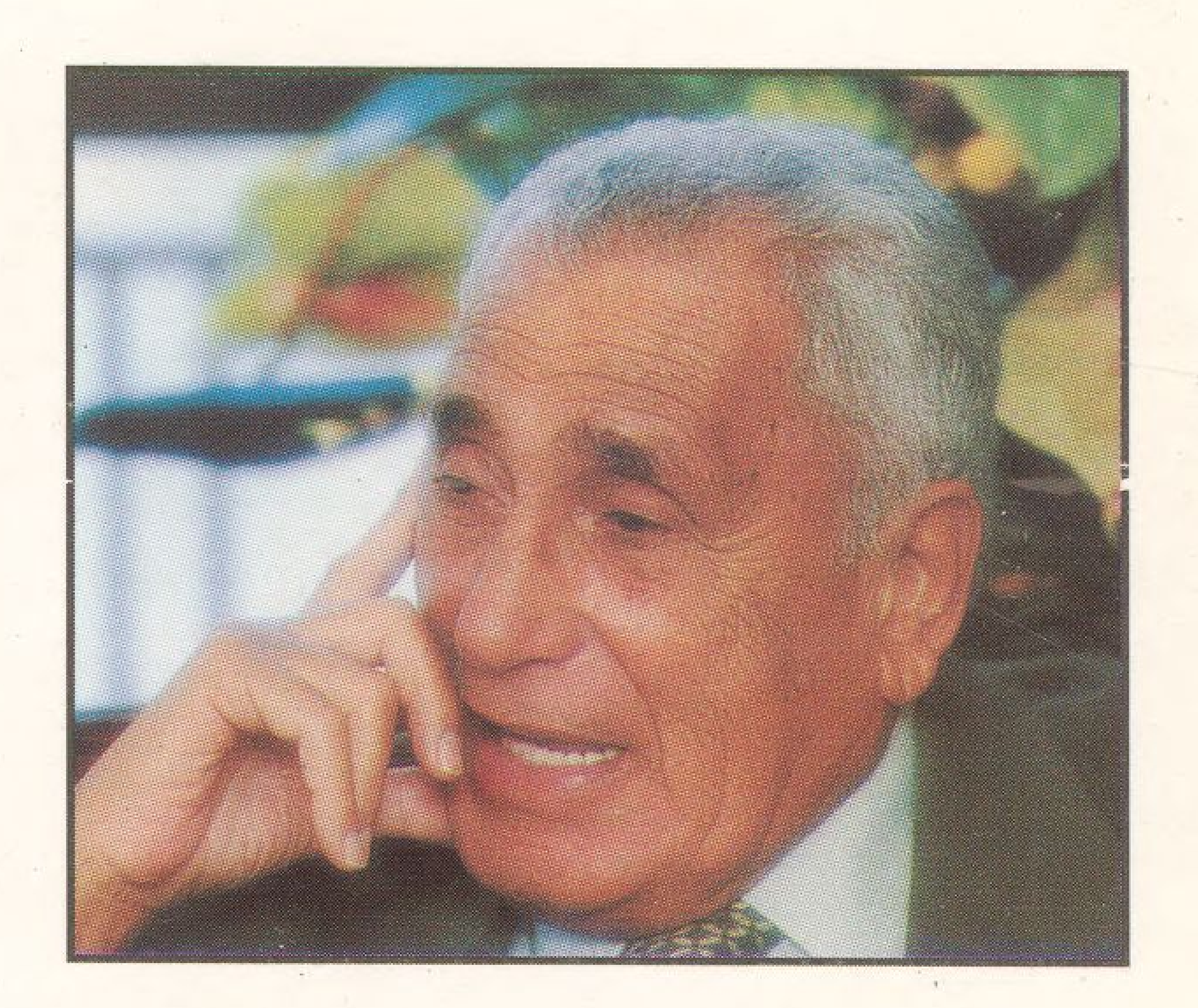
الفصل الرابع

الفصل الخامس

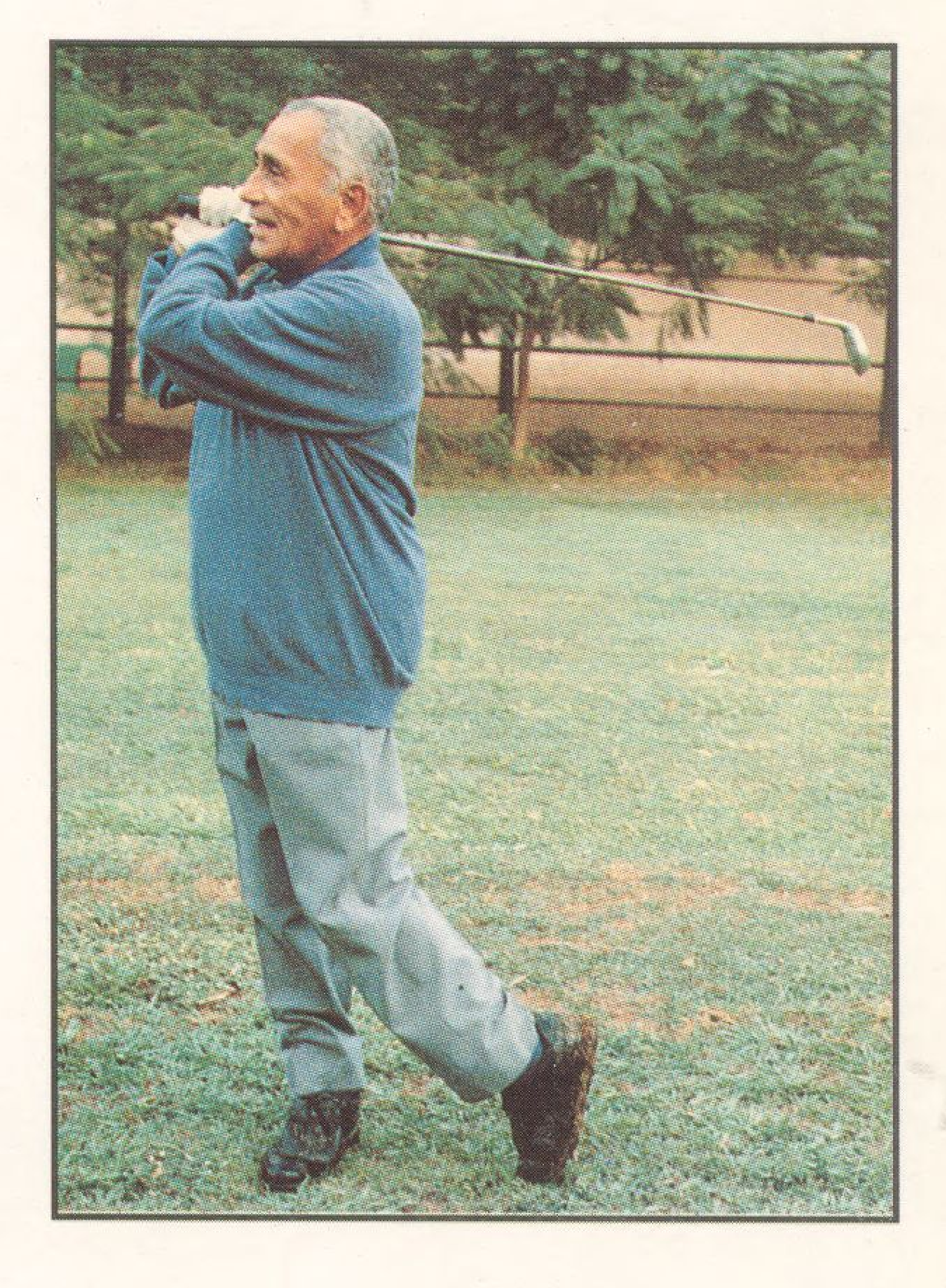
هيكل

الحياة . الحرب . الحب









هذا الكتاب

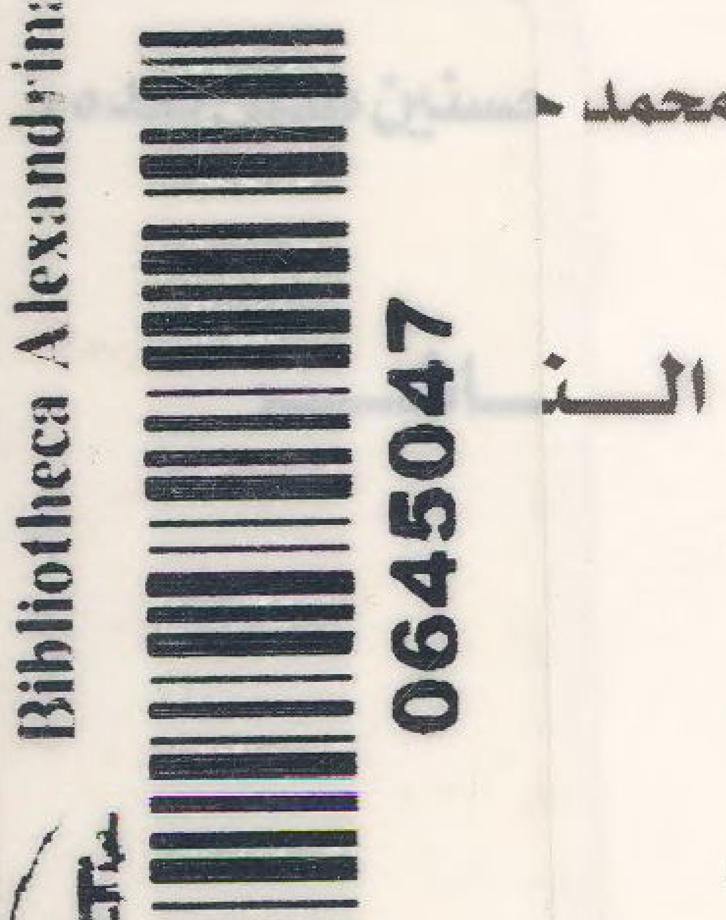
لأول مرة يكشف هذا الكتاب الحياة الشخصية والعائلية والخاصة للكاتب الصحفى المثير للأعجاب والمثير للجدل : محمد حسنين هيكل .. ويروى تفاصيل لم تنشر من قبل .. كيف بدأ مشواره فى بلاط الصحافة حتى وصل إلى قمتها وتربع على عرشها .

وينفرد مؤلف الكتاب عادل حمودة بنشر أسرار علاقة محمد حسنين هيكل بالرئيس جمال عبد الناصر وصراعة مع مصطفى أمين وكيفية ضخ دماء جديدة فى صحيفة الأهرام التى كانت قد شاخت مع الأيام قبل أن يتولى رئاسة تحريرها .. وقصة مقال «بصراحة» وتأميم الصحافة .. وعلاقتة بالشيوعيين والأخوان المسلمين .

بالوثائق والصور النادرة يواصل عادل حمودة رواية الجانب العاطفى فى حياة محمد حسنين هيكل وقصة زواجه وتفاصيل حياته اليومية و معاركه التى لا تنتهى .

إنه كتاب لن يجرؤ أحد أن يكتب عن محمد حسنين

الناشر





الفرسان للنشر